﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾

محسن حسين العواجي

العبيكان
Obekan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العواجي؛ محسن حسين

إنك على الحق المبين./ محسن حسين العواجي.- الرياض، ١٤٣٧هـ

٥٤٤ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٦-٨٧٠-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الإيمان (الإسلام) ٢- الوجودية أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٠١٦ / ١٤٣٧

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

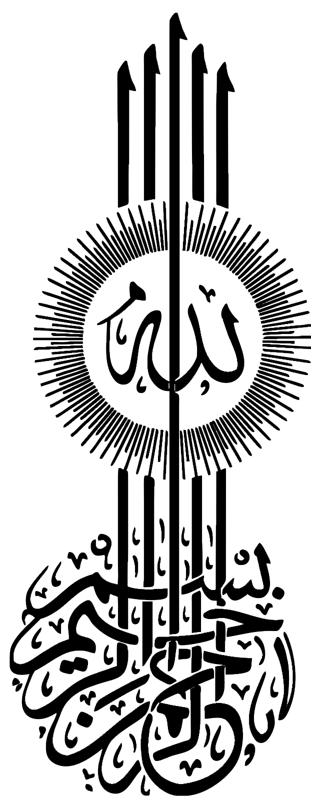
متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣ ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

*****

الإهداء والمقدمة

إليك أنت أُخيّ، وأنتِ أُخيّتي، بل إليك أيها الإنسان المكرم، إليك يا من وجدت نفسك موجودًا في هذا الوجود دون أن توجد نفسك، تجزم أن من أوجدك هو أقوى وأقدر منك، وقد يمضي عمرك حائرًا! قلقًا! صامتًا! تتساءل عن أشياء.. عجيبة.. مخيفة... كبيرة! هكذا تراها! كلما ابتعدت، أو تباعدت عن معين الوحي، تتلمس خيوط الإجابة الشافية عنها بصمت، تأوي إلى فراشك، فيحجبك لحافك عما حولك، دون أن يحجب عنك سيل أفكارك المتدفق عبر الفضاء، تسبح وحدك في عالم الأفكار، التي تفوق حجمك وسعة تفكيرك! خائفًا تترقب! وجلًا تتوجس! تخشى وحشة التيه الفكري، تنقِّب عن مخارج السلامة من عالم الوجود المخيف من حولك! قلقًا من ماضٍ خرج من يدك، تحاول الأُنس بذكراه، ثم تتذكر أنه (وحش!) قد التهم آباءك وأجدادك فتخشاه، ومن حاضر متفلت منك، تحاول الإمساك به دون جدوى، ومن مستقبل مرعب، لا تدري ماذا يخبئ لك ولوالدك وولدك وزوجك!

تساؤلات تترى: ليست جديدة، ولا وحيدة، ولا فريدة، قد سألها من كانوا قبلنا، سألوا: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢] وعن: ﴿ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والحقيقة الكبرى التي سنبدأ منها وإليها ننتهي: أن الحق والحقيقة في هذا الوجود موجودان بك أو من دونك، لا يثبتان، ولا ينعدمان وفقًا لتصوراتك، أما أنت فطالما أنك صادق مع نفسك في البحث عن الحقيقة منطلقًا من نور الفطرة، فقد تشرفت بهذا الحق، فلن تراع، ولن تخاف أبدًا؛ لأنك بهذا الإيمان موعود بالأمان، من ربك الرحمن.

هنا مع هذا الكتاب، سنعيش مكاشفة صريحة مع الذات، حول قضايا الوجود والغيب والقرآن والأنبياء والقدر والخير والشر والموت والبعث والصراط والجنة والنار، وفهم المآلات الماضية والحاضرة والمستقبلية وأسرار الزمان والمكان، من خلال رحلة

فكرية (خاصة) وربما تكون (جريئة)! رحلة ليست شاقة، بل شائقة، رحلة الواثقين باليقين، سنحلّق مستمتعين مع عالم الأفكار، سنقتحم محظورات العالمين، ونعيش مع مباحات رب العالمين، فحيا هلّا إلى مائدة اليقين، حتى نعلم أننا وإياك على الحق المبين، وأنك لست وحدك في هذا الوجود، ولست الوحيد المتعطش لمعرفة أسراره، ربما تكون الأفضل حالًا من بين بني جلدتك، لقد سبقك من سأل: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ [يونس: ٥٣]، فكان الجواب الأوحد لهم، ولنا، ولمن بعدنا هو: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

أضع بين يديك عصارة جهد متواضع دام قرابة ربع قرن، فكرةً وقراءةً وتأليفًا، تدرجت مادته بالتوازي مع مراحل العمر والله المستعان، ومع تطور وهج ألوان طيف الفكر حول قضية الوجود الكبرى التي لا يستكثر على طرحها مدة ولا جهد، كلما قررت نشره، أرجع البصر والعقل كرتين لأجد نفسي في مرحلة عمرية تتطلب إعادة القراءة مرات وكرّات، حتى وصلت إلى مرحلة استحقاق النشر، يقينًا مني بأن مراحل العمر تعكس فكر المؤلف، وأن خير تلك المراحل هي مرحلة النضج والتوازن، كيف لا، وآراء الفلاسفة والمفكرين تتقلب مع مراحل العمر أيضًا، بل وحتى الفقهاء تتغير فتاواهم، ولولا فضل الله علينا ومنّته بإرسال الرسل لما استطعنا الوصول إلى هذا الأمان بالإيمان، ولما أقدمنا على نشر مثل هذه المكاشفة الصريحة مع الذات، ونحن واثقون كل الثقة بأمان اليقين، فلعلك تجد فيها بعض ما تبحث عنه، أو تفتق لك ما يُمكنك مواصلة البحث فيه على بصيرة من الله.

ربما تكون غنيًّا عن موضوع هذا الكتاب في يومك هذا، ليقين راسخ وإيمان مسبق قد منّ الله به عليك، ولكن تأكد، وأنت تعيش في عالم التقلبات والأحزان والإحباط الذي معه لن تستغني عن ضرورة جرعة تحصين ومناعة ضد ما قد يواجهك مستقبلًا في عصر هذا الانفتاح المعرفي المتفجر، فالكتاب يطمح إلى تحقيق أحد هذين الهدفين أو كليهما: إما زيادة الاقتناع واليقين والمناعة والتحصين، وربنا قد دعا المؤمنين وهم على الإيمان إلى أن يؤمنوا! وإما إلى علاج الشكوك والأوهام والوساوس السرية والعلنية وإثبات أنك في نهاية المطاف على الحق المبين، وأنك تحت رحمة رب العالمين، تذكيرًا

لك كي تتطهر باليقين من أوحال وساوس الشياطين، فتسعى إلى رعاية إيمانك وتقويته والحفاظ عليه.

تعالَ معي في رحلة فكرية مباركة، فحياك ربي من صديق صدوق محب، ضع يدك في يدي، ولنضع أيدينا بيد كل متعطش آخر يبحث عن الحق، وليأنس بعضنا ببعض قاصدين طريق النور والأمان؛ كي تعلم أنك ما دمت تفكر بحرقة مشفقًا على الخاتمة، فأنت آمن مؤمن في مأمن بهذا الإيمان؛ لأنك قلق على شيء عظيم أنت تملكه، فانعم بإيمانك هذا، وما بعد هذه الدنيا، فأنت الذي تحدد طريقك بنفسك، لقد ترك الخالق لك الخيار في النهاية، وقدم لك خارطة طريق النجاة وطريق الهلاك واضحة جلية، فمردك الحتميّ إلى من أوجدك أصلًا، وأمسك بقدرك كله إلى الأبد، إنه ربنا الواحد القادر الحي الذي نستودعه شأننا كله، مسلمين مستسلمين مستمسكين بعهد نبقى عليه بكل يقين إلى أن يجمعنا عنده: ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤- ٥٥].

لقد خاض الخائضون من قبلنا محاولين كشف أسرار هذا الوجود، فلم يصلوا إلى نتيجة، فلنتدارك أعمارنا، متعظين بمن سبقنا ممن أفنى عمره مهرولًا وراء سراب المعرفة البشرية، معرضًا عن أخبار الوحي، حتى وجد نفسه مصطدمًا بحقيقة ضعفه وعجزه وجهًا لوجه أمام المصير المحتوم، وسواء آمن الناس بالغيب أم كفروا به، فلا جوابًا شافيًا عن كل تساؤل غيبي، ولا حقيقة مطلقة سيصل إليها الإنسان عن سر هذا الوجود، إلا من الوحي المنزل من عند الله وحده، الوحي الذي وقف، ويقف، وسيقف، شامخًا متحديًا أمام قامة الزمان إلى الأبد، أمام الإنس والجان على حد سواء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

تعالَ ننعم سويًّا على مائدة الخالق العظيم، استجابةً لنداء ربنا القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، أو

تقويةً لإيماننا الموجود بفضل الله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًاۙ ﴾ [المدثر: ٣١]، أو للثبات عليه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾[إبراهيم: ٢٧]، أو أن نجمع ذلك كله، مستعيذين بالله من كل وسواس وشك يعترضنا في حياتنا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، متضرعين إلى الله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

أقدم لك هذا الكتاب: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[النمل: ٧٩].

*****

الفَصْلُ الأَوَّلُ

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾



﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾

[آل عمران: ١٨٧]

نحن خلق من بين مخلوقات الخالق، لسنا الأوائل، ولن نكون الأواخر ممن يتطرقون إلى هذه القضايا الوجودية، ندرك جيدًا أن الكتابة في هذا الأمر الحساس عرفًا، والطبيعي عقلًا، والمطلوب بيانه شرعًا، هو ميدان فسيح وحق مشاع قديمًا وحديثًا بين البشر قاطبة، ويتطلب مجهودًا استثنائيًّا ووقتًا كافيًا، كتابة تلاقي ما في الصدور من تعطشٍ للمعرفة وتلمسٍ للحقيقة، إنها ليست محاضرة مرتجلة، ولا خطبة عابرة، ولا حتى كتابًا تقليديًّا ترتب أورقه، ثم تنمق، وتغلف ليركن في زاوية نائية في إحدى المكتبات، بل هو تدوين للغوص الممكن في أعماق أسرار هذا الوجود للوصول إلى الحقيقة الممكن إدراكها بشريًّا، ومن ثم إعلان التسليم والاستسلام لما لم، ولن، ولا يمكن إداركه بشريًّا، من الحق المبين، إلا بالوحي الذي يخبرنا عن أشياء، فتصبح شهادة، ويسكت عن أخرى، فتبقى غيبًا.

إن التوقف المحمود عن التفكير في هذا الأمر هو الذي يكون عند الحد الفاصل بين الممكن وغير الممكن إدراكه بشريًّا، وهذا أمر يفرض نفسه عند كل ذي لب، سرًّا أو علانيةً؛ لأننا أمام أمر جلل، نحتاج معه إلى شجاعة فريدة وثقة بالنفس دون خوف من الخوض فيه، الخوف الذي يولد في العقل الباطني توجسًا سلبيًّا، وكأننا أمام إيمان هش، لا يصمد أمام المستجدات والبراهين، أو أمر مستور لضعفه نخشى انكشافه، ونحزن لذلك، كلا ثم كلا، وربنا يقول: ﴿**وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فواجبنا بيان هذا الحق المبين؛ كي نلامس حقيقة حديث النفس الصريح المباشر مع الذات، فنقدم لها طوق النجاة، بعيدًا عن تكرار الإحالة إلى بعض تلك المصنفات (التقليدية) التي ربما لا تروي العطش المطلوب في هذا الموضوع الحيوي المهم.

وجوب البيان وتحريم الكتمان المنصوص عليه في القرآن والسنة يفرض على القادرين نوعًا من الجرأة الملامسة لأوتار العقول الباطنية؛ وذلك بمكاشفة صريحة جدًّا في قضايا الوجود والغيبيات بقدر المستطاع، لقد كان البيان ضرورة ملحة في الأوضاع الطبيعية الماضية، وفي هذه المرحلة تحديدًا أصبح أكثر ضرورة وإلحاحًا، ضرورة تسمح لنا أن نقتحم بعض المحرمات العرفية بكل جرأة؛ لأنها في الأصل مباحات شرعية؛ وذلك بهدف المقاربة أكثر فأكثر من مصارحة النفس مع ذاتها بصدق وأمانة فيما نوقن به تمام اليقين بأنه الحق المبين الذي يبحث عنه كل ذي لب، كيف لا، والحق ضالة المؤمن، وهو أحق به أنّى وجده.

هذا الكتاب لم (يأتِ بما لم يأتِ به الأوائل)، بل المقطوع به يقينًا أنه لم ولن يكون الأول ولا الآخر الذي يتناول هذا الشأن الكوني المثير للجدل (قضية الوجود) في مرحلة من مراحل الإنسانية عبر التاريخ، لكنه محاولة جادة من نوع خاص لمصارحة النفس من داخلها بشجاعة نسبية، نقتحم بها وبالحق المبين بعض قلاع الغموض المحصنة سابقًا، بعد أن أوشك (الملحدون) والمشككون على مداهمتها بالباطل بسراب من الأوهام الواهية التي لا تصمد أمام قوة الحق المبين، لن نصمد في وجه جولة الباطل فحسب، بل سنقذف بالحق على الباطل، فيدمغه، فإذا هو زاهق بحول الله، مستشهدين بتجارب السابقين ومآلاتها.

إنه لا خيار لنا في هذه المرحلة الانفتاحية إلا تحرير هذه المسألة تحريرًا شافيًا كافيًا بالبيان الصريح المدوي دون أي تردد أو وجل؛ لأن هذا أمر يفرضه واقع فكري مضطرب، يوجب على كل قادر الصدع بالحق وإعلان الحقيقة وسد الثغرات التي قد يتسلل منها الشيطان وأعوانه على قلوب مؤمنة مشفقة تتقطع ألمًا وحسرة من القلق على إيمانها الثمين، كان لزامًا على مثل هذا الخطاب أن يظهر للعلانية خاصة ونحن نعيش هذه التقلبات العالمية والأصوات المرتفعة هنا وهناك، وخاصة نبرة ظاهرة الإلحاد التي وجدت من بين المخدوعين البسطاء من يروجها، ويضخمها، ويتوقع أن وراءها شيئًا يستحق الوقوف عنده، نرى أنه من الضروري كشف زيف هذه (الفزّاعات المروّعة)، بالمصارحة الصادقة مع النفس وتفعيل السجال الأمين مع الوجدان الهائم على وجهه

أحيانًا في تيه الفكر والتفكير والحيرة حول عالم الوجود والفناء والبداية والنهاية، بعد أن أصبح هذا البيان واجبًا شرعيًّا وضرورة عقلية للإيمان الراسخ الواثق، مستجيبين بكل ثقة لهذا النداء العظيم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

*****

الأوجب في وجوب البيان

إن برهان ثبات صحة الوحي وضرورة التسليم به ابتداء ورسوخه في النفوس رسوخ الجبال الراسيات، نابع من أن الذي أوحى به للنبيين قد تكفل بحفظه، وهو القادر على ذلك، ولا يتم قضاء ولا قدر ولا حادث ولا علة ولا معلول في هذا الوجود إلا بإذنه، وها هي الحقيقة ماثلة أمام العيان: وحي مكتوب محفوظ منذ عشرات القرون يعبد الناس به ربهم، لم يتغير قط، كأنه لم يرتبط بالزمن مطلقًا، تغيرات سياسية واجتماعية وحضارات تولد وتفنى والوحي باقٍ، إن ما يجب التنبيه إليه هو أن تلقي الناس لنصوص هذا الوحي وفهمهم له أصبح ينطلق من معطيات وظروف جديدة تختلف عن تلك الأجواء الفكرية النقية التي كانت إلى حدٍّ ما في العهد العباسي، وإلى حدٍّ أكبر في العهد الأموي فضلًا على عهد الخلفاء الراشدين النقي، ناهيك عن عهد النبوة الطاهر الأنقى، إننا نعيش اليوم مرحلة انفتاح إعلامي وحرية فكر وتواصل عالمي وتداخل حضارات ومستجدات تقنية غير مسبوقة في تاريخ البشرية، ومع إيماننا بعدم تعارض ذلك مع صريح وصحيح الوحي ونصوصه، فإننا سنحتاج إلى مثل هذه المسامرة الذاتية فكريًّا فيما بيننا؛ كي نعيش ساعاتنا وأيامنا وأعوامنا وأعمارنا كلها ونحن واثقون بما بين أيدينا من وحي وكتاب وإسلام وحياة أخرى، وأنها متكيفة مع كل مستجد دون أي حرج.

لن يقتصر البيان على المشاركة في مواجهة هذا الضجيج المسموع بين الناس حول الوجود والإيمان والكفر والإلحاد فحسب، بل يجب أن يتناول ترجمة ذلك الهمس الخفي

المحتدم بينك وبين نفسك سرًّا، ومن ثم تفسيره على ضوء البيان الواجب، وستلاحظ أنك وغيرك معنيّ بهذا الخطاب على حد سواء، فليست العلاقة محصورة بين واعظ وموعوظ، بل الكل واعظ وموعوظ، وإن كان الخطاب موجهًا لك تخصيصًا وتقديرًا لا اتهامًا وتشكيكًا، بغض النظر عن قوة الإيمان أو ضعفه، ولكنه الخطاب العام الذي يتلقاه الكل، بهدف تثبيت الإيمان وترسيخ اليقين بالرحمن.

يقتضي البيان أن أعتقد أنا وتعتقد أنت أن أهم ما يمكن أن يهمك في هذا الوجود على الإطلاق، هو الإيمان بالله، الأمر الذي أصبح أكثر أهمية من نفسك وحياتك وموتك ومالك وولدك، ويكفي ارتباط عالم الآخرة الباقية به، فإن صلح صلحت آخرتك، وإن فسد فسدت، فما عليك إلا أن تكون واثقًا من نفسك في تحري هذه الحقيقة الكبرى من منابعها لمعرفة بعض أسرار هذا الوجود ومحاولة فهم الموجود في عالم الدنيا التي وجدت نفسك فيها متواضعًا أمام عظمة ما حولك من مخلوقات هائلة، فكيف بعظمة خالقها، ويقتضي البيان أن تكون صادقًا مع ذاتك وعقلك الباطني؛ كي تثق بنفسك، وترضى بإيمانك، وتدع عنك القلق الطارئ، ولتعلم أنه مهما بلغ إيمانك فلن تبلغ درجة إيمان الأنبياء الذين احتاجوا هم بأنفسهم إلى تثبيت وطمأنة ليس من واعظ بشري مجتهد فحسب، بل من رب العالمين الذي خلقهم، واصطفاهم، وأرسل إليهم الملائكة، وأوحى إليهم، وأطلعهم على المعجزات والآيات، ويعلم سرهم ونجواهم وهو علام الغيوب، فما استغنوا عن عنايته ورعايته وصناعتهم على عينه إيمانيًّا، بل لم يترددوا في سؤاله مباشرة عن بعض ما قد يدور في عقلك الباطن هذا اليوم وبالأمس وغدًا!

*****

أمان الإيمان بالخالق

قضية الإيمان والاعتقاد مسألة روحية وحساسة جدًّا، لا بد أن تتشربها النفوس رويدًا رويدًا، بمواصلة التذكير وإرسال الرسل تترى، وهذا يعني أن الفهم الصحيح

لهذه القضية يتطلب تهيئة خاصة واستعدادًا نفسيًّا كاملًا، فنحن أمام هدف في غاية الضرورة الوجودية، ولا يتحقق إجبارًا بالإكراه، ولا بالأوامر العسكرية، ولا بالمؤتمرات ولا القرارات، ولا بالرؤى والأحلام والأماني، ولا بالتلقين السطحي، إنما يتحقق بالاقتناع الحر فقط وفق هذا الاختيار الرباني العادل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]..

بيان هذا الأمر يحتاج إلى تحييد كل شيء يحول بيننا وبينه، وتفتق العقل وتفرغه تمامًا للإنصات، وقابليته للاستيعاب الهادئ، يحتاج أيضًا إلى صفاء الذهن والاسترخاء التام والواقعية مع النفس، ولكي يبلغك هذا الخطاب بقوة، لا بد أن تتخلص من هموم الدنيا وانشغالاتها بقدر المستطاع، وأن توظف أقصى ما يمكن توظيفه من مسارات عقلك وتركيزك لاستيعاب الموقف الجلل، بعيدًا عن التوتر والتشنج وكل ما يزعج، أو يشوش، أو يشتت الذهن، ستحتاج إلى تركيز خاص وأنت تقف على مشارف الواقعية الفكرية بعيدًا عن المثالية المصطنعة، أو الطهرية المزيفة، أو التنظير المنفصل عن حقيقة ما يدور في الصدور من أفكار وتساؤلات فطرية طبيعية، بهذه الطمأنية سيرتفع صوتك أمام ذاتك في مناقشة علنية شجاعة تعكس تلك المحاورات الذاتية الصامتة، إنها محاورة جادة بصوت مرتفع، ولكن بلطف ورفق حول الحقيقة المسكوت عنها، والمستحى منها، والمتردد فيها مجاملة للمجهول، بينما الواجب الصدع بها وتبيانها شرعًا وعقلًا؛ لإنقاذ الأجيال المتعطشة للنور من تبعات إخفاء الحق والحقيقة عن أعظم قضية تهمك على الإطلاق، إنها قضية معرفة بدء الخلق الأول وعالم الوجود ومآلاته كلها بعد هذه الحياة، وعلى رأس ذلك كله الإيمان بوجود الله، وغير ذلك من أمور الغيب المتفرعة عن هذا الأصل العظيم، الذي هو أعظم الأصول المعرفية على الإطلاق، ألا وهو الإيمان بوجود الخالق ﷻ أولًا، ثم يأتي بعده تباعًا الإيمان بكل شيء معرفي في هذا الوجود من بداية العالم إلى نهايته.

ضرورة بيان هذا الأمر العظيم اقتضت تبسيط اللغة وتيسير الخطاب للفهم، وانتهاج العفوية في البحث، وتكرار التذكير في كل فصل من فصول هذا الكتاب؛ لأن

مسارات الفكر هذه لا بد أن تعرض عليّ وعليك، وكأننا نتجول في حديقة فكرية قديمة وحديثة، فيها أزهار جميلة لا تخلو من بعض الشوك أحيانًا، وفيها ما قد يعجبنا وما لا يعجبنا، لكننا بكل تأكيد لن نكون محايدين في تلقي مادة هذا الكتاب، بل سنجد أنفسنا معنيين بكل ما ورد فيه؛ لأنه مهما كان إيماننا فنحن في حاجة إلى أن نعيش في نهاية المطاف أُنسًا كافيًا من الوحشة الوجودية المطبقة علينا، بل من الوحشات التي ربما لاحقتنا همسًا داخليًّا، أو وسوسة خارجية، أو شبهة تحتاج إلى من يجلّيها.

إننا على يقين بأن حالنا في الدنيا لن تدوم على حال، فلم لا نستعد ليوم الترحال للحياة الباقية، ثم نواجه تقلبات الدنيا بابتسامة الواثقين، ونستمتع بعقولنا، فلا نقلق مما نلاقيه أمامنا، وما رحلتنا هذه إلا نزهة فكرية شفافة هادئة راقية، نريد الاندماج في أجوائها، إننا لا نحمل أي اتهامات مسبقة تجاه بعضنا، بل نحن على الفطرة والبراءة الأصلية على حد سواء، لا نحتاج إلى مصحّة نفسية أو مركز إعادة تأهيل عقلي، وكيف يكون ذلك وأنت إنسان سوي قد خلقك ربك في أحسن تقويم، وأنبتك فكريًّا كي تعلم - تحت أي ظرف - أنك طبيعي الفكر سليم العقل والجسم، متكيف مع بيئتك ومتوازن مع ما تدركه مما حولك، وعندما تدور في نفسك تساؤلات وجودية عابرة فاعلم أنها طبيعية جدًّا، غير مخيفة ولا مقلقة في حقيقتها، وإن رآها بعض المجتهدين غير ذلك جهلًا منهم وتحفظًا، وطرحها الصريح مع من يملك الجواب للنقاش المنضبط خاصة في هذه المرحلة خير من السكوت عنها واحتقانها في الصدور دون جواب شافٍ، ينزع منها خطورة التضخم والتورم الوهمي الذي ربما تسبب في اضطراب إيماني مؤقت سرعان ما يزول بالتذكير المباشر حتى يستقر الأمر في نهاية المطاف على يقين ثابت بفضل الله، وكلنا ذلك البشر.

*****

تساؤلات مشروعة

لقد خلقنا الخالق، وقسم بيننا العقول والأفهام كما قسم بيننا الأرزاق والآجال، وإن من أشد أصناف المصادرة والوصاية أن يفرض إنسان (ذكي) رأيه على أقرانه،

فكيف إذا تسلط شخص متوسط الذكاء بفرض رأيه على من قد يكون أذكى وأفقه وأعلم منه، لمجرد أنه ملك أداة التسلط المادي والحسي والمعنوي، فكبس بها فسحة الرأي والاجتهاد إلى أدنى من مستوى عقول أواسط الناس، فيشعر الأذكياء والمتميزون بأنهم صامتون وكأنهم نزلاء في (السجن الفكري العام)، فتنشأ على إثر ذلك التشققات والانبعاجات والحدة في المواقف الفكرية، إذ يصعب على الأسوياء الحياد أمام تحديات الوجود واستفسارات العقول الحائرة بما تراه حولها، إنه غرور الإنسان المتسلط الذي وجد نفسه عند نفسه (شيئًا)، بعد أن: ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ثم كابر وطغى على بني جنسه، وتجاهل أنه من حق البشر جميعًا أن يفعّلوا عقولهم للوصول إلى أقصى درجات الإيمان المتناغم مع تلك العقول النيرة كي يعلموا علم اليقين أن وراء وجودهم هذا إرادة ومشيئة وقدرة عظمى سابقة ولاحقة لهم، وأي مصادرة أقسى من أن يحال بين العقلاء وبين الوصول إلى هذه الحقيقة.

الخطاب هنا موجه للجميع على حد سواء، أرجوك ألا تحتقر ذاتك، ولا تحطم إرادتك، ولا تنسَ أن مجرد وجودك في هذا الكون يعني أنك كائن سوي تفكر بعقل، وتستشعر ما حولك من موجودات، وإدراكك للوجود يعني أنك موجود، ولن يكون لك وجود ما لم تدرك الموجودات حولك، فأنت إذا (سألت) فلأنك موجود عاقل تسأل أسئلة مبررة ومشروعة من وحي وجودك وبسبب عقلك، سواء نطقت بها أم أسررتها في نفسك، ومن الطبيعي جدًّا ألا يستثنى أحد من أن تمر عليه في أي مرحلة من مراحل عمره تساؤلات روتينية متكررة، مثل: من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ ومن جاء بي إلى هذا الوجود؟ ومن أين أتيت أصلًا إليه؟ وإلى أين سأذهب بعده؟ ماذا بعد فقدان أمي وأبي؟ ماذا سيحدث لي ولأبنائي وأحفادي من بعدي؟ من أين ابتدأت هذه السلسلة الوجودية وإلى أين ستنتهي؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ ومن وراء هذا كله؟ من سيفنى، ومن سيبقى؟ أين المفر، وأين سيكون المقر؟

تساؤلات لم تولد معي ومعك، ولن تدفن معنا بعد وفاتنا، بل لم تكن لتظهر بدرجة القوة نفسها في جميع مراحل أعمارنا، تذكر جيدًا أننا لم نكن قادرين على طرح هذه التساؤلات في الأيام الأولى بعد ولادتنا يوم أن كنا محتاجين إلى من يلقمنا الثدي

لكي نرضع، ولا نستطيع خدمة أنفسنا في أي شيء، ولو تُركنا ساعات بلا خدمة كلية ممن حولنا لانتهينا من الوجود قطعًا، ولم نتساءل في ضعفنا أيام الطفولة البريئة يوم أن كنا محتاجين إلى كل ما حولنا لكي نقوم على أقدامنا، التي مرت بسلام، فلم نكن نسأل حينها عن شيء مما في أنفسنا الآن؛ لأننا كنا في عناية غيرنا ورعايته، ماديًّا وروحيًّا، ولن نكون بهذا التعطش المعرفي نفسه في ضعفنا الثاني في أثناء مرحلة الشيخوخة، حيث اقتراب اليقين إلينا والانشغال بالمصير ورعب الموت، عندما يقترب الوعد الحق الذي لم يكن في بالنا في أثناء ريعان الشباب مثله الآن، فمع تقدم العمر بدأنا ندرك حاجتنا للإيمان أكثر من قبل؛ كي ننجو مما سيقابلنا بعد الموت من أهوال تقترب منا ولا مهرب منها، ونستغرب مما كنا نطرحه ونحن في شبابنا، حين كان يشتعل لهيب هذه التساؤلات المقلقة أحيانًا في مرحلة من العمر، لا أريد أن أصفها بمرحلة المراهقة وما بعدها، بل سأحددها بسببها وهو مرحلة الانفصال عن الخط التقليدي الذي وجدنا آباءنا يفعلونه، فقلدناهم هكذا بوعي ظاهري لا يتجذر إلى أعماق تفكيرنا، ودخولنا في مرحلة التفكير الذاتي المنفصل عن التقليد لنعتمد على أنفسنا في مواجهة استفسارات الوجود مستقلين عمن حولنا، وهنا تقدح شرارة الاستفهام الطبيعي فطريًّا، المنكر عرفيًّا، فينتج عنها هذه الاهتزازات الفكرية والقلق النسبي لجرأتنا على السؤال، وقلة زادنا المعرفي عن أسرار الوجود، إذا لم نعتصم بالوحي، ونلوذ به.

إن كل ما يمر بك من تساؤلات مباشرة عن أسرار الوجود إنما هي أمور طبيعية جدًّا يستحيل إخفاؤها، ولا ينبغي الشعور معها بالذنب؛ لأنها حالات طبيعية لصاحب العقل الطبيعي، الذي يحاول التعرف إلى أقرب الدوائر المعرفية حوله بتعطش وشرهٍ لا يمكن وصفه، إنه أنت ذلك الإنسان المتسائل تساؤلًا طبيعيًّا، ولا سقف لهذا الأمر إلا عند نقطة العجز المطلق عن الجواب، وهذا العجز بحد ذاته إقرار بهيمنة وقوة من يقدر على ما لا نقدر عليه، لن يقف العاقل عند هذا الحد من التساؤلات، بل سيتجاوز (المحسوسات) إلى تصور (المدركات) العقلية كقضية الوجود، والمعجزات من وحي وأنبياء، وسر هذه الحياة والموت وما بعد الموت، وحقيقة الخير والشر، والشيطان، والجنة والنار، والبعث والنشور، وهكذا سيل متدفق من تساؤلات متزايدة لا تنتهي

تشعر معها أحيانًا بالرعب المكبوت، وخاصة عندما تبتعد قليلًا عن خبر الوحي، فتصبح محاصرًا داخل أسوار الرعب من القادم، وعاجزًا عن الإجابة من تلقاء نفسك، كما عجز عنه من كانوا قبلك، وسيعجز عنه من سيأتون بعدك، وذلك يدفعك بقوة نحو ملاذ الوحي وأمانه وطمأنينته.

ولمعالجة داء الشكوك والأوهام والوساوس لا بد من التخلص من وهم كبرياء الصدود الأجوف الذي لا تفسير له سوى أنه من وسوسة طرف ثالث (الشيطان)، ولا بد من التجرد من حظوظ النفس المتعاظمة، وتطلعاتها الوهمية، على كل واحد منا أن يركز على ذاته، فيتولى شأنها الداخلي بنفسه؛ فهو أعلم بأسرارها من غيره من الخلق، ولأن هذا الأمر يعنيك بالدرجة الأولى فعليك أن تحسم هذا الأمر بنفسك، قبل أن يحسمك الأمر بنفسه، واعترف بقصورك أمام عظمة الوجود، فكيف بعظمة الموجد، واعلم علم اليقين أنه لا إجابة شافية على أي علم غيبي إلا عن طريق الخبر القادم إلينا ممن أوجد هذا الوجود، وخلق هذا الكون كله، ليخبرنا عما لا ندركه، ولا يمكن أن ندركه نحن البشر في حياتنا هذه، وكل من لا يؤمن بوجود خالق الكون، سيواجه معضلة معرفية مستعصية عن كل حل، وسينهار كيانه النفسي أمام صعوبة في فك شفرات الوجود كله، ولن يصل إلى مخرج منها مهما بلغ به العلم الدنيوي، والتاريخ شاهد على جميع الأمم والحضارات السابقة، ستلاحظ أننا وفي كل مراحل هذا الكتاب سنجد أنفسنا أمام انسداد كل أفق بشري معرفي لفهم الوجود إذا ما ابتعدنا عن نور الوحي، يقابله انشراح نفسي وطمأنينة منقطعة النظير عندما نحيل الأمر إلى الوحي، ولا خيار لنا البتة سوى تكرار ذكر هذا المفتاح الأوحد ونقطة البداية ومفك الشفرة لكل سر غامض في الوجود، ألا وهو ضرورة الإيمان بالخالق العظيم؛ لأنه وحده القادر على كل شيء، ومن تلكم النقطة يجب أن تنطلق خارطة التفكير الوجودي كله، إذ من دونها لا فائدة من أي برهان بشري لإثبات أي حقيقة فرعية قبل حسم الأمر مع هذا الأصل العظيم، بل هو النبأ العظيم: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣] وقد وعد الخالق خلقه بأنهم سيعلمونه متى ما شاء، وأراد: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥].

*****

﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

لا نتوقف عند أقوال بعض المفسرين في صدر تاريخنا ممن فهموا: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢] بأنه مجرد البعث بعد الموت، أو أنه القرآن الكريم، أو النبوة، أو غير ذلك من الاجتهادات التي لا دليل على حصر التفسير فيها، بل نرقى بالنص العظيم بما يليق بعظمة الوجود كله وصولًا إلى الإيمان بعظمة العظيم الجبار الذي أوجده وكل ما يتفرع عن هذا النبأ، فهل أتاك حديث الوجود المستعصي فهمه على العقول البشرية، الذي يستحق بحق أن يوصف بهذا الوصف المشتمل على كل ما نعلم، وما لا نعلم من العجائب، والذي لو تأملناه لأوحشنا أمره، وجعلنا نجمع أطرافنا حول أجسامنا، ملتحفين بها من لهيب الوحشة وزمهريرها، هاربين من كل شيء يحيط بنا، ضائقين بكل شيء ذرعًا، لولا فسحة الإيمان بالله وآماله.

دعنا نتقترب شيئًا فشيئًا من حقيقة الوجود الذي يظهر طبيعيًّا بريئًا هادئًا لأول وهلة، بينما هو خلاف ذلك تمامًا عند التعمق فيه، ولو لم يكن فيه إلا أنه لا تكون فرحة عابرة إلا وستعقبها ترحة قابرة، لكفى به وحشة ورعبًا، الأمر يحتاج إلى يقظة حقيقية، ولكي تصل إلى شاطئ الأمان عليك أن تخرج فورًا من دائرة النعيم الخادع في الدنيا لتعلم علم اليقين أن كل من تراهم حولك الآن زائلون، كما تزول من هذه الدنيا، فإما أنك ستبكيهم، أو سيبكونك لا محالة، تأمل معي جيدًا، ولا تنخدع بالسرور والفرح العابر، فهو استثناء يسير من أصل مخيف، وحينها ستدرك أنه على الرغم من غموض هذا الوجود إلا أنه من بدهياته أنك موجود فيه، وأنك جزء منه، وأنك في مواجهة الأفراح والأتراح، لا تدرك سعته، ولا تحيط علمًا بأسراره، وأهم من ذلك كله أنك أيها الإنسان، هامشي جدًّا على حافة عظمة هذا الوجود وسعة آفاقه، وستدرك أن إنكار المرء لخالق هذا الوجود مستحيل من ناحية منطقية وعقلية، لولا زيف صدود بعض النفوس وكبريائها المصطنع، إذ لا وجود بلا موجد ابتداءً، فمن يكون هذا الموجد الذي لا موجد له؟

إن جميع المواقف البشرية السابقة والحاضرة والمستقبلية والتجديفات المتقلبة بين الإيمان والكفر والإلحاد لا يمكن أن تحجب حقيقة مطلقة، وهي: أنه قد أجمع الأولون والآخرون، مؤمنون وكافرون، أن وراء هذا الوجود نبأً عظيمًا وخبرًا هائلًا لا يمكن لأحد من البشر مهما أوتي من العلم والمعرفة الفردية والجماعية أن يكشف سره، وحيث إن هذا الوجود مليء بالمكتملات وغير المكتملات فلا بد أن يكون موجد هذا الوجود كاملًا كمالًا مطلقًا، يفوق كل كمال معقول أو غير معقول، وقويًّا قوة مطلقة تفوق كل قوة معروفة أوغير معروفة، وقادرًا قدرة مطلقة تجعل كل هذا الوجود العظيم متفرعًا عن قدرته العظمى، وعجزنا وقصورنا المطلق دون ذلك كله هو الذي يدفع الإنسان السوي ليسأل كما تسأل، ويتساءل كما تتساءل عن سر هذا الوجود ومآلاته؟، ليصل من خلال ذلك كله إلى اليقين الذي يستسلم له، فمن الطبيعي جدًّا أن تسأل لأنك بعقلك قد تميزت عن غيرك من الخلق، وأول امتحان لعقلك السليم هو محاولة معرفة سر وجودك أنت، قبل أن تفهم ما يدور حولك، فكيف بمعرفة عظائم هذا النبأ العظيم: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣].

هناك أربع أدوات استفهامية أساسية تُستفتح بها تساؤلات الإنسان الطبيعي عن أهم أسرار الوجود، وهي: (كيف) و(أين) و(متى) و(مَنْ) أوجد هذا العالم؟ ثم يصعد السؤال شيئًا فشيئًا ليصل إلى السؤال النهائي: (كيف وجد من أوجده؟) ذلك السؤال الذي يشعر الواحد منا معه بأنه على حافة هاوية خطيرة لا جواب عليه مطلقًا في هذا الوجود، ولو تأملت فيما حولك لعرفت وجود الخالق من خلال الخلق، ولكنك لن تعرف عن ذاته شيئًا على الإطلاق، إلا ما أخبرك هو عن نفسه، وما لم يخبرك فلا سبيل إليه مطلقًا في أي زمان أو مكان آخر إلا أن يكون في عالم الآخرة، وهنا فقط وعلى شفير هذه الحافة المعرفية عن الخالق في الدنيا أمرنا الوحي بالتوقف، لا ليحرمنا حقًّا مشروعًا في مواصلة التفكير، بل لينبهنا إلى وصولنا إلى أقصى حد لا يمكن أن نتجاوزه بحال، فالإنسان من دون الوحي عاجز تمامًا عن الإجابة الوافية عما دون ذلك من التساؤلات التي تتوقف عندها سلسلة تتبع العلل والأسباب إلى الأبد، خاصة عندما (ينبعج) عقل المخلوق عاجزًا عن الاستيعاب في أولى درجات سلم التفكير الطويل في الوجود، عند الموجودات المعروفة، فكيف بغير المعروفة؟! بل كيف سيكون حاله إذا وصل إلى

ضرورة (وجود) من لا علة لوجوده؟! ومن الناحية المنطقية يستحيل علينا أن نحيط علمًا بوجود نحن جزء من تكوينه، ويكون الأمر أكثر استحالة لو ادعى أحد أنه سيعلم شيئًا عمن هو أكمل وأكبر وأعظم من الوجود كله.

ومع هذا، فالدين يحترم العقل، ولا يتعارض مع المنطق السليم، فلا يمنعه من طرح مثل هذه التساؤلات الطبيعية ما دامت تطرح بهدف الوصول لليقين والطمأنينة بصدق، ولا ثمة خطورة على عقل أو إيمان لمجرد الإفصاح عنها علانية، وهي الموجودة أصلًا داخل النفوس الصامتة، ومرة أخرى يجب أن نستقبل هذه التساؤلات منا ومن غيرنا بكل رحابة صدر؛ لأنها بدهية عند كل عاقل سوي، ولهذا السبب تكون هذه الاستفهامات أشد حضورًا ووضوحًا عند الأذكياء منا، إنها ببساطة نتيجة حتمية لعقل فعال، فالإنسان وجد نفسه فجأة جزءًا من هذا النظام الكوني العجيب، ولم يشهد حدوث الكون، ولم يحضر حتى ولادته وقدومه للوجود، ولكن العاقل المتبصر المستبصر يؤمن بأن الخالق هو الله القائل بوصف وجودنا وكيفية تعلمنا علمنا عنه، وكل ذلك حقيقة ماثلة أمامنا: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فالمولود يولد خاوي الذهن إلا من أساسيات الفطرة، ثم يكبر وفجأة يفتح عينيه في لحظة، فيرى الأشياء حوله، وينصت ويسمع، ويتحرك ويأكل ويشرب، ويجد نفسه مكونًا حقيقيًّا في جسد مادي ملموس وروح غامضة، يعلم أن أصله ماء مهين، ولكنه لا يدري كيف خلق من ماء مهين، فأصبح بشرًا سويًّا، يرى حوله من العوالم المتحركة، فلا يدري أهو مبتدؤها أم منتهاها؟، فالزمان تدور عجلته، وكأنه غير مكترث بشيء من الوجود، والنور والظلام يتعاقبان، وجيل يموت، وآخر يبقى، وثالث قادم من بني الإنسان وسائر الحيوان، دوامة عجائب لا تنتهي، تشرئب فطرة الإنسان لفك شفرات هذه المعرفة اليقينية عما حوله من الأسرار العظيمة، وتتوق نفسه لكشف السر الأول وراء هذا الوجود وفهم الواقع ليكتشف ما وراء هذا الأمر في الماضي والحاضر؛ كي يستشرف المستقبل المقلق له، هذا هو الدافع الحقيقي وراء تلك التساؤلات الطبيعية الفطرية، وباختصار: إنه يتساءل؛ لأنه إنسان متوازن.

*****

الإنسان والغيبيات

الإنسان يجهل نفسه، ولا يعلم عنها إلا قليلًا، ومن الطبيعي أن يستميت في محاولاته المتكررة كي يتعرف إلى نفسه جيدًا، ويبحث عن أصل كل شيء وعلته، فالأمر عظيم جدًّا بالنسبة إليه، ووجود الإنسان لحظات يسيرة لا تكاد تذكر في عالم الزمان، يحاول خلالها فهم الوجود، فيدركه الموت قبل أن يصل إلى شيء، فيترك وراءه إرثًا معرفيًّا تراكميًّا يحاول من بعده مواصلة الطريق الذي لا نهاية له، وربما رفض الوارثون له فكره جملة وتفصيلًا، وأعظم ما في هذه المحاولات أنهم لن يصلوا إلى جواب عما في نفوسهم دون تدخل الوحي، وانطلاقًا من هذه المسلّمة فإنه مهما كابر المكابرون، وعاند المعاندون، فسيبقى الغيب غيبًا؛ لأن الخالق قدره غيبًا، كما قدر وجودنا هذا وجودًا، ولا جدال أن علم المعرفة البشري يتطور مع الزمان، ويبتكر الإنسان، ويكتشف في حدود مداركه المحدودة، ولكنه لن يعلم من هذا الغيب شيئًا، ولو فتحت له جميع آفاق العلم الدنيوي.

إن استحالة اختراق الحاجز الغيبي من البشر هو الذي أوجد عند المؤمنين عظمة الطمأنينة لا الخوف، وبلسم اليقين لا الشك، وطعم لذة الإيمان لا غمة الكفر والجحود، وحسم هذا الأمر بالتسليم النهائي والإقرار بالعجز أمام الحقيقة الكبرى، إنه التموضع الصحيح لك أيها الإنسان، أن تبقى حيث أنت في موقعك الطبيعي المتوازن من سلم الوجود الذي يحلم بعض المغامرين بالهيمنة عليه وهم أصلًا جزء صغير جدًّا منه، يقول أينشتاين[1]: «إن أجمل هزة نفسية تشعر بها، هي تلك الهزة التي تغشانا، عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب، إنها النواة لمعرفة الحق في كل فن وكل علم، وإنه لميت ذلك الذي يكون غريبًا عن هذا الشعور، فيعيش مستغلقًا بالرعب من غير أن تجد روعة

---

(١) ألبرت أينشتاين Alber Einstein (١٨٧٩– ١٩٥٥م) الموافق (١٢٩٦– ١٣٧٤هـ) فيزيائي أمريكي من أصل ألماني يُعدّ من أعظم العبقريات في التاريخ وممن أحدث في العلوم ثورة لا تزال جارية ابتكر النظرية النسبية عام ١٩١٤م (معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص١٣) ولم يكن ملحدًا يومًا من الأيام بل وصف نفسه بالفيزيائي المؤمن في رسالة العزاء الشهيرة التي بعثها إلى عائلة رفيقه ميشيل بيسو: (كهنة الإلحاد الجديد، هيثم طلعت سرور، ص٧٢).

التعجب إلى نفسه سبيلًا»[١]، ويقول مؤكدًا أن من يقف على تلك العتبة سيكون أعظم معظم للعظيم ﷻ: «ما من عالم عبقري ينفذ إلى أسرار الحكمة والنظام في الخلق إلا ويكون إيمانه بالله عظيمًا»[٢]، ويؤكد في موضع آخر أنه على الإنسان أن يكون متواضعًا، ويعرف حجمه في هذا الوجود، ويقف عنده: «من يفهم الطبيعة يعرف الإله، ليس لأن الطبيعة هي الإله، ولكن لأن ما في الطبيعة من قوانين يشير إلى عقل جبار يقف وراءها، وعلى عقل الإنسان أن يكون شديد التواضع أمام عظمة هذا الإله وحكمته»[٣].

وكان أينشتاين مع بروزه وشهرته العلمية يحمل حسًّا فطريًّا يصاحبه في كل لحظة من حياته، فقد كان يغضب إذا وصف بالإلحاد، وفي العصر الراهن يستميت بعض المتعطشين لترويج الإلحاد، مثل الملحد البيلوجي ريشتارد داوكنز[٤] في وضع (أينشتاين) في قائمة العلماء الملحدين تلبيسًا وتضليلًا لعامة الناس، وهذا خلاف الواقع تمامًا، واستقواء الملحدين ببعض مشاهير العالم لا يغير من الواقع شيئًا، فالمؤمنون بوجود الله يدركون أن هذا الإيمان علاقة عمودية قائمة بين الخالق الأعلى والمخلوق الأدنى، وليست أفقية بين الخلق المتساوين، ولكن ذكر نفي إلحاد المشاهير هو نوع من التنزل في الجدال من أجل حسم كل ما من شأنه التشويش على النفوس البريئة، فليس (أينشتاين) وحده من وقف على حد قدرة الإنسان، واستسلم لها معظمًا من يقدر على ما بعد ذلك، فهناك علماء آخرون توصلوا إلى النتيجة نفسها، ومنهم عالم الاقتصاد الشهير

---

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر (مفتي طرابلس ولبنان الشمالي) طرابلس، لبنان، ص٣٥٨.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٥٨.

(٣) رحلة عقل، عمرو شريف، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، مكتبة الشروق الدولية، ص٨٦.

(٤) ريتشارد داوكينز Richard Dawkins عالم بيلوجي بريطاني معاصر ولد عام ١٩٤١م من أشهر كتبه (الجين الأناني) و(أكذوبة الإله) الذي نشره عام ٢٠٠٦ أنكر فيه وجود أي قوى ينكر أي غيبيات ويعدّ الإيمان ضلالًا وأوهامًا عمل أستاذًا في جامعة أكسفورد مكابر عنيد يستميت بحشد العلماء إلى فسطاط الإلحاد حتى لو كانوا مؤمنين يصر على أن أينشتاين كان ملحدًا ولما عجز عن مواجهة من ساقوا أقواله في الإيمان أقر بأنه مؤمن ولكن بوحدة الوجود: (رحلة عقل، عمرو شريف، ص٤٠).

(آدم سميث)[1] الذي قال عندما أراد المبالغة في مدح صديقه (ديفد هيوم)[2] الذي كان تاجرًا وقانونيًّا ودبلوماسيًّا وأمين مكتبة ومن رواد الفلسفة التجريبية: (إن هيوم قد يكون بلغ في مقاربته تمام الحكمة والعقل أقصى ما تستطيعه الطبيعة البشرية الضعيفة!)[3] إقرارًا منه بوجود حد للعقل البشري لا يمكن تجاوزه بحال.

رهبة الغيب عظيمة عند المتفكرين، ولا يمكن للإنسان أن ينفك عنها إلا بالإيمان والتسليم المطلق لمن يعلمه، والوقوف المتأمل بعمق عند التساؤلات الغيبية لا يهدف إلى النقل من الكفر إلى الإيمان فحسب، بل هو أيضًا ضروري للتذكير بنعمة الإيمان الذي عادة ما نعيش قلقين عليه، فأنت أيها المفكر المتفكر المتأمل، بحمد الله مؤمن، حتى إن غشيتك وحشة من نوع ما؛ لأنك بصورة أو بأخرى تعيش الإيمان (الموجود) وتخشى عليه، ولكن قد تكون ضحية تضخيم غير مسبوق لمظاهر إلحاد مبالغ في وصفها، ومنفوخة أمام ناظريك، كما ينفخ البالون الصغير بالهواء الفارغ، تولى كبرها قوم يريدون أن يشعروك بأن ثمة (طوفانًا إلحاديًّا) يغشى الناس متجهًا نحوك كالطاعون، يوشك أن يلتهمك على حين غفلة من أمرك، وأنه لا طاقة لك به، فيجعلك تعيش أوهام يأس وإحباط يكاد يضيع معها إيمانك، وتنسى ربك الرؤوف الرحيم بك، الذي يعدك بهذا الوعد المطمئن جدًّا على الرغم من كل ما يمكن أن يمر بك من أعاصير فكرية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣].

شتان بين هذه الحقيقة الإيمانية المطمئنة من المعلوم وبين التجديف المخيف حول الوجود من المجهول، فأنت في الواقع تنعم بيقينك الكامن وإيمانك الصادق لمجرد تتبعك لمثل موضوع هذا الكتاب متعطشًا إلى مادته، وذلك لوجود (دافع) من نوع

---

(١) آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣- ١٧٩٠م) الموافق (١١٣٥-١٢٠٤هـ) الأستاذ بجامعة جلاسكو من أشهر كتبه (الاقتصاد السياسي) الذي هو بمنزلة المرجع الأول لفكرة الرأسمالية بفرضه علم الاقتصاد السياسي: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص١٥٩).

(٢) ديفيد هيوم David Hume (١٧١١- ١٧٧٦م) الموافق (١١٢٣- ١١٩٠هـ) فيلسوف ومؤرخ إنجليزي ذو نزعة حسية ولد في أدنبرة أسكتلندا يرى أن جميع إدراكات العقل البشري ترجع إلى إحساسين متميزين هما: الانطباعات والأفكار: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٦١١).

(٣) الفلسفة ببساطة، براندن ولسون، ترجمة: آصف ناصر، دار الساقي، الطبعة الثانية، ٢٠١٠، ص٢٥.

خاص يدفعك لقراءته، وظاهرة الإلحاد المضخمة قد لا يبقى منها إلا شيء قليل جدًّا عند الفحص والتحليل، فهي أقرب إلى المكابرة والصدود من كونها قناعات معرفية راسخة، ونتحدى كل من يدعي الإلحاد عبر التاريخ ألا يكون في نفسه شيء (ما) من بقايا الوخز الإيماني الكامن في فطرته، يلدغه بين الحين والآخر منبهًا، ويدور بداخله كالإعصار على الرغم من أنفه، يقول المفكر الإسلامي (علي عزت بيغوفيتش)[١]: "إن الإنسان الذي يهيمن عليه النموذج المادي أو الإلحادي لا يمكن أن يكون ماديًّا ملحدًا تمامًا، ولو أراد ذلك من أعماق قلبه، وأن ماركس على الرغم من أنه ملحد، لكنه على حد قول (بتراند رسل): يبشر بأمل كوني لا يمكن تبريره إلا إذا كان صاحبه من المؤمنين بالألوهية)[٢].

لا بد من الاعتراف بأننا أمام إيمان فطري صامت يأخذ مكانه في قلب كل من يطلع على مثل هذه الحقائق مهما كابر بالتصريح بإلحاده، لقد أوجد الخالق جذور هذا الإيمان فطريًّا كما أوجدك في هذا الوجود: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، فوجود جذور هذا الإيمان في كل قلب هو بمنزلة وجود الإنسان ونطقه في هذا الوجود، إنه بمنزلة وجود كل عضو من أعضائنا، وضروري بل أكثر ضرورة من أي عضو في الجسم، أما الكفر على علم وبصيرة فظاهرة نكران قبيحة معروفة أسبابها ودوافعها، ولقد وصف الله حال هؤلاء بقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ولأنهم لا يبحثون عن حق، فكل جدل ينتج عن تساؤلاتهم لا بد أن يكون بهدف إشباع غريزة الجدال والخصومة فقط، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

*****

(١) علي عزت بيغوفيتش Aliya izzetbegoviç (١٩٢٥- ٢٠٠٣م) الموافق (١٣٤٣- ١٤٢٤هـ) مفكر وقانوني وأديب ومصلح سياسي له اهتمامات دعوية سجن بسببها خمس سنوات أصبح رئيسًا للبوسنة عام ١٩٩٠م وأعيد انتخابه دورة ثانية عام ١٩٩٦م ومن أشهر مولفاته كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب).

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش، ترجمة: محمد عدس، تقديم: عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠١٤م، ص١١.

الصمت البليغ

يصبح الصمت أحيانًا أشد بلاغة من النطق، وما من مخلوق إلا ويصمت عن أشياء يعتقدها، ولكنه لا يملك إخفاءها، إذ تنفلت منه على شكل قرائن تدل عليها كلما طرح الأمر للنقاش، تلمس ذلك من طريقة إنصات المرء وتفاعله مع الخطاب المطروح، أيًّا كان وضعه، وإرواء هذا العطش الفكري بنور الوحي المدرار هو ما نأمل أن نصل إليه في نهاية هذه الرحلة الفكرية، إننا لم نخترع أمرًا جديدًا عليك، فأنت قبل هذا كله مهتدٍ بفضل ربك، ثم بفضل فطرتك الأصيلة، وهنا يحمد لك هذا الأدب مع ربك وأنت تعيش هذا الحراك الداخلي والقلق المرير بحثًا عن اليقين بل ومواصلًا البحث عنه، أنت بأدبك هذا مع الله لا تشتكي علانية، ولا تبوح بكل أسرارك، ولا تنطق بأفكارك الثقيلة، خشية وحياءً وتعظيمًا لمن هو أهل لذلك ﷻ، تفعل هذا مع يقينك من داخل نفسك أن أمرك مكشوف له، وأنه لا تخفى عليه خافية مما أخفيته أنت عن الناس، ومع هذا تجد الأنس معه برحمته ومغفرته وستره وغناه، ولا تجد ذلك عند الناس الذين تحرص كل الحرص ألا يعلموا شيئًا مما يدور في نفسك.

فما الذي يدفعك إلى ذلك إن لم يكن هو محض الإيمان السري بينك وبين الله؟! والله إنه هو الإيمان عينه، فأنت تؤمن بالله، وتحب الله حبًّا خالصًا؛ لأنه صاحب فضل مطلق عليك، يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: «إذا ارتكبت في حق الله تسعًا وتسعين خطيئة وحسنة واحدة، ذكر وقَبِل حسنتك، وضاعفها لك، وستر، وغفر لك خطيئاتك التسعة والتسعين، وقلبها لك حسنات إذا استغفرته، والناس لو علموا عنك تسعًا وتسعين حسنة تجاهلوها، وتحدثوا عن خطيئتك الواحدة، ولم يغفروها بحال)، إنه ربنا الرحمن الرحيم وكفى، إنها صفة الرحمة للرب التي جعلت موسى يختارها في خطابه تشويقًا لقومه، وهو يدعوهم إليه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٠].

أما لماذا تصبح الحياة هكذا؟ فلأنها دار الابتلاء والصبر، ونحن لا خيار لنا فيها سوى أن نمضي صابرين منتظرين عهد الخالق ووعده لنا: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ١١١]، بالفوز العظيم بالسعادة والنعيم والخلود من بعد هذه الحياة، ومن

الابتلاء هو ما ترى، وما نتحدث عنه الآن، فليس في الدنيا طمأنينة كاملة، ولا أمان مطلق، بل سيكون ذلك كله مدخرًا للمؤمنين بالغيب يوم القيامة وفاءً لهم على صبرهم وجزاءً لإيمانهم عندما ابتلاهم الله بذلك، وأي طمأنينة في الدنيا بما فيها طمأنينة الإيمان لا بد أن يشوبها شيء من القلق الضروري لإبقاء جهاز المناعة فعالًا ضد المفاجآت الفكرية؛ كي يتصدى للشبهات القادمة إليها، إذ لا تعارض بينها وبين القلق الإيجابي عليها من أجل الحفاظ على الإيمان المغروس بعمق في وجدان العبد الخائف عليه، ولا بد من الإقرار بهذه النعمة المسبغة علينا، التي غالبًا ما يتراءى لبعضنا أنها نقمة مخيفة، بل هي نعمة (الوجل) الذي جعله القرآن سببًا لفوز المؤمنين بشهادة الله أنهم بذلك يسارعون في الخيرات، وأنهم لها سابقون، وذلك عندما يكون الوجل لتقصير في العبادات التي كان بمقدروهم الزيادة منهم، فكيف والأمر يخص الإيمان ووجل المؤمن عليه أشد من وجله على أعمال العبادات المتفرعة عنه وكلا الحالين وجل حميد يصبح محلًّا لثناء الله على عباده: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

انظر كيف يبشرك القرآن الكريم بأن هذا القلق منك إنما هو خير لك، لمجرد أنك تجاهد نفسك هذا الجهاد الصارم لإبقائه في دوائر اليقين مع هذا الصمت المبين، فأنت في اللاشعور تعظم خالقك، وتؤمن به، وتخشى أن تقابله بغير إيمان، إذ لو كنت أمام أمر يسير من أمور حياتك لثرثرت به في كل مناسبة غير مبالٍ بتبعاته، ولجدفت به يمينًا ويسارًا مع الناس، ثم أدرجته في عالم النسيان إلى الأبد دون اكتراث، لكنك تدرك بعقلك الباطني وأنت متترس بالصمت الحكيم ألا تهاون ولا استعجال ولا تلفظ حول شأن أمر فطري قد استقر، واستكن في سويداء القلوب، والغريب أنك آمنٌ وأنت تؤمن بأن ربك الرحمن يعلم هذا كله، فتدرك عظيم امتنانه أن تجاوز عما حدثت به نفسك ما لم تقل أو تفعل، كل ذلك يتم من خلال ما يبدو لك أنها أحمال فكرية ثقال تحملها معك في يقظتك ومنامك وحدك، وتحرص ألا تبوح بها، بينما هي كل شيء يهمك في وجودك في حياتك وبعد مماتك، وهذه النواميس المكبوتة بالنفس هي من خبر النبأ العظيم الذي اختلف فيه الأولون والآخرون، وسيبقون مختلفين فيه، ولن يصلوا إلى الإجابة المُنهية

لهذا الإشكال أبدًا إلا حين يلقى الناس ربهم، فينبئهم: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣] أما في الدنيا فلا مناص ولا مفر من الأخذ بالوحي بقوة؛ لكونه مفتاحًا لأسرار الوجود ومآلاته.

كأني بك مستغربًا تسلل موضوع هذا الكتاب إلى تلك الزاوية السرية الحرجة من أقصى عالمنا السري المكبوت، والتي نختبىء فيها مع أنفسنا لمناجاتها سرًا ونحن قلقون على إيماننا بصمت! اسمح لهذا السجال المباشر أن يكسر ذلك الصمت المريب بينكما، وكن واثقًا من أن النتيجة ستكون دائمًا سيادة الحق واليقين وسيرتفع صوت من الداخل ناطقًا بالحق شامخًا على منصة الجدال بينكما، مشيرًا إلى طريق الأمان الكامن لديك ومعالجًا لتلك الوحشة الصامتة والقلق الدفين الذي تكتوي بحرارته القلوب المؤمنة لمجرد اقترابها من منطقة الخطر فتنفر منه وتضطرب خوفًا بفطرتها السليمة وإيمانها العميق على يقينٍ حقيقي مستقر تحب أن تلقى الله به.

ستجد همس صوت الحق ملازمًا لك في كل موقعة جدلية سرية كانت أم علنية، يحيط بك ويربت على صدرك الوجل وقلبك الخافق، ويأخذ بيدك أخذًا كله رأفة ورحمة ليقول لك بكل ثقة: إنك مؤمن فلا تقلق ولا تيأس، أنت طبيعي بما يحدث معك من تطلعات معرفية لمعرفة المجهول والمستقبل طالما أنك لست بعيدًا عن الفطرة والوحي، أنت سوي بما تعتقده وتديره من أفكار مدافعًا عن إيمانك، أنت متوازن في محيطك الكوني حين تسأل وتتساءل، لكنك تشعر وكأنك تخوض هذا الغمار منفردًا، يتراءى لك وكأنك وحدك في تيه وشتات، وأنك وحدك غارق في الغموض والحيرة، أنت لست وحدك أبدًا، كما أنك لست في تيه ولا شتات، والواقع أن لديك ما يبرر هذا الشعور الظاهري وأنت بين ما سطره فلاسفة من قبلك، أغرقوا في الماديات والتحاكم إلى العقل المجرد، انتقلوا به إلى فوق المحسوسات ففشلوا في معرفة ما وراءها، فنقلوك معهم في مركبهم من حيرة إلى أخرى، وبين آراء علماء الأديان السابقين على الإسلام المقصرين عن الإجابة الشافية الكافية، خاصة من أفرغوا الوحي من مضمونه، وحاربوا العلم، وجعلوا من الدين وسيلة تسلط وجباية واستعباد وإقطاع، وصوروا الخالق بصفات من عندهم لا تليق بجلاله سبحانه ولا يستنكر معها على العقل السليم أن ينكره ويكفر

بتلك الصفات المزعومة، وألا يقبل بعض تلك التشريعات المتسلطة المنسوبة إلى الله وهو منها براء.

العقل السليم يميز بقوة بين (الإله) الحق الذي يستحق الإيمان به وعبادته، والآخر الباطل الذي يستحق الكفر به ومعصيته، عندما اتخذت قريش إلهًا تعبده غير مستحق للعبادة، لم يكتسب القداسة لمجرد أنهم عبدوه بل جاء الوحي نابذًا له بكل قوة: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢] فالكافر بإله تصفه الأديان بصفات مخجلة لاتليق بالله، هو في الحقيقة ليس كفرًا بالدين الحق، وإنما هو الاتباع الصحيح لسنة إبراهيم عليه السلام من قبل عندما أنكر وتبرأ وكفر بما يعبد قومه من دون الله حتى وإن قدسوه وسموه إلهًا: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

*****

حيطةٌ أنتجت حيرة!

لم يتوقف الأمر عند أهل الكتاب، بل تجاوزه حتى أصاب بعض المسلمين ممن خافوا على إيمانهم فبالغوا في الحيطة والحذر حتى حذروا من بعض الحق نفسه وهو وسيلة الوصول إلى الحق المنشود، فأقفلوا الأبواب على العقل خوفًا على الإيمان، واعتقدوا أن النجاة تكمن في إبعاد تفكيرك عن نفسك وعزلك عنه، عبثًا من عند أنفسهم بأن هذا هو الحل وهذا محال فطريًا، والحقيقة أن أكثرهم إن لم نقل كلهم أحوج منك إلى ما أنت تبحث عنه الآن من وضوح واستيضاح! وليسوا أفضل من الرسل! لكنهم آثروا السلامة يوم أن وجدوا في الصمت المحتقن والستر الوهمي سلامة مؤقتة، فما أن تقترب من الحديث عن هذا الأمر الجلل إلا وتجد الواحد منهم يسارع بنهيك عن التفكر مطلقًا، ويقف هنا ويأمرك بالتوقف أيضًا حيث اختار هو أن يقف، لا حيث يجب أن تقف، ولو أنك واصلت في الاستبيان والبيان واثقًا مما عندك لربما سببت له مأزقًا فكريًا خطيرًا لم يكن مهيًا له، ولهذا تجده يبادر إلى زجرك ودعوتك للتوبة النصوح!

متكئًا على ما تخفيه في عقلك الباطني من تعظيم معلن وغير معلن لله، وتقدير للدين يجعلك تستقبل كلامه وكأنه جزء من الدين أيضًا فتمتثل لأمره مجاملًا لا مقتنعًا، بينما هو يسكتك لتحتقن بأفكارك وحدك، ويرى أنه بذلك يطبق عليك توجيه النبي ﷺ (فلينته)، متجاهلًا فوارق الزمان والمكان واختلاف البيئة الفكرية عند تفسير النصوص وتطبيقها وتحقيق مناط الأحكام في عالم الواقع، قطعًا سننتهي جميعًا حيث أمرنا الرسول ﷺ دون اعتراض على النص النبوي أو تعطيل له فهو لا ينطق عن الهوى وما قاله في عهده صالح لنا ولمن بعدنا ولكننا نتفاوت في فهمه وتفسيره وتحديد نقطة الإنتهاء، فقد أصدر أمره للتوقف عند نقطة محددة، وهي أن يستطرد الإنسان في التساؤلات إلى أن يقول: «من خلق الله؟» هنا يجب أن ننتهي ليس حرمانًا للعقل من شيء ممكن، ولكن لأنه لا يمكن لأي عقل أن يجد جوابًا عن هذا السؤال، واحتياطًا من الوسوسة أمرنا بالانتهاء هنا وليس في أي نقطة تأمل وتفكير قبلها، فيجب أخذ النصوص مجتمعة دون تعارض، ويجب مراعاة تحقيق إمكانية تطبيق مناط الاستدلال والحكم، ولو كان النبي ﷺ بين ظهرانينا اليوم لوجدنا من توجيهه ورحمته بأمته ما لم نجده ممن يقسون عليها مستندين إلى أقواله التي لم تقفل الأبواب على العقول، ولم تحجر واسعًا من المنقول، فلم يكن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه معطلًا للنصوص عندما توقف عن تطبيق حد السرقة الوارد بنص محكم في القرآن في عام الرمادة[1] عندما بلغ الجوع من الناس ملبغًا أكلوا بسببه كل شيء، استحضر فيه الخليفة العادل رحمة الله ورحمة رسوله بالمؤمنين، وفرّق بين حاجة الناس الضرورية وبين عبث السارق وعدوانيته وتعديه على أموال الآمنين.

الالتزام بالنص الثابث ثابت من ثوابت ديننا، فعلينا أن ننتهي عند الأمر بذلك، ولكن علينا أيضًا أن ندرك الفوارق الجوهرية بين عصرنا الراهن بتعقيداته وعصر الصحابة رضي الله عنهم الذين ينتهون إذا اقتربوا من هذه المرحلة من التساؤلات الحساسة؛ لأنهم كانوا يسبحون آمنين في أطيب وأغزر ينابيع الإيمان الصافية في مدينة الإسلام

---

(١) يُعدّ عام الرمادة أشهر أزمة اقتصادية وقعت في صدر الإسلام وكانت في أواخر عام ١٧هـ وأوائل عام ١٨هـ أصاب المدينة وما جاورها قحط ونقص في المعيشة بسبب قلة الأمطار وسمي عام الرمادة لتتابع الجدب حتى تحولت بقايا النباتات إلى ما يشبه الرماد.

والرسول ﷺ بين ظهرانيهم نور وسراج وأسوة حسية ومعنوية ونفسية وإيمانية حاضرة بينهم، يلوذون به عن كل وحشة تغشاهم، فيربطهم بالله، كانت حياتهم من البساطة بدرجة أنهم لا يعلمون ما وراء البحار من جغرافيا الأرض القريبة منهم، فكيف بعلوم الفلك السحيق والفلسفة والكلام التي تسللت اليوم إلى كل بيت مسلم، ولم يصلهم شيء يذكر من مخاض الفلاسفة اليونان والمنطق وعلم الكلام ممن سبقوهم بمئات السنين، ولم يطلعوا على ما فتح الله به على الإنسان في عصرنا المعلوماتي من علوم وإعلام وشبكة عنكبوتية (Internet) يستحيل على كل من يسبح في بحارها اليوم أن (ينتهي) لمجرد الانتهاء عن التفكير قبل وصوله نقطة النهاية الصحيحة التي يستسلم عندها لله، وهو راضٍ كل الرضا، ومن الخطأ أن يفرض على الإنسان نقطة توقف قبل منتهى النهاية البشرية التي يجب الانتهاء عندها، وهناك ما يحرك سواكنه، ويعصف بأفكاره المحتقنة في ذهنه، التي تزداد مع الوقت ورمًا وتضخمًا، ولربما عفنًا يتبعه هلاك الجسد بأكمله إن لم يتدارك بعلاج ناجع، فيسمح له بالوقوف بنفسه عند نقطة النهاية الحقيقية دون أن يخرج عن إطار الوحي بحال.

وإن تعجب فعجب أن يشارك طالب العلم أو العالم من حيث يدري، أو لا يدري في تكوين هذه الأزمة الفكرية لدى الضحية بتقصيره بواجب البيان، ثم يطالبه بالتوقف عن التفكير، ويترك الضحية وحده في وحشة قاسية تتصارع داخليًّا مع عقله ومع من حوله! كيف يطالب المرء بالتوقف عن التفكير والتساؤل مع إيهام (الضحية) بأنه قد نجا، بينما أنغام الكفر والإلحاد والشكوك تتدفق على مسامعه وتبصرها عيناه صباح مساء مسموعًا ومشاهدًا ومقروءًا؟ الإنصاف يقتضي أن نطلب من الإنسان التوقف والانتهاء احتياطًا، عندما تكون هذه الظاهرة استثناءً محدودًا يصيب أقلية هامشية في مجتمع يفيض إيمانًا ويقينًا في غالبيته، كما كان العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين من بعده، أما في العصر الراهن فلا بد أن يتوقف المرء حيث تنتهي قدرته تمامًا، ليقف بنفسه على العجز البشري أمام عظمة الوجود وأعظم منها عظمة موجده، بحيث لا يتهم أحدًا بأنه حرمه فرصة معرفية ممكنة.

لكن أن تتدفق الشبهات المشوشة على تفكير الأبرياء بهذا الطوفان الكمي الهائل مع ضعف علمي وسياسي واجتماعي في مواجهتها من قبل العلماء فضلًا على عامة

الناس، ففي هذه الحالة لن نترك أنفسنا وبناتنا وأبناءنا الأبرياء المتعطشين لكل حق وحقيقة بصدق أن يدركهم غرق الاضطراب الإيماني في بحر لجي من الشكوك والحيرة مجردين من سلاح الفكر السليم وحصانة الإيمان في مواجهة هذه الأمواج العاتية من الأفكار المتلاطمة، بل المتسللة إلى القلوب كالسم الزعاف ما يُدخلها في أنفاق متشعبة من القلق والخوف والهذيان الداخلي المتفجر والمكبوت بقوة، بينما طوق النجاة قريب منهم، بل هو أقرب إليهم من حبل الوريد، ينتظر منا إشارة الأمان كي يبوح لنا بفيضان من الأسئلة المتكدسة في ذهنه المنسي والمستحيي من خالقه، لسان حاله يريد أن يقول: أدركوني! من أنا؟ كيف وجدت؟ ما مصيري بعد موتي؟ ما حقيقة الرسل والوحي؟ والبعث والنشور والجنة والنار، وفوق ذلك كله (الله) جل شأنه؟

إن المبالغة في الاحتياط وطرح كلمة (انتهِ) وحدها قبل موقعها الطبيعي من سلم الفكر ليست علاجًا مناسبًا في كل الظروف، وعندما نفترض توقف السائل لمجرد قولنا له: (انتهِ) مكتفين بزجره في هذه الأجواء المعقدة وفي منتصف الطريق، فإننا قد تصرفنا بسذاجة وخداع لا نظير لهما؛ لأنه في الحقيقة لم ولن ينتهي أبدًا، حتى إن تظاهر بذلك مجاملًا، فالبيئة حوله تدفعه بقوة ألا يتوقف عن التفكير؛ وذلك لأنه مخلوق (عاقل) تعصف به مستجدات تؤثر مباشرة في العقول، قد يصمت على مضض، ويكبت طوفان براكينه المتفجرة بداخله، ثم يصطدم ببيئة أخرى أصحابها ينطقون بالباطل بكل جرأة دون حدود ولا قيود، والمجتمع قد أسكت (الضحية) بقوة (الأمر النبوي) وجمد تفكيره دون أن يزوده ويغذيه بدفاعات الحق التي يدمغ بها ذلك الباطل، بل إنه قد برمجه على الصمت حتى عند الحاجة للنطق، وبذلك يقحمه عمدًا في ساحة الانتحار الفكري بعد أن كبله عن الإمساك بطوق النجاة منها، لمجرد أن المجتمع ممثلًا بأهل العلم، فهم أمر النبي ﷺ (فلينتهِ) فهمًا ضيقًا، فبالغ في سد باب هذه الذريعة احتياطًا منه، وقد خفي عليهم أن هذا الذي يتلمس حبائل الحق قلقًا على يقينه بالحقيقة المنشودة جادًّا في سعيه للوصول إليها بصدق، قد يكون خيرًا ممن أسكته، وزجره، وتولى عنه دون بيان ممن يحسب أنه يحسن بذلك صنعًا.

*****

الطريق إلى الحقيقة

قضية فهم الوجود ومآلاته لا يمكن شرحها بمجرد تكرار الكتابة على صفحات الكتب ولا بتنميق العبارات البلاغية بالخطب والمواعظ، فهناك فرق بين التأليف التقليدي من بحث ونثر وقصة وشعر ورواية كما هي عادة غالبية المؤلفين، وبين تتبع عصارة فكر الإنسان المتناثر في صفحات التاريخ عن أهم أسرار الوجود قديمًا وحديثًا، والتنقل بين الحضارات والقارات والزمكان (الزمان والمكان)، ما يفرض على الباحث في هذا الأمر تقديم جهد استثنائي متميز، وعرض جديد للقضية، يجذب القارئ نحوها لإحساسه بالجديد والتجديد والجدية، وملامسة الأزمة مباشرة، ولهذا تجد كل من يكتب عن هذا الموضوع يستهل كتابه بأن هذا زبدة جهد طويل وعصارة فكر متواصل في التاريخ والمنطق والفلسفة والأديان، وفي هذا الكتاب استوجب الأمر تتبع وتحري المصادر التي احتاجت إلى عقود من الزمن للإحاطة بالحد الأدنى منها، لمعرفة أهم محطات الفكر والفلسفة البشرية، ابتداءً من أولى مراحل تدوين الفلسفة قبل ما يقارب ٦٠٠ قبل الميلاد وإلى يومنا هذا، لتتبع مسار الفكر الإنساني حيال محاولة فهم هذا الأمر مثار الجدل قديمًا وحديثًا بجميع ملابساته ما أمكن ذلك، ومعرفة توقيت وكيفية دخول فلاسفة المسلمين على الخط، وهل كانوا في حاجة إلى ذلك من أجل علاج ما عندهم أم كان مجرد محاكاة غموض غيرهم ومخاطبتهم بلغتهم، وكيف أثَّروا أو تأثروا بذلك، مع تسليط الضوء على إدراك جمال الوحي المسعف للبشرية عبر التاريخ والمنقذ لها من كل مأزق معرفي عن عالم الغيب الذي لا تطمئن النفوس، ولا تتوازن النفسيات إلا بالإيمان به.

لقد كان هذا هو الهدف الأساسي من نشرهذا الجهد الذي لم يكن توجيهًا ولا إرشادًا لك - أيها القارئ الكريم - ولم يكن اتهامًا ولا تشكيكًا في إيمانك، ولكنه من أجل إدخال مزيد من الأنس على قلبك المؤمن أصلًا مهما تغشّاك من قلق طبيعي عابر، انطلاقًا من إخلاص المحب المشفق الذي يريد مشاركتك الهم والأنس نفسه، الأخ الذي يريد أن يستأنس بك كما تستأنس به، ويفرح بإيمانك كما تفرح بإيمانه، يريد أن يختصر عليك طريقًا طويلًا من البحث والتحري المضني الذي تكرر مع الآلاف ممن سبقونا،

وسلكه العالم والمتعلم والفيلسوف والمفكر والفقيه والأديب، وكلهم انتهوا إلى النهاية نفسها التي سأبدأ بها معك هنا ولن أنتهي بغيرها، ولن ينتهي من بعدنا إلا بها أيضًا وهذا التحدي قائم إلى الأبد؛ لأننا في هذا الوجود عاجزون ولسنا بمعجزين: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

إنني معك في المركب نفسه، سأنعم وستنعم – بإذن الله – بالسعادة والطمأنينة في الحياة الأولى وفي الآخرة، وستصل إليها بسهولة ويسر ما دمت تقرأ صادقًا متجردًا في تحري الحق بقدر المستطاع، بعد أن تسمو بنفسك فوق تعقيدات هذه الحياة الفانية التي غالبًا ما تحول بينك وبين الوصول إلى الحقيقة، ليكن الحق ضالتك التي تبحث عنها بغض النظر عن مصادره، فلا تنشغل عن جوهر الموضوع الوجودي بأشياء هامشية، كشكل الكتاب، وسيرة مؤلفه، وتوقيت نشره، وموقع ناشره، ولا ما في النفوس من ضغائن وأشياء صغيرة، عادة ما تصبح عقبة أمام فهم هذا الأمر الجلل، فتحول بينك وبين تلقي الفائدة المرجوة منه بتوفيق الله، فالأمر أكبر من ذلك بكثير، والحق ضالة المؤمن، ولا يلام في البحث عنه في كل مكان، وقد قبله نبي من هدهد[١]، وأقره سيد البشر من شيطان[٢]، إنه الحق المبين الذي يبحث عنه كل صادق أمين، ثم تذكر أنك أمام حياة مليئة بالغرائب والمفاجآت التي توجب عليك اللجوء إلى الإيمان وترتيب أولوياتك في حياتك عاجلًا، فلا تترك المهم، ولكن لا يشغلك عن الأهم، ولتعلم أن الدنيا وجميع مشكلاتها حطام زائل سوف تتركه وراءك عند الموت، فتدخل بروحك عالمًا جديدًا أنت اليوم في أمسّ الحاجة إلى شحن الزاد والاستعداد للرحيل إليه، ومعرفة ما يطمئنك فيه.

*****

(١) إشارة إلى قول سليمان عليه السلام: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النمل: ٢٨] بعد أن قال له الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].

(٢) إشارة إلى قول النبي ﷺ لأبي هريرة في الحديث الذي رواه البخاري (٢٣١١): «أما إنه قد صدقك وهو كذوب.. تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟ قال : لا قال: ذاك شيطان».

الفَصْلُ الثَّانِي

لست وحيدًا في مسرح الوجود!





لست وحيدًا في مسرح الوجود!

ليس الهدف من الغوص في أحاديث النفس تطبيعك على أمر واقع لا حيلة لي ولا لك معه، ولا لإثبات هدايتك أو ضلالك، ولكن ورب السماوات السبع ورب العرش العظيم إنه لإخبارك بالحق والحقيقة وبأنك لست وحدك أبدًا في مواجهة هذا الكم من التساؤلات الفطرية الطبيعية، فهدئ من روعك، واستمتع بنعيم الإيمان الذي تحمله، واشكر المنعم على ذلك، وتذكر دائمًا أنك خلقت عاقلًا يفكر بعقله، ومن ثم فتلك نتيجة طبيعية حتمية للعقل الذي تحمله، فانعم بالطمأنينة مع ربك الرحمن الرحيم ودع عنك هذا القلق، واعلم أنه يستوي عند مواجهة هذه التساؤلات من يملك الحد الأدنى من الأهلية والفطنة مع من يملك أعلى درجات الذكاء، فالكل عاجز أمامها، كما سنرى من شواهد التاريخ واعترافات عباقرة العالم بأنهم قاصرون بحكم ناموس خلقهم ووجودهم عن معرفة ما لم يخلقوا لمعرفته مهما كانت درجة تحدي المكابرين والرافضين لهذه الحقيقة.

لقد كان أبو حامد الغزالي[1] في أول حياته أنموذجًا حقيقيًّا لأمثاله من بعض الشباب والشابات المتسائلين فطريًّا وبقوة مع أنفسهم، المتلمسين للإشارات الإرشادية على طريق اليقين المنشود، يقول عن نفسه: «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد الصبا، إذ رأيت صبيان اليهود لا يكون لهم نشوء إلا على التهود، وصبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصير، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام»[2].

---

(١) هو أبو حامد الغزالي ابن محمد بن محمد بن أحمد (١٠٥٨- ١١١١م) الموافق (٤٥٠- ٥٠٤هـ) ولد بقرية غزالة في خراسان وهو عالم وفقيه وفيلسوف من أشهر الفقهاء الذين قرؤوا في الفلسفة والمنطق كان حريصًا على العلم والبحث عن الحقيقة وقد اتبع منهجًا عقليًّا وهو صاحب العبارة الشهيرة: «الشك أول مراتب اليقين» والتي لا يوافقه عليها من يؤكدون أن اليقين الفطري يحصل بفضل الله دون حاجة للشك، وقد تأثر بفلسفته الفيلسوف الفرنسي ديكارت بعد تسعة قرون: (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص١٠٢).

(٢) المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس، بيروت، ص٨١.

وانطلاقًا من هذه المنهجية الخاصة بالغزالي، فقد تدرج في خوض غمار الفكر، وجاهد نفسه ثابتًا حتى أصبح فيما بعد حجة الإسلام في درء الشبهات والرد على المشككين والمنطقيين، لقد بدأ القراءة في الفلسفة عام ٤٨٤هـ وهو في الثلاثينيات من عمره، فغيرت أفكاره، وأدخلته في أزمة طارئة جعلته ينظر بريبة إلى تراثه الموروث، حاله كحال الكثير من الناس الذين لا يفصحون عن الصراع الصامت بينهم وبين ذواتهم تأدبًا مع الله، والذين يحتاجون إلى إعلان حالة الاستنفار، كما أعلنها الغزالي، وتجاوز الأزمة بالبحث العميق، إذ لا يكفي مجرد الاقتراب من أطراف علم الكلام والفلسفة على عجلة من الأمر دون الغوص في أعماقه، لكن سرعان ما يتبين أن هذا الشك عند الغزالي كان بمنزلة جرس إنذار له نتج عنه خوف ورعب دفعه بقوة إلى النظر العقلي الحر الذي قاده إلى يقين إيمانٍ تجاوز شخص الغزالي إلى أن استنار منه غيره.

وقد وصف الطريق إلى ذلك اليقين بقوله: «إن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال والحيرة، ولا خلاص للإنسان إلا بالاستقلال»[(١)]، وقد كان وصفه للفلاسفة الذين حيروه في بداية قراءته لهم في غاية الدقة، إذ قال في وصفهم: «إن الفلاسفة يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ولا يقين في الأمور الإلهية، لكنهم يوهمون الناس أن علومهم الإلهية متقنة البراهين مثل العلوم الحسية والمنطقية»[(٢)].

وهذا الذي حدث للغزالي في بداية حياته قد يحدث مع أي إنسان ذي بصيرة يتعمق في التأمل والتفكير في بداية الطريق، ولا يسمى ذلك شكًّا بمعنى الشك المحير، بقدر ما يمكن وصفه (بوخزة) تنبيه ويقظة كي يأخذ الإنسان حذره، ويتحصن إيمانيًّا، ويحتاط من مواضع الخطر، ويحكم السيطرة على إدارة الجدل بينه وبين نفسه في ذلك السجال السري على المسرح الداخلي، ومما يؤكد ذلك الخاتمة التي ختم بها الغزالي حياته، حيث

(١) موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، (١٩٨٤م)، الجزء الثاني، ص٨٣.

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٨٤.

تفرغ لتلاوة القرآن ومصاحبة القلوب الطيبة والجلوس للتدريس والصيام والتهجد، إذ لم يجد في سواها من العلوم ما يستحق أن يختم به حياته[١].

وهكذا بمجرد قليل من التأمل ستكتشف أنك لست وحدك أبدًا أمام أمر قدري كان ظاهرًا على مر التاريخ البشري، ومرصودًا في مختلف الحضارات وأتباع الأديان المختلفة، ومن غير المقبول أن تظلم نفسك، فتجرمها وحدها أمام ذاتك لمجرد أنك إنسان طبيعي تهرول بهذا الشغف المعرفي الإيجابي نحو الحقيقة، باحثًا عن أسباب الطمأنينة، وقلقًا على ما معك من اليقين خوفًا عليه، يقول (بسكال)[٢]: «هناك صنفان من الناس يجوز أن نسميهم عقلاء، وهم الذين يخدمون الله جاهدين؛ لأنهم يعرفونه، والذين يجدّون في البحث عنه؛ لأنهم لا يعرفونه»[٣]، ويقول أيضًا: «نحن نعرف وجود المتناهي وطبيعته؛ لأننا متناهون وممتدون مثله، ونعرف وجود اللامتناهي، ونجهل طبيعته؛ لأنه ذو امتداد مثلنا، لكن ليس له حدود مثلنا، وعليه فوجود الله لا يدرك بالعقل ولا بالقلب ولكن بالوحي أو الدين»[٤]، وقد اختصر (رينيه ديكارت)[٥] رحلته الطويلة مع الشك أن قال في نهاية المطاف: «إن الله حقيقة، وكامل، ولا يمكن تصوره»[٦].

---

(١) تهافت الفلاسفة، أبوحامد الغزالي، المكتبة العصرية، صيدا، ص٢٦.

(٢) بليز بسكال Blaise Pascal (١٦٢٣- ١٦٦٢م) الموافق (١٠٣٢- ١٠٧٢هـ) رياضي ومفكر فرنسي ولد في كليمرون في فرنسا كان والده عالمًا بالرياضيات وكان يبكي من علامات الذكاء على ابنه الصغير النابغة فعاهد نفسه أن يعلمه بنفسه وألا يعلمه شيئًا حتى يبين له فائدته يرى أن وجود الله لا يعرف إلا بالوحي وهو صاحب عبارة: «أيها الإله العادل إن العالم لم يعرفك ولكني عرفتك»: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٣٥٣، وتاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص٩٠).

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٣٢.

(٤) موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، الجزء الأول، ص٣٥٥.

(٥) رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٥- ١٦٥٠م) الموافق (١٠٠٣- ١٠٦٠هـ) فيلسوف فرنسي كبير، ويعدّ رائد الفلسفة في العصر الحديث وهو الأب الروحي للثورة الفرنسية وكان عالمًا بالرياضيات ابتكر الهندسة التحليلية ومن أشهر كتبه كتاب (التأملات) ويوصف بأنه فيلسوف التقليد الذاتي والمثالي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٤٨٨).

(٦) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٥٩.

وأقوال الفلاسفة كثيرة في تقرير هذه الحقيقة وبيانها، ومن حقنا الاتفاق أو الاختلاف معهم، لكننا لا نحتاج إلى هذه الشواهد منهم في هذا السياق، والسبب أننا وجدنا أن الرسل الموصولين بالله عن طريق الوحي، والمتصلين بملائكته البررة، هم يسألون أيضًا كما نسأل، ويجهرون بسؤالهم، بل ويسألون الله سبحانه وتعالى مباشرة! نعم، يجب أن تدرك هذه الحقيقة بأنهم لا يسألون الخلق كما هو الحال معنا، بل يسألون الخالق الأعظم الذي اصطفاهم، وأوحى إليهم علانية، وأيدهم بآيات تتلى وبمعجزات لا تقبل الجدل، وبالطبع فلا مزايدة على مشروعية تساؤلاتهم؛ لأنهم يفكرون تفكيرًا بشريًّا لا يخرجهم قطعًا من مقام الاصطفاء عند الله، ولا يقاربهم من درجات الشك معاذ الله؛ لهذا تحمل مني - أيها القارئ الكريم - تكرار التذكير والتطمين عندما أقول لك: لا تقلق أبدًا، واسأل، وتساءل بحثًا عن الحق وبصوت مرتفع وادع الخالق أن يهديك ويحفظك على الصراط المستقيم، فأنت بخير، أنت تبع الرسل وتقتدي بهم، وربنا وربك الرحمن الرحيم.

*****

الأنبياء يسألون الله!

الأنبياء أنفسهم سألوا الله، وتساءلوا كما تساءل غيرهم من البشر، هذه ليست ادعاءات عابرة بهدف التعزية والمواساة بقدر ما هي كشف لحقائق ناصعة وثقها الوحي نفسه، والوحي نور يوثق للإيمان، ويدعو إليه، ولا يقدم للشك، وإنما يحذر منه، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله بالأمة القانت الحنيف المسلم الأواه الحليم؛ لقوة إيمانه ويقينه، وجد نفسه في لحظة ما يسأل ربه علانية: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إنه يسأل ربه وهو نبي يوحى إليه! إنه يسأل سؤالًا صريحًا واضحًا معلنًا لا لبس فيه ولا غموض، إنه يسأل سؤالًا جعله ربي وربك قرآنًا يتلى علينا مدى الحياة البشرية، بل نؤجر على تلاوة حروفه، ونستخلص منه شفاء لما في صدري وصدرك، لقد جاءت الإجابة الإلهية سلسة هادية بعيدة عن التعنيف والزجر مطلقًا، بل تقدم بين يديها ببلسم طمأنينة وأمان بأن هذا لا يتناقض مع الإيمان، ولكن إعلانه ضروري:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] والله تعالى وحده هو من يعلم صدق إيمان إبراهيم، ولكنه سؤال للهداية والتوجيه لمن بعده بأن هذا السؤال طبيعي ومشروع، وليس قادحًا في الإيمان، ثم أحاله إلى التجربة الحسية لاستكمال مقومات الطمأنينة: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وحتى بعد أن تحقق هذا البرهان الحسي القاطع في الاستدلال، وتحققت الطمأنينة المنشودة، كان إبراهيم عليه السلام محتاجًا أيضًا إلى مزيد من التثبيت، فجاءه الأمر من ربه ليتعاطى مع كل ما يستجد أمامه من تساؤلات قادمة وما أكثرها باستذكار عزة الله وحكمته: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، بعد أن رأيتها أتتك سعيًا يا إبراهيم، وثبت لديك أن النواميس والقوانين في الوجود ليست محصورة فيما يعلمه الإنسان، ويدركه حسيًّا في دنياه هذه، وأن القدر الكوني ليس محصورًا بنظام وقوانين الدنيا التي منها انتقال الكائن الحي من الحياة إلى الموت فقط، اعلم أن هناك قوانين ونواميس كونية أخرى فيها ينتقل الكائن من الموت إلى الحياة، تمامًا كما ترى نواميس حياتك الدنيا تنقل الأحياء إلى الموت، فالقادر على هذه قادرٌ على تلك، وتلك حياة أخرى لها أجل، فاجعل هذه التجربة معيارًا لكل ما يعترضك في حياتك، ولا تطلب مزيدًا من الأدلة الحسية، ولا تنتظر أن تتكرر مع كل تساؤل، وكما رأيت إتيانها لك سعيًا بعد أن ذبحتها، وقطعتها خلاف المألوف في حياتك، فإن عالمًا آخر بل عوالم أخرى لا تعلمها، ولا تعلم قوانينها لكن الله يعلمها قائمة، أو ستقوم بأمر الله واختياره، لها أيضًا نواميسها الخاصة التي قد لا تتفق أبدًا مع عالمك الدنيوي، فآمن واستسلم، واعلم أنك أمام خالق عزيز لا يعجزه شيء ولا غالب له، وحكيم يضع الأشياء في مواضعها، خطاب لإبراهيم، ولكنه للناس جميعًا.

أما موسى عليه السلام فقد رفع سقف المسألة إلى أقصى حد ممكن أن يطلبه مخلوق من خالقه، حين طلب من الله أن يمكنه من رؤيته ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولأن البشر لم يخلقوا قادرين على استيعاب ما فوق قدراتهم من المخلوقات من عميق أسرار الخلق كبيرها وصغيرها، فكيف والأمر طلب رؤية خالق المخلوقات كلها، طلب

كبير جدًّا وتحقيقه لا يتصور بحال في الدنيا، جاءه الجواب من الله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] فأنت يا موسى، في هذه الدنيا مخلوق ضعيف، وكل ما تملكه من قدرات بشرية غير مؤهلة للنظر إلى الخالق، ولكن انظر إلى مخلوق مثلك له صفات أقوى منك، لم يثبت هو الآخر على الرغم من أنه أشد منك بأسًا وصلابة وثباتًا، وهو الجبل لتقريب الإجابة: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإذا لم يستقر الجبل مكانه فكيف بعين البشر، وما هم عليه من قدرات محدودة، وهذا الذي حصل لجبل جلب الصعقة إلى موسى، فأغمي عليه من هول ما رأى من مخلوق مثله، فكيف له برؤية الخالق ﷻ؟! إنها آيات بينات لأولي الألباب تخاطب العقلاء مؤكدة على هذه القاعدة المحكمة (عدم إدراكنا للشيء لا يعني عدم وجوده)، فسبحان مَنْ وجودُه لا يحتاج إلى إدراكنا.

لم يقتصر الأمر على إبراهيم وموسى، فهذا سيد الأولين والآخرين وإمام المؤمنين والمتقين وصفوة الخلق أجمعين محمد ﷺ يخاطبه القرآن بنص صريح لا يحتمل التأويل، بعد أن قص عليه من قصص الأنبياء من قبله، وكرر أنباءها في سورة هود تكرارًا عجيبًا مثيرًا جعله ﷺ يصف ذلك بقوله: «**شيبت بي هود وأخواتها**»(١)، من قوة تأثره بالخطاب القرآني المكي، ومع هذا لم يكتفِ الوحي بذلك، بل خاطبه بعدها منبهًا ومذكرًا بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. ثم قال له أيضًا في سورة يونس وبعد تكرار تلك القصص ولكن بعرض مختلف: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

تأمل معي أيضًا خطاب التثبيت الرباني الذي أنزله الله على رسوله محمد بن عبدالله ﷺ، يقول له ربنا عن الوحي الذي يوحيه إليه مباشرة: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]، ويذكره بأن هذا

(١) الحديث: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله شِبْتَ! قال: «**شيبتني هودٌ وأخواتها**». أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٦-٢٨٧) وإسناده حسن.

الوحي ما هو إلا استمرار لمن كان قبله من المرسلين: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣]، لقد كان النبي العظيم، وهو المصطفى في حاجة إلى كل هذا الخطاب التثبيتي وغيره من الخطابات المطمئنة له، بل يصل الأمر أحيانًا إلى ذكر ما يستدركه القرآن عليه، ففي موضع آخر يقول الله ممتنًّا عليه بتثبيته وحفظه من الركون لأهل الباطل: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] فهل كان النبي العظيم في ضعف أو شك أو حيرة من أمره حتى تتنزل عليه هذه الآيات الشافيات له ولنا من بعده؟ حاشاه ﷺ، لكنه تأكيد أن هذا مقام الاستبيان وضرورة التثبيت لا يمكن المخاطرة في تأجيلها وكتمانها، وأن الأمر الذي قد تتذمر منه أحيانًا، وتتردد في طرحه للنقاش بهدف الحيطة من تعكير صفوة الحق، إنما هو أمر طبيعي فطري ضروري لكي يوصلك إلى الحق المبين، وأن ربنا الرحمن معنا دائمًا نحبه ويحبنا، فلن يضيع إيماننا وهو أرحم بنا من أنفسنا ووالدينا والناس أجمعين، (فدع القلق، وتمتع بالإيمان).

وكما كان الحال مع إبراهيم عليه السلام، حين أرشده الله بعد البرهان إلى مزيد من الإيمان والتقوى، وأراه ملكوت السماوات والأرض بهدف اليقين: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] تكرر المشهد أيضًا مع أشرف الخلق ﷺ، فبعد هذا الاصطفاء له، والوحي المتنزل عليه، والملائكة المؤيدين له، وتذكيره بقصص الأنبياء التي جاءته، وتكرارها عليه للتثبيت والمواساة، تطلب الأمر أيضًا أن يتبعها الرحمن بجرعة تثبيت وتطمين إضافية (خاصة) حين خاطبه بعد كل ذلك بقوله: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] هذه الآية التي تهز القلوب والوجدان هزًّا، والتي تم اقتباسها لتكون عنوانًا لهذا الكتاب، بل الكتاب كله جزء مما يمكن أن نستنبطه من هذه الآية العظيمة وحدها، إنها كلام الله أولًا، وأمر الله لنبيه ثانيًا، والتأكيد أنه الحق ثالثًا، والتأكيد أيضًا بوصفه بالمبين، والخطاب لأفضل الخلق أجمعين، فيا أيها المؤمن المحب، تفكر وتدبر هذا الأمر جيدًا، فلست وحدك أبدًا، وإذا كان الأمر هكذا طبيعيًّا جدًّا مع رسل الله وصفوة خلقه المؤيدين بالوحي والملائكة، أفلا يكون طبيعيًّا مع من هم دونهم من عامة الناس أمثالنا

الذين سوف تسعهم رحمة الله، والذين ما كان الله ليضلهم بعد إذ هداهم، وما كان الله ليضيع إيمانهم فضلًا منه ونعمة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنها البشرى الصادقة لك والحال كذلك بالأمان والتهنئة على ما معك من يقين وإيمان، وبأنك مع الأمة جميعًا، ولست وحدك فيما ترى وتسمع وتحس حولك، بل أنت هكذا لأنك هكذا بطبيعتك التي خلق الله (إنسان)، مثلك مثل بقية البشر بمن فيهم الأنبياء المصطفون، لكننا في حاجة جميعًا إلى التذكير بهذا الخير والحق لإزالة بعض الغبش والغشاوة، وتجديد رسم الصورة الإيمانية الواثقة أمامنا مرة أخرى، ولنعلم أنه مهما اجتهدنا في إيماننا، فلن نصل إلى يقين مطلق في الإدراك العقلي مثل ما نصل إليه بالإدراك الحسي، يعني مهما بلغ إيماننا فلن ندرك حقيقة الملك جبريل وشكله وصورته، أو حتى الشيطان أو الشياطين، أو عذاب القبر ونعيمه، أو نتخيل حال الجنة والنار كما هي في الحقيقة، يستحيل تخيل ذلك في متناول التصور البشري الكامل، كما لو أننا نرى بحواسنا الخمس شكل النخلة والجبل والوادي والفيل، إننا نتحدث عن عوالم فوق قدراتنا، إلا ما أخبرنا عنها الوحي فقط، فلننتفض من لحظتنا هذه على الوساوس والأوهام، ونخلص من هذه الأعباء الفكرية الثقيلة الناتجة من خلل في التصور وقصور في التفكير، فلم نكلف بأكثر من الإيمان بالغيب، أي التصديق بالخبر، وانتظار تأويله يوم يأتي تأويله يوم القيامة فقط.

إنه لا تعارض بين هذا الإيمان المجرد وبين محاولات فهم ما يمكن الإحاطة به من الوجود حولنا وفق ما يسره لنا من أدوات حسية وعقلية، ففي محيطنا أعراف وحقائق وجودية يقينية بحتة، ممكن أن تكون مفاتيح لمزيد من المعرفة الإنسانية الممكنة في الدنيا فقط، وقد علمها الإنسان من فطرته[1]، ويمكن تصنيفها إلى أربع فئات: الأولى، الأوليات العقلية المحضة التي أصبحت يقينًا محضًا، مثل قولنا: إن الأربعة أكبر من الثلاثة، والشيء لا يكون قديمًا وحديثًا معًا، والثانية، محسوسات واضحة جدًّا كاستدارة الشمس والقمر ونورهما، والثالثة، المحسوسات مع قياس خفي، وتسمى المجريات، كمعرفتنا أن الضرب يؤلم الحيوان يقينًا؛ لأننا نشعر بالألم عند الضرب، بينما لم نشعر

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٦٤٠.

بشعور الحيوان عند ضربه، والرابعة، يقينيات تم استنباطها بواسطة الإنسان كقولنا: الاثنان ربع الثمانية، وهكذا[1]، وهذه الأصناف كلها متعلقة بقوة العقل وإدراك الحواس معًا، وذلك لا يمكن تطبيقه ولا اتباعه للوصول إلى يقين الإيمان بالغيب الذي هو مناط الابتلاء للإنسان في هذا الوجود، فكان المطلوب من الإنسان يقينًا من نوع آخر، لا تنطبق عليه هذه المسلمات الدنيوية، إنه التصديق المطلق لخبر الوحي مع الاستئناس بالآيات والبراهين الحسية للتقريب والفهم، إن تيسر ذلك دون الاعتماد عليها وحدها، مع إسناد كل ما استعصى فهمه على البشر إلى الله وحده انتظارًا للقائه ﷻ في يوم تصبح جميع الغيبيات المحيرة للعقول في الدنيا يقينيات شاهدة واضحة مدركة بل أكثر يقينًا من تلك الأصناف الأربعة السابقة، وهذا خيار لا بديل عنه.

*****

لست شريرًا وغيرك خيِّرٌ!

عندما تطمئن إلى إيمانك هذا، فلا بد أن تدرك نعمة الله عليك أن منحك هذه الشجاعة والصبر في حياتك وأنت وحدك (تتقاتل مع الفكر والضمير داخليًّا) للدفاع عن حصن الإيمان في مواجهة هذه التساؤلات الملازمة لك، التي عادة ما يصحبها قلق ورعب، فلا ينبغي ظلم النفس بأن تحملها فوق طاقتها وفوق تكليفها عندما تتصور وكأنك وحدك مستهدف بالسوء والضلال المبين بعد أن أحاطت بك الشياطين، أو أنك تتأرجح على حافة الهلاك، وتخشى أن تخطفك الطير أو تهوي بك الريح في مكان سحيق، أو أنك (رمز) الشر والشك في الكون ومن سواك هم (رموز) الخير والنقاء والإيمان واليقين والطهارة، كلا ثم كلا، فيك من الخير العظيم ما لو أنك أدركته لابتسمت، وبقيت مبتسمًا حتى تموت مبتسمًا سعيدًا بفضل الله.

قطعًا أنت لست شريرًا بتلك الصورة المجحفة، وليس وجودك بهذا الغموض السوداوي والخوف والتيه الذي تحدث به نفسك أحيانًا مهما كانت درجة إيمانك، ولئن

(١) أسس اليقين بين الفكر الديني والفلسفة، مجلة المعرفة، ملف العدد ١٧٤، تاريخ ١٠/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.

وجدت فريقًا من الناس قد ضلوا، وهلكوا هلاكًا حقيقيًّا، فهذا أمر قَدَرَه فوق طاقة البشر، حتى إن كان باختيارهم، ولست مسؤولًا عنهم بقدر ما أنت مسؤول عن إنقاذ نفسك بنفسك أولًا، وحرصك على ألا تكون منهم، علمًا بأنهم لا يشكلون نسبة معتبرة مقارنة بالسواد الأعظم من المؤمنين من الناس عبر التاريخ البشري، وكلنا مأمورون بالحيطة والحذر، ولكنك تخطئ عندما تظن بربك هذا الظن السيئ وأنت المحتاج إليه، وهو غني عنك تمام الغنى، عليك أن تعلم أن رحمته الواسعة لكل شيء لا يمكن معها أن تعيش أيها العبد الضعيف، بهذا القلق المفزع حول سر وجودك ومآلاتك بعد مماتك، عندما أذكرك ونفسي برحمة الله فإني أذكرك بخير مطلق متدفق على الخلق أجمعين لا يمكن وصفه، ولك أن تتخيل سعة رحمته، وهو يوصي الوالدين بأولادهما! تأمل جيدًا! هل يحتاج والد أو والدة أن يوصيهما أحد بولدهما! لولا أن الموصي أرحم منهما به، هذا الأحد هو الواحد الأحد (سبحانه) وهو أرحم بنا منهما يقول للوالدين: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١] إن هذا الرحمن الرحيم بنا هو الذي خلقنا، وأخبرنا، وطمأننا، ووعدنا بالرحمة والغفران، بل بالحياة الطيبة في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] ألا نستحضر هذا الخير العظيم، عندما تمر بأحدنا عاصفة عابرة من الوسوسة الزائفة؟

تذكيرك بهذه الطمأنينة الإيمانية لا يعني تقليلًا من شأن تعطشك لمعرفة أمور الغيب، ولا تساهلًا بتلك التساؤلات المتزاحمة على عقلك بصمت، التي ربما أقضّت مضاجع الأولين والآخرين الذين حاولوا الاقتراب من فك شفرة أسرار الوجود بعيدًا عن الوحي، فلم ينجحوا، ولم يطمئن، ويسكن إلى كل ما يتعلق بعلم الغيب سوى أولئك المؤمنين بالخالق، الذين صدّقوا خبره الواصل إليهم عن طريق الوحي، فارتاحوا، وأراحوا، وعاشوا بسعادة ويقين ورخاء واسترخاء، ولكن لا بد من وضع ما يدور في نفسك مهما كان حجمه في موضعه الطبيعي دون خوف، ولا بد أيضًا من طمأنة من يعتقدون أنهم هالكون لمجرد تعرضهم لهذه التساؤلات، وهم في حقيقة أمرهم مؤمنون بالله حق الإيمان، لكن يجب التصدي بشجاعة لهذه الرهبة السلبية القاتلة عند بعضنا من

المجهول في ذهنه مما هو ليس بمجهول حقًّا في عالم الواقع؛ كي نبقى على إيماننا ويقيننا سعداء حتى يأتينا اليقين الذي هو آتٍ على الجميع لا محالة.

إن أمر الإيمان بالله وفهم الوجود كله من حولك يسير جدًّا لو أنك أيها الإنسان، استشعرت حجمك الطبيعي بين الموجودات المعلومة فضلًا على غير المعلومة، وتأملت زمانك ومكانك ووجودك، ثم استسلمت، وسلمت أمرك لخالقك العظيم الذي لا ند له ولا شريك ولا شبيه، دون أن تكابر أو تجادل بغير علم في أمور لم ولن يدركها مخلوق، وبعدها قطعًا ستصل إلى الاستقرار الروحي، عندما تدرك أنك عبد ضعيف يموت، وفقير أمام سيده العظيم القوي المتين الحي القيوم القادر على كل شيء، أما صعوبة استساغة هذا الأمر على بعض العقول، فهي محصورة في أضيق مجال، حيث يُوجد الضالون في بيئة العناد والمكابرة التي بسببها سقط صانع الأصنام (آزر) مع أنه والد النبي إبراهيم، وللسبب نفسه أيضًا غرق (ابن نوح)، وهلك (أبولهب) عم رسول الله ﷺ، ومات (أبوطالب) على الشرك، وهم عند منبع الإيمان الصافي مباشرة، وأولئك هم الضالون الذين لم تنفعهم قرابتهم بمن يحملون مشعل النور البشري.

أنت لست رمزًا للشر، ولا عنوان الهلاك والضلال في هذا الكون، كلا، ولا أنت مادة الشك والتيه والريبة، بل أنت عكس ذلك تمامًا، أنت المؤمن المجاهد مع نفسك سرًّا ليتجلى لك اليقين المنشود وسط قلق واضح عليه، فأبشر واستبشر وأنت تعيش هذه المجاهدة بأنك في الهداية أصلًا، وسيهديك الله إلى طريقها بإذنه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وأعظم سبيل من هذه السبل هو سبيل الهداية للإيمان الموصل إلى اليقين المطمئن، فسيهديك الله إليه على الرغم مما تحمله من همّ وقلق وخوف على إيمانك، فأنت السائر على خطى الأنبياء والمرسلين حتى لو سألت، وتساءلت بلا قيد ولا حد، سرًّا أو علانيةً، فلا يصدنّك الشيطان بوسواسه عن الحق، ولا تقدّمْ يسير شك قادم إليك من وراء الغيب على حقائق وبراهين قاطعة من اليقين[١].

*****

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٤٥٠.

إخبارٌ وليس استجداءً

من الضرورة بمكان – والخطاب موجه للنفس والعقل الباطني – بيان أن الاستطراد في توضيح هذا الأمر ضرورة لجميع الأطراف، وليس مجرد استجداء لك كي تؤمن أو تزداد إيمانًا، فهذا شأنك أنت في النهاية، وإن كنا نحب لك ذلك كما نحبه لأنفسنا، ولكنه كشف للحقيقة الإيجابية الماثلة في عالم الواقع، وإخبارك بأن الأمر في عالم الوجود هو كذلك، وهو أكبر منك بكثير سواء آمنت أو لم تؤمن، وأن الطريق المسلوك من قبل كل مخلوق هو واحد، وستسير فيه راضيًا أو راغمًا، وأنه لا خيار لك أصلًا في خلقك ووجودك وعدمك، فكيف بمستقبلك وغيبك؟!، تصبح مكلفًا في حياتك الدنيا بعد بلوغك سن التمييز والرشد، وينتهي التكليف والمساءلة عند خروج روحك أو فقدان الأهلية الشرعية، هذا فقط مناط المحاسبة لأنك تملك الاختيار فيه، أما بعد الموت فتبقى أمام الأحياء (كومة) لحم لا تملك أن تحركها، أو أن تدفنها لولا الفطرة أو ما تفضل الخالق به على الأحياء من تلك (القراريط من الأجر الموعود) لمن يقوم نيابة عنك بتصفيفها وتغسيلها وتكفينها وحملها معززة والصلاة عليها ومن ثم دفنها، ولولا هذه الرعاية الإلهية لك لأصبحت جيفة تنهشها السباع، تقضم أو تنثر عظامها هنا وهناك، فأين مكان ذلك الجبروت والعناد والمكابرة منك بعد موتك؟

نحن معنيون جميعًا بهذا الخطاب الرباني، وعبوديتنا لخالقنا والاستسلام له طواعية دون أي حرج في النفس ضرورة كونية لتوازن وجودنا والعيش بسعادة في هذه الحياة العابرة، إننا عبيد لله وحده هذه هي الحقيقة ولا سواها أبدًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥] والفضل للخالق العظيم الذي أخبرنا عن طريق السلامة، وأمرنا باتباعه، ووعدنا بالجزاء عليه، وحذرنا من طريق الهلاك قبل أن يجعل لنا الخيار والاختيار في أمر محدد وفي مقدورنا، وعليه جاء التكليف، وترتب الجزاء والعقاب، فرفع القلم عمن لا يملك الاختيار الصحيح من صغير ومجنون ونحوهما، ولم يحاسب من لم يبلغه الأمر، ولم يُحاسَب أحد عن أحد، بل هكذا يكون حكمه وحسابه وعدله

من الآن معلنًا في الدنيا؛ حتى لا يبقى لأحد حجة ولا عذر يوم الحساب: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

إنه إخبار صريح بأنك أيها الإنسان، مخلوق بقدرات محدودة، فمن الطبيعي أن تدخل في أزمة وأنت تواجه ما هو محاولة لتفسير وفهم ما هو أعظم منك من مخلوقات جبارة، وأن تجد نفسك أحيانًا في مأزق مستعصٍ جدًّا وأنت في مواجهة الحقائق الكبرى التي لا قبل لك بها، وإن كنت تحاول أن ترتقي معها مرتقى لم تخلق له ولا باستطاعتك خوض غماره، لا أنت ولا من كان قبلك ولا من سيجيء بعدك وفق تحدٍّ قائم إلى الأبد، خسرتْ رهاناته أمم وأباطرة وفراعنة من قبلك كانوا أشد منا قوة وآثارًا في الأرض، أفنوا أعمارهم وأموالهم لاهثين وراء البحث المضني عن سر هذا الوجود ومآلاته، وكان أكثرهم ينفر من الوحي، ويحاول عبثًا الوصول إلى المستحيل غيبيًّا بالحس والعقل، فلم يصل إلى شيء، حتى هلك، وأصبح أثرًا بعد عين: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] وإن كانوا في قوة وجبروت وتمكين، فالذي خلقهم هو أشد منهم قوة، وما كان ليعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء، فاسمع قصصهم، واعتبر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦- ١٤].

إن الكيّس الفطن هو الذي لا يفني عمره الثمين في خوض وجدال عقيم وهدر لوجوده لو كان ممن يعيش هذا العناد المتواصل دون أن يكون في مقدوره تقديم برهان على ما يحاول الوصول إليه، على فرض وجوده، ومهما طال به الأمر فمآله أن يتقبل النتيجة الحاسمة بأن الأنوف، جميع الأنوف، ستجد نفسها راغمة، وهي تواجه الحقيقة الكبرى، إلا وهي الاستسلام الكامل من الإنسان بضعفه إلى الخالق العظيم بقوته، الخضوع من الإنسان الذي يموت إلى الخالق الذي لا يموت، والإنصات إلى أمره ونهيه، يكفي برهانًا على عجز ابن آدم، وهو يرى الأحياء يدفنون جميع الأكابر الذين ماتوا دون رغبتهم، فلا يستطيع أن يفعل شيئًا.

إنه إخبار لي ولك بنعمة الإيمان، وليس استجداء؛ لأنه لا مكان لهذا الكبرياء والعناد المصاحب للشقاء من بعض الناس الغافلين عن مصيرهم القادم، يتفرجون على الساحة، وكأن الأمر لا يعنيهم، بل عليهم أن يتحولوا فورًا إلى الإيمان الصحيح مفتاح السعادة الأبدية، وليعيشوا العبودية المصاحبة للانسجام الكوني، الموجبة للتوازن الروحي والنفسي، لا بد من الصبر والتحمل والتواصي على هذا، ولنكسر هذا الكبرياء المزيف والإعجاب القاتل في العقل المعاند والمخلوق أصلًا من تراب ومآله للتراب، مستحضرين أن لحظة وجودنا في عالم الوجود لا تكاد تذكر لقصرها، وأن هذا الكون كان، وسيستمر بحركاته ودوران أجرامه وأفلاكه من بعدنا كما كان من قبلنا لمليارات السنين إلى أن يشاء خالقه وموجده، فيأذن بنهايته وقيام قيامته، وجميع الحصيلة العلمية والمعرفية للإنسان لا تشكل شيئًا يذكر، ولو في حدود عالمه الأرضي الضيق مقارنة بالمعرفية الكونية والعلوم التي لا يحيط ولن يحيط بها الإنسان مهما أوتي من قدرة، فكيف بعوالم الغيب وأسرارها وأهوالها التي لا يعلمها إلا من أوجدها سبحانه وتعالى.

ولكن على الرغم من هذا كله، تعلم أن هناك أمرًا (ما) يحتاج مني ومنك إلى مواجهة وتجلية، ومن حقك أخي المؤمن، أن يشاطرك المجتمع من حولك هذا الهم، ويأنس بك، وتأنس به، وليس من الوفاء الاجتماعي أن تُترك وحيدًا تواجه هذه التساؤلات الفكرية العاتية دون عِدّة وعتاد إيماني كافٍ نتعاون جميعًا في توفيره والتحصن به، لقد أخطأنا عندما صمت كل منا عن الآخر، وكبت ما في نفسه حينًا من الدهر في وقت ربما يصبح فيه الكلام واجبًا والبيان ضروريًّا، فاستوحشنا في حياتنا، كم كنا قساة في حق بعضنا والواحد منا يستجدي بلسم اليقين تلميحًا وتصريحًا، فلا يقابل إلا بالرفض والزجر أحيانًا أو بإجابة لا تفي بالحد الأدنى من التعطش المعرفي، دون أن ندرك سلبية ما قمنا به من صدود في غير محله، لربما أثر سلبًا في ديننا وإيماننا، كيف يبخل أحدنا بمد طوق النجاة إلى الآخر، بل ربما يقابل من يخاف على إيمانه بالتقريع وطلب التوبة دون أن نملأ فراغ سؤاله بما نعلمه من حق، أو نجعل من استفساره سبيلًا لوصولنا ووصوله إلى الحق المنشود من الجميع للجميع، بحيث يسدد بعضنا بعضًا، ويستدرك بعضنا على بعض، ونتعاون على البر والتقوى، كما أمرنا شرعًا، فيا لها من قسوة! كيف نحجب ما وصفه الله بالنور والهدى والشفاء لما في الصدور والسراج المنير والصراط المستقيم ورحمة للمؤمنين؟

لم ندرك خطأ هذا الجفاء هذا إلا عندما بلغ السيل الزبى، وفاض الكيل وطفح، وتحدث الناس من حافة منصة الهاوية، وأصبحت كلمة (الإلحاد) تتردد على ألسنة بعض الناس، فأصبحت (أزمة نفسية) تتخطف من حرموا الحصانة بالإيمان على بصيرة، لهذا أدعوك معي إلى حيث الأنس الرباني، فالأمر كله خير لي ولك، أحتاج إليك، كما تحتاج إليّ على حد سواء، قطعًا لم يكن هذا القلق من ديننا الذي هو دين الطمأنية والهداية والنور، ولكنها قسوة الأعراف والتقاليد والطباع البشرية القاصرة القاسية، وحاشا لله ألا نجد في دين الرحمة ملاذًا آمنًا نطمئن إليه، ومع رسول الرأفة الذي وصفه القرآن بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وبقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

*****

هل الأزمة حقيقة أم ظاهرة؟

إذا كانت هذه حال البشر مع الإيمان بمن فيهم أنبياؤهم، وهي حالة مستقرة متوافقة مع طبيعتهم، ولا تتعارض مع هذا السيل الجارف من التساؤلات والاستفسارات عن قضايا الوجود، فقل لي بربك: أين تكمن المشكلة؟ قليل من التفكير والتأمل الهادئ سيقودك إلى حقيقة واحدة مفادها أن حالات القلق ظاهرة إيجابية في نهاية الأمر؛ لأنها ناتجة من زيادة الحرص والخوف على الإيمان الموجود أصلًا في نفوس القلقين عليه، ويزداد الأمر وحشة مع غياب العالم أو المفكر الحاضر دائمًا في المسرح العام الذي يملك القدرة على استخلاص بلسم الشفاء من النصوص الشرعية وتقديمه للمحتاجين إليه، وحتى مع غياب هؤلاء يبقى الأمر سهلًا ومريحًا، عندما تتذكر أنك في دار الابتلاء والامتحان الرباني، وأنك مأجور بفضل الله على كل شيء تهتم فيه بما في ذلك خوفك من الضلال واحتياطاتك الدفاعية لحماية الإيمان والإمساك به، وأن هذا الذي يحصل معك هو المطلوب أصلًا في الدنيا لكي تجزى عليه الجزاء الأوفى بإذن الله، وهذه درجة عالية من الإيمان واليقين توجب الشكر والسعادة، تختلف تمامًا عن حال من يرى الأزمة

بذلك الحجم السوداوي المخيف الذي تضخم لديه لمجرد حدوث التفكير البشري الطبيعي المنسجم مع كون المرء عاقلًا رشيدًا يتلمس ما حوله حسًّا وعقلًا.

ومن هنا ندرك أنه في الحقيقة لا توجد مشكلة مستعصية أصلًا إلا في عالم الظاهر فقط، وأنك بفضل الله تقف على قاعدة إيمانية صلبة راسخة، تذكّرك بكل ثقة بأنك وإن كنت تظن أحيانًا أنك على حافة الهاوية من الضلال بما يلوح لك في الأفق العارض أحيانًا من تساؤلات منطقية، فإنك في الحقيقة غارق في النعيم الإيماني المحض الذي تحسبه جحيمًا لخوفك وتخوفك من تبعاته، بينما هو الإيمان الحق بصموده وثباته ومجاهدة نفسك للحفاظ عليه، ولو لم يكن ثمينًا وموجودًا في ضميرك متأصلًا في فطرتك السليمة لما قلقت كل هذا القلق على انفلاته، وخشيت على زواله، وحتى لو لم تقتنع بهذا التشخيص، فستجد ما يكفيك من الأنس بحال الأنبياء، بل ومع أولي العزم من الرسل عليهم السلام، وهم يسألون الله الأكبر عن أكبر مما أنت عنه تسأل، وكما ذكرنا آنفًا إنهم لم يكونوا يسألون الناس، بل يتوجهون إلى رب الناس مستفسرين، مفتقرين إلى تثبيته لهم، أفلا يكون من دونهم أحوج منهم إلى ذلك؟ ألا يكون أصحابهم ومن بعدهم التابعون لهم وتابعوهم أحوج بكثير ممن سبقهم؟ ونحن الأحوج من بينهم جميعًا إلى ذلك، أرأيت كيف أن الوضع طبيعي جدًّا لا يستوجب كل هذا القلق والخوف؟!

ولكي تتخلص من أوهام الأزمة الظاهرية لا بد من إعادة طريقة تفكيرك في هذا الأمر ومعرفة أسباب الأزمة والحيطة منها، لا بد من الخروج فورًا من هذه المآزق المترهلة من القلق الخيالي، وتلك مشكلتك أنت من الداخل، فتخلص منها بقرار شجاع، وحينما أقلل من أهمية عبء هذا التفكير الذي يغشاك أحيانًا، فيشعرك بضعف الإيمان، إنما أتحدث معك عن حقيقة إيمانية واقعية موجودة أصلًا، أقرها ولا أزورها، وحتى لا يكون الأمر بعيدًا عن الواقع العملي تعالَ معي إلى استراحة قصيرة لننظر ماذا حدث مع من كانوا أقرب الناس إلى الرسل إيمانًا ومكانًا وزمانًا، وأعني بذلك أصحابهم وحوارييهم ممن تلقوا الوحي منهم مباشرة، ولأنهم مثلك وأنت مثلهم وأنا مثلكم في التفكير، فقد مروا بما تمر به من مشاهد واستفسارات، استوقفتهم كما استوقفتك اليوم، حتى تعلم أنك طبيعي، ألم يتكلم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عند رسول الله ﷺ بما في نفسك الآن؟ ويسبقون كلامهم بمقدمة (وجل وتخوف) هي تجول في صدرك، لا أقول أحيانًا بل

في هذه اللحظة وأنت تقرأ هذه السطور، لقد قالوا للرسول المصطفى ﷺ: «**إننا نجد في أنفسنا ما نتعاظم أن نتكلم به!**»، لقد قالوا ذلك، وهم على البراءة الفطرية، وبين ظهرانيهم أفضل الخلق، ولم يتأثروا بكتب الفلاسفة اليونان والرومان والفرس ولا يوجد بينهم متكلمة ولا قنوات فضائية ولا (إنترنت) تمطرهم بالشبهات والوساوس ليل نهار، وليسوا ضحية انفتاح غير منضبط على الحضارات، كما هو الحال اليوم، ولم يتعرضوا لمثل ما نتعرض له من طوفان وعواصف وأعاصير فكرية هائلة مما يحتاج منك إلى مزيد من الصبر كي تفوز بجنات ونهر من جراء هذه المجاهدة والصبر.

*****

كذب (الملحدون) وما صدقوا

عندما تدرك أنك لست وحدك في هذه الأجواء الفكرية الفطرية، وأن لا مشكلة توجب كل هذا التخوف من نقيض الإيمان، فهذا لا يعني نفي وجود الغبش الطارئ وتبسيط المسألة أو التساهل في السيطرة على تطاير الأفكار في كل اتجاه، كما يحدث أحيانًا لمن فقدوا بوصلة الطريق مؤقتًا بحسن نية، وهنا يكمن موضع التذكير والتثبيت والأخذ باليد إلى شاطئ الأمان، وهو الذي تدور حوله المحاولات الجادة لضبط البوصلة بالاتجاه الصحيح، وعلى الرغم من كل ما سبق من تطمينات إيمانية فالواجب أن تحتاط لنفسك بنفسك دائمًا بالتمسك بإيمانك والمحافظة عليه دون أدنى قلق من محاولات الاختراق النفسية التي تتعرض لها في حياتك، ففي الوقت الذي أدعوك إلى الثبات على الحق الذي أنت عليه، فإني أيضًا أذكرك بألا تكترث بما حولك من تضخيم مبالغ فيه لظاهرة الإلحاد، وحذارِ حذارِ أن تعصف بك الرياح الزائفة عند بعض من يدعون اعتناق المذهب الإلحادي الزائف أيضًا، ولا يستخفنّك كلامهم وزيف دعواهم؛ لأنهم في نهاية المطاف كذابون مع ذواتهم[1]، يقولون في حالة الاسترخاء النفسي ما يتعارض

(١) نعم، إنهم كاذبون ويعترفون بذلك أمام أنفسهم لكنهم يصرون على ادعاء الإلحاد في الظاهر ولا يستطيعون كبت الحقيقة من داخلهم قيل لأحدهم: هل أنت متأكد أنك ملحد؟ فقال: (والله العظيم إني ملحد!) وآخر بدأ مناظرته بقوله: (السلام عليكم ورحمة الله!) ويكفي تناقضهم أنهم يدعون أن الوجود خلق من غير خالق ويصرّون على ذلك ولا يقبلون أن يوجد الخالق من غير خالق!

مع مواقفهم في حالات الامتحان العملي، وإن كانت تافهة، فما يقولونه في وادٍ، والحقيقة التي يعيشونها في وادٍ آخر، إنهم كما وصفهم الله تعالى بأنهم لا يكذبونك، ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون.

هل سمعت قصة انتحار الدكتور (إسماعيل أدهم)(١) الذي يوصف (بالملحد) لشدة إصراره عليه؟ حتى قال عن نفسه في حياته: «درست في الاتحاد السوفيتي، وتنكرت للأديان، وتخليت عن كل المعتقدات، وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمي، وصرت أسعد حالًا وأكثر طمأنينة عن حالي، عندما كنت أغالب نفسي»، هذا ما كان يدعيه علانية، فماذا كانت النتيجة؟ وجدت جثته عام ١٩٤٠م على سطح مياه بحر الإسكندرية وفي جيبه ورقة موجهة للنائب العام وبخط يده يؤكد فيها انتحاره زهدًا في الحياة الدنيا وكرهًا لها، ويطلب إحراق جثته وعدم دفنها في مقابر المسلمين! فأين تلك الطمأنينة المزعومة، وهو شاب لا يزال في الثلاثين من عمره؟(٢)، وهذا ملحد آخر يقول مكابرًا: «إني مستعد أدخل النار بحريتي، ولا أدخل الجنة عبدًا للإله!»، بينما اتضح أن رفضه للعبودية هذا لم يكن اعتزازًا بالحرية، كما يزعم لأنه عندما راسل صديقته ختم الرسالة بعبارة: «أنتِ معبودتي!»(٣)، وعندما حضرت الوفاة (جان بول سارتر)(٤) مؤسس الفلسفة الوجودية الإلحادية طلب من شريكة حياته أن تدعو له قسيسًا، فاستغربت منه هذا الطلب الذي يتعارض مع تاريخ عمره الذي أفناه في رفض الأديان، وقالت: سأطلب لك كاردينالًا (أعلى رتبة من القسيس)، فاستشاط غضبًا، وقال: «لا أريد

---

(١) إسماعيل أدهم (١٩١١- ١٩٤٠) الموافق (١٣٢٩- ١٣٥٩هـ) كاتب مصري ولد من أم نصرانية وأب مسلم كان يعامله بكل قسوة وعجرفة كما ذكر ذلك في كتبه نال درجة الدكتوراه من جامعة موسكو في العلوم له مؤلفات يعلن فيها أسباب إلحاده مات منتحرًا عام ١٩٤٠م: (وهم الإلحاد، تقديم: محمد عمارة، عمرو شريف، الأزهر، (١٤٣٥هـ)، ص١٢٨).

(٢) وهم الإلحاد، تقديم: محمد عمارة، عمرو شريف، الأزهر (١٤٣٥هـ)، ص١٢٦.

(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٨.

(٤) جان بول سارتر Jean- Pual Sartre (١٩٠٥- ١٩٨٠م) الموافق (١٣٢٣- ١٤٠٠هـ) فيلسوف فرنسي نشأ يتيمًا بين أمه الكاثوليكية وجده البروتستناتي عمل أستاذًا للفلسفة في الهافر يطبق على نفسه علم النفس الوجودي وأصيب بالعصاب الحقيقي عام ١٩٥٣ ثم شفي منه: (معجم الفلاسفة باب (الفلاسفة المناطقة المتكلمون اللاهوتيون المتصوفون) جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م، ص٣٤٩).

كاردينالًا، إنهم يغشون الإله، أريد قسيسًا متواضعًا من قرية مغمورة»! فجاءته بقسيس، فاعترف له بخطيئته وندمه طمعًا في النجاة[1]! فأين كان إلحاده المزعوم طيلة عمره الذي أفناه ليطلب في آخر لحظة اللجوء مختارًا إلى الرب والدين؟!

هذه بعض الأمثلة من قصصهم المعبرة عن حقيقة ما يكنونه في عقولهم الباطنة، أسوقها هنا تنزلًا عند حجج الخصوم، ودحضًا لادعاءاتهم الباطلة، ولو وضعنا الأمر في نصابه الصحيح العادل في هذا الوجود فلا ندري بأي وجه نقابل ربنا ونحن نخوض مع الخائضين فيما لا حجة فيه ولا يقين، فلا تكافؤ ولا تساوي ولا تقارب، بل إن استخدام كلمة (طرفين) سوء أدب وتجاوز في حق الله الأعظم أمام أحد من خلقه الضعفاء الفقراء، هذا ونحن بين يدينا أعظم الأدلة والبراهين وأقواها وهو كلام رب العالمين، ورب السماء والأرض، إن الأمر في حق الله لمختلف جدًّا جدًّا، فلنتأدب مع الخلاق العظيم، لا أقول: إن الفارق بين الخالق والمخلوق لا يسمح بمجرد التفكير في المقارنة، بل أقول: استحالة المقارنة أصلًا، تجعل العاقل الرشيد يستحضر عظمة الرب وملكيته المطلقة للوجود كله، فيستحيي منه حق الحياء، ويوقن تمام اليقين أنه لا يليق بمقام الربوبية الأعلى أن يكون وكأنه رهن الطلب والإشارة من قبل أي مخلوق ضعيف أدنى في كل مناسبة جدلية، يستجيب لكل نداء مباشرة وعلى الوجه الذي يحدده ذلك المخلوق، ويقبل التحدي من أي طرف، حيث لا يرد التحدي أصلًا من الأضعف، فإذا حدث هذا في حواراتنا فهو تجاوز غير مقبول، بل فيه نظرة دونية للرب الأعلى، وافتراض الندية مع خلقه، وهذا مستحيل محال وفق جميع القواعد العقلية والمنطقية فضلًا على الشرعية: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٤٣].

تخيل إلى أي مدى وصلت الجرأة بالإنسان الجهول على ربه وخالقه، فعلى الرغم من قصر أجل الإنسان وضعفه وهامشيته الضيقة في الوجود الفسيح، وفقره الشديد إلى ربه الغني الحميد، وضعفه إلى ربه القوي العزيز، وجهله بنفسه فضلًا على ما حوله وما لا يعلمه من عوالم لا متناهية في الوجود، فهو يدعي ويقرر، ويفترض، وينفي، ويثبت من تلقاء نفسه، ويخوض متخبطًا في أمور فوق مقدرته وطاقته، يفعل كل ذلك وكأنه

(١) وهذا إقرار منه بالدين بغض النظر أحق هو أم باطل: (رحلة عقل، شريف (مرجع سابق)، ص١٥٠).

ينازع خالقه العظيم الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، ومن يسجد له ما في السماوات وما في الأرض، وهو سبحانه قد خاطبنا وهو غني عنا، كل ذلك تكرمًا وتفضلًا وتنزلًا، إلا أننا مع كل أسف لم نقدر هذا التنزل حق قدره، خاصة عندما ندرك ضعفنا وحاجتنا إليه في حالات الخوف أو المرض أو الموت بل في كل أوضاعنا وشؤوننا.

*****

إذا ضاقت بك فتذكر رحمة الله

ما أجمل هذا الوجود وأسعده بمعية الله تعالى واليقين برحمته، وما أقبحه وأوحشه في غياب الإيمان بالله مع سوء الظن!، لا يخلو هذا الوجود من مفرحات ومبشريات ومن أجملها استشعار رحمة الله الواسعة التي لا تضيق عن شيء على الإطلاق، كلنا يستشعر هذه الرحمة ونحن نغوص معك فرحين في أعماق طمأنة الرب ﷻ لعباده، بعد أن هداهم للإيمان، ووعد بأنه لن يضلهم بعد إذ هداهم، فالرحمة من أعظم صفات الخالق الرحمن الرحيم، ومن رحمته أن جعل هذا الإيمان موجودًا لديك بحمده ومنّته، والدليل على ذلك قلقك عليه ومواصلتك القراءة في هذا المجال لحفظه، ها أنت هنا تحديدًا تواصل القراءة؛ لأنك متعطش لشيء ما، لا تستطيع إنكاره، أنت تقرأ طمعًا في الوصول إلى أشياء قد تكون رسمتها في خيالك هدفًا معرفيًّا قبل القراءة، نعم، أنت الآن تواصل قراءة هذا الكتاب مشدودًا إلى نهايته مشتاقًا للمزيد منه ومن غيره لكي تجد شيئًا يملأ فجوة فراغاتك الاستفهامية الطبيعية، تريد ردمها بفكر سليم صحيح، وبإجابات مقنعة مطمئنة، وهذا هو الحرص على بقاء الإيمان الذي لا تضره الوسوسة، ولا تزحزحه الشكوك، إنه الإيمان الذي يدفعك بهذه القوة نحو البحث بجدية وشغف عن شيء ثمين، أو أن تحافظ على ثمين موجود لديك أصلًا، إنه لا شيء سوى حقيقة وجود ذلك الإيمان الضروري فطريًّا، والمتعمق في عقلك الباطني ليوازن وجودك المادي والمعنوي حتى في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة.

إني أبشرك ثقةً بوعد الله لنا بأنك بخير ما دمت بهذا الحرص الواضح على تتبع أي مصدر يروي عطشك المعرفي الإيماني، كهذا الحرص على مواصلة قراءة مثل هذه

المؤلفات الفكرية، وهذا التوجه بحد ذاته أوضح دليل على أنك مؤمن تسهر ليلك، وتقضي نهارك لصيانة طريق الإيمان الذي تعرف معالمه من أوله إلى آخره، إنك تقرأ لتحافظ على ما عندك، وتبرهن عليه، ولست بصدد اتخاذ قرار إما هنا أو هناك، ومن ثم، فأنت مهموم وغيور عليه، ولا خيار لك إلا أن تكون كذلك، وأن تقر بذلك، وأن تحمد الله على ذلك، فكن شجاعًا أمام هذه التساؤلات وواثقًا من نفسك، وانتفض فورًا لنسف الأوهام والوساوس الطارئة على تفكيرك، وامسح تلك الصورة السوداوية المترددة في مخيلتك عن نفسك، فلا تظلمها هذا الظلم الجائر، فتعذبها بالوسواس والقلق، بينما هي والحمد لله مؤمنة زكية حقًّا تقف شامخة بإيمانها الراسخ خلف جدار وهمي من التساؤلات الفطرية الطبيعية العابرة، تذكر أنها نفس مؤمنة يرجى لها كل خير على الرغم من التقصير.

يجب أن يكون هذا موقفك تجاه تحديات الوجود، لا لشيء إلا لأنك الإنسان الذي يعقل، ويفكر، ويتدبر، ويطيع ربه وخالقه وموجده الذي أمره بذلك، وتعالى ربنا الرحيم الرحمن: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧] أن يكون (قاسيًا) على خلقه الضعفاء، وهو أعلم بحالهم، حاشاه سبحانه أن يبقيك تفني عمرك وحيدًا طريدًا في تيه القلق الدائم والأفكار السوداوية المظلمة التي لا تعرف مبتداها ولا منتهاها، وهو يعلم صدق حرصك على إيمان راسخ ويقين دائم، أليس هو القائل سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

من الخطأ أن يقلق المرء من حساسية التعامل مع الغيبيات التي يكفي الإيمان بها على الصورة التي جاء بها خبر الوحي، علمًا أن هذا النوع من الإيمان له مقام عظيم وجزاء كبير عند الله؛ لأنه تكليف خاص يترتب عليه جزاء خاص أيضًا، ولا يرقى إليه بالتكليف سوى هذا الإنسان الذي فضله الله على بقية خلقه بهذا العقل، وأن الجنة هي أعظم جزاء لأعظم امتحان بالإيمان بالغيب، ولولا هذه الأفضلية لما خاطبنا القرآن بالثناء المميز، عندما وعدنا بالأجر الكبير لمجرد أننا آمنا بالغيب الذي لا سبيل إلى إدراكه بحواسنا لولا أن بلغنا خبره عن رسوله ﷺ، فصدقناه دون أن نراه أو نسمعه

أو نلمسه حسيًّا، فكان هذا الوعد بالجزاء الكبير من الخالق الكريم ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢] وكان دخول الجنة بسلام من الرحمن هو جزاء أولئك الذي يخشونه بالغيب أيضًا: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ [ق: ٣٣- ٣٤] ولهم البشرى في الدنيا وفي الآخرة: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤] وكان هذا الإيمان بالغيب مع الخوف المحمود من أسباب ثناء الله على المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

*****

الفصل الثالث

وقفات مفصلية لتشخيص الأزمة





وقفات مفصلية لتشخيص الأزمة

إن وجود شيء ما في نفوس الناس حول الوجود ومآلاته لا يعني الإقرار بتلك الصورة المضخمة عن الظاهرة برمتها، فقد يكابر من يستطيع تمرير شيء ما إلى الآخرين، لكن يستحيل أن يكابر الإنسان مع نفسه، والواقع يثبت وجود (قلق) قد يصل عند بعض الغافلين إلى حد الأزمة فعلًا، وهو ما نشير إليه بين الفينة والأخرى في هذا الكتاب، وسنصفه هنا بـ(الأزمة الظاهرية) مع العلم أنه سبق الإيضاح بأنها ظاهرة طبيعية لا تشكل خطرًا بالحجم المتضخم عند بعض الغيارى المشفقين، ولكي نصل إلى جواب كافٍ حول وجودها من عدمها، فلا بد من فهمها من خلال التعرف إلى بيئتها ومحضنها الطبيعي الذي نشأت منه، حتى نشخصها تشخيصًا سليمًا، علمًا أن السكينة والطمأنينة توجد حيث يوجد الإيمان والاستئناس بالوحي، وتظهر علامات الأزمة المعرفية كلما ابتعد الإنسان عن خالقه، وحين يغشاه الخوف يبحث عمن يجد فيه رجاء تحقيق الأمن، ولا يجتمع الخوف كل الخوف، والرجاء كل الرجاء، إلا بحق القادر على إيجاد كل خوف ومنعه، والقادر على إعطاء كل شيء، هو القادر الذي لا يعجزه شيء مطلقًا، مالك هذا الوجود المعروف لبني الإنسان وما وراءه ملكًا لا يضاهيه فيه أحد، ولا يشابهه أحد، ولا يقدر عليه أحد، ونحن مع كل أزماتنا نقبع في زاوية نائية من هذا الملك الفسيح لا تكاد تُرَى من صغر حجمها ووزنها زمانًا ومكانًا، فنحن ابتداءً وانتهاءً مملوكون وعبيد وتابعون له، وقد أتى علينا حينٌ من الدهر في هذا الوجود لم نكن شيئًا مذكورًا.

علينا أن نتذكر قاعدة البقاء والفناء، فالباقي معبود، والفاني عبد لمن أفناه، وما كان في هذا الوجود ضعيفًا وفانيًا، فهو قطعًا يخضع للموجد القوي الباقي، ولو تأملت الأمر جيدًا لوجدت أنك تزداد أمنًا وطمأنينة كلما اقتربت من هذا الذي تخافه وتخشاه، أي كلما اقتربت من الله مؤمنًا مستسلمًا له، انغمست في نعيم الطمأنينة والسعادة، وكلما أوهمت نفسك بالهروب منه طلبًا للسلامة بعيدًا عنه، ازدادت وحشتك من مآلات الوجود المخيفة، فما تلبث أن تكرّ راجعًا متعطشًا لدفء ملاذه؛ لأنه لا خيار ولا مفر لك، فأنت مملوك ضعيف جدًّا، محاط من كل جانب بمملكة القوي، بل القوي جدًّا، الذي لا مفر منه إلا إليه، فأين المفر؟!

ومن عجائب تيه (الملحدين) أنهم يزعمون قدرتهم على التحول عن الله بصدودهم عنه وإنكارهم لوجوده، ويتخيلون أنهم ينتقلون إلى غير وجوده وكونه، بينما هم في حقيقة الأمر عبيد له رغمًا عن أنوفهم، فهم لا يستطيعون الخلاص من ملك الله وهيمنته على الوجود، إنهم في ملك الله وحده، إنهم يأكلون الطعام الذي أوجده الله لهم، وهم يعلمون يقينًا أنهم لم يوجدوه، ويشربون الماء الذي أوجده لهم، وهم يعلمون أنهم لم ينزلوه من السماء، ويتنفسون الهواء الذي خلقه الله لهم، ويتمتعون بحياة رسم الله أولها وآخرها رغمًا عنهم، وهكذا يوهمون أنفسهم أنهم يتحولون عن الله وملكه وسلطانه، ولو سلط الله عليهم أصغر كائن حي عرفه الإنسان (الفيروس مثلًا) لما استطاعوا أن يحموا أنفسهم منه، ها هو فيروس نقص المناعة (HIV) يحصد الملايين من الناس بلا رادع ولا مانع، وحتى فيروس الإنفلونزا لم يجدوا له علاجًا، لا طاقة للمرء بأصغر جند الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] ومهما كابر الملحدون، ونسبوا أمر هذا الوجود إلى الطبيعة أو المصادفة -مثلًا- فهم يدركون من داخلهم أن هذه المخارج التي يهربون إليها في الجدل ليست مقنعة، ولا تصمد صمود أدلة وجود الخالق ﷻ، وهو ما استقر عليه أصحاب الفطرة السليمة عبر القرون والأجيال، يقول عالم الفلك الشهير (ألفرد هالي)[١] في مقال نشره عام ١٩٨١م: «إن احتمال المصادفة في ظهور الوجود بتوجيه رشيد يقارن بفرصة قيام سيل يمر بساحة خردة لتتجمع طائرة بوينج ٧٤٧ صالحة للطيران»[٢].

وسواء أكانت الأزمة وهمية أم حقيقية لا فرق بين الحالين، فالنتيجة في نهاية المطاف واحدة، الحقيقة الكبرى تفرض نفسها وأمر الوجود أكبر من خلق الناس أجمعين، ومهما بلغ الغرور بالإنسان فلن يتجاوز حجمه الطبيعي، وقدراته المحدودة وضعفه الشديد أمام القوى القاهرة حوله، فكيف بقوة من أوجدها، وهو القوي العزيز، إنه لا عبرة

(١) فريد هالي Fred Hoyle (١٩١٥- ٢٠٠١م) الموافق (١٣٣٣- ١٤٢٢هـ) عالم رياضيات وفلكي إنجليزي مشهور من أشد المتحمسين لنظرية الانفجار العظيم لنشوء الكون وسمي المذنب المشهور هالي باسمه وهو من أشد المعارضين لفرضية النشوء التلقائي للحياة على الأرض.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد دودح، المستشار العلمي للموسوعة.

بالأوهام والخيالات والوساوس، حتى إن كنت الإنسان المكرم على الخلق تكرمًا من الخالق عليك، فأنت لا تملك من أمرك شيئًا، ولا تحاسب إلا في حدود التكليف المقيد بالأهلية الشرعية بعد تجاوز مرحلة الطفولة والمنتهى بفقد تلك الأهلية، فلا تكليف قبل الوجود ولا مع فقدان العقل ولا بعد الموت، إنما الخطاب موجه للأحياء الملكفين فقط: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠].

وعلى هذا الأساس سيكون الحساب والجزاء، وما سوى ذلك فأنت غير مكلف ولا محاسب على شيء، وما كان الله ليكلفك أو يحملك ما لا طاقة لك به، وهو الذي بك لطيف ورحيم، وكيف يكلفك بما لا تحيط علمًا بالمعلوم منه فضلًا على ما لا تعلمه من عالم الموجودات الذي لا قدرة لك على استيعابه، ولأنك أنت الضعيف بل ربما تكون الأضعف غالبًا في حلقات الوجود كلها، تذكر أن هناك من تصدوا في الماضي والحاضر لهذا التحدي المعرفي ظنًّا أنهم سيصلون إلى شيء، فأدركهم الموت الذي لا قبل لهم به قبل أن يصلوا إلى غير تلك النتيجة الحتمية، أن لا قدرة للمخلوق على معرفة أسرار الوجود دون إخبار الخالق له، وليس أمام المخلوق من خيار إلا أن يكون عبدًا للخالق.

فخير لك في حياتك وبعد مماتك أن تتقبلها مستسلمًا دون عناء؛ لأن مردّك إليها، وأي خلل في هذا التصور سيؤدي إلى خلخلة الإيمان واضطراب النفوس ونشوء القلق والخوف وفقدان التوازن الوجودي، بل وتمهيد الطريق نحو حبائل الشك والكفر والإلحاد وانعدام السعادة، التي غالبًا ما تأتي نتيجة طبيعية من هذا النقص الهائل من جوهر العبودية المطلقة لله الواحد القهار في ميدان الفكر الإيماني والتصورالصحيح لما يجب الإيمان به، وكل ذلك ناتج بالدرجة الأولى من الانفصام بين النظرية الدينية والتطبيق، النفور من هذا التناقض الظاهري بين الشرع والشارع، بين النص والأخلاق، بين الشعار والممارسة، إنها أزمة المتدين، وليست أزمة الدين.

*****

الوقفة الأولى: هل الأزمة أزلية أم حادثة؟

ستشعر بارتياح خاص، عندما تعلم أن هذه الأزمة ليست طارئة، بل هي قديمة قدم الإنسان نفسه، وهذه الراحة سببها أنك وجدت نفسك في هذا اليوم ضمن حلقات سلسلة متواصلة من التساؤلات الحميدة عبر الأجيال المتعاقبة، تكاد تكون نفسها وليس فيها مستجدات خارقة، ولا مستحدثات مقلقة، وتكاد جميع أسئلة الوجود تكون مكررة، بينما إجاباتها متفاوتة، وترد فطريًّا على الجميع قديمًا وحديثًا، وسترد في المستقبل أيضًا ومن دون مقدمات، ومهما شرّق وغرّب الفلاسفة والمتكلمون وأهل المنطق في استماتتهم في إيجاد أجوبة عليها بعيدًا عن نور الوحي فلن يصلوا إلى شيء تجتمع عليه كلمتهم، أو يتلقاه منهم الناس باقتناع، ولن يكون في مقدور البشر مجتمعين الوصول إلى ذلك إلا من خلال قبولهم بالوحي الإلهي وتصديقهم لخبر السماء القادم من الخالق لهذا الوجود العالم بأحوال الكون الذي حير الناس أمره ومعجزاته.

أي ظلم للنفس أكبر من أن يحرم الإنسان نفسه الاستفادة من الوحي، وهو المصدر المعرفي الصافي والوحيد، وقد يتعدى عناده هذا ليحرم غيره بتعمده وضع العراقيل بين الوحي وبين عقول الناس، وذلك بتجريده من مضامينه العظيمة، وتقديمه للناس منقوصًا مطففًا مشوهًا عقيمًا منفرًا موحشًا في عالم الواقع، فلا يظهر للإنسان جمال الدين وكماله إلا في عالم المثالية التي يسمع عنها، ويستحيل وجودها في الدنيا، تقرأ نصوصًا رائعة، وترى واقعًا مؤلمًا محبطًا، فتقع الفتنة والزهد بالدين، ظنًّا منك بأن من لم يكن ملائكيًّا في تطبيق الدين فإنه هالك، وما ذلك إلا قصور قاتل في فهم التكليف البشري وسوء ظن برحمة الخالق ﷻ القائل: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

ولا يقع اللوم على ضحايا هذه التصورات الخاطئة وحدهم إذا ما نظرنا إليها بتجرد وموضوعية؛ لأن (دينًا) بهذا الجفاء والجفاف والخواء التطبيقي والخالي من العدالة وحفظ الحقوق والكرامة، من الطبيعي أن يقود إلى نفور الناس منه ومن أصوله وفروعه، يتولى كبر هذا التضليل المتعمد بعض رجال الدين من كل ملة ممن ألصقوا به

تشريعًا منكرًا ومنفرًا، وصوروا الرب صورًا فرضت على كل عاقل إنكارها، بل وحتى الكفر والإلحاد فيها؛ لاصطدامها بالفطرة السليمة عندهم.

*****

الوقفة الثانية: الشجاعة في مواجهة القسوة

يجب الإشادة بشجاعة الفرد المؤمن المجاهد لحماية إيمانه أمام قسوة المجتمع الغافل أو المتغافل عنه، عندما أذكرك بالطمأنينة الإيمانية -أخي القارئ الكريم- وعدم تعارضها مع كل تساؤل يرد عليك، فأنا بذلك لا أتكرم عليك بشيء جديد من عندي، ولا أمنحك أنواط الشجاعة الدنيوية، بل أكشف لك حقيقة الواقع الذي أنت تعيشه بفضل الله وحده، ولكنك لم تتذوقه على الوجه المطلوب؛ لأنك متماسك الإيمان على الرغم من قسوة من حولك في حقك، لقد تخلصت بكل شجاعة من كابوس قسوة المجتمع، وأدركت أنك دائمًا تحت حكم الرحمن الرحيم، وجودًا وحياةً وموتًا ونشورًا، وأن دينك دين الرحمة ونبيك نبي الرحمة، وأن الراحمين منا يرحمهم الرحمن، ولو فكرنا قليلًا لاستدركنا على أنفسنا هذا التصرف القاسي من بعضنا في حق عباد الله المؤمنين المتعطشين إلى بيان الحق، إذ كيف نخطئهم في أمور بدهية وفطرية، وقد سبقهم من أولي العزم من الرسل من سألوا ربهم مباشرة أسئلة كبرى من أجل الوصول إلى الطمأنينة المنشودة لكل إنسان، حتى وإن كان نبيًّا رسولًا، فهذا خليل الله أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يسأل ربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٠] وهذا كليم الله موسى عليه السلام لم يتوقف تطلعه المعرفي، حيث كلمه ربه، بل طلب فوق ذلك مطلبًا آخر: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] هكذا سألوا الله، فلم يقدح ذلك في صدق إيمانهم واصطفائهم على الخلق وكونهم من أولي العزم من الرسل عليهم السلام جميعًا.

إن ترسيخ الإيمان من الأهمية بدرجة تفرض تناوله من جوانب عدة وعرضه من خلال أكثر من سياق ضروري جدًّا، ويجب طرحه من أكثر من زاوية حتى لو ظهر

للقارئ الكريم، وكأنه أمام تكرار للفكرة نفسها، بينما الأمر ضرورة ملحة جدًّا تجعلنا نتمحور دائمًا حول (العلة الأولى) للوجود؛ لأنها السبب الأصلي لكل ما يدور في الأذهان، حيث مردنا إلى أمر الله الواحد الأحد، والأمر يتطلب تكرار ضغطه و(كبسه) فكريًّا من جميع مسامّ ومنافذ العقل الممكنة، وترديده لضرورة تطبيعه في النفوس والعقول طمعًا في تشرّبه وتفهّمه والإلف به، ولا يعد ذلك تكرارًا، فالقرآن لم ينزل على الرسول جملة واحدة، بل نزل متدرجًا، وقصصه وردت مرات عدة في أكثر من سورة، وكان تفسير ذلك هو لتثبيت فؤاده ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: ٣٢] حال المتلقي هنا كحال متعاطي الدواء الواحد مكررًا، ولا يكون دواء شافيًا إلا بذلك.

لقد كان من إعجاز كتاب الله أن يتردد ذكر قصص القرآن العظيم في مواضع عدة؛ ليثبت الله بها فؤاد النبي ﷺ قبلنا، يذكّر الله نبيه بقصص الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم مرات عدة في سياقات مختلفة، والقصة تكاد تكون واحدة في أصلها والحدث واحد، لكن لا يمكن أن تشعر بتكرارها؛ لأنها ضرورية لإحاطة هذه القصص بالعقل من كل جانب، حتى يتشرب أكبر قدر منها، كما يتشرب الفخار الماء الذي يكرر عليه كبسه من كل جانب، فمثل هذه القضايا الإيمانية الكبرى في الوجود لا يكفي أن تلصق على القشرة الخارجية من (العقل) بذكرها في مناسبة أو مناسبتين لتطير منه لأدنى سبب، بل لا بد من تشرّبها من جميع مسام العقل ومنافذه وتكرارها بالتذكير الدائم والمتواصل دون ملل ولا كلل؛ حتى تترسخ فيه، وتصبح جزءًا من كينونة الإنسان الفطرية التي يصعب انفكاكها عنه، ويكون من الصعوبة أيضًا تعرضها للتآكل الفكري بسبب النسيان وعدم تكرار جرعات التذكير والخشية: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾[الأعلى: ١٠] ولولا أهمية سورة الفاتحة في ترسيخ الإيمان والعقيدة لما أوجب الله على عباده تكرارها وجعل الحد الأدنى أن نكررها سبع عشرة مرة في اليوم، وإذا كانت الذكرى في الأمور العادية ضرورية لنفع المؤمنين في الحفاظ على إيمانهم: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فكيف بمن يحتاجون إلى البلاغ بأصل الدين كله قبل هذا التذكير؟!

إن من بيان الحق الذي أخذ الله العهد والميثاق من الأنبياء عليه كي يقتدي بهم أتباعهم أن نتحدث إلى أنفسنا وإليك بصوت أكثر جهورية ومصارحة بما نعلمه من الحق المبين عما يجول في صدورنا؛ ليتذكر البصير منا أنه على بصيرة من أمره، فيحمد الله على نعمة الإيمان واليقين، ويحافظ عليها بالطاعات والعبادات حتى يلقى خالقه، وليأخذ بيد من لديه قلق أو وحشة، فيطمئنه، ويؤانسه كي يحسن الظن بربه الرحمن، ويحزم أمره واثقًا بالله سالكًا طريق النجاة مسارعًا إلى المخرج الآمن الوحيد الذي يزيل عنه هذه الكآبة والوحشة بالدنيا، ويستبدل بها حياة سعيدة أبدية في الدنيا والآخرة، وليستيقن من في صدره شيء من هذا أن مآله إلى أمان مطلق، وطمأنينة لا تخطر ببال أحد، وذلك عندما يصل إلى غاية وجوده بدخوله الجنة، فينتهي كل قلق وخوف، وحينها سيحمد صبره وجهاده على الإيمان بالغيب في الدنيا القصيرة، وهو يجني ثمرة ذلك بالجزاء الأوفى في الحياة الأبدية، فينطق بها صريحة وما أحلاها من لحظة حين نقول في الجنة، ونحن ننظر إلى الوراء في عالم الدنيا، فنتذكرها، ونتذكر خوفنا فيها من سوء المآل: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨].

*****

الوقفة الثالثة: رجال الدين والأزمة

الوحي يخاطب الناس كافة بلغتهم الميسرة، ولكن يبقى رجال الدين هم المعنيين ببيان تفاصيل نصوصه، والمأمورين بأن ييسروا، ولا يعسروا، وأن يبشروا، ولا ينفروا، وتكمن خطورة رجل الدين في أثره القوي على تشكل المفاهيم الدينية والتصورات عن الوجود، حيث إن الناس تنظر إلى رجل الدين من منظار الثقة والاحترام لما يدعو إليه من خطاب مقدس متصل بالخالق، يُعدّ بشكل أو بآخر هو الناطق باسم الوحي بعد الرسل والأنبياء، ولا يكاد يسلم دين سماوي من التشويه من قبل حفنة من البشر الذين يصنفون بأنهم رجال دين، يقفز بعضهم على مفاصله الحساسة، فيشلّون أركانه، ويحرمون الناس خيراته وخيريته، ويتصرف بعضهم، وكأنهم يملكون حق (الامتياز)

على النص الشرعي للتصرف المطلق وفرض فهمه القاصر على عقول الآخرين بعد أن منحهم الله فرصة المساهمة بفهم النص الميسر أصلًا.

لقد قدم بعض القساوسة والأحبار والرهبان لأتباعهم دينًا (باسم الله)، تسلطوا فيه مع الإقطاعيين على رقاب الناس وأموالهم وحرياتهم، وحرموهم حقوقهم في الحياة الدنيا ليستحوذ عليها القسيسون والكرادلة والإقطاعيون، على أن هذا التصرف منهم نابع من تعاليم الدين الحق ورسالة الرب، ولم يتوقف هذا التشويه عند مهازل صكوك الغفران والتعميد والتطهير وغيرها من الخرافات المنسوبة للرب، بل تجاوزه إلى تقديم الإله للناس بالصورة الغريبة التي جاءت في بعض الأناجيل المحرفة، والتي تصادم الفطرة السليمة، وهذا ما جعل أوروبا تثور على الموروث الروحي الديني الكنسي كله في القرون الوسطى، وترفضه جملةً وتفصيلًا، وتلوذ بالعلمنة مخرجًا ومنقذًا لها من عالم الخرافة والأباطيل التي لا يلام العقل في رفضها.

حقيقة تقتضي الأمانة التاريخة الإشارة إليها، وهي أنه لم تكن ثمة علاقة بين أصل التوراة والإنجيل بما فيهما من نور وهدًى للناس، وبين ما كان يمارسه رجال الدين من ضلال واستغلال ليس في عالم المعتقدات والمعاملات فحسب بل باسم الرب مباشرة، ما استوجب على الأسوياء والعقلاء والنبلاء كراهية ذلك الدين المزعزم والنفور منه ومن رجاله ومن كل سلطة تستغله وتحميه، والترحيب من جهة أخرى بكل متمرد عليه بلا حدود ولا قيود، إنه ذلك الغش الذي مارسه رجال الدين حتى دفعوا فيلسوفًا مشهورًا مثل (برتراند رسل)[1] أن يكشف سبب توجهاته المناهضة لذلك الدين والإلحاد به، وأن من أهم تلك الأسباب خلو النسخ الإنجيلية من أي كلمة تدعو إلى البحث والتفكير العلمي، ولا يخفى أن رفض العلم والتنكيل بالعلماء جاء من رجال الدين في العصور الوسطى، وليس من الدين نفسه، وذلك قبل أن يتحرر العلم من قبضتهم، فينعم الإنسان بهذه التقنية.

(١) برتراند رسل Bertrand Russell (١٨٧٢- ١٩٧٠م) الموافق (١٢٨٩- ١٣٩٠هـ) فيلسوف إنجليزي من أشهر رواد المنطق الرياضي له كتابات سياسية واجتماعية مثيرة ومخالفة للمألوف لكنها عميقة وأصيلة وله مساهمات في المنطق الرياضي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٥١٧).

ولم تكن ساحة المسلمين خالية من هذا التشويه النسبي، وإن كان قد حدث في الأوساط الإسلامية بدرجة أقل بكثير عما حدث في الغرب؛ نظرًا لوجود القرآن المحفوظ بيننا، هذا الطود العظيم الذي لا يسع أحد القفز فوقه، والذي كان العهد النبوي ترجمة له (كان خلقه القرآن)[1]، وبعد العهد النبوي جاءت الخلافة الراشدة على منهاج النبوة صافية المنبع مثالية التطبيق، عادلة الحكم، حافظة للحقوق، مقدرة لأهل الفضل فضلهم، قائمة بإيمانها على أساس الفكر الفطري السليم الذي لم يختلط به منطق العجم ولا فلسفة اليونان، حتى قدّم المسلمون الدين الإسلامي للعالم بوصفه مشروع حضارة متميزًا اكتسح عالمهم حينها، وذابت فيه مملكتا فارس والروم خلال سنوات معدودة.

ثم حدث بعد الخلافة الراشدة بداية خلل على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية جعلت المتأخرين يفهمون، وكأن رسالة السماء إنما تدعو إلى قبول تلك الأخطاء والتجاوزات التي تمارس باسم الدين، ثم تفاقم الأمر بعد ذلك مع مرور الزمن حتى أصبح الحال وكأن الناس أمام إسلام (دعائي) و(انتقائي) و(إقصائي)، بينما جانبه المثالي يستحيل تطبيقه فكرًا وسلوكًا، بل يتراءى لهم وكأن الإسلام العظيم مجرد أداة من أدوات مصادرة الحريات، تركع به الشعوب باسم الله، وتصادر به الحقوق باسم الدين، على نحو يقترب مما حدث في أوروبا في القرون الوسطى، فنشأت أجيال إسلامية أيضًا بدورها تواقة للحضارة والعزة، تنفر من هذه التوجهات الدينية الإسلامية الرسمية، لكنهم يختلفون عن أهل الكتاب بأنهم يرون عن قرب شاطئ الأمان والسلامة، وذلك بوجود أعظم وأثمن وأرقى شيء في وجودنا كله، وهو هذا القرآن العظيم الذي يكفي أن يوصف بأنه كلام الخالق الجبار الواحد القهار، قرآن تراه بين يديك اليوم محكم محفوظ بحفظ الله له من التحريف الذي طرأ على الكتب السابقة، وكذلك وجود الإسلام دينًا متجذرًا في حياة المسلمين مقارنة بغيرهم من أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، تلك القسوة التي حذر القرآن المسلمين منها

(١) الحديث رواه أحمد (٦/ ٩١) عنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ. قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أم الْمُؤْمِنِيَن أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللهِ** ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾» [القلم: ٤].

قبل وقوعها، وذكرهم بحال أهل الكتاب لكي يتجنبوا خطأهم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

كل ما يتعارض من نص الدين الصريح الصحيح يجب على الأمة التصدي له بكل عزم وحزم، ولا بد أن نبدأ بأنفسنا أولًا، فنبدأ بتصحيح هذه المفاهيم الخاطئة الدخيلة على الدين، بحيث لا نأمر الناس بالبر، وننسى أنفسنا، وألا نقول ما لا نفعل باسم الدين، وأن تكون أنت أيها الإنسان، مهما بلغت من العلم والدراية مستعدًّا للوقوف عند حدّك المعرفي، فالدين السماوي ليس أهواء أو غرائز أو شهوات لأقلية انتهازية تفرضها باسم الله على الأغلبية، بل الدين حكم إلهي رباني عظيم لا يمكن أن يأتي ناقصًا أو قاصرًا أو ظالمًا كنظريات البشر المجربة والمعدلة من حين لآخر، الدين الرباني له علامات راقية تتناغم بقوة مع التطلعات الإنسانية العادلة تجده حيث يوجد العدل والقسط والكرامة والحقوق والأمان والإنصاف والاحترام والتضحية والحقوق العامة والشورى والحريات المنضبطة بالمصالح العامة والسلمية والطمأنينة وغيرها، إن غياب مثل هذه المعاني السامية من أي مشروع مهما أضفى عليه أتباعه من القداسة تكفي دليلًا قاطعًا على أنه ليس من عند الله، وإن زعم من زعم أنه من عند الله، فالله لا يظلم الناس شيئًا، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يهدي كيد الخائنين، بل إن الله سبحانه: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] ويأمر بأداء الأمانة والحكم بالقسط: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

*****

الوقفة الرابعة: جمود العَالِم وصدود المُتعلّم

الوحي نور عظيم من الخالق ﷻ يفوق مقامه مقام البشر جميعًا، ولم يستحق العلماء أن يوصفوا بالعلم إلا لأنهم يحملون مشكاته بعد الأنبياء، فيبيّنون الحق كل الحق للناس،

ولا يكتمونه لأي سبب كان، ومما لا شك فيه أن أثر علماء الدين على الشعوب المتدينة جوهري جدًّا، وأن العالِم ما هو إلا ناقل أمين، ومفسر رصين لما نزل به الروح الأمين من رب العالمين، وليس له حق الإضافة والتشريع ولا قصر المعاني الواسعة على سقف عقله ومجال تفكيره الضيق، ولا أضل من جاهل يتصدر وهو لا يعلم، أوعالم يعلم فيكتم علمه عن الناس، وفي الإسلام تحديدًا صور حضارية جميلة لا يحدها الزمان ولا المكان، سواء عن تعامل المسلمين فيما بينهم، أو علاقتهم مع من سواهم من الأمم الأخرى، وإنه لمن الغش والتضليل كتمان هذه المعالم الحضارية المشرقة من الدين، فيتوهم البسطاء جفاء الدين وجفافه في حفظ حقوق الناس عامة، وأن ما ليس من الدين في شيء مما يتعارض مع صريح النص هو الدين، وكذلك حرمان الناس من هامش المباحات تحت ذريعة المبالغة في قاعدة سد باب الذرائع وأخذ الحذر والحيطة تلو الحيطة مما لا يشترط الحذر منه بحكم الله قبل حكم الناس، بينما يدرك من لديه أدنى درجة من العقل أن مثل هذا الموقف من بعض العلماء ليس فقط مخالفًا للدين الصحيح فحسب، بل يصل أحيانًا إلى نقيضه تمامًا بتجريده من جوهره الحضاري التعايشي العادل، وقد يصل إلى مرحلة الصد عن سبيل الله، وهو ما زجر الله أهل الكتاب عنه، ووبّخهم على سلوكهم الذي وصفه بأنه صد عن الحق، حتى وإن كانوا يشهدون بأنه هو الحق: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

من أجل ذلك كان اللوم والمحاسبة، بل الوعيد الأشد للمقصرين من الرهبان والقساوسة والعلماء في كل زمان، لارتكابهم هذه الجريمة النكراء في حق الناس؛ لأن قدرهم الذي يؤجرون عليه أصلًا هو ألا يأخذوا جانب الحياد والصمت أبدًا، بل عليهم أن يبينوا للناس الحق كل الحق دون تردد، ويتحملوا تبعاته: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وأن يكونوا بذلك قدوة للناس في خشيتهم لله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وفي تحملهم للأذى في سبيله: ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وبذلك يستحقون حقوقهم على الناس بالتقدير لتأديتهم حقوق الناس عليهم بالبيان.

إنها دعوة حق أن يتكلم الناس عن ضرورة تجديد الخطاب الديني التقليدي في إطار المتغيرات المرنة دون المساس بالثوابت القطعية، وضرورة البحث عن لغة مفهومة تناسب المرحلة، وتروي تعطش القلوب الباحثة عن الحقيقة مع تقدم الأمم وتجدد الحضارات، يجب الترحيب بمثل هذه الدعوات دون أدنى حرج قد يشعر به بعض العلماء، عندما تطرح ضرورة تجديد الخطاب وتكييفه بما يتناسب مع لغة العصر دون مساس بالثوابت التي لا اجتهاد فيها، فنحن أمام مواقف ومستجدات فكرية صعبة جدًّا، توجب على الدعاة والمصلحين أن يكونوا دعاة مخلصين حقًّا، ما يعني تطوير خطابهم بتجردٍ كامل على ضوء نصوص الشريعة، فالدعوة إلى الله أسمى من أن تكون مجرد هذيان لمكتوب، أو نقلًا حرفيًّا لغير معقول دون أن نعقله، هذه القلوب الصافية فطريًّا المتعطشة إلى يقين الإيمان تحتاج إلى من يقف معها دائمًا، ويرشدها نحو طريق النجاة بكل صدق ووضوح وشفافية كي تطئمن قلوبهم، وتأنس نفوسهم للدين الحق، وإنه من الغش المبين أن يكتفي الواعظ التقليدي بتقديم المهدئات الزائفة لجروحٍ فكرية غائرة، ويسرد المواعظ السطحية لعلاج أزماتٍ فكرية مستعصية، تحتاج في بعض الأحيان إلى استئصال تامٍ، من خلال سحق ظلام الجهل فيها وإحلال النور محلها، فليس حلًّا أن نزجر الإنسان الطبيعي بتفكيره، ونجرده من عقله الذي ميزه الله به عن الحيوان إذا ما فكر وتأمل وتدبر وفق ما يأمر به الوحي المنزل، ثم صادف إشكالات تثار حوله ليل نهار، وتحتاج منا إلى مد يد العون له ومناولته طوق النجاة، ولئن قدر الواعظ على إسكات لسان السائل مخادعة، فلن يملك إسكات القلب النابض والفكر المتدفق والعقل الباطني المتفاعل بقوة مع الأحداث والمتغيرات التي تعصف به في كل اتجاه بلا رحمة ولا شفقة.

هذا ما يجب أن نصارح بعضنا فيه، مع حفظ المقامات لكل القامات، ولكن لا بد من إعادة ثقة الإنسان بربه بعيدًا عن التقديس الشخصي للناس وعن التكلف المنفر من الدين، عندما يتعمد بعض المحسوبين على الدين صرف معاني النصوص عن ظاهرها تعسفًا، لعلةٍ ما أنزل الله بها من سلطان، محتقرين بذلك عقل المتلقي الصامت الذي قد يدرك بفطرته وانسجامه مع نفسه ومحيطه، ما لا يدركه هذا الواعظ الذي يتعمد اختزال

إنسانية الموعوظ ليضعه في موقع المتلقي فقط الذي يسمع منه ومنه وحده -أحيانًا- وألا يجادل بحثًا عن الحقيقة والبرهان، وإلا فهو بذلك يخالف أمر الرب الرحمن، بينما هو مخاطب مثله بالقرآن الميسر للجميع: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

فيا أيها الإنسان، تذكر أنك في هذا الوجود تتبوأ مقامًا تكريميًّا تستحقه وقد وضعك فيه خالقك وحده لا شريك له، لا يزحزحك عن هذه المنزلة عالم ولا حاكم ولا فرد ولا جماعة، فأنت بحكم الله سيد بين سادة حولك، متساوين في الحقوق والواجبات، تتفاوتون في الأعمال والمواهب والقدرات، كل من علم منكم شيئًا أصبح به حجة على من لم يعلم، وكلكم عبيد للخالق وحده، ولئن استطاع المخلوق مزاحمة مخلوق مثله في حياتهم المشتركة، فإنه لا يملك، ولا يقدر على مزاحمة الخالق في ملكه، بل إن إيراد مثل هذه العبارة لا يخلو من سوء أدب مع الخالق العظيم الذي لا ند له ولا شريك ﷻ، وعلى هذا الأساس جاءت التكاليف الشرعية من الخالق للمخلوق، من الأعلى للأدنى، ومن الأقوى للأضعف، ومن الباقي للفاني، تكاليف مباشرة وبقوة آمرة، مع استغناء الخالق تمامًا عن المخلوق، وهو كذلك غني عنه بحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

خطاب التكليف موجه لك أنت أيها الفرد، أكثر منه للجماعة، وسيكون لك أو عليك الحساب وحدك على فروض الأعيان قبل فروض الكفاية، تذكر أنه لن يصحبك هذا العالم أو ذاك، سواء كان جامدًا أم منفتحًا، لا في قبرك ولا في محشرك بعده، ومن هنا يتضح لك أنه لا مناص، ولا مخرج، ولا مهرب من أن تؤمن حق الإيمان بالخالق، وأن تثق بربك الرحمن، ثم تؤمن بهذا الدين الذي جاء به خير البشر شفاءً ومنقذًا لك من بحور التيه والشك والظلام، ولم يأتِ ليزيدك حيرة وشقاء وبلبلة، ثِقْ بالله ثم بالمخلصين من عقلاء الأمة الذين يتفقون معك تدينًا بأنه ليس عدلًا ولا عقلًا ولا شرعًا أن يجعل الناس منك وحدك ضحية للأزمة الأزلية، فيحاصرونك فكريًّا حتى يشعروك في النهاية وكأنك أنت وحدك ملتقى الشر والنزوات والأهواء والانحراف والشكوك والإنكار

والضلال، أما من حولك من البشر فما هم إلا (ملائكة) أبرار أطهار، لا يجدون شيئًا مما تجد، فتضطر بذلك إلى إفناء عمرك محاصرًا بهذه الوحشة المخيفة، مدافعًا عن خطيئة وهمية لا وجود لها إلا في عقولهم المتحجرة، لكنهم يضطرونك بسببها إلى البراءة أحيانًا مما فعلت، ومما لم تفعل تلمسًا لرضاهم، وليس لرضا الخالق، ولو فكرت مليًّا لأدركت أنهم يتكلمون باسم الرب، والرب الرحيم سبحانه لم يخلقك كي تعيش بهذا الرعب القاتل، حتى لو وقعت بأكبر موبقة، فالتوبة بحق الله فقط مع الاستغفار المريح كافية شافية لردّك إلى أفضل مما كنت عليه.

*****

الوقفة الخامسة: العبادة للخالق وليست للخلق

الخطأ في حق الخالق تمحوه التوبة الصادقة وحدها؛ لأنه غني عن خلقه، والخطأ في حق المخلوق يؤخذ بالرد أو بالمقاضاة العادلة أو بالتنازل المغلف بالمنّة أحيانًا، وحق الخالق مبني على المسامحة، وحق المخلوق مبني على المشاحّة، ولا يخلط بين الحقين، ونحن جميعًا خطاؤون مقصرون في حق الله تعالى، وخير الخطائين التوابون، لكن عليك أن تحذر كل الحذر ألا تقدم التوبة في تقصيرك بحق الله إلى غير من أمرك بالتوبة إليه، ولا حاجة لك بالوسطاء، ولا أن تلتمس القربى والتوبة المصطنعة إلى (الأوصياء) عليك من المخلوقين، لمجرد إحساسك بقسوتهم وشدة وطأتهم عليك تجاوزًا منهم دونما حق لهم بذلك، ولا داعي لهذا الاقتناع الوهمي وتحمل الأحمال الثقال مجاملة للفرد أو مداراة للعقل الجمعي[1]، على حساب راحتك وسعادتك، حتى أصبح الفرد يداري بعقله متصنعًا لإرضاء العقل الجمعي الخادع، بأكثر من قيامه بالواجب في حق الله عليه، والله تعالى هو الرحمن الرحيم العليم بحال المرء، والأمر يرجع إليه سبحانه، وليس إلى هؤلاء المخلوقين القساة عليك باسم الله الذي هو وحده أحق أن نخشاه، ونرجوه، ونتوب إليه!

---

(١) العقل الجمعي: مصطلح يطلق على الظاهرة النفسية التي يفهم منها أن تصرفات الجماهير تعني الصحيح خاصة في القضايا الغامضة فيتوهم الفرد أن الآخرين يفهمون أكثر منه فيستسلم لانطباعاتهم الوهمية وفيه تقتنع الغالبية من الناس بأن تصرفات الجماعة في حالة معينة تعكس سلوكًا صحيحًا مهما كان موافقًا أو مخالفًا للمعايير الصحيحة علميًّا.

علاقتك هنا مع الخالق الجبار علاقة لا نظير لها في الوجود، إنها أيسر وآمن وأهدأ وأنفع وأبقى علاقة على الإطلاق، ومن مميزات هذه العلاقة أنها لم تحرمك حقك المشروع بسؤال أهل الذكر في كل أمر يحيرك مهما أرجف حولك المرجفون لحرمانك منه، فإما أن تبين لك الأمة عن طريق علمائها ما التبس عليك، وهذا هو الواجب عليها، وإلا فسيكون الموقف منهم صدًّا لك ولغيرك عن سبيل الله بغير علم ولا هدى، وأنت لن يضيّع الله الرؤوف الرحيم إيمانك، فالحق بيّن لا لبس فيه ولا غموض، وليس في معتقداتنا شيء نشكّ في مصداقيته، ولا ما يُستحى من مناقشته بكل ثقة، تتجلى شجاعتك في صمودك مع ذاتك، عندما يحيط بك بعض ذوي النيات الحسنة مستنكرين عليك مبدأ السؤال، ولا ذنب لك سوى أنك عاقل تفعّل عقلك، كما يفعل العقلاء، وتتساءل علانية عما حولك، متأدبًا مع الله الذي يعلم ما في نفسك قبل نطقك به، ومع من يقفون أمامك وكأنهم يحاكمونك جنائيًّا، مرتدين لباس التقوى والورع، متحصنين بالشرع ونصوصه التي تهابها، فما تملك إلا التوقف والصمت والامتثال حبًّا للدين واحترامًا لحامله.

لكن الإشكالية تكمن في خطورة آثار هذا الصمت الذي يحدث منك أحيانًا مع كبت ما في نفسك خوفًا وحيطة؛ لأنك تحمل الخيرية الإيمانية داخل نفسك، فتضحي بحقك المباح في المعرفة من أجل الحفاظ عليها متماسكة، حتى إذا ما رماك القوم بسهم قاتل من الانتقاد والاستنكار والإنكار، يغشاك رعب من الموقف فوق رعبك الأول المحير لك داخليًّا، وتشعر في النهاية وكأنك وحدك النقطة السوداء في الكون الأبيض، سواء تحدثت أم صمتّ، بينما لو أدركت حقيقة من حولك، وما يحمله أغلب القوم تجاه ما خطّؤوك من أجله، لربما خررت لله ساجدًا أن فضلك عليهم بالإيمان الأقوى بغض النظر عما يقولون لك، وما يتظاهرون به أمامك، فالعبرة بما في سويداء القلوب من اقتناع ويقين وإيمان وليس فيما هو ظاهر من شعارات وادعاءات؛ لأن المؤمنين في النهاية هم فقط المطمئنون الذين لا ينتابهم ريبة ولا شك، وهم الصادقون مع ذواتهم وأنفسهم، كما وصفهم القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

*****

الوقفة السادسة: المثاليات الصادمة للواقعية

ما أكثر الصور المثالية المضللة التي لا جود لها إلا في ذاكرة العقل الجمعي، ولا وجود لها في عالم الواقع، وهذه الحياة «**ساعة وساعة**» كما قال ذلك أكمل الناس إيمانًا عندما شكى إليه الصحابة اختلاف حالهم إذا انصرفوا من عنده، فقال لهم: «**والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم**»(١)، والمبالغة في المثاليات أوهام مزعجة ومؤثرة في ثقة المرء بنفسه، فقد تصل إلى إيهامك -أخي الكريم- بأنك آفة الكون لقصرك عن عالم المثال، وأنك أنت المخالف الوحيد، والخطأ الأول في الوجود، والغارق بالشك والضلال، وفي جانبها الآخر تعكس وهمًا آخر، بحيث يتراءى لك أن كل من حولك هم أمثال الملائكة الأبرار، وأن هذا الوجود كله خير لولاك أنت وعقلك المزعج وأسئلتك الفوضوية، وكل الوجود إيمان نقي لولا شكوكك، وكله حسنات لولا سيئاتك، هكذا، حتى يصل الأمر ببعضهم إلى التكلف الزائد في تفسير بعض الآيات تفسيرًا سلوكيًّا غريبًا يدعم هذا الموقف الجائر بحق الإنسان العادي -على سبيل المثال- يقف بعض المفسرين تكلفًا عند قول الله تعالى عن النبي يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا**﴾ [يوسف:٢٤]. فيقول: لقد همّت به للفاحشة، وهمّ بها للإنكار والاعتراض! دون أن يكلفوا أنفسهم بتوضيح معنى الاستثناء الاستداركي في الآية: ﴿**لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ**﴾ [يوسف: ٢٤] مع التسليم بأنه لم يترتب على الموقف شيء من الفواحش التي

(١) الحديث رقم (٢٧٥٠) من صحيح مسلم عن حنظلة بن حذيم الأسدي التميمي قال: لقيني أبوبكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا قال أبوبكر: فوالله! إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبوبكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» ثلاث مرات.

لا تليق بمقام الأنبياء المصطفين، وأن الله قد صرف عنه السوء والفحشاء، ولكنها كانت لحظة بشرية قصيرة جدًّا صرف الله سوءها عن النبي يوسف عليه السلام؛ لأنه نبي يربى ليكون له شأنه السامي فيما بعد، لكن هؤلاء بتكلفهم المبالغ فيه لإظهار القداسة والنزاهة مضخمة فوق ما تحتمل المواقف والألفاظ والمعاني، يجعلون الإنسان المذنب بطبعه يشعر بأنه هو الذي يعاني فقط دون غيره، ومن ثم ييأس من حاله، ويتصيده الشيطان في أجواء الإحباط هذه، فيزداد الأمر تفاقمًا، ولربما تطور الموقف ليصل إلى حد الضلال، بل ربما يتمادى، فيوسوس بكل شيء في الدنيا والآخرة.

إنهم يجعلون من مثل هذه الصورة المثالية الوهمية مدخلًا خطيرًا من مداخل الغواية، بأن يصنف الإنسان نفسه بالعاصي، فتفتر عنده همم الطاعات؛ لأنه يرى نفسه خارج النطاق المقبول، وأن أمل النجاة وخط الرجوع للصلاح قد انقطع، وأن البوصلة قد فقدت تمامًا، لا والله، ثم لا والله، سبحانك هذا بهتان عظيم، الأمر يا عباد الرحمن، ألطف وأرحم من هذا بكثير، ورحمة الرحمن واسعة جدًّا، بل كل كبير ما هو إلا صغير في سعة رحمة الله، وباب التوبة والاستغفار والرجوع مفتوح على مصراعيه عن كل شيء مهما كبر، وتكرر وتعاظم، وكيف يغلق وهو رحمة من رب العالمين الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء أبد الآبدين، وليس كل عالم يصوم النهار، ويقوم الليل، ويتلو كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، ويجاهد في الله حق جهاده، فالناس مستورون بستر الله لهم، ولا يحتاج الأمر إلى جهد وإلى كبير عناء، فقط يتطلب الإخلاص والإنابة لله وحده والتوجه إليه بلحظات صادقة، دون أي اعتبار لتلك العقبات الوهمية، ولا التصورات المثالية الزائفة المهلكة المنفرة من الدين، إنه لا مكان لأي وسواس أو شك أو يأس أو قنوط مطلقًا، ونحن أمام أعظم عرض وأكرمه، وأرجى خطاب وأرحمه، لكل مذنب خطّاء مهما كان إسرافه على نفسه، استمع إلى نداء البرّ الرحيم الودود، حين يقول لنبيه الكريم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وهناك تصورات مثالية في الاعتقاد أيضًا لا تقل خطرًا عن المثاليات السلوكية، عندما يقف (عالم) فوق منصة اليقين، فيشعرك بأنك وحدك الغارق بالوسواس، عندما

تتساءل مستفسرًا عن تفسير سؤال إبراهيم عليه السلام لربه عن كيفية إحياء الموتى، فيسكتك زاجرًا بتذكيرك بقول النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[1]، دون أن يدرك هو الآخر أن إبراهيم عليه السلام حينها ولو لم يكن عنده شك أصلًا إلا أنه كان محتاجًا، بل في أمسّ الحاجة إلى ما ذكره الله: ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾، [البقرة:٢٦٠] والحديث الشريف ينفي الشك عن النبي ﷺ والمؤمنين، فبإيمانهم ينتفي كل الشك عنهم، فكيف يرد الشك في حق إبي الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، ولو كان ثمة شك لحدث مع غيره، ولكن الشك شيء، والطمأنينة شيء آخر، كان أبو الأنبياء (متحصنًا) بإيمانه عن كل شك، وكيف يرد التفكير بوجود شك عند نبي بادر لذبح ابنه وفلذة كبده لمجرد (رؤيا) رآها وحيًا من الله، ولكنه (محتاج) إلى طمأنة القلب بسؤاله الصريح الواضح (كيف) يحيي الله الموتى؟ وهو الذي اصطفاه الله، ورفع ذكره في الأولين والآخرين، واتخذه الله خليلًا، وأوحى إليه، ووصفه بقوله: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] فمتى تدرك أيها العالم أو المتعالم أو المفسر أو الشيخ أو الواعظ أو المرء أيًّا كنت، ضرر حرمان أخيك البريء المتعطش لحب ربه من هذه النعمة اليقينية لكي يستريح في دنياه، ويعمر آخرته بأمان؟ ألا يستحق أخوك المتسائل أن يطمئن قلبه الضعيف، كما اطمئن قلب أبينا إبراهيم القوي؟ ثم ما يدريك أيها الواعظ، ربما تكون أنت أحوج من غيرك إلى ما تتظاهر أنك تنكره على غيرك؟! وأي شيء تخشاه من تبيان الحق وأنت تدرك يقينًا أننا لن نتجاوز معشر البشر قدراتنا المحددة أصلًا من قبل الخالق سبحانه، إننا يا عزيزي، جميعًا فقراء إلى الله في كل شيء، متعطشون لهدايته وفضله في حياتنا ومماتنا وبعثنا ونشورنا.

هذه بعض الوقفات المفصلية في تشخيص الأزمة، وهذا هو الأساس الذي يجب أن ننطلق منه لتوضيح أسبابها في كيفية نظرة الناس إلى خالقهم وثقتهم بوحيه ورسله ورسالاته، فمن الأهمية بمكان أن تدرك -أخي الكريم- أنه لا سبيل إلى النجاة إلا

---

(١) الحديث رقم (٣٣٧٢) من صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ**» إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] «**ويرحمُ اللهُ لوطًا لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ ولو لبثتُ في السجنِ طولَ ما لبثَ يوسفَ لأجبتُ الداعي**».

بمواجهة هذه الحقائق ومعالجتها بكل شفافية، وأنه لا سبيل لمعرفة الغيب إلا من خبر من يعلم الغيب، وهو الوحي، وأن تبيلغ هذا الوحي يجب أن يقوم به علماء عاملون مخلصون يتصدرون الساحة، فيجد عندهم كل متعطش للحقيقة ما يروي ظمأه، ويشفي غليله، وأنه يستحيل رسوخ الإيمان بالوحي قبل استقرار الإيمان بالذي أنزل الوحي، وهو الخالق العظيم ﷻ، وأن الفرق بين الوحي المنزل من الله وأخذ الناس به كبير جدًّا، يفرض على كل منصف ألا يخلط بينهما، فالذي يحول بينك وبين الحقيقة ليس النص الديني الجميل الذي يحتضنك بكل رأفة ورحمة وشفقة، ويحميك من كل شر وقلق، بل العقبة سوء فهم الناس له والاجتهادات الخاطئة من بعض القائمين عليه واعتبار عامة الناس بعض تصرفات القائمين على الدين جزءًا منه، فتصبح للعالم حصانته وقداسته المزيفة التي قد تطغى على قداسة الدين المشروعة، ولو رجع الإنسان إلى الدين من مصدره ومنبعه الصحيح، ولو بالاستعانة بالراسخين في العلم الصادقين الأمناء، لوجد الأمر مختلفًا تمامًا، وأنه أيسر بكثير مما تعسر، وأقرب مما بَعُد، إنه كما جاء وصف الرسول ﷺ له في هذا الحديث العظيم: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَىْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»[1].

*****

(١) الحديث رواه البخاري (٣٩) ومسلم (٢٨١٦) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ.

الفصل الرابع

أسباب نشوء الشكوك والأوهام





أولًا: (أنسنة) الخالق و(تأليه) المخلوق!

هذه ليست مبالغة بل هي عين الحقيقة، فالتصورات البشرية الخاطئة عن الذات الإلهية، التي يستبطنها المرء بذهنه عند استحضار قضية الخلق والخالق والوجود، خطيرة جدًّا على إيمانه، وأسوؤها على الإطلاق اعتقاد التكافؤ والمساواة (النظرية) بين الخالق والخلق عن طريق التصور الخاطئ و(تجسيد) الإله وتشبيهه بالخلق، حتى وإن جعل تصوراته عن الذات الإلهية هي الأكمل والأتمّ، تبقى خطورة هذا التصور قاتلة، حيث يصل الأمر إلى التمادي في تفعيل هذا الخيال الخاطئ ليصبح وكأنه مسرح دنيوي محدود يحوي جميع المتحاورين والمختلفين على مآلات الوجود، على أن يكون الخالق ﷻ في علاه طرفًا داخل هذا المسرح المحدود، بعبارة أخرى بخس حق الخالق العظيم في التصور والاعتقاد والصفات مقابل تضخيم ذات المخلوق الضعيف الهامشي في عالم الوجود، تصور يقضي على جميع فرص الاستيعاب الإيمانية وفهم الحقيقة، ويتعارض مع سمو الأسماء والصفات العظيمة للخالق، وقد لا يسلم من هذا الداء أحد ما لم ينتبه لهذا المزلق الخطير ذهنيًّا، فيستحضر من فوره عظمة الخالق وعلو صفاته وقداسة أسمائه، دون تجسيد أو تشبيه أو تمثيل زائف، بل الإيمان مجرد الإيمان استنادًا إلى خبر الوحي، وأنه ليس كمثله شيء، وأنه يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار، ولا تحويه الخيالات، ولا تصل إليه التصورات، تعالى الله عن كل وصف لا يليق به، وتقدس عن كل تشبيه أو تمثيل بشري قاصر.

هذه خطيئة بشرية كبرى بحق رب البشر يدركها أصحاب العقول السليمة، ولو تتبعت نقاش غالبية الفلاسفة عبر التاريخ لأدركت أن أكثر جدالهم عن الخالق مبني على تصوراتهم البشرية عن خالق (مجسد مجسم حاضر في حيز زماني ومكاني) متصور تصورًا بشريًّا، ذي صفات متخيلة ومتصورة ومستوعبة ضمن نطاق فكرهم البشري الضيق جدًّا، فهم يفترضون أن هناك طرفًا مكافئًا يقف على الضفة الأخرى من مسرح

الجدل لإجراء مناظرة أو محاورة معه! إنهم بكل وقاحة وبجاحة يخاصمون الخالق في أهلية الربوبية، وأحقية الألوهية، إنهم يتخيلون إلهًا (منافسًا للبشر)، ولهذا استهانوا بالأمر، وخاضوا فيه مع كل خائض، ومع هذا كله فلم يخرجوا بشيء، لم يستحضروا ولو من خلال استقراء الموجودات المحسوسات من حولهم أن وراءها من هو أعظم وأعظم منها عظمة مطلقة يستحيل عليها وعلى العقل البشري تخيلها مهما أوتي من علم أو طال به الأمد، هذا فوق كونه حيًّا لا يموت، والخلق كلهم يموتون، وأنه أولٌ ليس قبله شيء، وآخرٌ ليس بعده شيء، وظاهرٌ ليس فوقه شيء، وباطنٌ ليس دونه شيء، وهو على كل شيء قدير، وغير ذلك من صفات القدرة والكمال التي لا يتصف بها أحد من الخلق، ولم يأتِ أحد غيره في الوجود يدعيها أو ينازعه فيها بحق، أما الإنسان فقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا.

إن هذه التصورات الخاطئة تحديدًا من أخطر أسباب نشوء أزمة الشك والبلبلة الإيمانية، وتشكل مأزقًا فكريًّا جوهريًّا عند غالبية البشر، ولم يسلم منها حتى أولئك المؤمنون من الفلاسفة الذين لا يستنيرون بنور الوحي، فلم يسلموا من الوقوع تحت تأثير الأنسنة الجائرة بحق الله، فإذا أشار أحدهم إلى عظمة الله تجده يتحدث عن تصورات عقلية تجسيدية مدركة، حتى وإن وصفها بأنها فوق العقل والتصور، فما يلبث أن يدخل بتفاصيل تكييفها وتشبيهها وتجسيدها بهدف التوضيح، فيقول مثلًا (ذكاء الرب! وعقل الرب! وكفاءة الرب! وهندسة الرب!) فتضيع الحقيقة المنشودة بسبب ذلك التشبيه الجائر بحق الخالق، وتضطرب وجهة بوصلته، فيعود مرة أخرى للتيه، بينما شأن الخالق مختلف كل الاختلاف عما يصفون، ليس (ربًّا) ولا إلهًا ولا خالقًا ذلك الذي (يُؤنسِنُهُ) المفكر في خيالاته (أي يجعله في صورة إنسان وقدرته) ليتسنى له وضعه ندًّا في مقابل الفكر البشري، وكأنه يجادله ويحاوره طمعًا في النصر عليه أو استخلاص شيء منه! وهذا (الرب) الافتراضي الذي يوضع في هذا المكان، وينزل هذا المقام حري بكل عاقل أن يكفر فيه، بل ويلحد فيه ولا لوم عليه ولا عتب؛ لأن الله الخالق العظيم ليس كذلك، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهو أعظم وأكبر وأجلّ من أن ينزل هذه المنزلة الوهمية في ذهن مخلوق.

ومن أشهر من وقع في هذا المأزق الإيماني الفيلسوف (فويرباخ)[1] الذي يُعدّ من رواد (الإلحاد) الحديث، وتتفاقم المشكلة أكثر عندما نجد أن مشاهير المادية الإلحادية مثل (ماركس) (ولينين) اعتمدوا على آراء (فويرباخ) لتسييس الإلحاد فيما بعد، فاستحسنوا تصوراته للوجود التي أطلقها من خلال ثلاث مراحل: الأولى تصوراته حول الله، والثانية حول العقل، والثالثة حول الإنسان، ثم انتهى به الأمر إلى (أنسنة) كل شيء بما في ذلك الذات الإلهية التي تخيلها في الإنسان وعلى صورته ولكن بهيئة متقدمة وبصورة أضخم!

انظر كيف يسلك الإنسان الطريق الخطأ في محاولته للوصول إلى الحقيقة، ومن أسوأ تبعات هذا الخطأ أن يجعل الإنسان الضعيف من هذه الأوهام والخيالات الفارغة أساسًا لتفسير الوجود كله، وأخطر من ذلك أيضًا محاولاته تصور وجود خالق الوجود بهذه الطريقة العمياء، ولقد حذر من هذه التصورات شيخ الإسلام (ابن تيمية)[2] رحمه الله بقوله: «العالَم الإلهي لا يجوز أن يستدل به بقياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع، ولا قياس شمولي يستوي فيه أفراده؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا أن يدخل هو وغيره تحت قضية يتساوى أفرادها»[3]، وهذه الأقيسة التي توضع في غير موضعها هي التي ضيعت غالبية الفلاسفة في العالم، عندما اتخذوها منهجًا في الاستدلال على العالم الإلهي، ويُعدّ الفيلسوف (توماس هوبز)[4] من القلائل

(١) لودفيغ فويرباخ Feuerbach Ludwig (١٨٠٤- ١٨٧٢م) الموافق (١٢١٩- ١٢٨٩هـ) صاحب المنهجية الفيوبارخية: (نظريات في الفكر الإلحادي الحديث، مشير باسيل عون، بيروت: دار الهادي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣).

(٢) أحمد بن تيمية (١٢٦٣- ١٣٢٨م) الموافق (٦٦١- ٧٢٨هـ) مفكر وفقيه حنبلي إصلاحي ولد في حران ـ تقع داخل تركيا حاليًّا- عاش في الشام برز في معظم العلوم الدينية له مصنفات فاقت الخمس مئة تعرض للسجن مرات عدة ومات في السجن: (دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية، عبدالله الغصن، دار ابن الجوزي، الدمام، ص١٣٩).

(٣) درء تعارض العقل والنقل ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الجزء الأول، ص٢٩.

(٤) توماس هوبز Thomas Hobbe (١٥٨٨- ١٦٧٩م) الموافق (٩٩٦- ١٠٩٠هـ) فيلسوف إنجليزي ومفكر سياسي يُعدّ من أشهر رواد الفلسفة المادية الحديثة يرى كل ما هو موجود مادة وكل ما يتغير حركة والأساس النهائي لكل شيء هو المادة والحركة من أشهر كتبه (مبادئ القانون الطبيعي والسياسي) نشره عام ١٦٤٠م: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٥٥٤).

الذين توقفوا مدركين بشريتهم المحدودة ومعترفين بقصورهم عند هذا التصور، حين يقول: «لا يمكن للباحث المحدود أن يتوصل أبدًا إلى معرفة ما لا نهاية له، وكل ما نتعلمه نحن البشر إنما نتعلمه من خيالاتنا، ولكننا لا نملك خيالًا وصورًا لما لا نهاية له؛ ولذلك يستحيل أن يكون للإنسان أو أي مخلوق آخر تصور لما لا نهاية له»[1].

إن مجرد التفكير في المقارنة هنا يُعدّ خطأ فادحًا في حق الخالق على الرغم من أنه لا مقارنة مطلقًا بين الخالق والمخلوق، فما أجرأك على ربك أيها الإنسان الضعيف في جسدك وعقلك وحياتك كلها، أنت العاجز عجزًا مطلقًا عن أن تستوعب ما حولك من الموجودات في كوكب الأرض، بل في الأمتار القليلة المحيطة بك باعتراف الناس جميعًا مسلمهم وكافرهم، مؤمنهم وملحدهم، كيف بلغت بك الجرأة على خالقك أن ترسم في مخيلتك الضعيفة تصورًا (ما) عنه؟ ولربما جسّدته في هيئة وشكل معين متعاظم، ولكنه متصور ومحدود بقدراتك التصورية، ثم تتعامل مع هذه الصورة الخيالية (المضحكة)! التي لا وجود لها إلا في عقلك الغريب الذي يريد أن يبرهن من خيالاته ما يتعارض مع البراهين القائمة على الحقائق الكبرى المعلومة والمحسوسة، وأهمها هذه الحقيقة الدامغة لكل تصور باطل بأن الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١].

ستختلف الصورة جذريًّا في نظرتك للوجود قاطبة، لو أنك قمت بتصحيح هذه التصورات الكارثية في ذهنك حول الخالق، وأولى خطوات هذا التصحيح أن تدرك مستحضرًا ومركزًا أنك إذا تحدثت عن شأن الخالق، فإنك إنما تتحدث عما لا يمكن وصفه ولا تصوره ولا تخيله ولا تشبيهه ولا تكييفه من قبل عقول المخلوقين، فهو العظيم والكبير والقدير والعليم، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار، يختار ويعلم ما في النفوس، ولا تعلمه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]. صفاته عظيمة عظمة تسمو فوق الإدراك والتصور والخيال، ولا ندرك ما وراءها على الإطلاق، بل نقبلها ونتقبلها كما جاءتنا مؤمنين بها على الوجه الذي يليق بالله تعالى، ونستسلم له استسلامًا مطلقًا لا يخالطه شك ولا ريب ولا حرج، منشرحة صدورنا بذلك رغمًا عن أنف كل مكابر

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٨.

وجاحد، وقد سجل التاريخ لبعض الفلاسفة المتجردين أنهم اقتربوا بفطرتهم من هذا الاعتقاد السليم بالخالق ولو من وجهة نظرهم الخاصة، فقرروا التوقف عند ذلك الحد الذي وصلوه إكبارًا وتعظيمًا للخالق، وذاك أحكم قرار اتخذه الإنسان المفكر عبر التاريخ؛ لأن مرد الجميع إلى الله وحده قولًا واحدًا، سواء آمنوا في حياتهم الدنيا أم كفروا: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

*****

ثانيًا: خطورة القفز إلى المثال

الإرهاصات الغيبية واستماتة الإنسان في محاولة فهمها لا تنتهي، وتبقى نقطة البداية الصحيحة في جميع أمور الغيب هي الأخذ بمفتاح الأسرار كلها وكنز المعارف الكونية وبلسم الطمأنينة واليقين، ألا وهو الإيمان بالله الذي يتحقق عندما تقوم باستحضار أمرين عظيمين: هما الوجود، والأسماء والصفات، فالإيمان بوجود الله هو أصل كل أصل، ومنه ننطلق إلى ما بعده في كل شيء معرفي فرعي، وقد سبق الإشارة إلى ذلك بأنه إقرار مطلق بوجود الله، وبربوبيته وألوهيته، أما مسائل الصفات فهي أمر عظيم جدًّا وذات شقين: الأول، معرفتها بألفاظها ومعانيها التوقيفية، كما أخبرنا الله عن نفسه دون إضافة من أحد، وهذا واجب أدبي وأخلاقي على كل إنسان تجاه خالقه، والثاني، تجنب تأويلها أو الادعاء بإدراك حقيقتها؛ لأن هذا أمر فوق قدرات استيعاب وتصورات البشر، وقد استعصى على الأمم السابقة فهمها، فأصبحوا ما بين منكر ومشبه ومكيف ومجسم ومعطل ونافٍ ومثبت، وكل ذلك يرجع إلى إشكالية تصورات بشرية خطيرة جدًّا تحشر التفكير في أضيق زواياه البشرية لفهم وجود غير متناهي الأطراف والعجائب، إنه حيز التصورات البشرية قياسًا على الأشياء المحسوسة المحيطة بالإنسان، كي تصبح مرجعًا تصوريًّا خاطئًا على حين غفلة منه، يتصور ما لا يمكن تصوره، ثم يخضعه قياسًا خاطئًا على تصوراته المحدودة جدًّا.

ولتوضيح هذه الإشكالية الخيالية، أي وقوع التفكير في حبائل ورطة (المثال) المجسم، والرجوع إليه بوصفه مقياسًا لتصور ما دونه وما فوقه، تخيل لو أن إنسانًا نشأ

مع النمل فقط ولم يَرَ طوال حياته كائنًا آخر سوى النمل، ثم قيل له: هناك فيل ضخم وزنه عشرة أطنان، أو حوت ضخم جدًّا يزن مئة طن، لما تصورهما سوى نملة ضخمة، أو إنسان ضخم فيما لو أنه رأى إنسانًا آخر في حياته، فانطبع المثال في خياله، أي إن صورة النمل وحدها أو الإنسان والنملة قد انطبعت، وتتضاعف في مخيلته نموذجًا أوحدًا للحي حتى أصبحت في الحجم الذي قيل له، وكذا الحال لو نشأ مع فيلة فقط، ثم قيل له: هناك نملة لا يزيد طولها على ٤ ملليمترات، لتصورها أنموذجًا مصغرًا جدًّا من شكل الفيل.

وهكذا يبقى فكر الإنسان مع الغفلة محصورًا في خياله الضيق أصلًا أمام نماذج حية أدركها حسيًّا من مخلوقات رآها في حياته، منها من يمشي على رجلين، ومنها ما يمشي على أربع، ومنها ما يمشى على بطنه، ومنها ما لا يشاهده الإنسان بعينه المجردة، فإذا جاء الحديث عن الله، وهو الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء والذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا التي تليق بجلاله وقدرته وعظمته وحده، تستقبله بعض العقول البشرية بتصورات تجسيدية خاطئة، فيقدح في ذهنه صورة المثال الأكبر في مخزون عقله، بحيث يدور حول هذه المجسمات التي عايشها، فمهما تصور الأمر شأنًا راقيًا بل الأرقى، إلا أنه لا يذهب بعيدًا في خياليه القاصر عما عايشه دون أن يملك التخلص من هذه التبعية الخيالية الملازمة له، والحقيقة أن الإنسان العاجز عن استيعاب ما حوله من مخلوقات، بل عاجز عن الإحاطة بفهم نفسه، لا يمكن أن يحيط بشيء من علم الله إلا بما شاء الله، فكيف يحاول تصوره أو رسمه في خياله، وهو الذي ليس كمثله شيء؟!: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ﴾[البقرة: ٢٥٥] ولقد جاء الوحي متساميًا فوق ذلك كله لينقل الإنسان من عوالم المحسوسات والمثال الضيق إلى منطقة تسليم عليا لا تستوعبها الأذهان، ولا تحيط بها الأفكار، لإخبار البشر بأنه الله المنزه عن كل قصر أو قصور أو تقصير، سبحانه وتعالى، وجل وتقدس في علاه.

أما تأويل الصفات تأويلًا غيبيًّا فيستحيل أن يأتي ذلك من المخلوق، وللاقتراب من توضيح هذه الاستحالة يمكن تقريب الصورة بضرب مثال ـ ولله المثل الأعلى – ولنأخذ صفة (القدرة) مثلًا، فأنت تصف من يتحرك مجرد الحركة بأنه قادر، وأنت تتصور حجم

هذه القدرة الضئيلة وصورتها، وكذلك تصف المهندس الذي صمم، وأشرف على بناء ناطحة سحاب من مئة طابق جميلة وأنيقة بأنه قادر أيضًا، لكن شتان بين القدرتين أليس كذلك؟ فإعجابك وتصورك لقدرة مهندس البناية لا يقارن أبدًا بوصفك للمتحرك الصغير بأنه قادر، فالحركة ممكن تقوم بها حتى البهيمة العجماء، بل حتى الحشرة الصغيرة، أما الهندسة فليس كل إنسان قادرًا عليها، لكنك وصفت كل منهما بالقدرة.

من جهة أخرى لو رأيت قلمًا أنيقًا لا بد أن تبدي إعجابك به وبقدرات صانعه حتى لو لم تَرَه، ماذا لو رأيت جهاز هاتف متطور؟ وماذا لو رأيت جهاز حاسب آلي متقدم؟ وماذا لو رأيت طائرة عملاقة؟ ثم باخرة أضخم منها، ستكون تصوراتك عن قدرة كل صانع منعكسة تمامًا عن حجم المصنوع ودقته، وبمجرد أنك اطلعت على الصنعة الفائقة ستكون معجبًا جدًّا بقدرة صانعها ومدركًا لذكائه وعلمه وتميزه الذي استغرق هذه الصنعة العجيبة، ومن ثم، فهو يفوقها عجبًا وتميزًا؛ لأنها جزء من كفاءته وليس العكس، وبمجرد تأمل المصنوع ستدرك قدرة الصانع، وستصف لك هذه المخترعات مخترعها وصانعها بجميع أوصاف قوة القدرة دون أن تراه، ولكن بسبب العلامات التي استنتجتها من إنتاجه وكلٌّ بحسب كفاءة ما أنتجه، ولو واصلنا المثال قد نسير مسافة متدرجة نحو الأعلى، لكننا سنضطر إلى التوقف عاجزين، إذ لا يمكن الوصول لاستيعاب كيفية صفات صانع الكون بالطريقة المتصلة نفسها لعجز العقل مبكرًا جدًّا أمام مخلوقات الخالق، أن يقترب من الشأن العظيم لخالق كل شيء، وهل يستطيع الناس مجتمعين على استيعاب خلق المخلوقات حتى يدركوا قدرة خالقها؟

عندما نحاول الانتقال من المثال إلى الواقع، نصطدم بالعجز اللفظي والمعنوي، إننا حقًّا لا نستطيع نقل التصور عن قدرة صانع الأرض بمن فيها فضلًا على السماوات العلا والكون والوجود كله؛ لأننا أمام قدرة من نوع آخر تمامًا؛ قدرة لا يمكن وصفها ولا استيعابها أو تصورها؛ قدرة باختصار تفيض عن جميع الألفاظ والمعاني والعقول البشرية، ولو لم تكن كذلك لما كنا أمام هذه المنتجات الهائلة من حياة لا نهائية من كواكب ونجوم لا حصر لها، وشيء لا نعلمه، ولا يمكن أن نعلمه، فكيف والحال هذه أن تطلب مني عرض تصور لقدرة خالق كل شيء وأنا وأنت وبنو الإنسان قاطبة جزءٌ

يسير جدًّا من هذا الشيء! يجب الاعتراف بعجزنا أمام مَنْ هذه من صفاته: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧].

ومن هنا وجب الإيمان المطلق بالأسماء والصفات، كما جاءت دون تأويل أو تشبيه أو تعطيل، والتضرع إلى الخالق العظيم بالدعاء بها: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. هذا ما دفع علماء العقيدة الصحيحة إلى أن يقولوا للناس: نؤمن بصفات الله، كما جاءت على الوجه الذي يليق بجلال الله وقدرته وقدره، وفي هذا المستوى الراقي من الإيمان والتسليم تستطيع أن تستوعب معاني هذه الآية الكريمة العظيمة، وتتذوق جمال لفظها ومعناها مسلمًا مستسلمًا وقلبك مطمئن بالإيمان: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

*****

ثالثًا: أثر المراحل العمرية للإنسان

يتقلب الإنسان في مراحل التفكير مع تغير مراحل عمره، من الطفولة إلى الشيخوخة، وتجاهل أثر المرحلة العمرية للإنسان على هذا النوع من التفكير الوجودي الحساس يجعل الإنسان في حيرة مزمنة، فمن المعلوم أن عقل الرضيع ليس كعقل الطفل، وأن عقل الطفل ليس كعقل المميز، وأن فورة تفكير المراهق وأحلامه المتفجرة واستقلاله عمن حوله لا تقارن بهدوء تفكير الصغار ما قبل المراهقة، ولا تقارن بنضج الراشدين، ولا بطمأنينة المسنين وواقعيتهم فيما بعد، لقد أكد الفيلسوف (برتراند رسل) ذلك عندما قال: إنه ينشئ مذهبًا فلسفيًّا جديدًا كل بضع سنوات[1]، تخيل أن الإنسان

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٤١.

كتب عن موضوع واحد في مرحلة من مراحل حياته، ستسمع العجب العجاب في الفوارق في الشكل والموضوع وفق كل مرحلة عمرية، وهذا سر تقلبات آراء الفلاسفة مع تقدم العمر، بل هذا سر إيمان بعض الكبار منهم بعد أن ألحدوا في مراحل الشباب.

لقد وجدت نفسي محاصرًا بهذا المعيار العجيب عند تأليف هذا الكتاب، وعلى الرغم من وجود فكرة التأليف في مراحل مبكرة من العمر، إلا أني لم أبدأ بجمع مادته قبل بلوغ سن الثلاثين، حيث لم أشعر قبلها بالأهلية العلمية والنفسية والفكرية التي تجعلني أخوض غمار هذه البحار المتلاطمة أمواجها، العميقة غورها، الحساسة في موضوعها، وحتى بعد الشروع العملي بجمع المادة والبدء في التأليف كانت الخطة أن يتم إعداد الكتاب في مدة لا تتجاوز عقدين من الزمن؛ لاقتناعي بأن هذه الفترة العمرية هي أفضل مراحل النضج الوجودي التي يستطيع الإنسان خلالها أن يقدم تصورًا فكريًّا نافعًا متوازنًا، ونظرًا لحساسية الموضوع والحاجة إلى الاطلاع على الكثير من المراجع العلمية ذات العلاقة قديمًا وحديثًا، تجاوزت تلك المدة لأقدمه للقارئ الكريم وأنا لا أشعر بأني قد قدمت شيئًا يلاقي الحد الأدنى من متطلبات معالجة القضية بما يتناسب مع حجم التحديات المعرفية المطروحة في الساحة الفكرية في الوقت الراهن، على الرغم من أني لم أبذل في حياتي البحثية العلمية جهدًا كما بذلته هنا؛ لاعتقادي أن هذا هو مشروع العمر الذي أحتسبه عند ربي، عسى الله أن يتقبل مني ومنكم، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وهكذا تكون جهودنا نحن البشر قاصرة مهما بلغ إتقانها، إذ لا يوجد كتاب كامل شافٍ كافٍ لمخاطبة الإنسان في جميع مراحل عمره بتوازن منقطع النظير إلا كتاب الله، الحق المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو للناس منذ نزوله إلى أن يقوموا لرب العالمين، والذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما استطاعوا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] يضاف إليه كل ما ثبت ثبوتًا صريحًا صحيحًا لا خلاف عليه من أقول الرسول ﷺ مما يكون له حكم منطوق القرآن؛ لأنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣- ٤].

*****

رابعًا: تغليب الخوف على الرجاء

ما أجمل خطاب الرجاء في هذا الوجود أيًّا كان مصدره! والأجمل أن يصدر من القادر على كل شيء للضعيف الذي لا يقدر على شيء، وأعلى مراتبه خطاب الله لعباده المتدفق رحمة وبشرى هو هذا البلسم المريح لكل نفس شاردة: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] ولا يعكر هذا الصفاء إلا انسداد منافذ (الرجاء) أحيانًا أمام طوفان (الخوف) في الخطاب الديني البشري، عندما يركز بعض الوعاظ على ما يروع القلوب، ويخيف الناس من الرحمن على حساب زرع الأمل والرجاء والأنس به وبرحمته وعفوه، حتى أصبح خطاب بعض المنابر بكائيًّا حزينًا كئيبًا مخيفًا، وليت هذا البكاء من سماع القرآن بجميع آياته، فهذا خشوع حميد، وليته من جراء تناول آيات الخوف والرجاء على حد سواء، كما وردت في القرآن، وهذا أيضًا حسن، ولكن من آيات الخوف انتقاءً وتحديدًا إذا ما تلاها من يملك أدوات الانفعال والتأثير العاطفي، كرفع الصوت وتقطيعه وتكراره، بينما يمر مرور الكرام على بلسم آيات الرحمة دون بكاء ولا انفعال بالموعود الجميل، حتى أصبح الناس يتدافعون إلى المساجد التي يُبكى فيها من العذاب ومن حناجر أئمة محددين.

لقد وصل الأمر ببعض الوعاظ والقراء أن أصبحوا يستشفون، ويتلمسون ما يثير التفاعل، ويجلب الحضور الأكثر إليهم، فتراهم يقنتون في صلاة التراويح قنوتًا جمعوا فيه من عبارات الإثارة والبلاغة والسجع ما لم يفعله القدوة الحسنة ﷺ ولا صحابته الكرام، يكفي أن تنظر إلى بكاء الناس في القنوت خلف الإمام، وهو يتغنى بعبارات ثلاثة أرباعها من اجتهادات البشر واستنباطهم، وغفلتهم عند سماع آيات القرآن الكريم المحكمة، المنزلة علينا من رب البشر، كلام الله الذي كان يتلوه الإمام قبل لحظات من هذا القنوت (المزلزل)، وأن تنظر أيضًا إلى من يبكي من آيات الخوف من القرآن تناغمًا مع الإمام الباكي، دون أن يذرف دمع الفرح والشكر عند سماع آيات الرحمة أو مع إمام لا يبكي ولا يتباكى، وهو يتلو القرآن مجودًا، كل ذلك يحدث في الوقت الذي يتجلى توازن الخطاب في القرآن في أرقى درجاته وأعدلها، لا نقول: إنه

فقط مساوٍ بين الخوف والرجاء، بل مغلب لجانب الرجاء والمغفرة والنعيم على جانب الخوف والخطيئة والجحيم تغليبًا يُقرّب الناس من ربهم، ويقدم البشارة على الإنذار، والرغبة على الرهبة، والنعيم على العذاب.

تأمل هذا الخطاب الرحيم من الله الرحمن الرحيم للمصطفى ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩] وفي قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠] وأمره له سبحانه بإلقاء السلام على العباد وتبشيرهم بالرحمة التي كتبها الله على نفسه مغلبًا جانب الرجاء على الخوف: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله في وصف أنبيائه المقدمين الرغبة على الرهبة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقوله في الفصل يوم الفصل بين الناس: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣- ١٤] وقوله تعالى لعباده مباشرة جامعًا بين الخوف منه والطمع بما عنده: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وحيث إنه لا مقارنة بين خالق ومخلوق، إلا أن العادة قد جرت على أن المخطئ من البشر يتودد لمن وقع عليه الخطأ ليسامحه، وكلاهما فقير ضعيف، أما الله وهو القوي الغني فهو الذي يتودد بفضله لمن أخطأ في حقه أن يستغفره، ووصف نفسه بالغفور الودود، مؤكدًا على وجود الأمل العظيم، ثم توجه إلى عباده بعد كل البشارات والتحذير، بأرجى وأرحم وألطف خطاب ممكن أن تسمعه في هذا الوجود، خطابًا نديًّا صادقًا يحشر الناس كل الناس إلى فسطاط الرحمة والرجاء بعيدًا عن اليأس والقنوط، ولا يستثني أحدًا مهما تجاوز، وأسرف على نفسه في المعاصي: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

*****

خامسًا: التهور في تصوّر ما لا يُتصوّر

يستحيل على الإنسان إعمال العقل فيما لا يمكن تصوره، ولذلك جاءت قاعدة (الحكم على الشيء فرع عن تصوّره) في حدود مدارك البشر لكل أو بعض الأشياء كي يحكم عليها، أما حكم المرء عقلًا على ما لا يمكن تصوره فهو بخس للحقيقة وظلم للنفس باستعجال الأحكام الجزافية واتخاذ المواقف قبل الإحاطة بالشيء علمًا، هكذا سماه القرآن ظلمًا؛ لأن التصديق أو التكذيب، والقبول أو الرد لا يتم منطقيًّا إلا بعد الإحاطة بالشيء علمًا أو بحدوث تأويله أي وقوع أخباره، وأي موقف يتخذه الإنسان تجاه أي خبر يسمعه، قبل أن يتحقق واحد من هذين الأمرين فهو تسرع في الحكم وظلم للنفس، ولقد توعد الله كفار قريش عندما رفضوا الوحي لمجرد سماع خبره قبل أن يعلموه ويفقهوه، أو يأتيهم شيء من تأويل ما ورد فيه، حتى يكون لموقفهم الرافض ما يبرره منطقيًّا، وذكر أن هذا من أسباب ضلال وتكذيب الذين من كانوا من قبلهم أيضًا، ووصفهم القرآن جميعًا بالظالمين، قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

لقد كانت هذه المنهجية في التفكير ضلالًا من قريش، أنكروا من خلالها الوحي، وستكون أشد ضلالًا وأسوأ نتيجة عندما تتبع في محاولة الوصول إلى أخبار الوجود وعالم الغيب بعيدًا عن الوحي، ويستحيل الإحاطة بها علمًا من قبل جميع الخلق، وتأويلها لا يمكن أن يأتي قبل مجيء عالم آخر بنواميس وقوانين أخرى، إنه عالم القيامة القادم، ومن ثم فما يبقى أمام العاقل في الدنيا وهو يتلقى خبر الوحي إلا القبول المطلق والتسليم التام، والحذر كل الحذر من تكذيب وقائع قادمة سيواجهها، وستحيط به لا محالة؛ لأنه على موعد مؤكد مع الموت، وأما مع الإيمان الصادق فسيعيش سعيدًا، ويبقى منتظرًا لتأويله وفق الوعد الذي نص القرآن على حتمية مجيئه، حين يندم عليه المكذبون، ويستبشر به المؤمنون، قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

لقد أفصح (اللورد هدللي)[1] عن سلبية هذه الإشكالية، عندما أسلم واضطر إلى كتمان إسلامه عشرين عامًا، فلما أعلنه عام ١٩١٣م وغيّر اسمه إلى (رحمة الله فاروق)، أسلم بسبب موقفه هذا أكثر من أربع مئة بريطاني خلال أشهر عدة، فتعرض لحملة تشويه قاسية، صمد أمامها صمود الجبال، وكتب بسببها مقاله الشهير (لماذا أسلمت)، وقال فيه: «نحن البريطانيين تعودنا أن نفخر بحبنا للإنصاف والعدل، ولكن أي ظلم أعظم من أن نحكم ـ كما يفعل أكثرنا ـ بفساد الإسلام – قبل أن نلمّ بشيء من عقائده، بل قبل أن نفهم معني كلمة إسلام»[2].

*****

سادسًا: وسوسة من عمل الشيطان

عندما يستحضر الإنسان هذه الحقائق الإيمانية الكبرى يصبح الوسواس الذي يتسلل إلى القلوب هامشيًّا جدًّا، ولا يظهر إلا مع بعض التفاصيل التي لا يستطيع كل إنسان الإلمام بها، خاصة أن التفاصيل في الوجود لا حصر لها، بينما الكليات الكبرى الأصلية معدودة وحاسمة، ومنقذة لأي موقف مهما كان معقدًا، وكان صاحبه مكابرًا، فمثلًا الجدال في مسائل الموت والحياة مجال يمكن أن يقال فيه كل شيء، فالمنتحر سيزعم أنه أنهى حياته بنفسه، والسفاح يرى أنه يقتل من يشاء، ويبقي من يشاء، فهو إذًا يحيي ويميت – على حد زعمه – وعملية فرز الجبر من الاختيار، والخير من الشر، والضلالة

(١) اللورد هدللي Lord Headley (١٨٥٤– ١٩٣٥م) الموافق (١٢٧٠–١٣٥٤هـ) اسمه قبل الإسلام جورج رولاند ألسنون ورحمة الله الفاروق بعد إسلامه عم ملكة بريطانيا وأول مسلم يدخل مجلس اللوردات ومن طفولته لم يقبل تشبيه الله بالبشر أسلم بسبب قراءته نسخة (ترجمة لمعاني القرآن) وكانت هدية تلقاها من زميلة في الجيش البريطاني أثار انتباهه أن الإسلام يقوم على دعامتين: الإقرار بوحدانية الله والمساواة بين البشر فوجد بغيته الفطرية والاجتماعيه فيه كتم إسلامه عشرين عامًا حتى فجرها في حفل للجمعية الإسلامية عام ١٩١٣م حيث قال عبارته الشهيرة: «إن طهارة الإسلام وسهولته وبعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته كانت كل هذه الأشياء أكبر ما أثر في نفسي» ولم تمض أشهر عدة حتى دخل الإسلام بسببه أكثر من ٤٠٠ من البريطانيين رجالًا ونساء: (اللورد هدللي داعية الإسلام بين قومه الإنجليز، غريب جمعة، أخبار الخليج، العدد ١٢٨٢٤، تاريخ ١٣ مايو ٢٠١٣م).

(٢) مجلة المنار– المجلد ١٧، الجزء الأول، ص٣٤، ديسمبر ١٩١٣م.

من الهداية، كلها أمور تستعصي على كثير من الناس الذين لا يملكون المعرفة الكافية لدحض هذه الشبهات، فتحدث البلبلة، ويقع التيه والوسواس، بينما خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار ومشارق ومغارب الكواكب والنجوم، والزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير، قضايا كبيرة وأصلية يلمسها الجميع بحواسهم اليقينية وعقولهم البصيرة، لا مجال لإطالة الجدل فيها، ويسهل على الإنسان فهم غموض هذا الوجود إذا انطلق من هذه الكليات المحكمة إلى الجزئيات التفصيلية، وليس العكس، وكم كان النبي إبراهيم عليه السلام ذكيًّا وفطنًا لهذه المسألة عندما حاجّه (النمرود) في ربه، فقال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ففرح النمرود لأن إبراهيم قد قدم هنا تفصيلًا يسهل استدراج المجادل إليه، وأراد إطالة الجدل في قضية الموت والحياة، فقال النمرود فرحًا: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي أقتل الإنسان أو أعفو عنه، ففطن إبراهيم لهذا الاستدراج العقيم، ولم يستجب له، بل نقله فورًا إلى المعركة المحسومة سلفًا بجولة واحدة مع كلية كبرى لا تقبل الجدل، فردّ عليه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وحيث إنه لا يختلف اثنان في أن الشمس تأتي من المشرق إلى المغرب، ولا يختلف أحد على عظمة من قدر ذلك، فكانت النتيجة الطبيعية أمام كل مكابر ضعيف من هذا النوع أن بُهت النمرود الظالم: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. إن إبراهيم لم يهزم النمرود في هذه المناظرة بطول قامته ولا قوة عضلاته ولا بلونه ولا عرقه بل بالسلاح المعرفي الذي وهبه الخالق له كما وهبه أي عضو من أعضائه، لقد كانت تلك هي الحجة الإلهية التي استخدمها إبراهيم، ورفع الله بها درجاته: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ولكن يبقى الوسواس وباء عامًّا لا يكاد ينجو منه أحد، ولا خلاص من الوسواس الخناس إلا بالاستعاذة منه برب الناس، فهو المنقذ وحده من الاستسلام للأوهام والوساوس ومن الهزيمة أمامها والإغراق في جلد الذات وتحقيرها عند استشعار تلك الوحشة منها، يظلم الإنسان نفسه بالاستسلام لهذا الوسواس متوهمًا أن الكارثة قد حلت، وليس ثمة مخرج ولا مهرب، وأنه وحده الغارق في الأزمة، وكأنه يعيش هذه

الحياة التصادمية المتناقضة مع نفسه داخل صدره وحده دون سواه، وأنه يجب أن يتأثر بالغير، ولا يؤثر فيهم، وهذا خلاف الواقع، بل لقد اختلف الجميع حول سر الوجود وكل من لم يؤمن بالوحي، لم يجد إلى اليوم سبيلًا للوصول إلى الحقيقة المنشودة، لقد اختلفوا ويختلفون وسيختلفون، والتحدي معهم قائم إلى الأبد بأنه بالعلم التجريبي والاستقراء الحسي البشري لم ولن يصلوا إلى كشف علم الغيب ولا معرفة أدنى سر للوجود بداية ونهاية، مهما تقدم العلم وطال به الزمن، وهذا تحدٍّ سجله من قبلنا، ونسجله اليوم، وقد يقرؤه من بعدنا، ممن نحملهم أمانة نقل روح التحدي هذا اليوم، بل والتحدي بعد عشرات أو مئات أو ربما آلاف السنين، بأن البشر لن يطلعوا على الغيب، ولن يصلوا إلى أسرار الوجود عقلًا وتجريبًا مهما عُمروا ومُكنوا وأُوتوا من قوة في العلم، وكلما اختلفوا في تفسير الوجود، احتاجوا إلى مَنْ يهمس في آذانهم مذكرًا وزاجرًا ومحذرًا لهم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٧-٧٠].

وهذه حقيقة تفرض نفسها، وتعني ضعف الإنسان وضرورة استسلامه لخالق الوجود، وليس للأوهام والوساوس التي هي بديل طبيعي عن الإنصات للوحي ونتيجة حتمية للصدود عنه، وقد يصل الأمر ببعض الموسوسين إلى أن يحاول التخلص من الوسواس بإنكار كل شيء ظنًّا منه أنه هرب عن الخطر من الجهة الأخرى، فينفي الغيب المستقبلي، وما سيواجهه بعد الموت، ويا لها من حماقة أن يوهم المرء نفسه بأن المخرج هو إنكار ما سوف يواجهه حتمًا في يوم لا يمكن أن يتقدم أو يتأخر، ولا ينفع فيه الندم كما لا يملك هو من شأن ذلك اليوم شيئًا!

*****

سابعًا: الفجوة بين النظرية والتطبيق

ما أجمل الواقعية، وما أخطر الإغراق في المثاليات الكبرى التي تجعل أي هامش طبيعي بين النظرية والتطبيق صادمًا للوجدان! كم نحن في حاجة إلى أن نتذكر أن الكمال

مستحيل في شأن الخلق أجمعين إلا من تولى الله إكمال إيمانهم من المرسلين المعصومين، ولا بد من الإقرار بأن التقلبات الفكرية الكبرى عبر تاريخ المسلمين تعكس أوضاعًا لا تتطابق تمامًا مع ما جاءت به النصوص المجمعة والموحدة للمجتمع، تلك التقلبات التي كان لها أكبر الأثر في إحداث بعض الاضطرابات الإيمانية والزهد في الدين عند شريحة من الناس، وأول حدث صادم ظاهرة الردة عن الإسلام وحروبها التي حدثت (بُعَيْدَ) غياب الرسول ﷺ وهم حدثاء عهد به، كذلك قصة جمع القرآن الكريم على نسخة واحدة في عهد الخليفة عثمان، وتوحيد المصحف وإتلاف ما يخالفها، وبقاء اختلاف القراءات السبع، إضافة إلى الثلاث الشاذة أيضًا، وكيف يتلقى الإنسان ذلك بتسليم ويقينٍ وثقة في دينه دون أن يترتب على ذلك اضطراب أو تناقض أو تعارض ظاهريٍ، خاصة بعد قيام المشككين من المستشرقين بالنفخ فيها من أجل زعزعة ثقة المسلم في أصول دينه، وكذلك ظهور النزعة الشعوبية في عهد العباسيين، والنزعة المادية المقدسة للعقل وجعله حكمًا على كل شيء في العصر الحديث[1]، ثم لا يوجد من جانب العلماء والمفكرين وضوح في الرؤية وتبيان ناصع يفرض نفسه بالحق أمام إثارة أي شبهة حول هذه الأحداث، خاصة أن المستشرقين في القرون المتأخرة تطرقوا إلى هذه القضايا بقوة وعن سوء قصد، فبالغوا في تضخيم الشبهات، وكتموا حقيقة المحكمات مع غياب شبه تام لأصوات الحق الداحضة لباطلهم من طرف المسلمين نظرًا لما كانوا يمرون به من ضعفٍ سياسي في نهاية الدولة العثمانية وبداية عهد الاستعمار الذي أعقب سقوطها، ولكن إسلام بعض المستشرقين كان في حد ذاته نتيجة طبيعية، إذ إنهم وجدوا اليقين في دين الحق من حيث أرادوا تشويهه، فلم يكن أمام عقولهم الناضجة إلا القبول والتسليم ومن ثم الإسلام.

*****

ثامنًا: آفة التسويف والتردد

النادمون بسبب آفة التسويف وتأجيل ما يجب اتخاذه كثيرون جدًّا، وأسوؤهم حالًا أهل الحسرة الذين أشار إليهم القرآن، وأمر الله رسوله ﷺ أن ينذر الناس منها،

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٢١.

نسأل الله العافية من حالهم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] فكل الخيارات الصعبة التي يواجهها الإنسان في حياته تهون عند ذلكم القرار الذي يحدد مصيره فيما بعد الوجود، وأخطر من ذلك تلك المجازفة في تأجيل أو تردد أو تسويف اتخاذ هذه الخطوة مع مرور الأعمار وانقضائها بلحظات تمضي ولا ترجع، إننا نقترب من نقطة النهاية بالموت الآتي على كل مخلوق لا محالة، القرار المطلوب من كل إنسان هو القفز فورًا وبأسرع خطوات ممكنة إلى الإيمان بالله وتصديق المرسلين، تصديقًا مطلقًا، والتترس بذلك عن كل ضراء في هذا الوجود، كفى والله هدر الأعمار فيما لا يجدي شيئًا.

إن العزيمة على الإيمان والحياة والموت عليه هي قرار الحكماء بكسب الوقت المهدر عادة في الجدل حول الغيب الذي كله غير مكشوف للبشر أصلًا، إلا ما أظهر الله منه، وعلى رأس ذلك كله الإيمان بوجود الله الذي هو أعظم شيء نعتقده في هذا الوجود على الإطلاق، وهو أقصى ما يمكن أن يخطر ببالٍ، مما لا طاقة لنا بالتفكير فيه مجرد التفكير، ولك أن تجرب إن شئت، فكّر عامًا أو فكّر طوال عمرك أو أوصِ من بعدك ليواصلوا التفكير لآلاف بل ملايين الأجيال من بعدك إن قدر لهم البقاء، ثم أخبرنا أو أخبر ذرياتنا من بعدنا بما توصلت إليه، ولكني سأخبرك مقدمًا إمعانًا في التحدي، أن النتيجة المغلفة بكل ألوان التحدي والتعجيز هي (لا شيء)، جرّب، ولك في ذلك كامل الحرية لتذهب إلى أقصى نقطة تستطيع الوصول إليها، فلن تصل إلى شيء من أمر الخالق العظيم ﷻ، ولم يصل من كان قبلك إلى شيء، ولن يصل من سيأتي بعدك إلى شيء، وكل ما تسمعه من فيلسوف أو مفكر عبر التاريخ ما هو إلا تكهنات ومحاولات يائسة لفهم شيء من تلكم الأسرار الوجودية المعقدة جدًّا والاختلافات البشرية عليها، تأتي مطابقة ومعارضة أحيانًا لما جاء به الوحي، أما العالِم بالخلق كله علمًا تامًّا محيطًا فهو الخالق وحده ولا أحد سواه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

بهذا القرار الحاسم بالإيمان بالخالق والاستسلام له من منطلق التصور السليم للوجود الدالّ على عظمته وقدرته تكون قد وصلت إلى المرحلة الصحيحة من التفكير الإيجابي الحر الذي ينتهي بك طبيعيًّا إلى الامتثال للأمر النبوي (فلينتهِ)، ولا أقول عليك

أن تنتهي هنا؛ لأنك ستنتهي هناك فعلًا، فهو حدّك وحسبك أيها المخلوق، ليس لأننا نأمرك بهذا امتثالًا للتوجيه النبوي فحسب، بل لأنها نقطة النهاية الحقيقية لتفكيرك الممكن وأنت بنفسك قد وصلت إليها بكل حرية واقتدار ولا حيلة لأي مخلوق البتة بتجاوزها، فستتوقف عندها مقتنعًا اقتناعًا ذاتيًّا بعجزك عما وراءها، دون أن تتهم أحدًا بالحيلولة بينك وبين أمر تبحث عنه، وهذه هي نقطة الانتهاء الصحيحة التي أشار إليها النبي ﷺ، وليست تلك النقاط المضللة التي يتبرع البعض مجتهدًا في رسمها بمنتصف الطريق الموصل إلى هذه النقطة النهائية التي ما إن يصلها الإنسان، ثم يتوقف عندها من تلقاء نفسه إلا ويكون قد جمع بين أمرين: الانتهاء المطلوب شرعًا، وطمأنينة القلب بأنه لم يُمنع من شيء خفي مريب، وهنا يحس المرء بأنه ينتهي عن التفكير طبيعيًّا وواقعًا وواقعيًّا، حيث ينقطع التفكير تمامًا لاستحالة المواصلة لعدم القدرة على ذلك، ويحل محله الإيمان والتسليم.

من المؤكد أن الإنسان لن ينتهي عن التفكير في أسرار الوجود بسبب تلك المواعظ التي تنهاه عن مواصلة التفكير فيها طالما وجد نفسه قادرًا على المواصلة والبحث، وعرقلته بمنتصف الطريق قبل وصوله لهذه النقطة تعسف في توجيهه ومصادرة لعقله وكأن الأمر تعمد لتضليله منعًا للوصول إلى شيء مأمول عنده، وهذا التوقف سيبقى مؤقتًا تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا القصيرة، أما يوم القيامة، فسيعلم الإنسان حينه علم اليقين عن تفاصيل كل شيء انتهى في الدنيا عن التفكير فيه، ومن المؤكد أيضًا أن ليس إلا الخالق وحده الذي سيخبرنا عن هذا الأمر الذي نختلف فيه بالدنيا: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

هذا ما يجعل العلماء والحكماء والعقلاء على مر التاريخ يولّون وجوههم شطر الوحي المنقذ من التيه والضلال، ويتمسكون بكل بصيص خبر سماوي يرد إليهم من عالم الغيب، شاكرين لله الذي تفضل على الإنسان بالوحي الذي هو حق مطلق وحقيقة لا تقبل المراء، الوحي الذي تنهل منه كل أمة، فالقرآن الكريم المنزل على أمة الإسلام هو للناس كافة، وفوق كونه هدى للمؤمنين، فإنه أيضًا يقصّ على بني إسرائيل أكثر أخبارهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٦- ٧٨] فما أجلَّ أن تحط رحالك المعرفية مع الله مؤمنًا به مستسلمًا له، وتبقي باب التفكير مفتوحًا في الدنيا لتزداد إيمانًا مع زيادة التفكر في خلق السماوات والأرض، ولتكون أيضًا على أملٍ عظيم بأنك ستعرف في يوم المعاد كل ما تريد معرفته من هذه الأسرار الغامضة المستعصية على فهمك في الدنيا.

*****

تاسعًا: صولة الباطل وجولة الحق

المشهد يبدو في غالب الأحيان غير متوازن عند من لا يملك أدوات التوازن، فارتفاع صوت الباطل وانخفاض صوت الحق، والضعف النسبي في المواقف الدفاعية من المسلمين ضد الهجوم الكاسح على الإيمان، والاقتصار على سرد الحجج الضعيفة، والتعلق أحيانًا بما يضعف الموقف الحواري، والخذلان السياسي والاقتصادي العالمي للمسلمين، كلها عقبات يصعب التغلب عليها لولا خصوصية دين الله الذي من معجزاته هذا الصمود الذاتي الهائل والشموخ الأسطوري للدين في وجه الخصوم مع ضعف الأتباع في الدفاع عنه، إنها حقًّا رعاية الله وحفظه له، والتوازن المطلوب هو أن يتترس المسلم بالمحكمات التي أخبرنا الله عنها بخبر صريح من أصول ثابتة لا تحتمل التأويل كوجوده وربوبيته وألوهيته ورسله والكتب التي أنزلها للدفاع عن الدين وخبر الآخرة، وأن يحذر من الانجرار نحو تفاصيل الفروع أو المتشابهات التي لم يرد الله بحكمته البالغة أن يكشف جميع تفاصيلها لعباده في الدنيا، أو يحسمها على رأي واحد، بينما تجد المشككين يتصيدونها، ويستميتون في الخوض فيها، والوضوح في الموقف أيًّا كان، هو بذاته قوة بالحق، حتى لو كان مجرد إحالة مطلقة إلى الله وعلمه ووحيه.

وهنا يجب التأكيد على أن إمكانية البرهنة المنطقية على بعض المحكمات الدينية، لا تعني ضرورة البرهنة البشرية على كل ثابتٍ ومحكم برهانًا عقليًّا يقبله الإنسان، ولهذا فلا داعي للاستماتة والتصنع المتكلف في الرد على كل شبهات المروجين بالمنطق والعقل،

فنحن بوصفنا مسلمين نتحدى بالمنطق أحيانًا، عندما يكون للمنطق مكان في الجدال، فنثبت حجتنا بالبرهان رغبة في تأليف قلب الخصم، ولكننا أيضًا نتحدى بالإيمان المجرد والتسليم المطلق لله فيما لا علم لنا به، ولا نملك له برهانًا بشريًا، إذ يكفي أننا نقول علانية بصوت يسمعه القريب والبعيد: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] نقول ذلك بعزة المؤمن، ونفتخر به مفخرة تفوق كوكب الأرض قاطبة، بل والكواكب والنجوم والوجود كله، دون حاجة إلى تكلف برهان منطقي لكل شيء آمنا به حق الإيمان، نقول ذلك بكل انسجام وتوازن غير مكترثين بمن حولنا آمنوا بمثل ما آمنا به، أم كفروا وتولوا، واستغنى الله عنا وعنهم، والله غني حميد.

فالأصل أننا نؤمن ليس وفق فهم العقل ولا قبول المنطق فحسب، بل لأنه مجرد أمر نتلقاه بكل تسليم وانشراح من عند ربنا العظيم وكفى، لا يتطلب الأمر موافقة مخلوق على ذلك، ولسنا مسؤولين بعد ذلك عمن يسلك طريق الجحيم معاندًا ومكابرًا، فموعده مع نفسه التي تأمره بالسوء لحظة خروج روحه، وحينها سيعلم أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًّا، ولكن ما يجتهد به الدعاة والمفكرون من توضيح وبيان مفصل إنما هو بهدف تقريب الحق وبسطه وعرضه طمعًا في قبوله من المعرضين عنه، فالدعوة إلى الله تقتضي شيئًا من التنزل للمصلحة أحيانًا دون التنازل عن المسلمات التي على رأسها الإيمان المطلق بالله تعالى، إننا نحب الهداية لنا وللناس جميعًا، ولكن ليس علينا هدايتهم، وربنا من قبل أخبرنا بأنه يرضى لنا الشكر، ولا يرضى لنا الكفر، ولن نذهب أنفسنا حسرات على الكافرين؛ لأنهم بعنادهم لم يهتدوا، ولا يضرنا من ضل إذا اهتدينا، ونطاق التكليف يبقى في حدود التذكير والذكرى دون حرمانهم من التفكير المؤدي إلى اليقين إذا أرادوا ذلك.

إن العبودية الصحيحة لله تعالى تقتضي التسليم والاستسلام المطلق، فأنت عندما تقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧] فإنك لست ملزمًا بأن تتكلف إثبات موافقة كل عقل على كل نقل وفق مبادئ المنطق البشري، فليس صحيحًا أن كل نقل (نص صريح صحيح) لا يتعارض مع العقل (المنطق والفلسفة)، بل النقل أسمى وأعظم من جميع العقول مجتمعة، والعقل الصحيح يقبل ذلك مستسلمًا للجبار، فيصبح غير

متعارض مع النقل الصريح، ومقام النقل عظيم جدًّا، تذكر أننا نتحدث عن وحي الله وشرعه ودينه وأمره ونهيه، فنحن أمام مقام الجبار القائل عن مقام ملائكته الخاضعين له: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] فمن تكون أنت أيها الإنسان، كي تخضع كل شأن كوني لحكم عقلك القاصر عن ذلك كثيرًا، فالوحي جاء لمخاطبة العقول طبعًا، ولكن له الكلمة الفصل عليها والهيمنة المطلقة على كل معرفة فوقها: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

لا بد أن نتأدب مع الله تعالى غاية الأدب، فلا مقارنة بين كلام خالق العقول والمعقول وغير المعقول، وما قد تتوصل إليه تلك العقول المتباينة من أفكار قاصرة ليس من الإنصاف أن نحكِّمها على الوحي العظيم، بل الوحي هو الحاكم والمهيمن عليها، فالإيمان بكيفية حدوث الإسراء والمعراج ـ مثلًا – وتفسير أداء مناسك الحج كالرمي والطواف والسعي، واستقبال القبلة والمسح على الخفين، والتيمم، تلك عبادات تسليمية محضة لا سلطة للعقل عليها، ولا ينتظر منه قبولها أو رفضها، وكل المحاولات التفسيرية الدنيوية لمثل هذه الشعائر على أساس عقلي محض، دون الإشارة إلى أنها طاعة، كل ذلك ما هو إلا تكلف لإرضاء الآخرين، ويعكس ضعفًا في الحجة لا حاجة لنا به ولا علاقة له بحقيقة هذه العبادات والحكمة من ورائها؛ لأننا عبيد ضعفاء أمام سيد قوي ونواصينا بيده.

مقتضيات العبودية لله واضحة جدًّا، ويجب ألا نستحيي، ولا نخجل أن نكون مفتخرين موقنين حق اليقين بتلك العبودية، حتى إن وجدت طائفة أخرى تكفر بها، وعندما أطلب منك عدم البحث عن برهان عقلي لكل أمر غيبي، فإني لم أتركك معلقًا في الفضاء، بل أحيلك إلى بلسم كل معضلة، ومفتاح كل أمر متعسر وعلاج كل إشكالية، أحيلك إلى أصل الأصول كلها، وهو الإيمان بالله الأكبر، الإيمان بالله القادر على كل شيء، الإيمان بالله وكفى، هذا الإيمان الذي يمكن من خلاله قبول وتفسير سر وجود كل موجود وظاهرة مجملًا ومفصلًا، والدخول إلى كل قضية مستعصية ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وهذه الإحالة هي الخيار الأوحد للنجاة ولا خيار سواها.

*****

عاشرًا: (المعتقدات) و(المعقولات) و(المحسوسات)

من أسباب نشوء الشكوك والأوهام المشوشة على الإيمان الخلط بين ثلاث قضايا مؤثرة في التصورات العامة: قضية الإيمان بالغيب اعتقادًا، وهذه (موضع الابتلاء والاختبار)، وعليها يترتب العمل والجزاء والحساب بعد الموت، وقضية الاستنباط والاستقراء والاستدلال والاستنتاج عقلًا (وهي العلم التجريبي، الفارق بين الإنسان والمخلوقات الأخرى)، وعليها تقوم المنافع الدنيوية وعمارة الأرض، وقضية إدراك المحسوسات المادية بالحواس المعروفة (التي يتساوى فيها الإنسان مع غيره من المخلوقات)، وهي ضرورات الحياة التي لا تمايز فيها ولا جزاء ولا حساب، والمقصود بالخلط هو عدم التمييز بين هذه (المعتقدات) و(المعقولات) و(المحسوسات)، وهذا الخلط يؤدي غالبًا إلى التيه والضياع الفكري وبلبلة الإيمان، ولا يتسق مع سر الابتلاء بين الخلق في قضايا الإيمان والتصديق، خاصة عند من يريد حصر قبوله للمعتقدات في قبول العقل لها، كقبوله للمعقولات والمحسوسات؛ لأنه قطعًا سيصل إلى مأزق إذا صادفه أمر فوق قدرة العقول والحواس، كما هو الحال في جميع عوالم الغيب.

إن التعامل مع كل قضية من هذه القضايا دون خلطها بالأخرى هو من أهم خطوات تنظيم العقل للتفكير السليم، فالرب الذي يجب الإيمان به لا يمكن إخضاعه لأي منظومة فكرية أو تصور أو حتى خيال، فكيف يُدرك عقلًا فضلًا على الإحساس به، لكن الاعتقاد يسير جدًّا إذا كان على بصيرة، فكل إنسان له أدنى عقل يؤمن بأن الرب الأعظم الخالق هو العظيم الذي من عظمته أنه لا تدركه الأبصار، هو الرب الذي ليس كمثله شيء، هو الرب الذي يعلم ما في نفوسنا، ولا نعلم ما في نفسه، هو الرب الذي لا يثبت وجوده بالعقول وحدها ولا بالحواس، ولا بالعلوم التجريبية التي هي جميعًا فرع من مخلوقاته الدونية جدًّا، إذ لا بد من الاعتماد على الوحي وخبر الخالق الأعلم الأحكم عن نفسه ﷻ، فلا مقارنة بين علم الخالق العالم بكل شيء، وعلم المخلوقين الذين مهما بلغوا فلم يؤتوا من علم الوجود إلا قليلًا، ولا يليق تصور هذه المقارنة غير المتكافئة بحق الخالق ﷻ.

ومن هنا، ولكي يستقيم الأمر، ويحصل التوازن والانسجام الوجودي يجب الفزع إلى ملاذ الإيمان الفوري دون أدنى تأجيل أو تسويف، الإيمان بالرب الإله الواحد ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا الحي الباقي، دون انتظار لإدارك الحواس الضعيفة التي لن تدرك ذلك أبدًا، أو تلمس براهين العقول المحدودة، وهذا الإيمان لا يخضع لنظريات البشر وتصوراتهم وخيالاتهم، بل يجب أن يكون فقط على الكيفية التي أخبرنا بها الوحي، دون أي ضرورة للتشبيه، أو التمثيل، أو التكييف المستحيل، أو التكلف في الخيال الباطل القاصر، أو التأويل المجوج أحيانًا؛ لأن الله تعالى هو الذي وصف نفسه بأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأنه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهذا الرب أيضًا له صفات القدرة المطلقة، فهو يخلق كيفما يشاء، ويقدر كيفما يشاء، ويختار كيفما يشاء، ولا ينتظر من خلقه الضعفاء إذنًا، بل هو القادر على كل شيء، يقدر كل ما يريده تقديرًا، ويحكم ولا معقب لحكمه، ويقضي ولا رادّ لقضائه، فهل بقي لنا بعد هذا من خيار سوى الاستسلام والإيمان بالخالق الذي هذه هي أسماؤه وصفاته إيمانًا مطلقًا وكفى، هذا هو ناموس غريزة حب السجود عند الذين أوتوا العلم، الذين يخرّون لله سجّدًا عند سماع تلاوة كتابه إيمانًا به وتعظيمًا لقائله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

يؤتى الإنسان أحيانًا من مداخل الغرور والطغيان وتضخيم الإنسان لذاته الصغيرة باستشعاره أنه هو وحده مركز الوجود كله، وأن ما يدور بعقله سيحدد مصير الكون وجودًا وعدمًا، وأنه بغروره هذا يشعر وكأنه (ديك) لا تشرق الشمس إلا لتسمع صياحه! وأنه بإيمانه ستشرق الشمس بنورها، وبكفره سيحلّ الليل بظلامه، وكأنه في موقف المساوم والمفاوض، بل والمبتز أحيانًا، وكأن المخلوقات بأسرها والكون كله في انتظار إعلانه التاريخي، أنه آمن بالحق والخالق والوجود والموجود، وكأن الكل أيضًا ينتظر هذا التصريح النبيل منه، وإلا فسينتهي الكون، ويكون مصير الوجود في عالم المجهول والسواد، وغير ذلك من الأوهام الباطلة التي منبعها الغرور وتضخيم الذات، بينما الحقيقة مختلفة تمامًا، فالإنسان وإن كرمه الله على الخلق امتحانًا له، إلا أنه

لا أثر له على منظومة الوجود حتى يكون لبيانه عن نفسه أثرٌ يذكر على الوجود، المسألة باختصار هي مجرد ابتلاء من الخالق العظيم الغني لواحد من جنس خلقه الذي لا يعلمه إلا هو، وهذا الابتلاء للإنسان منه يبدأ وإليه ينتهي في مرحلة التكليف الشرعي التي يكون فيها الإنسان في منتهى الحرية لاختيار خيار من خيارين كليهما بيده ما دام في مهلة الأجل: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ [يونس: ١٠٨] أما شأن بقية الوجود فهو من أمر ربي وحده سبحانه.

وفضلًا على أنه قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فإن اختفاء الأرض كلها بمن عليها وما في باطنها، بل واختفاء المجموعة الشمسية بكواكبها التسعة أيضًا، لا يعني شيئًا في حجم وجود هذا الكون بأجرامه العملاقة وفضائه الفسيح، فكيف بالوجود كله الذي لا مجال للإحاطة البشرية به، هذا إذا لم يكن هناك (وجودات عظمى) لا نجرؤ عقلًا على مجرد تخيلها، ومن يدري سوى مُوجِد كل موجود، لقد اضطرب عقل العالم الفيزيائي الشهير (أينشتاين) عندما وصل إلى هذا الحد المتقدم من التفكير ووصف تعطشه لمعرفة الحقيقة المستعصية بعد هذا الحد، فيقول: «أريد أن أعرف كيف خلق الإله الكون، أريد أن أتعرف إلى أفكار الإله، والباقي سيكون تفاصيل مكملة، إن معرفة الإنسان عن الكون، كطفل داخل مكتبة ضخمة، فيها مجلدات كتبت بلغات متعددة، يدرك يقينًا أن كتّابًا كتبوا هذه الكتب، ولكنه لا يدري كيف، ولا يفهم اللغات التي كتبت بها، ويدرك يقينًا أن الكتب قد رصت في المكتبة بنظام ما، لكنه لا يعرفه»[1].

*****

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٨٥.

الفصل الخامس

الإنسان وموقعه من الوجود



الإنسان وموقعه من الوجود

الإنسان شاغل نفسه وليس شاغلًا للوجود، وكل ما تراه وتعايشه وتدركه يقينًا من شأنك كله -أيها الإنسان- لا يخرجك من دائرة الحقيقة بأنك هامشي جدًّا وموقعك على حافة الحوداث والأقدار، أنت لست بشيء يذكر في ميزان الوجود الأعظم لولا أن الله العظيم قد كرمك، ومنحك هذه الصيرورة والوجود الذي تلمسه حسيًّا ومعنويًّا، تستطيع الوصول إلى هذه النتيجة بسهولة لو أنك تأملت في نفسك ذاتها، وسألتها أسئلة بدهية عن كينونتك ومآلاتها، مثل: من أنا؟ ولماذا وجدت؟ متى وجدت هنا؟ وكيف وجدت؟ وإلى أين سيكون مصيري بعد هذا الوجود؟ هل أستطيع أن أخلق شيئًا لنفسي؟ أو لغيري مهما كان صغيرًا؟ من أوجدني، وتكفل بنفسي وروحي وبطعامي وشرابي اليومي وحياتي ومماتي؟ أحب أشياء في هذا الوجود وأتمناها، فلماذا لا أستطيع جلبها لنفسي بنفسي، وأكره أخرى تحدث، فتنغص علي حياتي، فلماذا لا أستطيع دفعها عني؟ هل أنا المستخلف وحدي في هذا الكوكب؟ كم من المخلوقات استوطنت الأرض قبلي؟ أو معي؟ أو بعدي؟ أنا والزمان! أنا والمكان! أنا والوجود كله! أنا! أنا! من أنا؟

سينكشف لك حقيقة الجهل فور الغوص بأعماق هذه الاستفهامات الوجودية البدهية من حيث ورود السؤال، المستحيلة من حيث الجواب لولا خبر الوحي عن بعضها، وسيتبين لك بعدل كم أنت ضعيف وضعيف جدًّا، بل كم أنت هامشي على حافة هذا الوجود، أنت يا من تجادل، أحيانًا في أمر الله العظيم بغير علم، أنت باختصار لا شيء في هذا الوجود القائم لولا أن الله خلقك، وكرمك، واستخلفك على سطح واحد من كواكب كونه ووجوده الشاسع، وجعل لك عقلًا بمستواك البشري طبعًا تدرك به جزءًا من عالمك، ولكنك قطعًا لا تعلم حقيقة العوالم الأخرى، سواء كانت زمانية من ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، أو عوالم مكانية داخل وخارج الأرض، وما يتعلق بها من شمس وقمر وهواء: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

*****

الإنسان في مواجهة البعوضة!

عجبًا لأمرك يا من تدعي منازعة الخالق في خلقه وجودًا وعدمًا، وأنت لا تقوى على مواجهة الحشرات الصغيرة، لا بل عاجز عن مواجهة أصغر كائن تعلمه (الفيروس) الذي أضناك علاجه في كثير من الأمراض المستعصية، إنك تعجز عن الحماية من مخلوق لا يمكن أن تراه من صغره، ولو رجعت إلى ما يمكن أن تراه بالعين المجردة، فسينكشف عجزك أيضًا، قارن نفسك بأقرب المخلوقات إليك وأدناها في نظرك، ستدرك حقيقة ضعفك أمام ذبابة صغيرة، بل أمام بعوضة أصغر، تهاجمك فتسلب طعامك وشرابك أمام ناظريك، وتصل البعوضة الصغيرة جدًّا إلى دمك النقي تحت جلدك وعلى حين غفلة منك، فتلعقه هنيئًا مريئًا رغمًا عنك، فلا تكتشف عملية السطو المنظم هذه إلا بعد مغادرة البعوضة التي ربما طارت بسلام، عندما تحرّك يدك لقتلها، بل وتنقل لك الملاريا القاتلة التي ربما تنهي وجودك في هذه الحياة عند الإصابة، لقد قتلتِ النمرود الذي كان يدعي أنه يحيي ويميت! هذه قوة البعوضة أمامك وأنت تبحث عن شتى الحيل العلمية للتغلب عليها، إذ لا سبيل إلى مقاومتها مباشرة، فهي أقدر منك على الحركة وأسرع للاستجابة لأي مؤثر حولها، فكيف لو تصورت حجمك أمام مخلوقات أكبر وأكبر وأقدر، أو مخلوقات لا يمكن أن تتصورها، ولا تعقلها لعظم حجمها وما أكثرها؟!

إنك لو تصورت موقعك الطبيعي بين المخلوقات الأخرى لصححت الكثير من المفاهيم والتصورات الخاطئة، وأدركت الحقيقة بأنك هامشي في الوجود، وعابر سبيل على عجل في الطريق، وأن لك أجلًا محددًا ثم موتًا محققًا، وهذه كلها صفات عامة يشترك معك فيها جميع الكائنات من البعوض والذباب والصراصير والخيل والبغال والحمير والفيلة والأسود، وحتى الكائنات المجهرية الدقيقة، التي بعضها وفق معايير الدنيا المادية أقوى منك بأسًا وأطول عمرًا، وكيف لا يكون الأمر كذلك، ومتوسط عمرك لا يتجاوز الثمانين، وإن طال فمئة عام، تتساوى بذلك أنت والسلحفاة! ولو فكرت في حجمك الطبيعي لأدركت موقعك في سلم الحياة وأنت لا تستطيع حماية نفسك مباشرة، لا أقول من الحيوانات المفترسة الضخمة، بل حتى من الذباب الصغير،

نعم، هذا الذباب الطائر حولك إذا سلبك شيئًا من طعامك، هل تستنقذه منه؟ أو لدغتك نحلة، ثم هربت منك هل تستطيع مطاردتها مباشرة لاستردادها؟ تأمل سرعة استقبال الذباب للمعلومة، عندما يغشاه الخطر، وسرعة التعامل مع المعلومة وتحليلها واتخاذ القرار بالهرب منك، كل ذلك يتم خلال الثانية أو أجزاء منها، إن هذا الذباب الذي تراه ذبابًا، هو في الحركة أسرع منك بعشر مرات، عندما يداهمه الخطر، يستقبل إشارة الخطر، ثم يحللها، ويحدد اتجاه السلامة، ثم يتخذ قرارًا للهرب في اتجاه آمن، ثم ينفذ قراره، فيطير نحوها، يفعل ذلك كله من لحظة تحريك يدك نحوه وقبل أن تصله! فإذا أدركت ذلك من واقع حياتك، فتحول فضلًا إلى هذه الآية في كتاب الله، وتأمّلها جيدًا، حتى لو كنت قد قرأتها من قبل مرات عدة، اقرأها الآن بتدبر خاص على ضوء هذه المعلومة، فستجد فيها شيئًا جديدًا هذه المرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. أتظن أن هذا الذباب سهل؟! يقول (توماس أكويناس)[١]: «ما من عالم حتى اليوم عرف حقيقة ذبابة»، ويقول (روجر باكون)[٢]: «إنه لا يوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع أن يعرف كل شيء عن ذبابة واحدة»[٣]، هكذا قالوا وهم لا يمرّون على آية سورة الحج، كما يسرها الله لي ولك نمرّ عليها، فانظر إلى منة الله وفضله علينا وعلى الناس في هذا البيان الموصل إلى الإيمان، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

لن يتوقف التحدي عند الذباب، بل يتجاوزه إلى ما هو أدنى منه، ولنرجع إلى البعوضة مرة أخرى، ولله الحكمة البالغة في اختيارها مثلًا على الرغم من صغرها! إنك

---

(١) توماس أكويناس أو توما الأكويني Thomas D'Aquin (١٢٢٥-١٢٧٤م) الموافق (٦٢٢-٦٧٢هـ) ولد في آكوين وإليها ينتسب ويُعدّ من أكبر فلاسفة العصور الوسطى المسيحية ترك لمسات لا تزال موجودة على الفكر المسيحي الكاثوليكي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٤٢٦).

(٢) روجر بيكون (١٢١٤- ١٢٩٤م) الموافق (٦١١- ٦٩٣هـ) هو الفيلسوف والراهب الإنجليزي التجريبي وأشهر علماء القرون الوسطى الأوروبية والطبيب والمعلم المذهل كما يعرف بذلك:

(Encyclopaedia Britannica- Roger Bacon, Theodore Crowley, O.F.M. Last Updated 12014-9-).

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٤٢٤.

لا تستطيع حماية نفسك منها أيضًا، مثلها مثل الذباب، بل هي الأخطر؛ لأنها مع كونها الأصغر حجمًا فهي أكبر قاتل بشري بنقلها لفيروس الملاريا الذي يحصد سنويًّا أكثر من مليون ضحية(١)، ويخطف الموت بسببها طفلًا كل دقيقة، لن تستطيع أن تفصِّل الوجود على مقاسات خيالك وتصوراتك، فتصحح وتخطئ حالاته وأسراره وفق منظور عقلك وأنت الضعيف جسديًّا وعضليًّا حتى أمام البعوضة والذباب! ماذا ستكون أوضاعك أمام هذه الحشرات الضعيفة لولا ما سخره لك الخالق من أدوات الحماية والوقاية، وأولها هذا العقل الذي ميزك به عنها، وما فتح عليك من علم وتقنية واختراعات وظفتها للوقاية والحماية من هذه الكائنات المتفوقة عليك بقدراتها الذاتية ما عدا العقل، هذا العقل الذي يجب تسخيره للشكر لا للكفر والنكران وعلى أنه هبة من الخالق لا ينبغي توظيفه فيما لا يرضيه، فإذا كان هذا حال الإنسان مع صغار المخلوقات، فكيف سيكون حاله أمام عظائمها؟ إن هذا لشيء عجيب!

ولا ينتهي العجب عند هذا الحد، بل كيف بك وأنت تعلم علم اليقين في عقلك الباطني أن خالق هذه المخلوقات الجبارة في كبرها وعظمها لا بد أن يكون أكبر منها وأشد قوة وقدرة، هكذا يجب أن يكون مدخل تفكيرك لتعرف حقيقة الوجود من حولك، ولتدرك حجمك فيه، أما أن تتناول موضوع الخالق بكل عشوائية وتخرص وخيال خاطئ، وغرور قاتل مع عجزك الشديد عن فهم أدنى المخلوقين في أول طريق التفكير بهم، فهذا عدوان عقلي، وتجاوز ممقوت، وفجور في الجدل لا مكان له في عالم العقل.

إننا وأنت على حد سواء في مواجهة متواصلة مع هذه القضايا الوجودية التي تكشف ضعفنا، فما أظلمك أيها الإنسان، وما أكفرك! حين تفكر مجرد التفكير في منازعة الجبار العظيم في ملكه ومشيئته وأقداره وأنت عاجز عن حسم أمرك في هذا الوجود مع بعوضة صغيرة تطير حولك، كيف بلغت بك الجرأة أن تخاصم في شأن من أوجدك، وسير عمليات الحياة الدقيقة في جسمك إلى أن أصبحت متكاملًا بخدمات متكاملة كمجمع

---

(١) أصدرت منظمة الصحة العالمية بالتعاون مع اليونيسيف تقريرًا جاء فيه أن الملاريا تصيب من بين ٣٥٠ إلى ٥٠٠ مليون إنسان في العام ويموت منهم أكثر من مليون شخص وبحسب التقرير فإن أكثر من ٤٠٪ من سكان العالم معرضون للإصابة بها عن طريق لسعة بعوضة الأنوفليس: (أسوشيتد برس).

صناعي وإنتاجي ضخم، يتحرك في كل مكان، ويحوي مصانع معقدة تفوق بأدائها كفاءات مصانع الدنيا بأسرها، تنعم بهذا العطاء اللامحدود من الخالق، ثم تعرض عن هذا، وتجادل في ذلك، طبعًا أنت تعيش حياتك وتأكل وتشرب وتنام وتسعى وتكدح، دون أن تدرك عجائب جسمك الباهرة لكل عقل التي منها -على سبيل المثال- أن فيه ما يزيد على عشرة تريليونات خلية حية، وكل خلية من التعقيد بدرجة أنها تتكون من عشرة آلاف مليار ذرة[1][2]، وأن لكل ذرة نظامها وتركيبها وموقعها المميز، والكل يتحرك في مسار لا يخطئه، ولا توجد ذرة واحدة خلقت عبثًا في هذا البناء المتكامل من خلايا جسمك، بل كل ذرة تقوم بواجب محدد، ولك أن تتخيل أن خلية بكتيرية واحدة لا ترى بالعين المجردة تقوم بجميع الوظائف التي يقوم بها جسم الإنسان تقريبًا من حياة وتنفس وتكاثر ودورة غذاء وغيرها، وأنت أيها الإنسان، بفضل الله الخالق قد كفيت مؤونة إنشاء وإدارة وصيانة وحراسة وتشغيل وتطوير وتمويل ورعاية جميع هذه المنشآت الضخمة المعقدة في كيان جسمك المتكامل منذ أن كنت نطفة إلى أن تنتهي حياتك من الدنيا وأنت في حفظ وسلامة ورعاية من أوجدك، ثم تأتي بعد كل هذا لتجادل في الله دون أن تخشى أن تكون أنت المعني بهذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

*****

الإنسان ونكران الجميل

إن الخطوة الأولى للشكر هي أن تذكر نعمة الله عليك مع نفسك وأمام الآخرين على أنك عبد ضعيف محتاج إلى الله القوي العزيز، أما من يوهم نفسه بمنازعة الخالق في خلقه مستمتعًا بنعمته وفضله عليه، فهذا غاية النكران في حق خالقه، وكان الأجدر والأوفى بحق من ميزه بعقل أن يشكره ولا يكفره، ويذكره ولا ينكره، لا أن يسيء الأدب معه بسوء استعماله لجزء من عقله الذي خلقه به الخالق عاقلًا مدركًا، ولم يجعله

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٧.

(٢) العلم في ١٠٠١ سؤال، جيمس تريفل، ترجمة: عفيف الرزاز، أكاديميا، بيروت، ١٩٩٤م، ص١٣٢.

مجنونًا، لا يستوعب الأمور ولا يفهمها، أَيُعقل أن يبلغ الإنسان هذا الحد في الاعتداد بالنفس والغرور أمام هذه النعم؟! أيكون هذا شكره لمن خلقه فسواه فعدله؟! تذكر مشاعرك المتدفقة شكرًا وعرفانًا نحو طبيب ضعيف أجرى لك عملية ناجحة في جزء يسير من جسمك، أو أشرف على علاج عزيز عندك، من دون أدنى شك ستغرقه بأصدق عبارات الشكر والمديح والإطراء، وستسارع بإهدائه دروع الشكر وشهادات التقدير وحفلات التكريم، وستبقى وفيًّا له معترفًا بجميله، حتى وإن قام بذلك مقابل أجرة باهظة، ولم يكن ضامنًا لنتيجتها، بل الضامن هو الخالق القائم على كل نفس، الذي لو شاء ما نجح ذلك الطبيب الذي تكاد تعبده عرفانًا بجميله، والطبيب لم يخلق شيئًا من عنده، بل تصرف فيما وجده مخلوقًا له من أسباب وأعضاء وأنسجة ودم وعلاج وعلم، مستخدمًا عقلًا وهبه الله له كي ينجح مرة، ويخفق مرات، ويصبح بذلك طبيبًا متميزًا في أعين الناس.

الموقف يتطلب شيئًا من العقل والتعقل بأداء حق الله، حتى لو أنه الغني عن ذلك كله، ورب الكعبة لو فكرت في أمرك، لتوصلت إلى أن تشكر الخالق شكرًا مطلقًا لا أقول عند عافيتك من مرض فحسب، بل أيضًا عند إصابتك بأي مرض، حتى لو أدى في النهاية إلى الموت، تشكره شكرًا يفوق بلايين المرات ثناءك على طبيب مثلك، يوظف الأسباب التي خلقها الله لعلاجك، وهذه الأسباب والطبيب أصلًا وأنت معهم كلكم قطرة صغيرة في بحر جند الله في ملكه، نعم تشكر الله في حالات المرض؛ لأنك بها تتذكر ما لا يحصى من العافية القائمة في جسدك في بقية أعضائه قبل مرضك وبعده، ألا يستحق الشكر من أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى حتى لو أخذ شيئًا منها يسيرًا بل كثيرًا، بل حتى لو استردها كلها بالموت بعد أن وهبك إياها صافية سليمة، ثم استمتعت بها عمرًا دون تكلفة ولا منة ولا عناء؟ حقًّا إني لأجد نفسي أقف أمام الخالق راكعًا ساجدًا شاكرًا لمن يقول، وقوله الحق: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إن هذه النعم العظيمة توجب المبادرة بالشكر وتجنب النكران والجحود، ومن أشد النكران هذا الجدال الباطل عبر التاريخ حول وجود من أنعم بها علينا! لو أن خالق

الكون لم يخلق لك سوى هذا القلب النابض بهذه الطريقة المتواصلة طوال حياتك يعمل من تلقاء نفسه لا يتوقف ثانية واحدة، ولو حدث ذلك لانتهى أمرك بلمح البصر، ومع هذا تمر عليك الدقائق والساعات والأيام والأعوام، غارقًا في غفلة والقدر يتخطفك، لو استحضرت هذا فقط وتأملته جيدًا لاستحييت أن تتصرف وكأنك تنازع الخالق قدرته الفائقة ولأوقفت كل جدال وجودي حوله مكتفيًا بالإيمان والتسليم؛ لأنك أعجز وأقل من أن تحرك خلية واحدة في جسمك فضلًا على قلبك النابض، ولو أوقفه عنك دقة واحدة لتعطل، وتعفن، وتحلل عقلك الذي تنازع به العظيم ملكه حتى يختلط بقاياه في التراب الجاف، ولو توقف نَفَسُك لحظات لكنت في عداد الأموات، كيف والأمر كما ترى خلق مختلف، وقلوب وأرواح وبحار وصحارى وسماء وأبراج ونجوم وكواكب ومجرات، وجنسك أيها الإنسان، منثور بينها لا تكاد تعرف شيئًا لولا أن الله عرّفك ورفع شأنك، وجعل لنا ولك سمعًا وأبصارًا وأفئدة لكي تعلم بها كل معقول، وتحس ما حولك من كل محسوس، عجبًا ثم عجبًا لك! أكل هذا تدركه دون أن يكون لك منه واعظ، وتعلم أنك لست شيئًا في ميزان بقية الخلق الذي لا تدركه، ومع هذا تريد أن تجعل من نفسك الضعيفة ندًّا للخالق الحي الباقي تجادل في وجوده، وهو الذي أوجدك أصلًا، وتفضل عليك بأدوات الجدال التي بها تجادل فيه، وتحاول عبثًا إخضاع ما لا قدرة لك به، وتجعل من عقلك ميزانًا للكون، وجودًا وعدمًا، زمانًا ومكانًا!

أليس من الواجب عليك عقلًا ومنطقًا أن تعرف حجمك في الوجود أولًا قبل أن تتطفل مكابرًا على منصة الحوار الوهمية الكبرى حول الوجود؟ أليس الأولى لك أن تلملم ما تبقى من سنيّات عمرك المتناثرة، التي لا تملك لها ابتداءً ولا انتهاءً، ثم توظفها فيما يخدم مستقبلك القادم المخيف الذي لا خيار لك ولا مهرب عنه؟ بلى، هذا أولى لك وأنفع من أن تنصب نفسك حكمًا على ما يستحيل عليك استيعابه، ليس الأمر للمزايدات الكلامية أو للتواضع المصطنع، بل هو دعوة مدوية لليقظة والوقوف متوازنًا في مكانك الطبيعي كإنسان يعرف قدره بعيدًا عن التجاوز والعدوان الفكري بحق الخالق، عليك أن تعرف نفسك، وتقيم قدراتك ومهاراتك وخبراتك الكونية الحقيقية، وعندها ستستنتج أنك بالمعيار المادي لا شيء! وبالمعيار المكاني لا شيء! وبالمعيار الزماني لا شيء أيضًا!

لن تحتاج إلى جهد سحري كي تبرهن على هذه الحقيقة، ولن أحدثك عن علوم الكون وتعقيداته الحديثة السحيقة، بل سأكتفي بلفت الانتباه إلى ما يمكن أن تراه بعينك، هذه السماوات والأرض التي تراها بأم عينك، تسير على الأرض، وتعلوك السماء وأنت آمن في حياتك، ولو سقط عليك حجر بحجم التفاحة ومن مسافة أمتار قليلة لفلق هامتك، ولأحالك إلى رفات وتراب جامد، بينما الحقيقة أكبر منك ومن وجودك: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧] لقد وجدت نفسك مخلوقًا في هذا الوجود، كلما ازددت علمًا، أدركت صعوبة السيطرة على ما حولك، وما وضعت يدك عليه معرفيًّا من الدنيا لا يساوي شيئًا أمام الكم الهائل من الموجودات العظمي الخارجة عن السيطرة، إن حجمك لا يتناسب مع حجم الكون العظيم، ولا عمرك يصلح وحدة مقياس للزمن فيه، وهذا ما جعل الإنسان إما أن يضطرب، ويشعر بالخطر والتشاؤم والتمرد واليأس واللا مبالاة، أو الطمأنينة والتسليم المطلق لله(١)، ولا أحكم من التمسك بالخيار الأخير؛ لأنه خيار العقلاء والسعداء، بل إن ما سواه هو العمى الحقيقي، فقد حصر القرآن الخيار في أمرين لا ثالث لهما، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩].

*****

الإنسان والاستخلاف في الأرض

تستوقفك لحظات التأمل الغريبة، عندما تكون في طائرة على ارتفاع عشرة آلاف متر فوق سطح الأرض، ثم تلقي نظرة فضولية من النافذة، لترى المدن الكبيرة تحتك، وكأنها قطعة حصير صغيرة مزخرفة ببيوتها وشوارعها ومبانيها دون أن تميز معالم المباني الضخمة فضلًا على سكانها الموجودين فيها حتى لو لم تَرَهم بعينك، ولو ركبت سفينة فضاء، فارتفعت بك مئة كيلومتر إلى أعلى لرأيت الأرض كلها، لا أقول بسكانها، ولا أقول بمدنها ولا دولها فقط بل بقارّاتها ومحيطاتها، وكأنها عملة نقود معدنية ملونة ملقاة

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش، (مرجع سابق)، ص٣٧٢.

في فضاء! ولو قدر لك أن تبتعد في الفضاء أكثر من ذلك لاختفت الأرض كلها من نظرك، وكأنها لا توجد في الوجود المرسوم في خيالك، ولو تجولت في مجرتنا التى تسمى (درب التبانة) لاختفت عنك الشمس مع كبر حجمها، فكيف بالكواكب التابعة لها؟!، ولولا معرفتك بالأرض مسبقًا لربما ترددت في تصديق من يخبرك عن وجودها مع أهلها القاطنين عليها، فأين تكون أنت فيها حينئذٍ؟ وأين يكون عقلك (المزعج) هذا؟ وأين يكون جدالك وزعمك مزاحمة الخالق؟! الجواب: أنت يا عزيزي، بالمعيار المكاني لا شيء في هذا الوجود، فاحمد الله الذي كرمك، ورفع شأنك فضلًا منه ونعمة.

أما مقامك وفق المعيار الزماني فهو أشد غرابة، فأنت أيضًا لا شيء يذكر! ويكفي أن هذا الوجود قد وجد قبل تسجيل أي أثر للإنسان على الأرض بمليارات السنين، وكان مجيئك إليه متأخرًا جدًّا جدًّا، ولم يكن العلم التجريبي وحده ليثبت ذلك، بل سبقه الوحي الإلهي: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ومن عجز الإنسان أنه لم يستطع تحديد فترة وجوده على الأرض بشكل دقيق، والتقديرات الموجودة بين يدي الباحثين اليوم عن مدة وجود الإنسان على الأرض تتفاوت ما بين عشرات الآلاف إلى ملايين عدة من السنين، ولو أخذنا الحد الأعلى لوجوده على الأرض ـ فرضًا – وبالغنا في تقديره احتياطًا لما استطعنا تجاوز بضعة ملايين من السنين، بينما تصل تقديرات عمر الكون ما بين أربعة عشر مليارًا (١٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) إلى عشرين مليارًا (٢٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) من السنين[١]، وأن عمر الأرض نحو أربعة مليارات ونصف المليار (٤,٥٠٠,٠٠٠٠,٠٠٠) سنة[٢]، وبمجرد أن تتذكر

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٢٧.

(٢) كل ذلك علمه عند الله وحده وجميع هذه الأرقام اجتهادية بين العلماء وليست محل إجماع ولكن يقول بها غالبة المختصين ولا يوجد نص صريح من الوحي قديمًا أو حديثا يحدد هذه الأعمار وتبقى من علم الغيب الذي لا قدرة للإنسان عليه حتى لو تسابق العلماء لقول شيء في ذلك تبقى كلها تقديرات تقريبية انظر إلى هامش التقريب في تقدير عمر الكون نحو ستة مليارت سنة ما بين الحد الأدنى والأعلى أي أكثرمن عمر الأرض الافتراضي وهناك نصوص متناثرة وغير موثوقة عند أهل الكتاب بعضها يجعل عمر الأرض ٦٠٠٠ سنة فقط! وذلك لم يقبل به أحد من علمائهم المعتبرين الذين استخدموا المقياس الراديومتري لمعرفة هذه الأزمنة والأحقاب مستعينين بالأحافير ودراسة السلالات الحية على الأرض وسبحان من يعلم تفاصيل ذلك يوم أن عجزنا كل العجز عن معرفتها!

متوسط أعمار الناس تدرك يقينًا أنه لا اعتبار لك يا ابن آدم، في ميزان الزمن الأرضي وحده، مقارنة بما حولك من الخلق وحدهم، ولعل مما يحطم كبرياءك أن تعلم أن بعض الحشرات أقدم منك وجودًا على الأرض، فالعقرب - مثلًا - وجدت في العصر السيلوري[1]، أي قبل أكثر من ٤٠٠ مليون سنة! والديناصورات وُجِدت، واستمرت تجوب الأرض في العصر الترياسي[2]، أي منذ نحو ١٠٠ مليون سنة والعصر الجوراسي[3]، والطباشيري[4]، ثم انقرضت تمامًا قبل نحو ٦٥ مليون سنة.

وعندما وجدت نفسك في الأرض خليفة، هل تعتقد أنك وحدك من يمشي عليها من مخلوقات الله فيها، إن تعداد سكان الأرض من البشر قليل جدًّا عند المقارنة بعدد مخلوقات الله الأخرى على الكوكب نفسه، ففي الوقت الذي لا يتجاوز عدد الناس اليوم على الأرض سبعة مليارات نسمة، نجد أن عدد الحشرات بجميع أصنافها وأجناسها يزيد على عدد الناس بما يقارب ١٠ وعلى يمينها ثمانية عشر صفرًا، (١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) حشرة، أي إنه يقابل كل إنسان واحد مليار حشرة تقريبًا[5]، وكل ذلك مضبوط محكم في سجلات إلهية لا تخطئ أبدًا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] وعلى هامش هذه الأقدار الكونية الجبارة التي يرعاها الله

(١) العصر السيلورى: هو عصر جيولوجي يبدأ من نحو ٤٣٥ مليون سنة وينتهى قبل نحو ٣٩٥ مليون سنة ازدهرت فيه الحياة البحرية: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، محمد مشرف والطاهر إدريس وحسين عوض، دار المريخ، ١٩٩٣م، ص١٤٦).

(٢) العصر الترياسي: هو عصر جيولوجي بدأ منذ نحو ٢٢٥ مليون سنة وانتهى قبل نحو ١٩٥ مليون سنة تطورت فيه الزواحف وظهرت فيه الديناصورات: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، مشرف، (مرجع سابق)، ص١٤٨).

(٣) العصر الجوراسي: هو عصر جيولوجي بدأ منذ نحو ١٩٥ مليون سنة وانتهى قبل نحو ١٣٥ مليون سنة ازدهرت فيه الكائنات الحية على أوسع نطاق: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، مشرف، (مرجع سابق)، ص١٤٩).

(٤) العصر الطباشيري: ويسمى العصر الكريتاسي بدأ منذ نحو ١٣٦ مليون سنة وانتهى قبل نحو ٦٤ مليون سنة سمي بذلك لترسب طبقات سميكة من الطباشير: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، مشرف، (مرجع سابق)، ص١٤٩).

(٥) العلم في ١٠٠١ سؤال، تريفل، (مرجع سابق)، ص١٩.

الخالق الجبار وُجِدت أيها الإنسان، هامشيًّا جدًّا بين هذه المخلوقات، وتدرجت في حضارتك القصيرة، فأنت بالمعيار الحضاري مخلوق بسيط جدًّا إلى جانب قصر أجلك فتاريخك لم يُعرف على الأرض قبل نهاية العصر الثلاثي (البيلوسيني)(١)، ثم تدرجت متطورًا بحياتك البسيطة من العصر الحجري(٢)، فالبرونزي(٣)، فالحديدي(٤)، فعصر العجلة ثم الآلة ثم السيارة والطائرة وسفن الفضاء والموجات الكهرومغناطسية وعالم الإلكترون والذرة والاتصالات، عصور كلها قصور بشري تسميها بما قدرت عليه من استعمال لما سخر الله لك في الأرض من حجر وبرونز وحديد وعلم، تتدرج في اكتشافه، كما يتدرج الطفل في معرفة نفسه ومأكله وحياته.

لقد وجد الإنسان متميزًا عن بقية الكائنات بعقله فقط، وتدرج ببساطة متناهية عبر التاريخ، وتدرجت معه مداركه وسعة آفاق علمه، فالتصورات الذهنية للإنسان الذي عاش قبل ٥٠٠ عام قبل الميلاد، تختلف اختلافًا جذريًّا عنها في فترة ٥٠٠ سنة بعد الميلاد، عنها في ١٠٠٠م، وعنها في عام ٢٠٠٠م. تخيل أنك تطرح سؤالًا علميًّا موحدًا على كلٍّ من سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين عاشوا في حقبة ما قبل الميلاد، الى أن تصل إلى مفكر معاصر اليوم! يستحيل مطلقًا أن تتقارب إجاباتهم فضلًا على عدم تطابقها، فكل عبقري في زمانه أجاب بما أحاط به علمه، ثم تبين لأسلافه بساطة استنتاجه لقلة المعطيات ووسائل العلم عنده، مقارنة بما يتمتع به من بعده، ومهما بلغ الإنسان من النضج والعلم ستبقى الحقيقة المطلقة عن أسرار هذا الوجود ليست في متناول البشر بمن فيهم المعاصرون أيضًا، بل وحتى اللاحقون فيما بعد، ولهذا ليس من الحكمة التوقف عند فهم أو تصور معين قابل للتطوير والتصحيح وربما للإلغاء، ومن

(١) العصر الثلاثي: عصر جيولوجي بدأ منذ نحو ٦٥ مليون سنة وانتهى قبل نحو خمسة ملايين سنة وظهرت خلاله الثدييات وآكلات العشب: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، (مرجع سابق)، ص١٥٠).

(٢) العصر الحجري: وهو عصر جيولوجي بدأ منذ ظهور الإنسان على الأرض حتى عام ٤٠٠٠ ق. م.

(٣) العصر البرونزي: هو عصر ظهور السبائك والفلزات المعدنية وخاصة النحاس ويمتد تقريبًا منذ ٤٠٠٠ ق. م إلى ٣٠٠٠ ق. م.

(٤) العصر الحديدي: وهو عصر دخول التصنيع المعدني باستخدام الحديد ويمتد متداخلًا مع النصف الثاني منذ العصر البرونزي إلى ١٠٠٠ ق. م.

الخطأ ربط مفاهيم النصوص الشرعية بالحوادث المستحدثة القابلة للتغير، ومثله كذلك إلزام الناس بأقوال مفسر معين لنصٍّ شرعي قد مضى عليه قرون، ويحتج بفهمه للنص وهو غير المعصوم من جهة، وغير المطلع على تفاصيل الأمور ومستجدات كل عصر من جهة أخرى، ولكل عصر معطياته وآفاقه العلمية والفكرية.

لا بد أن ندرك أن الوحي لا يحدثنا إلا عن الحقائق كما هي، فيعلمنا ما لم نعلم من هذا الوجود: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] أما اعتماد الإنسان على جهله بالحقيقة التي بين يديه دون أن يدركها، فإن ذلك يقوده إلى التخبط والمعاناة الصامتة، والدليل فرحه بالطريق الآمن، عندما يجده فيبكي على غفلة أسلافه وجهلهم به، ونحن في عصرنا نتحدث بما بلغنا من علم، قد يعفو عليه الزمان، فيأتي من بعدنا من يبكون نيابة عنا على ما كنا نتصوره حقائق في عصرنا انكشف لهم بما فتح الله عليهم من العلم ما يدركون به ما استعصى علينا، وهكذا، كل ما علمه الإنسان أو استنبطه في يومه الذي يعيشه، قد كان جاهلًا به قبل ذلك، وعادة ما يصل الإنسان إلى الحقيقة النسبية عن طريق تتبع وافتراض نظريات يلتمس تطبيقها، فيخفق مرات وقد ينجح مرة، لكن الحقيقة المطلقة هي الحقيقة الباقية في تقدير الله، سواء اكتشفها الإنسان أو جهلها، يقول (وليام هيويل)[1]: «يوجد قناع من النظريات فوق وجه الطبيعة كله»[2]، وتأكيدًا لما قاله، لنتذكر متى عرف الإنسان الفيروسات التي تسبب أمراض الجدري والإنفلونزا وحتى نقص المناعة؟ وهل جهل علماء التاريخ وعباقرته قبل اكتشافها يتعارض مع وجودها أو نفيها قبل اكتشافها، وقد أصبحت اليوم حقائق لا تقبل الجدل عند المتأخرين، إنهم لم يخلقوها بل وجدوها واكتشفوها،

---

(١) وليام هيويل William Whewell (١٧٩٤ - ١٨٦٦م) الموافق (١٢٠٦ - ١٢٨٣هـ) فيلسوف إنجليزي عاش في زمن أوغستين كنت ألف كتابًا بعنوان (رسائل بريدجوتر) أوضح فيها الحكمة والدور المباشر للخالق بخلق الطبيعة بأسرها: (داروين مترددًا، ديفد كوامن، ترجمة: مصطفى فهمي ومحمد خضر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٣٠).

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١٩.

لكن بعد ماذا؟ كم قتل الجدري من الناس قبل أن يكتشف (إدوارد جينز)(١) المصل المضاد له عام ١٧٩٨م؟ وما الذي أصبح يراه الإنسان عبر موجات الضوء المختلفة بعد أن كان مبصرًا فقط لموجات الضوء المرئي؟ وما مقدار الضوء المنظور بالنسبة إلى غير المنظور؟

*****

﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨- ٣٩].

عندما نقول: إن لغة القرآن وجمل القرآن الواردة في آياته بل وكلماته إنما تعبر عن خطاب رباني فريد في غاية العظمة والكمال، إنما نقول ذلك محاولين وصف بعض الحقيقة المعجزة، الماثلة بين يدينا، مع إدراكنا بقصور كل العبارات عن الوصول إلى الحد الأدنى من وصف كلام الخالق، تأمل آية من كلمتين يتخللهما ثلاثة حروف فقط حصرت هذا الكم الهائل من العلم كله، سواء ما فتحه الله للإنسان في هذه المرحلة أو ما قد يفتح عليه بأكثر من ذلك مستقبلًا، أو الأشياء التي لن يعلمها الإنسان مطلقًا، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨- ٣٩] تذكر أن هذا النص البليغ المكتنز بالمعرفة قد نزل على رجل لا يقرأ، ولا يكتب أصلًا، ولم يغادر مسقط رأسه إلا مرة واحدة للشام في رحلة تجارية، بل ولم يعرف له عمل فكري أو أدبي قبل بعثته، فإذا جاءنا بمثل هذه الآية الشاملة لكل شيء في الوجود، فلنعلم علم اليقين أننا أمام قرآن عظيم كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كلنا قد قرأ هذه الآية مئات ولربما آلاف المرات دون أن نتوقف عندها متأملين بأنها ما تركت شيئًا في الوجود إلا وأشارت إليه، والأهم من ذلك أنها جاءت قسمًا من

---

(١) إدوارد جينز Edward Jenner (١٧٤٩- ١٨٢٣م) الموافق (١١٦٢- ١٢٣٨هـ) طبيب وعالم إنجليزي لاحظ أن حلابة البقر (سارة نيلمس) لم تصب بالجدري؛ نظرًا لإصابتها بجدري البقر فاكتسب جسمها مناعة ضد الجدري القاتل فنجح في تطعيم مرضاه من جدري البقر؛ لتحصينهم من الجدري فاكتشف لقاح الجدري: (Stefan Riedel Edward Jenner and the history of smallpox and vaccination Proc (Bayl Univ Med Cent). Jan 2005; ١٨(١): ٢١-٢٥)..

الخالق لتأكيد مصداقية الوحي نفسه الذي هو مفتاح كل لغز معرفي في هذا الوجود، إنه قمة الإعجاز والتحدي لكل عالم أو متعالم أن يواجه هنا بما لديه من زاد، فكل شيء في الوجود هو مما نبصره أو مما لا نبصره، لكن حتى في عالمنا المحدود وبمداركنا المحدودة، ما الذي نبصره بأعيننا وما الذي لا نبصره؟ يصعب الجواب على هذا السؤال لعدم الجزم في حصر العلوم والمعارف والأسماء في أي مرحلة من مراحل الحياة على هذا الكوكب، لكن لعل نظرة عاجلة على طبيعة فيزياء الضوء الذي هو وسيلة الإبصار والرؤية للأشياء القريبة منا يقرب لنا هذه الصورة.

من المعلوم أن الأشياء لا تشاهد إلا بانعكاس موجات الضوء عليها، والضوء المرئي بالعين البشرية ما هو إلا جزء يسير جدًّا جدًّا من الضوء بشكل عام، فإذا قيل: الضوء المرئي فالمقصود به تلك الموجات الضوئية التي تستطيع عين الإنسان استقبالها وإدراك الأشياء بها دون وسيلة، وهذه لا تشكل نسبة تذكر في سلم الطول الموجي للضوء، أو الموجات الكهرومغناطيسية، حيث تقع موجات الضوء العادي (الضوء العادي وألوانه السبعة المعروفة بألوان الطيف) في المدى ما بين ٤٠٠ و٧٠٠ نانومتر[(١)]، وذلك على تدريج السلم الذي يبدأ من أقل من ٠,٠١ نانوميتر في حالة الأشعة قصيرة الموجة عالية الطاقة (أشعة جاما) إلى أن يصل إلى أكثر من كيلومتر في حالة الموجات الطويلة وقليلة الطاقة (موجات الراديو).

أشعر أننا بعرض هذا الموضوع الفيزيائي سنكشف (عورة فكرية) للعقل البشري المغرور بضعف إدراكه للوجود، وحتى على مستوى الضوء المرئي لم يكن بمقدور الإنسان رؤية المخلوقات الكبيرة والبعيدة جدًّا أو الصغيرة جدًّا دون واسطة، فهو مضطر إلى استخدام الميكروسكوب كي يرى الكائنات الدقيقة، وإلى التلسكوب ليرى الأجرام السماوية الكبيرة، ولم يكن يبصر أكثر مما يراه بعينه المجردة قبل اكتشاف هذين الجهازين، ولو افترضنا أن كل ما قد يكتشفه الإنسان مما يمكن رؤيته بالضوء المرئي بغض النظر عن صغره وكبره إلى يوم القيامة هو مما يبصره الإنسان اليوم، سيبقى السؤال الأكبر: ماذا عن العوالم الأخرى التي لا يبصرها؟ وما حجم تلك المنظورات بموجات

(١) النانومتر يساوي جزء من بليون جزء من المتر.

الضوء المباشر، إلى غيرها من الأشياء التي لا يمكن إدراكها إلا بواسطة أجهزة خاصة لها القدرة في التعامل مع أنواع الموجات الأخرى كأشعة (جاما) والأشعة (السينية) و(فوق البنفسجية) و(تحت الحمراء) وغيرها؟ وماذا عن الأشياء التي لا يمكن للإنسان أن يبصرها بأي وسيلة على الإطلاق؟! تعالَ عرف بنفسك أيها الإنسان، وأبرز هويتك، واستعرض قدراتك الذاتية بين هذه المخلوقات، ألا تنقلب إليك البصيرة كما انقلب إليك البصر قبلها خاسئًا وهو حسير؟

يجمع العقلاء على مر التاريخ أن الإنسان لا يزال في أول درجات السلم المعرفي، حتى وإن وصلت الاكتشافات العلمية والتقنية إلى مستويات عالية في التعامل مع مختلف أنواع الأشعة رصدًا وتحليلًا وتصويرًا، ومن ثم العرض بطريقة تمكنه من رؤية الأشياء، لقد استطاع الإنسان التقاط صور غريبة عن الكثير مما لا نبصره خاصة في مجال الكون والفضاء باستخدام موجات الضوء غير المرئي، وأصبحنا ما بين مصدق ومشكك لغرابتها، علمًا أن المشككين أنفسهم يتعاملون مع الموجات الكهرومغناطيسية في حياتهم اليومية في الاتصالات الهاتفية سلكية ولا سلكية وفي البث والتحكم عن بعد، ويرون صور هياكلهم العظمية في المستشفى بعد أن تخللت أجسامهم الأشعة السينية التي لم يروها يقينًا، لكنهم رأوا أثرها بيقين أكثر لا يسعهم إنكاره، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

لقد سبق الإشارة إلى أن نسبة الضوء المرئي لا تكاد تذكر في سلم موجات الضوء، ومن الصعوبة بمكان تحديد هذه النسبة، وسنحاول تقريب هذه النسبة؛ ليسهل تصورها، وذلك عن طريق حساب نسبة مدى طول موجات الضوء المرئي إلى المسافة الكلية على سلم توزيع الطول الموجي للموجات الضوئية كلها، ليعلم الإنسان ضيق مجال إبصاره الطبيعي من الوجود، فيقف حيث يجب عليه الوقوف تأدبًا مع الخالق العالم بكل شيء خَلَقَه، من المعلوم فيزيائيًّا أن خط التوزيع الموجي للأشعة (الضوء كله) يتدرج من أقل من ٠,٠١ نانومتر إلى أكثر من واحد كيلومتر، ولو وحدنا وحدة الطول لأصبح السلم متدرجًا من أقل من ٠,٠١ إلى ألف مليار (١٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) نانومتر، وفي هذا السلم يقع الضوء المرئي بألوان طيفه المشهورة فقط في المدى من بين ٤٠٠ إلى ٧٠٠

نانومتر، أي في مدى ٣٠٠ نانومتر فقط من التدرج الكلي لموجات الضوء، وهذا يشكل نسبة واحد إلى ثلاثين مليارًا[1]، يعني لو قدر لك أيها الإنسان، أن تحيط علمًا بكل ما يمكن مشاهدته بواسطة الضوء المرئي من المخلوقات (وهذا في غاية الاستحالة طبعًا)، فلن يكون ذلك بأكثر من واحد إلى ثلاثين مليارًا من الأشياء الممكن إبصارها بالضوء عامة! ومن هذه النسبة الضئيلة ترى أيها ألإنسان، بعض ما حولك من الأشياء المرئية، فما الذي غرّك بربك الكريم أن نصّبت من نفسك حكمًا على الوجود تنفي، وتثبت، وتقرّ، وتنكر؟! تخيل لو أنك تستطيع أن ترى بجميع موجات الضوء المعروفة إلى الآن،

(١) وفيما يلي أنواع الأشعة المشهورة ووجودها على سلم الطول الموجي للضوء وهى مرتبة تصاعديًّا بحسب طول موجاتها وتنازليًّا بحسب طاقتها:

١- أشعة جاما Gamma و طولها الموجي أقل من ٠,٠١ نانومتر وهى أعلى موجات الضوء طاقة وأقصرها طولًا ويمكنها النفاذ من خلال كل الأوساط تقريبًا ولا تتقى إلا بحواجز سميكة من الرصاص وحيث إنها تقتل أي خلية حية تمر خلالها فإنها تستخدم طبيًّا في قتل الخلايا السرطانية دونما الحاجة إلى جراحة في بعض الحالات.

٢- الأشعة السينية X-Ray وطولها الموجي واحد نانومتر وهي عالية الطاقة ويمكنها النفاذ من خلال الكثير من المواد ولكونها أقل طاقة من أشعة جاما فإنه يكثر استخدامها في الأغراض الطبية.

٣- الأشعة فوق البنفسجية Ultraviolet ويصل طولها الموجي إلى ١٠٠ نانومتر وتصدر من الانفجارات النجمية وتصدر الشمس كميات هائلة منها وهي أشعة قد تسبب حرق الجلد لو وصلت إليه وقد تؤدي إلى سرطان الجلد عند التعرض لكميات كبيرة منها. ويمكن إنتاجها صناعيًّا لكي تستخدم في الفحوص التي تتطلب دقة كالكشف على العملات المزورة غير أن النجوم تُعدّ مصدرها الرئيس في الكون.

٤- الضوء المرئي Visible light وتتراوح أطوال مختلف موجاته ما بين ٤٠٠ إلى ٧٠٠ نانومتر وفيه جميع ألوان الطيف المعروفة.

٥- الأشعة تحت الحمراء Infrared (IR) ويصل طولها إلى ٠,١ مليمتر ومصدرها عادة من الأجسام الحارة من كل كائن حي وهذه الأشعة تستخدمها الجيوش في تحديد أهدافها من الآليات والجنود التي تنبعث منها الحرارة وأكثر أنواع الثعابين تستخدمها لتحديد فريستها بدقة.

٦- الموجات القصيرة أو الميكروويف Shortwave radiation (SW) وتستخدم في الاتصالات خصوصًا في الهواتف المحمولة وتستخدم أيضًا في أفران التسخين المشهورة وكذلك في إرشاد الطائرات وتحديد سرعة المرور على الطرق.

٧- موجات الراديو Radio waves ويتراوح طولها من متر إلى كيلومتر وتصدر من النجوم مثلها مثل باقي الإشعاعات كما تصدر من عمليات حدوث البرق في السحب إذ يلاحظ التقاطه من أجهزة الراديو وتستخدم في عمليات الاتصالات اللاسلكية بشكل عام.

كيف سيكون شكل الأشياء وحجمها ولونها والكون والوجود من حولك؟ بل تخيل أنك تستطيع أن تدرك ما لم يبلغه علم البشر اليوم، فكيف سيكون الكون هذا أمامك؟ وكيف سيكون إيمانك؟! سؤال لا يوجه إليك وحدك بل لكل إنسان يمشي على الأرض.

إن إطلالة سريعة على هذا الضوء بصفة عامة، وعلى المرئي منه بصفة خاصة، أثبتت لنا أن حقيقة الوجود تفوق جميع هذه التصورات المستحيلة بما لا يمكن تخيله أصلًا، لاحظ أننا تحدثنا عن الطول الموجي لسلم الضوء المرئي وغير المرئي وابتدأنا من نقطة، وانتهينا عند أخرى، وقلنا: هذه هي موجات الضوء، والحقيقة أننا لا ندري عما دونها ولا عما فوقها من موجات ربما لم نتمكن من اكتشافها ولا قياسها بعد! والأشد من ذلك أنا نتحدث عن الإدراك الطبيعي بواسطة الضوء، فمن يدري لعل الذي خلق إدراكًا بالضوء قد خلق إدراكات أخرى بغير الضوء؟! ومن يعلم أيكون لها حدّ أم لا؟ إننا هنا نتوقف؛ لأننا على يقين أن الله على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء سبحانه، وهذا يكفينا حتى نلقاه.

إرجو منك أن تتذكر، بل تستحضر هذه الحقائق العظيمة الباهرة، عندما تمرّ عليك موجة استفسار أو شكوك أو وساوس حول شيء ما في هذا الوجود، أتمنى أن نعرف قيمة الوحي، وما يفتحه لنا من آفاق معرفية مباشرة يستحيل وصولنا إليها من دونه، انظر إلى هذه الآفاق المعرفية التي أشرق ضياؤها من آية واحدة، فكيف لو تتبعنا نور آيات بينات أخر تذرف العيون لهيبتها، مثل قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] أو هذه الآية المزلزلة للقلوب الحية: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥] حقًّا حقًّا أننا كما وصفنا الخالق نرتقي المرتقى الصعب بظلمنا وجهلنا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

*****

الصراحة مع الذات

هناك سر عظيم وراء توجيه الخطاب والرسالات والمواعظ والنصائح وإرسال الرسل وتنزل الوحي إليك أيها الإنسان، بلغة الوعد والوعيد، وبالخوف والرجاء، وذلك لتهيئتك لما بعد الموت، والحكمة من وراء هذا الخطاب تنبيهك بأن أمامك مستقبلًا مخيفًا مروعًا لمن لا يتهيأ له، يستحق كل هذا الاستعداد والتحذير، فيا أيها الإنسان: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨] أما آن لك قبل انقضاء الأجل أن تصحو من هذه الغفلة القاتلة، وتستيقظ من هذا السبات العميق، وتنزع عنك غبش الوسوسة والشكوك المتعارضة مع كل حقيقة، فتدخل فورًا إلى منطقة الأمان، وتعسف نفسك على الحق عسفًا، إيمانًا وقولًا وعملًا، وتنزلها منزلها الطبيعي في الوجود، فلا تجادل في الله بغير علم، وتدرك أنك مخلوق عابر على هامش الأقدار في هذا الوجود، وتهيئ نفسك لما بعد هذه الحياة.

دع عنك هذا (الهيلمان) البشري المزيف، والغرور الخادع، فأنت في البداية لا شيء، وفي النهاية لا شيء! إلا أن الخالق أنشأك خلقًا آخر، أنت كنت عدمًا، فصنعك الخالق، وجاء بك إلى الوجود بلحم وعظم ودم وشعر وحركة تحسها، وبروح لا تحسها، ولن تحسها أبدًا، ولا يعنيك شأنها، وإن كانت أهم ما في وجودك، وذلك لأنها جاءت قدرًا، لقد ولدت فوجدتها معك في جسدك، فهي عارية مستردة يملكها غيرك، وستخرج من جسدك في لحظة قد حددها من يملكها دونك، وستغادر جسدك حينها بلا استئذان منك ولا من غيرك من الخلق! هكذا يجب أن تفهم شأن الروح وما بعد ذلك منها، فهي من أمر ربي وربك، أنت لا تسير في طريق باتجاه واحد فحسب، بل تسير في نفق لا رجعة ولا تحول ولا محيص عنه، فكل شيء فيه يدعوك للاستعداد والتهيئة لهذا المسير.

أرأيت أخي المؤمن، أننا كلما شرقنا أو غربنا في علم المعرفة وأسرار الوجود، فمردنا إلى الله، إلى الخالق في معرفة هذا الوجود، سبحان الله، لا علم لنا إلا ما علمنا به، ولا ملجأ لنا ولا ملتجأ إلا إليه سبحانه، وحده لا شريك له، ولا مفر ولا مستقر لنا إلا عنده، والغيب كله عنده: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣] هذا هو سر انشراح صدور العقلاء المؤمنين مع الدين، وطمأنينة قلوبهم وسعادتهم في كل حال من أحوال الدنيا، أدركوا أنهم تحت رعاية وعناية رب قادر باقٍ يذكرونه بقلوبهم المؤمنة، ويشكرونه بألسنتهم الناطقة، توجهوا إليه وحده بكل إيمان واستسلام وتسليم، يطيرون في فضاء الأنس والطمأنينة عند تلاوتهم قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

إنك تدرك أيها الإنسان، من داخل نفسك أنك عاجز عن إيجادها من العدم أصلًا، ولا تستطيع حمايتها بعد وجودها، وليس بمقدورك أن تجلب لها خيرًا، أو تدفع عنها شرًّا في معزل عن التكيف مع أقدارٍ كبرى ونواميس كونية جبارة، أنت لم تملك تحديد لحظة ولادتك، ولا تملك تقديم ساعة موتك ولا تأخيرها، تبقى يا ابن آدم، الكائن الضعيف في كل شيء رغمًا عنك، وتدرك أيضًا أنك زائل من هذه الحياة، والكون باقٍ وخالق الكون أبقى وأبقى، هذه حقيقة مستقرة وجودًا وقدرًا وضرورة، وكل إنسان يؤمن بها سواء نطق بها أم كتبها في عقله الباطني، فهي حقيقة ناصعة، ولكن هناك من لا يزال يكابر مع نفسه بإنكارها والتشكيك فيها ظاهريًّا، فليفعل ما يشاء، فلن يغير من واقع الوجود شيئًا، فالله تعالى هو الله الباقي سبحانه، وهو الغني عن كل مخلوق قد خلقه بمشيئته وإرادته، وهو الله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

*****

الإنسان ظلومٌ جهولٌ

كل هذه الجدلية الحادة حول الوجود ومآلاته عبر التاريخ والشكوك والمكابرة والكفر والإلحاد في أمر الخلق وشأن الخالق، يتولى كبرها هذا الإنسان الظلوم الجهول المجادل في الله بغير علم، ليت شعري كيف تفكر أيها الإنسان المكابر، بعد أن عرفت حجمك وتاريخك وزمانك ومكانك وعمرك وحضارتك في محيطك الكوني، وكيف

تجعل من نفسك ندًّا للمناظرة الوجودية أمام من ليس كمثله شيء؟ تخيل مدى غرورك وأنت بعمرك القصير بدأت من حيوان منوي لا يُرى بالعين، لتنتهي رفاتًا مختلطًا بالتراب بعد لحظات غير محسوبة لقصرها في مقياس الزمان الوجودي، لا تملك تحديد بدايتها ولا نهايتها، بل كنت فيها مضيعًا لوقتك مهدرًا لطاقاتك غافلًا خصيمًا مبينًا، ثم تريد خلال هذه اللحظة الخاطفة من حياتك أن تغامر بعملك إلى قيام قيامتك، تريد أن تنازع مالك الملك الحي القيوم في ملكه جاعلًا من نفسك محور المعارف كلها، فتثبت وتنفي، وتنكر وتعترف، في حق الخالق العظيم، وكأنك تناظر مخلوقًا مثلك قابعًا في قاعة محاضرة، أو منصة لمناظرة تحت سقف قاعة!

سبحان الله! تذكر جيدًا أنه أنت الذي تدرك مقدار ضعفك عند حدوث المصائب والنوازل عليك، ولحظات الحوداث والوفيات المفاجئة لك، لقد بلغ بك الضعف أمام بعض قوى الكون أن أطلقت عليها اسم (القوى القاهرة) وتقصد بذلك الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات الحادثة على قشرة من سطح الأرض إقرارًا منك واعترافًا صريحًا بعجزك أمامها! وما هي إلا جندٌ من جنود ربك: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. لو تأملنا نزول المطر، وحدوث الجفاف والفيضانات المهلكة والغرق، والأوبئة القاتلة، هل يمكن لأحد من الخلق مهما أوتي من قوة أو علم أن يتحكم فيها؟ هل يستطيع أعلم العلماء أن يتصرف في فوارق الضغط الجوي المنخفض والمرتفع، التي بسببها تهب الرياح، وتنزل الأمطار، أو تمتنع؟ قل لي بربك: أيليق بالإنسان الذي هذا شأنه وضعفه، سوى أن يبقى عبدًا ذليلًا سامعًا مطيعًا منصتًا منكسرًا لمن مقامه مقام الغني القوي القادر العالم الخالق ومن له الكبرياء في السماوات والأرض، يقول وقوله الحق كل الحق: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] ويقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

لقد جرب الأولون قبلك، وذهبوا إلى أبعد مما قد تذهب إليه أنت سرًّا وعلانية، فلم يجدوا بدًّا مما ليس منه بدّ (الإيمان والاستسلام) أو (الاضطراب والتيه)، فعش ما شئت من حياة، وفكر كيفما شئت من أفكار سابحًا في فضاء خيالاتك بكل حرية،

وأقسم برب السماء والأرض لن تنعم بالراحة النفسية، والطمأنينة الوجودية، والتوازن الفكري، ما لم تضع نفسك في الموضع الصحيح المفصل لها وجودًا وعدمًا، وهو أنك عبد ضعيف لمعبود قوي يملك كل شيء وأنت لا تملك شيئًا، فتدرك تمام الإدراك في نهاية كل مطاف تسلكه، أنك مخلوق محتاج إلى من هو أقدر منك، وضعيف أمام من هو أقوى منك، وفقير أمام من هو أغنى منك، وناقص أمام الكمال المطلق، وكل من حاول الخروج عبر التاريخ عن حجمه الطبيعي وفق هذا التصور الحتمي انتهى به الأمر إلى ضياع وشتات، وكان الندم حليفه في لحظة لا ترد ولا تسترجع، إنها لحظة الحسرة عند فراق الدنيا على غير هدى وبصيرة، تلك اللحظة التي يعرف فيها من كان منكرًا لربه الحقيقة التي نذكره بها الآن وهو في حياته، فيظن أننا بذلك نتسوله شيئًا يتفضل به علينا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠] إنه موقف تذرف منه الدموع، وتقشعر له الجلود إذا علمنا بالجواب مسبقًا أنه سيكون فقط: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فاللهم، يا رباه، إنك أنت وحدك المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك، أحيينا مسلمين، وأمتنا مسلمين.

*****

الإنسان والحذر من الموت

الإنسان يموت! أجل إنه يموت، والرفق يقتضي أن تخاطب الأمة الإنسان المكابر المجادل في الله بغير حق، بكل مقدمة البيان المنطقية الممكنة براءةً للذمة وتلمسًا للحق، وذلك على أمل أن يهديه الله حتى لو رفض عدة مقدمات منطقية ونتائجها حاسمة للحقيقة، ومع إصراره على عناده نتجاوز كل ما سبق من مسلمات ومحاولات، وننتقل به إلى تحدٍّ من نوع خاص، لن يستطيع الفكاك منه ولا تجاوزه، ألا وهو رد الموت عن نفسه، أو عن أحبابه من والد وزوج وولد عند وقوعه، لا، لا نطلب منه رده، ندرك استحالة ذلك عليه فنعذره، بل فقط نطلب منه أن يؤجله، أو يقدمه ولو للحظة واحدة عن

موعده المقدر، هذا التحدي ليس من عندنا نحن البشر بل من ربنا رب البشر سبحانه: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وقد يقول قائل: إن المنتحر قد يقدم أجلًا! وأجهزة الدعم للمريض قد تؤخر أجلًا! فنقول له: إن المنتحر المسكين إنما تقدم لأجل قد كتب عليه قبل وجوده، فقدره ألا يتجاوز تلك اللحظة بغض النظر عن السبب، فهو يسعى ليسلم نفسه في الميعاد المحدد مسبقًا، وأجهزة المساندة الطبية تقدم المريض لكي تخرج روحه في أجله المحدد مسبقًا، الذي لا يسعه سبقه، وأمام هذا العجز المطلق للإنسان من أن يتقدم أو يتأخر عن موعد خروج الروح: كيف ينظر إلى مقام من أرسل عليه الموت تلك اللحظة؟ أينكره؟ كل من زعم أنه يملك القوة والإرادة أمام لحظة الموت، نقول له: انتظر إنا منتظرون!

ولكن مع توافر العقل والأهلية والتكليف أدعوك مهما كان إيمانك بالخالق إلى مائدة خاصة جدًّا، فاجلس هنية، نعم، اجلس هنا مسترخيًا خالي البال من كل هم يشغلك، واقرأ الآيات الآتية قراءة من ليس له خيار إلا القراءة، وهيئ نفسك لشكر من أنزلها علينا وعليك، فأنت في ملك الله ولا مناص منه ولا مهرب، وإن كنت ممن يجدون في أنفسهم حرجًا من سماع هذه الحقيقة، فاقرأ الآيات أيضًا، حتى وإن كنت تتجرعها تجرعًا، فليس من الضرورة أن يكون الدواء الضروري مستساغًا، أو يكون بموافقة المريض الذي من أجل شفائه جُلب الدواء أصلًا، اقرأها وتدبرها يا عزيزي، ما دمت بحياتك وصحتك الجيدة قبل مرضك، وفي سعة من أمرك وفسحة في أجلك قبل موتك، انطق بها مؤمنًا قبل أن يتعفن لسانك هذا، فلا تستطيع حراكه، وتتحلل شفتاك بعد الموت المحتوم، فلا تستطيع فتحهما والنطق بهما، وقبل أن يجدك من بعدك رفاتًا وعظامًا بالية لا حراك بها ولا حياة، اسمع جيدًا قول خالقك العظيم المتصرف وحده في ملكه يصف حالنا جميعًا عند حضور الأجل، وقرب خروج الروح، إنها لحظة الموت الذي ينتظر كل مخلوق، الموت الذي نفرّ منه وسيلاقينا، الموت الذي سيدركنا، وإن كنا في بروج مشيدة، استحضر لحظة خروج الروح جميع ما تملكه من تحدٍّ ومكابرة وعناد، كل ذلك سينحى جانبًا، وستستلمك سكرات الموت وحدها أمام الوالد والولد والطبيب والقريب لا يملكون فعل أي شيء على الإطلاق إلا أن يستعدوا للنعي والبكاء، وهذا

دورهم في مكانهم عندك، إلى أن يأتي دورهم في مكانك، وربي إنها الحقيقة، والحقيقة، والحقيقة، فهل من مدكر يستعد لها، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٧] لا تعليق!

*****

الوجود ثم اللحود فاليوم الموعود

الخالق وحده هو الذي رسم خط السير الوجودي للإنسان في حياته وبعد مماته تقديرًا من الخالق كما رسم خط هذا الوجود بكل تعقيداته التي أهمها وجود الوجود نفسه من بدايته التي لا يعلمها إلا هو وحتى نهايته التي لا يعلمها إلا هو، وكل إنسان يستنفد مراحل عمره الطبيعية، فلا يزيد، ولا ينقص من عمره وأجله، مبتدئًا من لا شيء إلى شيء ببطن الأم، ثم إلى مولود ضعيف، فشباب فنضج فكهولة فموت، ولا ينكر ذلك أحد، فهل تستطيع أيها الإنسان، أن تروي لنا وتدوّن مشاهداتك وأنت في طريقك من رحم أمك نحو الوجود حتى أصبحت مميزًا مجادلًا؟ أم أنك لم تكن حينها تعلم شيئًا عن هذه العوالم المحيطة بك قبل أن تصبح قادرًا على التفكير فيها بعد أن مضى عليك عمر بعد ولادتك؟ هذه الخلفية المعرفية لديك، لم تكن مرفقة معك في ملف خلال تلك الرحلة، بل اكتسبتها بأثر رجعي خاص، أي إنك لم توظف فيها الحواس لتكتسبها، أبدًا بل أدركتها بالعقل فقط، لقد سمحت لنفسك واثقًا منها أن ترجع للوراء عقلًا لا حسًّا لتستوعب ما كان يحدث لك قبل وجودك، فتوصلت إلى نتيجة، وأيقنت تمام اليقين بصدق الخبر، وهو أن والديك موجودان قبل خلقك، دون أن تراهما، فهل تشك في ذلك؟ وأن المعاشرة والجماع قد حدث بينهما قبل خلقك، فهل تشك في ذلك؟ وأن أمك حملتك وولدتك، وأنك ولدت كما يولد أي مخلوق، وأمضيت سنتين من عمرك لا تدري عن شيء، فهل تشك في ذلك؟ قطعًا لا! كل هذه الحوادث يقينيات مطلقة عندك اليوم على الرغم من أنك لم تشهدها، فكيف أصبحت عندك يقينية مطلقة؟ من الضرورة أن تجيب عن هذا السؤال بكل صدق أمام ذاتك على الأقل!

لو سألك سائل عن أحوالك ما قبل ولادتك وخروجك إلى عالم الدنيا، سواء كنت مؤمنًا فيها أم مجادلًا، هل تستطيع نشر مذكرات حياتك قبل الولادة؟ كيف عملت تلك الوصلة الفكرية (الفعالة جدًّا) بين حاضرك الذي تعايشه بحواسك الآن، وبين تاريخك الذي عشته بعقلك فقط قبل التاريخ الذي سبق وجودك؟ ليس سرًّا أنك قد فكرت فيه، واستحضرته بأثر رجعي بعيدًا عن الحواس، وسبحت في فضاء العقل وحده، واستعنت بقرائن وبينات وأدلة عقلية، فأخبرك عقلك بالخبر، ثم صدقته تصديقًا مطلقًا! لِمَ فعلت ذلك والخبر قد وصلك بالعقل فقط دون إعمال الحواس؟ والجواب يسير جدًّا؛ لأن تصديق الخبر إذا جاء من مصدر موثوق، لا يشترط فيه المشاهدة والمعايشة الحسية، سبحان الله! أيثق الإنسان بعقله المخلوق كل هذه الثقة في أمور صغرى، فيصدق خبره تصديقًا مطلقًا، ولا يثق بعقله الذي يقوده بقوة إلى الإيمان بخالقه وخالق عقله؟ أتصدق خبر المخلوق عن ماضيك، ولا تصدق خبر الخالق عن ماضيك وحاضرك ومستقبلك؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

إنه من الطبيعي أن تصدق خبرًا بعقلك، وهذا هو الإدراك العقلي الذي به حدثتنا بما حدثك به التاريخ مما لم تعايشه ليس فقط فيما يخصك أنت، بل حتى مما حولك من تقلبات الزمان والمكان، كأخبار إمبراطورية الرومان والإغريق مثلًا، والخلافة الإسلامية، حدثك التاريخ عنها فصدقته، وأكملت تصورك عنها وعن حضاراتها ومنشآتها ومدنها لمجرد أنك وجدت آثارًا تاريخية محدودة من أعمدة ومنشآت متآكلة عن الفرس والرومان، قيل لك إنها ترجع إليهم، وهي لا تعكس اليوم سوى مؤشرات لبقايا خراب! ومجموعة مؤلفات زهيدة أغلبها يفتقر إلى المصداقية والحياد تتحدث عن جزء من الصورة عن ذلك الزمان الغابر! فاستأنست بذلك، وأصبحت تؤمن إيمانًا قاطعًا بوجود تلك الحضارات وغيرها من حضارات الأمم في الصين والشام والعراق ومصر، لقد فعلت هذا بطريقة عفوية، وارتحت له راحة أبدية، دون أن يكون بمقدورك استخدام تلسكوب زماني معاكس لعجلة الزمان الدائرة بلا توقف، بحيث تتجاوز فيه عقبات الزمان كلها لترجع إلى الوراء، فترى بأم عينيك ما يجب أن تصدقه عن ماضٍ قد حدث، وتقلبت فيه الأحداث، وتعاقب فيه الليل والنهار والحر والقر، وأنت حينها: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] نعم، إنك لم تكن شيئًا بجميع معايير الزمان والمكان

والوجود، لكن الخالق وحده قدر زمانك ومكانك وخلقك، وصورك بالصورة التي اختارها هو دون أي دور لك في ذلك، وكتب حياتك ومماتك وأجلك دون أن يكون لك أي خيار أيضًا، وأخبرك أخبارًا صحيحة تتقبلها العقول السليمة، فلم لا نصدقها؟ ولا سيما أنه يترتب عليها مصيرك المستقبلي كله!

أما آن لك يا ابن آدم، أن تعرف نفسك حق المعرفة، وتنأى بها عن هذا التناقض في التفكير الذي لا تفسير له سوى الإمعان في المكابرة، وأن تتخلص من هذه (الغصة) الوهمية التي لا مبرر لها البتة، كلما اعترضك شيطان ليوسوس لك في الغيب المستقبلي تذكّر تلك المرحلة الماضية (من وجودك) قبل لحظة الولادة، فلن تجرؤ على القول: إن حياتك ابتدأت فقط من يوم ولادتك؟ ولا من لحظة وعيك وإدراكك للوجود بعد سنوات عدة من الولادة، ولن تجرؤ أيضًا على إنكار وجودك في بطن أمك بشرًا تحيا وتتحرك، بل لقد كنت موجودًا قبل تلقيح البويضة في رحم أمك، كنت شيئًا ما في صلب والدك وترائب أمك، لا بل كنت ضاربًا في أعماق الماضي بشكل ما وفي أصلاب الأجداد، ومن كانوا قبلهم! ولذلك أتيت إلى الوجود ولك نسب وحسب تحرص على الانتساب إليه مفتخرًا، ولا تقبل الطعن فيه أبدًا، فإذا كان الأمر كذلك حادثًا وموجودًا بغض النظر عن إدراكك له، فلماذا لا تؤمن بأن حياتك لن تنتهي بموتك هذا مثل ما أنها لم تبدأ بولادتك المدركة في حينها أو بإدراكك لها فيما بعد؟

إن حقيقة البعث والنشور وكل ما في اليوم الموعود من وعد ووعيد كلها أخبار غيبية وردتنا من الحي القيوم مباشرة عن طريق الوحي، وهو واجب التصديق وثابت بذاته ولا علاقة لثبوت هذا الخبر مطلقًا بمدى استيعاب البشر وتصديقهم له، إن مسألة وجود إنسان في الوجود بحد ذاتها أكبر من الجدل حول إعادة بعثه بعد الموت، وقد استوعبها عقلاء الناس، وأصبحت حقيقة ماثلة للعيان، فالذي خلق آدم من تراب فأصبح بشرًا سويًّا بهذه الهيكلية المختارة، قادر على النشأة الأخرى، بل هي أهون عليه، ولا يزعم غير ذلك إلا الكافرون الذين لن ينفعهم زعمهم هذا يوم يلقون الحقيقة الكبرى ماثلة أمام أعينهم: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

سيتكرر الحوار معك حول مرحلة ما قبل طفولتك؛ لأنها تكشف لك درجة الضعف التي لا تستطيع معه أن تتذكر صورتك لحظة قدومك إلى الدنيا وأنت عاري الجسد مرتخي العضلات، لا تقدر على إقامة رأسك على رقبتك الرخوة، ولا تملك خدمة نفسك بشيء سنتين من عمرك على الأقل، بل لقد كنت حينها خاضعًا كل الخضوع لمن مقدرته عليك مطلقة، قدر أن يوجدك، فأوجدك كما يشاء في هذا ولا مشيئة لك، ولو شاء لما أوجدك، وقدر أن يفصل تقاسيم جسمك كما ترى، ولو شاء لاختار لك شكلًا آخر، وقدر أن يأخذك، وسيأخذك في اللحظة التي قدرها هو بالموت المعلوم من قبله فقط، لا من قبلك أنت ومن سواك من الخلق أجمعين، وهو وحده الذي قدر ذلك: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠- ٦٢].

أنت الآن في موضع التحدي المطلق مع كل ما تحمله من تفكير وهموم وتصورات متراكمة عن الوجود، فهل كان بمقدورك اختيار الجيل الذي تريد أن تعيش معه؟ أو لون بشرتك، أو حَسَبِ والدك ووالدتك ونَسَبِهما؟ أو طولك وعرضك؟ أو أن تدفع عن نفسك مرضًا سببه أصغر جرثومة توصل إليها العلم الحديث؟ أو أن تؤجل من ساعة موتك ولو ثانية واحدة؟ أجب الآن! كي تتحقق بأنك لا شيء في هذا السياق القدري العظيم، وأنك العبد أمام السيد، وأن ضعفك سيتجلى في أقوى صوره عندما تتخطف مخالب القدر الفتاكة قريبك أو حبيبك، فتراه مسجى جنازة أمامك لا تملك إلا السباحة في بحار أحزانك تتشكى، وتتبكى، وتتعزى طمعًا بالتخفيف فقط من المصيبة وليس ردها قطعًا، يلتف حولك المحبون للتضميد والمواساة والتسلية، دون أن يكون لك أو لهم أي أثر في تأجيل الموت أو حماية ميتك منه.

إنه العجز المطلق بأوضح صوره أمام تلك اللحظة الرهيبة التي يتجلى فيها جوهر الإنسان على حقيقته، هذا هو أنت يا عزيزي، بصورتك الحقيقية أمام الوجود كله، كما هو حالك وأنت تنظر إلى ميتك الذي كان قبل لحظات من عداد الأحياء إنسانًا سويًّا ينادى باسمه الذي أول ما ينفصل عنه بعد الروح، فيتحول اسمه إلى (الجنازة) وعند الصلاة فقط يحدد أذكر أم أنثى بهدف اختيار عبارات الدعاء فقط، ثم ينسى بعد ذلك!

ينتهي هذا التاريخ الصاخب، بأن يختزل كل ذلك الوجود ليصبح (قبرًا) يشار إليه، سرعان ما ينسى من فيه، سينكشف ضعفك أكثر عندما تدرك مستيقنًا رغمًا عنك أنه ما حال بينك وبين أن تكون مكان ميتك تلك اللحظة إلا اختيار القدر له وحده لا اختيارك، وأن تلك اللحظة قادمة إليك كما وصلته لا مفر منها ولا مهرب، وعجزك المطلق يتجلى في عدم معرفة ذلك التوقيت الذي ستكون فيه هدف سهام المنية القادم لا محالة، ومن يملك ذلك كله؟ إنه القائل عن نفسه ﷻ في كتابه وحق له أن يقول، وهو أهل لهذا القول وقوله الحق كله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ما أعظم وقع الموت الذي يغشى كل حي من الخلق دون استثناء، اللحظة العصيبة من لحظات تجلي الحق أمام الجميع مؤمنهم وملحدهم، تلك اللحظة الحاسمة وأنت تتابع مراسم تشييع ميتك نحو قبره، تصلي عليه بيقين مختلف عما كنت عليه قبل تلك الصلاة، لا وقت عندك للوسوسة والشكوك أو للجدال الاسترخائي والفلسفة والهرطقة والمراء حول الوجود والبعث والنشور، لقد حدث لك شيء ما هنا! كيف سيكون الأمر لو زادت الجرعة قليلًا؟ لو قال لك أحد المشيعين: ماذا تقول عن رأي (أرسطو) في الوجود؟ لصفعته حينها بيدك، فليس في ذهنك أي فراغ شاغر للتفكير فيما سوى وقع الموت الذي اختطف منك حبيبك، كل ذلك تلاشى أمام جزء يسير من الحقيقة الكبرى، تكشفت لك بصمت رهيب لكنها خاطبتك بفصاحة لا نظير لها، فكيف لو ظهرت لك الحقيقة كاملة، وانكشف لك ما وراء الغيب كله، ألم تسمع من قبل هذا التحذير: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٢] وكيف بك وأنت تواجه أول مراحل الآخرة: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ٢] والله وحده المستعان على تحمل أهوال ذلكم اليوم العصيب الذي وصفه بقوله: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] وحينها يصبح الجميع مرهونين بما قدموه في الدنيا من إيمان في زمن الفسحة والاختيار

والابتلاء، بينما: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وعندما يواجه الإنسان تلك اللحظات العصيبة من حياته، سيتذكر خطورة هباء تلك الجدليات والمماحكات والخصومات في الدنيا حول الوجود والقيامة والجنة والنار! لمجرد أنه رأى الموت يخطف قريبه في الدنيا، تلاشى تمامًا ذلك العناد والجدال والبحبحة الفكرية والتجديف الغيبي وغيره من أوبئة الفراغ والترف وهيمنة الغفلة، وساد الموقف في تلك اللحظة يقينٌ عجيب لا تدري كيف تسلل إليك، لكنه الحق كل الحق، واليقين كل اليقين الذي وأنت في سعة من أمرك قد أمرك خالقك بعبادته، حتى يأتيك ذلك اليقين النهائي، فكيف سيكون الأمر لو اطلع الإنسان على أحوال ما بعد الموت من برزخ وبعث ونشور وجنة ونار، هل سيكون للوسوسة والشكوك مكان؟ لا، والله، وهكذا يبقى الموت هو المحك الحقيقي الفعال الذي يكشف ضعفك المطلق أمام الوجود كله، تستقبله مكرهًا، ولكن بهلع الإنسان الذي خُلق به: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢].

*****

الإنسان والمعرفة الوجودية

علاقة علم الإنسان التراكمي بالزمان الماضي والحاضر والمستقبل غريبة جدًّا، فهو يكتسب معرفة تراكمية عما حوله مع مرور الزمن، وكل جيل يتسلّم الراية العلمية ممن سبقه، وكل علم وصل أو يصل أو سيصل إليه مستقبلًا لا يشكل قطرة في بحر المعرفة الكونية التي لا يحيط بها إلا خالقها، ولا يمكن للعقل البشري تصورها، والتي لم يُخلق الإنسان أصلًا لكي يحيط بها مهما أطلق العنان لخياله، أما مقدار المعرفة الكونية في ميزان علم الخالق، وهل هناك (أكوان) و(وجودات) أخرى، وهل لها حد أم لا حد لها، فهذا ما لا يمكن الخوض فيه لاستحالة الوصول إلى شيء، وكلما أدرك الإنسان عظمة معرفته بالوجود، آمن بعظمة موجد الوجود، ولهذا جاءت نصوص التدبر والتفكر والتذكير.

التحدي لا يزال قائمًا حتى لو استطعت ـ فرضًا – أن تحيط علمًا بجميع تفاصيل الكون من كواكب ونجوم ومجرات وأقمار وفراغ وأحياء وبحار وأنهار، ستبقى ذا علم قليل، وقليل جدًّا؛ لأنك لن تدرك ما وراء هذا: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢] وسعة معرفتك بكل ما تستطيعه من وسائل وقدرة تفكير وأفق معرفي، لن تتجاوز حيزًا محددًا ونطاقًا مغلقًا، وستبقى العاجز دائمًا وأبدًا، وهذا خيارك الوحيد يا ابن آدم، وإن كان لديك خيار آخر فتقدم به هذه اللحظة، والنتيجة قد حسمت مسبقًا، وهي أنك لن تستطيع فهم ما لم تخلق لفهمه تمامًا، كما هو الحال أنك لا تسطيع تقديم (أطفال الروضة) لامتحان الفيزياء في مرحلة الماجستير في (الفيزياء النووية) لما بعد الجامعة! ولا تستطيع دعوة (النمل) إلى حوار في مؤتمر عالمي حول نزع الأسلحة النووية مع البشر، ولا تستطيع تحويل مئات الركاب على متن (طائرة) لتنقلهم على ظهر (بعوضة)! لأنها ببساطة لم تخلق لهذا، وليس هناك مجال للمقاربة، بل يُعدّ ذكر هذه الأشياء في جملة واحدة لأي غرض كان مثار صدمة واستغراب لكل ذي لب، ولكن إيرادها فرضًا جدليًّا بعد أن تمادي الإنسان في ارتقائه مرتقيات معرفية أغرب منها.

وتلك هي الحقيقة الأخرى حين ارتقى الإنسان بجداله وفلسفته عن الوجود مرتقى صعبًا لم يخلق له أيضًا، ولن يكون بمقدوره التفكير فيه، فنحن بوصفنا بشرًا في أدنى درجات سلم المعارف الكونية حتى لو أوصى بعضنا بعضًا بمواصلة البحث واللهث وراء النصوص لصعود سلم المعرفة عبر الأجيال المتعاقبة، ومهما أوتينا من علم لا تكاد حركتنا على هذا السلم تظهر ما يستحيل معه صعودنا إلى درجاته الدنيا، فكيف بالحلم للوصول إلى قمته؟، ولن نصل إلى درجات أعلى ولو من سلم المعرفة الكونية الطويل وفق قوانين الحياة الدنيا، فكيف بما هو فوق ذلك من عالم الغيب الذي فقط سندركه فيما بعد إذا تغيرت قوانين الكون، وأصبحنا أمام أبعاد ومعطيات ومشاهد تختلف تمامًا عما ألفناه في حياتنا الدنيا وذلك اليوم الآخر الذي جاء خبره في القرآن: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ليس ازدراءً ولا احتقارًا لك أيها الإنسان، أن يقول لك لسان العقل إنك: (لا شيء في عالم الوجود المعرفي)، وحتى إن كرمك الخالق على خلقه، فإنك لا تستطيع أن تصبح شيئًا عظيمًا، فأنت لست فقط لا شيء في وضعك الطبيعي، بل تصل مع الكفر والإلحاد إلى وضعية سفلى، بل إلى أسفل السافلين، بينما تبقى في مقام أحسن تقويم بالإيمان والعمل الصالح فقط: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٥-٦] وعلى الرغم من وجودك العابر الذي يكاد يصل إلى حال غير الموجود زمانًا ومكانًا، ستبقى بالمعيار العقلي والأخلاقي والوجداني تسمو على مملكة الحيوان؛ لأنك مخلوق متميز عنها بإدراكك المعقولات والكليات، وبهذا العقل كنت ممن فاز بالاستخلاف في الأرض وعمارتها إذا غلبت ناموس الخير على ناموس الشر، والإيمان على الكفر، لا لشيء إلا لأنك عاقل.

إذًا أنت إنسان تميزت بعقلك المنير، هذا العقل الذي لا تشك لحظة في وجوده، وأنت على يقين تام بوجوده دون أن تراه بعينك! تؤمن به حق الإيمان، ولا تقبل أن يشكك أحد في وجود عقلك، ولو فعل ذلك أحد لربما قاتلته من شدة غضبك لنفيه لما هو موجود، وهو أنك عاقل تملك عقلًا موجودًا دون أن تراه، أو تستطيع إطلاع خصمك عليه لإثبات وجوده، فلماذا تبخل على نفسك إيمانها بكل ما هو غير محسوس مما يدركه العقل، ومما هو أثبت وأبقى من عقلك، المنتظر منك بهذا العقل ألا تقف عند المحسوسات التي يقف عندها غيرك من الكائنات، بل تتجاوزها به إلى أن تصل إلى التصديق بما لا يمكن إحساسه بالحواس، ولا إدراكه بالعقل، وإنما يدرك بنواميس التكليف مجتمعة كالعقل والوجدان والاستنتاج والاستقراء والفطرة، وأيضًا لا تقف هنا بل تتجاوزه أيضًا إلى الإيمان المطلق بكل معتقد صحيح أثبته وحي السماء، دون حاجة لإخضاعه للمحسوسات والمعقولات والتصورات، ولذلك فأنت بهذا العقل الموجود محل خطاب الوحي الذي أخبرك عن الآخرة غيبًا، وطلب منك الإيمان بها دون أن تراها، ووعدك بالأجر العظيم على ذلك.

*****

الإنسان يكتشف الأشياء ولا يُوجِدها

الموجودات والمعدومات في تفكير الإنسان عالم يختلف عن عالم الموجودات والمعدومات الحقيقية في الكون، هناك معدومات كثيرة عند الإنسان في الماضي أصبحت موجودات في عصره الحاضر، ومعدومات لا تحصى عند أسلافنا أصبحت موجودات عند خلفهم، مثل (الفيروسات والبكتيريا وأنواع الأشعة وأطوالها الموجية والعديد من الكواكب والأقمار والنجوم والسدم والنيازك والشهب...)، كانت عدمًا عند بلايين البشر فيما مضى لمجرد أنها ليست في تصوراتهم وخيالاتهم، فأصبحت اليوم بالنسبة إلينا وجودًا لا شك فيه ونحن خلفهم من بعدهم، وجودًا كان غائبًا عن الإدراك البشري المحدود، فاكتشفه الإنسان، فأصبح في ميزانه وجودًا، بينما هو موجود أصلًا قبل خلق الإنسان، أي إنه موجود في كل مكان وزمان، إلا في عقل الإنسان قبل أن يكتشفه، فيتحول عنده من عدم مجهول إلى وجودٍ معلوم من منظوره هو فقط، ولو ملكنا قدرات خارقة للمألوف، ونظرنا من خلال هذه البوابة السحرية من عالم الغيبات، كم سيكون هناك من العوالم العجيبة والموجودات الرهيبة الأخرى التي ربما تسلسلت إلى نهاية أو بلا نهاية، وهنا سنقف فجأة، ويجب أن نقف فورًا مستسلمين لله الذي: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

لم يشغل تفكير الإنسان أمر، كما شغله شأن الوجود، قضيته الأولى، وشاغلته منذ القدم، ولقد جرت آلاف المحاولات البشرية لفك شفرته وكشف أسراره دون جدوى، وفي كل مرة يحاول الإنسان كسر هذا الحاجز المعرفي يرجع إليه الفكر كما رجع إليه البصر، خاسئًا وهو حسير، إنها القضية الصامتة الملازمة والمحيرة للإنسان في أثناء حياته في جميع مراحل العمر، ولطالما استوحش منها، وحاول الهروب منها، ولكن إلى أين؟ لقد استنفد الإنسان كل محاولاته بعيدًا عن الوحي، فلم يجد جوابًا، ولن يجد خبر تفاصيل هذا الوجود إلا عند من أوجده فقط، ولا نجد تفاصيل كينونة وأجزاء المركبة إلا في (كتالوج) مصنعها وبإذن وإخبار صانعها، فإذا لم نأخذ خبر الوحي مأخذ الجد في فهمنا للوجود، فسنكون في فسطاط أهل الكلام التائهين عن كل حقيقة، والمعزولين

تمامًا عن الوحي والذين حاولوا بكل طاقاتهم تفسير الوجود تفسيرًا ماديًّا ومنطقيًّا مقنعًا، ففوجئوا بانقضاء آجالهم وتتابع أجيالهم قبل أن يخرجوا منها بشيء.

*****

محطات الأقدار أكبر منك يا ابن آدم

غاية الإقرار بالواقعية والإنصاف أن نفهم المعنى العميق لهذه الآية: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨] إنه لا ارتباط مطلقًا بين حال الإنسان والوجود وما بعد الوجود إلا فيما يعود بالنفع والضرر على نفسه فقط، فالأقدار والنواميس الكونية لا تأبه بكل ما يتعلق بالإنسان وجودًا وعدمًا، إيمانًا وكفرًا، أريت كيف تعالت، وتعاظمت عليه، فكيف بتعالي من أوجدها، فهل فكرت يومًا في أثر إيمانك من عدمه على الوجود والأقدار والحوادث؟ بل هل وجودك وعدمك أصلًا يمثل شيئًا أو يؤثر في مجريات هذا الكون؟ إن أثر الإنسان في هذا الوجود لا يزيد على حجمه فيه، وحجمه أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، وأنه يستحيل على عقل الإنسان استيعاب عظائم الموجودات، ولا حتى تخيلها، أرأيت كيف تعيش الصدمة المعلوماتية تلو الصدمة كلما اكتشفت زاوية صغيرة من زوايا خبايا هذا الكون الفسيح، تراك بين الحين والآخر تعلن عن اكتشاف كوكب أو قمر أو مذنب جهلته في الماضي، ووجدته اليوم، ثم تتبع ذلك بسيل من التفسيرات المتعارضة والمتضاربة أحيانًا، وقد يحتاج الأمر إلى وقت طويل لكي تستقر المناقشات على وضعية أو فرضية يتواصى عليها الباحثون في النهاية بأنها الحقيقة، ومثل ذلك نظرية نشوء الكون، نظرية الانفجار العظيم (Big Bang) التي أصبحت عرفًا حقيقيًّا مستقرًّا عند عامة الفلكيين، بأن الكون قد نشأ بسببها، على الرغم من الخلافات العميقة حول صحة فرضيتها.

والإنسان صغير جدًّا بحجمه مهما كبرعقله بعينه، وكلما كبرت عليه المعلومة، أغرق في الفرضيات والتوقعات والاحتمالات لتفسيرها واستيعابها، التي غالبًا ما

تضعف صورة الحقيقة المستعصية على فهمه وخياله أصلًا، ولو نطقت عظائم المخلوقات في الكون لاستهزأت بشأن الإنسان المغرور الذي يريد إخضاعها لعقله الصغير، وهو الضعيف الذي لا يتحمل إصابة حجر صغير يقع على حافة ظفر يده أو رجله، يصرخ منه باكيًا شاكيًا، بل تظلم الدنيا في عينيه، ويقف ذهنه لمجرد أن شوكة صغيرة تسللت بين ظفره ولحمه، بينما يبلغ غروره في الرخاء أن يدعي إخضاع حركة أقمار المشتري وزحل، لا بل دوران المجرات لموافقة عقله ومطابقة خياله، وهو القاصر عن استيعاب ذلك كله بل عاجز عن فهم أمر الذبابة والبعوضة.

فيا أيها الإنسان حتى وأنت مكرم غير محتقر في ميزان الوجود، فإن ضعفك مهما كان مقامك لا يؤهلك أبدًا للوصول إلى الحقيقة المطلقة من تلقاء نفسك، فضلًا عن محاولة احتكار حق الامتياز عليها، فالأمر أكبر منك بدرجة تفوق كل تصور وتتجاوز كل خيال، ستكون مساحة الفراغ الذي تشغلها بقدر حجمك في هذا الكون وبعدك الزماني والمكاني، وسيكون نصيبك من الحقيقة بقدر هذا الحيز فقط، لن تتوقف حركات الكون المعرفية والوجودية عند محطتك الصغيرة النائية أبدًا، لأنه ليس ثمة محطة معتبرة أصلًا بالمعيار النسبي لما حولك، أنت ضعيف بشهادة خالقك وهو أعلم بخلقه وأرحم بهم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

قد لا يروق لك أن تسمع أنك على هامش الوجود في هذا الكون، فإن كنت في شك من ذلك فاعترض إن كنت تملك الاعتراض، افعل إن شئت! كلا، فالمقام الإلهي عظيم جدًّا، وأكبر من كل كبير، وأعلى من كل عالٍ، لقد كان الوحي صريحًا وواضحًا، بأن الرسالة القادمة من الله ﷻ أكبر حتى من الرسل أنفسهم، وأنها أبقى منهم حتى لو هلكوا، وتركوها خلفهم بين الناس: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ورسالة الخالق لخلقه لن تتوقف عند حال أمة بعينها تولت، وأعرضت عنها، فلله خلق آخرون وعباد مكرمون: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨] ولن تتوقف أيضًا عند حال أمة

أخرى كفرت بالله، وتنكرت للوحي: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ومسألة الإيمان والكفر قضية عينية مرتبطة بذات الإنسان وحده لا تنفع ولا تضر إلا صاحبها فقط، وهذا أيضًا حكم الله ولا معقب لحكمه، وخلق الكون أكبر من خلق الناس وهو يسير بنواميسه وأقداره المقدرة إلى أجلها المؤجل دون اعتبار للبشر وحياتهم، سواء عليهم آمنوا أم كفروا، وعليه فإن قضية الإيمان هي قضيتك أنت وحدك أيها الإنسان، فاستيقظ لها وتداركها؛ لأنها في جميع المعايير قضية نجاة فردية بالنسبة إليك، واعلم أن المهم الأول عندك هو أنت، فانجُ بنفسك بالإيمان، وأنقذها قبل أن تتطوع لغيرك تجادله، وتبين له، احمِها من أخطار الكفر المستقبلية، واسأل نفسك ماذا أعددت للغد الذي ينتظرك، واستجب لنداء ربك الرحمن الخبير بكل صغيرة وكبيرة من أمرك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

*****

الفَصْلُ السَّادِسُ

الوجود والوجود!



الوجود والوجود!

«إن أعظم معجزة على الإطلاق هي وجود هذا الوجود، ولا يكاد يقترب شيء من عظمة هذه المعجزة، إنها أم المعجزات التي تشير حتمًا إلى شيءٍ ما، أو أحدٍ ما، فوق كل شيء!» بهذه العبارة الحاسمة ختم الدكتور (إيرك ميتاكساس Eric Metaxas)[١] الأستاذ بجامعة براجر (Prager Unversity) بحثه الجميل عن أشهر أقوال العلماء عن وجود الله، وإذا كان الإنسان حائرًا في معرفة حقيقة وجوده الذي هو جزء يسير جدًّا من الوجود، فكيف سيكون بمقدوره فهم الوجود كله؟ إن أفضل تعريف للوجود هو ذلك التعريف الذي يستطيع أن يفهمه أواسط الناس إن لم نقل: بسطاؤهم فطريًّا؛ لأنك كلما تعمقت بمحاولة تعريف مضمون هذا المصطلح فلسفيًّا، تعقد الأمر، وتفتقت عليك متاهات معرفية أخرى تحتاج هي بذاتها إلى تعريف وتصور خاص، والوجود هو ببساطة شديدة (عدم العدم!)[٢]، إذ لا يمكن تعريف العدم إلا بالوجود بعد غيابه، وحتى العدم نفسه أصبح محيرًا لأهل العقول والأفهام، فهل هو شيء أم لا شيء؟، فإذا لم يكن شيئًا فكيف عرفناه، وسميناه العدم؟! وإذا كان شيئًا فكيف نميز بينه وبين الوجود المتعارف عليه؟ وهل ممكن تصوره بمبادئ التصورات الخمسة: (الجنس والنوع والفصل والعرض الخاص والعرض العام)، وهل له حد وجوهر؟[٣] وهل كل

---

(١) إيرك ميتاكساس Eric Metaxas مولف وباحث أمريكي وأستاذ جامعي معاصر ولد عام ١٩٦٣م له اهتمامات بالتوثيق المسموع والمرئي عن الوجود والإيمان بالخالق يقوم بتقديمها بنفسه وهذه العبارة مقتبسة من مقطع له على موقع (اليوتيوب) أورد فيه عبارات جميلة عن الصراع بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله.

(٢) ذكر ابن حزم أن المعتزلة يَعُدّون (المعدومات) أشياء (موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٧١).

(٣) تعريفات الجنس: هو جزء الماهية الذي هو أعم منها لصدقه عليها وعلى غيرها النوع: هو الكلي الذي هو تمام ماهية أفراده الفصل: الصفة التي تفصل بين الأجناس كالنطق المميز للإنسان عن جنس الحيوان العرض الخاص: كلي خارج عن الماهية مختص بها كالضحك المميز بين الناس العرض العام: هو الكلي الخارج عن الماهية الشامل لها ولغيرها والجوهر: هو المادة الدائمة التي تتكون منها الأشياء ولا يتفق الفلاسفة على تعريف موحد لهذه الأشياء: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، بيروت، لبنان) والحد: هو الوصف المحيط بمعنى الموصوف المميز له عن غيره: (ابن حزم، المستصفى، الجزء الأول، ص١٢).

عدم عند الإنسان في الماضي بقي عدمًا في الحاضر، أم أصبح وجودًا بعد اكتشافه، أم أثبت العلم أنه وجود، ولكنه من نوع آخر، وهل عدم الشيء في ذهن الإنسان يكون عدمًا له في الوجود؟

وللوجود صور متعددة أهمها صورتان: وجود ظاهري ووجود حقيقي، ومن غرائب هذا الوجود أن الوجود الظاهري موجود فقط في تصورات الإنسان ومجال إدراكه، فتجده يخضع الوجود الحقيقي لمعايير عقله وتصوراته القاصرة، ويَعدّ ما يخرج عن ذلك إما منكرًا أو غير موجود، وهذا ما يدفعنا للقول: إن الوجود الظاهري (العرفي) لا يعكس وجودًا مطلقًا، فقد يعكس فناء للشيء مع بقاء دليل عليه، ألا توجد نجوم فانية ومختفية تمامًا من السماء، لكننا لا نزال نراها، حيث لم ينقطع شعاعها بعد لبعدها عنا؟ لقد فنيت فلم يبقَ إلا شعاع يدل على وجودها في الماضي، والفناء لا يدل على العدم بل العلم توصل إلى حقيقة أن المادة لا تفنى، ولا تستحدث وفق معايير الوجود الدنيوي، فالمادة كلها قد خلقت، وأودعت نظام الكون من أول لحظة الوجود الذي لا يعلم كيفية حدوثه إلا خالقه، وكم من معدوم وفانٍ في تصوراتنا هو في الحقيقة موجود وباقٍ في عالم الوجود، وما أوتينا من العلم إلا قليلًا.

*****

يستحيل (اختراق) المستحيل

لقد ذهب الفلاسفة إلى أقصى حد ممكن في محاولة تفسير هذا الوجود، ولم يوفروا شيئًا من العقل ولا حتى من الجنون والاحتمالات والتوقعات والتخرصات إلا قالوه دون أن نلمس من أحدهم ثقة كاملة بما يطرح؛ لشعوره الذاتي بقصوره عن ذلك، ولم يصمد من تلك الآراء إلا ما كان متوافقًا مع الفطرة البشرية ومنسجمًا مع منطوق الوحي الإلهي، ولقد خلصوا في النهاية إلى تصنيفٍ للوجود لعلهم من خلاله يصلون إلى شيء معقول ومفهوم عند التطبيق، فقالوا: إن الوجود متردد بين ثلاثة أحوال: مستحيل وممكن وواجب، فالوجود المستحيل: مثل وجود الشيء نفسه في مكانين مختلفين

في زمان واحد، أو وجود الشيء ونقيضه في المكان نفسه (الظلام والنور)، والوجود الممكن كوجود الإنسان في الحياة، يقول (بسكال): «كان يمكن ألا أكون، لو كانت أمي ماتت قبل أن أولد حيًّا، فلست كائنًا واجب الوجود، ولا بد من كائن واجب الوجود يعتمد عليه وجودي، وهو الله»[١]، وكذا وجود العالم كله يُعدّ وجودًا ممكنًا، من حيث أوجده الخالق، ولو شاء لما أوجده، ومن أهم خصائص الوجود الممكن أنه يحتاج إلى مرجع (موجد) يخرجه من حيز الإمكان قبل وجوده إلى حقيقة الوجود الفعلي بعد وجوده، وهذا الموجد لا يمكن أن يكون ممكن الوجود كالإنسان والعالم، وإلا لاحتاج هو أيضًا إلى من يوجده، وأصبحنا أمام تسلسل لا ينتهي، والمنطق والعقل والواقعية تؤكد أنه لا بد لأي تسلسل بين علة ومعلول أن ينتهي عند حد معين، وهذا الحد هو الذي عليه مدار الحديث كله، إذًا لا بد من موجود واجب الوجود بلا علة توجده، وهذا هو الوجود الواجب الذي توصل إليه (رينيه ديكارت) بقوله: «إنني موجود، ولم أوجد نفسي، فمن أوجدني، ومن خلقني، إنني لم أخلق نفسي، فهذ الخالق لا بد أن يكون (واجب الوجود)»[٢].

وعندما قرر (ديكارت) التخلي عن كل يقين والبدء بالشك للوصول إلى اليقين، شك في كل شيء حتى شك في نفسه، فتوصل في نهاية الأمر إلى حقيقة واحدة، وهي (أنه يشك)، ثم تورط في أن يترتب عليها يقين آخر، وهو أنه عاقل يفكر لأنه يشك، ثم ترتب عليها أنه موجود؛ لأنه يشك ويفكر بعقل، ثم ترتب عليها حقيقة رابعة أنه لم يوجد نفسه قطعًا، ولم يخلق نفسه من عدم، فمن الذي أوجده من عدم؟ فقال: «لأني موجود، فلا بد لي من خالق، وهذا الخالق واجب الوجود، لا يفتقر إلى من يوجده، ولا بد أن يتصف بكل صفات الكمال، وهذا الخالق هو الله بارئ كل شيء»[٣]، انظر كيف ألقى بنفسه في بحار الشك هاربًا من الحقيقة، فإذا بالحقيقة الأقوى تحيط به من كل

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٢٣٢.
(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٢٣٢.
(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٢٨.

جانب، وتحاصره بقوة، وتأخذ بتلابيبه نحو النور، ويخرج منها أكثر إيمانًا مما هرب منه، وقد أُطلق على هذه الحالة التفكيرية لديكارت الكوجيتو[1]. ووجد العالم الأسكتلاندي اللورد (كالفن)[2] نفسه محاطًا بهذه الحقيقة الإيمانية، فيقول: (يتعذر على الإنسان أن يتصور بداية الحياة واستمرارها دون أن تكون هناك قوة خالقة مسيطرة، ولدينا براهين قاطعة وقوية على أن جميع الأشياء الحية تعتمد على خالق واحد أحدي أبدي)[3].

وعلى الرغم من كثرة محاولات الإنسان لتخطي عقبة تفسير الوجود بعيدًا عن الوحي، إلا أنها في نهاية المطاف لم تصل إلى شيء يعتمد عليه باطمئنان، بل هناك اعتراف صريح من (ديكارت) بضروة الوحي لفهم الوحي، فيقول: «أقدر ديننا، لكن ما هو مؤكد هو أن طريق الحقيقة ليس مفتوحًا للجهلة أكثر من العلماء، وأن الحقائق الدينية المنزلة إلينا فوق طاقة عقولنا، وللنجاح في اختبارها لا بد من طلب العون الإلهي»[4]، فما إن تتبع مقالات ومؤلفات المفكرين والفلاسفة والأدباء في رحلة خيال منطقي حول نظرتهم إلى الوجود، إلا وتبدأ ترتخي حبالها، وتتشتت أجزاؤها حتى يضطر أحدهم إلى الركون إلى أقرب ملاذ توفيقي توافقي عام يتشبث به، وتشعر وكأنه وجد نفسه في ورطة يريد الخلاص منها بأي طريقة تسد مسد هذا الفراغ المعرفي الذي يواجهه كل من أعرض عن وحي السماء، فلا يمكنه الحفاظ على مستوى العناد والتحدي الذي بدأه معك، عندما كان متحمسًا يريد تجلية الحقيقة وكشفها للإدراك.

---

(١) الكوجيتو Cogeto هو مصطلح متداول عند الفلاسفة لوصف المبدأ الذى انطلق منه (ديكارت) في نظريته الفلسفية لإثبات الحقائق بالبرهان وهو عبارة عن قضية منطقية ترجمتها بالعربية: «أنا أشك إذًا أنا موجود».

(٢) اللورد كالفن واسمه وليم تومسون William Thomson (١٨٢٤- ١٩٠٧م) الموافق (١٢٣٩- ١٣٢٥هـ) مؤسس الفيزياء الحديثة ومكتشف الصفر المطلق وهو أقصى انخفاض حراري للمادة ولذلك سميت وحدة قياس درجة الحرارة المطلقة باسمه (كالفن):

(Encyclopaedia Britannica-William Thomson, Baron Kelvin, Harold I. Sharlin, Last Updated 112013-21-).

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٤٢٧.

(٤) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال (الفلسفة والدين) للكاتب: مارك أونغلاري، ترجمة: نور الدين علوش، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص٤٦٦.

لقد حدث هذا الموقف المتقلب مع الفيلسوف اليوناني القديم (ديمقريطس الأبديري)(١)، الذي يُعدّ أول من قال: إن الوجود هو الذرات والفراغ والحركة فقط، وإن الضرورة العمياء(!) دفعتها الحركة ثم التلاقي فالتشابك والتمازج، وهكذا بدأ الوجود! هكذا يتكلف التفسير السطحي مستميتًا للوصول إلى شيء ما، ولكن تظهر الفطرة السليمة في كل مرحلة، فالذي انبرى له هو (أناكساغورس)(٢) الذي رد عليه بقوله: «من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا الجمال والنظام، اللذين يتجليان في هذا العالم؛ لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يحرك المادة هو الرشيد الحكيم»، وهذه العبارة الفطرية من (أناكساغورس) دفعت أشهر الفلاسفة (أرسطو)(٣) أن أثنى عليه قائلًا: «إنه الوحيد الذي احتفظ برشده أمام هذيان الفلاسفة»(٤)، فمن أين لهؤلاء المعترضين على (ديمقريطس) هذه النزعة الفطرية الصحيحة؟ لم يذكروا لنا أنهم تلقوها من رسول ولا نبي؟! إنها فطرة الله التي تولى سبحانه غرسها في كينونة الإنسان ومنه مباشرة دون واسطة من نبي مقرب ولا ملك مرسل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

*****

(١) ديموقريطس الأبديري Democritus of Abdera (٤٦٠ ق. م – ٣٥٩ ق. م) فيلسوف يوناني وهو أكبر ممثل للمذهب الذري القديم وهو مؤسس نظرية الجزء الذي لا يتجزأ ويُعدّ أول عقل موسوعي بين اليونانيين وممثل الفلسفة في عصر ما قبل سقراط: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، مرجع سابق، ص٣٠٧).

(٢) أنكساغوراس Anaxagoras (٥٠٠ ق. م – ٤٢٨ ق. م) من أكثر فلاسفة اليونان أصالة وهو أول من فسر علميًّا ظاهرة الكسوف والخسوف حوكم بالزندقة لجرأة نظرياته الكونية: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، مرجع سابق، ص١٠٦).

(٣) أرسطو طاليس Aristoteles (٣٨٤ ق. م – ٣٢٢ ق. م) فيلسوف يوناني ولد في مدينة أسطاغيرا، وهو أشهر فلاسفة التاريخ الإنساني، وهو مبتكر علم المنطق وصاحب لقب (المعلم الأول)، ويعرف بفيلسوف الأخلاق والمنطق، وهو معلم الإسكندر الأكبر: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٩٨).

(٤) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٣- ٥٥.

أسرار الوجود من أمر الله

لم يحسم الإنسان بشكل نهائي أي قضية تجريبية، سوى الإيمان؛ لأنه استسلام وتسليم مطلق لا يخضع للعلم التجريبي والرصيد المعرفي للبشر، أما ما سوى ذلك فالمجال مفتوح للبحث والتطوير والمراجعة والنفي والإثبات، ومن الخطأ اعتقاد الحسم العلمي والمنطقي المجرد في كل مسألة في هذا الكون؛ لأن هذا منافٍ للحقيقة، فإذا كان الاختلاف في نتائج المقدمات المنطقية النظرية الميسرة للمرء واردًا لتفاوت الأفهام وتباين المراحل التاريخية، فإنه حتى في العلم التجريبي، أو ما يطلق عليه الحس المعرفي التجريبي أيضًا خلافات لم توقف عجلة العلم والبحث واستثمار الإيجابيات، بل وإثبات العجز عند حد معين من المعرفة، حقيقة واقعية لا ينقصها، ولا ينقص علماءَها شيءٌ، وإذا كان الإلكترون من أصغر ما توصل إليه العلم في العصر الراهن، فهل سأل أحدنا نفسه يومًا ممَّ يتكون هذا الجسيم الافتراضي الذي لا يمكن رؤيته بأي وسيلة؟

لن تجد الإجابة عند أحد، فالفرضيات لا تنتهي؛ لأن الإلكترون أصلًا فرضية لو لم يتحقق إثباتها عمليًّا من خلال تطبيق المعادلات الفيزيائية والكيميائية والنووية عليها، لما كان وجود الإلكترون حقيقة، ولم يكن وجوده مصدقًا حتى نتمكن من رؤيته بأي وسيلة، ومع هذا دخل في المعادلات المتعددة بوصفه حقيقة مدركة عقلًا لا تقبل الجدل العلمي، ويستحيل إدراكها حسًا ولو بأكفأ الواسطات العلمية في الوقت الراهن، والدليل على صحة فرضية وجوده أن جميع الاتصالات السلكية واللاسلكية، والقنوات والأشعة والتصوير والمراسلات، والمفاعلات النووية كلها تقوم على نظرية وجود الإلكترون، فهل انتفى وجوده أنه لم يدرك حسيًّا؟ كلا.

إننا نعتمد على الإلكترون في تقنية حياتنا كلها، وهو يقين مطلق عند من يدعون الإلحاد جميعًا، ولو طلبنا من أحدهم أن يثبت لنا وجوده حسيًّا لما قدر على ذلك، ولو أنكره أحد، فطلبنا منه المغامرة بالبقاء داخل مفاعل نووي لكي يتأكد من عدم وجوده هناك لولى مدبرًا ولم يعقب؛ ليقينه من وجوده ومن ضرر الإشعاع المنبثق منه؛ لأنه يؤمن إيمانًا مباشرًا بوجود هذا الإلكترون ونشاطه وإشعاع الطاقة منه، وهذا أنموذج

مصغر لما هو موجود مما ليس بمقدورنا إدراكه بالإحساس المباشر، ومع هذا قد يأتي من بعدنا من يجد فيما يتراءى لنا حسمه علميًّا، فتحًا علميًّا جديدًا تتضح من خلاله معالم معرفية أكثر عن هذا الوجود، إنها ظاهرة علمية أشار إليها عالم الفيزياء الألماني (فيرنر هايزنبرغ)[١] عندما وضع مبدأ (عدم اليقين) في علم الفيزياء، الذي أصبح من أهم مبادئ الفيزياء الحديثة، والذي ينص على استحالة معرفة سرعة الإلكترون وتحديد مكانه من قبل الإنسان في آن واحد، واقعيًّا: ليس أمامه إلا نصف الحقيقة، إما أن يعرف السرعة، أو يحدد المكان، وهنا تقف قدرة الإنسان[٢].

هذه الشواهد العجيبة من أسرار هذا الوجود تعكس مدى حجم النكران الذي يرتكبه المخلوق الضعيف العاجز في حق الخالق القوي القادر ﷻ، كيف يليق بمن منحه الخالق عقلًا أوصله إلى مثل هذه الحقائق المعرفية الدقيقة، وسخرها لخدمته ورفاهيته، كيف يكون منكرًا ومتنكرًا لما هو أعظم من هذه الحقيقة؟ أي موجد هذه الحقائق وكاشفها لمعرفة الإنسان: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] ثم يكون الإنسان بعدها أكثر شيء جدلًا في وجوده كله، ولئن تشعب العلم التجريبي في تفاصيله، واختلف العلماء فيه، وتقبلوا ذلك، فإن الباحث في علم الغيبيات لا يملك الدخول في تفاصيلها لجهله المطلق بها ماديًّا وحسيًّا، فتراه عادة يكتفي بمحاولة البرهنة المنطقية على إثبات الوجود أو نفيه من خلال اللجوء إلى العقل المنفصل نهائيًّا عن أسرار الغيب المذكورة بالوحي المنزل، وهذا ورب السماء سيكون أشد اختلافًا وتشعبًا وشتاتًا ما لم يهتدِ بهدي الخالق الواصل إلى عباده من خلال نور الوحي، مفتاح الأسرار كلها والتفسير الأوحد لكل

---

(١) فيرنر هيزنبرج Werner Heisenberg (١٩٠١ – ١٩٧٦م) الموافق (١٣١٩ – ١٣٩٦هـ) عالم الفيزياء النظرية الألمانى ويُعدّ من أشهر علماء القرن العشرين فى الفيزياء الجسيمية والنووية لكن أعظم إسهاماته كانت تطوير ميكانيكا الكم يقول عن أثر التعمق في العلم على رسوخ الإيمان: «إن الجرعة الأولى من زجاج العلوم الطبيعية قد تحولك إلى ملحد ولكن في الجزء السفلي من الزجاج هناك (الله) هو في انتظاركم!»، ومع تحفظنا على هذه العبارة غير اللائقة بحق الله تعالى إلا أن مقصوده الحث على تواصل البحث المعرفي حتى نصل إلى الحقيقة إشارة إلى أن العلماء أكثر الناس معرفة بالله: (المبادئ الفيزيائية لنظرية الكم، ڤيرنر هايزنبرج، ترجمة: محمد صبري عبدالمطلب وانتصارات محمد حسن الشبكي، كلمات عربية للترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠١١م).

(٢) كهنة الإلحاد الجديد، هيثم طلعت، (مرجع سابق)، ص١١٨.

غموض غيبي وجودي يواجهه الإنسان في حياته، وهكذا يبقى الوحي شامخًا بالمعرفة الوجودية على الرغم من أنف المنكرين له، وهو السراج المنير في ظلمات الجهل البشري على الرغم من هذا الاستكبار والعناد الذي يدفع المرء أحيانًا إلى الإعراض عنه، ولكن لا مناص له من اللجوء إليه في نهاية المطاف، وإلا فسيبقى الخلق أجمعين أمام فراغ العقول الذي لا ينتهي، وتضيع منهم الساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنون والأعمار في جدال متصل لا فائدة منه.

*****

جدلية الإيمان بوجود الله

الإيمان بوجود الله تعالى هو أكبر قضية تواجه الفكر البشري في الدنيا على الإطلاق، وهي أولوية فوق جميع الأديان والعبادات، ولا يوجد عاقل قديمًا ولا حديثًا إلا وتناولها سرًّا أو علانية، أي إنها قضية القضايا الوجودية، والإيمان بوجود الله هو الإيمان الأول، وهو مفتاح كل شفرة معرفية في عالم الكون، ودواء كل شك وجودي في كل ملة ونحلة ومذهب عبر الأجيال، وشفاء لكل صدر قلق مستوحش مما حوله في الدنيا، وحل لكل لغز كوني، وجلاء لكل غبش وضبابية على العقول والأفهام، واستيعاب كل حادثة فى الوجود، وتفسير لكل غموض وفهم لجميع مظاهر الزمان والمكان والقدر والحياة والموت والدنيا والآخرة والوحي والبعث والنشور والجنة والنار، وهو أصل السعادة الحقيقية والطمأنينة الأبدية، وهذا يعني أن الإيمان بوجود الله هو سر التوازن النفسي الوجودي بين الأحياء والأموات، والماضي والمستقبل، والوجود والعدم، والدنيا والآخرة، وهو الأصل الأكبر والأول والأهم من كل جدلية منطقية أو فلسفة قائمة، وهو مفتاح السلامة في الحياة وبعد الممات، والأمن من الأهوال مهما تعاظمت بغض النظر عن زمانها ومكانها، يبدأ هذا الإيمان من أصل الفطرة التي نشأ عليها كل إنسان بلا استثناء، ثم يترجم إلى سلوك وتعاملات بين الناس وعبادات وفق إرشادات الوحي، ثم ينتهي بخاتمة خير ينتقل بعدها الإنسان عبر مسيرته الوجودية الطويلة لينتهي به المطاف بهذه الخاتمة الحميدة الآمنة المطمئنة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٦٩- ٧١].

إن أهم خطوة نحو الإيمان بوجود الله، هي الاستعداد التام لقبول النتيجة (الوحيدة) الثابتة بذاتها قبل قبول العقل البشري بها، والتخلص من كل وقفة أو غصة أو تردد لا مبرر له، إذ لا فائدة من السير في طريق قد تم تحديد الموقف السلبي الجاف منه مسبقًا، عالج هذه (الغصة الفكرية) الداخلية التي تكاد تكتم أنفاسك إن كنت ممن يتردد في التسليم المطلق بالإيمان بوجود الله، تخلص من هذا المانع الوهمي الخطير الذي يحول بينك وبين الانضمام إلى ما يزيد على ٩٥٪ من سكان كوكب الأرض المؤمنين بوجود الله، وإلا فعليك أن تتنحى جانبًا، هذا إن استطعت أن تخرج من ملك الله المحيط بك من كل جهة، تذكر أنه من الخطأ أن يحصر الإنسان العلم والمعرفة الفسيحة داخل قدرته على التصور والخيال الضيق، فالوجود لا يثبت بالمعقولات البشرية وحدها، التي هي جزء من الوجود أصلًا، إذ يوجد كثير من الموجودات التي لم تعقل، ولم تتصور من قبل أحد، بل حتى لم يتخيلها الإنسان نفسه، يقول الفيلسوف الألماني (لايبنز)(١): «إذا كانت عقولكم لا يمكن أن تتصور هذا الإله، فلا يلزم من ذلك عدم وجوده، إذ إن كثيرًا من الحقائق لم تتمكنوا من تصورها حق التصور، وتكون في الحقيقة موجودة»(٢)، ويقول (أنسلم)(٣): «نحن نفهم الله بأنه الموجود الذي لا يمكن للإنسان أن يتصور أعظم منه»، ثم يستدرك بعد أن تصور أن تصور الإنسان محدود، فيوضح أن وجوده لا

---

(١) جوتفريد ليبنتز Gottfried Wilhelm von Leibniz (١٦٤٦م-١٧١٦م) الموافق (١٠٥٦-١١٢٨هـ) فيلسوف ألماني كان والده محاميًا ويعمل أستاذًا لفلسفة الأخلاق يصف ليبنتز الجواهر بالمونادات ويَعدّ العالم مكونًا من عدد غير متناهٍ من المونادات ويَعدّ أسمى موناد هو (الله) الخالق لجميع المونادات وهو أزلي وحكيم بصورة مطلقة: (تاريخ الفلسفة الحديثة، ويلم رايت، ترجمة: محمود سيد أحمد، تقديم ومرجعة: إمام عبدالفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، بيروت، لبنان، ص١٣١).

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٢٠٨.

(٣) أنسلم St. Anselme (١٠٣٣- ١١٠٩م) الموافق (٤٢٤- ٥٠٢هـ) فيلسوف إيطالي من أبرز فلاسفة العصور الوسطى وصاحب الحجة الوجودية لإثبات وجود الله: (موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٣٣).

يقتصر على تصورنا، بل يوجد في الواقع الحقيقي، ولكي يكون الأعظم، فلا بد أن يكون موجودًا؛ لأن الوجود بذاته كمال[1].

لا بد من تنظيف الطريق المؤدي إلى الإيمان الصحيح من كل عائق، ومن الطبيعي أن أدعوك -إن كان لديك مشكلة مع قضية الإيمان بوجود الله- إلى أن تشخصها تشخيصًا دقيقًا، وأن تكون صريحًا مع ذاتك، ليتبين لك: هل كانت مجرد تقليد للتائهين ممن سبقوك تظن أنهم على بصيرة؟ أم أنها إشكالية داخلية ذاتية تحتاج إلى علاج بالنور المبين؟ أم أنك على يقين بوجود الله مع قلق حميد لا تحتاج معه إلا إلى المجاهدة للثبات عليه؟ ومهما تكن حقيقة تلك المشكلة وحجمها، فإنه يبقى الإيمان بوجود الله هو الخيار الذي لا خيار بعده بل لا خيار معه، فأنت قادم إلى الله لا محالة، وعليك الاستعداد، ولمن لديه أي شائبة في هذا الأمر، فلينصت إلى فطرته التي ستصرخ من داخله مهما كابر قائلةً له: ويلك آمن إن وعد الله حق، دون أن تلتفت إلى أي شيء مما قد يكون عائقًا لك دون الإيمان بالله، وإن العاقل ليعجب كل العجب أن يكون في الإيمان بالله كل هذه المنافع المعرفية والخيرات والأمان والطمأنينة في الحياة وبعد الممات، ثم تجد من يتلكأ أو يتردد أو يستنكف أن يكون عبدًا لله، فيحرم نفسه هذا النعيم العظيم، ويلزم نفسه دوائر الشقاء والشك والتيه والقلق الدائم، وهو أينما تحرك أو سكن، فهو ضمن ملك الله الذي لا مفر منه ولا مهرب للإنسان عنه آمن به، أم لم يؤمن.

إن مجرد الاقتراب من شأن وجود الخالق بالمقاييس العقلية والحسية والتفكر بذاته مغامرة خاسرة ستؤدي فقط إلى شلل في العقول وعجز في الاستيعاب، بحيث يتوقف كل شيء لديك أيها الإنسان، ويكون المخرج الوحيد هو أن تستسلم أيها العبد، للقوة المطلقة التي هي إحدى صفات الخالق العظيم، وستصل إلى هذه النتيجة مهما كان مستوى تفكيرك وحدة ذكائك، ومهما سلكت من طرق للوصول إليها، ستستسلم لسيدك لا مناص من ذلك، وسيصبح مجرد تفكيرك في السؤال (مَن خلق الله؟) تفكيرًا غبيًّا جدًّا، ومستعصيًا جدًّا، ومستحيلًا جدًّا، اطرح هذا السؤال سرًّا وعلانية، لا تتردد أبدًا، افعل ما بوسعك فعله، ليس أمامك إلا الاصطدام بصخرة الحقيقة، وهي العجز

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٥١.

التام بالأمس واليوم وغدًا، منذ الأزل وحتى الأبد، ومستقبلًا سيبقى التحدي فيه قائمًا، هنا طبعًا تقف، ويرتد إليك عقلك عاجزًا، كما ارتد إليك بصرك من قبل خاسئًا وهو حسير، إنه الإيمان الحق والاستسلام المطلق للخلاق العليم ﷻ، وهنا فقط يجب أن تنتهي كما أمرك سيد المؤمنين ﷺ.

هذه هي الحقيقة الكبرى، وهذا هو الحق المبين، الإيمان بوجود الخالق مسلمة وجودية كونية وموقف حازم يجب اتخاذه من كل مخلوق من أجل توازن المعارف الوجودية كلها في الحياة وبعد الممات، إذ لا يتصور وجود دون موجد على الإطلاق، إلا وجود من لا موجد له، وهو الخالق الأول المتصف بصفات الكمال التي يهيمن بها على كل شيء، ولا يوجد موجد لهذا الوجود غيره، هذه هي سبيل المؤمنين في الإيمان، وكل ادعاءات التهرب عن هذه الحقيقة عبثية فاشلة، وأي إنسان لم يعجبه هذا الموقف فعليه أن ينسحب من المشهد إن استطاع، وليختر له عالمًا آخر يعيش فيه، غير عالم الله، وليبحث عمن يؤويه، ويحميك إن استطاع إلى ذلك سبيلا؟ قطعًا لا مفر له ولا مهرب من هذا المجال الكوني الذي حكم خالقه وقدر، فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] تذكر جيدًا أيها الإنسان، أنك مخلوق مدرج في ملك مالك الملك، محصور داخل هيمنته وسلطانه، طمأنينتك بالإيمان ووحشتك بفقدانه، وهذه الوحشة نوع من اليقين القوي لما ستواجهه من تبعات لو فقدت الإيمان، إذ لو لم تكن متأكدًا مما سيواجهك لما تغشاك هذا الرعب من فقدان الإيمان، وكأنك تقر بكل جوارحك أنك خاضع تمامًا لله القائل: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

أنصت جيدًا ـ يا رعاك الله – لن تأمن من وحشة الوجود المحدقة بك إلا بالفرار في اتجاه واحد، ونحو منفذ واحد، ومخرج واحد، إنه الفرار إلى من قد توسوس لك نفسك أحيانًا بإنكار وجوده، بينما يحيط بك الرعب والوحشة من كل جانب من دونه، ولا منجى لك منها إلا بقبول هذا العرض الآمن منه وحده لا شريك له، قال تعالى مناديًا بني آدم: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢

أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٠- ٥٨].

تلك هي الحقيقة، التي من أجلها خلق الإنسان، ونزل الوحي، وأرسل الرسل، ونصب الصراط، وخلقت الجنة والنار، فالأمر كله يدور حول محور واحد وحقيقة راسخة، ليس بالضرورة أن يقبلها العقل بالبرهان، لكن يستحيل عليه تجاهلها بالفطرة والوجدان، حقيقة لا تتأثر بإنكار المنكرين ولا جحود الجاحدين، كانت ولا تزال باقية تحدت، وتتحدى، وستتحدى كل من أنكرها، وهي أن الله موجود وجودًا مطلقًا لا نعلم عنه إلا بما علمنا هو سبحانه، على الرغم من أنوف العقول المنكرة والقلوب الجاحدة، وأنه لا أعلى ولا أسمى ولا أجل منه سبحانه، وله الكمال المطلق، كفى تهاونًا بهذا الأمر العظيم، ولتوقف النفوس العابثة عند حدها الذي لا قدرة لها بما بعده، إن سلسلة علل الموجودات (أي إن لكل موجود موجدًا)، مهما طالت لا بد أن تصل إلى نهايتها عند الوصول إلى وجود موجد لا موجد له، ولأن هذا الموجد يحيط بالموجودات، ولا تحيط به، فهو الله وحده لا شريك له في ملكوته وجبروته، وهو الله الخالق البارئ ﷻ الذي: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فهذا هو الحق من ربنا، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر! ولكن عليه أن يتحمل التبعات، فأمامه الجنة والنار، قد جاءه البشير بالأولى والنذير من الثانية.

نحن هنا أمام تقرير حقيقة وواقع يفرض نفسه، ولسنا أمام تنظير أو تبرير عاطفي مجرد، إن هذا الإيمان الذي ترى عظمته وعظيم أثره في نفسيات الناس وسعادتهم في الدنيا، ليس بشعارات جوفاء ولا طلاسم وأهازيج وترانيم معقدة يستعصي الأخذ بها، وليس نصًّا مطبوعًا على ورق يترك لتآكل السنين والبلى، ثم يتلاشى وينسى، ولكنه وإن كان من أعمال القلوب التي لا تحتاج إلى جهد وعناء أساسًا إلا أنه قضية حيوية تحتاج إلى استحضار دائم، ورعاية يقظة متواصلة من خلال التذكير والتحصين ومواصلة العبادات، فلا بد من الإيمان أولًا، ثم ربط القلب بالخالق ثانيًا، بحيث يستمر هذا الارتباط بأقوى ما يمكن طيلة مرحلة الابتلاء والامتحان في الحياة الدنيا، وهذا هو

سر وجود العبادات اليومية والشهرية والسنوية وتكرارها غذاء ضروريًّا للروح، كما أن الطعام والشراب غذاء للجسد.

ولأهمية بقاء هذا الإيمان تحت العناية والرعاية الدائمة، نجد الوحي يدعو الناس دائمًا إلى مواصلة النظر والتأمل في ثلاثة مصادر أساسية: أولها، كتاب الله المنظور (الكون) وثانيها، كتابه المسطور (القرآن)، وما تنزل به الروح الأمين على الرسل والأنبياء عليهم السلام أجمعين وثالثها، الاستئناس (بالفطرة) التي يولد عليها كل مولود، هكذا يجب أن يتأسس الإيمان بالله، وهكذا يجب أن تكون رعايته دائمة متواصلة بلا انقطاع، علمًا أن الوحي الذي دعا إلى ذلك هو أصلًا فرع من الإيمان الأكبر بوجود الله، وقد أمر بالرجوع إلى الآيات الكونية والتفكر والتدبر لمساندة النص الصريح، وبهذا الإيمان الفطري يستطيع المرء أن يحيا بسعادة مفتوحة في حياته حتى مرحلة استيفاء الرزق واكتمال الأجل في الدنيا ليعبر منها إلى الآخرة الباقية.

*****

كل موجود يعظم موجده

ما أعظم هذا الوجود، وما أغرب أسراره وتعقيداته!، وهذه هي الحياة في حقيقتها، سيبقى الإنسان باحثًا ولاهثًا وراء سبر الغيبيات المعجزة لتفكيره، كل جيل يسلم الراية لمن بعده، ولن يكون الأول ولا الآخر ممن فكر وتفكر في أمور علم الغيب مع التأكيد على استحالة التوصل عقلًا إلى شيء من خبرها ما لم يخبرنا عنها الوحي فقط، وكل محاولة سابقة من البشر بعيدًا عن الوحي تنتهي برجوع البصر بل كل الحواس والأفهام: ﴿خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] هكذا يكون مآل الأمر من آخره، لا فرق بين من أمضى عمره مستميتًا بكشف هذا السر، أو من فكر فيه دقيقة واحدة، وكثير ممن صالوا وجالوا في علم الكلام والفلسفة عبر مئات السنين في نهاية المطاف تقلبوا في دهاليز فكرهم ليختموا حياتهم إما بتيه محير، أو بإلحاد متصنع، وربما انتهى بانتحار، أو بتمنيهم إيمانًا كإيمان العجائز، إنهم هم بأنفسهم من يعلنون فشلهم الذريع في الطريق التي سلكوها

للوصول إلى تفسير علم الوجود وكشف أسرار الغيب، بعيدًا عن نور الوحي، تخيل فيلسوفًا ومفكرًا يمضي عمره ملتهمًا كل مصدر معرفي متاح من تأليف البشر محاولًا هضمه، ثم يجد نفسه في حاجه إلى استفراغ كل ما أشبع به فكره ليرجع إلى نقطة الصفر ليتمنى إيمان العجائز!

من المكابرة المقيتة إنكار ذلك الشعور الذاتي بالقلق الذي يغشى جميع (الملحدين) قديمًا وحديثًا نتيجة توجههم المتهور نحو (الإلحاد)، لا تستمع إلى مكابرتهم الصاخبة، بل راقب سلوكهم العفوي في أثناء الأزمات والكوارث! سيتضح جليًّا كم من الملحدين قد قفز لنتيجة (الإنكار) دون أن يعلم أن براهين (الإقرار) أكثر من أن تحصى، بينما براهين النفي معدومة ومع ذلك يكابرون، ماذا لو وجهنا سؤالًا بسيطًا لكل ملحد، وقلنا له: لقد قررت أن تلحد، ومن ثم ألحدت! أليس كذلك؟ ثم ماذا؟ هل عالجت المعضلة النفسية لديك بالإلحاد هذا؟ وهل سكنت روحك الشاردة؟ لماذا هذه الاستماتة في نفي وجود الخالق؟ ألا يكفيك مثلًا أن تقسم نسبة الاحتمال إلى نصفين ـ تنزلًا- فتتوقع هذا وذاك بدل أن تجزم بالنفي المطلق لما هو مخالف للعقول والأفهام؟ ألست تغامر في شأنك وحدك دون إضرار بغيرك؟ وعندما ألحدت، وأنكرت هل حركت ساكنًا في كون لا تشكل فيه شيئًا؟ أو سكنت متحركًا بإلحادك هذا؟ هل سيؤثر قرارك هذا في غير نفسك التي أمرتك بهذا السوء؟ وهل سيتحمل تبعاته غيرك؟ أليس هذا هو الجنون بعينه، ألا تدرك أنه لا ضير منك ولا من إلحادك إلا على نفسك أنت، ولئن اخترت هذا الطريق معاندًا ومكابرًا، فلتذهب أنت وحدك بعده وبسببه إلى الجحيم غير مأسوف عليك من باقي الخلق الذين هم أكبر وأبقى وأعدل وأهدى منك في الوجود، لا يحملون ما قد تحمله من كبر وصدود على بصيرة من الأمر، تلمسوا طريق النجاة ففرحوا به، وفوق ذلك يسبحون بحمد خالقهم وخالقك حتى لو أعرضت عن ذلك، وأكثر من ذلك أيضًا هم مع ربهم الذي يحبهم ويحبونه، ووعدهم بكل أمان وسعادة وكل ذلك بيده، وكما تولى شأنهم قبل وجودهم، فقد تكفل برعايتهم بعد موتهم بوعد كله البشرى لهم ولذرياتهم من بعدهم، ولن يضارهم أو يعذبهم، وهو يحبهم.

*****

الفطرة أقوى وأبقى من المنطق

شأن الإيمان بالله أمر كوني أعظم من كل مخلوق فضلًا على عقول البشر القاصرة، إنه لا مقام لآراء البشر المتناثرة ممن حاولوا المستحيل دون جدوى، يخطئ من يتصور أنه لا بد أن يلمّ بجميع كتب الفلسفة والمنطق حتى يصبح قادرًا على تجاوز معوقات الإيمان، ويدحض عن نفسه وساوس الشيطان، والحقيقة أنك -أخي المؤمن- غني بالفطرة والوحي، ولست مضطرًا إلى تفاصيل سجالات المتخصصين بعلم الكلام ولا بمنطق الفلاسفة الممل، الذي لم يوصلهم إلى كلمة سواء في أي قضية جدلية تناولوها، فلا تكترث عندما يتفيهق المتفيهقون، ويتنطع المتنطعون بمصطلحاتهم، فتظن أن عدم فهمك لها إنما هو قصور منك بعلم ضروري أو أنك حرمت علمًا نافعًا في حياتك، تذكر نعمة الفطرة التي فطرك الله عليها، وانطلق منها لكي تكون مؤمنًا سعيدًا، لست في حاجة إلى تفاصيل ما ذكره الفلاسفة، حتى وإن كانوا من القريبين من محيطك الإيماني، مثل أبي حامد الغزالي الذي قال عندما أراد وصف الموجودات مثلًا: إنها تقوم على أربع علل: علة المادة التي يتكون منها الموجود، وعلة الشكل الظاهري وصفات الموجود، والعلة الموجدة والصانعة للموجود، وأخيرًا علة الغائية، أي الهدف من وجود الموجود.

لقد ذكر الغزالي هذا التصنيف للعلل كي يبرهن على استحالة معرفة (العلة الغائية) إلا من خلال خبر يصلنا من (العلة الفاعلة)، وهذا تفسير يصلح للجدل أكثر منه لتجلية الغبش وترسيخ الإيمان الفطري، فمن يقارع المنكرين بالمنطق يحتاج إلى هذا الإغراق التفصيلي ليبرهن على أن المكابرين يستميتون بإسقاط (العلة الغائية) حتى لا يقعوا في حرج إثبات العلة الفاعلة، وهكذا فعل (فرانسيس بيكون)[1] عندما كرر تقسيم الغزالي للعلل، وتهرب من ذكر العلة الغائية؛ لأنه يراها «تفسد العلوم بدلًا من

(١) فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١م- ١٦٢٦م) الموافق (٩٦٨- ١٠٣٥هـ) فيلسوف وسياسي بريطاني يدعو إلى تقدم العلم وتصنيف العلوم يرى أن العلم الصحيح هو القائم على التجربة وأن غ العلم تمكين الإنسان للسيطرة على الطبيعة، ويوصف بأنه فيلسوف التقليد الموضوعي والواقعي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٣٩٢).

تقدمها»[1] بحسب زعمه، فهم يقولون: إن الكون بلا هدف ولا غاية ولا قيامة ولا حساب؛ لأنهم لو آمنوا بذلك، فهذا يعني أنهم آمنوا تلقائيًّا بالخالق الذي دون خبره عن الغائية ليس بمقدور أحد آخر كائنًا من كان أن يعرف ذلك على الإطلاق، وصدق الله العظيم، حين قال لنبيه ﷺ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

هذا الناموس الفطري موجود كوجود السماوات والأرض، ويستعصي على كل مكابر تجاوزه، وهو راسخ لا مهرب ولا انفكاك عنه، وهذا الذي دفع عالمًا عالميًّا مشهورًا مثل (أينشتاين) ليقول: «إن جوهر الشعور الديني في صميمه هو أن تعلم أن ذلك الذي لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته موجود حقًّا، ويتجلى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال التي لا تستطيع ملكاتنا العقلية المسكينة أن تدرك منها إلا صورها الجبلية من السطح دون الدقائق في الأعماق»[2]، وله نظرة ثاقبة ترده إلى اليقين من حيث يصدر الشك عنده أحيانًا، فيقول: «إن أكثر الأمور استعصاء على الفهم في الكون أنه مفهوم!»[3].

لا يحتاج الناس إلى الغوص في أعماق المنطق كي يصلوا إلى الحقيقة، وما الحاجة إلى تعقيدات المنطق ومتاهات الفلسفة وبين يدينا سبل أيسر منه وأفضل؟ لنرجع إلى الفطرة متأملين أنفسنا، سيتضح لنا أن الإقرار بوجود الشيء ليس مستعصيًا على المقدمات المنطقية البسيطة، ولنبدأ بذواتنا نحن، ماذا سيكون جوابي أو جوابك لو وجه إلينا أحد هذا السؤال: هل أنت موجود وجودًا مطلقًا في الوجود هذه اللحظة؟ فلو قلت: (لا) فسينتهي النقاش منطقيًّا، إذ لا حاجة للتفاهم معك وأنت عدم لا وجود لك، إذًا فالجواب الحتمي هو (نعم) قولًا واحدًا؛ لأنك موجود، ها أنت ماثل أمامي أو أمام غيري من بني جنسك الآدمي تعرفهم، ويعرفونك، وتشغل حيزًا مكانيًّا ولحظة

---

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٧٢.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٦١.

(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٤٧.

زمانية وقيمة وجدانية وروحية تسمع وترى، وأنا مثلك أيضًا ماثل أمامك أو أمام أحد من بني جنسك بنفس الاعتبارات، لا أعتقد أن هناك أي إشكالية في إقرار هذه النتيجة وتصديقها تمامًا، ولو انتقل بعدها إلى السؤال الآتي: متى بدأ وجودك في الوجود، وأين كنت قبل هذا الوجود، وماذا كانت حقيقتك الوجودية قبل خلقك في بطن أمك؟ أي إجابة عن هذه التساؤلات تُوجب عليك الرجوع بأفكارك عبر سلسلة معرفية عقلية بأثر رجعي دون أن تصحبك أعضاؤك الحسية لترسم صورة خيالية عنك اعتبرتها أنت من جهتك نهائية وحقيقة لا مراء فيها، فصدقتها بلا تردد علمًا أن مصدرها العقل وحده!

لقد فكرت في عالم ما قبل ولادتك، وقدرت، وأيقنت يقينًا مطلقًا، وصدّقت فورًا ما توصل إليه عقلك بأنك موجود، وأخذت هذا الأمر مأخذ الحقيقة المطلقة، وكأنك حي تراقب التاريخ المتقلب منذ القدم إلى لحظتك هذه، بل وتصورت وجودك في ظهر أبيك وفي رحم أمك في مراحل قطعًا لم تكن قادرًا على فهمها والإحساس بها في حينها، لكنك الآن تتصور بأثر رجعي أنك كنت بعقل وأنت منطوٍ في الرحم، هذا إن لم تتصور أنك نطفة تعقل حينها! علمًا أنك لم تشهد من عالمك ذلك شيئًا فيما قبل الخلق، ولكنك – وللعجب – مؤمن به حق الإيمان! يحدث كل هذا والعالم كله لا يمكن له معرفة حال الجنين القادم ولا حياته ولا موته، ولم يأتِ أحد من أهل العلم والمعرفة ليحدثنا عنك وعن شخصيتك وذاتك قبل خلقك وقبل وجودك وكيف وجدت لأول مرة؟ وأنت الآن لست على علم يقيني عن حالك قبل هذا الوجود كيف كنت ومن أين أتيت وما القوى التي ستتدخل في تلك اللحظة حتى أنتجتك بشرًا سويًّا كما أنت الآن، قطعًا لا تملك إجابة؛ لأنك لم تشهد الخلق الأول، ولست معنيًّا بالخلق، ولا يتوقف الخلق والوجود الكوني عليك ولا على خيالك أو تصديقك أو تكذيبك: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧] لقد وجدت نفسك بشرًا سويًّا جاهزًا ماثلًا أمام الواقع مضافًا إلى هذا الوجود دون أي تدخل أو معرفة أو اختيار منك أو شهادة من المخلوقين على الخلق، فيا ترى: أتصدّق مراحل تنقلات شأنك البسيط بكل هذا اليقين دون أن تراه، وتستكثر على نفسك إيمانها بالخالق الذي شأنه أعظم وأكبر وأجل على الرغم من كل ما تراه من آيات بينات؟ فما أجرؤك على قدر من هذا كله قَدَره

وتقديره، وهو الذي خلقك وصورك!: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

ولئن كنت موجودًا هذه اللحظة حسيًّا ومعنويًّا زمانًا ومكانًا، وتفكر بكل حرية واختيار، فأنت لا تستطيع أبدًا تتبع هذا الإحساس الحقيقي بأثر رجعي عن وجودك قبل خلقك في بطن أمك، إذ لم يكن بمقدورك تقدير القدر ولا رد عقارب الزمان والمكان للوراء لتسترد علينا صورة الحدث في حينه وأنت عاجز، لقد كنت معدوم الإحساس والإدراك، وأنت تتشكل في عالم الوجود حتى بعد أن أصبحت رضيعًا يدب على صدر أمه متلمسًا فقط ثديها للرضاع، غير قادر على خدمة نفسك في أي شيء على الإطلاق، ولم يكن بمقدور أحد ممن حولك أيضًا أن يفعل ذلك، فكلهم داخلون في هذا التحدي المطلق ليس فقط في الماضي ولا الحاضر، بل حتى في المستقبل، نعم، كل المستقبل مهما طال الزمن، كلهم يفترضون، ويرجحون، ويستميتون في سياق البراهين والحجج، وأنت لا تملك أي جواب شافٍ كافٍ عن حالك قبل وجودك، وكيف وجدت، سوى هذه التخيلات والتصور العقلي المجرد الذي لا تتردد لحظة بتصديقه والإيمان به إيمانًا مطلقًا لارتباطه بشأنك.

قطعًا لقد كنت يا أيها الإنسان، شيئًا ما قبل ظهورك على ساحة الحياة، لكننا لا نعلمه، قطعًا لقد كان وجودك عبارة عن ملف معلوماتي متكامل لا يقدر الإنسان على رؤيته بالعين لصغره، ولكنه ينتقل بمعلوماته المعقدة سرًّا بين أصلاب أجدادك الأوائل، حتى وصل إلى أبيك، وجزء آخر من ملفات شخصيتك قادم من جداتك حتى وصل إلى أمك، بمعلومات في غاية التعقيد والثراء والانضباط الوراثي العجيب يرعاه من يرعاه لك وأنت غائب حتى استقر الملف المتداول من صلب أبيك في رحم أمك، فتشكلت لنا بشرًا سويًّا بصفاتك وسلوكياتك ونفسيتك ولونك وصحتك ومرضك وعقمك وإنجابك، لم تكن راعيًا لذلك ولا موجدًا له ولا مشرفًا عليه، ولكنه كان يسير على ما يرام، ولولا تشكلك بهيئتك هذه الماثلة أمامنا الآن ما علمنا خبرك أموجود أنت قبل ذلك أم لا، وعلى أي صورة ولون سيكون تركيبك ومظهرك، وعلى هذا قبلنا بما قبلت به عن نفسك بإيمانك أنك كنت موجودًا حتى قبل ظهورك للعيان إيمانًا لا تقبل

أن يخدشه خادش، ولا ينكره منكر، أي إنك بعد أن مثلت أمامنا كشفت لنا شيئًا عنك في الماضي، ونحن معك قد آمنا به كما آمنت به عقلًا وليس حسًّا، كإيماننا بوجودك الآن عقلًا وحسًّا.

أنت موجود! حسنًا، فهل علمت أن وجودك هذا بذاته دليل قطعي من أدلة لا نهائية على وجود الله خالقك وخالق كل شيء، ألا ترى أن جل الغيبيات التي تجد أحيانًا حرجًا في تصديقها، هي إلى حد كبيرمن هذا النوع الطبيعي من حال هيئتك قبل ولادتك إن لم تكن تلك الغيبيات أوضح منه وأوسع وأيسر تصديقًا؟ لقد جعلت من قرائن بسيطة من شأنك الخاص براهين قطعية على صحة وجود الشيء الذي يعنيك وهو وجودك حتى لو لم تره، فَلِمَ جعلت شأنك هذا يقينًا، واعتبرت شأن وجود الخالق أمرًا يحتاج إلى مزيد من البراهين والإثبات؟ علمًا أن فيه من البراهين المساندة للإيمان به ما لا تستطيع حصرها ولا استيعابها، ولكنها ليست إلا لمن قال الله عنهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] أرجو ألا تكون قد قررت مسبقًا أنك لست منهم!

*****

الحاضر بين حسرة الماضي ورهبة المستقبل

يجد الإنسان نفسه غالبًا بين معضلتين كبيرتين: استيعاب أحداث الماضي المنفلتة منه واستشراف المستقبل المخيف له، ويشعر بالعجز عن الإلمام بتفاصيل الماضي الذي يحمل سجلاته فيه، وينتظر كشفها يومًا ما، إننا نعرف عن ماضينا قبل مئة عام ما لا نعرفه عنه قبل آلاف السنين، فكيف بملايين السنين الماضية؟، وهكذا كلما ابتعدنا عن اللحظة الحاضرة رجوعًا إلى الوراء في سلم الزمان، زاد الغموض عن معرفة أصل هذا الوجود، لولا خبر السماء عنه، ومرة أخرى تذكر تلك الطريقة التي نظرت بها إلى وجودك قبل أن تكون قادرًا على تمييزه، ولنستدل بها على المستقبل كاستدلالنا بها عن الوجود، ألا يكون جهلك بعدمك قبل وجودك في الماضي، مع أنه حقيقة أدت إلى وجودك الآن بشرًا

سويًّا، مشابهًا تمامًا لتوجسك مما بعد وجودك في المستقبل وبعد موتك لما سوف تكتشفه في حينه؟ مع أن أحداث المستقبل كلها ستصبح حقيقة، وستجد نفسك أمامها وجهًا لوجه، كما وجدت نفسك وجهًا لوجه مع حقيقة وجودك، ألا يكون هناك استمرار لوجودك في حياة أخرى لا يشترط بقاء الحس والتمييز الدنيوي عبر الطريق إليها في عوالم أخرى لها نواميسها الخاصة (نعيم قبر وعذابه، وبعث ونشور، ومحشر وجنة ونار) مما لا يقاس بمعايير الدنيا، نترك لك الإجابة بينك وبين نفسك، ولكن نذكرك بهذا الفرق الجوهري بين الحالتين: وهو أنك، وإن كنت لا تحاسب على يقينك عن حالك في الماضي قبل وصولك لمرحلة التكليف، فإنك ستحاسب على صحة اعتقادك عن المستقبل؛ لأنك قد ملكت قبله عقلًا ورشدًا جعلك محلًّا للتكليف والمساءلة، وجاءك النذير والبشير والرسل والكتب السماوية.

إن الخطر كل الخطر أن تتردد ولو لحظة في مجاهدة النفس على حسم الأمر بالإيمان المطلق بأن حقيقة مستقبلية كبرى ستواجهها حتمًا كما واجهت وجودك الآن، وآمنت بمادة جسمك قبل وجودك دون أن تملك أدوات حسية أو حتى عقلًا في حينه تشهد خلقك، فكيف والحال أن الذي صنعك، وأوجدك، وأوجد جدك وجد جدك هو الذي أخبرك أصلًا عن أسرار حياتك وما بعدها، ومن أصدق من الله حديثًا؟!، لقد استقبلت خبر السماء وأنت في مرحلة التلقي والاستجابة عن خبر مستقبلك القادم (يوم القيامة) قبل وقوعه، إذًا لا يقبل منك أن تعتقد أن نهاية الأمر ستكون بنهايتك الحسية بالموت والفناء كما يعتقد الدهريون مثلًا، في الوقت الذي تجهل فيه كيف قدمت إلى هذا الوجود أصلًا، لكنك قطعًا تعلم من داخل نفسك حقيقة النشأة الأولى علم اليقين، تعلم على الأقل تسلسل أجدادك من قبلك لعدة قرون، تؤمن أن أصلك شيء ما تجهل حقيقته، وتؤمن بوجوده لأنه هو الذي أدى إلى وجودك اليوم، والإيمان بالله أولى من ذلك كله ولا مقارنة، فلا مناص من إيمان مطلق يخضع معه كل شيء لله وحده، والتوقف فورًا عن اللهث وراء السراب العقيم.

أيها الإنسان: لا مفر لك من الإقرار بالحقيقة، وهي أنك ضعيف أمام مسرح الوجود كله، وستبقى كذلك أمام أسراره وغيبياته، ولن تستطيع أن تجد جوابًا شافيًا

كافيًا عن حقيقة وجودك وتفاصيله في الماضي والحاضر والمستقبل إلا من نور الوحي فقط الذي هو كلام صانع ومدبر هذا الوجود الذي أحاطه بعلمه، وأخضعه له كله، وهو الذي أخبرنا عن هذا مختصرًا في هذه الآية الكريمة التي نقف عندها إجلالًا واستسلامًا وتسليمًا؛ لأنه لم يصمد في الميدان الجدلي بالحق إلا مثلها من الوحي: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ورب السماء والأرض إن ذلك على من خلق كل شيء ليسير ويسير، فواخجلاه من العظيم ﷻ أن نجدف في هذه الجدليات التي لم تُغنِ عنا من الحقيقة شيئًا! ألا يقطر دمع العين الباصرة حياء من جدالنا في حق الله الذي أنشأنا أول مرة، وسيُنشِئنا النشأة الآخرة، القائل عن هذا الشأن داعيًا عباده بكل رحمة ولطف إلى الهداية والنجاة ليتذكروا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

*****

من أحق بالربوبية؟

قد يفهم بعض القراء الكرام أن الإجابة عن هذا السؤال مجرد شكل من أشكال الحكم في مسألة نزاع بيننا نحن البشر، كلا، لا بد أن نتذكر أننا لسنا في موقع الحياد ولا المتفرج، نحن جزء من المشهد، بل نحن الجزء الأضعف جدًّا منه، علاوة على حاجتنا وفقرنا إلى الانحياز الكلي للخالق في كل شيء على الإطلاق، وعندما نقول: من أحق بالربوبية فالمقصود هنا سؤال الإقرار والاعتراف بالحق لمن استحق هذا الحق بوجودنا أو بعدمه، وليس سؤال الاستفسار والحكم له به قسمةً! وهو الغني عن خلقه أجمعين، وهو الرب والإله الواحد، ولسنا في مقام من يفعل ذلك في حق من يملك أمرنا كله، ويخلق ما يشاء، ويصطفي من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ومهما بلغ بنا التنزل في الجدل فلا يمكن أن نتجاهل هذا الحياء من الخلاق العظيم ﷻ، كيف لا وهو القائل سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ما أكثر من سبقونا، وقادتهم فطرتهم السليمة إلى الحق وقالوها صراحة: إنه من الواجب منطقيًّا أن يكون لهذا الكون والوجود خالق وموجد أقوى وأقدر من كل قوة وقدرة يمكن تخيلها في الوجود، وإن له من الصفات الكاملة كمالًا لا يمكن للعقول الإحاطة به، فما أوجد هذا الوجود العظيم إلا من هو أعظم منه وجودًا، وإن وجوده لم يسبقه حدوث، ولا يتبعه فناء، وإلا لكان هناك ضرورة وجود من أوجده، لكنه هو الموجد الأول والآخر، ولهذا استحق الربوبية المطلقة والألوهية الخالصة، ومن خلق هذا الكون كله بكل نعيم وخير وثروة وثمين وعزيز قطعًا سيكون غنيًّا عن كل ما فيه مما خلقه بيده وبالذات عن هذا الإنسان الظلوم الجهول المجادل فيه بغير علم، الله هو الغني لأنه لو أراد شيئًا لخلقه لنفسه دون مِنّة الخلق عليه، ولو شاء لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه، فهو الرب الإله الغني ولا إله سواه، لقد قالها سبحانه في ملكه ومن أعلى مقام وأقوى حكم وأبلغ بيان: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١] وقال لمن وصل بهم الانحراف إلى ترك عبادة المُوجِد القوي إلى عبادة المخلوقات المُوجدَة الضعيفة: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢] وقال متوحدًا بالحكم والأمر والمشيئة والاختيار المطلق في ملكه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] هذا مقام الرب الخالق والإله الواحد الأحد، مقام عظيم يجثو عنده كل مخلوق على ركبتيه متضرعًا خاشعًا خاضعًا، مقام الموجد الذي يفرض على كل موجود سواه أن يعظمه، ويخر له راكعًا ساجدًا، مرددًا هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ربوبية الخالق هي الوصف العادل والنظرة السليمة للعلاقة بين الوجود والخالق؛ لأنها هكذا تكون سواء عليك أيها الإنسان، آمنت بها أم لم تؤمن، فأنت بوجودك وحياتك وموتك وفكرك وجدالك مجرد ذرة هامشية جدًّا في زاوية نائية من زوايا محيط عالم المخلوقات الجبار، وجودًا وزمانًا ومكانًا، والحاجة لك أن تكون مؤمنًا، ولولا أن الذي تجادل فيه قد كرمك على خلقه، وفضّلك عليهم لما كنت مُعتبَرًا وفق كل المقاييس

في هذا الوجود، فلست الأكبر حجمًا، ولا الأقوى جسدًا، ولا الأكثر عددًا، ولا الأقدم وجودًا، ولا الأطول عمرًا بين مخلوقات الله، وأي وزن لك في كون رهيب محكم بنجومه وكواكبه وأفلاكه الهائلة، وأن مصيرك كله بين يدي من يملك القدرة، وهو مَنْ بقدرته واختياره أوجدك، وهو وحده من يكتب عليك الفناء، ويقدر لك ما بعد الفناء وأنت راغم لا خيار لك فيما لا طاقة لك به، ولهذا لم يكلفك الله في ذلك أي تكليف تحاسب عليه، وإنما جعل التكليف فيما لك فيه خيار واختيار في المعتقد والعمل وجعل الثواب والعقاب محصورًا فيه.

إن هذا التوضيح المستفيض للحقيقة لا يعني بحال مصادرة حق الإنسان في السؤال الذي سبق الإشارة إلى ضرورة طرحه بكل شفافية مهما كان، ولكن تذكر أنك أيضًا أمام مشهد عظيم يتعاظم أمامك لما فوق إدراكك، وأنه لمن الطبيعي أن تجد الخلق قاطبة لا يعلمون كل جواب تتطلع إليه عن أسئلة الوجود والغيب، فما إن تبدأ من حيث أنت موجود، وتصعد في سلم معرفة الكون حتى يصاب عقلك (بالفالج) لثقل الحمل عليه في أول درجات السلم المعرفي، ثم لا تلبث أن تنقطع، فتتوقف عاجزًا عن المواصلة من مسافة لا تمثل شيئًا في ميزان الوجود المعروف علميًّا، فيكف بما لا يعرفه الإنسان، إنه بحق مشهد رهيب يكشف ضعفًا بشريًّا لا تملك معه سوى السجود خاضعًا بعد الركوع خاشعًا للخالق العليم الذي يحيط علمًا بما تعلم، وما لا تعلم من عالم الوجود.

هذا هو خيار أولي الألباب، تقرير الربوبة والألوهية لله الخالق لكل شيء، والوصول إلى هذا الخيار بحد ذاته نعمة من خالق الوجود سبحانه؛ لأنه وجود من الوجود نفسه، ولا تصل إليه إلا بفضل خالقك الذي من رحمته منحك عقلًا تدرك به هذا المسار الآمن بعلمه لا بعلمك؛ لتحدد مستقبلك بالإيمان به والعمل وأنت قادر، مكّنك من ذلك بفضله قبل حلول موعدك مع التراب واللحد والظلام بعد مماتك، ولا يُوجَد في مواعيدك الدنيوية موعد مؤكد كتأكيد موعدك مع الموت، لقد انتهى الأمر، وتأكد الخبر أنك ستصبح رفاتًا منثورًا لا تحرك ساكنًا، ولا تسكن متحركًا من جسدك بعد انفصال روحك منه عاجلًا أم آجلًا، وقد يكون ذلك في أثناء قراءتك لهذه الكلمات أو بعدها بلحظات أو أيام أو شهور أو سنوات، لا فرق فالموعد متحقق والوعد هناك،

هناك وهناك فقط: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وهناك يوم المواجهة مع الحقيقة: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

هذا هو مآلك الحتمي يا ابن آدم، سواء أقتنعتَ بذلك أم لم تقتنع، آمنت أم كفرت، أيقنت أم شككت؟ وفي النهاية منطوق (الحكم) الصادر عليك ينتظر مثولك هناك لتسمع حكمًا نهائيًّا لا مستدرك عليه ولا معقب له ولا مهرب من تنفيذه، تتلوه اليوم بنفسك قرآنًا وأنت في فسحة الدنيا: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فإذا أيقنت أن الأمر كذلك، وهو كذلك بلا شك فبالله عليك أين يصطف أولئك الملحدون والمنكرون والمشككون في حياتهم الدنيا؟ وماذا أعدوا لتلك اللحظات الحاسمة في خط سير وجودهم؟ وكيف ينكرون الله الخالق، وقد أوشكوا أن يوجهوا الحقيقة والحق الذي سيُفاجأ به الكافرون بالربوبية ينتظرهم في ذلك اليوم العصيب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

*****

الصدود طائف من الشيطان

التكليف الشرعي يشمل مجاهدة النفس على الالتزام بالمأمور به شرعًا ضد هواها، والانتهاء عن المحظور؛ رغبة فيما عند الله، ولا يعني مجرد الانتماء للمعتقد مع حرية اتباع الهوى في كل شيء، وهذا التكليف عبء تتحمله النفس عبادةً لخالقها، ولم تقتصر الرسالات السماوية على أمر الناس بالعبادة والعمل فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى الصبر والاصطبار لوجود مشقة طول الأمل وثقل التكليف إلا على من هو أقرب إلى الخالق، فإنه بذلك يأنس به، وينتظر لقاءه على أحسن حال، فيكون من ضمن استعداده استسهال الصعب والمداومة على الطاعة، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ

وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥] ويجب ألا يقلق الإنسان مما قد يجده من فتور بل ونفور أحيانًا تجاه بعض الطاعات، فهو ليس نفورًا حقيقيًّا من وحي ولا كراهية للدين، وليس له تفسير محدد إلا ثبوت حقيقة أخرى، وهي وجود الشيطان الذي أقسم بربه ليغوينّ الناس، وليضلنهم عن الصراط المستقيم، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، عن طريق التفافات شيطانية قطعها على نفسه أعاذنا الله منه، وأخبرنا عنها القرآن، حيث قال: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

وإذا كان الشيطان يسعى جاهدًا لإغوائنا عن الحق بهذه الوسوسة فلنقلب الموقف على غير مراده، ونجعل من وجوده هذا دافعًا قويًّا نحو الإيمان بتصديقنا لخبر السماء الذي وصف لنا هذه الحالة وصفًا دقيقًا، وأخبرنا عن الشيطان، وحذرنا مما يتطابق تمامًا مع ما يحدث معنا، إننا أمام مصدر غواية وضلال حقيقي يزاحم إيماننا وأعمالنا سلبيًّا بقيادة (مجهولة) لولا أن الوحي أخبرنا عن رأس الضلال، فالإنسان يقع منه ندم قوي بعد المعصية، فيستغرب من سَكْرته عند وقوعها، وفَكْرَته بعدها، وهنا يتضح جليًّا سلوك الشيطان الإغوائي الذي يورط بالمعصية، ثم ينكص على عقبيه بعدها متبرئًا من الضحية، ولو تعمقت أكثر في هذه الجزئية لأدركت بسهولة أن وضعك النفسي مع الذنب سر من أسرار الوجود، بل ودليل قاطع على إيمانك القوي بوجود من تخشاه إذا عصيته، ووجود من يغويك في المعصية نفسها على غير رغبة من نفسك اللوامة، وقد نبأنا عن ذلك وحي السماء مفصلًا، وإلا فلماذا لا تكون المعاصي أمرًا طبيعيًّا في ميزان أي إنسان مهما كان دينه، لا يندم عليها، ولا يستحيي منها أمام الناس؟

لقد سمعتَ وقرأتَ الكثير من نحو ما سبق ذكره عن (الشيطان)، ولكن قليل أن تجد من يحاكي ما يدور في نفسك في هذه اللحظة حوله، كأنك تريد أن تقول: أليس الله هو الذي خلق الشيطان كما خلقني فكيف يحاسبني على إغوائه، وهو أعلم به وبي؟ كم هو جميل أن تفكر بصوت مرتفع، وتطرح مثل هذا التساؤل بكل شفافية؛ لأن بقاءه مع الصمت كارثة بحد ذاته، يوهمك بأن سرًّا ما في هذا الوجود قد تم حجبه عنك لحرمانك الحقيقة، لا حاجة لك بالتفاصيل المملة والتبريرات الاجتهادية، فلن نخوض

مع الخائضين في هذا الأمر دون الذهاب مباشرة إلى كبد الحقيقة التي يكفي معها أن تعلم أن الله قد خلق الشيطان بالدرجة نفسها التي خلق لك فيها حرية الاختيار، بل فضلك عليه، فلم يسلطه عليك بالباطل إلا بقدر أقل مما سلطك عليه في الحق، فأنت تملك الخيار الأقوى بدليل أنك تتوجه لأداء العمرة بقرارك لا بقرار الشيطان، وتقضيها تامّة لله، وتتطهر، وتصلي الوتر، وتمسك القرآن لتتلوه دون أن يكون للشيطان سلطان عليك، إنما تكون ضحيته فقط إذا اشتهيت الغواية، ولم تصبر نفسك على الطاعة طمعًا فيما وعدك الله به، تقع في الغواية إذا اتبعت الشيطان، واستحسنت غوايته، وانطويت تحت لوائه مختارًا وفق هواك، فلا تتذرع بسلطانه المطلق عليك لتبرر ميلك لهوى النفس وشهوتك والحقيقة خلاف ذلك؛ لأنك لو عبدت الله حق العبادة، وامتثلت أمره، وانتهيت عند نهيه وأنت صادق وهذا في مقدورك قطعًا، لما كان للشيطان عليك سبيل، لقد قالها ربنا في كتابه، ولا أحد من خلقه يملك أدنى قدرة تحول بيننا وبين الاحتماء بهذا الوعد الصادق منه ﷻ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢] إذًا أنت صاحب القرار الأول، والاختيار الحر بين الطاعة والمعصية، ولا شيء على الإطلاق يحول بين العاقل وبين الإيمان المطلق بالغيب كله، لولا هذا العناد والكبرياء والتعالي والصدود الذي لا مبرر له من الإنسان الظلوم الجهول، إنه لا سلطان للشياطين على عباد الله الذين يسمعون للخالق الذي نهاهم أن يتبعوا خطواته، وأخبرهم بأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وأنه يعدهم الفقر، بينما الله يعدهم مغفرة منه وفضلًا، والله واسع عليم.

*****

الإيمان مفتاح أسرار الوجود

ماذا على الإنسان لو آمن بالله، واتقى، وصبر، وصابر: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٩] تالله لو لم يكن من الإيمان بالله واليوم الآخر إلا هذا النور والارتياح الذي يحقق سعادة الدنيا ووضوح الرؤية الفكرية فيها، وفهم الوجود فهمًا منسجمًا مع النفس والروح والفطرة،

وملء فراغ حسي ومعنوي والاستنارة به لمستقبل لا نعلمه إلا من الوحي، لكان ذلك كافيًا للدعوة إلى الإيمان لذات الإيمان في الدنيا قبل ثواب الآخرة، فكيف وبالإيمان أيضًا يتحقق الأهم، ويندفع الأخطر، ألا وهو نجاة المرء في الآخرة من العذاب وفوزه بالجنان، إنها نعمة الإيمان التي لا يدركها إلا من انغمس في نعيمها بفضل الله الذي هداه لذلك، فبالإيمان بالله فقط تتلاشى العقبات النفسية، وتتفتّق المسالك في الفكر والكون قاطبة، بحيث لا يستعصي على الإنسان فهم شيء من أخبار الغيب الكبرى مثل (الوحي)، و(الرسالات)، و(العبادات)، و(الإسراء والمعراج)، و(الأنبياء)، و(الملائكة)، و(الشياطين)، و(الموت والحياة)، و(حياة البرزخ)، و(البعث)، و(الجنة)، و(النار) و(الخلود) وكل ما لا نعلمه بلا حدود ولا قيود! لأنه آمن بمن هو أعلى من ذلك كله، فيكون الإيمان بها متفرعًا من الإيمان بالله العظيم، وهذا الإيمان يقتضي التسليم المطلق لله دون أن يخضع الوجود كله أو بعضه للتصورات والقوانين البشرية التي هي جزء من كلٍّ لا نعلمه أيضًا.

ومن هذا المنطلق تحديدًا نذكرك بإيمانك بالله، وندعوك يا أخيّ، إلى أن تنعم، وتعلم أنك بخير ما دمت قريبًا من الرحمن الرحيم، فعِشْ حياة السعداء، واستعذ بالله من شر نفسك ومن الشيطان ووساوسه، وافتح آفاق ذهنك كي تفكر في كل اتجاه، واعلم أنك لم تحط علمًا بكل احتمال وارد وجودًا بقدرة الله تعالى، لا أقول: إن كل ما يمكن أن يخطر ببالك ممكن أن يكون، بل سأذهب إلى أبعد من ذلك لأقول لك: إن كل ما لا يخطر على بالك أيضًا ممكن أن يكون دون حصر بقوانين الطبيعة المألوفة، فالذي قدر على أن يجعل الماء يطفئ النار في دنيانا، قادر على أن يجعل الماء يشتعل في أخرى! ألم يخبرنا عن جانب من ذلك المشهد المناقض للقوانين المألوفة في الدنيا، عندما أخبر بأن البحار سوف تُسجّر نارًا: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] يا لها من سطحية يقع فيها بعض من يتكلفون بوضع صور البراكين المتفجرة من داخل البحار، ثم يستشهدون بهذه الآية! ليوهموا الناس بإعجاز أو إنجاز ليس هو المقصود بالآية الكريمة، بينما الأمر أكبر وأجلّ من ذلك ولا مقارنة ولا مقاربة، الأمر قوانين جديدة تظهر للوجود أو أخرى موجودة، فتتبدل بالكلية بقدر وقدرة من أوجدها من عدم، لا بد أن تتصور

حقيقة هذا التبدل، فهو ليس امتدادًا متدرجًا بل انقلاب رأس على عقب، فالقادر الذي خلق الجاذبية لشد الكتل في اتجاه الأجرام التي تكبرها، قادر أيضًا على أن يجعل تلك الكتل الصغيرة تنطلق من الأجرام الكبيرة نحو الخارج، أو بكل اتجاه، عموديًّا أو أفقيًّا أو دائريًّا أو لولبيًّا أوغير ذلك؛ لأن من خلق كل شيء فهو حتمًا قادر على كل شيء، إن كل أمر مستعصٍ في هذا الوجود يصبح بالإيمان وكأنه معلوم بمجرد الإحالة إلى الله القادر على كل شيء، وما أجملها من عبارة مليئة بالعبودية والاستسلام لله أن نقول عند كل غموض: (الله أعلم).

نحن لا نملك أدوات جبارة نتحسس بها أسرار الغيب سوى تصديق خبر الوحي، وإقحام الحواس البشرية في محاولات اختراق حاجز الغيب كمن يقيس درجة الحرارة بالمتر أو الياردة، ويستحيل الاستدلال البشري على الحقيقة والمعرفة الوجودية المجردة حتى بتلك البدهيّات الدنيوية والمسلمات المنطقية الدارجة على إثبات الغيبيات دون التسليم المطلق لله الواحد القهار، وكيف تكون تلك البدهيّات حاكمة على المنطق الغيبي، وجميع قوانين الحياة الدنيا ستختلف تمامًا عن تلك التي ستكون في الحياة الأخرى بعدها؟ وهو ما أشار إليه القرآن بعبارة صريحة عن أول خطوة في عالم الآخرة: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقد تجد من يقول في نفسه: وكيف لي أن أصدق ذلك؟! وهذا النوع من البشر لا ينفع معه أي جدال منطقي، ويكفي أن نسأله عمّن أوجد القوانين التي نعايشها والظواهر التي أصبحت طبيعية ومعيارية في أعرافنا مع التعايش، أيعجزه أن يوجد أمثالها أضعافها هنا أو هناك في كل احتمال نعرفه أو لا نعرفه؟ ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

إن هذا الصدود النكد من قبل بعض النفوس المكابرة هو سر فشلها عبر التاريخ في الوصول إلى الحقيقة الوجودية، عندما يصاحب ذلك نفور مباشر عن الوحي، وتشبث بالجهد البشري القاصر طمعًا في الوصول إلى نتائج منطقية مقبولة عقلًا في كل محاولات الإنسان البائسة لفك شفرة الوجود، فتراه ينصرف عن الوحي إلى ما قد يكون تعلمه من علم بشري محدود في حيز حياته الضيقة في الأرض من قوانين وقواعد هي أصلًا ليست محل إجماع عنده، وأغلب تلك المحاولات كانت كمن يريد أن يمرر القطار من ثقب

إبرة الخياطة، وكان الأولى من هذا العناد ضد الوحي، أن يسلم المرء الضعيف الفاني أمره تسليمًا مطلقًا للقوي الباقي، والبدء بهذه المسلمة المبسطة، وهي أنه لا يختلف أحد ممن لديهم ذرة من عقل على أن من يقف وراء هذا الوجود خلقًا ورعاية وتحكمًا وإرادة ومشيئة وابتداءً وانتهاءً إنما هو الرب العظيم الحي القيوم، القادر الجبار، والرب هذا وحده هو المستحق لكل أنواع التعظيم والطاعة والولاء والاستسلام، وأنه بحق هو الإله الأوحد لقدرته التي أوجدت هذه الأجرام الكونية وملحقاتها بهذا النظام الباهر لكل عقل، وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وهو الذي يُخشى ويُرجى ويُتضرع إليه، ويُطلب الخير منه والاعتصام به من الشر، إنه الإله الحق الأحق بالربوبية وحده لا شريك له، ولكن الاختلاف يقع بين الناس عند محاولة تحديد أسماء هذا الخالق العظيم وصفاته، فيطفو على السطح هذا السؤال: ولكن من يقف وراء هذا الخلق تحديدًا؟

*****

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]

النفوس المكابرة لا تريد الاعتراف العلني بالحقيقة، وتشعر بغصّة شيطانية قبل أن تقر لله بأنه هو الخالق البارئ لكل شيء، يمنيهم شياطين الإنس والجن في أوهام لا حقيقة لها، فيشغلونهم ويشغلون بهم، تجدهم يُقرّون معك بهذه المسلمة الضرورية عقلًا ومنطقًا، وهي (أن من أوجد هذا الكون هو وحده الذي يستحق أن يوصف بالرب والخالق، وأنه هو من يستحق العبودية والتعظيم والإجلال)، ثم يتوقفون إذا قيل لهم: إنه الله تعالى، وتنزلًا عند حجج الخصوم سنبحث عن جواب لسؤالهم الطبيعي: من ذا الذي يقف وراء الخلق؟ لقد قالوا: إن الطبيعة خلقت الوجود دون تحديد لماهيتها! ولم ينجحوا في البرهنة المنطقية على ذلك بعدما اصطدموا بأن من سلم بفرضيتهم هذه سيسأل: ومن خلق الطبيعة أيضًا؟ وإذا كانت (الطبيعة) بهذه القدرة والصفات والاستقلال فهذه إشارة إلى الله بطريقة غير مباشرة، وإن استخدمت الطبيعة لفظًا غامضًا، وقال آخرون: بل هي المصادفة! فانهارت هذه الفرضية لما وجدوا انتظامًا غريبًا

عجيبًا في الموجودات استحال معه أن تكون المصادفة وراء ذلك، حتى وصل الأمر أن أطلق أبرز علماء العصر (أينشتاين) عبارته المشهورة برفض هذه الفرضية بقوة، فقال: «إن الله لا يلعب بالنرد»(١)، مشيرًا إلى أن اللعب بالنرد يعتمد على المصادفة، ثم لما احتدم الجدل قالوا: إن الوجود قد أوجد نفسه بنفسه! وكيف أوجد الوجود نفسه؟ قالوا: لا ندري! وهكذا فرضيات وتخمينات عشوائية يصدقها قوم، ويكذبها آخرون.

ومن الواضح أن هذه مجرد تجديفات بشرية واهية يلوذ بها كل متهرب تائه، وافتراضات غامضة تعصف بها رياح الخلاف الفكري بين البشر، وعناد قبيح يرفضه العقل الصحيح، والنص الصريح، وأول من تصدى لتلك الفرضيات، وكشف تناقضاتها هم رموزها الذين ابتدعوها، فتبين لهم هشاشتها بعد حين من الدهر، لكن المذهل حقًّا هو أن تجمع الأغلبية الساحقة من الناس من مختلف الأعراق والأديان والأزمان والأعمار والطبقات على أنه (الله) الخالق لكل شيء، وكلٌّ يسميه ويصفه بلغته، إنه إجماع كوني عجيب جدًّا يستحيل أن يحدث دونما ناموس وجودي أكبر مهد لترسيخه في عقول الناس وفطرتهم، أي إن له أساسًا فطريًّا راسخًا لا يتأثر بحركات المد والجزر الفكرية عبر القرون والأزمان، لا بد من وجود سر كبير وراء وجود هذا الإيمان في النفوس وشبه الإجماع الكوني بأن الله هو وحده الخالق، قطعًا لم يكن هذا الإيمان تلقينًا من الأنبياء وحدهم، بدليل أنه لم يبقَ مقصورًا على أتباع الأديان السماوية، بل كل الناس في أي بقعة من الأرض هناك توجّه شعوري ولا شعوري نحو العلو إشارة إلى الله خالقًا وربًّا موجودًا!

هذه الحقيقة الإيمانية الراسخة في القلوب والأفهام، لم يكن الوحي ليوجدها ابتداء من العدم، بل جاء ليرعاها، ويوجهها، وينقيها من الشوائب الشركية، ويحصنها منه، ينزل الوحي متقطعًا على أمم دون أخرى، لكن تبقى الفطرة هي الأصل الذي يتحدى كل فيلسوف ومفكر وكل ملحد ومكابر، وعندما جاء الوحي مطابقًا للفطرة، وبعباراته الصريحة جدًّا: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢] يعني أن

(١) فيزياء وفلسفة ثورة في الفيزياء الحديثة، فيرنر هايزنبرغ، ترجمة: الدكتور أدهم السمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص٢٣.

ذلك كذلك، وهو كذلك أتدري لماذا؟ لأنه - جدلًا - بعد أن أخبر الله الخلق بذلك لم يدّعِ أحد بعده لنفسه هذه الأحقية لا الطبيعة المزعومة ربًّا، ولا المصادفة المفترضة، ولا الوجود نفسه، وذلك إما لعدم وجودها فاعلة في هذا المجال أصلًا، أو لعدم وجود أثر لها في ذلك، أو لضعفها أمام خالقها ومن ثم فهي من خلقه وخاضعة تحت حكمه، وكل ذلك لا يؤهلها للربوبية ولا للألوهية، ومن ثم انتهى الأمر منطقًا وعقلًا وبرهانًا بأن الله سبحانه هو خالق كل شيء.

كل من أنكر ذلك فهو مضطرب من داخل نفسه، يعلم يقينًا أنه لا يقاوم هذا القدر الوجودي الجارف بأن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وليسأل نفسه سرًّا ثم لينظر في جوابه لها، قضي الأمر، لم يعد خيار أمام العاقل إلا أن يقول: آمنت بالله، وحده لا شريك له، وبكل وحي جاء من عنده، مؤكدًا على كلمة التوحيد الخالدة مع كل نبي ورسول عليهم السلام، الوحي الذي يخاطب العقل من أساسه، والفطرة من أصولها بمنطق يصعب تجاهله أو إنكاره من أصحاب العقول السليمة المخاطبة بهذا الحوارالمحكم استمع له، وتأمل جيدًا: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

*****

الفَصْلُ السَّابِعُ

الفلسفة: مذاهبها وآثارها



الفلسفة: مذاهبها وآثارها

يتوقع كثير ممن لم يطلعوا على العلوم الفلسفية التفصيلية أنهم ربما حرموا شيئًا مهمًّا، فيغشاهم شعور خاص إذا سمعوا كلمة (الفلسفة) دون أن يعرفوا مضمونها ومكنونها، حتى أنت أيها القارئ الكريم، لا تستطيع الفكاك من شيء ولو يسير من هذا الشعور، فإذا كان اطلاعك عليها محدودًا فقد يتراءى لك وكأنك أمام سر عظيم قد حرمت معرفته، وليس بمقدورك الوصول إليه، وأنه قد فاتك أمر جلل يهمك معرفته في حياتك، وأن جانبًا من الحقيقة المبهمة قد كشفه الفلاسفة، ففازوا به دون سواهم، ثم دفعوا ثمن ذلك الشيء الثمين أمام الرأي العام (المؤدلج والمسيس) وهكذا، وإنك إنما تُنهَى عن الفلسفة حتى لا تقع على (سر محرج!) أو حجة لا داحض لها، بينما في الحقيقة هذا المصطلح لا يعدو أن يكون وصفًا لفن اجتهادي من فنون العلوم الإنسانية التي تتداخل مع ما سواها من العلوم، إن لم تكن أقلها أثرًا على المسيرة الإنسانية، فيما عدا تلك الأفكار القابلة للترجمة العلميلة التي أدت في النهاية إلى تحفيز العلم التجريبي، والواقع أنه ليس من المسلم به أن من لم يعرف الفلسفة، أو يقرأ عنها فقد فاته ما لا يمكن تعويضه أو استدراكه من منافع المعرفة.

ما الفلسفة؟ لو تتبعنا تاريخ الفلسفة بإيجاز، لوجدنا أنها نشأت في القرن السادس قبل الميلاد(١)، على يد (طاليس الملطي)(٢)، وأول من بحث في الوجود بحثًا فلسفيًّا هو

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤١١.

(٢) طاليس الملطي Thalesof Miletus (٦٤٠ق. م-٥٤٥ق. م) أول فيلسوف إغريقي وأول فيلسوف عرفه تاريخ البشر وهو من أقدم الحكماء السبعة وهو أول من لقب بالحكيم وهو أول الطبيعيين الذين رسموا أول صورة للعالم مجردة من الدين والسحر وهو أول من توقع كسوف الشمس قبل حدوثه عاش منفردًا متوحدًا بعد تأملات طويله خلص بأن كل شي أصله الماء ويرجع إلى الماء! كان يسير وهو ينظر في السماء فوقع في حفرة وكان إلى جواره عجوز فقهقهت ساخرة منه وقالت: أتنظر في السماء لتكشف سرها وأنت لا تقدر على معرفة ما بين قدميك فتتجنبه!: (موسوعة المورد، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ١٩٩١م).

(برمنديس الأيلي)[1] في القرن الخامس قبل الميلاد[2]، ومصطلح الفلسفة طرح لأول مرة في تاريخ الإنسان للتعبير عن محاولة الكشف عن (الحقيقة)، على أن الحقيقة هي مطابَقة الفكر للواقع، وحيث إن الحقائق موجودة أصلًا في هذا الوجود، علمها الإنسان أم جهلها، فلا تاريخ للفلسفة بهذا المفهوم، لكنها علم معرفي يرتبط بالروح السائدة في كل عصر، وبأشخاص وذوات وأحيانًا نفسيات الفلاسفة أنفسهم، ولهذا فهي متغيرة بتغير المرحلة، ولا توجد مهنة (فيلسوف) متفرغ كما هو الحال مع الطبيب والمهندس والأديب مثلًا، بل توجد الفلسفة بوصفها هواية أو نشاطًا جانبيًّا مع تلك المهن الرئيسة لروادها، فمثلًا كان (أوجستين كونت)[3] مصلحًا اجتماعيًّا، وكان (فولتير)[4] أديبًا وسياسيًّا، وكان (هربرت سبنسر)[5] مهندسًا، وإذا ذكر كبار الفلاسفة جاء أسماء هؤلاء في المقدمة، وقد تكون الفلسفة عبئًا على الفكر التجريبي، بل قد تصبح في النهاية عبئًا على

---

(١) برمنديس Parmenide (٥٤٠ ق.م ـ٤٧٠ق. م) فيلسوف الوجود الثابت ترتكز فلسفته على السكون والثبات من مؤلفاته (عن الطبيعة) ولد في مدينة إيليا جنوب إيطاليا: (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٢٣).

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٦٢٥.

(٣) أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨م- ١٨٥٧م) الموافق (١٢١٢- ١٢٧٣هـ) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي صاحب كتاب الفلسفة الوضعية يعتقد بقانون المراحل الثلاث: المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية والمرحلة الوضعية: (تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص٣٩٢).

(٤) فولتير François-Marie Arouet (Voltair) (١٦٩٤ـ١٧٧٨م) الموافق (١١٠٥-١١٩٢هـ) ولد ومات في باريس واسمه الحقيقي فرانسوا ماري آرويه واشتهر بفوليتر أديب ومسرحي فاقت شهرته أوروبا كان فيلسوفًا متسامحًا ساخرًا من الكتب المحرفة والأديان المزيفة وواجه معارضة شرسة حتى بعد موته حرم من الدفن بمقبرة العظماء ولكنه نقل إليها بعد ١٣ سنة من وفاته وشيّع رفاته أكثر من ٦٠٠ ألف من الرجال والنساء: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٤٧١).

(٥) هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠- ١٩٠٣م) الموافق (١٢٣٥- ١٣٢١هـ) مفكر وفيلسوف إنجليزي حديث يرفض الألقاب مات جميع إخوانه ونشأ بعزيمة قوية ينظر إلى المغزى الفلسفي نظرة شمولية سعى لإيجاد مركب للمعرفة العلمية ينظر للتطور على أنه عام في كل شيء وبنى نظريته في النشوء على وراثة الصفات المكتسبة أعجب بنظرية التطور لداروين كرس نفسه لتنقيح الفلسفة التركيبية وتفرغ لذلك حتى إنه لم يتزوج قط ولم يفكر في الزواج إلا بعد أن أدرك أن عمره قد انقضى وساءت حالته الصحية: (تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص٤٣٥).

المعيشة والرزق لروادها، فعندما تفرغ كلٌّ من (إيموائيل كانت)[١] و(رينيه ديكارت) للفلسفة، اضطرا إلى البحث عن مصدر رزق يعيشان منه[٢]، إقرارًا ضمنيًّا منهما بأن الفلسفة وحدها لا تسمن، ولا تغني من جوع من الناحية المادية، وأنها مهنة إضافية على حياة الإنسان يمارسها أوقات فراغه متى شاء، وهذا يجعل مجمل أفكار الفلاسفة أفكارًا استرخائية تتغير في الشدائد، وأن الأفكار التي تولدت في الشدة كانت تعكس روح النقمة والثأر كتلك الأفكار التي جاء بها أمثال نيتشه وماركس.

وإذا كان العلم التجريبي التراكمي هو محاولة من الإنسان للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لمنافعه، فقد كانت الفلسفة وسيلته الأولى لنيل حريته واسترداد إنسانيته وكرامته، وإن تعجب، فعجب أنه في الوقت الذي ارتبط فيه مصطلح الفلسفة عند بعض الناس على أنه بوابة للشك! فإن هذا العلم قد نشأ أصلًا من الإقرار بالألوهية، فقد كان اليونان القدماء يطلقون على من يشتغل بعلوم الكون وعلله (سوفوس) أي الحكيم، ومنه اشتقاق الحكمة (سوفيا)، وتأبى الفطرة السليمة إلا أن تتحرك لدى (فيثاغورس)[٣] في القرن السادس قبل الميلاد، فيعترض على هذا المصطلح، قائلًا: إن الحكيم هو الإله وحده! وما أنا إلا فيلسوف؛ أي: مُحِبٌّ للحكمة، فأدخل عليها كلمة (فيلو) وتعني (محب) ليصبح المصطلح (فيلو سوفيا)، وعند ترجمة كتب اليونان القديمة عُرِّب هذا المصطلح إلى (فلسفة)، وتعني الحكمة والمشتغل فيها هو الفيلوسوف[٤].

---

(١) إيموائيل كَانْت Immanuel kant (١٧٢٤- ١٨٠٤م) الموافق (١١٣٦- ١٢١٩هـ) فيلسوف ألماني من أعظم فلاسفة العصر الحديث ولد في مدينة بكونجسبرج وهو مؤسس الفكر الغربي الحديث انطلقت فلسفته من العلوم المادية الدقيقة مثل الفيزياء والفلك ونشأة الكون لتكوين نظرة معرفية شاملة في الكون وترتكز فلسفته على أن مصادر المعرفة هي الحس والعقل وليس الحس وحده ولا العقل وحده وأن للعقل أفكارًا نظرية مركوزة فيه أطلق عليها (قوانين العقل المنظمة) وأن قدرة العقل مرتبطة بالظواهر الحسية: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٢٦٩).

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤١٣.

(٣) فيثاغورس Pythagoras (٥٨٠ ق. م- ٥٠٠ ق. م) فيلسوف يوناني أسس مدرسة الفلسفة الإيطالية القديمة كان جادًّا في حياته يرتدي ثيابًا بيضاء ويمسك عن الضحك والمزاح يرد جميع الموجودات إلى أصل واحد، ويرى غاية الإنسان أن يكون على وفاق مع (الإلهي) وأن يتبع الله: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٤٨٠).

(٤) الفلاسفة الإسلاميون بين المعتزلة والأشاعرة علي مصطفى موقع شبكة الألوكة الشبكة العنكبوتية.

وعلى الرغم من هذا المدخل المريح لعلم الفلسفة إلا أن مفهومها قد تضخم بصورة متعاظمة عند غالبية من يجهلونها، حتى ظنوا أنها شيء عظيم، من حُرم منها فقد حرم خيرًا كثيرًا، ومن لم يتذوقها فهو ناقص الحصيلة المعرفية، وكأنه قد ضاع، وأضاع غيره بتفويتها، والحقيقة أن الفلسفة وإن كانت فنًّا وعلمًا إنسانيًّا برز فيه فلاسفة تاريخيون لا نقلل من شأنهم في مجالهم، إلا أنها تبقى محصورة في أضيق إطار من حيث عدد المهتمين بها، ويكفي مقارنة محدودية عدد الفلاسفة وحتى إبرز تلامذتهم المعروفين بالشراح، بالسواد الأعظم من البشر الذين يعيشون حياتهم الطبيعية، ويدركون عدم ضرورة معرفة الفلسفة أصلًا في حياة الإنسان، ويمكن القول بكل طمأنينة: إن الفلسفة بمباحثها القديمة لا مستقبل لها في عالم اليوم، ولكنها بمفاهيمها الجديدة وسيلة فاعلة لتطوير آليات الحركة العقلية لفهم الأشياء ورسم إستراتيجياتها وخططها المستقبلية في جميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية[١]، وعلى كل حال تبقى الفلسلفة علمًا له موقعه في التاريخ، له أصوله وآلياته ومذاهبه المعتبرة في عيون الباحثين والمتخصصين في العلوم الإنسانية إلا أنها ليس بتلك الأهمية التي يحظى بها العلم التجريبي.

*****

مذاهب الفلسفة

تختلف المنطلقات الموضوعية لعلم الفلسفة من مدرسة لأخرى، ويبقى الاجتهاد فيها مفتوحًا، فهناك من إذا أُطلق مصطلح (الفلسفة) قصد به الإشارة الى المذاهب الرئيسة لها، وهي (الفلسفة الحسية والمثالية)، و(فلسفة الشك)، و(فلسفة التصوف)، وهناك من يصنفها إلى المذاهب الثلاثة المشهورة (الواقعي الطبيعي) و(العقلي) و(التجريبي)، وهناك تصنيف ثالث يرى أن الفلسلفة ثلاثة أقسام (فلسفة الوجود): وهي التي تبحث في الكون وعلته، وتبحث عن طبيعة الموجود وحقيقته وأصله وعلته، أي تبحث في أمر الخالق والمخلوق، و(فلسفة المعرفة): وهي التي تبحث في العقل وكنهه

---

(١) حوار الفلسفة والعالم: سؤال الثبات والتحول إشراف نابي أبوعلي مقال: الفلسفة وخطاب النهايات، الدكتور موسى عبدالله، دار الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص٣٣.

وقدرته، وتجمع الآراء التي قالها الفلاسفة في كيفية حصول المعرفة ووسائلها ومبلغها من الصحة، و(فلسفة القيم): وهي التي تبحث في كنه الخير والشر والجمال والقبح[1]، وهناك من يقسم الفلسفة إلى شرقية تشمل حضارات الصين والهند ويقول: إنها تقوم على الدين، وفلسفة غربية تقوم على العقل في أوربا وأمريكا، وهناك من يقسمها إلى قديمة وحديثة، وهكذا اجتهادات بشرية متعددة ولا مشاحّة في ذلك.

أما مصطلح (الفلسفة الأولى) فهو من اجتهادات (أرسطو) وهو خاص بعلم البحث في الموجود على ما هو موجود، وأطلق المتأخرون على الفلسفة مصطلح (الإلهيات) وسماها (ابن رشد)[2]: (علم ما بعد الطبيعة)، وعرفها (ديكارت) بأنها (معرفة الأمور المعقولة)، وانتهى بعض الشراح إلى أن الفلسفة الأولى هي ما يعرف بالميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة)، وأن (الفلسفة الثانية) هي البحث في العلوم الطبيعية من فيزياء ورياضيات ونحوها[3].

والفلسفة فضاء مفتوح بلا حدود، وأمواج فكرية مضطربة ومتعارضة ومتناقضة ومتطابقة أحيانًا، ليس فيها حق مطلق ولا باطل مطلق ولا عصمة للفلاسفة، ولا ينصح بتذوقها دونما شبع منها وارتواء، يقول عنها (إيموائيل كانت): «إن البحث في الميتافيزيقيا هاوية لا قاع لها ولا قرار، وأنه محيط مظلم لا شواطئ له ولا منائر يهتدى بضوئها»[4]، وعلى الرغم من شهرته العالمية بعد صدور كتابه الشهير (نقد العقل الخالص)[5]، فقد

---

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٣.

(٢) ابن رشد (١١٢٦- ١١٩٨م) الموافق (٥٢٠- ٥٩٥هـ) هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ويلقب بالحفيد، ويكنى أبا الوليد ولد في قرطبة لأسرة عريقة في العلم تعمق في العلوم النقلية والعقلية الطبيعية يُعدّ الشارح الأول لفلسفة أرسطو اهتم بمشكلات العقل والنقل وأثر بقوة في الفكر الأوروبي في العصور الوسطى من أهم مؤلفاته (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في الفقه المقارن (وتهافت التهافت) في الفلسفة ويُعدّ شخصية متعددة المواهب فهو قاضٍ وفيلسوف وطبيب وفقيه: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص١٩).

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص١٥٧.

(٤) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٢٨.

(٥) من أشهر الكتب الفلسفية في العالم وهو للفيلسوف الألماني (إيموائيل كانت) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٧٨١م والثانية سنة ١٨٨٧م، ويهدف الكتاب إلى عودة منزلة الميتافيزيقا وهي فرع من الفلسفة ويبحث في الحقيقة الأولية للوجود (مدخل إلى الفلسفة السياسية، محمد وقيع الله أحمد، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٢، ص٣٢٧).

تنامى عنده شعور إيماني خاص في آخر حياته، ورغبة شديدة للمحافظة على الأقل بأصول إيمانه الذي غرسته فيه أمه أيام طفولته، هكذا كان يتمنى، ويقول عن نفسه، بعيدًا عن فلسفته وشهرته التي تجاوزت أوروبا إلى العالم كله، علمًا أنه كان محسوبًا على الفلاسفة المؤمنين بوجود الله إلى حد كبير.

وحتى لا نذهب بعيدًا في تفصيل تباين التصورات الفلسفية نكتفي بما استقر عليه تصنيفها عند المتأخرين الذين حصروها في مذهبين رئيسين: المذهب الأول (الفلسفة النظرية)، ويقصدون بها البحث في ثلاثة مجالات: (العلة الأولى)[1]، و(الكون)، و(المقادير)، وأما المذهب الثاني فهو: (الفلسفة العملية)، وتعني البحث في (حياة الإنسان ونظامه وسياسته وسلوكه)، وهي الأسس الفكرية التي قامت عليها الجامعات ومراكز البحوث، ومنها جاءت تسمية الشهادة العليا (الدكتوراه) التي هي ترجمة للمصطلح (Doctor of Philosphy).

*****

هل الفلسفة ضرورة أم ترف فكري؟

من العدل أن نتناول علم الفلسفة بتوازن موضوعي دون إفراط أو تفريط، ومن الطبيعي أن يكون التقليل من أثر الفلسفة مثيرًا لكل مريد للفلاسفة أو معجب بها، وقد قالها من قبل (جون ستيوارت مل)[2] منتصرًا لرفقائه الفلاسفة: «الفلسفة التي تظهر للسطح كشيء بعيد للغاية عن قضايا الحياة والاهتمامات الظاهرية للبشر، هي

(١) المقصود بالعلة الأولى عند أرسطو هو (الله)! وقد اعتمد في إثبات وجوده على الحركة فقال: «إن كل متحرك لا بد له من مُحرِّك وهذا المحرك لا يمكن أن يحتاج إلى محرك آخر يستمد حركته من غيره وإلا لتسلسل الأمر إلى غير نه؛ فلا بد من أن ينتهي الأمر إلى محرك أولي أزلي يُحرِّك ولا يحرَّك أو يفعل في غيره ولا ينفعل بغيره وإلا لَمَا كان أولًا وذلك المحرك الأول هو الله»: (تلخيص ما بعد الطبيعة لأرسطو، ابن رشد، تحقيق: عثمان أمين، المقالة الرابعة، ص١٥٠).

(٢) جون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣م) الموافق (١٢٢١ - ١٢٩٠هـ) فيلسوف إنجليزي يعتمد في دراساته على المنطق والبحث العلمي ومن أكبر دعاة مذهب المنفعة: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٦٦).

في الحقيقة الشيء على الأرض الذي له أبلغ الأثر عليهم»[1]، ولكن هذا التعصب لها لا ينفي وجود آراء مخالفة لها تمامًا، وليس من الإنصاف إنكار أثر الفلاسفة خاصة فيما يتعلق بالحكمة والقيم والآداب وعلوم الاجتماع.

وعلى الرغم من حضورهم الصاخب فكريًّا، يبقى الفلاسفة فئة قليلة جدًّا بل ومن أقل الشرائح الاجتماعية النخبوية تأثيرًا في حياة الناس مقارنة بغيرهم ممن أثر فيها على مدى التاريخ، يتضح هذا الفارق إذا ما قارنا تأثيرهم بقوة تأثير الأنبياء الذين يرسخون المعتقدات الفطرية السليمة، ويغيرون معالم الحضارة، ويحركون الرأي العام معتمدين على الوحي الذي تتشربه القلوب دون عناء، وكذلك تأثير العلماء المخترعين الذين يقدمون خدمات تقنية ملموسة للإنسان تغير حياته، بل وحتى أثر عامة الناس الكادحين بجوارحهم والموجّهين بعقلهم الجمعي دفّة الحياة نحو التطور مع الزمن، ومن النقاط السوداء في تاريخ الفلسفة استغلالها من قبل أسوأ تيارين عُرفا في تاريخ الإنسانية، وهما (الحركتان الماركسية والنازية) اللتان اعتمدتا مباشرة على أفكار بعض الفلاسفة المتطرفين ليدفع الثمن عشرات الملايين من الأرواح البريئة، وفي نهاية المطاف يثبت فشلهما، ويكون مآلهما إلى زوال.

لكن إعمال العقل بعد جموده، وتفتيق الأذهان المنغلقة نحو التفكير المباشر والتأمل العميق، من أبرز إيجابيات الفلاسفة الذين حاربوا الطاعة العمياء، وخرجوا على كثير من المألوف الجامد في تاريخ البشرية، واستهدفوا الأتباع الرعاع، الذين كان يعبث بعقولهم الإقطاعيون والأحبار والرهبان، حتى وصل الأمر ببعض الفلاسفة أن كفروا بآلهة اليونان، واعتبروا القائمين عليها كذابين فاسدين محتالين، ثم كرسوا جهودهم يبحثون عن الإله الحق، وسبب ذلك أن فطرتهم توحي لهم بوجوده كاملًا منزهًا، فقرروا البحث عن أصل ثابت غير متغير ومجرد من صفات الموجودات الناقصة التي يدركونها أمامهم، بحيث يصبح هذا الثابت إلهًا كاملًا موجدًا لكل موجود، وهم بذلك يبحثون عن الخالق[2].

---

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٧٤.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٢.

وإذا كان الفلاسفة والمفكرون وأهل المنطق هم طليعة المبشرين بالمذهب العقلي المادي وحده، فإن الأنبياء يتقدمون البشرية بلا منافس؛ وذلك لأنهم يحملون لواء البيان الحسي والعقلي والغيبي عن ربهم من خبر الوحي الذي يبقى مع الزمن ثابتًا، بينما تزول آراء المخالفين له وأفكارهم، فدور الأنبياء جوهري في تبليغ وترسيخ أصول هذه الأديان السماوية الباقية والمعروفة التي لازمت الأجيال روحيًّا وسلوكيًّا، خاصة باتحاد رسالاتهم من حيث المضمون العقدي على التوحيد: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولو اقتصر دور الأنبياء على الإصلاح الديني للدنيا فقط، لنافسهم العلماء المخترعون بتصدر قائمة التأثير حضاريًّا والدخول في تفاصيل حياة الناس المادية وتطويرها، فالناس أعلم بشؤون دنياهم حتى من النبيين، ولكن امتداد دور الأنبياء إلى ترتيب أوضاع الحياة وما بعد الموت، جعلهم في الصدارة البشرية والاصطفاء الرباني بلا منازع، ولا سيما أن أثرهم باقٍ على الرغم من مرور مئات بل آلاف السنين على رسالاتهم الخالدة، حيث كانت رسالاتهم شاملة لترتيب شأن الدنيا بما يكفي لعمارة الأرض وشأن الآخرة بما يقود للنجاة والخلود في الجنة.

وأما العلماء المخترعون رواد التقدم التقني والعلمي، فهم القادة الحقيقيون لتغيير ملامح الحضارة البشرية دنيويًّا، لقد تدرجوا بالإنسان من عصره الحجري إلى عصر المركبات الفضائية والأقمار الصناعية والإلكترون والاتصالات، إنهم أعلم بهذا الفن الدنيوي حتى من الأنبياء الذين يعلونهم قدرًا ومكانة، ولهذا منحهم المصطفى ﷺ هذا الحق الدنيوي بقوله الصريح: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»(١)، ويسجل لبعض الفلاسفة دورهم الإيجابي في تحفيز مدارس العلم التجريبي، ولكن ينسب الفضل للمخترع المباشر، وتربط المخترعات باسم أصحابها.

وأما أثر عامة الناس في تطور حياة الإنسان، فإيجابيتهم تكمن في أنهم مادة البشر ومنجم معادنه وميدانه الذي تنطلق منه وإليه التجارب، فمنهم يتشكل الرأي العام و(العقل الجمعي) الذي يجب أن يكون في الاتجاه الإيجابي للأمة، وهم من يصنع العرف السائد والعادة والتقليد الاجتماعي، هم الذين يستقبلون المنتج العلمي فيفعلونه ويسوقونه

(١) الحديث في صحيح مسلم (٢٣٦٣) أن النبي ﷺ قال: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**».

ويطورونه، ويصبحون بذلك تابعين مؤازرين لعلمائهم في بحوثهم التطويرية والتكميلية، هذا علاوة على أن عامة الناس هم ميدان اختبار وتطبيق وتجريب كل اختراع علمي جديد، وهم من يتحمله ويحمله ويقومه عبر الأجيال أيضًا، أما الفلاسفة، وإن أضافوا نوعًا من الترتيب المعرفي المتناثر فهم أقل هذه الفئات تأثيرًا، بل لربما أصبح ضررهم في بعض الأحيان أكثر من نفعهم، كما هو الحال في فلاسفة الشؤم والشدة والأفكار الماركسية التي بسببها ارتكبت أبشع جرائم الإنسان ضد الإنسان من قتل وتشريد وإكراه على المعتقد.

إن سبب محدودية إثر الفلاسفة في حياة الناس هو أنهم جاؤوا في موقع هلامي بين الأنبياء الذين يعمرون الدنيا والآخرة بالوحي، والعلماء الذين يعمرون الدنيا بالعلم التجريبي، فليسوا بأنبياء يستظلون تحت ظل الوحي، ويتمتعون بالعصمة الإلهية، وليسوا أيضًا بعلماء ذوي فضل دنيوي لا ينكر أثرهم في حياة الناس في الدنيا إلا مكابر، وعادة ما يوصف الفلاسفة بأنهم أهل كلام وتنظير وخيال مجرد، بل قد يصبحون عالة اقتصادية على العاملين والكادحين، وكل من حاول الربط بين أفكار بعض الفلاسفة وبين العلم التجريبي، كمن يقول: إن (أرسطو) هو المعلم الأول للحضارة الغربية و(فرانسيس بيكون) هو مفسرها، فهو بذلك يخلط الحق بالباطل، ويمارس تكلفًا في نسبة الفضل إلى غير أهله، ويفتقر إلى ما يثبته في عالم الواقع، فلم يكن (إسحاق نيوتن)[1] – مثلًا – الذي أثبت إيمانه بوجود الله بقوله: «في غياب أي دليل آخر، الإبهام وحده من شأنه أن يقنعني بوجود الله»، وبقوله أيضًا: «الإله بمنزلة الخالق الأعظم الذي لا يمكن إنكار وجوده عند النظر إلى عظمة المخلوقات جميعًا وبهائها»[2]، وبكتابه الذي يحمل عنوان (عقيدة الإله الواحد)، لم يكن هذا العالم الفذ ليراجع التراث الفلسفي ابتداء حتى يخرج للعالم بقوانينه المشهورة في الحركة التي أثرت في الفكر الديني نفسه، وحركت العلم الحديث

---

(١) إسحاق نيوتن Isaac Newton (١٦٤٢ – ١٧٢٧م) الموافق (١٠٥٢ – ١١٣٩هـ) فيزيائي ورياضي إنجليزي وصاحب فلسفة علمية جبارة ويُعدّ من أعظم رواد تحرير الطبيعيات من التكهنات والفرضيات المبهمة ولد يتيمًا في إنجلترا ونشأ بطفولة حزينة من أهم إنجازاته (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) وكتاب (البصريات): (موسوعة الفلسفة، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، (١٩٨٤م)، الجزء الثالث، ص٣٤٨).

(٢) أخبار الفلاسفة قديمًا وحديثًا، أحمد محمد وليد أيوب، دار العرب للدراسات والفكر والترجمة، دمشق، ٢٠١٣م، ص١١٩.

من أصوله بعيدًا عن النفس الفلسفي، ولم يعكف (توماس أديسون)[1] على كتب الفلاسفة ليخترع للبشرية هذا المصباح الكهربائي الذي أنار لهم ولفلاسفتهم ظلام الليل وظلام تيه الفلاسفة أنفسهم، والقائمة تطول مع غيرهم من العلماء التجريبيين[2].

*****

الفلسفة ليست شرًّا محضًا!

الموضوعية في تقييم الفلسفة أولى من الغلو فيها أو الجفاء عنها، فالفلسفة ليست شرًّا محضًا ولا خيرًا محضًا، بل هي مزيج من النتائج التي حددتها مقدماتها، وضررها يقل وفائدتها تزداد كلما تناولها الباحثون عن الحقيقة من أبوابها الصحيحة، وبمقاديرها الفكرية المتدرجة المكتملة، لكن يجب التنبيه بل والتحذير بقوة من أن الاقتراب من علم الفلسفة دون التبحر به أخطر بكثير من التعمق فيه، فهي كما وصفها (نديم الجسر)[3] بقوله ناصحًا الشباب: «وارحمتاه لكم يا شباب هذا الجيل، أنتم المخضرمون بين مدرسة الإيمان عن طريق النقل، ومدرسة الإدراك عن طريق العقل، تلوكون قشورًا من الدين، وقشورًا من الفلسفة، وإن الفلسفة سبيل الإلحاد، فيقوم في عقولكم أن الإيمان والفلسفة لا يجتمعان، وأن الدين والعقل لا يأتلفان، وما هي كذلك، بل هي سبيل للإيمان بالله عن طريق العقل الذي بني عليه الإيمان كله، ولكن الفلسفة بحر على خلاف البحور، يجد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه، والأمان والإيمان في لججه وأعماقه»[4]، وقد وافقه تمامًا على هذا الوصف الدقيق الفيلسوف (بسكال) عندما قال: «إذا كان قليل

---

(١) توماس أديسون Thomas Edison (١٨٤٧- ١٩٣١م) الموافق (١٢٦٣- ١٣٥٠هـ) مخترع أمريكي ولد في قرية ميلان بول أوهايو الأمريكية نشأ بليدًا، ولم يمضِ أكثر من ثلاثة أشهر في المدرسة لكن موهبته في الاختراع برزت أخيرًا فابتكر الصور المتحركة ومن أعظم إنجازاته المصباح الكهربائي:

(Encyclopaedia Britannica- Thomas Alva Edison, Matthew Josephson, Last Updated 52014-1-).

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٢٦.

(٣) نديم الجسر مفتي طرابلس ولبنان الشمالي أورد هذه النصيحة على لسان (أبوالنور الشيخ الموزون السمرقندي) الشخصية الثانية في كتابه: (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم و القرآن، ص٢١).

(٤) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٢١.

من الفلسفة يبعد عن الله، فالكثير منها يرد إلى الله»[1]، ولكن لا بد من الاستزادة أولًا بزاد الوحي الذي يطمئن إليه كل متردد، سواء أخذ بقليل أو بكثير من علم الفلسفة.

وعلى الرغم من هذا الضجيج العالمي حول الفلسفة، إلا أنها لم تكن وثيقة الصلة كل الصلة بالحياة الروحية للإنسان، كما يتوقعه الكثير من الناس، فالرومان مثلًا كانوا يطلبون من الفيلسوف أن يكون موجهًا لمحاسبة الضمير، وحياتهم قائمة بشأنها فيما سوى ذلك، بينما أراد البابوات في القرن الثالث عشر من الفلاسفة حماية العالم المسيحي من الأفكار الإسلامية! وفي القرن الثامن عشر طلب من الفلاسفة تحرير العقول من التقاليد الموروثة ودفعه نحو التحرر منها[2].

والعلم والفلسفة قرينان، يتباعدان أحيانًا، ثم ما يلبثان أن يقتربا مرة أخرى، وقد كان العلم جزءًا من الفلسفة في العصور اليونانية القديمة، واتسع مفهوم الفلسفة ليتجاوز علم الكون الطبيعي في عهد الفيلسوف (طاليس) إلى أن أصبح شاملًا لجميع العلوم في عصر (ديموقريطس) ومن بعده (أفلاطون)[3]، ثم تلميذه (أرسطو)، ثم بعد ذلك تطور العلم متجاوزًا إطار الفلسفة، وكأنه على وشك الانفكاك منها، ليتفوق الدين على الفلسفة في العصور الوسطى، حتى ذابت الفلسفة تمامًا في الدين في القرن الثاني عشر، وفي العصر الحديث (القرن الثامن عشر) انفصل العلم والدين عن الفلسفة نهائيًّا، ثم أصبح العلم هو المؤثر في الفلسفة في القرن التاسع عشر، حتى كادت الفلسفة تختفي بالعلم، إلى أن استقلت نهائيًّا عن العلم بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن شب العلم عن طوقها، وتجاوزها بمراحل.

ويختلف الناس في تقبلهم ورفضهم لدور الفلاسفة في تطور العلم الحديث، ففي الوقت الذي يمجدهم فيه من يرون أنهم مهدوا للفكر العلمي التجريبي الذي هو أساس الحضارة المعاصرة، نجد آخرين على النقيض كالفيلسوف الفرنسي الكاثوليكي

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٢٥.

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤١٣.

(٣) أفلاطون Platon (٤٢٨ق. م- ٣٤٨ق. م) مؤسس الفلسفة المثالية وتلميذ سقراط ومعلم أرسطو ولد في أثينا وهو من أشهر الفلاسفة ويُعدّ هو وتلميذه أرسطو من أعظم الفلاسفة في التاريخ الإنساني: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص١٥٤).

(ماريتان)[١] الذي يَعدّ كلًّا من (مارتن لوثر)[٢] و(ديكارت) و(جان روسو)[٣] مصادر البلوى التي تعانيها المسيحية اليوم[٤].

أما الخلل الذي وقع فيه فلاسفة المسلمين - كما يراه المعارضون لهم - فهو أنهم أخذوا علم الكلام عن اليونان مترجمًا بعلاته ليجادلوا به المنطقيين في العصر العباسي، وليثبتوا المسلمات النقلية عن طريق العقل والمنطق عن حسن نية، فجلبوا إلى النص الشرعي غموض المنطق وقيود الفلسفة الشائكة التي تتعارض مع ديمومة النص ومرونته ومناسبته للتكيف المطلق مع كل متغير مستقبلي، ثم ما لبثوا أن استحسنوا حرية البحث في هذا المجال، وتعمقوا أكثر إلى قضايا لربما فقدوا معها بوصلة اتجاه إبحارهم في محيطات تلاطمت فيها أمواج الفكر، حتى كادت تغرقهم، فلم يجدوا عمقًا لهذا الفن إلا لدى الأمم السابقة وخاصة اليونان، فتاه بعضهم، وظهر منه ما لم يستطع معه المجتمع الفطري تقبله، فصدرت من بعض الغيارى مواقف وأوصاف حادة في حق بعض فلاسفة المسلمين، ليس بالضرورة أن تكون مبررة في كل حال، وقابل بعضهم علوم الفلسفة والمنطق بالرفض التام واتهام المنطقيين بالزندقة، حتى قال أحد الرافضين للمنطق مقفلًا بابه بالكلية: «من تمنطق فقد تزندق»[٥].

---

(١) ماريتان Jacques Maritain (١٨٨٢- ١٩٧٥م) الموافق (١٢٩٩- ١٣٩٥هـ) فيلسوف فرنسي على منهج توما الإكويني تحول من المذهب البروتسناتي إلى الكاثوليكي متخليًا عن كل ماضيه: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٢٤).

(٢) لوثر مارتن Martin Luther (١٤٨٣- ١٥٤٦م) الموافق (٨٨٨- ٩٥٣هـ) مؤسس المذهب البروتستانتي العالمي ولد في ألمانيا وعارض تقاليد اللاهوت المسيحي يرى أن الله يُعرف بالفطرة: (موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٦٣).

(٣) جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢م- ١٧٧٨م) الموافق (١١٢٤- ١١٩٢هـ) فيلسوف الروح والعقل ولد في جنيف عانى عقدة الشعور بالاضطهاد وكاد يقترب من الجنون عاطفي جدًّا ومثير للعواطف يغلب العاطفة على العقل يعتقد أن الإنسان خير بطبعه من أشهر كتبه (العقد الاجتماعي) نشره عام ١٧٦٢م: (تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص٢٣٧).

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٢٦.

(٥) هذه العبارة قالها إمام الحديث ابن الصلاح الشهرزوري المتوفى سنة ٦٤٣هـ واستخدمها شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٩هـ، واستخدمها أيضًا العثمانيون الأتراك في وصف من يستخدمون المنطق في تأويل الأسماء والصفات وعلم الغيب.

والحقيقة التي ربما غابت عن الكثير ممن سبقونا في هذا الفن هي أن المسلمين، وإن كانوا لا يحرمون علمًا مباحًا في أصله، ولا ينفرون من فن مستحسن، إلا أنهم ليسوا في حاجة للمرور من النفق نفسه الذي مرت به الأمم الأخرى فلسفيًّا ومنطقيًّا للوصول إلى الحقيقة، حيث لا وحي لديهم ولا كتاب محفوظًا عندهم، كما هو حال المسلمين بحمد الله، فلجؤوا للمنطق بحثًا عن علاج للمشكلات المعرفية المستعصية على الفكر البشري، أما حال المسلم الثابت على فطرته المستنير بوحي ربه أمام علم المنطق وفنون الفلسفة، فهو الاستغناء بالوحي والاستئناس بالفطرة مع الحياد اليقظ، وهذا ما أكده شيخ الإسلام (ابن تيمية) بقوله: «فإني كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به البليد»[1].

*****

تعاظم ذوات الفلاسفة وأفكارهم

في كثير من الحالات ينطلق الفيلسوف من ذاته المتضخمة إلى فضاء مفتوح لا يحده سقف، ويصل الغرور ببعضهم أن ينسى من حوله، فيتمدد بكل اتجاه، لقد تخيل الفيلسوف الألماني (هيجل)[2] أن التاريخ سيتوقف بقيام الدولة البروسية التي يحلم بها، وتخيل (كارل ماركس)[3] أن التاريخ سينتهي بقيام الشيوعية التي يحلم بها، وادعى

---

(١) قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية في (مجمع الفتاوى المجلد التاسع ص٨٢): «فإني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأينا من صدق كثير منها ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه وكتبت في ذلك شيئًا ولما كنت بالإسكندرية اجتمع بي من رأيته يعظم المتفلسفة بالتهويل والتقليد فذكرت له بعض ما يستحقونه من التجهيل والتضليل واقتضى ذلك أني كتبت في قعدة بين الظهر والعصر من الكلام على المنطق ما عقلته تلك الساعة».

(٢) جورج وليم هيجل Georg Wilhelm Hegel (١٧٧٠- ١٨٣١م) الموافق (١١٨٤- ١٢٤٦هـ) ولد في مدينة شتوتجارت الألمانية، ويُعدّ أبا الفلسفة المثالية الحديثة ومن أشهر مؤلفاته (جيمس ستيوارت ظاهريات الفكر علم المنطق موسوعة العلوم الفلسفية): (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، ص٦٩).

(٣) كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨- ١٨٨٣م) الموافق (١٢٣٢- ١٣٠٠هـ) مفكر اقتصادي وسياسي ألماني ولد من أبوين يهوديين، وهو المسؤول مع (إنجلز) عن وجود فكر الماركسية التي أطلقها خصومه على مذهبه الاقتصادي السياسي والإيدلوجي من أشهر كتبه (رأس المال): (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤١٨).

(فرانسيس فوكوياما)[1] أن التاريخ سيتوقف بعد سيادة الأفكار الليبرالية الغربية[2] التي يحلم بها هو الآخر، وهكذا. ولعل حساسية القضايا التي يتطرق إليها هؤلاء الفلاسفة (خاصة فيما لها علاقة بالميتافيزيقيا أو الغيبيات) نتج عنها هذا الدوي المزعج الذي تركوه خلفهم، والذي يفوق حجمهم الطبيعي بدرجات، حيث لا يخلو الأمر من مبالغات في أقوالهم وآرائهم، ولكن الأهم من هذا كله ألا يتلقاها الأسوياء، وكأنها مسلمات مقدسة صادرة ممن لا يسأل عما يفعل، في وقت لا نكاد نجد من تراثهم إلا رفاتهم هذا إن وجد، بينما نرى عموم الناس مختلفين حوله اختلافًا لا يرجى معه اتفاق.

والفلاسفة كغيرهم من سائر الناس، يجتهدون في فنّهم الخاص، فيخطئون ويصيبون ويختلفون ويتناقضون، ولكن تركيزهم على الغيبيات التي لا سبيل لمعرفتها من دون الوحي أدخلهم في أنفاق مظلمة، فآراؤهم أقرب الى غرائب التفكير في الوجود منها إلى المسلمات الصحيحة، ولو تتبعنا تاريخ البشرية لوجدنا عدد الفلاسفة لا يشكل رقمًا يذكر في محيط بلايين الناس من أهل الفطرة السوية، ممن لا ينتظرون بحالٍ موقف فيلسوف أو رأي مفكر ليفسر لهم سر الوجود ومآلاته، فالفلاسفة بآرائهم الغريبة أحيانًا، يبدون للناس وكأنهم مجرد ذرات غبار لا تكدر صفاء المحيط الفطري العظيم لبني البشر، وخاصة عندما يصطدمون بجدار الفطرة السوية وجدارتها، ولذلك لا ننكر أن الفلسفة علم من علوم الإنسان وفنونه، ولكن يجب أن توضع في إطارها الطبيعي دون مبالغة في تضخيمها، ويجب النظر إليها على أنها مجرد آراء وأفكار بشرية متناثرة، والاختلاف فيها هو الأصل، وقد اختلف الفلاسفة أنفسهم فيما بينهم، وأنكر بعضهم على بعض، بل وتقلب بعضهم في حياته من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، مستدركًا على نفسه، فقد يبدأ ملحدًا وينتهي مؤمنًا، أما الجريمة الكبرى فهي وضع علم الفلسفة البشرية القائم أصلًا على قواعد مضطربة في مصاف الوحي المنزل على الرسل من رب الخلق بوصفه مصدرًا معرفيًّا للغيبيات، إنه بحق خطأ جسيم وسوء أدب مع الخالق وضرب من الظلم والإجحاف والتضليل المنكر في حق الوحي المقدس، وصدق الله

(١) فرانسيس فوكوياما F. Fukuyama فيلسوف أمريكي معاصر ومن أشهر كتبه (نه التاريخ) ولد عام ١٩٥٢م (وهم الإلحاد، شريف، ص٣٤).

(٢) مدخل إلى الفلسفة السياسية، محمد وقيع الله أحمد، (مرجع سابق)، ص١٢٩.

القائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩– ٢٣].

إن على المسلمين اليوم أن يرفعوا رؤوسهم عاليًا، وأن يفخروا بدينهم، ويدركوا أنهم هم الأعلون، وأن عزتهم تتجلى في وجود قرآن عظيم بين أيديهم، راسخًا رسوخ الجبال لم يتغير، ولم يبدل، ولم يتبدل طيلة عمره الذي مضى منه ما يقارب الألف ونصف الألف من السنين، بينما لا تكاد تجمع قاسمًا مشتركًا لغالبية الفلاسفة على رأي موحد، بل حتى آراء آحادهم لا تصمد كثيرًا أمام رياح التغيير والتجديد المتتابعة مع الزمان، تتعرض للنقد الجوهري ولربما للإلغاء تمامًا، ولا مجال مطلقًا لمقارنة ضعف صمود موقف الفلاسفة مجتمعين عبر التاريخ بآرائهم مع قوة صمود الوحي منفردًا منذ أنزله الله على رسله، وعلم الفلسفة علم خيالي نظري بحت، لا يرقى إلى مستوى مصداقية العلوم التجريبية والأدبية والتاريخية الأخرى، هذا إضافة إلى لغته الركيكة والمستعصية فهمًا إلا على المتخصصين في هذا الفن، وعادة ما يتكلف بعض الفلاسفة في القول لإظهار مهاراتهم المعرفية أمام قرنائهم، فيكتب لهم بلغته الاستعراضية، ثم يسوق كتابه للناس عامة، فيحرم الناس من فهم فكرته، يقول ابن سينا مثلًا لوصف الزمان: «وأما الزمان فهو شيء غير مقداره! وغير مكانه! وهو أمر به يكون (القبلُ)، الذي لا يكون معه (البعدُ)، فهذه القَبلية له لذاته ولغيره، وكذلك البَعدية، وهذه القَبليات والبَعديات متصلة على غير نهاية، والذي لذاته هو قبل شيء، هو بعينه يصير بعد شيء، وليس أنه (قبل) هو أنه حركة بل معنى آخر...»[1]، أرأيت كيف تحس وكأنك تحت وطأة كلام ثقيل ينفر منه العقل المسترخي، قارن ذلك بحالك وارتياح نفسك وأملها في حياة طويلة وأنت تنصت إلى هذا النص السلس اليسير اللين على المسامع والعقل والقلب يصف الزمان بكل ما نحتاج إليه نحن البشر وبكفايتنا في حياتنا منه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٥٣.

ومن صور التكلف الفلسفي الثقيل قول (أرسطو) عن الوجود: «إن أي شيء بالضرورة، إما أن يكون أو لا يكون، ومن ثم فإنه سوف يكون، أو سوف لا يكون، ولكن لا يستطيع المرء أن يفصّل، ويقول: إن شيئًا من الأشياء أو غيره ضروري»(١)، ويقول أيضًا: «إن قولنا عما يكون: إنه لا يكون، أو عما لا يكون إنه كائن، قول باطل، في حين أن قولنا عما يكون: إنه كائن، وعما لا يكون إنه غير كائن، هو قول صحيح»(٢)! والحقيقة أن كل ما يحاول قوله بهذا التكلف قد احتوته وزيادة آية قصيرة وجيزة بليغة من سورة القمر إذا ما تم فهمها في إطار الإيمان بالله والعبودية له، في كلمات محدودة ميسرة للفهم العام وخالية من التكلف المنفر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

*****

الفلاسفة والنفسيات المتأزمة

إذا سلمنا بأن البيئة وظروف النشأة والظروف السياسية والتاريخية والاجتماعية، هي التي تصنع شخصية المفكر أو الفيلسوف، ومن ثم تعكس لنا طبيعة آرائه وأفكاره، فليس من الإنصاف أن يلزم الناس بقبول تلك الآراء خاصة أن بعضها شاذ أو متناقض تحت اسم فلسفة صنعتها الظروف المرحلية للفيلسوف بخيرها وشرها، فهذا الفيلسوف الألماني (**فريدرك فيلهيلم نيتشه**)(٣)، يُعدّ مرجعًا معتبرًا للكثير من التيارات المناوئة للدين والوحي والغيبيات، لكنه نتاج بيئة مأساوية، إنه ابن العائلة المتدينة جدًّا، فوالده قسيس بروتستنتي، وهذا جعل من (نيتشه) متعصبًا جدًّا ضد الدين والكنيسة وأفكارها، واعتبرها سبب الشر في الوجود، ثم اتخذ موقفًا معاديًا لجميع الأديان، ووالده مقرب

---

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٢.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٢٨.

(٣) فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤- ١٩٠٠م) الموافق (١٢٦٠- ١٣١٨هـ) فيلسوف ألماني ولد في ريكن وهو المؤسس لفلسفة القوة ومن أعظم الفلاسفة تأثيرًا في القرن العشرين من أشهر مؤلفاته كتاب (هكذا تكلم زرادشت) وكتاب (عدو المسيح): (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٥٠٨).

من الملوك حتى اختار اسم ابنه (فردريك)، ابتهاجًا باسم الملك (فريديرك الكبير)[1]، وهذا التقارب بين عائلته وبين الملك أوجد عنده عقدة أخرى من هذه المبالغة في الولاء، وبعد وفاة والده عام ١٨٥٩م وهو لايزال في المراحل الأولى من الدراسة، نشأ شابًّا متشائمًا جدًّا، دفعه ذلك إلى الإعجاب بفيلسوف التشاؤم (آرثر شوبنهور)[2]، ثم شارك في حرب السبعين عامًا ممرضًا متطوعًا، فطرد من الجيش بعد أن ارتكب خطأ عسكريًّا، ثم أصيب بالجنون عام ١٨٨٩م وأقام في مستشفيات (بازل) حتى وفاته عام ١٩٠٠م، وقد بلغت به الأنانية أو الأوحدية أن قال عن نفسه: «إن قولي: إن العالم تمثيل لي، قضية لا بد أن يقبل بها الجميع حالما يفهمونها»[3].

لقد كان (نيتشه) وعاء سوء يحوي كل نظرة سوداوية وتشاؤمية للحياة المحسوسة، فتنكر لها، ففي الوقت الذي نجد فيلسوفًا متوازنًا مثل (سقراط) يقول عن المرأة إنها: «أحلى هدية قدمها الله إلى الإنسان»، نجد (نيتشه) يبالغ في نسبة الشر إليها إلى درجة أنه اعتبرها (فخًّا نصبته الطبيعة للرجل!) وهو يرفض الماضي تمامًا، والغريب أنه اشتهر بأنه فيلسوف القوة، بينما الأولى أن يكون فيلسوف النقمة، لقد هاجم الفلسفة والأخلاق بالجملة وقال عن العقل إنه: «خطير يدعي معرفة كل شيء»[4]، لكنه بهذا الموقف المتطرف يعكس بيئة المصائب والمعاناة التي كابدها، فأوصلته إلى هذا المستوى

---

(١) فريدريك الثاني الكبير Friedrich II (١٧١٢- ١٧٨٦م) الموافق (١١٢٤- ١٢٠٠هـ) من أشهر ملوك بروسيا وهو ابن فريدريك وليم الأول ولقِّب بالكبير لنجاحه في مجالات متعددة عاصر التنوير وهو حاكم شمولي مستبد ولكنه مستنير: (الملك فريدرك الثاني والإسلام: الصداقة المزعومة، مؤنس مفتاح، القدس العربي، العدد ٧٩٠٥، ٣٠ أكتوبر ٢٠١٤م، ص١٢).

(٢) آرثر شوبنهور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨- ١٨٦٠م) الموافق (١٢٠٢- ١٢٧٦هـ) فيلسوف ألماني يتميز مذهبه بالقوة والسرعة اختار والده اسم آرثر لكونه اسمًا عالميًّا في جميع اللغات الأوروبية طاف أوروبا كلها قبل بلوغه السادسة عشرة من عمره ليس لديه أي رجاء أو أمل لكنه يبحث عن الحقيقة واشتهر بأنه فيلسوف الشؤم والشقاء عاش طفلًا وحيدًا بلا أم ولا وطن ولا صديق مات أبوه منتحرًا وماتت جدته وهي مصابة بالجنون وهجرته أمه ٢٤ عامًا من أشهر كتبه (العالم كإرادة وفكرة): (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٤٠٥) وكذلك (قصة الفلسفة، وول ديورانت، مكتبة المعارف، بيروت، ترجمة: الدكتور فتح الله محمد المشعشع، الطبعة السادسة، ص٣٨٨).

(٣) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٦٤.

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٥١٣.

من الانتقام، يقول المفكر والفيلسوف الإسلامي عبدالرحمن بدوي[١]: «إن (نيتشه) عندما هاجم (الله)، إنما هاجم الواقع الأخلاقي الذي تصوره المسيحية باسم الله»[٢]، ولك أن تتخيل أخي القارئ، أن أفكار (نيتشه) كانت من أقوى الدعائم التي قامت عليها الحركة النازية.

وعلى الرغم مما يعرف عن بعض الفلاسفة من حكم وآراء حصيفة، فإن لبعضهم من الغرائب ما لا تجد له تفسيرًا منطقيًّا مقبولًا، فمثلًا كان (أفلاطون) مع شهرته العالمية، يتدروش، ويمشي حافي القدمين، ولا يغير ملابسه طوال العام[٣]، وهناك مدرسة فلسفية يعرف أتباعها بالكلبيين (Cynics) وهم مجموعة من الفلاسفة يرون أن حياة الكلب هي المثل الأعلى! التسوّل والزحف! فلا يرتبون مأكلهم ومشربهم، ولا يقتنون ثروة، ولا يتزوجون بنية تأسيس أسرة، يعتقدون أن الكلب سعيد وراضٍ بحاله جدًّا في ظل هذه الظروف؛ لذلك يجب أن يتبع الإنسان هذه الخطوات ليصل إلى السمو! وكان من أشهرهم الفيلسوف (ديوجين)[٤] الذي كان عدوًّا للمدنية، عاش شحاذًا في شوارع أثينا، وعاش أغلب حياته في برميل كبير، وكان يمشي، ويحمل مصباحًا في النهار، يزعم أنه يبحث عن رجل فاضل واحد! وكان يرى في الفقر فضيلة[٥]، وكان (شوبنهور) لا يحلق شعر وجهه مطلقًا، وقد أوصى الفيلسوف الإنجليزي

---

(١) عبدالرحمن بدوي (١٩١٧- ٢٠٠٢م) (١٣٣٥- ١٤٢٣هـ) فيلسوف مصري ومؤرخ وأحد تلاميذ الفيلسوف الفرنسي الشهير لالاند قدم رسالته للماجستيرعن (مشكلة الموت في فلسفة الوجودية) وقدم رسالة الدكتوراه في (الزمان الوجودي) أمضى عمره في الكتابة عن الفلسفة الوجودية ثم تخلى عنها آخر حياته متجهًا بقوة نحو الوحي: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص١٥٦).

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٦٠٨.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٥٧٩.

(٤) ديوجين سينوب Diogenes of Sinope (٤١٢ق. م- ٣٢٣ق. م) فيلسوف يوناني يرفض المدنية ويرى أن الفضيلة في الأفعال وليس النظريات كرس حياته لهدم قيم المجتمع ومؤسساته يصرح بانتمائه العالمي ويرفض نسبته إلى دولة او مدينة: (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، ص٦٣).

(٥) أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، (مرجع سابق)، ص٦٣.

(إرميا بنتهام)[١] أن يحنط جسده بعد موته؛ لما قد يجده الآخرون من سعادة في النظر إليه[٢]! وحتى (إيموائيل كانت) الذي يُعدّ من أحكم الفلاسفة وأرشدهم عقلًا، كان يمشي مقنعًا خوفًا من الإنفلونزا والتلوث، ولا يتنفس إلا من أنفه احتياطًا للسلامة[٣]، وإذا تجاوزنا هذه الشكليات إلى الأفكار، فهم أيضًا ليسوا مختلفين مع من حولهم فحسب، بل أيضًا فيما بينهم مختلفون ومتشاكسون في أفكارهم حول الحقائق والمسلمات، ولقد ضاق (فولتير) ذرعًا بأقرانه الفلاسفة قديمًا وحديثًا، وقال إن: «رئيس كل مذهب من مذاهب الفلسفة كان دجالًا نوعًا ما»، وقال:«كلما سرت أكثر، زادت قناعتي أن الميتافيزيقيا (الغيبيات) بالنسبة إلى الفلاسفة كالقصص بالنسبة إلى النساء»[٤]، لقد كان فولتير الأديب والفيلسوف شجاعًا في طرح أفكاره، وله مواقف قوية ضد الخرافة التي يمقتها بشدة، بينما يقدر جدًّا السعي للبحث عن الحقيقة بعيدًا عن الخرافة والأوهام.

وقد أورد قصته مع الكاهن البرهمي الذي تمنى لو لم يولد أبدًا! فلما سأله (فولتير) عن سبب هذا الإحباط؟! أجاب بأنه قضى أربعين سنة في الدراسة وخسارة الوقت، معتقدًا أنه مركب من المادة دون أن يستطيع إقناع نفسه بحقيقة ذلك! ثم تحدث فولتير في اليوم نفسه مع امرأة عجوز تعيش قريبًا من ذلك البرهمي، وسألها فيما إذا كانت مهتمة لعدم فهمها لكيفية خلقها كما هو حال البرهمي؟ فلم تفهم سؤاله أصلًا! ونفت أنها تفكر في شيء مما يشغل به البرهمي نفسه، ويفني به عمره، مكتفية باعتقادها بإله الهندوس! تعتقد أنها أسعد الناس إذا ما سكبت قليلًا من ماء النهر (المقدس) على جسدها، ولما وجه فولتير سؤاله إلى ذلك الكاهن قائلًا: ألا تشعر بالخجل من شقائك، بينما تشاهد امرأة قد أراحت نفسها مما أنت فيه وعلى مقربة منك، لمجرد أنها لا تشغل نفسها بما أشغلت به نفسك، أجاب بقوله: «لقد قلت لنفسي أكثر من مرة: إني لو كنت جاهلًا

(١) إرميا بنتهام Jeremy Bentham (١٧٤٨– ١٨٣٢م) الموافق (١١٩٨–١٢٤٨هـ) فيسلوف إنجليزي ومنظر للمذهب الحسي على خطى إيبقور وهوبز يرى أن الناس يطلبون اللذة ويتجنبون الألم بالطبع أنشأ مجلة وستمنستر للدعوة إلى الإصلاح السياسي (تاريخ الفلسفة الحديثة، كرم، ص٣٣٢).

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٥.

(٣) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣٣١.

(٤) قصة الفلسفة ديورانت، (مرجع سابق)، ص٢٩١.

كجارتي العجوز لكنت سعيدًا، ومع ذلك فإن مثل هذه السعادة (الغافلة) عند العجوز لا أريدها، ولا أرغب فيها»[١]، ولعل سبب رفضه لحياة تلك العجوز هو كونها تعتقد بآلهة الهندوس الخرافية الشركية، فسعادتها ظاهرية غير متجذرة في أعماق الفكر والعقل، إذ لو كانت تؤمن بالإله الحق لربما تشرّب موقفها، ولكنه كان حريصًا على الحقيقة، ومن الواضح أنه كان مستعدًّا لتقبلها إذا اتضحت له، ولا يبدو أنه مستعد للانتقال من خرافة إلى أخرى، والعقل السليم يثبت أن إيمانًا يتوصل إليه الإنسان بالبحث والتفكر والتأمل، خير ألف مرة من إيمان جامد موروث، قد لا يصمد ثانية أمام رياح العصف الفكري العالمي أو الابتلاءات والمحن.

ويتكرر المشهد مع شخصية (لينين) المثيرة للجدل، فقد كان لظروف نشأته أثر جوهري في طبيعة أفكاره التي تشكلت نتيجة للبيئة القاسية، فقد نشأ في أسرة مضطربة بائسة، حيث كان جميع إخوانه ثوريين متمردين، وكان أخوه الأكبرعضوًا في منظمة إرهابية، فحكم عليه بالإعدام شنقًا لانتمائه إليها، فأثر ذلك في نفسية (لينين)، وزرعت فيه غريزة الانتقام الحادة التي لازمته طوال حياته، وبعد طرده من الجامعة تحول إلى الماركسية، وأطلق على نفسه (لينين)، بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره[٢].

وكذلك كانت الظروف القاسية تصنع شخصية رفيق دربه (كارل ماركس)، الذي أقام في لندن عام ١٨٤٩م في ضنك وفقر مدقع، عرضه هو وأسرته للجوع، حتى مات على إثره ولداه، فلم يجد قيمة دفنهما، فتكون لديه ميول لعبادة العمل والعمال، والنقمة على الرأسمالية، وهو الذي ينسب إليه مذهب الماركسية بجميع فظائعه وضحاياه ومآسيه السوداء، والغريب أن مصطلح الماركسية قد أطلقه أتباع خصمه (كونيه)، قدحًا في انحرافه هو وأتباعه عن المبادئ الاشتراكية[٣] التي كانوا يتمسكون بها، وكلنا سمع بتلك العبارة المستفزة التي أطلقها (ماركس) عندما وصف الدين بقوله: «الدين أفيون الشعوب»! وكنا نظن أن ماركس قد تجرد من كل دين، وأن هذا

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٢٩٢.
(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤٠١.
(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤١٨.

موقفه من الأديان الصحيحة، فتبين أنه لم يكن مخطئًا حين أطلقها في سياق يقصد به أن الأغنياء والحكام يستغلون مفهوم الدين الشعوبي لتخدير الفقراء وحملهم على تحمل البؤس، والسكوت عن حقوقهم المشروعة وعدم المطالبة بها مقابل انتظارهم دخول الجنة والأجر بعد الموت(١)، ومن ثم تستأثر الأقلية بحقوق الأغلبية وامتيازاتهم، والذي يؤكد هذا الاستنتاج أن (ماركس) نفسه رغم عناده واستكباره عن الحق الذي يعلمه، قد تراجع في حدته المعارضة للأديان آخر حياته، وكتب رسالة إلى صديقه (إنجلز)(٢) يشيد فيها بروح الدين الإسلامي، الذي كان وقودًا للثورة المهدوية في السودان التي هزمت الإمبريالية البريطانية(٣)، يقول الأستاذ (نبيل محمد صغير)(٤): «لا يمكننا أن ننظر إلى الماركسية من زاوية واحدة ضيقة باعتبارها الدين قوى ظلامية وسلبية بذاتها، وإنما تُعدّ الماركسية هذه الظلامية كامنة في تلك التشكيلات الاجتماعية والطبقية التي يوظف من خلالها الدين»(٥).

وممن تمسك بموقفه بعناد، ثم غيّره بعد أن استسلم للقدر (جون مل) الذي كان يؤمن بسلطة العقل المطلقة، حتى مرت به أزمة عقلية أرغمته أن يغير موقفه، ويؤمن بوجود العاطفة إلى جوار العقل(٦)، وتكرر الموقف أيضًا مع الفيلسوف الملحد (ديفد هيوم)، الذي نشأ هو الآخر يتيمًا متدينًا عند عمه القسيس (جورج) المتشدد في الأخلاق والدين، ما ولد لدى (هيوم) كراهية للدين المسيحي خاصة، وللأديان عامة، فنفر من

---

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٥.

(٢) فريديرك إنجلز Friedrich Engels (١٨٢٠- ١٨٩٥م) الموافق (١٢٣٥- ١٣١٢هـ) ولد من أب متزمت دينيًّا وكان إنجلز ابنه الأكبر أعجب بفكر الفيلسوف الألماني هيغل ويُعدّ إنجلز المسؤول الأول مع كارل ماركس عن نشوء المذهب الماركسي أي النظرية الشيوعية العلمية نظرية المادية الجدلية:

(Encyclopaedia Britannica- Friedrich Engels, Oscar J. Hammen, Last Updated 72014-8-).

(٣) مدخل إلى الفلسفة السياسية، محمد وقيع الله أحمد، (مرجع سابق)، ص٢١٢.

(٤) باحث وأكاديمي من جامعة مولود معري- تيزي ويزو- الجزائر.

(٥) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال مقاربة فلسفية للرؤية الماركسية للدين وتفكيك مقولة الدين أفيون الشعوب للكاتب: نبيل محمد صغير، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص١٤٦.

(٦) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤٦٧.

التدين أشد النفور، وعندما ألح عليه أهله بدراسة القانون بهدف التكسب رفض، وتعرض لأزمة نفسية كادت تقضي عليه، وعلى الرغم مما نشره من محاولات لإبطال حجج المستدلين بوجود الخالق استدلالًا بالكون المحكم، إلا أنه قال في آخر حياته: «لا مانع من أن يكون هناك إله»! وقبول هذا الأمر بالنسبة إليه كان مشروطًا في اتجاه الفطرة، حيث شدد على أن هذا الإله يجب أن «لا يشبه إله الأديان إلا من بعيد»[(١)]، ما يعني أنه ليس لديه مشكلة مع إله الكون الحق، بل مشكلته كانت في (آلهة) الأديان التي قرأ عنها، ما دفعه بقوة إلى النفور منها، حيث نراه في موضع آخر يسند أمور المعجزة إلى الله، فيقول: «إن المعجزة خرق لقانون الطبيعة لأمر يريده الله!»[(٢)]، ويعترف بوجود حالات يكون من المعقول التصديق فيها بحدوث أمور غير مألوفة، لكنه يشترط تواتر الخبر عنها، وألا يكون للشهود أي منفعة من وراء إيراد الخبر عنها، إنه بهذا التصريح وكأنه يرفض الخرافة، ويبحث عن الحقيقة على الرغم من أن بعض كتب الفلسفه تجعله على رأس قائمة الملحدين.

وأما فيلسوف الوجودية الدانماركي (سيرن كيركجور)[(٣)] فقد كان الابن الأصغر لأب عصبي جدًّا، كان راعيًا للغنم، ويجدف في غضبه بلا حدود حتى إنه (لعن الله)!! في أول حياته، ثم ندم، وأيقن بالعقوبة من الله، فلما ماتت زوجته، ومات أبناؤه ما عدا اثنين منهم، أراد والدهما أن يكفر عن خطيئته تلك بالقسوة الشديدة عليهما وخاصة ابنه (سيرن) الذي تحطمت كل آماله، وانهارت ثقته بالحياة وهو يرى والده العجوز الحزين يبطش به أشد البطش، وعام ١٨٣٥م أصيب (سيرن) باضطراب نفسي لازمه طوال حياته من قلق وجزع، فأصبح يقلق من الذباب، ويضطرب من صوته، وتسلط عليه الخوف من الجنون، وشغله هاجس الانتحار، فلجأ إلى الشراب لتبديد هذه الهموم! تخيل أن هذا الطفل الذي نشأ في هذه البيئة المضطربة، والعربيد السكّير سيكون فيما بعد

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٦١٨.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١٣٧-١٣٨.

(٣) كير كجور Soren Kierkegaard (١٨١٣- ١٨٥٥م) الموافق (١٢٢٨- ١٢٧١هـ) فيلسوف دانماركي عاطفي وأديب له تأملات في حياة الإنسان استخلص منها (مدارج على طريق الحياة) سماها المدرج الحسي والمدرج الأخلاقي والمدرج الديني: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٣٢٦).

رائدًا لمذهب (الوجودية)(١) في علم الفلسفة(٢)! إن قومًا يقبلون بهؤلاء المأزومين روادًا للفكر والفلسفة لا يستحقون إلا أن يقال لهم كما قال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

إن هذه النفسيات المتأزمة والملازمة لأحوال بعض الفلاسفة، هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن تشكيل كثير من مواقفهم وأفكارهم الغريبة بل وتطرفهم تجاه الواقع والوجود، والغريب تجاهل بعض المكابرين المعاصرين من الشراح المتأخرين لهذه النفسيات المعلولة بالابتلاءات والحوادث القاسية عند بعضهم، فتراهم يجعلون من آرائهم المعلولة مفتاحًا لفهم الحياة وتفسير رموز الكون وأسراره وغيبياته، بل الأغرب من ذلك، هذه الانتقائية اللامنهجية لإعطاء إيحاءات مخالفة للواقع، وكأن الفلاسفة هم من يرفع راية الإلحاد عبر التاريخ! إنه لمن الخطأ عند الحديث عن آراء الفلاسفة عامة أن نضخم مواقف من شذ منهم، أو أن نتجاهل آراء الأغلبية الساحقة من الفلاسفة المتوازنين المنسجمين مع أفكارهم، مثل الفيلسوف المؤمن (سقراط)(٣)، الذي سيطرت على نظرته الفلسفية لغة التفاؤل والأخلاق السامية، فابتسم للحياة إلى درجة أنه تناول السم المحكوم به عليه ليموت في سبيل مبادئه النبيلة وهو مبتسم، دون أن يتراجع عن أفكاره التي اعتنقها والتي لم يتقبلها عصره، وأدركها الناس فيما بعد ليصبح سقراط رمزًا قديمًا لكل من يضحي بحياته من أجل الحق.

*****

(١) الوجودية هي: مذهب فلسفي إلحادي نشأ بعد الحرب العالمية الأولى وازداد انتشارًا بعد الحرب الثانية نتيجة لرعب الفناء الذي سببته الحرب وهو مذهب يقوم على تمجيد ذات الفرد والحفاظ عليه على حساب النوع ويطلق العنان للفرد أن يعيش بكل شهواته وملذاته مؤمنًا بوجوده فقط دون غيره: (كلمات من الحضارة، منصور عيد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ص٢٤٨).

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٢٧.

(٣) سقراط Socrates (٤٧٠ ق. م- ٣٩٩ ق. م) ولد في أثينا من أشهر فلاسفة اليونان يدعو إلى النظر في الإنسان كان بسيطًا متواضعًا في المأكل والمشرب أمضى حياته يبحث عن الحقيقة بل ودفع حياته ثمنًا لمبادئه لم يؤلف كتابًا ولم يترك أثرًا مكتوبًا يصفه أفلاطون بأنه فيلسوف مستغرق في الأنظار الميتافيزيقية العالية كانت فلسفته نقطة البد في فلسفة البحث عن المعرفة اتهم بأنه ينكر آلهة الشعب ويفسد عقول الشباب حكم عليه بتجرع السم حتى الموت: (محاكمة سقراط أفلاطون، ترجمة: عزت قرني، سلسلة محاورات أفلاطون النص اليوناني، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م، ص٣٠).

استدراكات ضرورية في علم الفلسفة

يجب ألا يتجاوز أي علم إطاره وحدوده الطبيعية معرفيًّا ومنهجيًّا؛ كي لا يتداخل مع علوم أخرى، فنفقد الفائدة من الاثنين، والاستدارك على علم الفلسفة لا يعني الوصاية عليها من قبل غير المتخصصين بها، ولا التقليل منها كعلم إنساني قائم بذاته، ولكنه استقراء موضوعي موجز لتسليط الضوء على بعض ملابسات نشأتها وتاريخها وأثرها في حياة الإنسان وتسويقها عبر التاريخ، ومن هذه الاستدراكات الجوهرية ما يلي:

١- يلاحظ أن الفلسفة المعروفة أوروبية المنشأ والتاريخ والجغرافيا بشكل عام، أو هكذا أريد لها أن تكون، مع غياب ملحوظ لفلاسفة الحضارات الأخرى خاصة الشرقية منها، كالحضارتين الصينية والهندية، اللتين تزاحمان الزمن للحصول على مقعد في منصة الفلسفة العالمية التى تتصدرها الفلسفة الغربية قديمًا وحديثًا، على الرغم من أن بلاد المشرق لا تخلو من فلاسفة ومدارس فلسفية أيضًا، لكن تجاهلهم من قبل الغرب المتصدر، له دلالة تردد وحيرة، ولا يخفى أثر الثقل البشري للشرق، وما تشكله أوروبا القليلة سكانيًّا مقارنة بالأعداد الهائلة لسكان الشرق الآسيوي وحضاراته العريقة ما يضع علامات استفهام كبرى حول تجاهلها، لما يصدر منها من علوم وفنون.

٢- قلة عدد الفلاسفة على مدى تاريخها إلى وقتنا الحاضر على الرغم من توافق كثير منهم للفطرة السليمة في آرائه، وأقل القليل منهم يحمل أفكارًا لا تتوافق معها، مقابل بلايين البشر الفطريين المؤمنين السائرين في حياتهم على الإيمان الهادئ دون حاجة للفلسفة وعلم الكلام، فضلًا على أن هؤلاء الفلاسفة مجرد أفراد عاديين لا يوحى إليهم من الله كما يوحى إلى النبيين الذين جعل الوحي من قلتهم كثرة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] أما الفلاسفة فهم بشر يفكرون مستقلين بذواتهم وبصوت مرتفع، ويطرحون

وجهات نظرهم الاجتهادية المتناثرة في كل اتجاه، حيث نشأت شهرة غالبيتهم من مخالفتهم لمن سبقوهم، فليسوا بملائكة مقربين ولا أنبياء معصومين، إنهم فقط رجال يفكرون، ويدافعون عن آرائهم الخاصة بجرأة زائدة نسبيًّا، ويحاولون إثباتها بالمنطق والبرهان، فمنهم من ينجح، وكثير منهم يخفق في تحقيق ما يهدف إليه.

٣- ارتباط آراء الفلاسفة ومواقفهم بظروف نشأتهم، فالفيلسوف الذي ينطلق من أفكار فطرية هادئة، وتربى في بيئة اجتماعية مستقرة، ولم يتعرض لاضطرابات نفسية، يكون عادة أكثر قدرة على صمود أفكاره أمام مناوئيه، وآراؤه أكثر استقرارًا مع الزمن؛ لقربها من الفطرة السليمة، ومثال ذلك أفكار الفيلسوف الألماني (كانت) التي تتسم بالهدوء، مقارنة بفيلسوف ألماني آخر (نيتشه) الذي نشأ مضطربًا، وأنكر الإله والأديان، ومات مجنونًا، وقد أجرى أستاذ الطب النفسي في جامعة نيويورك (بول فيتز) دراسة على بعض شخصيات ملحدي العصر، وتوصل من خلالها إلى أن الإلحاد قد ينتج من خلل نفسي عصابي يدفعه في اللاشعور رغبة جامحة للتخلص من سيطرة الأب، والتمرد عليه، ثم يتطور الأمر لرفض كل هيمنة في الوجود، وساق مثالًا على ذلك، حالة الفيلسوف الفرنسي الشهير (فولتير) ومعاناته من قسوة أبيه التي جعلته يرفض النطق بلفظ اسم والده إلى جانب اسمه، وكذا الحال كان مع آخرين مثل (لينين وماركس وهوبز وفرويد)[١].

٤- تدارك الفلاسفة بعضهم على بعض، حتى إنك لتجد في الفلسفة كل نقيض، وتجهيل وتسفيه أحيانًا، يقول (ميشيل مونتي)[٢]: «هل يقال: إن هناك شيئًا جوهريًّا يرفعنا فوق الحيوان؟ إنه العلم، ولكن ما هذا العلم؟ إذا استثنينا المعارف النازلة بالوحي، لم نجد أنفسنا نعرف شيئًا، ماذا نعرف عن الله؟ لكل فيسلوف جواب، والأجوبة بعضها أغرب من بعض، ماذا نقول عن النفس التي هي أقرب شيء إلينا؟ مع ذلك

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٠.

(٢) ميشيل دي مونتي Michael De Monte (١٥٣٢- ١٥٩٢م) الموافق (٩٣٨- ١٠٠٠هـ) يوصف بأنه شريف من أشراف فرنسا تفقه في الأدب القديم وخاصة اللاتيني يكثر الحديث عن نفسه: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص٢٧).

نجد آراء الفلاسفة أكثر تضاربًا وغرابة، وماذا نعرف عن الطبيعة؟ وعن حقيقة الأجرام السماوية؟ وحقيقة حركاتها، يعارض كوبرنك بطليموس، وما ندري لعل رأيًا ثالثًا بعد ألف عام يقلب الرأيين)[1].

وهذا ما حدث بالفعل مع بعضهم، حيث تصدى (باركلي)[2] المتدين، الذي جعل من (الله) محورًا لمذهبه في فهم الوجود والمعرفة واليقين، (لهوبز) المادي، وكذلك تصدى (كانت) المتدين (لهيوم) الملحد[3]، وهكذا، سبحان الله: الحق موجود كوجود الوجود نفسه أو أكبر، ولا ندري ماذا يجني الإنسان من وراء هذا الصدود غير المبرر عن هذا الحق، قارن حال تناقضات هؤلاء الفلاسفة مع نسق واتساق واطراد وثبات مضمون رسالات السماء كلها مع مرور الزمن، وتعدد الأجيال، إنه والله ينبوع الطمأنينة والراحة الأبدية وأنت تتلقى من الله هذا التوحيد الموحد لجميع الرسالات السماوية، استمع بل استمتع بهطل هذا الغيث المدرار من الوحي المتواصل رحمة للناس من مصدر واحد ليجمع الأنبياء جميعًا على أمر واحد، وقد كان ذلك عبر الأجيال المتعاقبة، استمع: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وماذا أوحى إليهم في الأصل؟ أوحى إليهم التوحيد الخالص: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] عجبًا من أمة هذا قدرها العظيم الصافي من الرعاية الربانية، وتلتفت إلى غيره من الخلق التائهين الضعفاء.

٥- لا يتوقف الأمر عند استدراك الفلاسفة بعضهم على بعض، بل أيضًا تقلب غالبية الفلاسفة أنفسهم من فكر إلى آخر في أثناء حياته، واستدراكه على نفسه، كلما استجد

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص٢٨.

(٢) جورج باركلي George Berkeley (١٦٨٥- ١٧٥٣م) الموافق (١٠٩٦- ١١٦٦هـ) إيرلندي من أصل إنجليزي شخصية قيادية حتى في أثناء مراحل الدراسة يدعو إلى التخلص من فروض الماضي الزائفة من أبرز دعاة المذهب التجريبي ورفض الأفكار الفطرية من أشهر كتبه (مبادئ المعرفة البشرية): (تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص١٨٣).

(٣) الدين والعقل الحديث، ولتر ستيس، ترجمة: إمام عبدالفتاح إمام، مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٩٨م، ص٢٤٩.

له أمر أخذ به، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل، متنقلًا أحيانًا من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، وهكذا طيلة حياته، فهل من الإنصاف رهن الحقائق الوجودية والمسلمات الكونية للبشر، بهذه الأمزجة المتقلبة غير المحصنة ولا المعصومة، عندما طرح الفيلسوف البريطاني (ألفريد آير)[١] مبدأ نظرية الفلسفة الوضعية المنطقية على أساس مبدأ التثبت، بحيث يتم قبول أي افتراض نفيًا أو إثباتًا على التجربة والرياضة والمنطق، تمامًا كما هو الحال في الكيمياء والفيزياء والرياضة، فوجئ باستحالة تطبيق هذا المبدأ على العلوم الإنسانية، كالفلسفة والمنطق والأخلاق، فأقر بنفسه قائلًا: إن (الفلسفة المنطقية) التي اقترحها أصبحت مليئة بالمتناقضات، فأعلن بنفسه وفاتها في خمسينيات القرن الماضي، فهو الذي أعلن وفاتها كما أعلن ولادتها من قبل[٢].

٦- على الرغم من جهود الفلاسفة ورقي لغتهم، وثراء مصطلحاتهم، إلا أنه ينبغي ألا نكترث كثيرًا بنتاجهم الفكري ومحاولاتهم المستميتة للوصول إلى شيء من تفسير علم الوجود بعيدًا عن الوحي؛ لأنهم ببساطة لم يتجاوزوا التخمينات الافتراضية، يقول (كارل باسيز)[٣]: «الفلسفة الواحدة هي الفلسفة الخالدة التي تدور حولها كل الفلسفات، ولا أحد يملكها، وإنما يشارك فيها كل فيلسوف بنصيب، ولكنها مع ذلك لا تستطيع أن تحقق شكل بناء عقلي صادق بالنسبة إلى الجميع وصحيح

---

(١) ألفريد آير Alfred Jules Ayer(١٩١٠- ١٩٨٩م) الموافق (١٣٢٨- ١٤٠٩هـ) فيلسوف إنجليزي ورئيس نادي سقراط في جامعة أكسفورد طرح في كتابه (اللغة والحقيقة والمنطق) مفهوم الفلسفة الوضعية المنطقية التي لا تؤمن بضرورة وجود إله ولا دين ولا روح ولا نفس ولا تدين ولا إلحاد: (رحلة العقل، عمرو شريف، ص٣٧).

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٨.

(٣) كارل ياسبز karl jasper (١٨٨٣- ١٩٦٩م) الموافق (١٣٠٠- ١٣٨٨هـ) فيلسوف ألماني وجودي لا يَعدّ للفلسفة مبادئ بقدر ما يَعدّ دراسة الأفراد مجتمعة هي الفلسفة يعتقد أن الناس يحاولون تجاوز معارفهم من خلال الدين والعلم والفلسفة ولكنهم يفشلون في النه وأنهم يتعلمون من خلال الحوادث الكبيرة مثل الموت والفشل والشعور بالذنب فيدركون عجزهم:

(Encyclopaedia Britannica- karl jasper, Hans Sanner, Last Updated 62013-18-).

صحة مطلقة»[1]، ويقول (ريتشارد رورتي)[2]: «الفلسفة لا تكشف أو تساعد على اكتشاف أي شيء حقيقي عن العالم المستقل)[3]، أي عالم الغيب المجرد، ولو تأملنا أقصى ما وصل إليه الفلاسفة المعرضون عن الدين والوحي لوجدناهم يتنلقون بين ثلاثة مذاهب: مذهب الشك وأشهر فلاسفته (ديفد هيوم) الذي شك في كل شيء حوله ماعدا ذاته، وقال: إنه هو الحقيقة وما حوله أحلام تدور في تفكيره فقط! والمذهب المادي: الذي ينظر إلى أن المادة أصل كل شيء، فما كان مادة كان حقيقة وما سواها فلا، وهذا يعني إنكار ورفض الغيبيات والوحي والأديان، ومذهب وحدة الوجود الذي ينظر إلى أن الإله وحده هو الموجود، وينفي كل شيء بعده، وهذه فلسفة هندية قديمة تلخصها تلك العبارة الشهيرة التي وردت في كتابهم عن الإله بقولهم: «أنا القاتل والقتيل والسكين»! وبطلان مذهب وحدة الوجود بدهيًّا ترفضة الفطرة السليمة، وقد نسفه القرآن نسفًا في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] فشهادة الخالق حقيقة مستقلة، وشهادة المخلوقين من ملائكة وأولي العلم حقيقة أخرى مستقلة، فلا وحدة ولا اتحاد ولكن خالق ومخلوق، وعبد ومعبود.

هذه هي الفلسفة بالجملة، وإن هذه البضاعة الصاخبة من زاد الفلاسفة وجدالهم في الغيبيات وخوضهم في البدهيات، قد يرجح بهم جميعًا سلاسة فكر ذلك الأعرابي البسيط، الذي اختصر أزمة الإيمان الوجودي عنده ببساطته وعفويته الفطرية النقية، عندما سألوه عن دليله على وجود الله؟ فقال: «إن البعرة تدل على البعير، وإن الأثر يدل

(1) Two Dimensions Of Human Being In Karl Jaspers' Philosophy– Existence And Hermeneutics, A-T. Tymieniecka, Phenomenology and Existentialism in the Twenthieth Century, Analecta Husserliana Volume 105, 2010.

(٢) ريتشارد رورتي Richard Rorty (١٩٣١- ٢٠٠٧م) الموافق (١٣٥٠- ١٤٢٨هـ) فيلسوف أمريكي معاصر ولد في نيويورك وشغل كرسي الفلسفة في جامعة برنستون ثم جامعة فرجينيا من مؤلفاته (نتائج الذرائعية) و(الفلسفة ومرآة الطبيعة) عمل على تجديد الذرائعية انطلاقًا من منهج جيمس وديوي: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٣٢٦).

(3) Richard Rorty›s Philosophy and the Mirror of Nature : an existential critique, James P. Cadello, The Journal of Value Inquiry, January 1988, Volume 22, Issue 1.

على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير»! ومثله أيضًا بل أرقى منه معرفيًّا، موقف أولئك العلماء التجريبيين المتجردين أمثال (جوزيف بريستلي)[1]، الذي يقول: «هل يمكن لأحد أن يقول: إن الذي صنع العين قد يكون كائنًا يجهل علم البصريات! ولا يعرف شيئًا عن طبيعة الضوء! أو قوانين الانعطاف؟ لا بد من وجود كائن عاقل غير معلول (أي واجب الوجود دون موجد) يكون العلة الأصلية المريدة لكل موجود آخر»[2]، وعلى طريقة الاستنباط الفطري نفسها يقول (وليام بالي) في معرض حديثه عن الأدلة على وجود الذات الإلهية وصفاتها مأخوذة من مظاهر الطبيعة: «عندما نجد ساعة قابعة فوق الأرض نستنتج أن حرفيًّا ذكيًّا قد صنعها، عندما نجد حيوانات ونباتات قد صممت تصميمًا معقدًا، وتتكيف على نحو رائع ينبغي بالمثل أن نستنتج أن خالقًا قديرًا حكيمًا قد صنعها»[3].

*****

(١) جوزيف بريستلي Joseph Priestley (١٧٣٣- ١٨٠٤م) الموافق (١١٤٥- ١٢١٩هـ) عالم بريطاني لاهوتي لا يعتقد بالتثليث من أشهر كتبه (بحوث في المادة والروح) وهو عالم كيميائي متميز وهو أول من اكتشف غاز الأوكسجين هاجمه الغوغائيون لأفكاره وأحرقوا بيته ولجأ إلى أمريكا: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص١٥٦ وكذلك The Joseph Priestley House (Pennsylvania Historical & Museum Commission).

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٦٢.

(٣) داروين مترددًا، ديفد كوامن، ترجمة: مصطفى فهمي ومحمد خضر، (مرجع سابق)، ص٢٩.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

العلاقة بين الإلحاد والفلسفة





العلاقة بين الإلحاد والفلسفة

عدم الإلمام الكافي بعلم الفلسفة مع تنامي الرعب من الإلحاد ينتج عنه ربط خاطئ بين الفلسفة والإلحاد من الناحية الشكلية، غير أن هذا الربط له ما يبرره تاريخيًّا فقط، إذا علمنا أن أول ظهور للإلحاد كان على يد الفيلسوف اليوناني (ديمقريطس الأبديري) في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث كان أول من قال: إن خلق العالم جاء نتيجة للضرورة دون تدخل إله، وعلى الرغم من أن (كارل ماركس) جاء متأخرًا عنه بكثير (في القرن التاسع عشر الميلادي) إلا أنه طار فرحًا بموقف ديمقريطس، ووصفه بأنه (أول عقل موسوعي بين اليونانيين)، وقال عنه (لينين)[1]: «إنه ألمع دعاة المادية في العالم القديم»[2]، لكن هذا النوع من الإلحاد بقي محدودًا جدًّا منذ نشأته، ولم يبلغ ذروته عالميًّا إلا في عصر الشيوعية في القرن العشرين، عندما نشأت أنظمة قمعية سياسية تتبناه بقوة السلاح، وتجبر الناس بالحديد والنار والسجون على رفض الدين تحت طائلة الخيانة العظمى، لتكون عقوبة الإعدام أو الإبادة والتهجير القسري لكل من يرفضه، وعلى رأس تلك الدول الدموية كان الاتحاد السوفيتي البائد، ويمكن القول: إن الإلحاد بلغ أوج انتشاره في الفترة ما بين ١٧٨٩ و١٩٨٩م، ولم تقم له قائمة مؤسسية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ولله الحمد.

لقد نبت (الإلحاد) في أوروبا التي كانت ولا تزال حاضنة له في العالم، فقد نشأ فيها لظروف خاصة بها، ثم انتقل منها إلى بلاد المسلمين الخالية من تلك الظروف إلى حد كبير جدًّا، وانتقلت العدوى أيضًا إلى بلاد المشرق والصين وغيرها، ومن أهم أسباب ظهوره اصطدام العلم الحديث المؤيد بالتجارب والبراهين المقبولة عقلًا بالموروث الذي كان

---

(١) فلاديمير لينين Wladimir Lenin (١٨٧٠م- ١٩٢٤م) الموافق (١٢٨٧- ١٣٤٢هـ) مفكر سياسي ومؤسس الدولة البلشفية في روسيا ولد بمدينة سيمبرسك بروسيا كان جده قد تحول من اليهودية إلى النصرانية درس القضاء وتفرغ للسياسة تزعم الحزب البلشفي وتزعم الثورة الروسية عام ١٩١٧م: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٠٠) وكذلك انظر: (مدخل إلى الفلسفة السياسية، محمد وقيع الله، ص٣١٤).

(٢) مقدمة الدكتور محمد عمارة لكتاب وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٣.

يعرف بمصدر المعرفة المقدس جدًّا عند رجال الدين، المزدري جدًّا عند أهل العقول، وقد كان إلى نهاية العصور الوسطى مقصورًا على الكتاب المقدس المحرف، مضافًا إليه بعض آراء (أرسطو) و(بطليموس)(١) القديمة حول الفلك، والويل كل الويل لمن يبتدع شيئًا مخالفًا لها، فكانت الأرض عندهم ثابتة، والأجرام تدور حولها كالشمس والقمر، والعالم قد خلق عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، وستكون القيامة عام ٤٠٠٤ من الميلاد وفق حسابات خرافية أرادوا من خلالها تثبيت ميلاد المسيح ليصبح في منتصف عمر الدنيا! وأن الواسطة بين الله والناس هم رجال الكنيسة وحدهم، فهم الذين يقبلون التوبة والغفران ودخول الجنة(٢)!

هذه الحقبة المأساوية المظلمة في أوروبا الغارقة في الجهل كانت نهايتها على يد أربعة من أبرز علماء عصر النهضة، وهم (كبربيكوس(٣) الذي أثبت بالحسابات الرياضية أن الأرض تدور حول الشمس، وليس العكس، والعالم الفلكي (جالليلو)(٤) الذي باستخدام تلسكوبه الفضائي أيد ما وصل إليه كوبربيكوس، ونظر من خلال تلسكوبه إلى أفق العلم والمعرفة الجديد، فقامت قيامة الكنيسة ضدهما، واعتبرتهما سحرة ومشعوذين، فناصبتهما العداء، على الرغم من أن (جالليلو) كان مؤمنًا بالله ومعتقدًا أن الله (كتب قوانين الرياضة) بيده لدقتها على حد وصفه، لكن الضربة العلمية القاضية جاءت على يد العالم الفيزيائي الشهير (إسحاق نيوتن) الذي بقوانينه الثلاثة للحركة وقانون الجاذبية، توج قواعد العلم الحديث الذي فسر ما كان دين القوم آنذاك قاصرًا

---

(١) بطليموس Ptolemy (٨٥– ١٦٥م) عالم فلكي ورياضي وجغرافي ولد ومات بمصر ويُعدّ من أشهرعلماء التاريخ القديم كانت مفاهيمه سائدة إلى عصر القرون الوسطى: (رحلة العقل، شريف، ص١٤).

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٢.

(٣) نيكيولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus (١٤٧٢– ١٥٤٣م) الموافق (٨٧٦– ٩٥٠هـ) عالم رياضيات وطبيب وفلكي بولندي وهو أول من وضع نظرية دوران الأرض حول الشمس اتخذ من علم الفلك هو فأصبح من أعظم علماء عصره: (رحلة العقل، شريف، ص١٦).

(٤) جاللیو جاللي Galileo Galilei (١٥٦٤– ١٦٤٢م) الموافق (٩٧١– ١٠٥٢هـ) فلكي وفيلسوف ورياضي إيطالي شيد المنهج التجريبي في الفلسفة تعرض للمحاكمة عام ١٦١٦م على قوله: إن الأرض تدور حول الشمس نجا منها بسبب صداقته للكاردينال مافيو بالرباريني: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثالث، ص٩١).

جدًّا عن تفسيره، وهؤلاء الثلاثة مع (يوهانز كيبلر)[1] هم الأربعة الأكثر شهرة من البشر الذين يُعدّون مفتاح العلم الحديث، وبهذا التطور العلمي الهائل على يد أشخاص لا يحسبون على رجال الدين بدأ الناس يزهدون في الدين الموروث شيئًا فشيئًا، معجبين بالحضارة العلمية العملية مبتعدين عن هرطقة القساوسة وتحاريفهم مهما أضفوا عليها صفة التقديس حتى تجاوز هذا الشعور ليصل إلى العزوف عن الدين وكل ما له صلة به، وكان ذلك مهدًا مثاليًّا لنشوء الإلحاد فيها[2].

لقد كانت الفلسفة في بدايتها حكمًا وأخلاقًا ومواعظ عامة هادئة في عصر (سقراط وأفلاطون وأرسطو)، ولا تخلو من انسجام وتناغم إلى حد ما بين الإيمان والاعتقاد، وحتى في أوج عصرها في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، تربع على عرشها فلاسفة كبار مؤمنون بصورة عامة مثل (ديكارت)، و(مالبرانش)[3]، أما الفيلسوف الألماني (إيمانويل كانت)، فقد كان في مقدمة الفلاسفة المؤمنين في القرن الثامن عشر، وهو صاحب نظرية أن الإيمان بالغيبيات يجب أن يبنى على أساس أخلاقي، وليس على أساس حسي فقط، بل هو مبتكر مفهوم التعالي فوق أي تجربة ممكنة (Transcendentalism) ويعني بذلك ارتقاء الوعي بالسلم المعرفي متخطيًا كل تجربة ومفهوم قبلي[4].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفلاسفة على الرغم من تباين آرائهم، هم من أكثر الناس عرضة للتشويه والإحراق غير المنصف أحيانًا من قبل عامة الناس وأحبارهم ورهبانهم لما يبتدعونه عادة من جديد على الأعراف المألوفة، وما يطرحونه من رأي

(١) يوهانز كيبلر Johannes Kepler (١٥٧١- ١٦٣٠م) الموافق (٩٧٩- ١٠٣٩هـ) عالم رياضيات وفلكي ألماني ومن أشهر من أسهم في الثورة العلمية الفلكية في القرن السابع عشر الميلادي:

(The scientific Revolution, Johannes Kepler,The war on Mars, Cameron & Stinner, Page 4).

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٥.

(٣) مالبرانش Nicolas Malebranche (١٦٣٨- ١٧١٥م) الموافق (١٠٤٧- ١١٢٧هـ) فيلسوف فرنسي صوفي متدين من أنصار رينيه ديكارت اتخذ من القديس أوغسطين أستاذه الأكبر من أشهر كتبه (البحث عن الحقيقة): (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٤٢٩).

(٤) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١٤١.

شجاع ليس بالضرورة أن يكون محل تقبل من الناس، وخاصة أصحاب المصالح الذين يشعرون بتهديد مباشر من وقع أفكار الفلاسفة التي تدعو إلى العدل والمساواة والحريات واسترداد الحقوق من مخالب الإقطاعيين ورجال الدين المستأثرين بكل شيء دون سواد الناس.

أما ربط الفلسفة بالإلحاد من الناحية الموضوعية فهو غير صحيح على إطلاقه، مع التسليم بوجود علم الفلسفة كعلم قائم بذاته وله رواده عبر التاريخ، لكن الفلسفة بوصفها علمًا متكاملًا ليست بيئة للإلحاد الذي لم يكن أبدًا نتيجة التعمق بعلم المنطق وعلم الكلام، لكن قليل الفلسفة يؤدي إلى اضطرابات وشكوك قد تؤدي أحيانًا إلى الإلحاد، ولقد أصاب الفيلسوف الإنجليزي (فرانسيس بيكون) كبد الحقيقة عندما قال: «إن جرعة ضئيلة من الفلسفة قد تميل بذهن الإنسان الى الإلحاد، غير أن التعمق في دراسة الفلسفة يلقي بالإنسان في أحضان اليقين»[1]، ويقول أبوحامد الغزالي: «ليتبين لهؤلاء الملاحدة المقلدين اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر، لم يذهب إلى إنكارهما إلا شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة، ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليدًا يدل على حسن رأيه، إذ يتحقق أن هؤلاء الذين يتشبه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم براء مما قذفوا به من جحد الشرائع، وأنهم مؤمنون بالله ومصدقون برسله، وأنهم اختبطوا في تفاصيل ما بعد هذه الأصول)[2].

*****

الإلحاد دخيل على الفلسفة

لو تتبعنا جذور الإلحاد لوجدناه توجهًا هامشيًّا طارئًا على الخط الفلسفي العام، ولم يكد يذكر حتى ترعرع في القرن الثامن عشر الميلادي، في وقت أفول نجم الفلسفة وطغيان رجال الدين المتحالفين مع الإقطاعيين لنهب لقمة عيش الناس، والحقيقة أن

---

(١) ملاحدة من بلدي! محمد العوضي منتدى التوحيد قسم الحوار عن الإسلام الشبكة العنكبوتية.

(٢) تهافت الفلاسفة، الغزالي، (مرجع سابق)، ص١٢.

الإلحاد مرتبط بالخرافة والأساطير المزورة، والنفور من الدين في أوروبا، فهو في واقع الأمر نفور من الخرافة والدجل، وليس نفورًا من الدين الصحيح المغيب أصلًا، حتى قال إيبقور[١] (زعيم الإيبقوريين)[٢]: «إن عدم الإيمان بالدين المألوف والمعتقدات الدينية، أسلم بكثير من الإيمان بها»[٣]، وكل من جادل ملحدًا أدرك أن الإلحاد يُوجد عند استبدال صوت العقل بالمشاهدة فقط، يقول عباس العقاد: «أنا لكي ألحد، يجب أن أقوم بإلغاء عقلي»، وقال (ستروبل)[٤] الملحد سابقًا: «أدركت أساسًا أنه لكي أظل ملحدًا يجب أن أومن أن لا شيء ينتج كل شيء، العدم يعطي الحياة، العشوائية تنتج الدقة، الفوضى تنتج المعرفة، اللاوعي ينتج الوعي، اللامنطق ينتج المنطق، هذه الخطوات الإيمانية كانت كبيرة بالنسبة إلي خاصة في ضوء القضية المؤكدة لوجود الله»[٥]، فيا ليت قومهم يعلمون.

إن نظرة عابرة في تاريخ الفيلسوف (أوجست كونت)، بوصفه أشهر ملحد في القرن التاسع عشر ومن أشد الناس نفورًا من الدين، تكشف أنه نشأ في مرحلة عزوف أوروبا عن اللاهوت والميتافيزيقيا والفلسفة، وانغماسها بالعلم التجريبي ومنهجيته، ولم يدم عزوف (كونت) عن الأديان طويلًا، فقد أنهكه الفراغ الروحي، وبحث في نهاية حياته عن دين ليعتنقه، فابتكر دينًا توافقيًّا أطلق عليه (دين الإنسانية)، أي إنه لجأ إلى

---

(١) إيبقور Epicurus (٣٤١ ق. م- ٢٧٠ ق. م) فيلسوف اللذة يراها غ الحياة السعيدة هاجر إلى أثينا واستقر فيها عرفت مدرسته فيما بعد بالإيبوقورية: (أشهر فلاسفة التاريخ، مجدي كامل، ص٥٥).

(٢) الإيبقورية: تعني الفلسفة والتصوف وهي مذهب أسسه الفيلسوف اليوناني إبيقورس ٢٧٠ ق. م وهي مذهب مادي يتخذ اللذة هدفًا أعلى للحياة السعيدة وقبل كل شيء اللذة الروحية العقلية اعتمادًا على المنطق والعلم الطبيعي: (الأخلاق الإيبقورية وأثرها في الفكر الأخلاقي المعاصر، علي عرعور، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤م، ص٥- ١٠).

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٨٥.

(٤) لي ستروبل Lee Strobel (١٩٥٢م) صحفي معاصر يعمل في قسم التحقيقات في صحيفة (شيكاجو تريبون) قرر أن يثبت بالأدلة القانونية أن جميع ما ورد عن المسيحية لم يتم إثباته في محكمة قط ومن ثم فهو باطل لكن هذا العمل قاده إلى الإيمان بالله ومن أشهر كتبه (القضية: الإيمان، ترجمة: حنا يوسف): (The Case for Faith, Lee Strobel, The Mininature Edition, 2000).

(٥) من مقال كتبه ستروبل على الشبكة العنكبوتية بعنوان: (هل توجد حجة تثبت وجود الله؟).

مكنون فطرته بعد أن تجاوز مراهقته وشبابه، وكما هو الحال مع كل ملحد عبر التاريخ، كان (كونت) على الرغم من شهرته بعداء الأديان وإنكارها، إلا أنه يرفض بشدة أن يوصف بالملحد! وقد صرح بذلك في أكثر من رسالة بعث بها إلى صديقه (جون ستيوارت مل)، يعتقد (كونت) بضرورة التدين للإنسان، واستحالة استقراره الكينوني النفسي من دون الدين، ما يؤكد أن نزعة العداء للدين عند بعض الفلاسفة سببها تسلط رجال الدين وإظهاره بما يتناقض مع جوهره النقي وليس ضد الدين نفسه، وتجب الإشارة إلى ذلك الموقف الذي يظهر به (كونت) نفسه إذا مر على ذكر دين الإسلام، يضفي عليه عبارات الإطراء؛ لكون الإسلام النظري - من وجهة نظره - قريبًا من الممارسة العملية في العدل والكرامة، خلاف ما كان عليه الانفصال شبه التام بين الدين النظري وممارسة رجال الدين عند أهل الكتاب في أوروبا في تلك المرحلة[1].

هذا إضافة إلى أن (كونت) الرافض للأديان، اصطدم أيضًا بعلماء التاريخ والأنثروبيولجيا الذين لم يجدوا انفكاكًا واضحًا بين الإنسان والتدين على مر التاريخ، يقول المؤرخ الإغريقي (بلوتارخ)[2]: «لقد وُجِدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور.. ومدن بلا مدارس.. ولكن لم تُوجَد أبدًا مدن بلا معابد)، وقد أكد المؤرخ

---

(١) يقول المؤرخ التركى (مراد إن): «إن (أوغست كونت) كان يطعن في الإسلام وأهله متأثرًا بروح التعصب الديني وبعد أن زار الأندلس ووقف أمام آثار المسلمين فيها انتقل إلى روما وعكف على بعض الكتب التي تعرف بالإسلام والمسلمين فقرأها. وكان في مقدمة ما لفت نظره أمية الرسول ﷺ وعدم معرفته القراءة والكتابة. وكثيرًا ما كان يتساءل: كيف يتاح لمن عاش في الصحارى ولم يدرس أو يقرأ أو يكتب أن ينشئ مثل هذه الشريعة الإسلامية التي لا تماثلها شريعة في أحكامها وفلسفتها؟ وقد اجتمع (بالبابا بيوس) التاسع وسأله عن رأيه وقال له: أصحيح أن محمدًا كان أميًّا كما يدعي المسلمون وتذكر كتب التاريخ لا يعرف القراءة والكتابة؟ فأجابه البابا: نعم، إنه كان أميًّا. فعند ذلك لطم (أوغست كونت) وجهه قال: واخجلاه منك يا محمد، إنني ظلمتك! فالويل لك يا أوغست... إلا أنني أقر وأعترف بأن محمدًا أصغر من إله ولكنه على كل حال أسمى من البشر. نعم، إنه من البشر، ولكنه أسمى وأكمل من البشر).

(٢) لوقيوس بلوتارخ Lucius Mestrius Plutarchus (٦٤- ١٢٠م) مؤرخ إغريقي نباتي كتب عن ذكاء الحيوانات وحقوقها وتجنب أكل لحومها:

(Encyclopaedia Britannica- Plutarch (Greek biographer), Frank W. Walbank, Last Updated 62014-1-).

والمفكر الشهير (وول ديورانت) تجذر النزعة الدينية عند الشعوب، فقال: «ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعم البشر جميعًا اعتقادًا سليمًا»[1].

أما إذا وجد فيلسوف (ملحد) فمن الصعب تعميم حالته وإخضاع الوجود كله لتقلبات فكر إنسان متذبذب مثل (كونت) الذي بدأ طريقه الفلسفي بالإنكار، وانتهى بالإقرار المحور مكابرة، فضلًا على إضفاء صفة الفلسفة عليه، التي لا تعطيه تحصينًا ولا عصمة من النقد والاستدراك، أما حقيقة تاريخ الإلحاد وحال الملحدين فيحتاج إلى إعادة تقييم بموضوعية على ضوء مقولة (موريس بلوندل)[2] التي قال فيها: «ليس هناك ملحدون بمعنى الكلمة»، واعتراف عالم الفيزياء (هيو روس)[3] بدور العلم في إثبات الإيمان وحشر الأفكار الفلسفية المجردة في زاويتها، إذ يقول: «عندما أبحث عن إلحادي لأناقشه أذهب إلى قسم الفلسفة في الجامعة؛ لأنه لم يبقَ في علم الفيزياء شيء يدل عليه»[4].

ومن عجائب النفس البشرية وقوة التحدي الوجودي لها أن يتشابه كبار الفلاسفة مع صغار الأطفال من حيث نوعية الاستفسارات الأولية عن الوجود وما بعده، ففي الوقت الذي يمضي الفيلسوف عمره كادحًا منقبًا عن الحقيقة، فينقضي أجله دون أن يتذوق نعيم اليقين والاستسلام الذي أبداه ذلك الطفل عندما سأل سؤالًا فطريًّا، فجاءه الجواب فطريًّا، بأن (الأمر كله لله)، فصدق وارتاح وانصرف لحياته وشأنه، ما يعني قوة التأصيل الديني الفطري لدى الإنسان، وعجزه أن يأتي ببديل عنه وعن خبر الوحي، إنها الحقيقة الناصعة الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار على الرغم من أنف المكابرين.

*****

---

(١) قصة الحضارة، وول ديورانت، الجزء الأول، ص٩٩.

(٢) موريس بلوندل Blondel Maurice (١٨٦١ - ١٩٤٩م) الموافق (١٢٧٧ - ١٣٦٨هـ) فيلسوف فرنسي من أسرة كاثوليكية له مؤلفات كثيرة من أبرزها حول مقتضيات الفكر المعاصر في المنافحة والوهمي المثالي والمبدأ الأول للحياة الأخلاقية والتاريخ والعقيدة:

(Encyclopaedia Britannica-Blondel Maurice The Editors of Encyclopædia Britannica. Last Updated 122014-18-).

(٣) هيو روس Hugh Ross (١٩٤٥م) عالم فلكي وفيزيائي من أصل كندي عاش في أمريكا الشمالية ودرس في جامعة تورنتو وله إبحاث في الوجود واللاهوت من أشهر مؤلفاته: (العلم الحديث والإيمان) (أسباب تجعلنا نعتقد من نحن).

(4) The Creator and the Cosmos. Hugh Ross, Colorado Springs, Co: Nav Press, 1993, page, 132.

الدين والعلم والفلسفة

يبقى الدين السماوي الصحيح في القمة دائمًا؛ لأنه رسالة الخالق، يليه العلم الذي يلامس حياة الناس، ويخدمهم والذي يُعدّ فرعًا من الخطاب الرباني للمخلوقين، ويصعب ربط الحقائق الدينية والعلمية الراسخة رسوخ الجبال بأفكار الفلاسفة التي كثيرًا ما نجدها تتقلب وتتغير، وقد تختفي وكأنها سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، عندما تصطدم بصلابة المبادئ الراسخة في القرآن الكريم وثباتها، حيث لم تكن بلاد المسلمين تعاني حدة العطش المعرفي الذي أصاب أوروبا مع غياب المرجع الروحي الصحيح فيها، وذلك لبركة دين الإسلام الذي جاء ملامسًا لكل جانب من جوانب حياة الإنسان، مشجعًا للعلماء، آمرًا بطلب العلم، غير أن التقليد الغرائزي أوقع مفكري العرب في فخ التقليد الأعمى تجاه الفلسفة وعلم الكلام.

لقد كانت خطيئة فلاسفة المسلمين أنهم لم يعرفوا قدر نعمة إيمانهم الفطري الصامد والمنبثق من منابع الوحي الصافية الشافية أمام تقلبات الفلسفة البشرية، ولم يقدّروا نعمة وجود كلام الله بين أيديهم معصومًا محفوظًا، حيث قاموا بترجمة تلك الآراء الفلسفية بملابساتها المبنية في غالب الأحيان على أوضاع متأزمة فكريًّا كما أسلفنا، التي لها مناخها وبيئتها الخاصة بها، والتي تختلف جذريًّا عن ملابسات عالمنا الإسلامي القائم أصلًا على صفاء وحي تشربته القلوب والعقول، واطمأنت إليه النفوس، وزاد الأمر تعقيدًا أنهم اعتبروا هذه الترجمة هي أساس الفلسفة الإسلامية وعلم الاجتماع، معتمدين على التراث المعرفي المعتبر لفترة ما قبل نزول الوحي، ولعل هذا التقليد الخاطئ داخلٌ فيما أخبر عنه رسول الله ﷺ، حين قال: «**لتتبعن سَنَن من كان قبلكم ، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم،** قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**»[1].

كان الأولى لأمة الإسلام استقلال مدارسها الفلسفية عن تلك الموروثة عن غيرهم، لاختلاف الأسباب والدوافع والبيئة، وأن يؤسسوها على تلك المنطلقات الجميلة التي

(١) الحديث رواه البخاري (٧٣٢٠) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تفضل الله بها عليهم من موروث فكري معرفي صافٍ جاء به الوحي، ونزل على قلوب الصحابة نزول المطر الزلال، وكأنه نزل على جنة بربوة من النقاء الفطري، فآتت أكلها ضعفين، لقد كانت مخرجات الوحي صافية كصفائه، ومستقرة كاستقراره، وهذا هو سر وجود تلك القصص الرائعة جدًّا التي نقرؤها عن حياة الصحابة المكتنزة بمثاليات سامية لا نكاد نصدقها أحيانًا من قوة صدق أقوالهم وأفعالهم وإيمانهم بالله وثقتهم باليوم الموعود بعد النشور، إنه النقاء الفطري عندما يلامسه كلام الله، فيقدح النور منه كما تقدح الزناد، فينبثق النور مضيئًا، وما أحوج شباب الإسلام لهذا النور العظيم بعد أن وجدوا أنفسهم ضحية جهلهم بهذه المعادلة الفطرية البسيطة، وجفاء المجتمع لهم وتركهم يخوضون غمار الفكر وحدهم، فران على القلوب غشاء من الوساوس الوافدة، وزاغ البصر عن اليقين، وظن المرء ظن السوء بدينه، وامتد ذلك الظن إلى رسوله، بل وإلى ربه في بعض الأحيان، ومن هذا يتضح أن الشك والإلحاد دخيلان على بيئة المسلمين، غريبان عنها، وليس مستحيلًا على العقلاء الانفكاك عنهما وغسلهما بطهور اليقين والإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

*****

آراء الفلاسفة في الوجود

سنظل نكرر دون ملل ولا كلل أن الإيمان بالغيب ومعرفة ما وراء الطبيعة لا يمكن أن يتحقق إلا من مصدريه الحقيقيين الوحي والفطرة، وأن ما نقتبسه من بعض أقوال الفلاسفة والمفكرين من أقوال مطابقة، إنما هو من باب الإخبار عنها ورصدها والاستئناس بها، للرد على من يزعمون خلاف ذلك، وليس للاستعانة بها لتثبيت إيمانٍ قد منّ الله به علينا، فثقتنا بخالقنا وبكلامه الذي بين يدينا اليوم أكبر من أن نحتاج معه إلى قصص البشر وفلسفتهم مهما بلغوا من العلم، ولو كفروا كلهم ما حرك ذلك شيئًا في ميزان المؤمن الواثق بخالقه، وإلا فأين فلاسفة الماضي كلهم صالحهم وطالحهم، لقد بادوا بعد أن سادوا، وأشدهم وطأة على الدين والحق، لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا لما أدركه الموت، كأني أنظر الآن إلى رفات الفيلسوف الألماني (نيتشه)، وقد اختلط

بالتراب، واختفت كل معالم شخصيته، لا يدلنا عليه إلا ربما مَعْلَم خرساني باقٍ على سطح الأرض هذا إن وجد، ولو ضاع المعلم لضاع أثر (نيتشه) على كوكب الأرض قاطبة، واندثر رفاته المزعج إلى الأبد، وهو ممن كانوا ينكرون وجود الخالق.

نحن لا نسخر من الموت أبدًا، وجميع الخلق يموتون بقدر الله وتقديره، ولكن من حقنا بوصفنا مؤمنين واثقين بربنا أن ننظر إلى رفات (نيتشه) اليوم ساخرين من أفكاره الباطلة في حياته، ولسان الحال يقول: أحقًّا هذا هو الرجل الذي أطلق يومًا ما عبارته المدوية في أوروبا حينها، يوم أن قال: «هل مات الإله»[1]! فما الذي حصل؟ لقد مات (نيتشه)! ومات كل أهل الأرض في عصره صالحهم وطالحهم، ومات الأولون من قبلهم، وسيموت الآخرون من بعدهم، وخالق الكون حي قيوم قبل (نيتشه) وبعده، وذلك أن الموت بحد ذاته ما هو إلا موجود من الموجودات الخاضعة للخالق، فلا بد أن يكون من أوجده قادرًا عليه، وأمكن منه فلا يصيبه، فهو الحي الذي لا يموت والخلق كلهم يموتون! والكون قائم وكله تابع لموجده وخالقه، هكذا كانت جرأة بعض فلاسفة الغرب على الله، ولكن انظر إلى حالهم في نهاية المطاف.

ولقد كان من يطلق عليهم (ملاحدة المسلمين) أقل جرأة من أقرانهم الغربيين، وذلك لهيبة الوحي المحفوظ من التحريف، وتمكنه من العقول الباطنة عند المسلمين، ويخافون على أنفسهم من غيرة الغيارى، فاكتفوا بقولهم بالتشكيك في النبوة والأنبياء، فكانت عبارتهم أخف نوعًا ما، فقالوا: «لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء»، فما الذي حدث لهم أيضًا؟ هم الآخرون ماتوا، ومات ذكرهم وفكرهم، ومات أهل الأرض في عصرهم، والأنبياء قد خلد الله ذكرهم ورسالاتهم باقية في أعماق الماضي والحاضر والمستقبل، تلقاها الناس بالقبول، وجعل الله لهم لسان صدق في الآخِرين! ولا عجب، فإن في الوجود إلهًا حكيمًا يدبره ويقدره، وسواء آمن الناس به أم كفروا، تكلم الفلاسفة أم صمتوا، وحتى قبل نزول الوحي واصطفاء الأنبياء، فالعقول السليمة تدرك يقينًا وعلى مر التاريخ أن وراء هذا الكون خالقًا عظيمًا يخلق ولا يُخلق، ويَقدر ولا يُقدر عليه، ويُحيط ولا يُحاط به، ولا تدركه الأبصار، ولا تتصوره العقول، ضرورة هذا الوجود

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٢٠.

تقتضي أن يكون هذا الخالق أزليًّا باقيًا حيًّا لا يموت ولا ينام، إنه الله الذي أخبرنا عن نفسه، فصمت بعده كل مخلوق.

تبيان هذا الحق المبين هدف بحد ذاته، وليس علينا هداية من لم يكن في أيدينا قدرًا أن نهديه، بل يهديه خالقه فقد أوضحنا أنه يجب على العاقل الإيمان بالله حتى لو لم يؤمن معه أحد، فالإيمان بالخالق العظيم الحي القيوم الباقي، هدفٌ يقيني يجب أن يستقر في قلب كل مخلوق بصدق بينه وبين ربه، وليس مداراة للخلق الضعفاء البائدين، ويتحقق ذلك إما بتصديق خبر السماء، أو بفهم آيات الخالق في الوجود، ولو اقتبسنا بعض مواقف وأقوال أشهر فلاسفة الغرب وفلاسفة المسلمين عن الوجود، لوجدناها تدحض وبقوة دعوى المبطلين من ذوي النفوس الواهمة بأن هناك ما يمكن إخفاؤه، أو أنهم بعيدون كل البعد عن الإيمان الفطري، الذي لم يجدوا عنه محيصًا.

لقد بلغ التدليس والكذب عند بعض دعاة الإلحاد إلى الترويج بإيهام الناس أن غالبية الفلاسفة والعلماء ملحدون، وأن الذي قادهم إلى هذا الإلحاد هو عقولهم النيرة وتحررهم الفكري من قيود الموروث الاجتماعي من دين وعادات وتقاليد، وأن الذي أبقى المؤمنين على إيمانهم، هو سذاجتهم وسطحيتهم وإيمانهم بالخرافة، ونفورهم من العلم! وهذا كله محض افتراء وكذب واستخفاف بالعقول السليمة، فإن ما قاله أعظم فلاسفة التاريخ وعلمائه عن الوجود، لا يتعارض البتة مع ما جاء به الوحي منذ أبينا آدم إلى خاتم الأنبياء، وكلها تؤكد الحقيقة المطلقة التي حسمتها هذه الآية الكريمة: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

وعند استقراء تاريخ الفلسفة، يتضح جليًّا أنه كلما ابتعد الإنسان عن الفطرة والوحي، واعتمد على العقل وحده، اضطرب في فكره، وتقلب في حياته يمينًا وشمالًا بمجرد أن يلامس قضايا الغيب والأزل والمستقبل، التي لا خبر عنها إلا من الوحي وحده، وكلما جمع بين الوحي والفطرة فيما يمكن الجمع فيه، وتوقف حيث تمضي الفلسفة إلى المتاهة الفكرية، استرشد الطريق، واقترب من الحقيقة، ولا يفوت التنويه هنا أن أول ضال قدم العقل المجرد على النص المقدس هو إبليس، عندما رفض السجود لآدم

رافضًا أمر الله، مبررًا موقفه بمنطقه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] بينما السجود المأمور به لم يكن لذات آدم ولا للطين، بل كان طاعة للواحد الخلاق الذي خلق كل ذلك، وقدره تقديرًا، علمًا أن إبليس لم ينكر ربه، بل تمرد وفسق عن أمر ربه وعصاه.

إننا نسعى بقدر الاستطاعة لترسيخ الإيمان الصادق، بحيث يكون المؤمن مستحضرًا دائمًا لعظمة ربه الذي خلقه، وجعل أمره كله إليه، وأن يكون معتزًّا بإيمانه رافعًا رأسه، شامخًا بفكره وعقيدته يقظًا من أن يمرر عليه تدليس وخداع بعض مروجي الإلحاد عندما يلفقون الحقائق ويزورنها لخدمة مآربهم الدنيئة، فيزعمون – مثلًا – أن مشاهير علماء النهضة العلمية ورواد الحضارة والرقي كانوا ملحدين، والحقيقة أن تمسك أولئك العلماء بإيمانهم في فترة ما بعد العصور الوسطى، يُعدّ في حد ذاته انتصارًا كبيرًا للإيمان وصمودًا أسطوريًّا أمام دوافع الإلحاد والتنكر للدين، لقد كان الإلحاد متوقعًا في تلك الحقبة لتعارض الدين المحرف مع المعقول المبرهن، وانحرافه عن المنقول بالوحي الصحيح، ومع هذا نرى الإيمان بوجود الله ملازمًا لأشهر عظماء النهضة أمثال (نيوتن، وجاليليو، وبسكال، وبويل، وفاراداي، ومندل، وباستير، وماكسويل، وأينشتاين، وماكس بلانك، وهزنبرج، وروجر سبيري، وشرودنجر، ولول ديبراك، وتشالز شرنجتون)[١]، وغيرهم والفلاسفة الأكثر شهرة في عصر اليونان (سقراط وأفلاطون وأرسطو) كانوا أيضًا من المؤمنين بوجود الإله الخالق للكون أصلًا على اختلاف تصوراتهم عنه[٢]، وذلك لأن العلم والدين الحق لا يتعارضان أبدًا، ولكن العلم المتطور والمتغير لا يحيط بكل ما ورد في الوحي الراسخ، بينما الفهم القاصر للدين، أو تسخيره لأغراض دنيوية، هو الذي يعادي القيم والعلوم، ويظهر هذا النفور الظاهري من الدين، وهذا ما جعل للفلاسفة من مختلف الأديان وجودًا ملحوظًا بآرائهم على الرغم من اختلافها، وسنعرض فيما يلي أمثلة على ذلك من المسلمين وغيرالمسلمين.

*****

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٥٨.

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٥٩.

أولًا: الفلاسفة من غير المسلمين

فلاسفة مؤمنون بوجود الله

هناك قوى شيطانية كامنة في المجتمع الإنساني تبذل المستحيل من الجهود لإخفاء حقيقة أن غالبية العلماء والفلاسفة من غير المسلمين قديمًا وحديثًا، قد حكّموا عقولهم وأقروا بالحقيقة، وسطروا بعض العبارات المنسجمة مع فطرة الإنسان بما لا يخدم هوى دعاة الإلحاد، حتى وإن بذلوا كل ما في وسعهم لإخفاء هذه الحقائق واستغلال جهل الناس بتفاصيل مواقف الفلاسفة، لينسبوا إلى بعض المشاهير خلاف ما كانوا عليه من الإيمان بوجود الله، طمعًا في الاستقواء بأسمائهم الثقيلة على باطل الإلحاد الزائف، يتهمون العالم (ألبرت أينشتاين) بالإلحاد مثلًا دونما برهان، ويتعمدون إخفاء مقالاته الإيمانية الموثقة التي تكاد تجمع على الإشارة إلى وجود الله تلميحًا وتصريحًا، كقوله: «يدرك كل إنسان يهتم بالعلم بصورة جادة، أن قوانين الطبيعة تعكس وجود روح كلي أسمى كثيرًا من الإنسان»[1]، وقوله في كتابه (العالم كما أراه): «يكشف القانون الطبيعي ذكاء أو قوة عاقلة فائقة يُعدّ تفكير الإنسان المنظم وفعله بالقياس إليها ضئيلًا لا شأن له»[2]، وعن سبق إصرار وترصد ظالم لا يريدون الناس أن تسمع ما قاله عالم الكيمياء (ملفن كالفن)[3] إن: «هذا الانتظام الدقيق بالكون، ودقة قوانينه، وتناغمها وانتظامها وقابليتها للفهم العلمي من الإنسان، يرجع إلى وجود الإله الذي أنشأه»، علمًا أنه لم يقف عند هذا، بل يقرر (كالفن) ضرورة أن يكون لهذا الوجود خالق فيقول: «وجود

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٤٩.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٦٨.

(٣) ملفن كالفن Melvin Calvin (١٩١١- ١٩٩٧م) الموافق (١٣٢٩- ١٤١٨هـ) عالم كيميائي أمريكي كبير ومهتم بعلوم الحياة والأرض ولد في مدينة سانت باول ول مينيسوتا الأمريكية نال جائزة نوبل في الكيمياء وذلك لدراسته الكبيرة والمشهورة التي تفسر كيف تتم إحدى أعقد معجزات الله في خلقه عملية البناء الضوئي لدى النبات Photosynthesis (Encyclopaedia Britannica- Melvin Calvin, George B.: Kauffman).

أكثر من إله في إدارة الكون، سيؤدي حتمًا إلى إنهياره»، وقبل أن يخلق كالفن بأكثر من ألف عام، كان القرآن ينزل على رسول أمي لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يعرف الفلك ولا الجغرافيا ليبلغ الناس بأن الله يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قد لا تحتاج إلى ما قاله (كالفن) وغيره من المشاهير حتى يطمئن قلبك بالإيمان، بل يكفي أن تفهم هذه البديهة المنطقية البسيطة، بأن تسلسل (العلل)[١] و(المعلولات)[٢] يستحيل أن يتواصل إلى ما لا نهاية، يعني لأنه بمجرد اقتناعك أن لكل موجود علة لوجوده، وسبب لوجوده، ستستمر بتسلسل العلل إلى أن تصل إلى ما يسمى عند الفلاسفة (العلة الأولى)، وهذا يعني أنه مهما طالت الأسباب والعلل، فلا بد من الوصول إلى (شيء) لا علة له و(سبب) لا مسبب له، ولو تأملت لوجدت أن المنطق يضطرب بمجرد اقترابنا من التفكير في ذات الخالق، فكيف تسأل عن موجد من تصفه بأنه واجب الوجود، فواجب الوجود لا يحتاج إلى موجد، وإلا لأصبح ممكن الوجود مثل جميع المخلوقات، وكذلك الحال عند لفظك كلمة (الخالق) يجعل سؤالك عمن خلقه في غاية البطلان المنطقي، فكيف تسأل عمن خلقه وأنت تسميه خالقًا؟

عندما أوغل اليونان القدماء في الشرك، وتعددت آلهتهم، لم يطمئنوا أبدًا إلى تعدد تلك الآلهة، وكان الأمر بالنسبة إليهم صادمًا للفطرة، فقرروا اتخاذ كبير الآلهة، وأطلقوا عليه اسم (زيوس)! قائلين: إن الكون لا يستقيم مع فوضى الآلهة المتعددة، وحتى (زيوس) لم يجدوا فيه ما يروي عطشهم الفطري، فاهتدوا إلى فكرة أرقى مفادها أنه لا بد من قدر كوني يهيمن على أعمال جميع الآلهة المتناثرة حتى تتحقق الوحدة الكونية التي لا تتحقق من دونه[٣]، أرأيت كيف (تقاتل) فطرهم السليمة من أجل إنقاذهم

---

(١) العلة: هي ما يؤثر في غيره كالكاتب بالنسبة إلى الكتابة والخباز بالنسبة إلى الخبزة والنجار بالنسبة إلى الطاولة.

(٢) المعلول: هو الأثر الحادث عن العلة كالكتابة بالنسبة إلى الكاتب والخبزة بالنسبة إلى الخباز والطاولة بالنسبة إلى النجار.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٢٣٦.

من الشرك؟ يقول (أفلوطين)[1]: «إن هذا العالم كثير الظواهر، دائم التغير، فلا يمكن أن يكون أوجد نفسه، بل لا بد من خالق مبدع، وهذا الخالق هو الله، وهو واحد أزلي أبدي قائم بنفسه، وهو موجد المادة»[2]، وكان (الرواقيون)[3] في عصر اليونان هم أول من أشار إلى الأفكار الفطرية التي يولد عليها الإنسان، ووافقهم عليها (ديكارت) في العصر الحديث، وعلى الرغم من أن (لوك)[4] أنكر ظاهريًّا تلك الأفكار الفطرية، وقال: إن «العقل يولد صحيفة بيضاء يأخذ أفكاره من التجربة»، إلا أنه تراجع في نهاية حياته كما يتراجع كثير من الفلاسفة عن آرائهم، وقال: إنه يتفق مع (ديكارت) في الجانب التجريبي بما في ذلك إثبات الوجود عن طريق التأملات العقلية[5] التي من خلالها يريد التوصل إلى الإيمان بوجود الله، فيقول: «أما البرهان على وجود الله، فهو أن الموجود الحادث الذي هو أنا، يستلزم موجودًا سرمديًّا كلي القدرة وعاقلًا أيضًا، من حيث إنه خلق عقلي وخلق المادة ونفسي، وهذا برهان على وجود الله دون الحاجة إلى معنى غريزي»[6]، ويلاحظ أنه على الرغم من إنكاره للأفكار الفطرية إلا أنه يرجع إليها بقوله: «إن عقولنا تجهل الكُنهَ، ولا تدرك سوى الظواهر»، وسبب رفضه للمعنى الغريزي الفطري، هو اعتقاده أنه إن وجد عند العامة فهو مشبع بالتشبيه القاصر، ولا يطابق حقيقة الله ذي الكمال المطلق.

---

(١) أفلوطين Plotinus (٢٠٤- ٢٧٠م) فيلسوف يوناني ويُعدّ المفكر الممثل لفكر القرن الثالث كان مصريًّا بدمه إسكندرانيًّا بفلسفته يونانيًّا بمدرسته كان يتحفظ في الكلام عن أهله ولا يأكل لحمًا قط وهو صاحب نظرية الفيض التي تفترض أن المخلوقات تفيض من الإله: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٧٦).

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٥١.

(٣) الرواقية: مدرسة فلسفية تقوم على الفضيلة والجبرية الكونية والحرية الإنسانية دون أثر للمصادفة أسسها (زينون) في أثينا في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد: (تاريخ الفلسفة، برتراند رسل، الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، ترجمة: زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٣٩٣).

(٤) جون لوك John Locke (١٦٣٢- ١٧٠٤م) الموافق (١٠٤١- ١١١٦هـ) فيلسوف إنجليزي ولد بالقرب من بريستول يؤمن بالأفكار الحرة التجريبية وينكر الأفكار الفطرية مارس التجريب العلمي حتى لقب باسم دكتور لوك يُعدّ من دعاة فلسفة التسامح في أوروبا: (موسوعة الفلسفة، بدوي، ص٣٧٣).

(٥) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٧٢.

(٦) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص١٤٩.

وهذا أشهر الفلاسفة (أرسطو) مبتكر علم المنطق، وصاحب لقب المعلم الأول، يقول: «الله سبب وناموس الأشياء الموجودة وترتيبها، وحياة هذا الناموس ليست حياة دائمة لا أول لها ولا آخر فقط، بل أيضًا على غاية الفضيلة»[١]، ويقول أستاذه (أفلاطون): «إن الخطأ الأكبر الذي يرتكبه الناس، إنما مصدره واحد من اثنين، إما تصوير الإله بصورة لا تتفق مع ألوهيته ونسبة أمور إليه لا يمكن أن تصدر عنه، وإما أن يكون مصدر ذلك إنكار الإله والإلحاد»[٢]، ومع حيرة أفلاطون في تعدد الآلهة، إلا أنه يؤكد أنه مهما تعددت، فليست مشابهة أبدًا للإله الأعلى الأوحد، سبحان الله كأنه يقرأ آية الشورى في علو صفات الخالق: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] أما الفيلسوف (أوغسطين)[٣] فيقر بأنه لم يتوصل إلى الإيمان عن طريق البراهين العقلية، بل شعر بأن هناك قوة خفية هي التي اقتادته من دنيا الشهوات الى عالم الإيمان، مؤكدًا ضرورة الإيمان بالله دون برهان حسي، ويقول: إن الإنسان لا يمكن له إنكار وجود الله، لكنه يؤكد على استحالة إدراك ماهيته[٤].

وعلى الرغم من اعتبار (سبينوزا)[٥] من فلاسفة الإلحاد عند بعض مروجي الإلحاد، إلا أنه كان يحاول مستميتًا الوصول إلى الإيمان الصحيح بعد أن اشمأز من الطقوس الدينية المحرفة عند قومه، وضجر من خوائها الروحي، لقد قال (سبينوزا)

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص١٠٤.

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص١٨٧.

(٣) أوغسطين Aurelius Augustinus (٣٥٤- ٤٣٠م) فيلسوف مسيحي لاهوتي وأحد كبار باباوات الكنيسة الكاثوليكية كان أبوه وثنيًّا وأمه مسيحية يرى أن غاية الإنسان السعادة وأنها متحققة عن طريق طاعة الله والسيطرة على البدن ولد في الأحراس بشرق الجزائر: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٢٤٧).

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٥٠.

(٥) باروخ إسبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢- ١٦٧٧م) الموافق (١٠٤١- ١٠٨٨هـ) فيلسوف هولندي يهودي تبدأ فلسفته من التفكير في الله ثم تنزل منه إلى سائر الموجودات عكس ما اعتاد عليه الفلاسفة ولد في أمستردام من أكثر فلاسفة النهضة أهمية استطاع إخراج الفلسفة الديكارتية من جانبها الوحداني الوجداني إلى نتائجها المنطقية: (موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، ص١٣٦) و(تاريخ الفلسفة الحديثة، رايت، ص١١١).

نفسه: «إن جوهر (الله) يجب أن يكون لا متناهيَ وبصفات لا متناهية (أي لا يحده حد، ولا يحيط به تصور)، حيث إن افتراض أنه متناهٍ يعني أنه يحده حد، ومن ثم لن يكون الحقيقة الوحيدة»[1]، وقد استنكر بشدة على الكنيسة أن جعلت من الإله شكلًا إنسانيًّا، فيقول: «أقرّ بأني لا أفهم ماذا يريدون بقولهم هذا، حتى لو افترضنا أن ذلك صحيح، فالأمر أقرب إلى القول: إن الدائرة أصبحت مربعًا»[2]، ومن قرأ مؤلفات (سبينوزا) أدرك جيدًا أنه مؤمن بوجود الله، ولكنه يعتقد بوحدة الوجود[3]، وهذا مدخل خاطئ استفاد منه المدلسون لإيهام الناس بأنه ملحد[4]. وهذا خلط غير منصف بين الإلحاد بمعنى الإنكار النهائي لوجود الله، وبين إشكاليات العقيدة مهما كانت خاطئة كالقول بوحدة الوجود، مع بقاء أصل الإيمان بوجود الخالق، ومهما حاول الإنسان الانفكاك عن الفطرة المعرفية بالإيمان بوجود الله، فإنها تبقى قدرًا يحيط به، ويحاصره، يقول (مارتن لوثر): «إننا نعرف الله بالفطرة، ناموس منقوش في القلب بالطبع من الله»[5]، وانطلاقًا من هذه الفطرة قاد (لوثر) ثورته الشهيرة على الكاثوليكية المتسلطة، وكان من أهم مميزات تلك الثورة إسقاط أي واسطة بين الله والإنسان، فتشكلت بسبب ثورته الطائفة (البروتستناتية) الأكثر تحررًا من بين طوائف النصارى في الوقت الحاضر.

ويؤكد (مالبرانش) على الإيمان بالله وبالوجود، ويحصر دور الفكر في محاولة فهم مضمون الإيمان، ويقول: «إن خير وسيلة لتعريف (الله) هي أن تعرفه بما عرف به نفسه، وهو يكلم موسى»[6]، أي إنه تلقى منه كلمات، فعرفه حق المعرفة دون أن يراه، ويقول

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٥٢.

(٢) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال الفلسفة والدين للكاتب: مارك أونغلاري، ترجمة: نور الدين علوش، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص٤٦٦.

(٣) وحدة الوجود: مذهب فلسفي يرى أن الإله والمخلوقات شيء واحد وأن العالم هو صورة الإله ومن ثم فلا موجود إلا الإله، ولا يرى القائلون بوحدة الوجود أن الإله قد خلق العالم لكنهم يقولون: إن العالم هو الله والله هو العالم: (رحلة العقل، شريف، ص٤١).

(٤) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٥٥.

(٥) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٦٦.

(٦) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤٤٨.

أيضًا: «ما من شيء إذا تأملناه كما ينبغي إلا ردنا إلى الله»[1]، ويرى (ألكسندر صموائيل)[2]: «إنه من الخطأ زعم بعض الفلاسفة أن نظرية المعرفة هي أساس الميتافيزيقا[3]، وإنما هي فصل من فصوله، وإن الألوهية المطلقة هي الصفة التجريبية التالية لأعلى صفة ممكن أن يعرفها الناس، ومن المؤكد استحالة معرفتها بالتجربة، لكن يؤكد أنها (ليست من نوع أي صفة)»[4].

إنما يؤتى الإنسان من قبل تلك الظواهر المأساوية مثل اضطراب الفكر البشري، وتباين الأفهام، والتطرف، والتعصب للرأي والمذهب والدين والسياسة، ودعوى الحفاظ على المكتسبات الذاتية، والتعصب للتصورات الخاطئة عن الغيبيات، وعدم وجود من يبين ذلك بكل صفاء ونقاء، وكلها عوامل تؤدي مجتمعة إلى وجود ظاهرة الفوضى الطارئة على الفطرة السوية للإنسان، والمقصود هنا تلك المعارك الصامتة الطاحنة داخل الذات حول أسرار الوجود وما بعد الوجود، ومن الخطأ أن تطبق الصور المحدودة لوسائل العقل (العنصر، والسببية، والضرورة) في علم الغيبيات (الميتافيزيقيا)، من أجل البرهان على الوجود، أو لإثبات صحة الدين، يقول الفيلسوف الألماني (إيموائيل كانت): «التسليم بوجود الله مستمد من شعورنا الخلقي الفطري الذي يفوق المنطق النظري الذي لم يتطور إلا لمعالجة الظواهر الحسية، إن عقولنا تجيز لنا أن نعتقد أن وراء الأشياء إلهًا، وشعورنا الأخلاقي يأمرنا بذلك»[5]، ووافقه على ذلك (جان جاك روسو) عندما قال: «إن شعور القلب فوق شعور العقل»، ووافقهما (بسكال) أيضًا بمقولته التي اشتهرت في الآفاق: «إن للقلب أسبابًا خاصة لا يمكن أن يفهمها العقل»، وجميعهم يشيرون بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى الحقائق الفطرية التي نعيشها بوضوح، والتي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من كينونتنا الوجودية، دون الحاجة إلى إخضاعها للعقل والتجربة والبرهان.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص٩٨.

(٢) ألكسندر صموائيل Alexander Samuel (١٨٥٩ - ١٩٣٩م) الموافق (١٢٧٥ - ١٣٥٨هـ) ولد في سيدني وتوفي في إنجلترا عمل أستاذًا في جامعة فكتوريا في مانشستر من مؤلفاته (النظام الأخلاقي والتقدم) و(أسس الواقعية): (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٩٠).

(٣) الميتافيزيقيا: هي الاهتمام بما وراء الطبيعة والمقصود بها أمور الغيبيات الزمانية والمكانية والوجودية وما وراءها.

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٢٣.

(٥) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣٥٣.

ويُعدّ الفيلسوف (أنسلم) من أبرز فلاسفة العصور الوسطى[١]، وهو صاحب الحجة الوجودية، عندما رأى الخلاف بين (الديالكتيين)[٢]، الذين ينتصرون للاحتجاج العقلي المحض في العقائد، في مواجهة (النحويين) الذين تجاهلوا كل عقيدة تقوم على العقل، وقصروا الأمر على الإيمان الساذج الخالي من التفكير، فقال (أنسلم) عبارته المشهورة: (أومن لأتعقل)، حيث جعل الإيمان هو المعطى الأول يليه التأمل والاحتجاج بالعقل، فيقول: «لا أفهم لكي أومن، بل أومن لكي أفهم؛ لأنني لم أستطع أن أفهم دون أن أومن»[٣]، ويتبع أنسلم مبدأ إثبات الوجود عن طريق التدرج في الكماليات، حيث قال إن: «الخيول أكمل من الحشرات، والإنسان أكمل من الخيول وهكذا تصاعديًّا» إلى أن يقف عند حد أقصى كما تصور، فيَعدّ ما وراءه هو الكمال المطلق المسبب لكل كمال دونه، فالله عند (أنسلم) هو (الكائن) الذي لا يمكن تصوره، وهو فوق أقصى كمال يمكن تصوره مطلقًا، وهو قطعًا أكمل من أي كائن استطعنا تصوره[٤]، وقد وافقه (ويليم أوكهام)[٥] على إيمانه بالله، وإن اعترض على بعض آرائه، وإنما دفعه ذلك الاعتراض على إثبات العقائد الإيمانية بالبراهين العقلية لاعتقاده الجازم «بأن الله قادر على كل شيء، وأنه حر حرية مطلقة فيما يريده، ولا يخضع لأحد في مشيئته، ولهذا فهو القادر على أن يشاء ما يضاد قوانين الطبيعة، ويمكنه أن يهب لطفه ورحمته لمن يشاء دون مقابل)[٦].

أما العالم السرافي (بونافنتورا)[٧]، فيرى أن وجود الله هو أعظم الحقائق وأوضحها، لكن هناك أخطاء تحجب هذه الحقيقة، ومنها الخطأ في التصور، والخطأ في البرهان،

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٣٥.

(٢) الديالكتيّون: هم أناس ينتهجون (الديالكتيك) في الحوار وتعني التقاء الناس على المحاورة والنقاش من خلال فن الجدل (الديالكتك) على أنه البرهان في إقناع المحاور.

(٣) محاضرات في تاريخ الفلسفة، دونت هيجل، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م، ص٢١٥.

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٣٨٤.

(٥) وليام أوكام William of Ockham (١٢٨٠ - ١٣٤٩م) الموافق (٦٧٩- ٧٥٠هـ) من الفلاسفة اللاهوتيين المدرسيين في إنجلترا ومن أكثر الفلاسفة تأثيرًا في القرن الرابع عشر الميلادي حيث أسهم في نقل أوروبا من القرون الوسطى إلى العصر الحديث: (قصة الحضارة، وول ديورانت، الجزء الثامن، ص٨٠٦٠).

(٦) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٥٤.

(٧) يوحنا بونافنتورا (١٢٢١- ١٢٧٤م) الموافق (٦١٨- ٦٧٢هـ) عالم لاهوتي إيطالي ولد في بانيوريا، وتوفي في ليون يرى أن النزول إلى الفلسفة هو الخطر الأكبر: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٢١٢).

والخطأ في الاستنتاج، وحتى مع الاحتياط من هذه الأخطاء تبقى معرفة الله وفق معايير المعرفة البشرية صعبة جدًّا؛ لأن المعرفة تعني الإدراك والإحاطة، فالإدراك مجرد العلم بوجود الشيء، والإحاطة هي استيعاب ماهيته في التصور، وهذه الإحاطة لا تتحقق إلا عندما تكون ماهية العالم بالشيء في مستوى المعلوم به، أو أعلى، ولهذا يستحيل أن يدرك الإنسان (الأدنى جدًّا) ربه (الأعلى جدًّا جدًّا)، أو أن يعرفه معرفة إحاطة، وذلك للفارق الهائل في المرتبة والمستوى بين الله والإنسان، ولهذا اقتصر الأمر على معرفة الله معرفة إدراك عقلي بعد إيمان نقلي فقط، وليس إدراكًا حسيًّا كما تدرك المخلوقات، أي نؤمن يقينًا بوجوده بالفطرة أصلًا، مستأنسين بآيات الكون وبراهينه(١)، وعلى مثل هذا الاعتقاد يقول (توماس أكويناس): «إن بوسعنا أن نعرف بطريقة المفهوم الطبيعي أن الله موجود، وأنه واحد؛ لأن وجوده ووحدانيته تتلألأ في عجائب العالم وحسن تنظيمه»(٢).

ويرى (لول رامون)(٣) أن الله هو الموضع الأسمى والعظمة العليا، وأن العقل البشري في مرتبة أدنى من مرتبة الله، ولهذا لا يستطيع العقل الإحاطة بالله، لكن الله يريد للإنسان أن يعرفه، ولهذا جعل الإيمان يمكن الطبيعة الإنسانية من الطفو على المعرفة كما يطفو الزيت على الماء، وعليه فإن المخلوقات من دون الله تكون مظلمة وخالية من المعنى وأعدامًا لا وجود لها(٤).

وأما الأديب والمفكر الفرنسي (فولتير) فلم يقف عند حتمية الوجود الإلهي والإيمان به، حين يقول: «إذا وجد شيء منذ الأزل، وأنا موجود، ولست موجودًا بذاتي، فهناك موجود أوجدنا، وهو موجود بالذات هو الله»(٥)، بل تجاوز ذلك إلى ضرورة حدوث البعث والحساب بعد الموت، فهو يؤكد أن الإيمان بالله ليس له قيمة أخلاقية ما لم يكن مقرونًا بالخلود والثواب والعقاب، وقد كان فولتير يربط صلاح المجتمع ومن

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٣٨٤.
(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٠٧.
(٣) لول رامون Ramon Lull (١٢٣٣-١٣١٦م) الموافق (٦٣٠- ٧١٦هـ) مفكر إسباني ولد في جزيرة ميورقة وهو مؤمن متصوف يكفر كل من ليس بمسيحي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٣٨١).
(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٨٣.
(٥) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص١٨٩.

بعده الدولة بوجود الدين، فيقول: «أريد من زوجتي وخادمي وخياطي أن يؤمنوا بالله؛ لكي يقل غشهم لي»، ويقول: إن المؤمن هو الإنسان المقتنع بوجود إله قوي وصالح خلق جميع الأشياء والكائنات، وإن عبادته سبقت جميع الأنظمة في العالم»[(١)]، هكذا يريد (فولتير) من الناس أن تؤمن بالله وحده، ولما ركع أمامه شابان صغيران، طلبًا للعفو منه لأنهما قد سرقا بعض ماله، انحنى وأخذ بأيديهما، وأوقفهما، وسامحهما وقال لهما: «إن الركوع لله وحده، فلا ينبغي لكما الركوع أمام أحد سواه»، وهكذا كان فولتير مؤمنًا بوجود الله داعيًا إلى الحرية، وكاسرًا لطوق الاستعباد البشري المقيت، ولهذا كان من الطبيعي أن يتعرض لهجمة شرسة ممن يرون في فكره تهديدًا لمصالحهم، خاصة أنه من دعاة الحرية والكرامة البشرية، حيث اختصر فكره عندما أوصى حفيد الفيلسوف الأمريكي (بنيامين فرانكيلين)[(٢)] الذي اصطحبه معه لزيارة فولتير، وضع فولتير يده على رأس الحفيد، وطلب منه أن يكرس حياته لـ (الله والحرية)[(٣)].

وعلى الرغم من أن (رينيه ديكارت) سلك منهج الشك، طريقًا للوصول إلى اليقين، وسمى هذا النوع من الشك الشكَّ الديكارتي؛ لاختلافه عن الشك الكلي، فقد صرح ديكارت بإيمانه من خلال قوله: «إن الله هو خالق ماهيات المخلوقات وجواهرها، وهو الذي وضعها في الوجود حرًّا»[(٤)]، وقوله: «هناك فكرة لا يمكن أن أكون مصدرها، ألا وهي فكرة (الله)، فهذه الفكرة تصور لي جوهرًا لا متناهيًا، سرمديًّا ثابتًا مستقلًّا، كله علم وكله قدرة»، ومن أعظم مقالاته قوله: «فكرة (الله) لا يمكن أن يكون مصدرها

---

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣٠١.

(٢) بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin (١٧٠٦- ١٧٩٠م) الموافق (١١١٨- ١٢٠٤هـ) سياسي وكاتب وعالم وناشط حقوقي تنويري أمريكي له اختراعات فيزيائية وكهربائية منها اختراع مانعة الصواعق وقياس المسافة بالعجلة وموقد فرانكلين ويُعدّ من المؤسسين الرئيسين للولايات المتحدة الأمريكية من أسرار نجاحه أنه يقسم اليوم إلى جدول مهام ثم يتفقد تنفيذها آخر النهار؛ تخليدًا له تم تثبيت صورته على العملة الأمريكية فئة المئة دولار وهو أول رئيس أمريكي حذر من خطورة هجرة اليهود إلى أمريكا: (بنيامين فرانكلين صورة عالم كاتب فيلسوف إنسان، عباس محمود العقاد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م).

(٣) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣١١- ٣١٢.

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤٩٥.

غير الله نفسه؛ لأن فيها من المزايا العظيمة التي كلما تأملتها بعناية أكثر، وجدت نفسي أقل قدرة على إنتاج هذه الفكرة بنفسي من نفسي وحدها، فلا بد أن أستنتج استنتاجًا ضروريًّا بأن الله موجود لأني كائن متناهٍ، ولا يمكن لي أن أنتج جوهرًا غير متناهٍ، وحتى فكرة جوهر لا متناهي هذه أودعها في نفسي جوهر غير متناهٍ حقًّا»[(١)].

*****

الشاذون عن القاعدة

إن الإشارة إلى هذه الأفكار الإيمانية بوجود الله للغالبية العظمى من عظماء الفلاسفة عن وجود الله وهيمنة النزعة الإيمانية الفطرية بشكل عام، لا ينفي وجود قلة آخرين وصل بهم التطرف والعناد أحيانًا أن يتخذوا مواقف لا يمكن تفسيرها بسوى الإلحاد العنادي، وهم بذلك ومن تاريخ نشأتهم يؤكدون أن الإلحاد له أسبابه النفسية والفلسفية التي لا علاقة لها بالعلم، ومما يؤكد ذلك أننا لو فتشنا في تاريخهم النفسي والاجتماعي، حتمًا سنجد (حوادث اعتراضية في مسيرة حياتهم) كانت سببًا في مثل هذا الشذوذ الفكري، فهذا إمام الشكّاكين (هيوم) نفهم نزعته الإلحادية جيدًا عندما نعلم أنه بلغ به الغلو في الشك إلى أن شك في نفسه وعقله ووجوده، ثم استقر على هذا الوضع، ولم يتحول منه إلى اليقين كما فعل (ديكارت) من قبله، وكان (هيوم) أيضًا يصر على رؤية الصانع والمصنوع حتى يؤمن بالصانع[(٢)]، ألا نظلم الحقيقة عندما ننظر إليها من خلال زاويته الحادة، وتطرفه الفريد من نوعه، وأغرب من ذلك أن تجد من يأخذ بمثل هذا الرأي متعصبًا له، ويحتج بمثل هذه العقول التائهة تمامًا، متجاهلًا آراء الأغلبية العظمى من الأسوياء منهم عبر التاريخ.

لسنا بصدد نفي وجود هذه القلة المشاغبة على غير بصيرة، ولكن يجب أن نحصرها في حجمها الطبيعي، على أنهم أقلية محدودة على هامش مسرح الوجود، ولربما في أقصى

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤٩٦.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٥٥.

هامش التاريخ كله، مقارنة بأكثرية الفلاسفة المتربعين على عروش المنطق والمعرفة أمثال (كانت) الذي يُعدّ شيخ الفلاسفة المؤمنين بالعقل، وبوجود الله خالق العقل وحده، والذي أصدر كتابه الشهير (نقد العقل الخالص)[١] مؤكدًا أن مصادر المعرفة هي الحس والعقل، وليس الإحساس وحده ولا العقل وحده، وأن للعقل أفكارًا نظرية مركوزة فيه أطلق عليها (قوانين العقل المنظمة)، وأهمها فكرة الزمان والمكان، والقانون والسببية، وأن قوة العقل مرتبطة بالظواهر الحسية، وإذا خرج إلى كُنهِ الأشياء وقع بالخطأ، ويقول: «من المستحيل الاستدلال بالعقل النظري على وجود الله، ولكن هناك العقل العملي، وهو الضمير الذي نستدل به على وجود الله؛ لأننا نجد في قرارة نفوسنا شعورًا قويًّا لا سبيل إلى إنكاره يأمرنا بالخير، وينهانا عن الشر، ويؤنبنا عند ارتكاب الذنوب والآثام، فمن أين أتانا هذا الشعور؟ إنه القانون الأخلاقي الذي فطرت عليه نفوسنا»[٢]، ولقد تصدى (كانت) المؤمن لأفكار (هيوم) الإلحادية ودحضها، كما فعل من قبله (سقراط) بحجج السوفسطائيين[٣]، وعلى النسق نفسه وقف الفيلسوف الفرنسي (جانيه)، عندما أكد على وجود الله، وأشار إلى علمه المطلق قائلًا: «إن الشعور يدرك محيطًا لا غور له نحن نغوص فيه، وهو يتجاوزنا من كل ناحية»[٤].

*****

ثانيًا: فلاسفة المسلمين

قد يكون أشد فلاسفة المسلمين تطرفًا أقربَ إلى الحق من أفضل الفلاسفة غير المسلمين اعتدالًا، ولئن كانت الحاجة إلى آراء فلاسفة أهل الكتاب ضرورة للفراغ الروحي

---

(١) (نقد العقل الخالص): من أشهر كتب الفلاسفة في التاريخ لخص فيه الفيلسوف الألماني (إيموائيل كانت) نظريته في المعرفة بمقولة شهيرة وهي «أن كل مفهوم بلا معطيات حسية هو مفهوم فارغ وأن كل معطى حسي بلا مفهوم فهو أعمى».

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٦٢ - ١٧٢.

(٣) السوفسطائيون: مصطلح مشتق من السوفسطائية sophism وهي كلمة يونانية مشتقة من لفظة سفسطة sophisma التي تعني الحكمة والحذق وقد أطلقها الفلاسفة على الحكمة المموهة والحذاقة في الخطابة أو الفلسفة وأطلقت على كل فلسفة ضعيفة الأساس متهافتة المبادئ كفلسفة الشك واللاأدرية: (الموسوعة العربية).

(٤) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤٣٩.

عند مجتمعاتهم، فإن آراء فلاسفة المسلمين كانت زيادة غير ضرورية على وضع متوازن أصلًا تحمله أرواح مستقرة بعقيدتها وإيمانها الخالص، تنعم بسعادة حسم الأمر من منطلق الوحي الذي أدرج حالهم المستقرة كونيًّا بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٥].

ولكن انتشار الحضارة الإسلامية في القرون الأولى يعني أنه لا بد من أن تتداخل مع الحضارات السابقة والمعاصرة لها، وهذا ما حصل فعلًا أن ترجمت علوم الفلسفة والمنطق بطريقة عفوية، وزج بها في ميدان الفكر الإسلامي، ومن اللافت للنظر أن منطقة الاحتكاك الحضاري كانت مع حضارات فارس والروم والأندلس، حيث نشأ في تلك المناطق الجغرافية غالبية فلاسفة المسلمين ومتكلميهم، ولكن تبقى للأمة الإسلامية خصوصية فذة، نالتها ببركة هذا القرآن العظيم، آخر كتاب محفوظ نزل إلى البشرية، ما يجعلها في غنى عن كثير مما ذهب إليه المهتمون بالمنطق والفلسفة، وسبب ذلك أن الوحي تمكن بقوة من عقول نقية صادقة، لم تتلوث بشيء من حيرة الأمم الأخرى، لقد كانت المجتمعات العربية تعاني إشكالية الشرك والوثنية، واتخاذ الآلهة الباطلة التي كان من السهل صرفها عنها إلى عبادة الواحد الأحد، وهذا يعني أن الوحي قد تسلّمها خامًا نقيًّا من تعقيدات الفلسفة اليونانية، فنقلها من الشرك إلى التوحيد بالتوبة فقط حتى صورها بأحلى صورها وربّاها على عينه، وكأنه أعاد خلقها من جديد، فتفكير الرجل العربي قبل الإسلام، لا يمت بصلة إلى ما بعد الإسلام إلا فيما أقره الإسلام له من أخلاق ووفاء بالعهود والعقود والكرم، التي جاء الإسلام لتطويرها ورعايتها، كما جاء في الحديث الشريف: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»(١).

*****

(١) الحديث صححه الألباني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**».

زهد المسلمين في الفلسفة

المسلمون لا يركضون خلف المنهج الفلسفي وعلم المنطق لذاتهما؛ لأنهم لا يعانون كما يعاني مَنْ حرموا أنفسهم نور الله المبين، وهذا هو الفرق بين فلاسفة المسلمين وغيرهم، فعندما يرد ذكر علم المنطق وفنون الفلسفة عند المسلمين الذين يحملون نورًا يمشون به في الظلمات فالأمر يختلف تمامًا عن الحال مع التائهين من غير المسلمين الزاهدين في كل ما هو دين موروث من أسلافهم، ففي الأوساط الإسلامية ينحني الجميع ضيوفًا مؤدبين غاية الأدب على مائدة القرآن العظيم، الجميع يصبحون أقزامًا بأفكارهم أمام كتاب كريم مبين عظيم لو أنزل على جبل لتصدع، ولم ولن يأتي الإنس والجن بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، القرآن الذي لم يكن هدى ورحمة للمؤمنين به عند نزوله فحسب، بل كان أيضًا مهيئًا لما بعد عصر النبوة لكي يقص على الناس كافة، وعلى بني إسرائيل خاصة من يهود ونصارى أكثر الذي هم فيه يختلفون حول كل شيء في الوجود: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٦- ٧٧]. هذا الذي جعل نعمة الهداية للإسلام من أعظم النعم في الوجود كله، وهي النعمة العظمى التي يشكر بها الله عند الحصول على أعظم جزاء، وهو دخول الجنة، هكذا سيكون حمدهم وثناؤهم على الله عند دخولها: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا كما يحب ربنا، ويرضاه.

إن المجتمع الإسلامي لينعم بوجود مناعة إيمانية متجذرة فيه أكثر من غيره، وقد بلغ بالوحي مبلغًا ساميًا، وارتقى مقامًا معرفيًّا مقدسًا، يصبح فيه الفيلسوف المسلم عزيزًا بين أقرانه، وهو يستدل بنصوص الوحيين، غريبًا خجولًا، وهو يتناول بعض الموروثات الفلسفية من الأمم الأخرى، وإذا ما أراد تسويق شيء منها إلى المحيط الإسلامي، فلا بد له من ممارسة أقصى درجات الحيطة والحذر والمقدمات الدعائية، وما يشبه (التوبة) مقدمًا؛ لأن فطرة الناس من المتانة بدرجة لا تسمح له بالتجديف المطلق، ولا تشعر بالحاجة إلى ذلك، كما هو الحال في البيئات الأخرى التي ينقصها وجود القرآن

الكريم، وليس غريبًا أيضًا أن تجد الشاك أو الملحد من بين المسلمين غالبًا ما يكون مستخفيًا فكريًّا، ومستخدمًا أقصى درجات التقية والتلميح، وذلك لأنه وفي خضم كل جدال فلسفي مجرد، (يَشرَقُ) غرقًا بفرات وعذوبة منطق القرآن العظيم داخل نفسه، فيغرقه بالحقيقة البيضاء الناصعة، وفي الأفق يضيء له وكأنه النهار يتنفس بالضياء ليمحو ظلام الليل يطلبه حثيثًا، فلا يستطيع المجادل تجاوز هذا الحق مهما كان ماهرًا في المناورة، وأنى له بمواجهة قوة هذا الخطاب الرباني: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وإنه مما يحير العقول، ويبهر الأفهام، أن يوجد هذا القرآن العظيم في جميع مراحل تاريخ المعرفة الإنسانية، حاضرًا في كل تحديات الجدل والمنطق، وكما يلاحظ في عصرنا الراهن، وبعد أكثر من أربعة عشر قرنًا من نزوله، نعتمد على نصوصه العظيمة اعتمادًا كليًّا لا بديل عنه، حتى ونحن نكتب هذه اللحظة مقلبين تناقضات آراء البشر وضياعهم الفكري، فكل منبر مهتز، وكل صوت ضعيف، ولا نرى إلا دوحة القرآن ثابتة خضراء مزهرة، نستشهد به كثيرًا، وينهل الجميع من ثمراته، ويستظلون بظله، لقد نزل القرآن مفهومًا ميسرًا لعامة الناس، فهمه الصحابة جميعًا وهم الأميون في علم المنطق وفنون الفلسفة، يتلونه فيستوعبونه بشكل متطابق تمامًا مع فطرتهم السليمة، وكأنه أنزل إليهم وحدهم، بل كأنه خاطب آحادهم كلًّا بشخصه، ثم تتوالى العصور، وتتطور الأفهام والفكر البشري، ثم نكتشف بعدهم بمئات السنين أن النص القرآني الذي نزل على رسولٍ أمي، لم يكن مخصصًا لتلك المرحلة وحدها، بل كان خطابًا عامًّا للعالمين في جميع مراحلهم مهما تقدمت إلى أبد الآبدين: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. إنه يخاطب المختلفين، ويجادلهم بالمنطق القوي السليم في كل حين.

هذا الوصف للقرآن هو الوصف المنصف الذي ربما يقصر عن حقه، وليس حديثًا دعائيًّا للترويج لمجرد أننا مسلمون وهو كتابنا، ولا وعظًا عائمًا نستدر به العاطفة من غيرنا، أو نمرر من خلاله الفكرة المستعصية، وإن كان من حقنا أن نفخر بذلك كل الفخر، ونشكر الله على ذلك كل الشكر، وندعو الناس إلى هذا الحق المبين بعدما تبين لنا،

ولكن تنزلًا عند حجج المجادلين في ديننا وكتابنا، ندعوك يا أخي الباحث عن الحق بكل تجرد، أن تتأمل آياته تأملًا محايدًا جدًّا، وستجد فيه كل ما يتطلبه الحوار والجدل المنطقي في أيامنا هذه والأيام القادمة، وستجد أنه أيضًا محصن بأقوى مقدمات المنطق الصحيح، تنزلًا عند هامش جدالهم وليس لحصر رسوخ الإيمان في أدوات المنطق ومقدماته كلا، فهو كلام الخالق المكتنز بأرقى النتائج المنطقية الصارمة، والجدلية العقلية المسكتة لكل مناوئ للحق.

لم تتبلور أزمة الجدل حول الأزلية وبدء الخلق في عصر قريش، المقرّين بتوحيد الربوبية، وبأن الله خالق الكون وربه الواحد، والمنكرين توحيدَ الألوهية لاتخاذهم آلهة متعددة من دون الله، وهذا ما أكده القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]. بينما نزلت آية سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦]. وكأنها تخاطب قومًا لم يأتوا بعد، قومًا سيعيشون معارك الجدل والمنطق والفلسفة بعد انتقال تراث الفرس والروم إلى بيئتهم، وهو ما حصل فعلًا في العصر العباسي الممتد من ١٣٢هـ إلى ٦٥٦هـ.

*****

الخلاف بين الغزالي وابن رشد

وكما كان الخلاف والنزاع واردًا بين الفلاسفة من غير المسلمين قديمًا وحديثًا، فقد وجد أيضًا بين فلاسفة المسلمين من الخلاف ما يتوقع حدوثه بين أناس يطرحون آراء وأفكارًا ووجهات نظر بشرية من الطبيعي ألا تكون متطابقة، ولنتجاوز خلافًا وقع بين أمثال ابن سينا والكندي والفارابي لشدته ولاختلاف الناس حولهم، ولنتحدث عن تنافر أقرب فلاسفة المسلمين إلى منهج الوحي والسنة، ولنأخذ مثالًا لما دار بين عالمين جليلين هما (أبو حامد الغزالي) و(أبو الوليد بن رشد الحفيد)، فالأول دخل علم الكلام من أوسع أبوابه، وقرأ عن الفلاسفة، وتأثر بهم سلبًا في بداية طريقه، ثم تحول إلى إيجابي

في نهايته، حتى ألف في نهاية المطاف كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة)، تعرض فيه لأبرز حججهم ومسلماتهم، ودحضها بأسلوب لا يخلو من حدة، ولم يتردد في تكفير بعضهم، ولم يكن بابن رشد خاصة رفيقًا ولا رحيمًا، فانبرى له (ابن رشد) الذي هو الآخر ممن قرأ، وخاض في بحر الفلسفة والمنطق، وترجم لأرسطو ترجمة لا يزال الغرب يحفظها له، فرد على الغزالي في كتابه الشهير (تهافت التهافت)، مبتدئًا بالقسوة عليه ابتداء من عنوان الكتاب، كما يتضح ذلك، ومستدركًا عليه قسوته عليهم، خاصة عندما تناول الغزالي فلسفة أرسطو مما نقله عنه كلٌّ من الفارابي (المعلم الثاني)، وابن سينا (الشيخ الرئيس)، فقال الغزالي عنهما: «مجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطوطاليس بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر في ثلاثة أقسام، الأول: قسم يجب التكفير به، وقسم يجب التبديع به، وقسم لا يجب إنكاره أصلًا، فلنفصل به»[1].

لكن بمجرد تأمل الموقفين بسهولة تدرك أن (الفيلسوف الفقيه) يسلك منهجًا عقليًّا محضًا، وهذا هو حال (ابن رشد) الذي يختلف عن المنهج العقلي المقيد (للفقيه الفيلسوف) مثل (الغزالي)، وما أخذه ابن رشد عليه أنه لم يلزم مذهبًا من المذاهب في كتبه، فهو كما يقول عنه أشعري مع الأشاعرة وصوفي مع الصوفية وفيلسوف مع الفلاسفة، واتهمه بمسايرة عامة الناس ومجاملتهم من خلال تواريه خلف بعض الأطروحات التي كان يهاجم فيها الفلاسفة[2]، ولكنك تدرك أيضًا عدم حاجة الأمة لهذا الجدل الفضولي أصلًا بين هذين العالمين الجليلين، وأن قسوة الغزالي البادئة نتج عنها تطرف من جانب ابن رشد في شخصنة رده عليه، لم يكن الأمر بتلك الأهمية أو الضرورة، بدليل أن الغزالي لم يعرف بكتابه هذا بقدر ما عرف بكتبه القيمة الأخرى مثل (إحياء علوم الدين)، وكذلك الحال مع ابن رشد الذي عرف أكثر بكتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)، الذي يُعدّ مرجعًا عالميًّا في الفقه المالكي، أكثر مما عرف بسجاله الفلسفي والمنطقي ضد الغزالي، ذلك السجال الذي بقي محصورًا في نطاق البحوث

---

(١) أسلمة المنطق الأورغانون الأرسطي بين يدي الغزالي، عبدالكريم عنيات، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٩٦.

(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد، تحقيق: محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٤٨م، ص٢٥.

المتخصصة عند أهل الكلام دون غيرهم، وفي مثل هذا البحث الذي قد لا يأبه به عامة الناس المنسجمين بفطرتهم والمحتاجين بدرجة أكبر إلى كتبهما الأخرى، بل لربما جلب الغزالي على نفسه في الخوض في المنطق وعلم الكلام ما هو غني عنه، فقد وصفه تلميذه (أبوبكر بن العربي)(١) بقوله: «شيخنا أبوحامد دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منها، فما قدر»(٢).

*****

ثالثًا: الفريقان لا يستويان

لا يستوي من يحتمي بالوحي، فيطل من نافذته إلى الوجود مهما كان على بصره من غشاوة يمكن إزالتها، بمن هو أعمى في العراء تعصف به الريح من جانب، هنا يكمن الفرق بين فلاسفة المسلمين وغير المسلمين، إذ لا تشكل المناظرات والحوارات الفلسفية أولوية قصوى عند المسلمين، كما هو الحال عند غيرهم، وذلك لعدم الحاجة إلى ذلك علاوة على أن معظم فلاسفة المسلمين على الرغم مما يقال عنهم قد تسلحوا بهذا المنطق القرآني المتين بعد قرون من نزوله، ووجدوا فيه ردًّا مسكتًا لخصومهم عند المواجهة، خاصة وهم ينقلون هذه الآيات عن رسول أمي عاش فقط ثلاثًا وستين سنة، ثم مات كما نموت، أمضى آخر ثلاث وعشرين سنة من عمره مبلغًا لهذا الوحي العظيم، هذا الوحي الباقي إلى الأبد، وسيبقى مكتنزًا بمعانٍ وتحديات كامنة تلمع بإشراقاتها في مواسم الجدل والمنطق والعلم، وقد جُربت منطقيًّا حين ترجمت كتب الحضارات الأخرى إلى العربية، حيث لم يعرف المسلمون الفلسفة أو علم الكلام إلا بعد أن وصلت

(١) هو القاضي أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد بن العربي الأندلسي الإشبيلي (٤٦٨- ٥٤٣هـ) الموافق (١٠٧٦-١١٤٨م) عالم فقيه تتلمذ على أبي حامد الغزالي ومن أشهر مؤلفاته (عارضة الأحوذي في شرح جامع أبي عيسى الترمذي) و(الأصناف) و(أمهات المسائل) و(نزهة الناظر) ولم يكن على وفاق مع ابن حزم الأندلسي: (سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء ٢٠، ص١٩٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٦.

إليهم كتب الرومان وفارس بشكل منهجي وتحديدًا في عهد الخليفة (المأمون)[1]، فاحتاج الأمر إلى توخي الحذر العقدي، فانبرى طائفة من المسلمين لتعلم المنطق بهدف الرد على المنطقيين، فاستحسنوا هذا الأمر، وتبحر منهم من تعمق بالفلسفة أمثال (الكندي)[2] و(الفارابي)[3] و(ابن سينا)[4] و(الرازي)[5] و(ابن حيان)[6] و(ابن رشد) وشاركهم في ذلك بعض المفكرين والأدباء (كالجاحظ)[7]، وعلماء الرياضيات

---

(١) المأمون (٧٨٦- ٨٣٣م) الموافق (١٧٠- ٢١٨هـ) هو الخليفة العباسي عبدالله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس أمير المؤمنين وأمه أم ولد اسمها مراجل الباذغيسية دامت خلافته ٢٣ عامًا: (البداية والنهاية، ابن كثير، المجلد الرابع عشر، دار عالم الكتب، ٢٠٠٣م، ص٢١٤).

(٢) هو أبويوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (٨٠٥- ٨٧٣م) الموافق (١٨٩- ٢٥٩هـ) يلقب بفيلسوف العرب، وهو العربي الوحيد تقريبًا بين فلاسفة جيله كلفه المأمون بالإشراف على ترجمة الأعمال الفلسفية اليونانية إلى العربية واتخذه الخليفة المعتصم معلمًا لابنه أحمد وله مؤلفات في الفلسفة والطب وعلم النفس والتنجيم: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٢٩٧).

(٣) أبونصر محمد الفارابي (٨٧٤- ٩٥٠م) الموافق (١٩٠- ٣٣٥هـ) ولد في مدينة وسيج إحدى مدن فاراب وهو ثاني فيلسوف إسلامي ذي شأن في الفلسفة الإسلامية يلقب (بالمعلم الثاني) على أساس أن أرسطو هو (المعلم الأول) ويُعدّ الفارابي من أوسع فلاسفة المسلمين اطلاعًا على الفلسفة اليونانية وهو الذي عرف الفلسفة بأنها (العلم بالموجودات بما هي موجودة) يحب العزلة ويكره مجالسة الناس: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٩٣).

(٤) ابن سينا (٩٨٠- ١٠٣٨م) الموافق (٣٦٩- ٤٢٩هـ) هو أبوعلي عبدالله بن سينا قرأ الشروح حتى أحكم علم المنطق وقرأ كتاب أصول الهندسة لإقليدس ثم قرأ كتاب المجسطى لبطليموس عن الفلك وبعد أن أحكم المنطق الطبيعي والمنطق الرياضي عدل إلى الإلهي وقرأ كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو أربعين مرة – كما حكى ذلك عن نفسه – فلم يفهمه حتى قرأ كتاب (في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة) للفارابي ففهمه وتصدق شكرًا لله على ذلك: (الفلسفة الإسلامة، عباس محمود العقاد، المجلد التاسع، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، دار الكتاب اللبناني، بيروت).

(٥) أبوبكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٤- ٩٢٥م) الموافق (٢٥٠- ٣١٣هـ) اشتهر بالطب حتى لقب (بطبيب المسلمين) له مصنفات في الفلسفة: (معجم الفلاسفة، طرابشي، ص٣١٦).

(٦) جابر بن حيان (٧٢٨- ٨١٥م) الموافق (١١٠- ١٩٩هـ) كيميائي وفيلسوف عربي عاش في القرن الثامن الميلادي نسجت حوله الأساطير نشر ما يربو على ثلاثة آلاف رسالة وكتاب منها كتاب (أسرار الكيمياء) و(ميدان العقل) وهو صاحب مذهب (الميزان) الذي يكشف في كل الجسم الظاهر والباطن ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية، وسمي Geber: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٢٥٤).

(٧) الجاحظ (٧٨٠- ٨٦٩م) الموافق (١٦٣- ٢٥٥هـ) هو عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري ولد وتوفي في البصرة وهو من أشهر الأدباء في التاريخ العربي وقد ذاع صيته في العصر العباسي: (الجاحظ: حياته وآثاره، طه الحاجري- الطبعة الثانية، ١٩٦٩م، القاهرة، دار المعارف).

(كالخوارزمي)[1]، وبسبب تبحرهم بفلسفة اليونان لم يسلم من شطحات الفكر منهم إلا القليل، والإنكار على عامة الفلاسفة المسلمين كان عنيفًا نظرًا لاقتحامهم هذا الميدان الشائك بعمقٍ نقل بعضهم إلى الإعجاب المبالغ فيه بهذا الفن على حساب بعض ثوابت الأمة التي لا تقبل المساس بها بحال، ونظرًا لغرابة ما تفوه به بعضهم حول الوجود والغيبيات وأزلية العالم وغائيته، فقد أُمطروا بأقصى عبارات الرفض القاسية لما قدموه، واتهموا بالضلال، وأدخلهم بعض منتقديهم إلى دائرة الكفر والإلحاد، ولقد بدر من بعضهم ما يبرر تلك القسوة عليهم، ولكن الإنصاف مطلوب، وهم في نهاية الأمر بشر يجتهدون، فيخطئون ويصيبون، وليسوا محصنين من الزيغ والضلال، وليسوا أنبياء يقتدى بأقوالهم وأفعالهم على إطلاقها، فمن ضل منهم فإنما يضل على نفسه، ولا يضر بضلاله هداية المهتدين إذا اهتدوا بحق[2]، ولا يمكن الإنكار المطلق على بعض العلماء الذين تصدوا بقوة لآراء بعض فلاسفة المسلمين حتى لو وصل الأمر إلى تكفير بعضهم إما بسبب اعتقادهم بقدم العالم، أو لقولهم: إن الله لا يحيط بالجزئيات، أو إنكارهم بعث الأحياء بعد الموت.

لكن جذوة إيمان فلاسفة المسلمين المؤانسة لهم والحاضرة دائمًا في كل منازلة فكرية، لا تقارن أبدًا بذلك الغبش الموحش والجفاف الحاد عند غيرهم من فلاسفة الأمم الأخرى، ويبقى العتب على المسلمين؛ لأنه بمقدورهم بسبب ما عندهم من وحي منزه عن التحريف أن ينشروا الإيمان الصحيح بين الناس انطلاقًا منه، فيقدموا نص الوحي بديلًا عن تخرصات البشر المتناقضة، فيصبحوا بذلك سادة الأمم والحضارات في تناول الغيبيات وحسم الجدل حولها؛ لأنهم أمة القرآن المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من

---

(١) هو محمد بن موسى الخوارَزمي (٧٨٠- ٨٥٠م) الموافق (١٦٣- ٢٣٥هـ) من أشهر علماء المسلمين في الرياضيات والفلك فصل علم الجبر عن الحساب وارتبط اسم ألغورثيم Algoritmi باسمه إلى يومنا هذا نبغ في الرياضيات ليقدم للمسلمين بديلًا عن الحسابات الرومانية المعقدة في الميراث والوصايا وقد عينه المأمون رئيسًا لبيت الحكمة في بغداد أرقى جامعة عربية في وقتها: (مجلة البحوث الإسلامية الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، المجلد الخامس، ص١٨٦).

(٢) مما لا شك فيه أن غالبية فلاسفة المسلمين قد تأثروا سلبيًّا بما قرؤوه عمن كان قبلهم ويلاحظ أن عناوين كتب فلاسفة المسلمين تعكس أزمة ومعاناة من نوع ما عندهم ومثال ذلك: النجاة الشفاء الإلهيات: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٤١).

بين يديه ولا من خلفه، خلافًا لغيرهم ممن أصبحوا ضحية الدين المحرف والنصوص المتباينة والمرجعية المتعددة، فجميع فلاسفة المسلمين مهما شطحوا بأفكارهم، لم يسجلوا حدة في إلحاد، أو شك أو إنكار بالدرجة التي رصدها التاريخ على بعض الفلاسفة من الأمم الأخرى، ولكن يؤخذ على الجيل الأول من فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا والرازي إعجابهم المطلق بالمعلم الأول (أرسطو)، وانجرافهم نحوه على الرغم من إيمانهم بالوحي والنقل الثابت الذي يغنيهم عن كثير مما استدركه عليهم الفلاسفة المتأخرون بعدهم[٣].

ومما يتميز به فلاسفة المسلمين أنهم ينطلقون من منطلقات إيمانية موجهة نحو هدف محدد، تختلف عن تلك السبل المتشعبة التي يسلكها غير المسلمين في كل اتجاه، فالمسلمون يتناولون علم الفلسفة على أنه مساند ومفسر ومبين لبعض الحقائق الثابتة عندهم بالوحي، يقول (ابن مسكويه)[٤]: «إن الإنسان لا يزال يترقى، ويزداد ذكاء وصحة في التفكير وجودة في الحكم حتى يبلغ الأفق الأعلى الذي يصل به إلى إحدى منزلتين: إما أن يديم التأمل في الموجودات... حقائقها... الأمور الإلهية، وهذا دور (الفلاسفة)، وإما أن تأتيه كل الأمور خالصة من الله من غير سعي فيه، وهذا دور (الأنبياء)، بتلقي الفيض منه (أي الوحي)، فإذا التقى من وصل من الأسفل بالتفلسف الصحيح مع من جاء من أعلى بالفيض، اتفق رأيهما، وصدق أحدهما الآخر بالضرورة لاتفاقهما في تلك الحقائق وذلك في الإيمان بوجود الله فقط، ولا يعني هذا تساوي الفيلسوف بالنبي»[٥].

*****

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٥٧.

(٤) هو أبوعلي أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن المتوفي سنة ٤٢١ هجرية: (سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء ٢٠، ص١٩٧).

(٥) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٦٤.

الفلاسفة والمربع الأول!

هكذا نرى أن الفلاسفة مع اختلاف مشاربهم وأديانهم قد بذلوا كل جهد ممكن للوصول إلى سر هذا الوجود، ولم يتركوا فرصة إلا وحاولوا النفوذ من خلالها مستميتين في فهم وتفسير الوجود ومآلاته وما قبله وما بعده من غيبيات، وجميع تلك الجهود المبذولة كانت ولا تزال تدور في حلقات مغلقة، لم تستطع اختراق حاجز الغيب بحال، بل ولم تصل من سلم المعرفة المتاح للبشرية إلى شيء ذي بال، فكيف بما لا مجال للبشر الوصول إليه، والمحاولات الفلسفية لا تخلو من نزعة غريبة نحو هذا العزوف غير المبرر عن الحقيقة الكبرى والخيار الأوحد في حل لغز هذا الوجود جملةً وتفصيلًا، ماضيه وحاضره ومستقبله، ألا وهي إدراك الحقيقة الفطرية البدهية، التي ترد بين ثنايا مواقف بعض المستبصرين من الفلاسفة، دون أن يعطوها حقها من التوضيح والبيان، إنها فطرة الإيمان بالخالق وحده لا شريك له، التي جاء الوحي كله مساندًا لها بقوة، مؤكدًا أن الملاذ هو الفطرة والوحي فقط؛ لأننا بوصفنا بشرًا باختلاف أفهامنا وتباين عقولنا، وقفنا ونقف وسنقف مستقبلًا عند حد معلوم لعقولنا ولإدراكنا وتصوراتنا وخيالاتنا ولا حيلة لنا فيما بعده، وعلينا أن نتواضع من كبريائنا الوهمي أمام أهوال علم الغيب الحقيقية؛ لأننا لا يمكن أن ندرك ما لم نخلق لإدراكه[1]، ولا نتصور ما لم نخلق لتصوره، ولا نتخيل ما لم نخلق لتخيله، ولا نعلم ما لم يكن في مقدورنا العلم به، هكذا قضي الأمر وانتهى، مهما قدمنا من مقدمات، وتمسكنا به من نتائج موهمة، ومهما بلغ بنا الغرور والتعصب، فإن الحقيقة هي أنه هو وحده ربنا، وهو وحده: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

إن محصلة العصف الفكري والفلسفي عبر التاريخ، لتؤكد أن العقول الصحيحة عند جميع الأمم والأمصار والحضارات والأديان، تتفق فيما بعد التأمل والتدبر العقلي الخالص من شوائب الهوى، على الاعتراف الصحيح بوجود الله خالقًا ومدبرًا لهذا

(١) يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن للعقل حدًّا ينتهي إليه كما أن للبصر حدًّا ينتهي إليه): (العقيدة الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ١٣٨٥هـ، ص١٩).

الوجود، وعلى الإقرارالصريح بأنه واحد أحد في ملكه لا ينازعه أحد من خلقه[1]، ويجب أن يكون هذا الإقرار مطلقًا نشعر بوجوبه علينا، سواء أوصلتنا إليه الأدلة الحسية والعقلية أم بقي قدرًا فطريًّا مستقلًّا لا استقرار ولا توازن في وجودنا إلا به.

ومع هذا الإقرار والإيمان، فإننا نعترف بالإجماع أننا لا نعلم عن أي شيء في هذا الوجود أو قبله أو بعده شاء الخالق أن يبقيه غيبًا محجوبًا عنا، ولا يمكن أن نعلمه إلا بإذن من جعله غيبًا عنا، ولا ينكر عاقل أن وجود الموجودات، والإيمان بوجودها، ليس مقصورًا على ما يعلمه المرء عنها، ولا على ما يعلمه البشر مجتمعين، بل ولا على ما يعلمه الخلق أجمعون، أنت لا تحتاج إلى الأشياء المعقدة لتثبت عجزك أمام إثبات الحقيقة ووجودها، عندما تطلب -على سبيل المثال- من إنسان أن يحسب الأعداد تصاعديًّا من واحد وحتى المئة صامتًا، فتتركه وفي أثناء عملية العد وقبل نهايتها سقط عليه جدار، فانتهى أجله، قطعًا هو قد وصل إلى رقم معين (ولنفترض أنه الرقم ٤١)، وهذه حقيقة عنده لو رجعت إليه الحياة لأخبرك عنها، ولكنه فارق الحياة إلى الأبد قبل الإفصاح عن الحقيقة وأنت لا تعلم ولا أحد من الخلق يعلم أنه قد وصل إلى رقم ٤١ عدًّا قبل أن يموت، فهل استحالة معرفتنا بوصوله إلى هذا الرقم الذي وصل إليه، يعني عدم وصوله إليه كحقيقة لا تقبل الجدل عند الذي كان يعدّ الأرقام قبل موته؟ إنها حقيقة حاسمة على الرغم من جهلنا بها تمامًا، وعلى هذا كم ستكون الحقائق الحقيقية في وجودها الغائبة في تصوراتنا!

سيعرف الفلاسفة حجمهم الطبيعي عندما يدركون أن الإحاطة العلمية بالموجودات، وكذا علم الغيب (الميتافيزيقيا)، كل ذلك علم إلهي سري محض، فوق مقدرة استيعاب البشر مهما أوتوا من علم، وهذا الغيب لا طاقة للفلاسفة ولا غيرهم بمعرفته إلا من ارتضى الله من رسول، وكل المحاولات المبذولة لتقريبه أو برهنته بما لدينا من محسوسات ومدركات وقوانين ومنطق، إنما هو عبث بشري وخداع منطقي، وسراب واهٍ، لا يصمد أبدًا أمام ضياء هذه الحقيقة الجبارة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وهذا الأمر المستعصي علينا نحن معشر الخلق، لن يكون كذلك في علم من أوجد هذا

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٠٨.

الوجود، وقدر مقاديره، بل هو يسير عليه جدًّا جدًّا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] وعلى الرغم من هذا العجز والقصور البشري، سيبقى إيماننا بهذا الغيب ضرورة كونية واجبة، وبلسمًا لأمننا واستقرارنا وسعادتنا، وعامل توازنٍ نفسي لا غنى لنا عنه في حياتنا وبعد مماتنا، وهنا يجد الفلاسفة أنفسهم مرغمين للاعتراف بالعجز والرجوع إلى مربعهم الأول (الفطرة) إذا تجردوا من العناد والمكابرة.

أما مصدر معرفتنا بالغيبيات وأسرار بدء الخليقة وانتهائها فهو محصور إما في معلومات فطرية أولية فطرنا الله عليها، وخرجت إلى الدنيا معنا، لا انفكاك بيننا وبينها، وكأنها عضو من أعضائنا، أو يكون المصدر في وحي منزل خاطبنا فيه ربنا بلساننا وبخبر هو أصح الأخبار وأصدقها وأبقاها، ويجب علينا أن نصدقه تصديقًا جازمًا دون تردد ولا تسويف، اقتناعًا به وتعظيمًا لمن أنزله علينا، وفقرًا منا إليه سبحانه، ولعدم وجود البديل المعرفي في علم الغيب مطلقًا، سنسلّم ونستسلم لهذه الحقيقة الإيمانية الكبرى، وسنجد أنفسنا في هذه اللحظات العاجزة أمام القدرة العظيمة لخالقنا، متوجهين إليه بوجوهنا وقلوبنا كما توجه أبونا إبراهيم عليه السلام من قبل، حين قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

إنه لمن الضرورة أن يقال لك: انهض من ساعتك هذه، وصحح مسارك الإيماني، واستقم وتجاوز قضية الفلسفة والمنطق نهائيًّا، ولا تأبه بها ولا بغيرها من جدل البشر، فـ(في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل)، ورتب أولويات وجودك وما بعد موتك بالإيمان الباقي وفق خبر الوحي، فليست الفلسفة بأكثر من كونها فنًّا من الفنون الإنسانية، وضربًا من علم المعرفة العامة، ليست ضرورية ولا مقدسة، ولا ترقي أبدًا لتواجه أيًّا من نصوص الوحي المقدس والمنزل من الله، ولا مقارنة ولا سواء، وكيف تعدل إلى قول البشر عازفًا عن قول رب البشر الذي خلقهم، وخلق عقولهم التي فكروا، وتفلسفوا بها وهو الذي يحييهم ثم يميتهم وإليه النشور، هذا هو الموقف الفطري السليم لكل واحد منا أمام المجادلين، فليكن هكذا موقفك من جميع علوم المعرفة الدنيوية، ومنها الفلسفة، التي إما أن تتبحر فيها لتجد غنمها وخيرها، أو أن

تتركها جانبًا، فإنه لن يفوتك شيء ضروري بتركها، إذ لا يجدي تناوشها من بعيد أو التجول في أطرافها، وتأكد أنها ليست علمًا واجب التعلم، ولا من أركان أو شروط عبادة من العبادات، بل ولا حتى من فروض الكفايات ولا المندوبات ولا من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار.

يجب علينا التوجه الفوري إلى الله بعيدًا عن تخرصات الفلاسفة ومنطق المتكلمين، سنتوجه إلى الله منيبين إليه عابدين وساجدين له، جاثين على ركبنا، منكسرين بين يديه، نتضرع إليه، وهو القوي العزيز الذي قدر أن تكون قلوبنا وعقولنا ونواصينا وماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وجميع شأننا بين يديه وبيده سبحانه، وحتى هدايتنا إذا اهتدينا فهي منه، وسلامتنا إذا سلمنا فهي منه وإليه وعنده وحده لا شريك له، وبعد أن تبين لنا هذا الحق المبين، فلا حكم إلا حكم الله، ولا صوت إلا صوت الحق ومن نطق به، ولن نسمع ولن نلتفت إلى أي مخلوق ضعيف يحاول صرفنا عن الوحي والفطرة، وهو لا يملك من أمره شيئًا، ولا يغني عنا ولا عن نفسه من الله شيئًا، وسنركع دامعة عيوننا طاعةً وتعظيمًا وإجلالًا لله الواحد القهار متضرعين إليه بقلوب وجلة ونفوس مشفقة وعيون باكية، قائلين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

*****

الفَصْلُ التَّاسِعُ

الإلحاد ظاهرة أم حقيقة؟



الإلحاد ظاهرة أم حقيقة؟

تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، ولا رب إلا الله ولا خالق إلا الله، ولا باقي إلا الله، وكل ما في الوجود آتي الرحمن عبدًا، يسبح له ما في السماوات وما في الأرض، ويسجد له ما في السماوات والأرض طوعًا أو كرهًا، والحديث عن أمر دنيوي من هذه الموجودات من أرض وسماوات وأجرام سماوية، أو وصف لأعمال الدنيا وأحداثها من خير وشر وإيمان وكفر وإلحاد وموت وحياة ومعتقدات، كل ذلك داخل في الأشياء التي تقع تحت هيمنة الجبار العظيم على ملكه العظيم، فلا داعي أبدًا للقلق من سماع مصطلح الإلحاد، ولا حتى من وجوده أو وجود الكفر والشرك ممن أعماهم العناد والكبر عن قبول الحق، فالأمر أعظم وأكبر، وكله لله وإنا وكل شيء في هذا الوجود من ملموس أو محسوس، مادي أو معنوي كل ذلك لله وإنا إليه جميعًا راجعون.

نستحضر هذه المسلمات الكبرى قبل أن نتحدث عن ظاهرة الإلحاد التي هي شائبة عرضية لا تعكر صفو هذا الإيمان الكوني الداحض لكل شبهة والمعالج لكل وسوسة، والاعتراض على تضخيم ظاهرة الإلحاد بين الناس لا يعني تجاهلها، إذ لا يمكن إنكارها وقد اختصم حولها البشر عبر التاريخ ابتداءً من الدهريين وانتهاءً بالمعاصرين، ولكن مهما بلغت تلك الظاهرة فلن تكون بالحجم الذي يروجه دعاته الذين يوهمون الناس بعبارات نفسية مضللة مستخدمين تكتيك (الصدمة والترويع)، فيستفيدون من الانعكاسات النفسية القوية لدى أصحاب الفطرة السليمة عندما يسمعون عن أي همسة إلحادية، ثم يجفلون منها خوفًا على إيمانهم الثمين، وثقة الأمة بإيمانها بربها جعلتها تكتفي بالدفاع فقط عن الإيمان أمام مشاغبات هذه القلة المزعجة وهجومها من مروجي الإلحاد الذين لو وضعوا في موقف الدفاع عن قناعاتهم الزائفة لانهارت دفاعاتهم فورًا، ولم يجدوا عن الحق المبين محيصًا.

المشكلة مع الإلحاد ليست في عدد معتنقيه الذين هم أصلًا أقلية هامشية تكاد تكون منبوذة بين الناس، وإنما في حجم الضجيج والإزعاج والأذى الذي يسببه وخز

الإلحاد في صفاء نسيج الفطرة الإيمانية السليمة، إنه أشبه ما يكون بذبابة صغيرة تزعج آلاف الموجودين فى قاعة كبرى يتدارسون أمرًا عظيمًا دون أن تشكل خطرًا على وجودهم، ولعل أبلغ وصف لحجم الإلحاد الحقيقي هو ما يمكن استنتاجه من مقولة زعيم الملحدين المعاصر (ريتشار داوكيز) حيث قال: «إذا كانت القطط (ويقصد بذلك الملاحدة) لم تمثل قطيعًا بعد، فإن أعدادًا معقولة منها تستطيع أن تصدر ضوضاء مزعجة لا يمكن تجاهلها»[1].

وأما الإلحاد الحقيقي فهو موجود أيضًا، ولكنه في أضيق دوائرالاعتقاد قابعٌ في زاوية نائية من سلم الفكر والمعرفة الإنسانية، يخشى تدفق طوفان الإيمان، ويترقب انقضاضه عليه اعترافًا منه بأن لا طاقه له به، وتحديدًا يقع الإلحاد الحقيقي في منطقة (ما) بين معتقدات قلةٍ ملحدةٍ تضخم هذا الأمر تظاهرًا لا اقتناعًا بهدف الاستئناس بالأرقام من وحشة الإلحاد المهددة للكيان النفسي عندهم، وبين تجاهل الظاهرة الطبيعي جدًّا من قبل الأغلبية الساحقة من مليارات البشر المؤمنين والمنشغلين عنها بما هو أهم وأولى في حياتهم.

وتبقى المبالغة بتضخيم ظاهرة الإلحاد وتنامي أعداد الملحدين، خطوة تفتقر إلى الموضوعية والبرهان، إذ لا توجد إحصائية علمية دقيقة عن نسبة الملحدين في العالم، والحديث عن نسبة الملحدين في أي مجتمع لا بد أن يسبقه تحديد لنوع الإلحاد[2] المزمع دراسته، أهو الإنكار المطلق أم الشك؟ أم اللا أدرية؟ أم أنه إحباط له سبب جوهري انعكس على شكل ملل وضجر وانصراف عن الدين، وهكذا كل ما في الأمر أن جهة (ما) تتلاعب بالمشاعر الغافلة، تنتقي مجموعة من الأشخاص ربما لا يمثلون المجتمعات قطعًا، ومن خلال استبيان مبسط موجه، ينشرون استقراءهم، ما يعطي تضليلًا موهمًا، بيد أن هناك بعض الدراسات الميدانية توضح أن نسبة الإلحاد الحقيقي

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٣٠.

(٢) حالات الإلحاد إما أن تكون ظاهرة (لا دينينة) وهو عدم الاعتراف بالإيمان والأديان والصلة بالله أو (لا أدرية) وهي حالة وسط بين الإيمان والإلحاد وكل الحالتين إلحاد خطير لا يعفي من المسؤولية أمام مواجهة المصير المحتوم للإنسان عند خروج روحه وإدراكه لمصيره.

قد تصل في أمريكا إلى نحو ٥٪، وفي باكستان ١٪، وماليزيا ٤٪[١]، في الوقت الذي لو تتبعنا مبالغات الملحدين وضجيجهم الإعلامي لتوقعنا أن أكثر من نصف سكان الأرض ملاحدة، تلك أمانيهم والله يخيبها بإذنه تعالى، ولا نستغرب من دعاة الإلحاد هذه الاستماتة في ترويجه إذا كان أهل الكتاب على إيمانهم بالله يحملون ضد المسلمين شعورًا مقاربًا يتمنون به كفرهم لدوافع لا علاقة لها بالمعتقد كالحسد، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

إن أخطر ما في ظاهرة الإلحاد أنها تبدأ سرًّا داخل الكيان النفسي للإنسان، ثم تتطور بصمت قبل أن يصل (المصاب بها) إلى مرحلة التصريح، تحت مقاومة هائلة من الدفاعات الإيمانية الفطرية، والنفور من البيئة الرافضة له، ويبقى هذا التخوف الذي يغشاك من أي جزئية إلحادية دليلًا قاطعًا على وجود إيمان متجذر في قلبك يزاحمه سماع هذه الكلمة ولا يتكيف معها، ولولا ترويج ظاهرة الإلحاد وتضخيمها في الوقت الراهن وتداول الناس لمصطلح الإلحاد بدرجة أكثر نسبيًّا من الماضي، وقلق الأبرياء من وهمه، لما تطرقنا إليه في هذا الكتاب؛ لأنه ليس قضية كبرى، وماذا سيكون شأن حفنة محدودة من الناس تزعم اعتقادها بالإلحاد مقارنة بيقين المليارات المؤمنة من شتى الأديان حتى وإن كانوا يقعون في أشد الذنوب كالمشركين أنفسهم الذين قال الله عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

سيبقى الإلحاد ظاهرة لا تغير من الأقدار الكونية الكبرى شيئًا، ونواميس القدر تسير في طريقها، وعجلة الأحداث تسير وفق ما هو مقدر لها، ومن ذلك رسوخ الإيمان

---

(١) أجرت صحيفة النيويورك تايمز في عددها الصادر في ٢٧ فبراير ١٩٩٢م استطلاعًا في صفحتها التاسعة كانت نتيجته أن ٩٦٪ من الأمريكيين يؤمنون بوجود إله للكون وكانت نتيجة استطلاع أجرته مجلة US news World Reprot في ص٤٨ من عددها الصادر في ٤/ ٤/ ١٩٤٩م أن ٩٣٪ مؤمنون: (نقلًا عن كتاب: الفيزياء ووجود الخالق، جعفر إدريس، ص١٩).

عند خلق الله من بشر وشجر وحجر ووجود، فالكل عبدٌ لله، يسبح بحمده، وأيًّا كان الأمر فعلى الإنسان أن يحافظ على هذا الكنز الثمين من الإيمان الفطري الراسخ بداخله، وينجو بنفسه من أهوال الدنيا الموصلة إلى أهوال الآخرة مع فقدان الإيمان، لينتبه الإنسان لنفسه غير مكترث بمواقف الآخرين من حوله، وعليه أن يوطن نفسه على هذا الموقف الإيماني حتى لو كفر وألحد وأشرك من في الأرض كلهم جميعًا، فليكن رأسه مرفوعًا، وأن يعتز بإيمانه، وصلته وأنسه بربه الذي هو معه في كل مراحل وجوده حتى يلقاه.

إن سبب وجود هذه السعادة الخاصة التي تغمرك وأنت تنعم بيقين الإيمان - يا عبدالله - هو شعورك الصادق بأن معك ربًّا قويًّا قادرًا حيًّا لا يموت، يعلم كل شيء عنك وعن غيرك من الخلق، فالقرب منه سعادة ونجاة، والبعد عنه شقاء وهلاك، يأنس المؤمن بربه الخالق في حياته، ويطمئن إلى وعده الحق بعد مماته بأنه سيكون في رعايته وعنايته، فمن ذا الذي ينازعنا هذا الإيمان اللذيذ بوجود الله؟ هذا الإيمان هو الذي يجعل وقع كلمة (إلحاد) ثقيلًا مخيفًا مرعبًا على مسامع أصحاب القلوب المؤمنة، ولا يلامون على ذلك، فهذا الشعور الفطري النافر من الإلحاد شهادة لهم بالإيمان الأصيل المتجذر في قلوبهم، كما قال الحسن البصري عن النفاق: «ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق».

والإلحاد دخيل غريب على منظومة الوجود كله، ففي أول الخلق كان أبونا آدم وأمنا حواء والملائكة مؤمنين إيمانًا مطلقًا، بل وحتى إبليس زعيم كل شر في الدنيا في حواره حول علاقته ببني آدم، كان يطلب من الله أن ينظره إلى يوم البعث، فلا ملحد حينها من الخلق، وعلى الرغم من وجود جذور الإلحاد في التاريخ القديم إلا أنك تعجب أن أول كتاب يصدر في أوروبا مصرحًا بالإلحاد كان عام ١٧٧٠م، وفي بريطانيا عام ١٧٨٢م[١]، وأن نسبة الملحدين في أوروبا وأمريكا لا تزال قليلة جدًّا مقارنة بالمؤمنين بوجود إله للكون.

وعلى الرغم من تردد مصطلح الإلحاد على مسامع الناس إلا أنها تتفاوت تصورات الناس عن صوره، ويمكن القول: إن المقصود بالإلحاد الدارج في العصر الراهن هو مجرد

(١) الفيزياء ووجود الخالق، جعفر شيخ إدريس، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص١٩.

الإنكار الرافض للإيمان دونما منطق ولا فلسفة ولا برهان، وله أربع صور شائعة: إما أن يكون ابتلاء بتضارب الأفكار لسبب حسي أو معنوي، أو جهل أو إصابات عقلية مربكة للتفكير، انتهت بالإنسان إلى فوضى واضطراب لا يقدر على التحكم به، وإما أن يكون ما يسمى الإلحاد الفكري القائم أصلًا على إنكار وجود الله مع الإعراض عن البحث والتحري في الأمر، وإلحاد ثالث يجد فيه صاحبه حرية مطلقة لإشباع شهواته بلا قيود تحت مظلة الإلحاد، وملحد رابع يتبنى الإباحية سلوكًا، ويروجها، فيستميت في المدافعة عنها لدوافع غرائزية بحتة ليس فقط لملذاته بل بهدف توسيع دائرة الفساد وإشاعة الفاحشة بين الناس جميعًا ليأنس بهم في ضلاله، والصورة الأولى هي الأهم في التطرق لقضية الإلحاد، أما بقية الصور فهي صور شيطانية بحتة ناتجة عن العناد وعبادة الشهوات واتباع الهوى، تحت ذريعة دعوى الإلحاد، وليس المقصود منها إنكار الله بقدر ما هي بوابات شهوانية للتحرر من القيود والآداب العامة لإشباع الغرائز تحت الخديعة الكبرى الزائفة بأنه لا إله، ولا حساب بعد الموت.

أما الصورة الأولى من الإلحاد فهي المقصودة هنا، التي يمكن تصنيف ضحاياها إلى ثلاث مجموعات رئيسة، وهي:

١- مجموعة المفكرين والفلاسفة التائهين الذين انخدعوا في نظرية داروين (العلمية) ومن ثم أقنعوا أنفسهم بأن الوجود يرجع إلى المادة الأولية، وأنه لا يحتاج إلى إله، وعليه لا توجد ضرورة لبحث هذه المسألة، وأن العلم قد كفى الإنسان ذلك، فوجدوا في الإعراض راحة بال شكلية وتخلصًا من مأزق الجدل العقيم، ومن المعلوم ما دار مؤخرًا من جدل حول صحة نظرية داروين التي لم تكن أصلًا محل إجماع علمي، علاوة على قوة حجج من قالوا: إن تاريخ الإنسان لم يبدأ من الصفر، ثم يتصاعد في خط مستقيم في التطور كما يزعم الماديون، بل إن الإنسان قد دخل هذه الحياة برأس مال أخلاقي مبدئي هائل لم يكن موروثًا ولا منقولًا عن آبائه المزعومين من كائنات حية أخرى[١].

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش، (مرجع سابق)، ص٢١٤.

٢- مجموعة الانتهازيين كالشيوعيين الذين يريدون تسخير البشر لعبادتهم والسير وراءهم لاستغلالهم في الصناعة والإنتاج، فوجدوا الدين عائقًا دون تحقيق هذه المآرب الدنيئة، فحاربوه وقاتلوا من لا يوافقهم، وأكرهوا على ذلك بلا رحمة.

٣- مجموعة الفئات الصامتة والمتفرقة من شتى الملل والأديان ممن لديهم شكوك كامنة عن وجود الله دون أن يطرحوها للنقاش إما ترددًا أو خوفًا(١).

*****

النفور من الإلحاد

لِنُنَحِ جانبًا كل شيء قيل أو يقال أو سيقال عن الإلحاد من كتب ومناظرات وغيرها يتشبث بها أصحابها وفق قاعدة: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] ولنرجع إلى تحكيم الذات المحكومة بالفطرة، لن أحيلك - أخي القارئ - إلى كتب التاريخ والمراجع التي قد نختلف حول صلاحيتها للاستدلال، بل لا بد من الدخول إلى أعماق نفسك، وتحديدًا إلى منصة مسارحها الباطنة والأكثر مصداقية عندك بلا شك، يكفي أن أخاطب وجدانك المتلمس للحق عازفًا على وتر الثقة المطلقة بينكما، فتعالَ حدثني بصدق عن نفسك، هل يمكن أن تفسر لنا سر هذا الشعور الذي يغشاك فجأة عندما يطرق مسامعك هاتان الكلمتان (إلحاد) و(ملحد)؟ حدثنا بصدق عن هذا المزيج الغريب من الرعب والنفور اللاإرادي، والاهتراز الوجداني الذي يباعدك عنهما، والحيرة الممزوجة بحب الاستطلاع مدًّا وجزرًا، شدًّا وجذبًا بداخلك، لمجرد سماع هذه الكلمة ومشتقاتها، وكأنك حين تسمعها قد رأيت ثعبانًا ضخمًا يلتف على عنقك، أو حيوانًا مفترسًا يقترب منك، أو شبحًا كاسرًا يتربص بك، ففي الوقت الذي تريد أن تحمي نفسك من خطره، تجد نفسك أيضًا مشدودًا لمشاهدته من أجل الحذر منه، وإن كنت خائفًا من الاقتراب منه، وهنا تتحرك لديك غريزة حب الاستطلاع، التي لا تظهر

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٢١.

عادة إلا لمعرفة ما وراء الأشياء الغريبة، ما يؤكد أن (الإلحاد) غريب ودخيل على الحياة، ويتنافى مع توازناتها واستقرارها المادي والروحي.

قارن هذه الحالة المرجفة، وتلك الطمأنينة والاسترخاء الذي تنعم به عندما تكون بين أهل اليقين والإيمان، أو عندما تكون منهمكًا في حياتك اليومية المغلفة بالإيمان الفطري المتوازن الذي تتذكره دائمًا، ثم تذكر أيضًا أن الأفكار المقلقة لا تزاحمك إلا في أوقات الفراغ الشديد، وكأنها نفايات تتراكم في فجوة تُركت فارغة من شيء مفيد وثمين! يتم ردمها بأي مادة أو فكرة، حتى لو كان ذلك خوضًا عشوائيًّا في الإيمانيات الراسخة؛ لأنها الأقرب والأكثر مناسبة ومناغمة لضميرك، ولأنها أيضًا متواصلة لا تنتهي أبدًا، وماذا لو لم يكن هناك فراغ فكري أصلًا، عندما تملأ وعاء الفكر بالعلم النافع، بحيث لا تترك فسحة ولا هامشًا لأي متسلل غريب إلى فكرك الناصع، أرأيت فوائد التذكير الدائم بالتزود بالتقوى والعلم النافع وتلاوة القرآن؟!

نحن هنا لا نغالط أنفسنا، فننكر وجود ظاهرة الإلحاد المنغصة على الأجواء الإيمانية العامة، حتى وإن كانت بدرجات متفاوتة، ففي الوجود مهتدون وضالون، لكننا ننادي بقوة بأن توضع هذه الظاهرة في حجمها الطبيعي بل والهامشي جدًّا على المنصة المزدحمة بالفكر السوي، والإيمان الصادق والوحي المنزه والفطرة السليمة، بعيدًا عن ذلكم التهويل والتعقيد الذي يوحي للمتابع وكأن الأمر يضاهي وباء الطاعون الذي اكتسح أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي، والذي قضى على ما يقارب ثلث سكان القارة خلال أربعة أعوام فقط (١٣٤٧-١٣٥١م)، يجب أن نكشف الحقيقة، ونعلن بصوت مرتفع أن ظاهرة الإلحاد على الرغم من حساسيتها ما هي إلا قشرة سطحية على كوكب اليقين العظيم، قوامها شظايا متناثرة من شذرات التيه الفكري والاضطرابات التي لا تصل بسهولة إلى أعماق الإيمان الفطري المتجذر في النفوس المتوازنة، ولم يعرف العالم الإلحاد المعلن قبل حلول القرن الثامن عشر الميلادي سوى وجود قلة لا تكاد تذكر، وأحيانًا لا يظهرون أفكارهم خوفًا من سطوة أهل الفطرة السليمة عليهم، حتى جاءت

الثورة الشيوعية، وأسست دولة الإلحاد بالحديد والنار، ثم ما لبثت أن انهارت هي الأخرى فيما بعد؛ لأنها أسست على شفا جرف هارٍ، فانهار بها[1].

يستطيع الإنسان العادي أن يقارن بفطرته السلمية بين الحالة النفسية لمفكر أو فيلسوف أو عالم عالمي ملأ الدنيا ضجيجًا وجدلًا بمحاولات جبارة منه لإثبات ما لا يمكن إثباته ماديًّا من الغيبيات، أمضى حياته لاهثًا وراء ذلك، وبين الحالة النفسية لامرأة عجوز ترعى غنيماتها في صحراء نائية، وحيدة تحت خيمة ممزقة قد تقيها حر الشمس دون قر الشتاء، لكن هذه العجوز تصبح على يقين، وتمسي عليه، تنام وتصحو وهي على موعد أكثر يقينًا بوجود ربها بالغيب، ترفل بسعادة لا نظير لها لمجرد أنها تسير على طريق آمن نحو المستقر الأبدي والنعيم المقيم، تدرك معالمه وفق خارطة واضحة المعالم، وكلها أمل وكلها طمأنينة وابتسامات جميلة، وحسن ظن بخالقها؛ لأنها ستصل إلى المحطة النهائية التي سيصلها الجميع وأكثرهم خائفون، أما هي فستصل بكامل أمنها وطمأنينتها، لربما نراها عجوزًا مغمورة، لكنها تملأ الكون إيمانًا متدفقًا بأن الله ربها ورب غنيماتها ومنزل المطر الذي تشرب منه، وترعى عشبه، وهو جالب العافية ومقدر المرض ومدبر حياتها وموتها، هو الله الذي لا إله إلا هو، فتسير نحوه مشتاقة مؤمنة بكل يقين أنها بموتها ستأوي إلى بيتها ومستقرها الدائم عبر طريق سعادة تنقلب فيه المنغصات الطارئة إلى ملذات دائمة، لم تكلف نفسها أبدًا عناء البحث عن غيره؛ لأنها على يقين أن لا إله غيره ولا رب سواه، استقوت بهذا القوي وهي الضعيفة، واستغنت به عن كل فقير ضعيف له، فوصلت إلى المنتهى في السعادة بركنيها الإيمان والعمل الصالح، إنها تلك الأنثى التي جاء خبرها ضمن أولئك الممدوحين من الذكور والإناث ممن هم على شاكلتها ينتظرون أعظم البشائر وأوفى الجزاء من الكريم الذي وعدهم بقوله: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧].

راقب نهاية هذه العجوز المؤمنة لترى وتعلم علم اليقين، أنه بعد مغادرتها الدنيا ودفنها في المقبرة، لن يكون هناك أي فرق بين قبرها وقبر ذلك العالم المفكر الذي أضناه

(١) الفيزياء ووجود الخالق، جعفر إدريس، (مرجع سابق)، ص١٨.

البحث عما لا طاقة له به للحصول على إجابات لتساؤلات أمضى عمره فيها دون جدوى، يقرّ في نهاية المطاف أنه عاجز عن الخلوص إلى ما خلصت إليه تلك العجوز من يقين دون عناء، لقد كانت نتيجة نفاد عمر ذلك المفكر والباحث عن الحقيقة أن استسلم في آخر المطاف، وهو يقترب قلقًا من قبره كما تقترب تلك العجوز المطمئنة من قبرها، وغاية ما يتمناه تلك اللحظة، وهو يغادر الدنيا هي قوله بكل ضعف واستسلام وانكسار: (اللهم، إيمانًا كإيمان العجائز)[1].

*****

إيمان النبيين لا إيمان العجائز

كنا نسمع في مراحل الطفولة والشباب من يحدثنا عن حيرة الفلاسفة وأهل الكلام، فلم نستوعبها، لم نشعر بأنها قضية تستحق التوقف عندها، لفضل الله علينا بوجود زاد فطري قوي فائض في أوساطنا، ولكوننا لا نشعر بإشكالية تصادم الأفكار المستوعبة، حتى طال بنا الأجل، وتفتقت أذهاننا لها، فأدركنا يقينًا أن قضية الإيمان بالله كانت ولا زالت، وستبقى من أهم القضايا الكونية التي تشغل أهل العقول على الإطلاق، وهي المدخل الأوحد لكل معرفة وتفسير، ولا ينبغي أن تبنى على قواعد هشة أو مجاملة أو تلميح أو منطق ضعيف أو مغالطات أو عرف موروث، بل لا بد من القوة في الوضوح الصريح والبيان بكل أمانة وإخلاص، وأن يتشربها العقل والقلب إلى الأعماق حتى يصل المرء إلى الحد الأدنى من الإيمان اليقيني الضروري، إنه إيمان المرسلين والصالحين والعلماء الذي يحصنه أمام الابتلاءات والشدائد، وليس إيمان العجائز الهش الذي قد

(١) هذه العبارة تنسب إلى فخر الدين الرازي والحقيقة أنها عبارة لا ينبغي أن تقال على إطلاقها إلا في حالات معينة كالرد على عبثية أهل الكلام حول علم الغيب؛ لأنها على إطلاقها توهم بالضعف والاستكانة وكأن المرء يلوذ بهذا الضعف نحو إيمان العجائز حيث النقاء والطهارة بديلًا عن تلمس الحقيقة الإيمانية الراسخة وحيث إن إيمان البسطاء والعجائز لا يصمد غالبًا أمام الابتلاءات والفتن كصمود إيمان الراسخين في العلم فالأولى أن يكون الدعاء: (اللهم، إيمانًا كإيمان الرسل والصحابة والعلماء الذين هم أشد خشية لله من العجائز).

ينقشع لمجرد وقوع مصيبة الموت لولد أو والد أو قريب، فيظهر الضجر والنياحة على حساب الصبر والاحتساب.

إن استحالة مجاملة الإنسان لنفسه في عقله الباطني هو ما يجعلنا نحيل إلى حواره مع ذاته حتى لو كان صامتًا؛ لأن الحوار مع الذات من أبلغ الحوارات أثرًا في النفس، والآن سوف نحيلك إلى ذاتك مباشرة وللمرة الثانية، ولنجعلك حكمًا أمينًا عادلًا مع نفسك! ولا نريد استنطاقك بالإجابة علانية خشية الحرج الوهمي الذي تربى عليه الكثير منا، بل وجه السؤال أنت بنفسك إلى نفسك سرًّا وتسلّم الإجابة منها سرًّا، وهذا يكفي للثقة التي نريد أن تعيشها معنا بكل محبة وود، ولنبدأ بالسؤال: هل رأيت أو سمعت أو وجدت ملحدًا سعيدًا عبر التاريخ؟ هل رأيت قط ملحدًا غير غارق في القلق المتواصل والوحشة واضطراب الحياة والبؤس والخوف الرهيب من المستقبل وتكرار تفكيره في الانتحار؟ بل بعضهم فعله، وانتحر! وهل يفكر في الانتحار من هو راضٍ بوضعه ومتوازن مع نفسه؟ قل لي بربك: ألا تغشاك وحشة غريبة عندما تعلم عن وجود ملحد، أو تقترب منه، أو تجالسه! لماذا تغضب، وتخرج عن طورك لو تقدم ملحد لخطبة إحدى قريباتك؟ أو العمل في مؤسستك وإدارتك؟ بل لماذا لا تقبل به صديقًا لابنك مهما كان مستوى تدينك!

وحتى وأنت تزور المقابر، وترى قبور الأموات، أتحدى أن تنفك من هذا الشعور الإيجابي الغريب أيضًا: كيف يكون شعورك، وأنت تنظر إلى قبرين أمامك: أحدها قبر أحد الصحابة أو التابعين كسعد بن معاذ وأبي عبيدة - مثلًا- والآخر قبر أبي جهل أو أبي لهب أو حتى قبر (الملحد/ عبدالله القصيمي)! قل لي بربك: إلى أي من القبرين تحب أن تُسجّى بعد موتك بجانبه ليجاور رفاتك رفاته، أي جهة من المكانين ستختار لرفاتك وعظامك البالية مستقرًّا لها؟، لاحظ أننا نتحدث عن قضية نفسية محضة لها علاقة بالرفات والعظام البالية فقط، وليس عن الحياة والمال والولد والروح! حتى وأنت تدرك أن هذا أمر نفسي، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، لكنك قطعًا لا تملك أن تتجاهل، أو تنكر تلك القوة الغريبة التي تقاربك من هذا، وتباعدك عن ذاك، تنحاز فطريًّا نحو قرب المؤمن حتى لو كان ميتًا، وتبتعد عن الملحد في الحياة وعن رفاته بعد الموت، وهنا أحيلك

إلى نفسك بكل ثقة ويقين بهذا الناموس الفطري الذي لا يمكن إنكاره، وهو يتجسد في هذا الشعور المتجذر داخل كل نفس متوازنة، فافهمه واتعظ، واعلم أنه برهان فطري مطلق، أكبر من كل قناعة ظاهرة سواء أكانت حقيقة أم مصطنعة! إنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ولا تبديل لخلق الله، وذلك هو الدين القيم.

إن هذا الحوار الذاتي داخل النفس المتلمسة للحق ما هو إلا جزء من الحقيقة المطمئنة التي تدعمها دراسات علمية دقيقة كتلك النتائج التي نشرتها الرابطة العالمية لمنع الانتحار والتي قام بها متخصصون أثبتوا فيها ارتفاع حالات الانتحار عند الملحدين لتصل إلى ٢٥٦ حالة من كل مليون (ملحد)، بينما سجلت حالة انتحار واحدة من بين مليون مسلم[1]، ووصلت عند الهندوس إلى ٩٦، وعند البوذيين إلى ١٧٩، و١١٢ حالة انتحار عند النصارى.

ترى ما هو السبب في تفاوت هذه النسبة؟ أترك لك الإجابة أيضًا؛ لأنها واضحة جدًّا، وأناشدك بالذي خلقك وأنت الآن متعطش لسماع هذه الحقائق من البشر الذين يخطئون ويصيبون، فتجد فيها بعض الأنس والراحة النفسية، أن تسمع أيضًا هذا النداء من رب البشر الخبير القدير والعليم بكل شيء، أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وبيّن للناس الرشد من الغي، وهو الحق وقوله الحق، إنها مناشدة من نوع خاص لا يليق بذوي العقول تجاهلها: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

حسبك يا ابن آدم، توقف هنا عن كل مكابرة أو عناد، واسمع كلام الخالق ﷻ، اخرج من غموض الوسوسة والحيرة إلى شاطئ الإيمان الآمن، لقد آن ذلك الأوان لكي تعلم أن هذا الارتياح النسبي الذي تجده في نفسك بعد طرح هذه التساؤلات عليها والإجابة منك إليك بصدق وتجرد، إنما هو نقيض الإلحاد الذي تخشاه تمامًا، بل هو من أقوى مؤشرات انتصار الإيمان الراسخ الذي تناغم فطريًّا مع هذه المنبهات، التي تعلن حالة الطوارئ لمجرد المساس بجوهر إيمانك، لتردك فورًا إلى ما فطرك الله عليه،

(1) A global perspective in the epidemiology of suicide, José Manoel Bertolote, and Alexandra Fleischmann, Suicidologi 2002,årg. 7,nr. 2.

وأشار إليه في محكم التنزيل بأنه جزء من خلقك، وأكد لك أنه راسخ لا تبديل له وأنه الدين القيم الذي أمرك بإقامة وجهك وتحديد وجهتك إليه وحده، فهو الملاذ الحقيقي من كل ما يقلق، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

*****

قلب الطاولة على الملحدين

إن حقيقة تصور الملحدين لفكرة الإلحاد لا تخلو من هوس عقيم لا يقبله العقل، فترجمة تبني الإلحاد عندهم هي: أنه كان هناك لا شيء! ولا شيء حدث للاشيء! وبعد ذلك وفجأة انفجر اللاشيء! ومن دون سبب أوجد شيئًا! ومن ثم ترتبت أشياء بطريقة (سحرية) لا يملكون لها أي تفسير، وتشكلت خلية حية تطورت لتصبح ديناصورات![1]

أي منطق هذا! يسألهم العقلاء: ما ذلك اللاشيء؟ وكيف عرفتموه وهو لا شيء؟ وكيف نتج شيء من لا شيء؟ ولماذا حدث مرة واحدة؟ لماذا لم يتكرر؟ فلا جواب! وسبحان من أخبرنا عن هذه الجدلية العقيمة وحيًا قبل وقوعها، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦].

وهناك حقيقة غائبة عن الكثير من الباحثين في ظاهرة الإلحاد، وهي إن أهم الأسس التي قام عليها الإلحاد هو اعتماده على الدليل السلبي، وهو الاعتماد على النفي والإنكار، أي إنه لا يملك أي دليل إثبات مستقل بذاته لما يدعونه، فهو يقوم على مهاجمة الآخرين واستهداف أدلتهم فقط بالنفي والتشكيك، ولو تتبعت مناظراتهم لوجدت أنهم عادة ما يطلبون من المؤمنين أدلة على وجود الله، ويبدو أن الناس جميعهم ماضون في محاولة إقناعهم بالأدلة عن حسن نية وطمعًا في ردهم إلى دائرة الإيمان مع الرفق بهم، ولو أننا

(١) مدونة ضد الإلحاد Anti Atheism على الشبكة العنكبوتية.

أذقناهم لوعة الجدال بأن نطلب منهم أدلة الإثبات على اقتناعهم المزعوم بعدم وجود الله لتورطوا، وذلك لأن أدلة إثبات وجود الشيء سهلة جدًّا مقارنة بأدلة نفي وجوده.

ولتوضيح ذلك، إذا أخبرت أحدًا بأنه يوجد في دولة الصين ثعبان أسود، حينها ما عليك إلا أن تبحث في أي زاوية منها لتجد ثعبانًا واحدًا بهذه الصفة، فيتقرر صدق ذلك الخبر عنك، ويختلف الأمر تمامًا عندما تقول: لا يوجد في الصين ثعبان أسود، ففي هذه الحالة وحتى يثبت صدقك يجب عليك أن تمشط بلاد الصين تمشيطًا دقيقًا بكاملها، بيتًا بيتًا، شارعًا شارعًا، مزرعة مزرعة، واديًا واديًا، جبلًا جبلًا، جحرًا جحرًا، حجرًا حجرًا؛ لكي تثبت صدق خبرك بالنفي، وهذا أمر في غاية الاستحالة، فالمثبتون لوجود الله يكفي أن يقدموا دليلًا واحدًا على ما يعتقدونه من حق وما أكثر الأدلة والحمد لله، بينما الذي ينفي ذلك عليه أن يقضي على كل احتمال لوجود أي دليل علمه الإنسان أم جهله يثبت وجود الله! وهذا مستحيل جدًّا جدًّا، وقد أشار إلى هذه الحقيقة (آدلر مرتيمر)[1] بقوله: «يمكن برهان نظرية وجود إيجابية، أما نظرية الوجود السلبية (النفي) فلا يمكن برهانها»، لكن عدم استخدام المؤمنين لهذا السلاح الفتاك في مواجهة الملحدين دليل ضمني على اللامبالاة بما يوسوس به الملحدون واعتزاز المؤمنين بإيمانهم.

ومما يتقوى به دعاة الإلحاد، ادعاؤهم أن غالبية العلماء والمخترعين والمكتشفين هم من الملاحدة، ولن نضيع وقتنا في الجدل لدحض هذا الادعاء الزائف، ولكننا سنكتفي بإحالتهم إلى ما نشره العالم الألماني الدكتور (دينرت) عندما أجرى دراسة علمية على ما يقارب ثلاث مئة عالم، هم من أكثر العلماء إنتاجًا واختراعًا في تاريخ الإنسانية، وممن رسموا معالم الحضارة المعاصرة، فوجد أن أكثر من ٩٠٪ منهم لم يترددوا في التصريح العلني بإيمانهم بالله[2]، وفي دراسة حديثة ثبت أن ٦٥٪ ممن حصلوا على جائزة نوبل هو من أهل الأديان، و٢٤٪ منهم ربوبيون، أما المنتمون إلى الإلحاد واللأدريون فكانت

(١) أدلر مورتيمر Adler Mortimer (١٩٠٢- ٢٠٠١م) الموافق (١٣٢٠- ١٤٢٢هـ) فيلسوف أمريكي وأستاذ الفلسفة في جامعة شيكاغو كرس حياته لخدمة فلسفة أرسطو وتوما الإكويني من أشهر مؤلفاته (ما فعله الإنسان بالإنسان) و(أرسطو يرسم الجميع): (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٤٥).

(٢) روح الدين الإسلامي عفيف عبدالفتاح طبارة الطبعة الثامنة والعشرون، ١٩٩٣، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص٨٦.

نسبتهم ١١٪ خلال المئة عام الماضية من عمر الجائزة[1]، بل لقد صرحوا بإيمانهم المنبثق من علمهم، يقول (جون لينوكس)[2] عالم الرياضيات في جامعة أكسفور: «كلما ازدادت معرفتنا بالكون تعززت النظرية القائلة بوجود الخالق، واكتسبت المزيد من الصدقية كأفضل تفسير لوجودنا»[3]، ويقول (بول ديفز)[4] عالم الفيزياء النظرية: «الدلائل على حدوث الخلق من قبل الخالق أصبحت دامغة»[5]، والأمثلة كثيرة، ولا عجب فهؤلاء علماء وعندنا من خبر الوحي أن العلماء عامة هم الأقرب إلى خشية الخالق ومعرفته، وصدق الله العظيم رغمًا عن أنف كل مكابر ومعاند: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

*****

إلحاد أم تشكيك في الإسلام؟

يقول الدكتور (محمد العوضي)[6]: «يمكن تصنيف المعادين للدين في خمس مجموعات: المتشككون والمؤدلجون والتغريبيون والعلمانيون، ويأتي الملحدون في آخر

---

(1) 100 Years of Nobel Prizes, Baruch A. Shalev, Atlantic Publishers & Dist, 2003, page 57.

(٢) جون لينوكس John Lennox فيلسوف وعالم رياضيات إيرلندي ولد عام ١٩٤٣م له مؤلفات متميزة في اللاهوت والأديان ووجود الخالق ويعمل أستاذًا للرياضيات في جامعة أكسفورد.

(٣) عبارة أوردها الأستاذ الجامعي إيرك متاكساس Eric Metaxas الأستاذ بجامعة برجر الذي نشر فيلماً وثائقيًا أورد فيه بعض أقول العلماء عن الوجود والإيمان بالخالق وهذه العبارة مقتبسة من مقطع له على موقع (YouTube) أورد فيه عبارات جميلة عن الصراع بين الملاحده والمؤمنين بوجود الله.

(٤) بول ديفز Paul Charles Davies مفكر وفيلسوف إنجليزي يعمل أستاذًا للفيزياء النظرية في جامعتي كامبردج ولندن ولد عام ١٩٤٥م له مؤلفات عن علاقة الفيزياء الحديثة بوجود الله من أشهر كتبه: كيف يفكر الخالق الله والفيزياء الحديثة الذي قال فيه عبارته المشهورة: «قد يبدو غريبًا ولكن في رأيي العلم يقدم مسارًا أكثر رسوخًا إلى الله من الدين» طبعًا يقصد دين أهل الكتاب.

(٥) عبارة مقتبسة من الفيلم الوثائقي الذي أعده إيرك متاكساس Eric Metaxas الأستاذ بجامعة برجر (سبق التعريف به).

(٦) محمد العوضي مفكر كويتي معاصر وأستاذ الدراسات الإسلامية جامعة الكويت ولد في الكويت عام ١٩٥٩م عضو الهيئة العالمية للإعلام وله أنشطة متعددة ومتميزة في توجيه الشباب ومقاومة الإلحاد من واقع التعايش والمعاصرة: (ركاز لتعزيز الأخلاق) الشبكة العنكبوتية.

المطاف، إن غالبية هؤلاء تغشاهم صحوة فكرية توقظهم، ويدركون من خلالها أهمية الدين، ومن ثم الرجوع إليه، وبعضهم أصبح من خيرة من ينافحون عنه، ويردون على شبهات المبطلين، ومن أشهر هؤلاء عبدالرحمن بدوي، ومصطفى محمود، وعبدالوهاب المسيري، وخالد محمد خالد»[١]، على الرغم من أن الإلحاد يقف على الطرف المناقض والرافض لجوهر جميع الأديان السماوية، ما يعني أنه ضد كل دين يؤمن بوجود الله، إلا أن تركيز دعاته على العالم الإسلامي بشكل خاص يثير تساؤلًا منطقيًّا عن سبب تخصيص هذه المزاحمة لإيمان المسلمين أكثر من غيرهم، وما ذاك إلا لإقرارهم الضمني بأن إيمان المسلمين قوي ومتين وخطير على الضالين وأهدافهم، وأنه من الرسوخ بدرجة لا تجعله يهتز بسبب تشكيكهم فيه من أول وهلة، بل ربما لا يتأثر أبدًا عند من شرح الله صدورهم للإيمان، وثبتهم الله.

نحن نحكي واقعًا مريرًا في حق أمة الإسلام لا نقبل معه اتهامنا بعقدة المؤامرة ونحن الضحية المباشرة، فما من شك أن موجة تسويق الإلحاد في أوساط المسلمين خاصة ما هي إلا جزء من الهجمة الشرسة والظالمة على العالم الإسلامي، بهدف محاولة فصل القلوب المؤمنة عن ربها الذي منه تستمد كل شيء بما في ذلك قوتها في مواجهة أعدائها المتربصين بها وبدينها وبمقدراتها ومقدساتها، ولكن هيهات بحول الله وقوته، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، ومع أن جميع الوسائل والأدوات الدنيوية تكاد تكون بيد خصوم المسلمين اليوم، إلا أن الإسلام بفضل الله ينتشر عالميًّا بذاته على الرغم من هزيمة المسلمين سياسيًّا وإعلاميًّا واقتصاديًّا، وبمعدل أذهل الجميع كمؤشر على أن الإنسانية ليست فقط مقتنعة بالإيمان بوجود الخالق بشتى أديانها وطوائفها فحسب، بل أيضًا تتجه لاعتناق دين الفطرة الذي هو أكثرها طمأنينة وعلاجًا للنفوس الحائرة كما وجدوه هم، وصرحوا به بعد إسلامهم.

ومع هذا كله فلا نزال نؤكد أنه لا داعي لابتلاع مرارة طعم التهويل من ظاهرة الإلحاد بين الحين والآخر، فالأولى نقل النفوس الحائرة إلى حدائق التبشير ليس فقط بالإيمان بوجود الله، ولكن أيضًا بقبول الإسلام وانتشاره عالميًّا، ولو تحدث المسلمون

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٢٦.

عن انتشاره لربما قيل: هذا نوع من الدعاية والتسويق والتشويق المجرد، ولكن هناك أخبار وشهادات كثيرة بحمد الله تصدر من جهات محايدة نعلم يقينًا مدى إزعاجها للظالمين ومن بينهم دعاة الإلحاد، فعلى سبيل المثال نشرت محطة (السي إن إن) الأمريكية تقريرًا جاء فيه أن أكثر من عشرين ألف أمريكي يعتنقون الإسلام سنويًّا، وأنه خلال اثنتي عشرة سنة، تم تشييد أكثر من ألف ومئتي مسجد في أمريكا وحدها، وأن كل أمريكي يعتنق الإسلام يتحول إلى داعية مقنع جدًّا لبني قومه وبكفاءة لا تقارن بالمسلم الوافد للدعوة إلى الإسلام؛ لما وجد في الإسلام من إجابات للكثير مما في نفوس الناس من تساؤلات محيرة، فيتغير سلوكه ومعاملاته للآخرين، وتتقلص نزعة العدوانية والشر إلى أدنى حد، خلاف ما كان عليه من قبل إسلامه، وهذا ما دفع الكثير من إدارات السجون الغربية للاستعانة بالمسلمين لعلاج ظاهرة الجريمة وتهذيب سلوك المجرمين، ولما أسلم اللورد البريطاني (هدللي) قال عبارته المشهورة التي سببت زلزالًا مدويًا لدى أوساط المتكبرين على الحق: «إنني أعتقد أن هناك آلافًا من الرجال والنساء أيضًا مسلمون قلبًا، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، منعهم من إظهار معتقداتهم»[1].

وذكرت مجلة ديرشبيجل الألمانية نقلًا عن جريدة (المسلمون) خبر إسلام ٨٠٠٠ امرأة ألمانية في النصف الثاني فقط من عام ١٩٩١م، وتأكيدًا على صدق إيمانهن وحبهن للإسلام أطلقن على أنفسهن اسم (أخوات محمد)، ومن المؤكد أنه سيفقد أعداء الدين توازنهم عندما يسمعون بحسب الإحصائية الرسمية الألمانية أن معدل اعتناق الإسلام في ألمانيا قد يصل في ذروته أحيانًا إلى أن مواطنًا ألمانيًّا واحدًا يدخل الإسلام في أقل من يوم، وأنه بعد نشر الصور المسيئة للنبي ﷺ زاد عدد الداخلين في الإسلام في الدانمارك، حيث بلغ أكثر من ٥ آلاف عام ٢٠٠٨م، أما في الشرق الآسيوي فقد أسلمت بالكامل قرية (كوان جو) القريبة من مدينة سيول عاصمة كوريا الجنوبية، وعدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة نقلًا عن (جريدة المسلمون)، ونقلًا عن (صحيفة الخبر السودانية) أيضًا، فقد اعتنق الإسلام ٦٥ رجل دين نصراني في السودان دفعة واحدة،

(١) مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٣٢ تاريخ ٣/ ٩/ ٢٠١٠م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

والغريب أن سبب إسلامهم هو أنهم وجدوا تلك الدقة العجيبة في توزيع الميراث في القرآن، تخيل كيف كان توزيع الميراث سببًا في إسلام قساوسة عقلاء لعدله، في الوقت الذي تجد من المستغربين من أبناء المسلمين من يجعل من قضية توزيع الميراث في الإسلام مدخلًا للنيل منه والتشكيك في نصوصه وقيمه الاجتماعية، وذكرت الجريدة نفسها أن عدد من اعتنقوا الإسلام في السودان خلال عام ٢٠٠٤ وحده تجاوز ٨٨ ألفًا، هذا كله يحدث بسبب الخصائص الذاتية للدين المرغوب فطريًّا، دون تدخل من سلطة أو جيش، ولم يكن هناك جهاد، ولا وجود صحابة يدعونهم إلى الإسلام، بل كان ذلك على يد قساوسة سابقين، وسلاطين قبائل هداهم الله لدينه الحق، فأسلموا، فآتاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا، وصابروا، وأصبحوا دعاة مخلصين.

ولسنا في حاجة إلى الاسترسال في الحديث عن انتشار الإسلام عالميًّا وعلى مدار اليوم والساعة، لكن تبقى الصفعة الأكبر على كل ملحد أنه في موسكو نفسها عاصمة الاتحاد السوفيتي سابقًا، أي عاصمة أكبر مشروع متكامل لغرس الإلحاد بالقوة الجبرية لمدة ٧٠ عامًا على مر تاريخ البشرية، المدينة التي أرادها (ماركس) و(لينين) و(ستالين)، أن تكون عاصمة الإلحاد على كوكب الأرض، زادت نسبة المسلمين فيها على ٢٠٪ فضلًا على نسبة المؤمنين بالله المبغضين للإلحاد من الديانات الأخرى، وبحسب دراسات أعدتها صحيفة البرافدا[1] السوفيتية، فإن الإسلام سيكون دين روسيا الأول بحلول ٢٠٥٠م.

إنما نذكر هذه الشواهد من أجل ردع الأعداء المشككين الذين يوهمون الناس بضعف الإسلام، وإلا فمعتقدنا أن من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ونحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا على هذه النعمة، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إن وجود الخالق، وما خلقه في هذا الوجود أكبر من خلق الناس، وهو وجود لا ينتظر إجازة ولا إقرارًا من ذلك الإنسان الضعيف المغرور، الذي يريد أن يحادّ الله ورسوله، ويزعم أنه يملك إطفاء نور الله في ملكه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ

(١) صحيفة البرافدا، عدد يوليو، ٢٠٠٨م.

٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠- ٢١] ولا يقل عنه مسكنة وضعفًا ذلك المسلم المنان بإسلامه، الذي يظن أنه بإيمانه ينفع الخالق، أو يضره بكفره، بينما مقامه عند الله الغني عنه هو كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

*****

الملحدون والصراع مع الذات!

يستحيل على من أطلق يده من الوحي (العروة الوثقى)، أن يجد بديلًا يروي به عطشه المعرفي عن عالم الغيب في الحياة الدنيا، ومن أظلم ممن فعلها، فوجد نفسه في تيه وضياع، هذا الضياع واليأس المعرفي هو بيئة وجود الملحدين الأوائل عبر التاريخ، الذين عُرفوا بالدهريين والذين يؤمنون بما يحسونه مما حولهم، ويأكلون، ويشربون، ويعتقدون أن الموت هو آخر المطاف بهم، وقد أشار إليهم القرآن مؤكدًا غرقهم في بحر الظنون ونافيًا عنهم العلم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] لكن هذه الأقلية الملحدة على مدى تاريخ الإنسان لا يخلو آحادهم من بقايا إيمان دفين يكابرون في إخفائه، لولا أنه يفلت منهم في لحظات الخوف والاضطراب، لذلك لنا الحق كل الحق ألا نكترث بهم قلوا أم كثروا، انظر إلى ما يقوله أحد أبرز رموز الإلحاد في التاريخ (ديفد هيوم) في كتابه (رسالة في الطبيعة البشرية)، يقول فيها: «إن شيئًا ما يبعث على القلق فيما يتعلق بمفهوم العلة والاستدلال النسبي!»[1]، وهو هنا يشير ضمنًا إلى وجود العلة الأولى عند الفلاسفة، وهي الإيمان بالخالق، وصدق الله العظيم القائل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] وهذا الجحود لا يمكنه إخفاء كل ما قد يضمرونه من يقين سري، كتموه ظلمًا وعلوًّا واستكبارًا، كما وصف

(١) الفلسفة ببساطة ولسون (مرجع سابق)، ص٢٥.

القرآن حال أقرانهم من قبل في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

يحق لنا بوصفنا مؤمنين – بفضل الله ومنته – أن نفرح بهذا الإيمان، نلوذ به ونطمئن إليه، وألا نكترث بهذه الانحرافات الدخيلة على التدين العام عبر التاريخ الإنساني، وألا نتطرق إلى موضوع الإلحاد إلا من باب التذكير بنعمة الإيمان وتحصينه من الملوثات والرغبة في إنقاذ المخدوعين من ضحايا هذه الظاهرة الطارئة، طمعًا في هدايتهم إلى الحق دون قلق من ضلالهم إذا أصروا على ذلك، فالهداية من الله، وليس علينا هداهم، ولا يضرنا ضلالهم إذا اهتدينا، وفي نهاية مطاف هذا الوجود، سينتهي بنا الأمر إلى أن كل نفسٍ بما كسبت رهينة، فالمرء لا ينفع ولا يضر إلا نفسه، وهو مسؤول عنها بعد تبيان الحق وترك الخيار له ليقرر مصيره بنفسه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

لسنا هنا نتسامر أو نتسلى في الكتابة، أو نروّح عن بعضنا، أو نقتل الفراغ، ولكن حديثنا في هذا الأمر ضروري جدًّا لانتشال الغرقى من بحور الوساوس والشكوك، وخاصة أولئك المؤمنين الذين يكبتون ما في نفوسهم من تساؤلات خوفًا ووحشة بسبب تضليل الملحدين لهم وترويعهم، فهؤلاء يحتاجون إلى من يوقد شعلة الإيمان الكامنة في قلوبهم، المتعطشة للحق والسلامة، والقلقة من المستقبل، وحقهم علينا أن نقف معهم، ونتلمس معهم سبيل النجاة لنناولهم طوقها، فالموقف يقتضي من الجميع وقفة شجاعة ومصارحة أمينة لاحتواء إخوة الإيمان جميعًا دون اكتراث بما يرجف به الملحدون، ممن يجحدون الإيمان، ويتظاهرون بالإلحاد مكابرين أمام الملأ، وبمجرد أن نتابع محاضراتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم، نلمس منها نزعة التحدي بينما يميلون نحو الحق في أنفسهم بسبب قوة فطرية كامنة، في الوقت الذي يمارسون عليها أقصى درجات الرقابة؛ خشية انفلات الحقيقة منهم فتحرجهم، لكن يأبى الحق إلا أن يظهر ولو كره الكافرون.

كثيرٌ من أولئك انفلتت منهم كلمات فطرية تناقض كل ما ينظرونه ويشيعونه، ولا غرابة في الأمر، إنها الفطرة الكامنة رغمًا عنهم، عراك داخلي وبراكين متفجرة بين

من يدعي الإلحاد، ونفسه أسرار داخلية صامتة لو تم عرضها على شاشة عرض ناطقة، لرأينا العجب العجاب! لكن كل العزاء في أنك عندما تقف وجهًا لوجه مع مدعي الإلحاد تشعر وكأنك تقف إلى جوار من يعاني جميع الأمراض حتى لو كان سليمًا، يضطرب قلقًا من الماضي والحاضر والمستقبل، ثم ينكشف كذب الملاحدة بأنهم إنما لجؤوا إلى الإلحاد ظنًّا منهم أنه النجاة لهم من الكآبة، فما زادهم إلحادهم هذا إلا رهقًا، لم يجدوا حلًّا للمشكلة بعد أن نأوا بأنفسهم عن عالم الأوهام والخرافة – كما يزعمون! وعلى الرغم مما يقال عن (رينيه ديكارت) من شكوك منهجية في التفكير إلا أنه سطر في آخر عمره هذه العبارة الجميلة استسلامًا للحقيقة: «إن في عقلي منذ مدة بعيدة فكرة تقرر أنه يوجد إلهٌ قادرٌ على كل شيء وهو الذي منحني وخلقني على الحال التي أنا عليها»(١)، وقال معجبًا بالآيات الكونية ومدلولاتها الصادقة على عظمة الخالق: «إن الله لا يمكن أن يَخدع؛ لأنه ليس ضعيفًا يضطر إلى الخداع»(٢).

ويعتمد كثير من الملحدين على أفكار عالم الأحياء الشهير (تشارلز داروين)(٣)، صاحب نظرية التطور التي ابتدعها عام ١٨٣٨م، وأبطلها علماء معاصرون(٤) بعد اكتشاف هيكل عظمي لإنسان إثيوبي عاش قبل أربعة ملايين عام، بل وصل الأمر في رفض النظرية أن حمّل العالم الأمريكي (ريتشار فيكارت) داروين مسؤولية جرائم الحروب التي استند قادتها على نظريته، فيقول: «لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٤٩٤.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١١٩.

(٣) تشارلز داروين Charles Robert Darwin (١٨٠٩- ١٨٨٢م) الموافق (١٢٢٤- ١٢٩٩هـ) عالم الأحياء الطبيعي الشهير الذي وضع نظرية التطور في كتابه (أصل الأنواع) يرى أن أصل الأحياء واحد ما عدا الإنسان ثم أضاف الإنسان إلى نظريته بعد فترة إذ لم يَرَ مبررًا لاستثنائه من النظرية يرى أن الحياة لغز خارج عن نطاق العقل كانت نظريته هذه أساس لفلسفة التطور، وقد أثارت جدلًا واسعًا: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص٣٥٥).

(٤) لقد أثبت يوهانسن Johannsen (١٨٥٥- ١٩٢٧م) أن الملاءمة للبيئة أوعدمها ليستا مما يُورِث التطور العضوي ما يعني إبطال البند الخامس من المشاهدات التي اعتمد عليها داروين وكذلك فعل العالم الهولندي هيجو دي فريز Hugo de Vries (١٨٤٨- ١٩٣٥م) في إبطال المشاهدات الرئيسة التي اعتمدها داروين في إثبات نشوء النوع وارتقائه وعزا ذلك إلى (الطفرة mutation) أو التنوع غير المستمر: (نقلًا عن: موسوعة الخلق والنشوء، حاتم ناصر الشرباتي، الناشر: مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر).

الطبيعية لقلب موازين الأخلاق رأسًا على عقب، ووفرت الأساس العلمي لأمثال هتلر وأتباعه لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية كانت في الحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة»[1]، وأشد من تمسك بهذه النظرية هم دعاة المادية المتجردة من الأخلاق، لقد تبنى عشاق هذه النظرية ما يسمى الصحة العرقية التي من أهم بنودها التخلص من المرضى والمعاقين والمشوهين! ومنها قانون التعقيم الذي أصدره النازيون عام ١٩٣٣م لمنع قطاعات بشرية كالمعوقين والمرضى بالصرع والعمى والصمم من التكاثر والإنجاب[2]، ولم يكن (داروين) نفسه ملحدًا على الرغم من إصرار مروجي ظاهرة الإلحاد على زعمهم بأنه كان ملحدًا، وحرصهم على إخفاء نصوص إيمانية قالها داروين نفسه، مثل مقولته الشهيرة: «من الصعب جدًّا أن كونًا ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدرتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض المصادفة، أجدني مدفوعًا بقوة للقول بمصمم ذكي، ومن ثم فأنا أومن بوجود الإله»[3].

والجدير بالذكر أن (داروين) نفسه لم يكن فيلسوفًا، بل كان عالم طبيعة، ألف كتابه الشهير (أصل الأنواع بطريقة الانتخاب الطبيعي)[4]، وأصبح صاحب مذهب التطور، ولكن الذي سوّق نظرية داروين فلسفيًّا هو (هيربرت سبنسر)، فأصبحت تسمى فلسفة التطور فيما بعد، وتنسب إلى داروين[5]، الذي لم يقصد فلسفة التطور، وإنما خلص إلى نظرية التطور العلمي من وجهة نظره طبعًا، من خلال التركيز على تطور الحياة على الأرض، وحتى تدرك أخي القارئ، مدى الغش في تسويق تلك النظرية والتلبيس في ترجمتها وتسويقها، فقد جاء في الفصل السادس، من الترجمة العربية لكتابه (أصل

(١) من داروين إلى هتلر ريتشارد فيكارت ص٢١٥ (نقلاً عن: كهنة الإلحاد الجديد، هيثم سرور، (مرجع سابق)، تقديم: الدكتور عبدالله الشهري، ص٢٥).

(٢) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبدالوهاب المسيري، دارالفكر، دمشق، الطبعة الخامسة، ٢٠١٣م، ص٢٣٠.

(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٧٩.

(٤) كتاب أصدره داروين عام ١٨٥٩م يتحدث عن بقاء النوع بطريقة الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح ويُعدّ من أكثر الكتب المثيرة للجدل في العصر الحديث ويُعدّ أحد الأعمال المؤثرة في العلم الحديث وإحدى ركائز علم الأحياء التطوري.

(٥) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٨٦.

الأنواع) المطبوع عام ١٩٥٩م، تحت عنوان (مشكلات النظرية)، أن داروين نفسه قال فيه: «إني لا أشُكّ في أنّ اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارئ قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي، وبعض هذه الاعتراضات خطير إلى درجة أني حتى اليوم، لا أفكر فيها إلا وتعتريني هَزّة!!»، فإذا كان صاحب النظرية تعتريه (هزة!) في حياته من مواجهة ما يقال عن نظريته من اعتراضات، فمن أين جاءت تلك العصمة والقداسة لها من المتأخرين؟ وإن تعجب فعجب أن هذه العبارة قد (اختفت تمامًا) من النسخة التي نشرتها مطبعة النهضة، ترجمة إسماعيل مظهر[١]!!

وبغض النظر عن صحة نظريته من عدمها، فقد أقر داروين نفسه بعجز العقل عن إدراك حقيقة الكون وعلة وجوده[٢]، ولو تأملت نظرية دارون على الرغم مما قيل عن بطلانها فستجد أنها لا تتعارض مع الوجود والإيمان بالخالق، فهي نظرية تصف التطور بين الأنواع بيلوجيًّا، ولم يتطرق داروين لخالقها، بل إن أتباع داروين أنفسهم أخذوا عليه إصراره على الإيمان بالله الخالق، واتهموه بمجاملة الكنيسة[٣].

أما حقيقة سر الحياة على الأرض فهو أمر غيبي فوق مقدرة البشر، وصفه (أندرو كنول)[٤] أستاذ التاريخ الطبيعي والحفريات في جامعة هارفارد بقوله: «ما زلنا لا نعرف متى بدأت الحياة بالتحديد، وما زلنا لا نعرف تحت أي ظروف بدأت الحياة، وما زلنا لا نعرف متى بدأت الحياة على هذا الكوكب»[٥]، وذهب عالم الفسيولوجيا الشهير (جورج والد)[٦] الحاصل على جائزة نوبل من كتابه (الحقيقة حول أصل الحياة)، إلى أبعد مما توصل إليه (كنول) فقد ركز على وجود الذكاء والتصميم وراء نشأة الحياة،

---

(١) الخلق والنشوء بين ضلال النظريات وحقائق الإسلام حاتم الشرباتي وموسوعة الخلق والنشوء حاتم ناصر الشرباتي الناشر: مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر.

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٩٤.

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٩١.

(٤) أندرو كنول Andrew Knoll ولد عام ١٩٥١م، وعمل أستاذًا للتاريخ الطبيعي والحفريات في جامعة هارفارد: (رحلة عقل، عمرو شريف، (مرجع سابق)، ص١٠٣).

(٥) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٠٣.

(٦) جورج والد George Wald (١٩٠٦- ١٩٩٧) الموافق (١٣٢٤- ١٤١٨هـ) أستاذ وظائف الأعضاء في جامعة هارفارد: (رحلة عقل، عمرو، (مرجع سابق)، ص٥).

فيقول: «إن التفسير الوحيد المرضي عقلًا لوجود الحياة ذات الغاية والقادرة على التكاثر التي تحكمها آلية التشفير الوراثي هو الإقرار بوجود الإله القديم الحكيم القادر»[1].

*****

الملحدون يلوذون بدفء الإسلام

إن المنصفين في كل مرحلة من مراحل التاريخ، يشهدون بالحق الذي يتجلى في لحظة ملامسة عقل الأديب أو الفيلسوف أو حتى المستشرق لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، إنهم يشهدون بذلك حتى لو منعهم الكبر، أو حال بينهم وبين الحق اعتبارات اجتماعية زائفة من أن يعلنوا إسلامهم الصريح على الملأ، ومن أشهر قصص الإلحاد في تاريخنا المعاصر ما حدث مع بروفسور الرياضيات في جامعة كنساس الأمريكية (جيفري لانج)[2]، الذي ولد عام ١٩٥٤م كاثوليكيًّا، ثم اعتنق الفكر الإلحادي قبل أن يكمل الثامنة عشرة من عمره، وفي أواخر الثمانينيات اعتنق الإسلام، ولكن أي إسلام؟ إنه الإسلام الحق المستقر في سويداء قلبه دون أن يلتفت إلى ما حوله، الإسلام الذي ذاق طعمه بعد أن تجرع مرارة الجاهلية من كفر وإلحاد قد لا تصدقه، وهو بعد ذلك التاريخ الأسود يستنير بنور الإسلام، وينعم بعباداته، استمع إليه وهو يبوح بها في نفسه واصفًا صلاة الفجر التي يستمتع بالاستيقاظ لها دون أن يبالي بالنائمين من الناس: «صلاة الفجر بالنسبة إلي هي إحدى أجمل الشعائر الإسلامية وأكثرها إثارة، هناك شيء خفي في النهوض ليلًا والجميع نائم، لتسمع ترتيل القرآن يملأ سكون الليل، تشعر وكأنك تغادر هذا العالم، وتسافر مع الملائكة، لتمجد الله بالمديح عند الفجر»[3].

---

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٠٥.

(٢) جفري لانج Jeffry Lang عالم رياضيات معاصر ولد عام ١٩٥٤م يعمل في جامعة كنساس ولد كاثوليكيًّا ثم ألحد أكثر عمره حتى أسلم بسبب اطلاعه على ترجمة معاني القرآن الذي أهداه إليه طالب مسلم من مؤلفاته (الصراع من أجل الاستسلام) وكتاب (حتى الملائكة تسأل): (رحلة إلى الإسلام في أمريكا، ترجمة: منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان).

(٣) الصراع من أجل الإيمان جفري لانج ترجمة منذر العيسى دار الفكر المعاصر ٢٠١٢م ص٣٤ و(قصة إسلام عالم الرياضيات الأمريكي جيفري لانج، إبراهيم عوض، جريدة الشعب الجديد، ٢٩ يناير ٢٠١٥م).

ولا تقل شهرة قصته عن قصة الفيلسوف البريطاني السير(أنتوني فلوو)[1]، الذي تنقل في كل مكان تقريبًا ليسوق فكره الإلحادي، وكان من أشهر منظري الإلحاد في القرن العشرين، وكتب عشرات المقالات والكتب مبشرًا بفكره مستشهدًا بكثير من أقوال من سبقوه، ها هو يصرح لوكالة (آسيا نيوز) في التاسع من ديسمبر ٢٠٠٤م بأنه تراجع عن إلحاده! وأن التأمل في مراحل علم الأجنة دفعه للإيمان بالخالق ﷻ، وانتقل من كونه من أشهر ملاحدة العالم، إلى رجل يحمل ثقة إيمانية بخالق لا مثيل له دفعه إلى استبعاد اعتناق المسيحية؛ لأن الإله في عقيدتهم ليس بالمواصفات المنزهة التي توصل إليها من خلال تأمله للاكتشافات العلمية الحديثة، وأنه يجد في إله المسلمين الأقرب لما توصل إليه. لقد ضل بسببه آلاف الملحدين في أوروبا طيلة العقود الماضية، ولك أن تتخيل صدمتهم لما علموا بإيمانه بالخالق، بل وإصراره ودفاعه وبرهنته على موقفه الجديد بالحجة العلمية، كتعليقه الصريح على تشبث الملحدين بنظرية نشوء الكون المعروفة بالانفجار الكبير (Big bang)[2] التي تقول: إن الكون حدث مصادفة من دون خالق، يقول (فلوو): «يقولون: إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأُدلي باعترافي.. إن نموذج الانفجار الكبير شيء محرج جدًّا بالنسبة إلى الملحدين.. ذلك لأن العلم أثبت فكرة دافعت عنها الكتب الدينية، ويعترف للعالم بصنع الخالق ﷻ»[3]، لم يكن بوسع أنتوني فلوو أن يتغلب على قوة حجة (التصميم الذكي للكون)[4] التي أوصلته بقوة المنطق إلى الإيمان بوجود الله، وكيف له أن يكابر وهذا صاحب نظرية الانفجار العظيم نفسه (فريد هاللي) يقول: «إن إلحاده تعرض لهزة عنيفة بسبب

(١) أنتوني فلوو Anthony Flew فيلسوف الإلحاد الشهير في النصف الثاني من القرن العشرين ولد في لندن عام ١٩٢٣م قاده العلم والعقل على أن ينهي إلحاده بإيمان مدوٍ بوجود الله بعد أن تجاوز الثمانين من عمره: (رحلة العقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣).

(٢) نظرية الانفجار العظيم (Big Bang): هي أقصى فرضية ممكنة توصل إليها علماء الفلك في العصر الحديث حول كيفية بدء الكون، ولا تزال محل خلاف وجدال شديد بين العلماء.

(٣) كهنة الإلحاد الجديد، هيثم سرور، (مرجع سابق)، ص١٢٠.

(٤) التصميم الذكي : مصطلح جديد للاستدلال على وجود الخالق ويعني أن نشأة الكون ونشأة الحياة في غ الانتظام والتعقيد الذي يفوق الخيال البشري يستبعد تمامًا أن تكون حدثت بشكل تلقائي أو من ضعيف، وتحتم أن يكون وراءها مصمم ذكي وقوي.

الاكتشافات العلمية»، وفي إشارة مباشرة إلى اعتراضه على نظرية الانفجار يقول: «تقول نظريه الانفجار الكبير: إن الكون نشأ نتيجة انفجار كبير، ولكننا نعلم أن كل انفجار يشتت المادة، ويعدّها دون نظام، ولكن الانفجار الكبير عمل عكس هذا بشكل محفوف بالأسرار، إذ عمل على تجميع الماده معًا لتشكل المجرات»[٥]، وقد اعترف (كريستوفر هيتشنز)[٦]، وهو من أشد المعاندين في الإلحاد بقوة حجية المؤمنين بوجود الله فقال: «من دون شك أن حجية الضبط الدقيق هي أقوى حجة للجانب الآخر»[٧]، ويقصد بالجانب الآخر هم المؤمنون بوجود الله.

*****

(أنتوني فلوو) يخلط الأوراق

لقد كانت صدمة الملحدين بهذا التحول من (أنتوني فلوو) عنيفة جدًّا، ومن أشد من اضطرب لهذا التحول كبير الملاحدة الجدد (ريتشار داوكينز) الذي اتهمه بتقدم العمر وبالخرف، مشيدًا بفيلسوف الإلحاد السابق (رسل) الذي ثبت على منهجه حتى مات على الإلحاد! والحقيقة هي أن هذا الموقف من (داوكينز) كان انتقاميًّا متشنجًا، ويكفي أنه عندما سئل عن الأشياء التي يعتقد بصوابها وصحتها في الوجود أجاب مبتدئًا بكلمة (أعتقد)! إذ لا برهان عنده في شيء مما قاله، بينما هو يأخذ على (فلوو) أنه انتقل من أوهام الاعتقاد التي ما زال (داوكينز) وأمثاله غارقين فيها إلى الحقائق المثبتة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة، عندما توصل إلى الإيمان بوجود الخالق

---

(5) The Intelligent Universe, Fred Hoyle, 1984, Page 184.

(٦) كريستوفر هيتشنز Christopher Eric Hitchens (١٩٤٦- ٢٠١١م) الموافق (١٣٦٥- ١٤٣٢هـ) مؤلف إنجليزي صريح ومثير للجدل وصفه أحد أصدقائه بأنه غالبًا يسبح عكس التيار وهو من أشد المنافحين عن الإلحاد تخرج في جامعة أكسفورد وعمل صحفيًّا أمضى أكثر حياته في الولايات المتحدة الأمريكية مات بمرض السرطان!

(٧) هذه العبارة مقتبسة من مقطع من فيلم وثائقي عن الوجود والإيمان بالخالق أعده وقدمه إيرك متاكساس Eric Metaxas المؤلف والباحث الأمريكي والأستاذ بجامعة بريجر جامعي المقطع موجود على موقع (اليوتيوب) أورد فيه عبارات جميلة عن الصراع بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله.

من خلال رحلة طويلة مبنية على الحقائق العلمية المذهلة[1]، ما جعل أستاذ الفيزياء في جامعة موموريال الكندية (جون باور) يصب جام غضبه على (داوكينز) ويقول له معنفًا: «إن ما تعانيه من مشكلات مع الدين يرجع إلى أنك لست عالمًا حقيقيًّا، بل أنت من البيولوجيين العاجزين عن تصور ما في الكون والوجود من تعقيد، فأنت ما زلت محكومًا بعقدة البيلوجيين التطويريين في القرن التاسع عشر الذين يريدون إثبات وجهة نظرهم ولو على حساب الحقيقة»[2].

وسبحان الله! بعد أن كان (فلوو) متصدرًا جبهة الإلحاد في العالم خمسين عامًا، أصبح من أقوى من يقف في وجه حماقات الملاحدة الجدد مفتتًا حججهم بما لديه من ذخيرة فكرية عميقة عن حجج الطرفين، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] بيد أن (فلوو) لا يزال مترددًا في الوصول إلى الحقيقة الإيمانية الحقة، فلم يقبل اليهودية ولا الإسلام بوصفهما دينًا؛ لأنه يرى فيهما وصفًا للإله المنتقم الجبار! ولم يقبل النصرانية؛ لأنه يرفض فكرة تجسد الإله في هيئة بشر، ولم يحسم مسألة البعث بعد الموت، واصل رحلته في البحث عن الحقيقة بكل حزم، ووضعه أقرب إلى المدخل الصحيح (للدين الحق) الذي يؤمن المرء بالله، ولا يكترث بالأديان.

لقد كانت رحلته شاقة ومضنية، فقد بدأ رحلته طفلًا صغيرًا ملحدًا في بيت متدين، ثم أعلن إلحاده بعد أن تجاوز العشرين من عمره، وأضفى عليه غطاء فلسفيًّا جذابًا، ثم أصبح داعية الإلحاد والحارس القائم عليه والمنافح دونه، ثم دخل مرحلة الشك بعد أن تجاوز السبعين من عمره، وانتقل منها إلى اليقين بوجود إله للكون وهو على مشارف الثمانين، رحلة استغرقت أكثر من ستين عامًا، وعلى الرغم من سمو النتيجة التي توصل إليها هذا الفيلسوف المناضل إلا أنه في حقيقة الأمر لم يصل بعد إلا إلى جزء يسير ضئيل جدًّا مما وصل إليه (أبوبكر الصديق) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من إيمان فياض متدفق بالله والرسول والوحي والبعث خلال جزء من الدقيقه منصتًا فيها إلى الصادق المصدوق محمد ﷺ، وهو يخبره عن ذلك كله بالوحي الذي آمن به، وسلم له تسليمًا.

---

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٤١.

(٢) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٤٢.

ومن أجمل عبارات (أنتوني فلوو) التي أفصح عنها بعد إيمانه بالخالق إقراره بأن هناك ثلاث قوى جبارة كانت تأخذ بيده للوصول إلى الحقيقة في أثناء رحلته الطويلة، وصفها بأنها: حكيمة، وأخلاقية، وفضولية، أما حكيمة: فلأنه إذا كان هناك إله يسيطر على الإنسان، ويتحكم في مصيره، فمن الحمق ألا نتعرف إليه، ونعمل على مرضاته، وأخلاقية: لأن الحقيقة هي التي تثير اهتمام الإنسان، وتحقق له الخلود، وفضولية: لأن استكشاف الأشياء العظيمة فقط هو الذي يثير العقلية العلمية الفلسفية[1].

فهل يعقل المروجون للإلحاد من أمة العرب، ومن يجري وراءهم على غير هدى، هذه النتيجة العظيمة التي توصل إليها هذا الفيلسوف الواقعي بعد طول عناء، فاعتنقها غير مبالٍ بصرخات المستنكرين؟ وبعبارة أخرى: ماذا عليهم لو قبلوا، وتقبلوا خبر السماء المفصل الميسر لكل مُدَّكِر؟، الوحي الذي جاء بشيرًا ونذيرًا لكل أمة ليوصلها إلى أفضل مما توصل إليه (فلوو) دون أي عناء أو مشقة، أفلا يتدبرون هذا القرآن العظيم الذي يغنيهم بما فيه من هدى ونور عن هذه الرحلة المضنية الشاقة للوصول إلى الإيمان؟ ومن سيضمن لكل إنسان البقاء ثمانين عامًا تحت التجارب والأذواق والأعاصير الفكرية لكي يصل إلى ما وصل إليه (فلوو) إن كان يملك عقليته وإصراره على الوصول إلى الحقيقة؟!

أما نحن المسلمين فسنبقى نعظم هذا القرآن الذي جاء منسجمًا متكيفًا مع الزمان، ثابتًا ثبات الفطرة البشرية في الوجود، راسخًا رسوخ الجبال مع تتابع الأجيال وتبدل الأفكار، وأهم من ذلك أنه حاضر في المقدمة في أي ميدان جدال أو منطق، والسر في ذلك لأنه من عند الله، ولأنه يهدي للتي هي أقوم في كل شيء، ووصفه العليم بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

أرأيت - أخي القارئ - أن الأمر عندنا نحن المسلمين مختلف تمامًا عما كان عليه أهل الكتاب، فبفضل نعمة الإسلام أصبحنا نعلم علم اليقين ونحن واثقون مطمئنون بحمد الله أن هذا الدين الذي نعتقده هو الدين الحق، المنزل من عند الحق، خالق

---

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٤٤.

كل شيء بحق، إنه دين الإسلام الذي لا تقف جاذبيته عند الحد النظري والتنظيري فحسب، بل تتجلى في جاذبية من نوع آخر يتلقاها بارتياح أولئك الذين يغوصون في عمق التجارب العلمية، فعندما يتحول علماء الطب والفيزياء والفلك إلى مؤمنين، نجد أن كثيرًا منهم فجأة يعتنقون الإسلام أو يقتربون جدًّا منه لمجرد أن يقرؤوا تفسير الظواهر الطبيعية التي توصلوا إليها بالبحث والتجربة، فيجدون الإشارة إليها في القرآن الذي جاء به العربي الأمي (محمد)، وهذا ما نقل (فلوو) من الإلحاد المتطرف إلى أقرب نقطة للإسلام، لمجرد أنه تأمل وتفكر وتدبر في المكان والزمان الصحيحين، فتوصل إلى تلك الوصفات العلاجية النفسية والمنطقية التي ركز عليها القرآن لإنقاذ من غرقوا مثله بالضلال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

*****

تحذير: إما الإيمان أو الهلاك؟

إذًا يا سيدي، عليك بالطريق الرئيس الممهد والمزود (بالإنارة) الربانية الكافية وهو (الصراط المستقيم) ولا تلتفت إلى أي طريق فرعي ضيق موحش، يقول لك الخالق ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] دع عنك الانشغال بالجدال والمنطق والكلام والقيل والقال، استعن بالله وحده، وانعم بإيمانك وإسلامك هذا، لا تكترث أو تنزعج عند سماعك لمصطلح الإلحاد، ولا تستجب لدَوِيّ ضجيج الملحدين، دعك من هذا وذاك، ارجع إلى نفسك فالأمر لا يكلفك شيئًا «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»(١)، تذكر أن لا وقت للسفسطة، فالآجال تمضي لنهايتها سراعًا ونحن عنها غافلون، عراك الفلاسفة وأهل الكلام مضيعة للأعمار، ولا يجدي شيئًا، أنت أمام ابتلاء إيماني عظيم سمّه ما

(١) الحديث (٣٨) في صحيح مسلم عن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**».

شئت، المهم أن تستيقظ من سباتك العميق، فتأخذ بزمام المبادرة الذاتية بينك وبين الخالق، وتمسك بطوق النجاة الميسر لك، فالأمر يعنيك أنت وحدك قبل أن يكون قضية فلسفية أو إلحادية مع من حولك، وشأنك أولى من أن يشغلك عنه شأن الآخرين الذين أشغلتهم شؤونهم عنك!

شمر عن ساعد الجد من هذه اللحظة وأنت ترى المؤمنين سائرين في ركبهم إلى الله في طريق واحد، متزودين بزادهم، مهتمين بشأنهم، التفت إلى شأنك وانجُ بنفسك، واحذر أن تكون من المتخلفين القلة عن ركب الجنة من حيث لا تدري، إنك لا تدري لعل الموجودين حولك في الدنيا على الرغم من صخبهم الجدلي أحيانًا، قد رتبوا أمرهم، واختاروا لأنفسهم الطريق الصحيح للسلامة في المستقبل، واتجهوا الوجهة الآمنة التي فيها سعادتهم قبل الموت وبعده، بينما أنت ربما لا تزال غافلًا عابثًا تنظر في وجه هذا وذاك، وتتلقف كل نفثة شك من كل ثعبان سامٍ، متصورًا أنك معني بالكثير مما أنت لست معنيًّا به من شأنهم، وأخطر ما في الأمر أنْ يمضي عمرك على هذه الحالة لاهثًا وراء سراب الكلام والجدل العقيم مع غيرك، لتجد نفسك أمام اللحظة الحتمية قدرًا، التي ينتظرها كل مخلوق وهي نهاية حياتك في الدنيا فجأة، ينتهي بك المطاف الوحيد قبل الاحتياط والتزود لما بعده، يوم أن تُسجّى في قبرك وحيدًا بما أنت عليه، وحينها إذا لم يكن ثمة إيمان مسبق فلن تجد حالك - عافانا الله وإياك - إلا كما قال تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].

تحصن بحصن الإيمان الآمن، واعلم أن الإلحاد سواء كان بحجمه الطبيعي الذي ذكرنا آنفًا، أو حتى بالصورة المضخمة التي يسوقها من يعتقدونه، ليس أمرًا مخيفًا كما يتراءى لبعضنا، بل هو ظاهرة ضلال طارئة، وفكر هامشي منبوذ، لا يمكن أن يكون عقبة في طريقك الوجودي، ولا مانعًا من عبورك كَبَدَ الحياة الفانية إلى سعادة الحياة الباقية، وليس بعبعًا مخيفًا يؤدي إلى الشلل الفكري للعقل والزهد في الدين، إنه من الابتلاء الذي تُؤجَر على مجاهدته بالإيمان الراسخ، وأما الفلسفة ورجالها وفنونها، فلنضعها في إطارها الصحيح دون أن نحملها عبء ظاهرة الإلحاد، ولنفهم حقيقة الإلحاد قبل أن نبالغ، ونشارك في تضخيمه، فنغرق به وهمًا لا حقيقة، ثم اعلم علم

اليقين أنه من أوضح علامات هذا الإيمان الصادق في قلبك، هذا الخوف والقلق الذي يغشاك من حين لآخر، مزاحمًا مركز الإيمان الحساس في قلبك، الذي تقابله بفضل الله بالمقاومة، حتى تطمئن على سلامة إيمانك، وإن هذا الإصرار العجيب للثبات عليه، حتى لو كفر من في الأرض كلهم جميعًا، هو محض الثقة، بل هو محض الإيمان المنشود.

لا بد من أن نتعظ بمن كانوا قبلنا، ممن أفنوا أعمارهم بالجدل العقيم، وانتهت آجالهم دونما نتيجة، لقد أخبرنا الله بأن الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره، وأن كل نفس بما كسبت رهينة، كفى اتكالًا على الآخر في أمر يهمني أنا ويهمك أنت، وهو بينك وبين ربك، اطلب من الله الهداية متضرعًا إليه، واسلك مسالكها متوكلًا عليه، وبعد ذلك ستكون مؤمنًا بإذن الله، متحصنًا من الضلالة بالهدى، ومن الشك باليقين، ولنستمع إلى هذا النداء الكريم المطمئن لي ولك ولغيرنا من المؤمنين: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ١٠٥] وليكن شعار الواحد منا دائمًا وأبدًا هو (أنا مؤمن تحت أي ظرف)، لنتذكر موقف ذلك العبد الصالح الذي سأل صاحبه مستنكرًا: ﴿**أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا**﴾،[الكهف: ٣٧] فلم ينتظر إجابته لا بالنفي ولا بالإثبات؛ لأنها لا تعنيه بقدر ما تعني المؤمن الذي قال مجيبًا هو على نفسه التي تعنيه بالدرجة الأولى: ﴿ **لَّٰكِنَّاْ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا** ﴾ [الكهف: ٣٨]، علينا أن ندرك إدراكًا تامًا بأننا في دار الابتلاء وسنسمع من الذين كفروا أذًى كثيرًا، وسنجد من يهول ظاهرة الإلحاد ويعطي عنه أرقامًا لا حقيقة لها في عالم الواقع، فعلينا ألا نلقي لها بالًا، فإذا قيل لنا بأن الإلحاد قد بلغ من الناس كذا وكذا فليكن جوابنا الافتراضي، هب أن جميع من في الأرض كفروا أو ألحدوا، ثم ماذا! نحن هذا شعارنا: ﴿ **وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾[المائدة: ٨٤].

*****

الفصل العاشر

الوحشة والأمان



الوحشة والأمان

الوحشة والرعب والخوف والقلق، كلمات صاعقة تضرب شعور المخلوق من الداخل قبل إدراكها بحواسه أو وصول رنين نغمتها المفزع إلى طبلة أذنه، ومن منا لا تشكل هذه الأشياء الراجفة أولولية على رأس قائمة اهتمامته في حياته كلها؟ لقد جبلت جميع المخلوقات على تحري الأمن والطمأنينة في كل شيء، والهروب من مصادر الخوف والوحشة والخطر، والبحث عن الملاذات الآمنة، بل إن الخائف لا يهرب من الخطر المعروف عنده الذي استوعبه وأدركه وتصوره فحسب، بل أصبح من شدة الحيطة والحذر يفترض أخطارًا لا تنتهي، ويهرب منها تحرزًا واحتياطًا للسلامة، فتراه يظل قلقًا خائفًا على مدار الساعة من وحشة وجوده بلا ملاذ آمن يلوذ به، وقد يصل به الخوف من المجهول إلى مرحلة الانفلات العقلي والجنون، ربما يكون المجنون مجرد إنسان طبيعي أطل برأسه من نافذة من نوافذ الوجود الغامضة، فتأمل ما وراءها وما وصل إليه خياله، فلم يصحبه بذلك يقين من الإيمان يحميه من هذه الموحشات الجديدة، ويفسرها له، فانفجر صارخًا مهرولًا يمينًا أو شمالًا بحال حكم عليه الناس بالجنون بسببه، ويُعدّ الإنسان بعقله وإدراكه من أشد المخلوقات حرصًا على جلب الأمن ودرء الخطر منذ أن استخلفه الله في الأرض، ومنحه عقلًا مميزًا يفكر به، ويستقرئ المستقبل، ويرتب أمور حياته متلمسًا الحال الأفضل له، ومع ذلك لا يسلم دائمًا.

هذه الوحشة الوجودية الكبرى لا تقارن بالموحشات المعتادة كالخوف من الموت أو السبع أو الثعبان أو الحريق أو الحوادث ونحوها، إن الوحشة التي نتحدث عنها هنا هي من نوع تُنسي التفكير في هذه الوحشات الطبيعية كلها، أشار القرآن إلى صور منها في أكثر من موضع، حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، ومنها يفر المرء من أهله جميعًا، ويصبح الولدان شيبًا من أهوالها، وهذه الوحشة ليست في المستقبل فقط بل هي موجودة معنا بصمت تتربص بنا، فلو أنك تأملت قليلًا وبتركيز المتمعن مدة دقائق معدودة في (ذاتك) فقط وما حولك من الموجودات، ماهيتها وطبيعتها وأصلها، ستدرك أنك تعيش في عالم الغرائب الموحش جدًّا بل أغرب

الغرائب كلها، وستصل إلى حالة وحشة وجودية لا قاع لها ولا حدود، إذا ما أطلقت العنان لخيالك يسبح في الوجود بلا عقيدة تضبطه، ولا إيمان بالخالق القادر تلوذ به من ذلك كله وأنت واثق بأنه هو وحده القادر على حمايتك منها ومن كل وحشة وكرب في ظلمات البر والبحر الغامضة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣- ٦٤].

وفي هذا الوجود الغريب، تلازمك الوحشة الكبرى ابتداءً من حقيقة وجودك وانتهاءً بحتمية نهايتك، ومآلات ما بعد الدنيا، مرورًا بالزمان والمكان وحقيقتهما المرعبة، ستجد نفسك معلقًا في عالم متأرجح لا قرار له ولا استقرار، تأمل في وجودك وذاتك وصورتك، أأنت أنت؟ ولم أنت أنت؟، ولم تكن هو أو هي؟ ولم أنت بهذه الصورة والشكل واللون، ولِمَ لَم يكن غيرك وبصورة أخرى أيضًا؟ من الذي قرر، واختار تصميم جسمك بهذا الشكل؟ كيف تحددت مناطق الشعر بالجسم بخط قلم؟! شعر الرمش! شعر الجفن! شعر الرأس! شعر الوجه! إنها مرسومة بأدق الحدود وأصح الأماكن! الرأس في أعلى منطقة من الجسم لإبعاده عن صدمات الأرض وأخطارها، والخصية في أكثر الأماكن أمانًا وسترًا؛ لأنها عورة! والثدي محمي بين اليدين من الأمام تحت مراقبة العين مباشرة! إنك تمشي على رجلين، وليس على أربع ولا تزحف؟ قرار من هذا؟ تصميم من هذا؟ تنفيذ من هذا؟ وإذا كان هذا في جسمك المحدود فكيف بشأن العالم من حولك ومن ورائه هذا الكون الفسيح كله؟

ألا يستوقفك - يا ابن آدم - أنك قد جئت إلى هذا الوجود، هكذا من حيث لا تعرف ولا خيار ولا اختيار لك في خلقك، ثم وجدت نفسك هكذا، فعرفت فطريًّا أن هذا الذي يحويك، ويحيط بك هو الكون، فأصبح في عرفك كونًا، وتحسست الوجود من حولك فأصبح في خيالك وجودًا، وقصرت عن معرفة ما وراءه فأسميته عدمًا، وقد يكون كذلك وقد لا يكون، وتخيلت أنك قد أحطت بتصوراتك وخيالاتك وما بعد خيالاتك بالوجود كله، فأصبحت تتخيل وترسم وتقرر وتوجد وتعدم وتنفي وتثبت على هواك! كل هذا وأنت لم تجد حلًّا لبعوضة تهاجمك، لا بل لفيروس لا تراه ولا

بالمجهر العادي؛ فتك ببني الإنسان دونما حماية مطلقة منه، أيكون هذا كله من فراغ؟ أيحدث هذا كله بلا شأن عظيم يقف خلفه؟! حقًا إن الإنسان ظلوم جهول، فلا الوجود الفسيح محدود بحدود ما يتخيله هذا الإنسان الضعيف بخياله الضيق، فضلًا على ما يدركه من إدراك محدود جدًّا، ولا الوجود مقصور على وجودنا بما نعلمه وما لا نعلمه؛ لأن الذي أوجد هذا الوجود الذي لا نحيط به، لن يستعصي عليه أبدًا أن يوجد وجودًا آخر بل (وجودات) أخر[1]! أليس هو الذي على كل شيء قدير!

*****

هل نحن أمام وجود أم وجودات؟!

يا ترى! هل حدود الوجود الحقيقية - إن كان له حدود - هي تلك المرسومة في خيالي وخيالك؟ قطعًا لا! إذ يستحيل أن تضع حدودًا لوجود يستحيل أن تستوعبه، وهل هو وجود واحد هذا الذي نحن فيه، أم أن هناك (وجودات) لا نعلمها بعده، ألا يمكن أن يكون هناك كون آخر وبصورة، بل بصور أخرى؟ وبقوانين أخرى، ولِمَ لا تكون أكوان وأكوان؟ ولِمَ يكون عددها محدودًا؟ لقد قدرنا عدد المجرات في وجودنا هذا بما يزيد على مئة مليار مجرة! ما الذي يمنع أن يكون هناك مئة مليار وجود - فرضًا - وفي كل وجود مثل ما في وجودنا أو أكثر من المخلوقات؟ وهل هناك شيء يجمع بين هذه الأكوان لتصبح في وحدة ما تشبه جمع الكون المعروف للموجودات والأجرام؟ وهل لهذه الوحدة من حد أو عدد؟ لا يملك عقل مخلوق مهما بلغ علمه وذكاؤه أن يحسم أمرًا كهذا فائق التصور، والفرق بين المؤمن السعيد بإيمانه بالخالق، والملحد الشقي بإنكاره له، هو أن الأول يعلم حافة مساحة الإدراك البشري، ويقف عند حد معين لكل شيء يتصوره أو لا يتصوره مهما كبر، ويسلم الباقي لله الخالق بلا حدود ولا قيود، ليقينه بأن كل كبير في هذا الوجود هناك ما هو أكبر منه حتى يصل إلى الخالق الأكبر الذي لا أكبر

(١) ظهرت فكرة (الأكوان المتعددة) كقصة خيال علمي عام ١٩٧٣م وهي باختصار تنظر إلى الزمن كأنه نهر مستمر في جريانه ويحمل فقاقيع هوائية متعددة كل فقاعة تمثل كونًا منفصلًا ظهر من العدم على هيئة نقطة من الطاقة: (رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٩٦).

منه، الخالق لكل شيء، فهو بهذا التصور المنسجم مع الوجود والفطرية سيصبح ويمسي على بصيرة في الوجود لا يضل ولا يشقى، أما الملحد فيضطرب دائمًا لترنحه على حافة هاوية المعرفة البشرية الوهمية التي لا يملك إدراكها، ولا يطمئن لما وراءها ولا بدايتها ولا نهايتها، فهو تائه في المعيشة الضنك وحياة الشقاء واليأس من المجهول.

لنترك افتراض الوجودات اللانهائية، ولنرجع إلى تأمل وجودنا المألوف، ولننطلق من عالمنا الأرضي المعروف، الذي منه فقط نستطيع معرفة ما حولنا بالنسبة إلى كوكبنا زمانًا ومكانًا ووجودًا، فهل فكرنا يومًا في بعض غرائبه التي ألفناها لتكرارها، ولو فكرنا فيها لاكتشفنا أننا أمام أمور تستوجب التوقف والتأمل، لا بد أن تكون سمعت بالجاذبية وقوانينها مثلًا، وهي تلك القوة الغامضة التي تجذب الكتل الصغرى نحو الكبرى، إنها ناموس من نواميس هذا الوجود العجيب، هكذا اقتضت إرادة الخالق، ولو أرادها غير ذلك، لكانت غير ذلك، أليس الذي جعل الأشياء الصغيرة تنجذب للداخل نحو مركز الأكبر منها، قادرًا على أن يخلقها تصعد للخارج نحو حافة الأصغر مثلًا؟ بلى، والله إنه على كل شيء قدير.

تأمل أيضًا ميزان الطبيعة والاعتدال في حياتك وبالنسبة إلى من حولك، ترى أن وضعك الطبيعي هو أن تعيش على هذا الماء، وتتنفس هذا الأكسجين، وتتحرك بحرية في هذا الفراغ تحت ضغط جوي محدد، وتتغذى على ما تشتهيه النفس من طاقة وغذاء في معدل حرارة معين، ففي ميزانك أنت يكون هذا معيار الحياة الطبيعية، فتَعدّ أي اختلاف أو تبدل عن هذه البيئة جحيمًا، وهو في الحقيقة قد يكون جحيمًا بالنسبة إليك وفق معاييرك، ولكنه لخلق آخر لا تعلمه أنت ولا أنا ولا غيرنا من الخلق، لربما أصبح جحيمك هذا نعيمًا لها، ونعيمك هذا جحيمًا لها، ألا ترى نوعًا من السمك، يعيش في قاع المحيطات بضغط يعادل آلاف أضعاف الضغط الذي تعيش فيه أنت، ولو خرجت للسطح لماتت من اختلاف البيئة واضطراب الضغط، كما تموت أنت لو نزلت إلى أعماق البحار دون حماية تقنية؟!

ولك أن تطبق هذه القاعدة المنطقية المطردة على حالات الكواكب وحتى النجوم، لتعلم أنه لا غرابة أن يصلك أخبار عن الجنة والنار وحيًا من عند الله فقط، وتسمع

عن وصفهما بما لا يتطابق وقوانين الوجود في الدنيا، ولهذا كان من المنطقي جدًّا أن يصلك خبرهما دون إرفاق (فيلم وثائقي!) يعبر عن الأوضاع والأشكال والألوان هناك، وكيف يكون ذلك كذلك وهما لا يخضعان لقوانين الدنيا كلها ونواميسها، وإنما جاءتك صفات النعيم المقيم المطلق بالجنة، والعذاب الأليم في النار على وجه التقريب للتصور البشري في الدنيا، وترك ذلك لظرفه الحقيقي الذي سيواجهه كل إنسان حتى لو لم تتصوره أنت، ولن تعلم توقيته الذي لا يعلمه ولا يدركه مخلوق مطلقًا، لكن لكي تريح نفسك، وتطمئن وتنعم باليقين سلم هذا الأمر للخالق، واستسلم له مؤمنًا، وصدق المرسلين بالوحي، ويكفيك أمانًا أنك تؤمن بالرب ذي الصفات التي لا يعجزه معها شيء في الدنيا ولا في الآخرة.

وهكذا كلما تعمقت في هذا التأمل الذاتي، أدركت أنك فعلًا غريب في عالم الغرائب الموحشة إذا ما حرم الإنسان نفسه مطمئنات الوحي، وبلاسم النبوة الحاضنة للنفوس الشاردة والمهدئة للأرواح الخائفة، وفق إرادة خالقها الذي بيده وحده أقدار الوحشة والأمان منها، فيمضي حياته في الدنيا متنقلًا بين الوحشة والأمان، بين السراء والضراء، فيتحقق له الحد الأدنى من الأمن النسبي، لكنه يتطلع إلى نهاية آمنة يستقر بها الأمر، غير هذا المستقر المتقلب في الحياة الدنيا، أي لا بد من آخرة وحياة أخرى، وجولة أكبر وأعظم للخلق بعد هذه الدنيا، ولا بد من حساب وعقاب لإضفاء توازن عدل بين سلبيات الحياة الفانية وإيجابياتها، وهناك فقط تكون الطمأنينة والأمان الكامل، حيث جنات الخلد، أو يكون الخوف والعذاب، حيث نار السموم، للمعاند المتكبر.

*****

المعلوم مرغوب والمجهول مرعوب

يا أسفى على وقت وعمر يضيعه المجادل بغير علم، وهو يحاول عبثًا معرفة عوالم الغيب التي لم يخلق أصلًا لمعرفتها دون استئناس بالوحي! والنتيجة محسومة مسبقًا بأنه لن يعلم من غيب الوجود الماضي قبل وجود الإنسان، ولا المستقبلي بعده شيئًا، ولن

يعلم من غيب الآخرة شيئًا، بل حتى الحاضر ليس كله شهادة يدركها أو يحسها أو يعقلها، فهناك الكثير من عالم الغيب الذي لا سبيل لوصول الإنسان إليه، ليس للإنسان من ذلك كله إلا ما أخبره عنه الوحي، ليعلم إن كنت تريد أن يعلم بصدق، أنه لا خيار له إلا بتصديق خبر الوحي كي ينجو من أهوال مستقبل لا يملك فيه شيئًا، وإلا عرض نفسه لمغامرة وجودية خطيرة جدًّا لا يمكن استدراكها، عندما يُسدل الستار على مسرح حياة كانت الفرصة الوحيدة للإنسان أن يتزود منها لما بعدها، هكذا كان أمر الله وإرادته في ابتلاء عباده.

لن يتحقق الأمن النفسي والتوازن الفكري والارتياح التعبدي في الدنيا وما بعدها إلا بالإيمان بهذه الحقيقة الكبرى، وإن جادل فيها بعض المعاندين وهي أنه من دون نور الوحي لن يصل المرء إلى شيء يزيل عنه رعب المجهول، ويفسر له هذا الغموض الوجودي، ويكسر حاجب السرية عن الغيب مهما أشغل نفسه بأمر الوجود والعدم؛ لأن الكون كله أكبر منه حجمًا وقدرًا ووجودًا، قال الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧] هذا الوجود المجهول المكفهر الموحش تمامًا يصبح معلومًا آمنًا مطمئنًا مبشرًا واعدًا بفضل من أنزل على قلوبنا نور الإيمان، ووعدنا بكشف كل سر أو غموض واجهنا في حياتنا الدنيا، وفي المقابل يصبح هذا الوجود ظلماتٍ ورعبًا ووحشة ليس بعدها وحشة على من فقد الإيمان، ولا عبرة في عناده ومكابرته، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إن أخطر ما في هذا الأمر أنه لا فرصة بعد هذه الفرصة مطلقًا، وأن الوجود كله ملك الله المهيمن على كل شيء، فالوجود مغلق علينا ونحن جزء من هيمنة الخالق عليه، فإما أن تسلك طريق النجاة، فتنجو منه إليه سبحانه، أو ستحيط بك العواقب بغض النظر عما تعتقده بها، فتهلك ولا مفر منه إلا إليه، فاختر لنفسك ما تشاء ما دمت في الفسحة، الطريق أمامك ممهد، تجول في بستان الفكر، واقطف من أزهاره، ولا تكترث بأشواكه، فلن يعترضك أحد في هذا الطريق، تتبع أقوال من سبقوك ومن عاصروك،

وحتى من سيخلفونك في المستقبل، لن يحجر أحد على فكرك، ولن يمنعك من التأمل والتدبر، ولكن اعلم أنه من دون نور الوحي لا بد لك من أن تصطدم بالحقيقة الكبرى كما حدث مع كل من كانوا قبلك، وهي أنك أنت الإنسان عاجز قاصر أمام جبار الكون وخالق الوجود، بعيدًا عن كل مكابرة المكابرة، أنت فقير، أنت تموت، أنت ضعيف، فلو أن شوكة صغيرة نفذت بين لحمك وظفرك لملأت الدنيا صراخًا للتخلص منها ومن آلامها، ولنسيت كل جدال وحوار على الوجود ولاقتصر جل همك على استخرج تلك الشوكة فحسب، فأنى لك أن تسير وحدك في طريقك الوجود الطويل بين ظلمات الدنيا الفكرية بلا هدايةٍ وإيمانٍ من خالقها.

إن حظنا وحظك من هذا الوجود مجرد فرصة خاطفة كلمح بالبصر، ما دمت تملك عقلًا طريًّا في جمجمتك، وقلبًا ينبض بالدم متدفقًا في جسم تنتظره الدود اليوم أو غدًا لا مفر ولا محيص عن ذلك، نذكرك بفرصة قصيرة طالما ذكرك بها المذكرون، تتذكرها الآن وأنت تقرأ هذه السطور، فاستثمرها بترتيب أوضاعك المستقبلية الكبرى فيما بعد، فإنه من الحمق أن تموت دون أن تستأنس برعاية الباقي لك من قدرك الوجودي هناك لتنعم بذلك بعد موتك، وأي وحشة وخسارة تلك الحياة التي يحياها الكافر المكابر، الذي يمضي عمره القصير معتقدًا أن نهايته بالموت؟ وقد جاءته النذر تترى، حتى إذا ما واجه الحقيقة الكبرى بعد الموت اضطرب وانهار وتمنى حيث لا ينفعه الندم، عليه ألا يلوم سوى نفسه، فهو الذي تجاهل متعمدًا هذا التحذير الصريح المباشر من الله القدير علينا: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

كل صور الخوف، وأصناف الرعب والوحشة سوف تتكدس حولك في الدنيا وأنت في طريقك القصير لما بعد الموت إذا ما فقدت أمان الإيمان بالخالق وطمأنينة العلم بربوبيته وألوهيته، وأنه وحده الذي قدر كل شيء، والذي أوجدك من العدم هو وحده الذي سيرسم لك طريق الأمان والنجاة في مستقبلك، وكما آمنت بوجودك هذا وأنت لم تصنعه، فالواجب أن تسلك طريق النجاة الذي رسمه لك من صنعه وهو يعلم ما لا تعلم من حالك المستقبلي الذي بيده، إنك تسوحش، وتخاف مما هو أقل من ذلك

كالسباع والأمراض والحرائق والبراكين والزلازل والفيضانات والحروب، بل وحتى من الحشرات، فأنت في حاجة دائمًا إلى جرعة أمان خاصة في الدنيا، تكفيك هم الرعب قل أو كثر، فآمن بالله! ويلك آمن إن وعد الله حق، وتوكل عليه وسلمه الأمر، وخذ بأسبابه الممكنة، وبذلك تتجاوز الخطر، وتنام قرير العين هانئها، مستمتعًا بالطمأنينة الأبدية بالإيمان بالخالق في هذه الحياة غير مكترث بقصرها أو طولها، منتظرًا للقاء الله بحياة سعيدة أبدية، افعل ذلك الآن؛ كي تحيا مبتسمًا، وتموت مبتسمًا: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] هذه ورب السماء هي الراحة الأبدية المنشودة، وبهذا اليقين ستنظر إلى الموت على أنه مجرد نقلة مؤقتة من حال إلى حال أفضل منها، وأنه محطة توقف عابرة على طريق سعادة طويل، وليس هو النهاية الأبدية كما يعتقد ذلك الدهريون، بل هو للمؤمن نقطة تحول ونقلة نوعية إلى الراحة، لا مجرد حزن على فراق أبدي.

الرعب في هذا الوجود لا يقتصر على الأخطار الطبيعية في الدنيا، فهناك وحشة أكبر من موحشات الدنيا الظاهرة، هناك وحشة تتعلق بالوجود كله وبعالم الآخرة أيضًا، ولا علاج له إلا بالإيمان فقط، وهناك وحشة الأوساط الزمانية، بين ماضٍ مرعب، تداويه بالحسرة والذكريات، وحاضرٍ متوجس، لا تدري ماذا يحدث لك فيه، ومستقبل مروع، لا تدري أين تؤول بك مآلاته، ليس فقط في حياتك بل أهم من ذلك بعد مماتك، وهناك وحشة الأوساط المكانية وعن تحديد موقعك في الوجود، وأين المفر من هذه الموحشات الكبرى إلى الطمأنينة إذا لم يكن الوحي دليلًا ومنقذًا ومبشرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا.

إذا لم نتدثر بالوحي، ونتزمل، ونلوذ به، ونلجأ إلى خالق كل شيء سبحانه، فستبقى هذه الوحشات المرعبة، وحشة الزمان، ووحشة المكان، ووحشة الوجود والموت وما بعده، كابوسًا مروعًا في الدنيا يطاردنا وذرياتنا من بعدنا كما طارد آباءنا من قبلنا، كلما تذكرنا أنفسنا وتصورنا مقامها في الوجود، فإلى أين نحن ذاهبون حقًّا؟ وأين المفر من ذلك؟ إن لم يكن: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢].

*****

وحشات مخيفة!

لأننا لا نملك من أدوات السلامة والنجاة من الأخطار إلا ما يزودنا به الصانع للوجود والأخطار، فمن الطبيعي أن نعيش هذا الرعب عندما نفقد الاتصال به، تأمل أسرار حياتك وغموضها، واسأل نفسك: هل أنت في مأمن مما فيها؟ وأنت لا تملك لنفسك تحديد زمانها ولا مكانها ولا حياتها ولا موتها ولا وجودها، كل ما في الأمر أنك وجدت نفسك حيًّا دون خيار أو اختيار، تؤمن إيمانًا قطعيًّا أن كل ذلك بيد قوة عظيمة لا قدرة لك عليها إطلاقًا! ألا تدرك وأنت تحيا وتسعى في الأرض، أنك عندما تبتعد عن ضمان أمان الوحي، ستجد نفسك متخبطًا في فوضى ظلمات تأويل مفهوم الزمان والمكان والوجود بلا نتيجة، وستنقلب هذه المفاهيم إلى وحشات مهلكة (وحشة الزمان ووحشة المكان ووحشة الوجود)، وأنه من دون نور الوحي ستنطلي عليك خدعة المكان الآمن وأنت في حقيقة أمرك بلا مكان، ووهم الزمان الآمن وأنت في الدنيا تعيش لحظات مؤقتة من الأنس والصحة والطمأنينة المؤقتة مع أهل ومال وولد، سيتبعها بلا شك موت محتوم وفقدان وحزن أنت الآن على يقين منه، لكنك لم تستحضر لحظته قبل وقوعها، فكل ضاحكٍ منا اليوم إما باكيًا على حبيبه، أو سيبكيه حبيبه، من والد ووالدة، وأخ وأخت، وزوجه وذرية وأقارب وأصدقاء، اسرح وامرح والهُ وجدف ما استطعت بين الجد والهزل في حياتك الدنيا، فأنت غدًا إما معزيًا أو مُعزى به، أو معزى عنه! فكل نفس ذائقة الموت.

نحن على موعد مؤكد مع الموت (المرعب) الذي يفر منه كل حي من الخلق، بينما لم يفلت منه مخلوق واحد على الإطلاق، سيضرب الموت على وجودك وزمانك ومكانك لينقلك إلى عالم آخر، إنه الموت الذي رغمت له أنوف المؤمنين والكافرين على حد سواء، إنه القدر المحتوم، سواء جاء فجأة أو سبقه مرض أو شيخوخة أو حادث: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] إنه الموت وكفى، لحظة الاختفاء التام من الوجود المألوف، وإغلاق ملف الابتلاءات الدنيوية وسجلاتها وانتظار النتيجة وتسلّم الجزاء في الآخرة.

هذا الإجماع على تصديق الناس بالموت على أنه نهاية عالم الدنيا القصيرة، يذكرنا بنعمة الإيمان وسعادة المؤمنين، الآملين في الحياة الطويلة الباقية، مقارنة بشقاء من لا يؤمن بالحياة بعد الموت، ولولا ناموس عمارة الأرض لما وجد في الدنيا شيء ذو بال، سوى ما يؤمن مصير المؤمن بعد مماته ليحيا حياة أبدية، حقًّا ما أرخص هذه الحياة الفانية! إنها كما قال النبي ﷺ: «**لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**»[1]، فمتى يدرك الإنسان أنها مجرد طيف زائل، وغمامة منقشعة، وسراب عابر، وأن أعظم وأهم ما فيها، هو ما ندخره للحياة الباقية بعدها من صدق إيمان وعمل صالح، إنها حقًّا متاع الغرور، ولقد أخبرنا القرآن عنها، ووصفها أبلغ وصف، قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

*****

أولًا: وحشة الزمان

يقول الفيلسلوف الألماني (إيموائيل كانت): «إن عالم الزمان والمكان الذي ينطبق عليه العلم ليس هو (الحقيقة) الواقعية بل هو (عالم الظاهر)»[2]، والمقصود بذلك أننا نتعامل مع زمان وهمي يختلف عن حقيقة الزمان الفعلي، وهناك نتيجة عجيبة توصل إليها (أينشتاين) بعد دراسة عميقة للزمان، وهي أن مقدار الزمان مقدار متغير في الكون، وأنه لا يوجد زمان واحد للكون كله ممتد من مبتدأ الوجود إلى الآن وإنما يوجد عديد من (الأزمان) وكلها مقادير متغيرة لا يمكن نسبتها إلى بعضها إلا بالرجوع إلى أنظمتها وعلاقتها ببعضها، وهذا مستحيل لأن أسرع المواصلات الكونية (الضوء)

---

(١) الحديث رواه الترمذي (٢٣٢٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**».

(٢) الدين والعقل الحديث ولتر ستيس ترجمة إمام إمام (مرجع سابق) ص٢٥٥.

[1] لا يستطيع أن يحقق تواقتًا بين أطرافه[2]، وكيف يتحقق ذلك والحديث عن قطر للكون لا يقل طوله عن ١٦ مليار سنة ضوئية! قد تكون هذه الحقيقة صادمة نوعًا ما للإنسان الغافل والغارق في (روتين) يومه وليلته المتكرر بعفوية، ولكن تعالَ نجرب معًا الدخول في بعض التفاصيل الزمانية لنرى مدى مصداقية العبارة التي صدرت من الفيلسوف (كانت) الذي يوصف بأنه (شيخ الفلاسفة)، ولنبدأ من أول درجات السلم المعرفي، أليس الزمان عرفًا نسبيًّا تعارف عليه الناس، فأصبح زمانًا! أنت تسمع وتردد لفظ الزمان، فمن أخبرك به؟ هل تذكر أول لحظة في حياتك تسلّمت مصطلح الزمان صوتًا يطرق أسماعك، ففهمته واستوعبته؟ وما تصوراتك عنه بعد أن نضج عقلك، وما هو الزمان أصلًا؟ وهل للزمان وجود موضوعي؟ ومتى نطق الإنسان لفظ الزمان واستوعبه؟ وهل نحن أمام زمان واحد أم أزمنة لا نهائية؟

لو تأملنا هذا المصطلح ومدلولاته الغريبة! لتوصلنا إلى أن الزمان المعروف لا معنى له إلا بالحركة! وأن للزمان ثلاثة أبعاد رئيسة، هي الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا ليس غريبًا ولا جديدًا على مسامعك، بل الغريب هو أن الزمان الماضي ليس له وجود الآن؛ لأنه قد انتهى، والمستقبل القادم ليس له وجود؛ لأنه لم يأتِ بعد، والحاضر لحظة زمنية متناهية في الصغر هاربة من الحاضر، ومع ذلك فهي أيضًا منقسمة بين الماضي المفقود والمستقبل الموعود، لحظات الحاضر لا تكاد تميزها أو تشير إليها، تخيل معي أي لحظة من هذه اللحظات، ولنقسِها زمانيًّا بأصغر وحدات قياس الزمن المتعارف عليها وهي (الثانية)، ولنجزئ الثانية إلى أقصى ما يمكن تجزأته من وحدات صغيرة، هل أدركت معي أنك ستصل إلى أجزاء زمانية غير محدودة قد يتجاوز عددها (التريلونات) على أقل تقدير يمكن تصوره، ولو رتبت هذه الأجزاء اللامحدودة من الثانية صفًّا على خط الزمان، فإنك ستقول بلا أدنى تردد: إن الجزء الأوسط منها هو الذي يمثل اللحظة الحاضرة من الزمن وإن تريلونات الأجزاء من الثانية قبل الوسط محسوبة من الماضي، فهي من الماضي الذاهب أصلًا بلا رجعة، وتريلونات الأجزاء التي بعده محسوبة هي

(١) تقدر سرعة الضوء بما يقارب ٠٠٠ ,٣٠٠ كم في الثانية.

(٢) أينشتاين والنسبية مصطفى محمود الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود دار أخبار اليوم قطاع الثقافة ص٤٧.

الأخرى على المستقبل المنتظر فلم تعد حاضرًا أيضًا، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل حتى ما يمكن أن تسميه وسط الأجزاء هذه كلها بعد تقسيمها، يمكن تقسيمه أيضًا، ولو من الناحية النظرية في آخر المطاف! وفي كل مرة تجد نفسك أمام جزأين: ماضٍ ومستقبل ونقطة حاضر فرضية لقصرها جدًّا جدًّا، لا تتوقف هذه السلسلة عند حد معين، إلى أن تصل إلى فرضية اللاوجود للحاضر أيضًا، فأين ذهب الزمان كله؟!

هذه ليست هرطقة ولا جدلية عقيمة، هذه هي الحقيقة عندما تتأمل بعمق حقيقة الزمن الموحش حولك معتمدًا على ذاتك الضعيفة، وغفلتك عن هذه التفاصيل لا ينفي وجودها كما اتفقنا بأنك لست مرجعًا معرفيًّا لإثبات المجهول أو نفيه، والنتيجة هي أن الزمن من الناحية الموضوعية غير ممكن الإشارة إليه إلا نسبيًّا وعرفيًّا، وإنما وجوده الحقيقي في عالم (الأبد) الذي لا بداية ولا نهاية له فقط، وهنا يتضح المغزى العميق من منطوق الوحي الذي يصف الدنيا بزمانها الزائل بأنها لعب ولهو، وأنها متاع الغرور، وأن الآخرة في أبديتها الزمنية هي الحيوان (الحياة) لو كانوا يعلمون، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أما البحث في الزمن الأول – أي زمن ما قبل الخلق – فلا معنى له منطقيًّا، ليس فقط لأن الزمن جزء من الوجود الذي لم يوجد بعد حينذاك، ولكن أيضًا لأنه مع العدم لا توجد حركة مما يستحيل وجود زمن مع عدمها! وهنا نواجه مشكلة وصف حال ما قبل الزمن وما بعد الزمن، وحلها يكمن في ضرورة التفريق بين (الأزل) وهو ما قبل الزمن، و(الأبد) وهو ما بعد الزمن، وهما معياران زمانيان خاصان لا ماضي ولا مستقبل لهما، ولا ينقسمان إلى أجزاء، لكنهما يشكلان مع زمننا المعروف (السلسلة السرمدية) التي هي الامتداد المفترض بين الأزل والأبد مرورًا بالزمن العرفي، والأزل والأبد لا يمكن قياسهما لعدم وجود بداية أو نهاية لهما، حيث إن إضافة السنين إلى الأزل لا توصل إلى الأبد مطلقًا؛ لاختلاف وحدات القياس بينهما، وعليه فإن السرمدية عالم أعظم من أن يستوعبها الزمن المعروف عند الإنسان، وخارج مدارك البشر، وكل ذلك من خلق الله العظيم عظمة فوق ذلك، وقد أشار القرآن إلى الأزلية والأبدية في وصف الله تعالى بأنه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣] استمتع بجمال فهم هذه الآية العظيمة على

ضوء سعة الأفق بعيدًا عن مفاهيم الزمن الدنيوي المعروف؛ لتدرك النعيم الذي قدمه لنا الوحي من الله تعالى.

يقول الفيسلوف الروماني (بويثوس)[1] مفرقًا بين ما وصفها بحياة الله (السرمدية)، وما يدوم إلى الأبد: «ليست الحياة السرمدية بعدد السنوات الأكثر، ولكنها شيء يجعل فكرة السنة بكاملها وأي مقياس آخر من مقاييس الزمن فكرة باطلة لا معنى لها، وأن الأزل هو امتلاك الحياة التي لا تنتهي امتلاكًا كاملًا تامًّا مرة واحدة»[2]، أما القرآن الكريم فقد حسمها في ثلاث كلمات هي: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٩١] ولما تطرق (ابن سينا) للقدم، وحاول تفسيره، بأن لجأ إلى تقسيم القديم إلى قسمين، قديم بالقياس، وهو شيء زمانه في الماضي أكثر من زمان شيء آخر جاء بعده، فهو قديم بالقياس، والثاني القدم المطلق، وهو الذي ليس له مبتدأ ولا منتهى زماني، وهو الله ﷻ، والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: ما مدى حاجة (ابن سينا) إلى هذا التكلف، وهو الذي يقرأ كما قرأ غيره من المسلمين هذه الآية الكريمة التي جعلت الزمان بجميع صوره والمكان أينما كان والوجود أينما كان موجودًا، كلها أقزام متصاغرة جدًّا أمام عظمة خالقها القائل: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] خاصة أن هذه الآية لا يمكن أن تخضع لمقاييس الزمان الدنيوي النسبي المرتبط بالحركة، التي يستحيل تطبيقها على الأزل والأبد المشمولين في الآية، ومسألة القدم والحدوث غير قادحة في الإيمان؛ لأن مجرد الإيمان بحدوث العالم يعني الإيمان بوجود من أوجده[3].

قد لا يحتاج الأمر إلى مزيد من التفصيل في تعقيدات فلسفية ومنطقية أكثر وأعمق من ذلك عن الزمن، لربما نجد الراحة الذهنية في التعامل مع الزمان العرفي البريء المعروف لدينا نحن سكان سطح الأرض دون أن نرتفع عنه للفضاء أو ننخفض تحته في القبور، فيضيع منا زماننا، ولا نحتاج إلى تفاصيله الموحشة، ولسنا بصدد إنكار الزمن العرفي الذي يستند إليه الوجود والعدم، والحياة مستقرة على مفاهيمه الشكلية التي

---

(١) آنيسيوس بويثوس Boethos (٤٨٠-٥٢٤م) فيلسوف روماني نبيل اشتهر بفن النحت وكان مقربًا من ملك إيطاليا مدة طويلة انتهت بإعدامه بالخيانة دون محاكمة: (Enciclopedia).

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٢.

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٦٤، ٨٣، ١٠٧.

أقرتها الأديان السماوية أيضًا، مع عدم الخلط بينه وبين الأزل والأبد لعدم خضوعهما لمعاييره، لكن الأمر مجرد تفكيك للزمن ليتضح للمتبصر المتعمق كم هو موحش متشعب إلى متاهات لا تنتهي، وكلما تعمقت في أسرار هذا الزمن العجيب، تضاعفت الوحشة منه، واتجهت بفطرتك تبحث عن مخارج منها نحو الطمأنينة، التي هي مطلب كل نفس منفوسة تحتاج إلى مثل هذه الجرعة الشافية، ويبقى مردنا إلى الله البصير بالعباد: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

ومع هذا، فإن هذا الزمان الذي يصعب تصوره على الرغم من اختلاف تصوراتنا عنه يبقى موجودًا وجودًا ظاهريًّا اعتباريًّا في النفس على الأقل، بحيث تكتفي طبيعة البشر بتناوله مبسطًا بأبعاده الثلاثة، الانتباه لما يتحرك حولنا وهو الحاضر، والتذكر بما مضى من حركات وتغيرات من قبل وهو الماضي، والتوقع أو الترقب لما سيحدث من حركات وهو المستقبل[1]، دون إشغال العقل بما يخبئه الزمان في داخله.

*****

الحركة و الزمان

الحركة من أعظم معجزات هذا الوجود، فالوجود كله يتحرك، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] فهذه الكتل الهائلة من كواكب ونجوم وأجرام سماوية تتحرك بانتظام دقيق لا يتقدم ولا يتأخر، بل نضبط أدق ساعاتنا على حركة الأجرام لدقتها، إنها تؤكد عظمة وقوة من أوجدها وحركها بهذا النظام، والحركة روح الزمن الدنيوي وسر وجوده، والزمن يوجد حيث توجد الحركة، وينتهي حيث تنتهي، ومن دون الحركة ينتهي الزمان العرفي تمامًا، بل سيكون في الوجود (سكون) مخيف ومرعب جدًّا، ما بين (أزل) لا نتذكره و(أبد) لا نعلمه إلا بما علمنا عنهما ربنا فقط، وهكذا يكون الزمان موجودًا في الحركة،

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٥١.

والحركة تكون مع المتحركين، والمتحركون عادة ما يكونون متآكلين متغيرين فانين، وحيث إن الله تعالى قد خلق هذا الزمان والحركة المسببة له، فإنه يتعالى عنهما؛ لأن قوانين الزمان المخلوق لا تنطبق على العظيم الخالق، فهو (الكبير المتعال)، وكل أجزاء الزمان ومكوناته تكون دونه بكثير، فهو لا ينتظر من الزمان مستقبلًا كما ننتظره نحن ولا يفوته ماضٍ كما يفوتنا، فقد أحاط علمًا بالزمان المخلوق.

وهنا وقفة مع عجائب ألفاظ القرآن، حين يحدثنا عن المستقبل بصيغة الماضي؟ تأمل معي: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾! [الزمر: ٦٨] هذا سيكون يوم القيامة، ولم تأتِ القيامة بعد! وتأمل أيضًا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٦] ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾! [غافر: ٤٩] ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾! [الزمر: ٧١] وكلها أحداث لم تقع في عالم زماننا العرفي، ولكن علم الله المحيط بكل شيء أحاط بها في علمه المطلق، وكونها حقيقة الحقائق المتحققة الوقوع بصدق الخبر المطلق عن الله أصبحت حوادث، وكأنها واقعة قبل أن تقع فعلًا، إنها لا تخضع أبدًا لعالمنا الزماني المألوف في الدنيا، فلا ماضيَ ولا حاضر ولا مستقبل هناك، بل هو علم يتعالى عن ذلك كله إنه علم الله المطلق الذي لا يحويه زمان عرفي ولا مكان دنيوي وفق مفاهيم الناس وقدراتهم، وكل ذلك مكنوز في لفظ صفة (العليم) سبحانه.

وحيث إننا لا نعلم عن الله إلا ما أخبرنا به عن نفسه، فإننا نحذَر كل الحذر أن ننزلق إلى الخوض فيما لا نعلم من صفاته ﷻ، فلم يخبرنا الوحي عن حركة له ولا سكون، ولا نعرف أي زمان خارج عن زماننا هذا، لكننا نواجه ذلك كله بالتسليم المطلق، مؤكدين أن لله صفات الكمال المطلق في كل شيء أمام عجزنا التام عن النفوذ إلى ما وراء هذه الحواجز المعرفية الرهيبة، وكيف ندرك ذلك، وقد حيرنا اختلاف الزمان المعلوم في دنيانا باختلاف الحركات المسببة له في عالمنا؟ يقول (أينشتاين): «كل نظام حركي له تقويم زمني خاص به»، لقد أوجدت الحركة بالنسبة إلى الأرض تقويمًا زمانيًّا يختلف تمامًا عن تقويم آخر قد تجده في كوكب المشتري مثلًا، فاليوم وفق التقويم الأرضي قد لا يصل إلى واحد في المئة من يوم كوكب آخر، لا يبعد عنه سوى مئات الملايين من

الأميال، فكيف سيكون الأمر عندما نقيس المسافات بالسنوات الضوئية؟[1]، بل كيف سيكون الزمان فيما هو خارج عن عوالمنا المعروفة؟!

ومن هنا ندرك أن اختلاف أيام البعث ناتج من اختلاف عوالم الحركة في كل حين، حيث سننتقل بعد الدنيا إلى عوالم أخرى وبحركات أخرى لا نعلم عن ماهيتها وكيفية حركتها ومن المتوقع جدًّا أن نواجه أيامًا أخرى قد تصل إلى ألف سنة: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥] أو ربما خمسين ألف سنة مما نعده أيضًا: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] أو غير ذلك مما لا يعلمه سوى العليم سبحانه.

لقد حار الفلاسفة، عندما تطرقوا لموضوع الزمن وأسراره، ووجدوه من أصعب أبواب المعرفة في الوجود؛ نظرًا لارتباط كل مخلوق به، وكان مما حيرهم الفرق بين الزمن الموضوعي، وهو الزمن الوجودي الذي نعرفه في تاريخنا وفي أثناء يقظتنا، وبين الزمن الداخلي الغريب الذي يعيشه النائم، فيدخل في عالم يراه في المنام، ويمضي معه عشرات السنين في مشاهد داخلية يعيشها الإنسان كما لو أنه في يقظته، وكل ذلك يحدث في لحظات نوم قد لا تتجاوز بضع دقائق! ألا ترى هذا الإنسان البسيط ينام ساعة، فيدخل في عالم من الاضطرابات والمقابلات والبيع والشراء والحرب والسلم والقتل والجروح والإنجاب والإعجاب والصغر والهرم والزواج والطلاق والسفر والحضر والمصائب والكوارث والخوف والأمن والموت والحياة، وكأنه عاش معها عشرات السنين، بينما هو في رؤى المنام خلال غفوة قد لا تتجاوز الساعة مثلًا، فما هو هذا الزمن التي جرت فيه تلك الوقائع وكأنها طبيعية؟ وكم من الأزمان الأخرى من شكله أو من غيره تبقى خافية علينا؟

لنعود إلى زماننا الموضوعي، ولنركز على الحركة المسببة له، فحيثما وجدت الحركة وجد معها نقطة الابتداء ونقطة الانتهاء، وهذا يعني أن هناك بداية لكل مخلوق يتحرك في هذا الكون، وستكون له نهاية لا محالة، فكل متحرك اليوم قد كان في ماضيه مهما طال ساكنًا، وكان هناك نقطة بداية لحركته، وهذا يعني أن له نقطة نهاية حتمية أيضًا، وأن

---

(١) السنة الضوئية الواحدة تعادل ٩,٣٣١,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر. (٥,٨٣ ترليون ميل).

عجلة الزمان تدور للوصول إلى تلك النقطة، وحتى مع ربط الزمان بالحركة لا تستطيع الفكاك من الوحشة في نهاية المطاف الزماني، حيث إن الحركة هي الأخرى نسبية إلى ما هو ثابت نسبيًّا، حيث لا يوجد زمان مطلق، بل هو أمر نسبي إلى ما يتحرك في محيطك، ولا يستند إلا إلى عرف وصفي استقر فتطبع، ولو استقر غيره لتطبع مثله، فالضرورة التي وجدناها أصبحت واقعية بالعادة والعرف وليس الواقع ضرورة ابتداءً.

إن ارتباط الحركة بالزمن والزمان بالحركة هو الذي جعل العلماء يصفون الزمان بأنه البعد الرابع في تحديد المواقع، فأنت عندما تريد تحديد موقعك على السطح، سواء كنت في صحراء أو في عرض المحيط، فأنت تستخدم خطوط الطول والعرض لتحديد النقطة، بينما الطائرة في الفضاء تضيف بعدًا ثالثًا وهو الارتفاع، وحتى هذه الأبعاد الثلاثة لا تكفي؛ لأن الطائرة ليست ثابتة في الجو بل هي متحركة بحركة تتغير كل ثانية، فلا بد من إضافة بعد رابع، وهو الزمن حتى نعلم في أي الأوقات كانت الطائرة في تلك النقطة من السطح وعلى ذلك الارتفاع ومن هنا جاء مصطلح البعد الرابع، ويقصد به (الزمان) وهذا يعني وجود ارتباط وثيق ومستمر بين الزمان والمكان، حيث لا يمكن معرفة الزمان إلا عن طريق تتبع المكان والأحداث المتغيرة فيه.

*****

وحدات قياس الزمان

العرف هو الأساس في اختيار أسماء أدوات الزمن ووحداتها المتفرعة عنها والمستقر عليها مع الزمن، ولتوضيح ذلك دعنا نبحر في فضاء الخيال الماتع مرة أخرى، تعالَ نقلب أدوات الزمان التي بين يدينا اليوم، أليست (الثانية)[1] هي من أصغر وحدات القياس الزمنية في حياتنا؟ ومن مضاعفاتها تأتي الدقيقة ثم الساعة فاليوم والشهر والسنة والعقد والقرن والألفية، وهكذا! إنها مجرد وحدات عرفية استقرت عليها الحياة على سطح الأرض فقط، وحاول الإنسان القاطن على كوكب الأرض فهم

(١) قسمت الثانية إلى وحدات زمنية أصغر منها مثل ميكرو ثانية وهكذا.

الوجود زمانيًّا من خلال مقاييس الزمان الأرضي، تذكر أنك نشأت وفتحت عينيك، فوجدت أمامك حياة قد استقرت على أن الدقيقة ستون ثانية، والساعة ستون دقيقة، واليوم أربع وعشرون ساعة، والشهر ثلاثون يومًا، والسنة اثنا عشر شهرًا، ولو وجدت أرقامًا غير ذلك لأصبح لها المعنى الاعتباري نفسه عندك، وتطبعت معها كما تطبعت مع ما أنت عليه اليوم.

سيكون الأمر طبيعيًّا تمامًا لو وجدت الأمر قد استقر على أن وحدة الزمن شيء آخر غير الثانية وباسم آخر! لم لا؟! وأن الوحدة التي تليها غير الدقيقة، وهي منها مئة ضعف - مثلًا - وليس ستين ضعفًا كما هو الحال بين الثانية والدقيقة، وأن الوحدة الثالثة شيء آخر غير الساعة المعروفة، وهي من الوحدة السابقة ألف ضعف! وليس ستين كما هو الحال بين الدقيقة والساعة، وأن اليوم ستون وحدة بما يعادل الساعة أو حتى الساعة نفسها أو فقط ستة أضعاف بدلًا عن أربع وعشرين ساعة، وأن اليوم ليس يومًا بل اسم آخر أو حتى بالاسم نفسه والعشرة منه تكون الشهر، وليس بالضرورة الشهر بالاسم نفسه أيضًا، وكذا السنة أو ما يقوم مقامها من الاصطلاحات العرفية التي سنتفق أنها ذات مدلولات زمانية، كل ذلك ممكن أن يأتي بالزيادة أو النقصان على حد سواء، تأمل جيدًا ستجد أنه لا شيء يمنع ذلك، فإن الخالق الذي هيأ لهذه الأقدار أن تكون في الوجود، وتتموضع في الطبيعة لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء أن يقدر أقدارًا أخرى وبصفات أخرى وخلق آخر لا يعلمه سواه ﷻ، وقد تموضعت الوحدات الزمانية وفق الوضع الراهن المتعارف عليه، وترتب عليها العبادات الوقتية من صيام وصلاة وحج وكفارات.

قد يخطر ببالك أن هذا الافتراض تُكلّف مبالغ فيه، لا أبدًا بل هذه احتمالية مفتوحة لتفتيق أسوار ذهنك المألوفة والمقولبة عادة على أنماط تغلف بالقداسة المطلقة، بينما هي ليست كذلك، يقول (لوك): «لا تمثل المعاني في مدلولاتها الفورية سوى الأفكار والتصورات في عقل من يستخدمها»[1]، هناك مرونة في الوجود والفكر والحياة والتصورات أكبر بكثير مما هو واقع متصلب في عالمنا وفي أذهاننا، وكل ما تراه

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١٧٢.

وتعايشه في حياتك اليومية ما هو إلا أعراف قد استقرت وأسماء تواطأت عليها العقول، فأصبحت معارف وأجناسًا، وهذا لا يتعارض أبدًا مع أن الله قد علم آدم الأسماء كلها، وتعليمه لهذه الأسماء بطريقة التوصل إلى ما يستقر منها، فيبقى بحكم سبق علمه، فلا يرد أن يكون المقصود وجود (قائمة أسماء بكل شيء) قد أدرجت قدرًا اصطحبها آدم معه عند نزوله، بقدر ما يكون المعنى حول تزويد آدم ومن بعده ذريته بملكة التعرف إلى أشياء وتسميتها بالأسماء المقدرة قدرًا يسبق الوقائع والأحداث، واستعمالها والاستقرار عليها وعلى أعرافها، وقد سبق علم الله بذلك سبقًا مطلقًا قبل أن يكون ما هو كائن من الكائنات، ولا يتعارض أيضًا مع تسمية الشهور وعدتها وأيامها المعتبرة عند الناس عند تنزل القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦] وذلك لأن كل ما يحدث في هذا الوجود هو مما يأذن به الله وحده لا شريك له ومما يعلمه ويختاره ويقدره للمخلوق الذي يختار في نطاق محدد تكون المحاسبة عليه، ولا يحاسب على ما سواه.

*****

الزمان الأرضي والأزمنة الكونية

إذا نطق لسانك بالزمن فأنت تتصور أنك تتكلم عن شيء ثابت ومعلوم علم اليقين، والحقيقة خلاف ذلك، فأي زمن تتحدث عنه في هذا الكون؟ إنها أزمان لا متناهية تسجل مع كل حركة من حركات أقمار وكواكب ونجوم ومجرات هذا الكون، وزماننا الذي نتحدث عنه مجرد قطرة لا تكاد تذكر في بحار الأزمنة الكونية، وهو ظاهرة نسبية مرتبطة بكوكب الأرض فقط، ستدرك حجم الوحشة الزمانية الحقيقية عندما تعلم أن حجم (الكرة) الزمانية التي تعرفها وتفهم الوجود من خلالها لا تكاد تشكل نقطة صغيرة في عالم الوجود الفعلي، لنفترض جدلًا أننا تجاوزنا تلك الإشكاليات العرفية الداخلية مع أسماء ومقادير ووحدات الزمن من داخله، وأخذنا بالعرف الدارج، واعتبرنا وحدات الزمن في الوجود هي الثانية والساعة واليوم والشهر والسنة

كما هي الآن، فسنصطدم أيضًا بعقبة أخرى تجعلنا نلتصق بكوكبنا الأرضي حتى لا ينفلت الأمر منا، ويذوب مشروع الزمان بالكامل من بين أيدينا، ونبقى في وجودنا هذا بلا زمن! كيف يحدث هذا؟

إننا نعيش على كوكب الأرض فقط، ولا نستطيع النفاذ من أقطار السماوات والأرض، يعني أننا قد استسلمنا للتحدي القرآني الصارم: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: ٣٣] وهذا يعني أننا نتعامل مع زمن أرضي (مسكين!) حاله كحالنا يعيش معنا على أرضنا، ونسبي من حيث علاقته بالزمان المطلق! هذا الزمن يقتصر وجوده على عالم الأرض من خلال رصد حركات الشمس والقمر من نقطة على سطح الأرض نفسها، ثم بمفهومنا لمقاييس زمن الأرض الضيق، وعلى الرغم من ذلك يبقى هذا الزمان بعلته منطلقنا الوحيد لمعرفة الوجود كله نحاول من خلاله أن نفهم زمان الكون الفسيح، فاليوم الأرضي جعلناه أربعًا وعشرين ساعة، ونحن على يقين أن اليوم الأرضي مرتبط بتقلبات الليل والنهار عندنا على سطح كوكبنا فقط، وأن هذا التقلب مرتبط بقشرة فضائية ضحلة تحيط بكوكب الأرض يتلاشى الزمان بعد ارتفاعنا مئات الكيلومترات من فوق سطحها، حيث هناك لا شروق ولا غروب ولا ساعة ولا يوم ولا شهر ولا سنة ولا هلال ولا بدر إلا بالرجوع للأرض التي من زمانها العرفي ننطلق لفهم أزمنة الكواكب في مجموعتنا الأرضية من خلال وقوفنا على منصة سطح الأرض واستخدام وحدات الزمان الأرضية مرجعًا لفهم ما هو خارجها.

إننا مرتبطون بالأرض زمانًا ومكانًا، ولكي نفهم ما هو أضخم وأعظم منها في الفلك لا بد من إعمال قوانينها ونواميسها لتصبح منطلقنا للكون الفسيح، فنأتي إلى كوكب المشتري الذي يدور حول نفسه ليحدد يومه بدورة كاملة كالأرض، ويدور حول الشمس ليحدد عامه الكامل كالأرض، فنقول: إن عامًا واحدًا من أعوام المشتري يعادل ١١ عامًا وعشرة أشهر وثلاثة أيام قياسًا إلى الزمن الأرضي، ثم ننتقل إلى كوكب بلوتو أو الكوكب الغامض فنقول: إن السنة على ذلك الكوكب تعادل ٢٤٧,٧ سنة أرضية، ويومه يعادل ٦,٤ يوم أرضيّ، وهذا يعني أنك عندما تبلغ من العمر ستين سنة أرضية، فإنك لم تتجاوز ثلاثة أشهر أو ربع سنة (٠,٢٤) من سنوات بلوتو! وهذا

بالنسبة إلى كوكب من مجموعتنا الشمسية القريب منا، فكيف بجرم سماوي آخر يبعد عن كوكبنا مليارات السنين الضوئية؟!

وهكذا يصبح خيارنا البشري المحدود هو الضرورة في القياس التقريبي الأرضي في الزمان لعجزنا عن إدراك الأبعاد الحقيقية الدقيقة للأجرام الفلكية الهائلة في الضخامة؛ وذلك لكي نفهم أقصى تصور ممكن الوصول إليه عن هذا الكون العجيب، ونكتشفه اعتمادًا على المراجع الأرضية التي ارتبط بها الإنسان إلى الأبد، وهذه كلها في عداد وتفكير الإنسان وعقله المحدود، وما ندري عن شأن هذا الكون الرهيب وأيامه وأعوامه التي هي قطعًا خارج استيعاب عقولنا وفوق مداركنا المحدودة، إننا حقًّا ضعفاء، والمسكين منا من يتظاهر بالمكابرة والعناد أمام عظمة الله الخالق الباقي، وهو عما قليل سيصبح ترابًا ورمادًا، ولقد أشار القرآن إلى تفاوت مضامين مصطلح (اليوم) مع ثبات اللفظ في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] ولم يقل: (اليوم) فيحصره، بل قال: ﴿يَوْمًا﴾ [الحج: ٤٧] بالنكرة المطلقه، ما يعني عموم تعدد تلك الأيام الكونية المجهولة عند الناس فيما عدا يومهم الأرضي الذي يعدونه، وحسابهم الذي يحسبونه، وجميع أيام الله هو الذي يعلمها، ولا نعلمها.

هذه الأبعاد الموحشة للزمان عند المعرضين عن الله تنقلب إلى جنة من الطمأنينة والهدوء والأنس والراحة عند المؤمنين لمجرد الانضواء تحت لواء الوحي ولاستظلال بظله الممدود، وذلك بتسليم تفاصيل هذ الأمر له وحده، وهنا يجب التأكيد على حضور القرآن متألقًا وحاسمًا في كل حقل من حقول المعرفة لا يخضع لزمان ولا لمكان بعينه، وكأنه لم ينزل إلا لنوازلنا الفكرية المعاصرة، وقد وجد فيه من كان قبلنا حلًّا لكل معضلة كما وجدناه اليوم، وسيجد من سيأتون بعدنا كما وجدنا، ولا عجب، أن القرآن كلام الخالق ﷻ، ولا اختلاف فيه؛ لأنه من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدنا فيه اختلافًا كثيرًا، كما نجده في كل كتاب بشري دونه.

وإذا كانت أحدث الدراسات التاريخية تؤكد أن فترة وجود الإنسان على الأرض قصيرة جدًّا وصفها أحد الباحثين[1] بأنها لا تتجاوز فقرة أخيرة من آخر صفحة في

---

(١) حول الحقيقة والاعتقاد والإيمان، جاك بوفراس، ٢٠٠٧، مرسيليا، فرنسا.

كتاب من ألف صفحة عن عمر الأرض، وأن القرن الماضي بكامله لا يتجاوز حجم آخر نقطة في آخر سطر من آخر صفحة من ذلك الكتاب، ولو افترضنا أن عمر الأرض سنة واحدة، فإن فترة وجود الإنسان عليها لا يتجاوز بضع ثوانٍ(١).

فواخجلاه من ربنا! إذا قلنا: إن وجود الإنسان على الأرض لا يتجاوز بضعة ملايين من السنين كحدٍّ أقصى، فماذا يشكل هذا العمر القصير من وجوده؟ وماذا يشكل عمره من هذه الفترة؟ لا أقول بالنسبة إلى عمر الكون الذي يقدر بما يزيد على ١٥ مليار سنة، وإنما من سنة شمسية واحدها قوامها ٢٥٠ مليون سنة أرضية، أتدري كم استغرق وجود الإنسان على الأرض بالنسبة إلى السنة الشمسية فقط؟ يعني أنه منذ وجد الإنسان وحتى اليوم لم يمضِ من سنة شمسية واحدة سوى ٢٪ منها فقط، علمًا أن الشمس تسير في مدارها حول مركز المجرة بسرعة ٢٢٠ كم بالثانية، منذ وجدت وهي تجري لتقطع هذه المسافة، وتكمل سنتها الأولى بعد ٢٥٠ مليون سنة أرضية!! تخيل أنه لم يمضِ سوى هذه المدة القصيرة من الدورة الشمسية الواحدة! وهذا يعني أن نزول آدم وجميع الأنبياء والرسالات السماوية والعقوبات والآيات والمعجزات والفتوحات والتحولات الحضارية والحروب والمجاعات والأمراض والوجود البشري والانقراض وتلك الدول التي سادت ثم بادت، إمبراطوريات ودول الخلافة، وأنت تتبعها دراسة وتحليلًا بخبراء التاريخ وعلوم الإنسان، وتظن أنها أزلية تبدأ من الزمان السحيق، وإذ بها لا شيء في مقياس الزمان، ولا تتجاوز لحظات منسية في سلم الزمان المطلق المعروف، فكيف بما هو غير معروف؟!

فإذا كان هذا الحال مع كامل فترة وجود الإنسان على الأرض، فكيف يكون الحال مع عمر الفرد منا وأشد من ذلك ما مقدار عمر الواحد منا سواء آمن أم لم يؤمن، على ضوء هذا الحساب الرهيب! أرأيت كيف يكون الإنسان ظلومًا جهولًا بحق عندما ينصب نفسه حكمًا مجادلًا في أسرار الوجود الأعظم، مجدفًا بكل اتجاه، وهو أمام هذه التفاصيل المعقدة مع ضعف علمه عن الوجود؟! وصدق الله العظيم: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ** ﴾ [الحج: ٨] ولكن على الرغم من شدة هذه

(١) العلم في ١٠٠١ سؤال، تريفل، (مرجع سابق)، ص٩١.

الوحشة الزمانية هناك مخرج آمن وفي متناول أدنى الناس فضلًا على أعلاهم، وسيأتي توضيحه بعد التطرق إلى وحشتين أخريين، هما: وحشة المكان ووحشة الموت والفناء.

*****

ثانيًا: وحشة المكان

أتدري ما المكان؟ حسنًا! يعرّف الفلاسفة المكان بأنه: «السطح الباطن للجسم الحاوي الماس للسطح الظاهر للجسم المحوي»! أي إنه منطقة التماس بين الوجود والجسم الموجود فيه، التي تأخذ شكل الجسم أيًّا كان، فالتفاحة مثلًا تزيح من الفراغ بقدر حجمها، وتأخذ منه شكلًا يرسم حدودها من داخلها ونحن نراها من الخارج، والمكان طبيعة موجودة لا تُلمس، ولا يقاوم تحرك الأجسام، ويمكن أن يشغله جسم ما، وهو فراغ خالٍ مؤقتًا من أي جسم ومن دونه تستحيل الحركة، وهذا يعني أن للمكان ثلاثة أبعاد: طول وعرض وعمق، وأنه لا تتداخل فيه أشياء مستقلة بعضها في بعض في مكان واحد[1].

ولكن هل يكفي هذا التعريف السطحي للمكان؟ ما حقيقة المكان إذا ما سبرنا غوره، وتعمقنا في بحاره؟ وكما كان الاستفهام عن الزمان وحقيقته عند التفصيل موحشًا محيرًا لمن لا يأمن منه بالملاذ الإلهي، فسيكون أيضًا موحشًا عن المكان وطبيعته، فالسؤال الموضوعي مرة أخرى هو: هل يوجد مكان ثابت مستقر أصلًا في الوجود الذي نعرفه؟ الجواب عن ذلك بالنفي طبعًا؛ لأن التموضع الحاصل لكل شيء في الكون نسبي قطعًا، والثبات يعني نسبته إلى ثابت أكبر منه وهكذا، ومن لا يؤمن بوجود الخالق سيتدرج بالموجودات التي يعرفها من الصغير للكبير ومنه للأكبر، حتى ينقطع خياله وفكره عن استيعاب الأشياء الكبيرة جدًّا (فيغصّ) بفكره ويتيه بخياله، فينتكس إلى حياته الدنيا يتمتع بها فحسب، ويمسك بهذه القشة (الأرض) مسكة تشبه تشبث جنين الغور لا بصدر أمه ملتصقًا بها خشية السقوط، وهي تقفز من مكان لآخر، أما المؤمن بوجود الله

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٤٦١.

والمستيقن أن المكان من مخلوقات الله، وأن الله مهيمن على كل شيء فلا يعنيه أن يدرك أو لا يدرك أي مخلوق هائل، ولا تعنيه سلسلة النسبة للأشياء الكبيرة طالما أنه سيصل في النهاية إلى الأكبر الذي ليس كمثله شيء، ولذلك يعيش سعيدًا مرتاح البال، وهو ينتظر من ربه وعده الحسن الذي سيلاقيه، وسيحضر هو ومن لم يؤمن إلى يوم القيامة على حد سواء، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص: ٦١].

ومن غرائب تصورات الإنسان أنه يتخيل الوجود دائرة كروية كبرى ثابتة مستقرة تحوي موجودات الوجود كالكواكب والنجوم والمجرات متناثرة داخله، كما تتناثر حبّات العدس العالقة داخل بالون ضخم! يا له من تصور افتراضي غريب جدًّا! فنحن أصلًا لا ندري عن كيفية شكل وحدود الوجود الذي نحن جزء منه فضلًا على كيفية ما وراء هذا الوجود حتى نتخيل شكله وحدوده، وإذا كان ثمة حد بين الوجود وبين شيء آخر فالوجود لا يزال متواصلًا ولا حد له أصلًا، فالشيء المحاذي للوجود هو وجود بذاته! وإلا فماذا سنسمي ما بعد الوجود؟! هنا يتجلى العجز المطلق للإنسان في أوضح صوره، أعلم أنك لا تريد المواصلة لما بعد ذلك من الخيال؛ لأنه لا أحد منا بمقدوره معرفة الحقيقة فيما وراء ذلك، ومن ثم، فأنت في غنى عن التخمين البشري والتخرصات المفتوحة، وستجد نفسك مجبورًا للرجوع إلى خبر الوحي فقط، إذ لا شيء سواه.

وعند التعمق في البحث عن الوحشة المكانية سنجدها أشد غرابة من الزمانية، ولا بد أن تدرك أنك أنت الآن حيث أنت لست في نقطة ثابتة في الكون أبدًا، ولا يمر من عمرك ثانية واحدة إلا وأنت تتحرك من مكان لآخر وفي جميع الاتجاهات والمحاور الفراغية، تسبح في عالم الكون الفسيح، ولا تمر على المكان نفسه مرة ثانية أبد الآبدين، وكيف تكون ثابتًا كونيًّا وأنت على أرض سابحة في فلكها تدور حول الشمس الدائرة هي الأخرى ضمن مدارها، من بين نجوم المجرة المتوازنة هي الأخرى أيضًا مع المجرات المتحركة جميعها في كون لا يعلم تسلسله وأبعاده واتجاهات تحركاته إلا الخالق الذي أوجده، وفي مدارات يصعب تصورها بالعقل البشري، ولم يقل فلكي واحد: إنه اكتشف مركزًا ثابتًا للكون تدور حوله مجراته وأجرامه، إذًا أنت في مكان عائم يستحيل

معرفته ولا تحديد إحداثياته نسبة إلى نقطة كونية ثابتة، أنت لست معلقًا في نقطة ثابتة في الفراغ الكوني، ولست سائرًا في اتجاه معين مهما كانت السرعة، بل أنت جسم مقذوف بلا اتجاه، لكنه يعوم منطلقًا إلى حيث لا جهة، ومع هذا فالمسافة التي تقطعها طيلة حياتك لا تكاد تذكر في حجم ضخامة الوجود الذي أمكن للإنسان معرفته، فكيف بما لا يمكن معرفته؟! وجميع القياسات الزمانية والمكانية مرتبطة نسبيًّا بكوكب الأرض وظروفه، ولو اختفى هذا الكوكب من الوجود لاختفى معه كل ما تعلمه عن الزمان والمكان وشؤون الإنسان!

هذا يعني أنك من الناحية الواقعية تهوي في عالم الكون السحيق دون أن تشعر، لثباتك النسبي الملتصق بكوكب الأرض مثلك مثل قائد السيارة التي تتدحرج وهو يتقلب فيها مثبتًا بحزام الأمان، فهو ثابت بالنسبة إليها لم يتحرك من مقعده ومتقلب معها عشوائيًّا يتبعها يميل هو وكل ثابت بداخلها حيث مالت، وهذا يعني أنك في الكون بلا عُلو لك ولا سُفل ولا يمين ولا شمال ولا مشرق ولا مغرب، بل أنت أمام مشارق ومغارب لا عد لها ولا حصر، لكنها منتظمة وفق نظام دقيق جدًّا لا يعلم أسراره إلا الله العظيم الخلاق العليم، الذي أخبرنا عن قدرته المطلقة بالقسم بتلك المشارق والمغارب؛ لكثرتها وعظمها في الوجود، وكان القسم أيضًا على قدرته العظمى ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠] تذكر أيضًا أن هذه الآية قد نزلت على نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب، والله إن هذا القرآن بمثل هذه الآيات ليطل علينا شامخًا من حائط الثقة النورانية المريحة منقذًا ونورًا وشفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، إنه ورب السماء ليقين مطلق يسحق كل ذرة شك تنطلي على بصيرة من له أدنى عقل، فهذه المشارق والمغارب في وجود ضخم وأبعاد سحيقة لا يحدها حد، ولا يحصرها لفظ، يصعب تخيلها اليوم وأنت في عصر المركبات وسفن الفضاء وسرعة الضوء، وعليه فالقسم بها هو على أمر أعظم منها كثيرًا كثيرًا، إنه قدرة الله! آمنا بالله ربنا.

إني لأشعر بالقصور والضعف، وأنا أحاول لفت الأنظار إلى تدبر معاني آيات القرآن العظيم، أريد أن أوصل إلى عقلك أني أحيلك إلى شيء عظيم بل من أعظم ما نفتخر بإيماننا به وتصديقه، ولذلك ليس غريبًا أن يذكّرنا القرآن نفسه بما تهتز له

القلوب، وتقشعر منه الجلود، ثم يختم كل آية بعتب، أفلا تذكرون؟ أفلا تتقون؟ فأنى تسحرون؟ استمع إلى التوبيخ الرباني، ويا للحياء من ربنا!: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٠].

*****

أين موقع الأرض؟

الوسائل الحسابية المتبعة لتحديد مواقع الأجرام السماوية والمسافات بينها ليست مستساغة عند غالبية الناس؛ وذلك لصعوبة تصورها، فما بالك بما وراء النظر الطبيعي وما وصلت إليه التلسكوبات الجبارة، فالإبصار المباشر بالعين ليس كالبصيرة الثاقبة بالعقل، ولهذا كان العلماء أشد خشية وتقديرًا لعظمة الخالق لما أدركوه من عظمة الخالق التي تكاد تنشطر معها عقول البشر، عندما يحاولون تصور المسافات بين تلك الأجرام السماوية، سأذكر هنا مثالًا يقرب الصورة، فإذا تخيلنا أن الأرض بحجم حبة العدس فستكون الشمس بحجم التفاحة الكبيرة، وإذا افترضنا أن المسافة بينهما خمسون سنتيمترًا، أي نصف المتر (وهي في الواقع ١٥٠ مليون كيلومتر)، فعلى أساس هذه النسبة سيكون أقرب النجوم إلينا هو (النجم القنطوري Alpha Countorus) على مسافة مئة وأربعة وثلاثين ألف متر (١٣٣,٧ كم)، (وهو ما يعادل ٤,٣ سنوات ضوئية)[1]، وسيكون نجم سهيل اليماني الذي تراه في الجنوب على مسافة (١٥,٠٠٠) خمسة عشر ألف كم (وهو في الحقيقة يعادل ٣١٠ سنوات ضوئية)، وهذا يعني أنه لو وجدت الأرض والشمس على مسافة ضمن طاولة الأكل الصغيرة في غرفتك في مدينة الرياض فسيكون أقرب نجم إليها على مسافة ١٣٣ كم من حيث تقع تلك الطاولة! ويكون

(١) السنة الضوئية الواحدة تعادل ٩,٣٣١,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر (٥,٨٣ ترليون ميل).

نجم سهيل على مسافة ١٥,٠٠٠ كم منها، أي على مسافة أبعد من مدينة بكين عاصمة الصين![1] طبعًا لن تستوعب هذه الأبعاد بسهولة، وسيزداد عجزك عندما تدرك أننا نتحدث عن مكان وجودك وأقرب نجم قد تراه بعينك، فكيف سيكون الحال بالنسبة إلى ما لا تراه؟! وماذا عن أفلاك لا يمكن رؤيتها بأي وسيلة مباشرة؟! لكن أريدك أن تطمئن أيضًا بأن هذا الوجود العظيم لا ينتظر فهمي وفهمك ولا إيماني وإيمانك لكي يصبح وجودًا على الوضع الذي أوجده الله عليه! إنه وجود قائم بذاته بعيدًا عما يدور في عقلي وعقلك! وفوق ذلك كل ما فيه يسبح لخالقه، فوا خجلاه مرة أخرى من خالقنا وخالقه أن لم نكن قدرناه حق قدره، وأحسنّا لأنفسنا بالإيمان به!

وحتى لو بقيت ضمن إطار تصوراتك الممكنة، وحاولت معرفة مكانك في الوجود سيبقى لك المكان موحشًا أيضًا، فإذا تحدثت عن الكون المنظور بالعين المجردة، وقلت: إن الأرض تقع في مدار محدد ضمن المجموعة الشمسية تدور حول نفسها مرة كل يوم، وحول الشمس مرة كل سنة أرضية، وتقف هنا (وهذه الحقيقة اختلف عليها الناس آلاف السنين)، فأنت بهذا التصور لم تجب عن السؤال أصلًا؛ لأن الجواب في حقيقته موحش للغاية، تحديد مكان الشيء يجب أن ينسب إلى ما هو أكبر منه، وكل كبير إلى ما هو أكبر منه، حتى ينقطع حبل الإدراك والعقل، ولا يزال متسلسلًا مع علل المخلوقات، ويستحيل عليه الوصول بخياله للخالق. لنتعمق أكثر وأكثر في وصف وحشة المكان، ولنحاول الاقتراب من الخيال إلى الواقع، لا يستطيع أحد أن يقول: إن الأرض تدور حول الشمس في اتجاه الجنوب، أو الشمال، أو الشرق أو الغرب؛ لأن هذه الجهات الأربع نسبية إلى الأرض بحكم دوارنها حول الشمس التي تتراءى لنا وكأنها تشرق من جهة، وتغيب من جهة أخرى، ونحن بكوكبنا نلتف يوميًّا، فتظهر الشمس إذا واجهناها، وتختفي عنا إذا خالفناها في الجهة الأخرى.

---

(١) إذا كان نجم سهيل اليماني على هذا البعد السحيق فكيف نشاهده؟ إننا نراه لأنه أكبر من الشمس ٦٥ مرة! وألمع منها ١٣,٠٠٠ مرة ولو كان مكان الشمس لارتفعت حرارة الأرض إلى أكثر من ٦٠٠٠ كالفن ولذاب جزء منها وانطلق في الفضاء: (One-Minute Astronomer,Canopus – The (Star of Old Age), Brian Ventrudo, January 20, 2011).

ولتسهيل فهم هذا التصور البدهيّ جدًّا عن حقيقة المكان في الوجود، لنفترض وجود نقطة وهمية ثابتة في مكان ما من الكون، وللنظر إلى مكان الأرض بالنسبة إلى موقع هذه النقطة، تعالَ لنعرف وجهة الأرض في الكون! لأن الأرض تدور حول الشمس (دورة كل سنة أرضية) بسرعة ٣٠ كم/ ثانية، وفي مدار متوسط نصف قطره ١٥٠ مليون كم، فلنفترض أنها تتباعد عن تلك النقطة الافتراضية في اتجاه الغرب الافتراضي للنقطة بهذه السرعة والشمس المنتظمة مع كواكب المجموعه الشمسية أيضًا بما فيها الأرض المرتبطة فيها، تدور في اتجاه آخر برفقة حزمة كواكبها بسرعة ٢٢٠ كم/ ثانية حول محور مجرة درب التبانة في اتجاه الجنوب الافتراضي (دورة كل سنة كونية مقدارها ٢٥٠ مليون سنة أرضية)، وعلى مدار نصف قطره ٢٥,٠٠٠ سنة ضوئية، وهذه المسافة بمقياس المسافة الأرضية المتعارف عليها بالكيلومتر تساوي تقريبًا (٢٣٣,٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠كم)، وأن مجرتنا بكاملها تدور حول فلك سماوي أكبر منها في اتجاه الشمال الافتراضي لتلك النقطة التي بدأنا منها بدورة رابعة (....) الله أعلم كم مدتها وإلى أين اتجاهها؟، لربما تبلغ مدتها بلايين السنين الزمانية، وعلى مسافات فوق مقدور حساباتنا أيضًا تتجاوز بلايين السنين الضوئية، حيث إن هذه المجرة واحدة من نحو ٢٥٠ بليون مجرة كونية، أين وصلنا في حركة كوكبنا الآن؟! لا يستطيع مخلوق أن يعلم هل نحن في انحدار أو ارتفاع أو نسير في اتجاه اليمين أو الشمال؟ وهل لا نزال ممسكين ببوصلة تحديد الوجه إن كان ثمة وجهة؟ بعد هذا قل بربك: أين أنت من حيث المكان؟ وأي اتجاه تسلكه في هذا الوجود؟، وهل تستطيع رسم خط السير وأبعاده وإحداثياته الكونية؟ وأين نحن متجهون معك بسفينتنا الكبرى (الأرض) في هذا الكون المخيف؟ أجزم أننا جميعًا هذه اللحظة نحتاج إلى الفرار الى خالق هذا الوجود ومدبره، فهو الملاذ الوحيد لنا من كل رعب ووحشة.

سبحان من أحاط بكل شيء علمًا!، كم هو جهول هذا الإنسان المسكين الذي كلما سمع العقلاء والأسوياء يتحدثون عن بعض ما أدركوه من عظمة القرآن وحجته الداحضة لكل باطل، يقفز إلى ذهنه أنهم إنما يعملون ذلك لأهداف ترويجية ودعائية ودفاعية وكأنهم يروجون لمؤلف بشري متميز أو لمنتج صناعي متطور يراد تسويقه!، بينما الأمر مختلف جدًّا، فهؤلاء الذين ينبهون إلى عظمة القرآن، ما هم إلا مصابيح

سخرهم الله ليخبروا الناس بما فتح الله عليهم من نوافذ البصيرة، وبها رأوا من خلالها عن هذا الكتاب الحكيم ما جعلهم يتحدثون فرحين معجبين مستبشرين ومبشرين ومنذرين، ليدلوا الناس إلى ما وجدوا من كنوز معرفية باهرة، إنهم حقًّا ينادون الناس بأعلى صوت ممكن قائلين: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

*****

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]

وهكذا يصبح التصاقنا بالأرض وجودًا وعدمًا وزمانًا ومكانًا ضرورة وجودية، فنحن من الأرض وإليها نعود حتى يتم إخراجنا منها تارة أخرى انطلاقًا من منصة الأرض إلى عالم الآخرة، تأمل معي آية عظيمة من كتاب الله طالما مررنا عليها مرورًا عابرًا دون التوقف عند مفرداتها، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه: ٥٥] لنتجاوز التفسير التقليدي لمعانيها عند بعض من يفسرونها بأن الله قد خلق أجسادنا من الأرض، ثم ندفن فيها بعد الموت، ثم نبعث منها مرة أخرى ويقف، ولنتحول إلى المفهوم الأوسع والأعمق عندما يفسرها من فتح الله عليه ببعض علوم الدنيا، فيفهمها بأن الله خلقنا منها بكل شأننا بأجسادنا وحياتنا وأفكارنا ونظرتنا وفهمنا لما يدور حولنا، وأنه يعيدنا إليها، ولا نزال فيها حكمًا بمقابرنا في أثناء الحياة الدنيا، وبعدها يخرجنا ليس من القبر فحسب بل من جميع أدوار الحياة الدنيا وقوانينها ونواميسها التي ارتبطنا بها في حياة أولى إلى حياة أخرى ونواميس أخرى، فالإنسان وإن قدم إلى الدنيا عاريًا فإنه لن يبعث مرتديًا لباسه وعمامته، ولن يحيا ويموت كما كان حاله في الدنيا بأعرافها ونواميسها، ووضعه الحسي والنفسي، لن يكون أبدًا كما كان في الدنيا وتلك هي التارة الأخرى في الحياة الأخرى، بل هي النشأة الأخرى المختلفة عن النشأة الأولى.

إن إخراجنا من الأرض بعد أن تم دفننا فيها عملية جديدة لا تخضع مطلقًا لأيٍّ من قوانين الوجود المعروفة فذلك عالم آخر، ولهذا تُعدّ تلك اللحظة التي يقوم فيها الناس لرب العالمين لحظة الرحلة الكبرى والأخطر في حياة الإنسان ووجوده، ماذا عسى

أن تفعله رحلات السفر العادية بوعثائها ومشاقّها مقارنة بها ومع هذا تُعدّ رحلات السفر في الدنيا أنموذجًا مصغرًا للرحلة الكبرى، ألا ترى أننا – مثلًا – ما إن نقلع من الأرض بالطائرة إلا ويغشانا الحنين إليها، ويكون أول ما يهمنا من أمرنا متى وكيف نهبط إليها بسلام؟! وما إن تنطلق الرحلات الفضائية المأهولة حتى يحبس القياديون في غرفة التحكم أنفاسهم إلى أن ترجع سفينة الفضاء بسلام، فيستقبلونها إذا هبطت بالتصفيق والصراخ والعناق فرحًا برجوعها إلى العش الأرضي، وما إن تنطلق الأفكار نحو الكون إلا وترجع إلى الإرض كرجوع كل طائرة ومركبة إليها كي نفهمها من الأرض فهمًا صحيحًا، كما هو الحال في أعوام الكواكب وأيامها في المجموعة الشمسية.

إن إخراجنا من الأرض تارة أخرى ليس مقصورًا على الخروج من القبر وإعادة الحياة إلى الجسد فحسب، بل هو إخراج مفتوح إلى عوالم الآخرة وما فيها من نشأة جديدة ونواميس وقوانين (أخرى) مختلفة تمامًا عن تلك التي كانت في الأرض، انظر كيف يمكنك أن تقرأ آيات القرآن، فتفتح لك آفاق الوجود عندما تتلوها مع قليل من العلم الذي يفتق لك نوافذ فكرك وبصرك وبصيرتك، فتكون أكثر خشية وتعظيمًا لله ممن يقرؤه تلاوة فقط دون تدبر أو ممن يقتصر على فهم السابقين الأوائل المجتهدين بما عندهم من العلم، دون أن يفعّل المرء عقله، فيتفكر فيما فتح الله به من العلم المتجدد من بعدهم، ومن ثم يجد في القرآن من المعجزات ما لم يجدوه.

هنا ندرك الوصف الرباني العادل للإنسان في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] حقًّا ما أكفره! بل ما أجهله وأعنده وأظلمه لنفسه، وهو يرى كل ما في السماوات والأرض والوجود من الآيات، ثم لا يلين قلبه لذكر الله الخالق! إننا ورب السماء نحن الضعفاء إليه معشر البشر، ونحن الفقراء بين الخلق، بل لسنا والله إلا على هامش الخلق والوجود كله، واستخلفنا الخالق في هذه الأرض تكريمًا منه لنا لنعيش على كويكب مغمور لا يكاد يذكر حجمًا في هذا الكون الشاسع ونحن ندور حول مفاهيمنا المرتبطة به زمانًا ومكانًا، التي لم نحط بها بعد، نصرف الأموال الطائلة نحاول الوصول بمركبات غير مأهولة إلى أقرب كويكب نراه بعيوننا (المريخ) كي نسجل (اختراقًا!) في علم الفلك يكلفنا مليارات الدولارات، فننجح تارة، ونفشل تارات، ولا أمل للذهاب

أبعد من ذلك في الوقت الراهن، نفكر نخترق العوالم الأخرى لما حولنا من أجرام نراها بأعيننا، ولا نطولها بحال، كلما أمعنا النظر فيها رجع إلينا البصر خاسئًا وهو حسير، فوجدنا الراحة في الأرض التي يعيدنا الله إليها.

رحماك ربي، حقًّا إن جدل الإنسان في الوجود ظلم وجهل لا نظير له، إذ يجادل في الله وهو لا يدري ما زمانه ولا مكانه، ومع هذا تتنزل آيات الرحمة لحسم هذا الأمر بخطاب تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ويهز القلوب هزًّا، فكان خطابًا للناس كافة إلى الأبد، ولم يكن مقصورًا على أهل مكة، أنصت جيدًا إلى هذه الآيات التي توضح عجز الإنسان وفشله في حال الإنكار والكفر عند مواجهة براهين اليقين والإيمان التي بين يديه، تأمل قوة لغة القرآن ومتانته، وهو يخاطب كل إنسان منذ وجوده على الأرض إلى الأبد، بالخطاب نفسه وبدرجة التحدي نفسها، استمع: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧- ٨٣].

*****

ثالثًا: النَّمْل [الجمعة: ٨]

الموت! تلك الكلمة التي تستسلم لوقعها كل المسامع، وترتجف لها القلوب والأجساد، إنه الموت وكفى، القدر المحتوم الذي لا حيلة معه على الإطلاق، ولا يضرب سوى مرة حاسمة قاضية لا يتردد فيها أبدًا، لا ينجو منه سوى من أوجده، وكتبه على جميع خلقه بلا استثناء، تأمل ما حولك من الحياة والوجود، وسترى أن جميع المخلوقات لديها غريزة حب الحياة وكراهية هذا الموت، إنها تفهم الموت بالإجماع، وتفعل كل ما في وسعها للنجاة منه حتى تصل إلى فعل ما ليس في وسعها عمله أحيانًا فرارًا من الموت،

الكل يفر من الموت، الرضيع يصرخ من الخطر كي لا يموت، وهو لا يعرف شيئًا بعد، والكبير وكل البشر، الفيل والبعير والغزال والحوت والحصان والطير والنحل والنملة والبعوضة والكائنات المجهرية، إنها جبلة كل كائن حي كبيرًا كان أم صغيرًا، غريزة الفرار من الموت تثبت أن لا وحشة كوحشة قاصم الحياة ومنهيها (الموت).

سبق الإشارة العابرة إلى الموت في فصل سابق، ولكن الحديث عنه هنا سيكون أكثر تفصيلًا في سياق إثبات الوحشة الوجودية، فلولا الحياة ما عرفنا الموت، والحديث عن وحشة الموت لا بد أن يسبقه محاولة لفهم الحياة طالما أن الموت هو نقطة النهاية لها، وللحياة أسرار أخرى كأحد أسرار هذا الوجود العجيب التي لا تنتهي عجائبها، فما الحياة التي نحياها؟ وماذا عن محاولات الانسان البائسة لفك أسرارها وألغازها عبر التاريخ؟ لقد كانت جميع نتائج البحث المضني عن هذا السر غير حاسمة بل فاشلة تمامًا فيما يخص فك شفرة الروح ومعرفة أمرها وجودًا وعدمًا، ولا تزال العقول عاجزة عن فهم هذه الإضافة الإلهية العجيبة على الماديات المحسوسة من جسم الكائن الحي (لحم وعظم ودم وجسم)، فتنقله هذه الروح من كتلة جامدة إلى كائن متحرك، وعقل واعٍ يفكر، ولسان ناطق يجادل، ورئة تتنفس ليل نهار، وقلب ينبض مدى الحياة بانتظام، ودورة دموية، وهيكلية وغذائية، وجهاز هضم ونظام مناعة وغيرها، أجهزة حيوية تتكرر مع جميع أنواع المخلوقات الحية متكيفة مع طبائعها المتعددة، فإذا ما انفصلت هذه الروح الغامضة عن الجسد الحي تعطل كل شيء فيه، وتسابق إليه الدود والعفن ليرجع ترابًا.

إنه لا سبيل لمعرفة أسرار الروح في هذه الحياة، والإنسان المتوازن فكريًّا لن يُفاجأ أبدًا عندما يعلم أن السؤال الذي طرحه الفلاسفة في القرن السادس قبل الميلاد عن الروح والحياة، هو السؤال نفسه الذي يطرحه علماء اليوم وفلاسفته، وسيطرحونه في المستقبل، وسنرجع في نهاية كل مطافٍ إلى نقطة البداية مهما بلغنا من العلم المادي والتجريبي. لقد قام مفكر الكينونة (هيدغر)[1] في القرن العشرين باستعادة سؤال فلسفي قديم طرحه أرسطو قبل الميلاد عن ماهية الإنسان وماهية العلم والعالم،

---

(١) مارتن هيدغر Martin Heidegger (١٨٨٩– ١٩٧٦م) الموافق (١٣٠٦– ١٣٩٦هـ) مفكر الكينونة الألماني وعالم الرياضيات والفلسفة والعلوم الطبيعية والتاريخ قام بتدريس اللاهوت ومن أشهر كتبه (الكينونة والزمان) المرجع: (حوار الفلسفة والعالم: سؤال الثبات والتحول، ص١٠٧).

والسؤال هو: ما الوجود؟ وكان الجواب عند (هيدغر) هو جواب أرسطو نفسه، وهو تعدد أشكال الإجابات دون الوصول إلى جواب محدد[1].

ويبقى السؤال عن الروح من أوضح الأمثلة على وقوف الفكر البشري عند حده قديمًا وحديثًا، فلم يستطع أحد من الخلق أن ينفذ إلى أسرارها على الإطلاق، ابحث كيفما تشاء، ونقب في التاريخ المعرفي منذ أن بدأ الفلاسفة بطرح سؤالهم عن النفس والروح من حقبة ما قبل الميلاد وإلى يومنا هذا، ستجد أقوالًا لا تنتهي، وكلها محاولات ليس إلا! ثم تأمل هذه الآية العظيمة، وقدم كل ما في وسعك من شتى أصناف التحدي إن كنت تملك شيئًا من ذلك، ستجد نفسك معترفًا بالعجز أمام القوي العزيز، مرغمًا على الوقوف له بخشوع حتمي مستسلمًا له بضعفك للقوي، وبجهلك للعليم الحكيم الذي يقول سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] مرة أخرى وثالثة ورابعة، أنت المخاطب بهذه الآية تحديدًا، فتقدم، وقدّم ما عندك! واكسب جولة التحدي إن كنت قادرًا، ولكن هيهات أيها العبد الضعيف، الروح من أمر الخالق وحده.

*****

﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]

﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وكفى، هكذا قدرها الخالق سبحانه، ولقد سعى الإنسان بكل ما أوتي من قدرة وطاقة وفكر، محاولًا فهم سر الحياة، جميع العلماء والمفكرين والفلاسفة والباحثين لم يتمكنوا من الاتفاق أو الوفاق على شيء مقبول معقول حول مفهوم الحياة متى وكيف بدأت وتنوعت، وإن نظرة سريعة إلى بعض آرائهم المشهورة لتؤكد استحالة الخروج بشيء جامع مانع مما وصلوا إليه عن الروح، يقول (أفلاطون) ووافقه عليه (ديكارت) فيما بعد: «إن الروح والجسم كل منهما جوهر قائم بذاته ويجتمعان معًا كجزأين، وفي هذه الحالة توجد النفس قبل وبعد الجسم الذي

(١) حوار الفلسفة والعالم: سؤال الثبات والتحول إشراف نابي أبوعلي مقال: ماهية العلم وسؤال التقنية عند هيدغر، للكاتب كرد محمد، دار الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص١٠٧.

تحل به مؤقتًا»، وعليه فالنفس خالدة وفق هذا القول، ويرى (أرسطو) أن النفس (الروح) هي الصورة الجوهرية لجسم عضدي، حيث لا توجد روح دون جسد ولا جسد دون روح، ويفنى كل منهما بفناء الآخر[١].

ولما ألحت الأميرة (إليزابث) على (رينيه ديكارت) أن ينجدها بالتعليل الشافي في هذه المسألة، أفاض في القول إفاضة تنم عن حيرة شديدة دون أن يأتي بشيء جديد، وانتهى بأن المسألة لا تحتمل حلًّا عقليًّا، ثم لجأ إلى الله ليخرجه من هذا المأزق قائلًا: «إنه هكذا رتبت الأمور (هكذا رتبها الله) لخير الإنسانية»[٢]، وهذا النمط من المحاولات الوصفية العقيمة يتكرر مع الكثير ممن جاء بعدهم وإلى يومنا هذا دون نتيجة حاسمة للخلاف، وفشل المحاولات للوصول إلى برهان حسي عقلي على الوجود كله بما فيه من أحياء وأموات، دليل قطعي على استحالة استيعابه وفق قدرات العقول البشرية، يجب أن نعترف بأننا عاجزون وكفى.

لكن الحقيقة التي أسلفنا ذكرها والتي يجب التذكير بها دائمًا هي أن قصور العقول عن تصور الشيء لا يعني عدمه لأنه موجود محسوس بأجزائه المحيطة بنا المتصلة بما وراء إدراكنا الحسي وتصورنا العقلي، لقد قلنا هذا عن علم الغيب عامة، والآن نخصصه عن الروح التي هي أيضًا من الغيب، وإنك لتشفق على ذلك الإنسان المكابر، وهو يتحدى من فوقه قدرةً وعلمًا، دون أن يملك أدنى متطلبات التحدي المقارب فضلًا على المكافئ، وما الذي تغير حتى الآن في عالم البشر من بعد أن قال (ديمقريطس) قبل الميلاد: «إن الذرات لا محدودة ولا متناهية العدد، وإن الفراغ الذي توجد فيه الذرات غير متناهٍ أيضًا»[٣]، ألم يعترف كلٌّ من (ليونارد[٤] وجالليو وديكارت وسبينوزا) أنهم بالقوانين

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٥٠٦.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (مرجع سابق)، ص٨٤.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٤٩.

(٤) ليونارد أويلر (١٧٠٧- ١٧٨٣) الموافق (١١١٩- ١١٩٧هـ) فيزيائي وعالم رياضيات سويسري شهير اشتهر بإجراء العمليات الحسابية المعقدة ذهنيًّا ويُعدّ من أعظم الرياضين في التاريخ له إسهامات في جميع فروع الرياضيات وخاصة الهندسة التحليلية وحساب المثلثات: (Encyclopaedia Britannica- Leonhard Euler, Carl Boyer,).

الرياضية فسروا العالم كله ما عدا النفس والله[1]! والحقيقة أنهم لم يحسموا تفسير العالم كما ذكروا، بل حاولوا وفق وسعهم وجهدهم، فاتفق معهم من اتفق واختلف من اختلف، في جزء يسير جدًّا من العالم حولنا، ثم ماتوا جميعًا، واختلطت أجسادهم في التراب، ولا تزال النفس والروح من قبلهم ومن بعدهم من أمر ربي وحده لا شريك له؛ لأنه وحده هو من خلق الموت والحياة، وخلق الروح وقدرها غيبًا عنده.

*****

نهاية حياتنا بداية حياة لا تنتهي

فإذا كان ذلك شأن الحياة وسرها وغموضها، فإن الموت يقابلها في كل شيء، أي إنه معكوسها، وهما النقيضان اللذان لا يجتمعان أبدًا، وأهم ما يتميز به الموت أنه الحقيقة المجمع عليها، بل يكاد يكون الشيء الوحيد الذي يؤمن به البشر بالإجماع رغمًا عن أنوفهم، يتساوى في ذلك المؤمن والكافر والملحد والمشكك واللاأدري، وكيف لا يؤمنون بالموت وهو مفنيهم وماحقهم وساحقهم وماحيهم من الوجود أجمعين، هو الذي يكبسهم تحت الأرض كبارًا وصغارًا مرغمين لا مختارين، هو الذي يأتي مرة واحدة، ولا يرجع أبدًا، إنه يبقى الحقيقة الوجودية المتفق عليها بلا خلاف، والحالة الأضعف جدًّا في جميع مراحل وجود الإنسان الذي يكون في أدنى إقراراه واعترافه متجليًا في تلك اللحظات التي تصاحب خروج روحه وما هو معها إلا متفرج مع المتفرجين لما يحصل في وجوده، فهو يحس بما يغشاه من دنو أجله، وتحيط به سكرات الموت وبصره شاخص ولا موقف منه سوى الاستسلام الكامل المرغم عليه إرغامًا لا يشوبه أي خيار مطلقًا.

سبحان الله! تذكر كيف كنا نستقبل المولود الجديد، إننا نحمله على أكتافنا بحب وحنان وفرح، نتطلع إلى كل حركة يفعلها، ونستبشر، ونحتفل بقدومه للدنيا، ونقيه حر الصيف وقر الشتاء، وخطر السقوط والأمراض والسباع حتى يبقى، ثم يترعرع

---

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص١٩١.

ويكبر وكلما أصابه مرض حاولنا إنقاذه بالدواء فنفرح بشفائه اعترافًا منا بعجزنا عن جلب العافية له، وكلما أصابه جرح حاولنا رتقه وعلاجه، وإذا انكسر منه عظم حاولنا جبره، نرفده بالحياة ونسانده بالبقاء ونسعفه في المواقف، نستميت في حمايته ونحن على يقين بفنائه المحتوم، حتى إذا ترجح لنا أن أحد أعضائه مصاب وقد يتسبب في هلاكه بسرطان أو غرغرينا مثلًا، أهلكنا العضو كاملًا وبترناه بترًا، رحمة وشفقة وحبًّا كي نضمن بقاء الحياة في الجسد.

وهكذا نستميت بالدفع والمنع إلى آخر رمق، لكن في لحظة معينة كل أهل الأرض، بل كل من في السماوات والأرض يقفون بلا جدوى أمام قدر الرحمن، لحظة التسليم والاستسلام، إنها لحظة الموت، حيث تنفصل هذه الروح بأسرارها العجيبة عن ذلك الجسد المادي، فيتهاوى بنيانه وتتحطم عظامه، وتتعفن أعضاؤه، ولكن الأشد تحديًا في هذا الأمر كله هو أنك لا تدري أيها الإنسان، متى وكيف وأين تأتيك تلك اللحظة الرهيبة؛ لحظة الموت! بل لا يوجد مخلوق على الإطلاق لا من الأنبياء المرسلين ولا من الملائكة المقربين ولا الأنس ولا الجان يزعم أنه يعلم ذلك، مع يقين الجميع أنهم ميتون لا محالة: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١] إنه تحدٍّ مفتوح زمانًا ومكانًا سيبهت كل مكابر، يستوي أمامه المؤمن والملحد والكافر والمشرك والعاقل والسفيه والكبير والصغير، هذا التحدي الصريح جاء من الحي الذي لا يموت وهو القوي الذي خلق الموت والحياة وقدر بيننا هذا الموت، وما هو بمسبوق ولا نحن بمعجزين، وبعدها سنحمل الإنسان على أكتافنا ولكن هذه المرة لوداعه، أبعد هذا كله يبقى مجال لمكابرة الخلق على الخالق، ألا يجب الاستسلام والركوع والسجود طوعًا أو كرهًا لمن يملك ذلك كله، ولا نملكه؟

هو وحده ذلك الإنسان الذي وصفه الله بذي اللب والعقل، ووجه إليه الخطاب مباشرة، سيدرك مسبقًا هذا الضعف الكبير أمام الموت قبل حدوثة، ولا ينتظر كغيره إلى لحظة المواجهة التي لا مرد لها، ويستعد للحظة الخضوع والاستسلام الكامل لأقدار الموت المنهية تمامًا لوجوده فوق الأرض، فيهب من لحظته مهللًا مكبرًا مسبحًا حامدًا ذاكرًا شاكرًا، وهو يجد متعة وأنسًا وطمأنينة، يركع ويسجد لله خاشعًا مستسلمًا لمن

يعلم ويملك ذلك، واستطاع بقوته وقدرته عليه أن يخفي ذلك تمامًا ولا حيلة للإنسان بمعرفته لضعفه.

هل تصورنا ماذا تعني لحظة خروج الروح من الجسد، تلك اللحظة الرهيبة الموحشة التي تنقل المتحرك إلى ساكن، والكائن الحي إلى أحجار ورفات، إنه الموت الذي يقفل كل ملف من نواميس وأقدار الحياة الدنيا مرة واحدة وإلى الأبد، لن تبقى لديك بعد الموت أذن تسمع بها أحداث الدنيا وضجيجها وصواعقها، ولا عين تبصر بها الأنوار والأشجار والأمطار والليل والنهار وما حولك، فلا نهار ولا ليل ولا يقظة ولا نوم ولا شروق ولا غروب ولا صيف ولا مطر ولا ثلج ولا أكل ولا شرب، ولا مرض ولا نور الشمس ولا والد ولا ولد ولا زوجة ولا مال، حتى القبر وجداره هذا الذي تراه إنما يخضع ظاهره لحواسنا نحن الأحياء في الدنيا، ولا يخضع أبدًا لشأن الميت بداخله؛ لأنه ليس ثمة حواس تعمل مع الميت داخل القبر بالمعيار الدنيوي المتعارف عليه، وسواء كان قبرك عشرة أمتار في عشرة أمتار، أم كان سنتيميترًا في سنتيمير واحد، أو كنت محروقًا أو غارقًا في البحر أو في بطن حوت أو سبع، لا فرق، وسواء كان مضيئًا أم في ظلمات الدنيا الدامسة، فهذا كله لا يعني شيئًا بالنسبة إلى الميت في داخله، إنما لك بعد الموت عالم آخر وقوانين ونواميس أخرى، لك فسحة من نوع آخر لا يدركها الأحياء، وإلا كيف يفسح له في قبره مد بصره والقبر الآخر بجواره بنصف متر بحسب قوانين الدنيا ونواميسها، ولك نور من نوع آخر لا يدركه الأحياء، وإلا لشاهدنا المقابر مضيئة لما فيها من أهل الخير والصلاح، ولك فيه نعيم أو عذاب من نوع آخر لا يدركه الأحياء وإلا لاستمتعنا أو لطالنا الرعب معهم.

إذًا بالموت يحصل الانتقال الكامل لكل شيء في كل شيء بالنسبة إليك، بالموت يكون العبور المطلق وفي اتجاه واحد لا رجعة فيه نحو عالم الآخرة، فلا دنيا لك أبدًا بعد خروج الروح ولا مال ولا أهل ولا ولد، هذا هو الموت، إنه وحشة الأحياء المطلقة لمن تدبره، يأخذ الناس بالعدل لا فرق بين رسول ونبي وصحابي وطاغية وفرعون وهامان وقارون وكبير وصغير وذكر وأنثى! يأخذ الصغير قبل أن يستمتع بدنياه، فينقله للجنة مباشرة، ويأخذ الكبير ليحاسب على ما أعطي من فرصة في الدنيا،

واستمتع بها، لم يكتب الله لأحد الخلد في الدنيا مطلقًا، إنه يخاطب أفضل خلقه محمد ﷺ قائلًا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤- ٣٥] وأي وحشة تنظرك إن لم تكن وحشة هذا الموت الذي ينقل كل شيء في وجودك الأول إلى عالم آخر، بل عوالم أخرى، سبحان من يعلمها ولا نعلمها، ونسأله الرحمة والمعية ونحن نمر بأهوال ما علمنا منها وما جهلنا، نسأل الله أمنًا من كل خوف، وطمأنينة من كل وحشة، ما أحوجنا إلى الله في كل مرحلة من مراحل وجودنا! حقًّا إننا أمام مشهد مخيف، خاصة أنه لم يرجع إلينا أحد من الموتى ليحكي لنا معالم وأهوال ذلك الطريق الذي مر به بعد أن غادرنا صامتًا ساكنًا، وبعد أن واريناه الثرى، وأودعناه قبره، وانصرفنا لحياتنا ننتظر دورنا، لكننا نعم بصدق خبر الله عما بعد الموت، وذلك من خبر الله العالم بكل شيء، ومن أصدق من الله حديثًا؟

كم نحن غافلون عن هذه الحقائق المرعبة في وجودنا والآتية إلينا لا محالة، لقد أشغلتنا سكرة الحياة وملذاتها عن عبرة الموت وسكراته، إننا نعيش حياتنا لاهين عابثين كأننا في مأمن منه، كم أنت بليد الإحساس أيها الإنسان، وأنت غافل في سباتك، وقد حددت لحظة نهايتك قبل ولادتك، وهي محفوظة قبل وجودك كله، وها هو الموت أمامك يقترب منك كل ثانية، إنك تموت كل ثانية ينصرم منك عمر لا يرجع أبدًا، وكل ساعة تمضي من عمرك لا ترجع أبدًا، وكل شهر يمضي منه لا يرجع وكل عام يمضي لا يرجع أبدًا، ومثله العمر كله، فكل عمر يمضي لن يرجع أبدًا، إننا نموت ببطء كل لحظة منذ الولادة، شعور يغشاني هذه اللحظة وأنا أكتب هذه السطور أسابق الأجل حتى تبقى أصابعي معي متحركة سليمة أكمل بها فصول هذا الكتاب كي أنشره قبل أن يدركني الأجل، فتموت معي جوارحي وتذبل أصابعي، أسابق الأجل وكلي وجل من ألا أتمكن من إكمال هذه المهمة، ولست متأكدًا، هل سيكون ذلك على يدي أو يكمله ورثتي من بعدي، إنني مثل غيري مرشح في كل لحظة من عمري أن أودع هذه الدنيا فجأة إلى عالم آخر، نعم، إنه الموت الذي نتحدث عنه الآن، الموت هادم كل لذة، ومفرق كل جماعة، الموت - يا صديقي - هو الحقيقة التي لا جدال فيها ولا خلاف

فلسفي حولها حتى تقول: يمكن أو لا يمكن أن يقع، إنه الموت الماثل أمام نظر الجميع، حقيقة واقعية عجز عن مواجهته من كان قبلك، فلم يدفعه عن نفسه مطلقًا، وسيعجز من سيأتي بعدك، ولا يحتاج وقوعه إلى قناعتك فيه حتى يفعل فعلته في قلبك ورئتيك وكبدك وجمجمتك التي سيدحرجها الموت كالكرة المهملة في زاوية القبر، وفي جسمك الذي سيختلط بالتراب ترابًا كما بدأك منه الخالق، سيفعل الموت فعلته في كل مخلوق حي؛ لأن الذي أوجد الوجود قد حكم بحكمه، وهذا هو حكمه، ولا معقب لحكمه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] إننا جميعًا صف واحد في الطابور ننتظره! رحماك ربنا.

*****

الموت الصاعق!

وحشة الموت ليست محصورة في أنه ساحق ماحق مُنْهٍ لوجود الحياة، بل تتجاوز ذلك إلى أنه ضيف مفاجئ خالٍ من أي عاطفة أو رحمة، لا يستأذن ولا يعترف بالمواعيد والارتباطات ولا بالسفر ولا بالحضر، ولا يستشير أحدًا، إنه صاعقة تضرب في لمح البصر، تؤدي إلى نقلة أبدية حتمية ولمرة واحدة لا ينجو منها أحد، يضرب المنازل الآمنة بلحظة خاطفة يختار هدفه بدقة متناهية، فينتشله من بين المؤجلين حوله بلا تفاهم ولا رجعة ومن دون إشعار مسبق ولا أدنى تردد، آجال قد دونت وأقدار قد قدرت وتواصلت، وأنت أيها الإنسان، أضعف حلقة فيها إنه الطريق الحتمي للجميع.

كم كانت المواعظ المؤثرة تطرق أسماعنا عن الموت وكأنه لا يعنينا، قد تتساهل في تصورك للموت الآن وأنت على قيد الحياة، وكأنه لا يعنيك، لكن من الصعب أن تتخيل أنه أنت ذلك الميت المحمول على الأكتاف نحو المقبرة، لن تدرك ذلك بحواسك هذه وأنت ميت محمول، فاستدرك أمرك وأدركها ما دمت حيًّا مدركًا، ستدرك مقدمًا أن الموت هو أن تتوقف عجلة الزمان معك، وتتوقف الحركة في هذه الحياة إلى نهايتها، وأنه انقطاع نهائي عن جميع قوانين الحياة ومظاهرها، تخيل أنك أنت وأفراد أسرتك من

أب وأم ولد وأخ وأخت وعم وعمة وخال وخالة، تعيشون أيامكم ولياليكم سعداء في غفلة خادعة من الدنيا، بينما كل واحد منكم بلا استثناء وفي أي لحظة من أي يوم، مرشح ودون سابق إنذار ودون مقدمات أحيانًا ليكون هدفًا مباشرًا ودقيقًا لقوة غير محسوسة، لا تسمع ولا ترحم ولا تتفاهم ولا تتردد تمسك بأحدكم مسكة واحدة لا انفكاك منها إلى الأبد، فتسكت لسانه وتوقف قلبه وتقفل رئتيه وعينيه وحركته، وتنشف منه كل مبتل، وتبلل منه كل ناشف، فيصبح الميت بين يدي الأحياء مجرد قطعة لحم وعظم رطبة تنتظر التعفن خلال أيام قليلة، فيشدّه الموت من بينكم شدًّا، ويأخذه أخذًا، فهل تستطيعون فعل شيء؟ ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦- ٨٧].

إنه خروج روحك من الجسم إلى يوم القيامة، وقد يكون هذا خلال لحظات من الآن ستنقطع حتمًا عن كل شيء أشغلك في هذا الوجود، سينتهي تفكيرك هذا وكتاباتك وحواراتك وجدلك ومالك وولدك وزوجك كلها ذاهبة عنك لحظة الدفن، وتاركتك وحيدًا في فراغ ظلمة القبر الدامس، إنه ظلام ظاهري بمعايير الدنيا التي نعيشها الآن، ولكنه نور آخر أو ظلمة أخرى بمعايير حياة أخرى سنحياها فيما بعد، وما تبقى من جسم شخصك الكريم المبجل في الدنيا، مهما كان مقامه، سيكون كل ذلك حسيًّا ومعنويًّا مجرد بقايا رفات وعظام متناثرة هنا وهناك تحت الأرض في الظلام بلا حراك، ولو نُقلت بضعة أمتار من مكان دفنك لما عرفنا عظامك من عظام الآخرين حولك إلا باللجوء إلى تحاليل معقدة ليست بمقدور أكثر الناس فعلها، بل وأحيانًا لا نميزعظام البشر بمجرد النظر عن عظام الكائنات الأخرى إلا بصعوبة! ولكن يبقى سجلك الدنيوي مرصودًا عند الخالق في كتاب هناك ينتظرك لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في حياتك الدنيا إلا أحصاها.

هل أدركت فعلًا هذه الحقيقة وهذا المآل بعد الرحيل والحاجةإلى اللجوء الفوري إلى الله الخالق الباقي لضمان أمرك قبل الرحيل وبعده، أم ما زلت تتصور أنك طرف آخر متفرج على مسارح الأقدار في هذا الوجود تستطيع الانصراف متى ما أصابك الملل إلى خارج المسرح، وتتركه لأهله وكأنك غير معني بهذه النقلات الموحشة، وأنك ستراقب جسدك من بعيد محمولًا على أكتاف الناس ميتًا، تتفرج عليه وكأن الميت غيرك، فأنت

تتخيل أنك ما زلت متكئًا على أريكة في مجلس قومك تراقب صورة جسدك مسجى أو محمولًا أو مدفونًا، كما كنت تراقب أجساد الموتى من قبل، ولا كأن الأمر يعنيك حينه، متخيلًا أنك تراقب جنازة غيرك دون أن تتيقن أنك في هذه المرة أنت أنت بطل المسرح! وأنت أنت الجنازة! وأن عالمك من تلك اللحظة غير عالمهم تمامًا، وأنه أنت ذلك الميت المسجى بالكفن أمام المصلين وأنت هو أنت بذاتك المبجلة من يدرج تلك اللحظة في اللحد، ويهال عليه التراب، وأنت الذي سينصرف عنك الناس تلك اللحظة، ولن يرجعوا إليك أبدًا أبدًا.

وإن تعجب فعجب أمرنا كيف استطعنا الجمع بين هذا الحزن على ميتنا والبكاء على الفراق من جانب، وبين هرولتنا وسعينا حثيثًا مع أهلنا وأقاربنا في مسيرة حاشدة لدفن ميتنا دفنًا، ورمسه في التراب رمسًا، ألا تستوقفك لحظة الدفن هذه وأنت تسابق الزمن لإدراجه إلى بوابة التراب الكبرى، التي لئن كان يرجى من بوابة السجون الموصدة في الدنيا أن تنفتح لمن كان حيًّا محكومًا بالمؤبد ليرى أهله وولده وماله، فإنه لا يُرجى انفتاح بوابة القبر في الدنيا على الإطلاق، إنها بوابة المرور الواحد باتجاه واحد، لا تفتح إلا مرتين فقط، مرة للدخول إليها من الدنيا بكيفية ندركها ونعقلها، وأخرى للخروج منها إلى الآخرة يوم القيامة بكيفية لا ندركها في الدنيا، ولا نعقلها لكننا نؤمن بما جاءنا عنها من الحق بعد أن أخبرنا عنها الحق المبين، فياويلتنا حينئذ يوم تفتح هذه البوابة إلى ما هو أعظم، ولا نملك حينها من أمر تلك المرحلة إلا ما ادخرناه لها في حياتنا الدنيا هذه، قبل أن يعلن الموت نهاية مهلة العمل وفسحة التوبة إلى الله الذي له الملك في كل حين، وهو الواحد القهار.

فهل أدركنا مع ضعفنا هذا أن الموت واقع علينا في أي لحظة، وأنه سينقلنا مباشرة إلى أهوال أشد خوفًا وفزعًا من كل خوف وفزع مر بنا في الدنيا إلا أن نلوذ بأمن الله بالإيمان به، حيث أمامنا يوم لا مال لنا فيه ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ولا فصيلة، هذا هو الموت الذي يفر منه كل حي، بينما هو ملاقينا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨] وهذا هو الموت الموصل فورًا إلى القبر خلال لحظات من الصلاة على الميت، بعد

انقطاع جميع الأواصر والروابط الدنيوية عن كل شيء بسببه، ليفوج العالمين إلى عالم آخر وبحالة أخرى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وهذا هو الموت أول أهوال القيامة والناقل للجميع إلى حياة برزخ علمها عند الله، ومن ثم إلى حشد الأولين والآخرين في ميدان علمه عند الله، ولكن في وضع مختلف جدًّا، فرادى كالفراش المبثوث: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٥].

*****

هل أتاك حديث الموتى؟

من يستطيع أن يأتينا بأخبارالموتى من بعدنا؟ ندرك صعوبة استحضار مثل هذه التطلعات ونحن في حياتنا الدنيا غافلون لاهون ساهون، ولكن لنتذكر دائمًا أن هناك خبرًا عظيمًا عند الموتى الذين رحلوا عنا بعد رحيلهم، لا سبيل لمعرفته إلا مجملًا من الوحي، أما تفاصيله فستكون مذهلة بلا شك، تخيلوا لو رجع إلى الدنيا ميت واحد منهم فقط ولو من أدنى عامة الناس، فأخبرنا أخباره عيانًا كما شهدها حتى وإن كنا نعتقد جازمين أنه الحق كما أخبرنا الوحي تصديقًا بالقلوب لا إدراكًا حسيًّا! فهل سيبقى على وجه الأرض كافر بعد ذلك الخبر؟ هل سيبقى عليها ملحد يجادل في الله بغير علم؟ فإن قال مكابر: كيف تجزم أن خبره ذلك الذي سيجعل الناس يؤمنون كافة صحيح، نقول له تنزلًا: وأنت كيف تحكم بأن لا خبر أو أخبار عنده مثل هذا لا يجعل الناس مؤمنين كافة؟ ولا سيما ونحن نصدق خبر السماء عن ذلك، لقد جاءنا نذير مبين وصادق أمين، وهذا النذير ليس من عامة الناس كي نختبر عدله وصدقه وحاله، بل هو المصطفى من بين ذرية آدم عن بكرة أبيهم ﷺ وبشهادة قومه أنه الصادق الأمين قبل نزول الوحي وبعده، فأخبرنا عن ربه ﷻ بالكثير عما سنواجهه بعد الموت، وحيًا من عند الله، حقًّا وحقائق كالمحجة البيضاء، نورًا وهدى، لا يرتبط وقوعها بإيمان الناس من عدمه، جاءنا بما ينسجم مع فطرتنا التي فطرنا الخالق عليها، ومع ما يصدقه ما حولنا من الآيات الكونية التي صرفها ربنا لنا، فأصبحنا بعقولنا المدركة بين كتابين

عظيمين، كتاب مقروء هو كلام الخالق الميسر لكل مدكر، ويصف فيه أمرنا كله جملة وتفصيلًا، وكتاب منظور من آيات في الوجود تتطابق مع ما ورد في الكتاب المقروء، فما الذي يحول بيننا وبين الإيمان الصادق واليقين الجازم بما أدركناه بعقولنا، وبما صدقنا به النبيون والمرسلون؟ خاصة أننا لا نملك من أمرنا شيئًا، بل نحن مِن مُلكِ من يملك كل شيء وحده لا شريك له، ومردنا إليه طوعًا أو كرهًا، ونحن عبيده ولا خيار لنا إلا أن نقول بكل تضرع وخوف ورجاء ورغبة ورهبة منه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

*****

خيار الإيمان ولا خيار بعده

وبعد أن علمنا خبر هذه الوحشات الثلاث، لنتذكر تلك التساؤلات التي وردت في صدر هذا الكتاب، عندما تخاطبك نفسك من داخلها قائلة لك: من أنت؟! ومن جاء بك إلى هذا الوجود؟! وإلى أين ستذهب بعده؟! وكيف ومتى وأين يتم ذلك؟! إن الذي يدفعك إلى تلك التساؤلات هو حقيقة تلك الوحشات المحدقة بك في حياتك، وأنت في هذا الوجود، من وحشة إلى أخرى، فأنت بلا زمان محدد، ولا مكان ثابت، لكن الخالق الرحمن لم يكن ليجعل من هذا الوجود خوفًا ولا وحشة ولا قلقًا لعباده القريبين منه، فلا يمكن أن يكون هذا الوجود خاليًا من الأنس والسعادة والابتسامة والطمأنينة والأمن؟ قطعًا لا وألف لا، لكن الأمر يحتاج إلى الرجوع إلى المصدر الصافي والمنبع الأوحد لكل شيء في هذا الوجود حتى نلوذ عن هذه الوحشات بدفء موجدها والمتصرف فيها.

لا يقتصر الأمر على وحشات ثلاث، بل هناك وحشات لا نهائية في الوجود، منها مثلًا وحشة الحدث في الكون، وهو أننا نشاهد من الكون فقط من سجلات الماضي، ولا يمكن أن نعلم ماذا يحدث به آنيًّا، ولا ما حدث قبل آلاف السنين! فنحن نرى الضوء القادم إلينا من الكون السحيق ليخبرنا عن النجوم! وما هو في الواقع إلا سجل

لماضيها، حيث قد تكون هذه النجوم اندثرت قبل ملايين السنين، وما زال الضوء يصلنا من مكانها لبعدها عنا، ولا يوجد أي نجم تراه في السماء في موقعه الحقيقي نظرًا لبعد المسافة، وهذا يؤكد فقر الخلق إلى من يقدر على توفير الأمان لهم من تلك الوحشات، إذ يستحيل الاستغناء (المزعوم) والادعاء الباطل أنه بالإمكان الحياة من دون عبادة الخالق وتوحيده والاستعانة والاستغاثة به، إنك لا تقدر على ذلك وأنت تدرك تمامًا أنك ضعيف كل الضعف في مواجهة هذه الوحشات المحيطة بك مستسلمًا لها كلها وأنت تعلم يقينًا أنها مجرد جند من جنود من أوجد الوجود كله وأن قدرها بيده، جهلًا تزعم أنك بمفردك تستطيع النجاة وأنت لا تملك أي شيء في قدرك وقدرتك، أنت تأتي إلى الدنيا سقيمًا محمولًا، وترحل عنها ميتًا محمولًا، لا تقدر على شيء في أول حياتك، فلم تدخل إلى الدنيا كبيرًا ماشيًا، بل حُملت إليها صغيرًا باكيًا، ولن ترحل عنها في آخرها مختارًا، بل ستحمل أيضًا ميتًا مبكيًا لمن بعدك، أنت مكلف في فترة تكليف محدودة تمرُّ عليك كلمح البصر في وسط حياتك التي تبدأ بالبكاء القادم، وتنتهي بالبكاء المودع بسبب الموت، إنك تأتي باكيًا وترحل مُبكيًا، ومن فوَّت تلك الفرصة فلا يلومنّ إلا نفسه، حيث لا يمكن أن يكون له أمان أو مهرب من هذه الوحشات إلا بالاتصال القوي والفوري مع موجدها ومدبرها القادر عليها، حيث تضمن به السلامة منها كلما دب إليك الرعب من وحشات الدنيا وما بعدها، تنقلب إلى أمان وطمأنينة بمجرد ارتباطه بالذي خلقها وقدرها، وأحاط بها علمًا ونواصيها بيده.

أرأيت كيف يصبح وجود الإله الأوحد القادر الباقي ضروريًّا في الوجود كله؟! إنه هو الذي تلوذ به من هذه الوحشات، وتستقبل منه رسالات الخير والأمان والسلامة والسعادة في الكون بواسطة الرسل والكتب السماوية والداعين إلى الخير، كلها تدعوك بكل تودد ورحمة وشفقة وبأيسر لغة موصلة للمعاني، لتسلك طريق النجاة متزودًا بالزاد الضروري، حتى تفوز بضمان الأمن العظيم الذي ليس بعده أمان، لا قبل الموت ولا بعده، ألا تحب أن تكون ممن وعدهم المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء بالأمن المطلق في أشد لحظات الهول والفزع بقوله: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]؟ ألا تريد أن تضمن متعة السلامة مقدمًا في الدنيا يوم

أن تتنزل الملائكة مبشرين بالأمان لكل مؤمن ومؤمنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]؟

هذا أمان الله وحسبك به من أمان، إنه والله الأمان الأبدي العظيم المنجي من كل خوف، أمان يحميك من كل وحشة، أمان يرافقك أخي المؤمن، في مسيرك في هذا الطريق المستقبلي الذي لا محيص عنه ولا مهرب، عند إيمانك بخالقك القادر على نقلك من هذه الوحشات إلى طريق آمن وسفر مريح حتى تجتمع في النهاية ليس فقط مع من تحب في أحسن حال قدره الخالق في هذا الكون: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] بل أيضًا مع المصطَفَين الأخيار من المرسلين والأطهار في أعلى درجات النعيم المقيم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وبهذا الإيمان وحده يحصل لك الأمان المطلق، وتنقلب تلك الوحشات الزمانية والمكانية والوجودية والموت إلى أجمل وألذ رحلة سياحية كونية تستمتع فيها بكل استطلاع لمجهول، وتعيش كل مرحلة جديدة في وجودك وقلبك معلق بالخالق العظيم وكأنك وافد إليه ضيفًا تتفرج في طريقك إلى كل ما يراه غير المؤمن أهوالًا مفزعة ووحشات مهلكة، أما أنت فبإيمانك هذا تراه نعيمًا وطمأنينة وأمنًا، ومن سعادتك في الدنيا أنك تؤمن بذلك الأمن وترجوه، ولك حسن المآب المطمَئن أيضًا في الآخرة بعد ارتحالك من الدنيا بحفظ الرحمن ورعايته، فتتواصل الطمأنينة والأمان عليك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨- ٢٩].

ليس كثيرًا أن يقال لك والحال هذه: انتبه! استيقظ! استعد! يا صديقي، هذه المرة ليست كتلك المرات التي كنت تحضر فيها صلاة الجنازة طمعًا في قيراط أو قيراطين، مستعجلًا للانصراف من الصلاة إلى دنياك وكأنك معمر فيها، هذه المرة الناس هم من جاؤوا بجنازتك طمعًا في تلك القراريط التي كنت تطمع فيها إبان حياتك، أما أنت فقد

انتهى الأمر قبل أن تغسل أو تكفن، لقد أقفلت ملفات حياتك الدنيا كلها، فلا زيادة للحسنات ولا نقص من السيئات، إلا بتلك الثلاث الموعودة: «**صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1]، أنت الآن ميت، يعني أنك لا تستطيع تحريك شعرة في جسدك، فضلًا على عضو من أعضائك التي كنت تلوح بها يمينًا وشمالًا في حياتك دون حساب، لقد كنت قبلها تمشي برجلك، وتبطش بيدك، وترى بعينك، وتسمع بأذنك، وتنطق بلسانك، وتعقل بقلبك، وأنت في تلك اللحظة في عالم آخر لا تتابع عالم الأحياء الذين أصبحوا وحدهم يتابعون جسدك، وينتظرون دورهم مثلك، وأنت في عالم آخر، لا يعنيك شيئًا أنهم حملوك أو وضعوك، دفنوك أم أحرقوك، أكلتك السباع أو الدود في اللحد، أنت بعد الموت مجرد كتلة من لحم وعظم تقدم للبلى والفناء جسديًّا، انفصلت عنك جميع نواميس الحياة الدنيا وزخرفها وقوانينها، لتدخل في ظلام الموت وظلام القبر وظلام البرزخ القادم، فلا نور ولا ضياء إلا ذلك النور الذي يكابر الإنسان بالصد عنه وهو بكامل قواه وعافيته بالدنيا ظنًّا منه أنه في سعة من أمره أو أنه في غنى عنه، إنه ذلك النور الوحيد والبرهان الرباني المبين الذي طالما ناداك الخالق في حياتك أن تتمسك به لتنير به طريقك الموحش بعد الموت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

إن هذا النور الذي أنزله من يملك كل شيء في حياتك ومماتك وحتى التراب الذي سيضم رفاتك، ويعلم مقادير الدود التي ستأكل جسدك، نور الله، المصباح الفعال في تلك الظلمات الموحشة، إنه نورٌ حين لا يوجد نور سواه، إنه نور الخالق القادر على جعله نورًا للميت أفضل من أي نور نتخيله في عالم الدنيا، ولك أن تختار أيها الإنسان، الأخذ به أو تركه، بعد أن تعلم علم اليقين أنه ليس لك من الله مفر وليس لك من دونه ملجأ، ولئن أعطاك حرية الاختيار في حياتك الدنيا تفضلًا منه سبحانه فقد أخبرك عن عاقبة كل خيار، وخيار العقلاء وأولي الألباب واحد فقط، إنه الإيمان بالخالق والتصديق بخبر السماء، طمعًا في النجاة والسلامة، وأوله الإيمان بوجود الله والإقرار بألوهيته وربوبيته

(١) الحديث رقم (١٦٣١) من صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفعُ به أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**».

وأسمائه وصفاته، فهو وحده الذي معك أينما كنت في الحياة والممات والبعث والنشور والحساب والثواب، وهو وحده القادر على أن ينقذك من كل هول ووحشة تواجهك في طريق الأهوال الطويل الموحش الذي لا يقلبه إلى طريق أمان وأنس وابتسامة سوى الرحمن الرحيم الذي ترك لك يوميًّا نافذة استجداء ورجاء ودعاء إليه سبحانه وأنت تكررها واقفًا بين يديه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

*****

إنك أنت المعني بالخطاب

إذا أدركت أنك لم تُخلق عبثًا، وأن وجودك بين خوف وأمن ولا ثالث لهما، فمتى تدرك أنك أنت المعني بخطاب الوحيين دون سواك في هذا الوجود، إنه أنت فلا تلتفت! ولا تنشغل أو تتشاغل بالدنيا! فالاستجابة لنداء الله توفر لك الأمان من كل وحشة، فانفر إليه وحده دون سواه، فهو من وعدك بوعده الصادق، بأن تلازمك السعادة والطمأنينة في الدنيا مع الإيمان، وأن تكون نهاية طريقك الوجودي في جنات النعيم، حيث تترك وراءك كل هم وغم ونصب وتعب ومرض وموت، كي يلتم شمل الأسرة الدنيوية مرة ثانية، بعد أن بعثرها الموت وفرقها ومزقها، نعم، بفضل الله وبرحمته سيحصل أعظم اللقاءات هناك، في جنات النعيم، فهذا أبوك الذي فقدته ودفنته باكيًا واقفًا على قبره تدعو له حتى سلوت من فراقه فيما بعد، وهذه أمك الحنون الغالية التي انفطر قلبك لفراقها وكبتّ ندمك على عدم برها قبل موتها، وهذه زوجتك الحبيبة الوفية مربية الأولاد وحافظة العهد ولصيقتك بالفراش سنين عددًا، التي أظلمت عليك الدنيا بفراقها، فبقيت بعدها تحاول إخفاء ذلك الشعور العظيم بفراقها حياء ممن حولك من الناس، وهذا زوجك الوفي الذي جفت دموع عينيك لفراقه في الدنيا، وظننتِ مع فراقه أنه الفراق الأبدي، فاستوحشت من غيابه لولا أن الله سلم، وهذا فلذة كبدك الذي سبقك شفيعًا وهو صغير، أو تبعك وهو كبير، وهذا العم وتلك العمة والخال والخالة والجد والجدة وهذا القريب وهذا الجار وهذا الحبيب وهذا المحب حالهم كما وصفها الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

هذه ليست رواية خيالية، ولا أحلامًا وردية، إنه الحق مثل ما أنكم تنطقون، إن هذا لهو القصص الحق، كلهم مجتمعون في نعيم لا شقاء بعده، كأنه لم يمر عليهم شيء مما ذكرناه من وحشات، لقد تجاوزوا ذلك كله، فأصبحوا منشغلين في النعيم المقيم: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥- ٥٨] والأجمل من هذا أنهم لم يصلوها من وحش ولا خوف، بل من طريق آمن لما آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، لم يستوحشهم الزمان بوحشته، ولا المكان بوحشته، ولا الوجود ولا الحياة ولا الموت بوحشته، تقلبوا في سعادة في الدنيا، وجاؤوا منها في مأمن متواصل منذ مفارقتهم الحياة، وفي قبورهم أيضًا، وحتى في المحشر تتنزل عليهم ضمانات الأمان تترى من الرب الرحيم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨- ٧١].

سبحان الله! ما الذي يصرف القلوب عن هذا العرض العظيم، وأي خيار لعاقل عنه؟ أيرغب الغافل في الوحشة والخوف والندم والخسران المبين عن الطمأنينة والأمان والفرح والفوز المبين؟ إن المطلوب هو الإيمان بالله والعمل بموجبه بقدر الاستطاعة، وهذا أمر في غاية اليسر، ألا فاستيقظ أيها الغافل، من نومك العميق، واخرج من ضباب الغفلة والتيه والحيرة إلى نور اليقين، وتدبر معي! أرأيت كيف كانت مشاعرنا ونحن نتقلب في تلك الوحشات الثلاث السابقة، لنجد أنفسنا أمام أمان وضمانات وسلامة مطمئنة! لا أقول: اختفت لك الوحشات، بل انقلبت إلى مفرحات مؤنسات لمجرد أننا آمنا بأن الله الذي هو خالقها وخالقنا ولا منجي لنا منها سواه، فقد فوضنا جميع أمرنا إليه، وتوكلنا عليه وحده، ثم آمنا بوجود ما بعد وحشات الدنيا من وحشات في الآخرة وأهوال لا تعد ولا تحصى، ولكننا أيضًا آمنا بأن ملاذنا منها قلت أو كثرت هو الله وحده الحي القادر الرحمن، تلكم والله هي العيشة الراضية.

ألسنا جميعًا نعتقد أن كل نفس ذائقة الموت؟ وأننا سالكون طريق الأهوال بعد

الموت لا محالة، أفلا نحصنه بالإيمان ليكون آمنًا في دنيانا وأخرانا بعد تلك الوحشات المهلكة؟ وهل يتردد عاقل سوي من أن يسلكه مستعينًا بالله مؤمنًا به؟ أحقًّا بهذا الإيمان الذي لا يكلفنا شيئًا، سوف نأمن في كل مرحلة من مراحل طريقنا إلى الله، وسنلقى الأحبة ثانية، بعد أن تمزقت على فراقهم القلوب، وذرفت عليهم العيون في الدنيا؟ أبشر أخيّ وأخيّتي، إن الجواب هو: نعم ونعم ونعم ونعم، إي والله بأن هذا هو الخير الذي ينتظر المؤمنين وإنه لحق مثل ما أنهم ينطقون، بهذا الإيمان سيلتقون، وعلى وعد الرحمن لهم بالمغفرة سيجتمعون، ويتذكرون حالهم من قبل، بل وسيكون حديثهم على تلك الأرائك وهم متكئون هو كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦– ٢٨].

*****

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

الخيرُ والشَّرُّ



الخـيرُ والشّــرُّ

لقد وجد الإنسان نفسه منذ الوهلة الأولى أمام حياة في غاية التعقيد، وسيرحل عنها قبل أن يعلم عن نسبة قليلة جدًّا من أسرارها وعجائبها الهائلة، لقد وجد فيما وجد فيها (خيرًا) يبحث عنه بكل وسيلة، و(شرًّا) يتحاشاه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وأدرك أنهما متداخلان إلى درجة قد يتلاشى فيها التفريق بينهما في أقصى حدود التصور عند بعض المفكرين، ولم يكن مصطلحا الخير والشر بمنأى عن نقاش متواصل عبر التاريخ، فقد اختلف الناس في تعريفهما، فمنهم من عرف الشر بأنه مجرد غياب الخير، أي عرفه تعريفًا سلبيًّا، لكن هذا يقتضي أن الشر لا شيء، وهذا محال مع وجود الألم والنفور والضيق والشر العرفي، ويعتقد أمثال (هيرقليطس)[1] أنهما نسبيان، فما لم يكن خيرًا يصبح شرًّا والعكس صحيح، ومنهم من قال: إننا نسمي الشر لكل شي نكرهه، وأما (سبينوزا) ومن يوافقه في الاعتقاد فيرون أن الشيء الواحد يمكن أن يكون خيرًا أو شرًّا في الوقت نفسه، ومنهم من قال: إن الشر راجع إلى حرية الإرادة في الإنسان؛ لأن الله ترك الإنسان يفعل ما يشاء في عالمه الصغير كما يراه (ليبنتز)، ومنهم من قال: إن الإنسان يسمي الخير لكل ما يلائمه ويحبه، ويصف بالشر كل ما لا يسره ويكرهه (هوبز)، وأما الفيلسوف المتشائم (شوبنهور) فقد بنى فلسفته أصلًا على أن العالم كله شر محض، وأكبر شر عند الإنسان هو وجوده! ويرى (أوغسطين) أن الشر نوعان: شر أخلاقي، وشر فيزيائي، وينفي أن يكون الشر الأخلاقي من صنع الله، بل هو من صنع الإنسان، وأما الشر الفيزيائي فهذا من وجهة نظره عدالة إلهية تقع بعقوبة الإنسان عن خطيئته الأولى[2]، ويرى (توماس أكويناس) أنه لا يوجد شيء يمكن أن يكون بذاته

---

(١) هيرقليطس Heraclitus (٥٣٥ق. م- ٤٧٥ق. م) أحد أشهر فلاسفة اليونان القدماء يعرف بالفيلسوف الباكي؛ لكثرة بكائه على حماقات الإنسان يرى أن أصل الكون هو النار! تقوم فلسفته على وحدة الأضداد فالخير والشر عنده واحد وكذا الحياة والموت والشباب والهرم يَعدّها مراحل متقلبة لشيء واحد: (أشهر فلاسفة التاريخ، كامل، ص٢٨).

(٢) عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، (١٩٨٤م)، الجزء الثالث، ص١٨٧- ١٨٩.

شرًّا فقد ثبت أن كل موجود بما هو موجود عليه هو خير، وأن الشر ليس إلا موجودًا بالخير، كأنه موجود في كيانه الذاتي(١).

أما الفيلسوف (سبنسر) فيقول: إن الإنسان متوحش مطبوع على الشر وسوء الخلق، وإنه يمكن تصحيح ذلك بالتربية الحسنة، بينما يرى (جان جاك روسو) أن الإنسان خيري بطبعه، أما (أفلاطون) فيعتقد أن جميع المعقولات تستمد من الخير الأعلى وجودها وماهيتها، وأن الخير الأعلى أساس العلم والحقيقة ومع جمال كل من المعرفة والحقيقة، إلا أن صورة الخير الأعلى تمتاز عليهما، وتفوقهما جمالًا. ويرى (دانتي)(٢) أن الاتجاه الطبيعي للإنسان يجب أن يكون نحو الخير، بينما غريزته تدفعه نحو الشر؛ لذا أمكن جزاؤه على الخير وحسابه على الشر.

ومن الطبيعي أن تتفاوت أفهام الناس في نظرتها للخير والشر قديمًا وحديثًا، ولكن من تأمل حياته بموضوعية وسبر غور ما حوله من أحداث وأقدار، فإنه لن يجد فيها شرًّا محضًا ولا خيرًا محضًا، والإنسان بطبيعته يجزع من الشر، وينفر منه، ومن ثم، فهو يوليه اهتمامًا أكثر لدفعه عنه، واختلاف المفكرين حول دور الإنسان في وجود الشر أظهر كل الاحتمالات، فمنهم من قال: إن الإنسان شرير بطبيعته، ومنهم من قال: إن الإنسان خيري بطبعه، واتجاه ثالث يرى أن الإنسان به جانبا الخير والشر معًا، وهو ما يوافق مفهوم الوحي الذي رتب على الخير حسنات، وعلى الشر سيئات، وعلى هذا الأساس جاء التكليف والمحاسبة عليه فيما يكون للإنسان فيه حرية الاختيار المطلق بعد أن تبين له: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وعلى الرغم من هذا التفاوت الواضح حول تعريف الخير والشر إلا أنه يبقى قضية حاضرة جدًّا في كل فكر وحضارة، وقد بلغ اهتمام الأديان القديمة بفلسفة الخير والشر

(١) الخلاصة اللاهوتية الكتاب الأول المسألة ٤١ مادة ٣. (نقلاً عن موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثالث، ص١٨٩).

(٢) دانتي أليغييري Dante Alighieri (١٢٦٥- ١٣٢١م) الموافق (٦٦٣- ٧٢١هـ) شاعر إيطالي اشتهر باسم (دانتي) ومن أعظم أعماله (الكوميديا الإلهية) التي تتكون من ثلاثة أشياء: الجحيم والمطهر والفردوس يطلق عليه الشاعر الأعلى؛ لأثره في انتقال أوروبا إلى عصر النهضة:

(Encyclopaedia Britannica-Dante Alighieri , Ricardo Quinones).

أن ربطت كلًّا منهما بآلهة مختصة به! فهناك ما يسمى بآلهة الخير وآلهة الشر، فالمصريون القدماء جعلوا من (سخمت) آلهة للشر، بينما (آهورمن) هو آلهة الشر عند المجوس الذين يعتقدون أن هذه الآلهة موجودة بذواتها، وتفعل الشر، فكانوا يسترضونها بتقديم القرابين التي لم تقتصر على ذبح الحيوانات، بل حتى الأطفال والرجال بهدف اتقاء شرها[1]، وهذا غاية الانتكاسة الفطرية للإنسان، وسبحان من أنزل على رسوله الأمي الذي لا علم له بهذه الحضارات القديمة خبر هذه الإشكالية السوداوية، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨] حسبنا الله عليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير.

والخط الفاصل بين الخير والشر من منظور الإنسان يصعب تحديده، وقد يختفي تمامًا، فالخير المحض من زاوية من زوايا هذا الوجود، يمكن أن يكون كله شرًّا محضًا من زاوية أخرى، وكلاهما خير قدري في الوجود بعمومه، فالسمكة الكبيرة تبحث عن فريستها، فإذا ما قابلت سمكة صغيرة فرحت بها، والتهمتها، وبدأت تلاعب أمواج البحر فرحًا بالوليمة الدسمة (الخير) الذي استمتعت به غاية المتعة، بينما الحدث من منظور تلك السمكة الصغيرة ما هو إلا خطر عظيم، إذ داهمها (الشر)، فحاولت تفاديه حتى وقعت بين فكي تلك السمكة الكبيرة، فمزقت جسدها إربًا إربا، فالحدث من منظور السمكة الكبيرة خير محض، ومن السمكة الصغيرة شر محض، ومن منظور من يتأمل أسرار هذا الوجود، هو تكامل طبيعي لا يتم توازن الوجود إلا به، فالسمك الكبير قليل العدد نسبيًّا، ويحتاج إلى أن يتغذى على السمك الصغير الكثير جدًّا؛ لكي يبقى النوعان، ولو لم يفعل ذلك لانقرض السمك الكبير، ولو ترك السمك الصغير يتوالد بعيدًا عن (تقليم) الأسماك الكبيرة له لربما ملأ مياه البحر عددًا وتعفن، فتوالده بكثرة يحقق هدفين: يحافظ على بقاء نوعه، ويوفر غذاء للسمك الكبير كي يحفظ هو الآخر بقاءه.

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثالث، ص١٨٦.

وكذلك الحال مع الإنسان نفسه، يصل به الأمر أحيانًا أن يقوم بالقضاء على عضو من أعضائه، فيقطع رجله أو يده (من الغرغرينا) ليهلك ذلك العضو تمامًا، فيوقع به (الشر) المنهي لوجوده؛ تطلعًا إلى السلامة و(الخير) المبقي للجسم كله، وهكذا يصبح الخير والشر متمايزين في أطراف الوجود وتفاصيل الموجودات، ولكنهما في النهاية خير في عموم الوجود كله، فما يؤلم من جهة قد يسر من جهات عدة، وطالما أن الإنسان لا يمكن له أن يقترب من مركز التحكم القدري للوجود، فالأفضل له أن يعيش عمره مسترخيًا متقبلًا لما يحدث حوله، مستمتعًا بكل (خير) قريب منه، صابرًا محتسبًا على كل (شر) يصيبه، موقنًا أن العاقبة في النهاية إلى خير عام سينكشف له عاجلًا أم آجلًا، وليعلم أنه في كل أحواله تحت عناية مالك الملك ﷻ ورعايته.

أما اختلاف الناس منذ القدم في تعريف الخير والشر وتحديد مفاهيمهما، فهو طبيعي كاختلافهم في أي قضية قدرية أو غيبية أو كونية متعلقة بالله الخالق، وليس غريبًا أن يحدث الاختلاف بين الخلق حول التعريف ونحوه، ولكن الغريب عندما يحاول المخلوق التمادي على مقام الخالق الذي يبلو بالشر والخير في ملكه الكامل، يتحدث المخلوق عنهما من حيث الوجود أصلًا في الكون، وكأنهم يختلفون مع الخالق على شيء يقدرون عليه، أو شيء يمكن أن يكون محل مزاحمة أو منافسة بينهم وبينه، أي يتصورون أن الخلاف بين طرفين متكافئين متقاربين، فجعلوا من هذه القضية قضية جدل ومحاولة استحواذ وسيطرة، كما يتنافس شخصان أو حضارتان أو ملكان من ملوك البشر، بينما الأمر في حق الخالق مختلف تمامًا، فالأمر كله لله وحده، فلا تكافؤَ ولا تساويَ ولا شريكَ ولا ندَّ ولا شبيهَ له سبحانه.

تبقى أقدار الخير والشر أكبر من سعة عقل الإنسان ومجال تفكيره المحدود، ويبقى الإنسان ضعيفًا أمام مقام مالك الملك سبحانه الذي حكم بحكمه الذي لا معقب له بقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢]. فقَدَرُ وجود الخير والشر أساسًا هو من شأن الله وحده لا شريك له، وهو أكبر من أن نخضعه لتصوراتنا وخيالاتنا القاصرة.

*****

﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾[الأنبياء:٣٥]

إننا نؤمن بربنا العظيم الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، وإنه الإله الواحد الأحد العظيم الصمد الذي خلق الخلق، وقدر الأقدار، وأنزل المقادير، وخلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار اختيارًا لا معقب له من خلقه، ومن ذلك تقدير الخير والشر ابتلاء، وهو الذي يخلق، ولا يسأل عما يفعل، ويجب ضرورة أن يكون كذلك لمقامه الأعلى والأكبر والأقدر والأبقى، إذ لو كان يُسأل عما يفعل لما كان ربًّا يرجى، ويخشى، ويوحي إلى خلقه الذين هم دونه في كل شيء، لدرجة لا ترد معها أي مقارنة تحت أي ظرف، وتعالى الله أن يكون له ند أو شبيه أو منافس في ملكه، بل الملك كله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فما بال هذا الإنسان الضعيف يرتقي مرتقى لم يخلق له، مجادلًا في تفصيل الخير والشر بغيرعلم، يقسمهما، ويقررهما، ويدعي التصرف والتأويل وكأنه صاحب شأن أعلى وهو ذلك الإنسان الهلوع الذي: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠- ٢١] وإننا لنخجل أن نفكر مجرد التفكير بهذه المقارنة، ولو تنزلًا بمقام الذي قدر، واختار، وقال بكل قوة وهيمنة واقتدار: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وإنك لتعجب من حال أولئك الذين يعلمون أن مآلهم إلى ربهم قدرًا دون اختيار منهم، فيجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، مكابرين دون أن يبادروا في اليقظة من هذا السبات، ويصحون من هذه السكرة، فيستعدون لتلك الرجعى المخيفة، التي نُيَمِّمُ وجوهنا شطرها أجمعين، لا يتخلف منا أحد لا بطوعنا واختيارنا ولا رغبتنا، وإنما القدر الذي لا مناص منه، والذي لا طاقة للمخلوق برده أو صرفه أو الهروب منه: ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥].

لا يقف ظلم الإنسان وجهله عند جدلية الخير والشر فحسب، بل يتجاوزها في جميع القضايا الجدلية طيلة تاريخه، كم كان الإنسان ظلومًا في حق من أوجده جهولًا في جداله ومكابرته في قضايا أكبر منه، وليس أشر على الإنسان من أن يخرج من دنياه

الفانية هذه كلمح البصر بخسارته لأخراه الباقية، أما آن لنا أن نتأدب مع الله ﷻ، ونحن نقتحم تلك القضايا القدرية الكبرى التي هي أكبر منا، بل أكبر مما هو أكبر منا من الخلق أجمعين، والإنسان مهما كابر فهو مجرد عبد لله ضعيف إليه فقير إليه، يتضرع إلى الله بسؤال الخير، ويستغيث به لينجيه من الشر، ولا يملك سوى ذلك.

يجب أن نستحضر هذه الحقيقة دائمًا عندما نتذكر أقدار الخير والشر، لأهميتها في كل ما يعترض لنا من شبهات وجودية وكونية، ولنقدم إيماننا واستشعار عظمة الخالق هذه قبل الخوض في تفصيل مضامينهما، وكذلك الأمر مع كل قضية غيبية كأصلهما، وحقيقة الجنة والنار، والقيامة، وخلق إبليس، والملائكة، وغيرها، مما هي أصلًا مشيئة عظمى، وإرادة كبرى لله وحده نصغر ومن ثم بإيماننا نتصاغر أمامها، نتأدب كل الأدب مع الله؛ لأنه هو الملك الحق لا إله إلا هو ولا ند له سبحانه في ملكه، وهو المالك المتصرف يخلق ما يشاء ويختار، ولا نختار دونه، ولقد اختار أن خلقنا، وخلق معنا كل شيء ومن ذلك نواميس الخير والشر، فأين أدبنا معه سبحانه؟ لقد أثبت القرآن للجن أدبًا مع الله عند ذكرهم للشر على الرغم من أنهم يؤمنون بأن الله خالق كل شيء، فقالوا تأدبًا معه: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] ومن قبلهم نسب خليل الله إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] وهذا الحبيب ﷺ أيضًا يقولها في دعائه لله متأدبًا معه: «**والشر ليس إليك**»(١).

*****

نسبية الخير والشر

الخير والشر موجودان في عالم الوجود بقدر الخالق ومشيئته سبحانه ولا عبرة لمن ينفي أحدهما، ويثبت الآخر، وللشر فلسفة ومنطق خاص تجعل إحساس الإنسان

---

(١) الحديث رقم (٧٧١) من صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاةِ قال: «﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] إلى أن قال: «**والشرُّ ليس إليك**».

به انعكاسًا من تلك الزاوية النائية التي يقف عليها للحكم على الشيء وفق منظوره الشخصي بأن الأمر شر أم خير، فالخير من زاوية معينة قد يكون شرًّا من زوايا عدة، والشر من زاوية قد يكون خيرًا من زوايا عدة، يحق لمن نظر للأمراض - نظرة مجردة - أن يصفها بالشر المهلك، وكذا الحال لو نظر إلى القتل والفراق والحوادث والإخفاقات، بمعزل عما حولها، بينما هي من ناحية القدر الكوني تأتي ضمن تركيبة خير باطن متوازن متكامل لا بد أن ينتج عنها في النهاية خير ظاهر عام، وإن بدا لنا بعض الأشواك في جنبات طريقه.

لنأخذ على سبيل المثال ظاهرة الموت، الذي يفر منه كل حي، لو لم يمت الإنسان بعد هرمه فما عساك أن تتخيل أسرتك؟! طابور من المخرفين والمخرفات لا تدري أتخدمهم أم تخدم نفسك حتى تهرم مثلهم، وتصطف معهم يومًا، فيأتي من بعدك بأثقل عبئًا منك وهكذا! وكذا الحال مع هزيمة المسلمين في معركتي أحد وحنين في أول الأمر، ولو انتصروا فيهما كبدر والفتح وتبوك لم نجد أمامنا هذه الدروس العظيمة في الإدارة والانضباط وخطورة حب الدنيا والتفريط في ذلك على المستويين السياسي والعسكري، وخطورة عدم الانضباط حتى لو كان القائد هو سيد البشر، فحيثما وجد الخلل اضطرب النصر، بينما الكل سيموت سواء في المعركة أو على الفراش.

وكذلك الحال أيضًا على المستوى العالمي في الحروب العالمية التي لا يمكن أن يصفها عاقل بالخير مطلقًا، بل هي شر مستطير قضى على عشرات الملايين من البشر وبسببها خسر العالم تريليونات الدولارات، ودمرت المصانع والمباني والمزارع والممتلكات والحرث والنسل، لكن انظر إلى التقدم التكنولوجي الهائل الذي سرعته تلك الحرب حينها ليصعد بالعالم الذي عاش بعدها مختصرًا آلاف السنين في سلم الحضارة الإنسانية، ما جعل الناس يتغلبون على الكثير مما يواجههم من عقبات معيشية ونقص في الموارد مع ازدياد عدد سكان الأرض، وسواء وقعت تلك الحروب أم لم تقع، فجميع قتلى الحرب لو لم يموتوا فيها، فإنهم حتمًا سيموتون مثل غيرهم بانتهاء الأجل، ولو عاشوا بعدها لما بقي اليوم منهم أحد على قيد الحياة، وسيفنون عن بكرة أبيهم بالموت الطبيعي، كما مات اليوم جميع الأحياء الذين عاصروهم إبان الحرب، لكنهم تقدموا بموتهم قليلًا ليصبح

العلم بسببهم أكثر تقدمًا، وبقي التقدم العلمي المحفز بالحرب خادمًا للإنسانية فيما بعد وفاتحًا لها أبوابًا من العيش الرغيد، ولولا الحرب العالمية لربما تأخر الإنسان حينًا من الدهر حتى يصل إلى ما وصل إليه من تكنولوجيا في عشرات السنين.

ثم انظر أيضًا إلى تفشي الأوبئة والأمراض ودفعها لكل عالم أن يسهر باحثًا عن دواء ناجع له، وحتى على المستوى الفردي والأحداث والأحزان، لا بد من وقفة تأمل في أفراحنا وأتراحنا، لنفترض أن هناك شابّين محافظين في العشرين من عمرهما، أصيبا في حادث سير، فمات أحدهما على الفور وبقي الآخر، من المألوف أن تبكي أسرة الميت بكاءً شديدًا على فقيدهم، وتفرح أسرة الناجي من الحادث لسلامته، وإلى هنا والأمر طبيعي، وحيث إن الحي لا يأمن الفتنة، فقد يحدث أن ينحرف الحي منهما نحو الكفر وهو الحي بين أهله، وينتظر موتًا ينتظره كل مخلوق وفق أجله المكتوب، فيموت على الكفر، فبالله عليك في هذه الحالة أيهما الميت وأيهما الحي؟ وأيهما الذي سلم من الشر فعلًا وأيهما الذي وقع في الشر كل الشر، لنتذكر قصة الخضر وموسى عليهما السلام عندما قتل الغلام، وأي خير ظاهر في قتل غلام بريء! لكن عندما كشف السر بعد ذلك بأن قتله كان خيرًا له ولوالديه على الرغم من أنه قُتل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ [الكهف: ٨٠- ٨١].

هذه النظرة الشرعية المتوازنة للخير والشر هي أساس التذكير بالاحتساب والصبر عند المصائب، وتفويض الأمر لله بطيب نفس وصدق توكل عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه؛ لأننا لا ندري أين يكمن الخير والشر الحقيقي، ولذلك كان الحل الوحيد هو تفويض الأمر كله إلى من يعلم ذلك كله، وانطلاقًا من هذه النظرة المعتدلة للخير والشر تستطيع أن تفهم جيدًا حاجتنا إلى التشافي والتداوي من الوحي بشقيه القرآني والنبوي، ابتداءً من هذه الجرعة العلاجية العظيمة التي يجب التذكير بها في كل تعزية ونازلة، والتي تجدها في هذا النص الذي أخبرنا به من لا ينطق عن الهوى، قالها صحيحة صريحة بكل صدق لي ولك، ولمن كانوا قبلنا ولمن سيأتون بعدنا، يقول الرسول ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المؤمنِ إنَّ أَمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ ليسَ ذلكَ لأَحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إنْ أَصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ**

خَيرًا لهُ، وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا لهُ»[١]، ثم أتبعها بالجرعة الثانية من الدواء الشافي الذي جاء في وصية نبي الرحمة ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما، عندما قال له: «**يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللهَّ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَّ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهَّ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهَّ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهَّ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»[٢].

بهذا الإيمان والاحتساب والتسليم لله، لن تستمتع بالخير، وتتحمل الشر فحسب، بل سينقلب كل شر إلى خير محض لك مهما كان قاسيًا؛ لأنك ستشعر أن كل شيء قد قدر بحسابه، فتنتظر الجزاء من كليهما، وبعد ذلك تعيش طبيعيًّا في حياتك الدنيا راضيًا بما قسم الله لك من عيش ورزق، صابرًا على ما أصابك من أقدار لا راد لها إلا من قدرها، وحينها لن تأسى على ما فاتك، ولن تطمع بما ليس لك، وستستمتع بما نالك من خير ومعيشة هنية مهما كانت، بقناعة لباسها الرضا والاحتساب والابتسامة الدائمة في الحياة، وستكون طيب النفس ذاكرًا شاكرًا لمن قدر في ملكه كل قدر، وقسم كل رزق، وقال وقوله الحق مؤكدًا أنه ليس لك إلا ما قدر لك: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [الزخرف: ٣٢].

*****

(١) الحديث رقم (٣٩٨٠) من صحيح الجامع للألباني عن صهيب بن سنان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ إن أصابتْهُ سرَّاءُ شكر وكان خيرًا لهُ وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له**».

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٦) عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

الفصل الثاني عشر

الاتصال الأعظم (الوحي)



الاتصال الأعظم (الوحي)

كل حديث عن الوحي لن يتعدى ذكر الوقائع والمشاهد والأحداث الثابتة فقط، فلا تحليل ولا توقعات ولا اجتهادات في شأنه؛ لأنه أمر غيبي لا مجال لأي مخلوق أن يضيف فيه أو ينقص، فالخالق قد خلق وقدر وأراد وشاء وحكم ولا معقب لحكمه، قضي الأمر وانتهى، فوجد الإنسان نفسه ماثلًا أمام عالم شهادة يستطيع استكشافه مع الزمن، وعالم غيب يستحيل عليه، والغيب ليس عدمًا لمجرد أن الإنسان لا يعلمه، وحتى يؤمن الإنسان بالغيب الذي لا يصل إليه بحال، أذن الله لبعض الحقائق من علم الشهادة أن تكون غيبًا مؤقتا يكتشفه الإنسان بالعلم بفضل ما وهبه الخالق من عقل وبصيرة ليصبح جزء من عالم الغيب المؤقت نفسه شكلًا خاصًّا من أشكال الشهادة بمواصفات معينة، وعليه فالنفوس المدركة لعالم الشهادة، عليها أن تقبل بالغيب وبالمنطق نفسه الذي تقبل به الوجود لأشياء تعلمها شهادة دون أن تحسها بمداركها، بل أكثر منها من موجودات لا تعلمها إلا غيبًا، وهذا الغيب الوجودي للأشياء الحقيقية هو بذاته حقيقة وجودية لا جدال فيها أبدًا.

وقبل الحديث عن الوحي لا بد أن نحدد نقطة الانطلاق الصحيحة إلى فهمه، فنحن هنا أمام أمر غيبي بحت، لا يخضع لشيء من قوانين الأرض ولا نواميس الحياة الدنيا المألوفة ولا لبراهين المنطق البشري، فإذا كان لديك تصور مسبق بأننا سنتحدث عن الوحي هنا بالطريقة التجريبية الحسية، وبالبرهان والمنطق كي نلبي تطلعات خيالك المتعطش للوصول إلى تصور خاص بك قد رسمته مسبقًا في ذهنك الضيق عن كيفية نزول الوحي، وتريد منا محاكاته، وكأننا نختبر الوحي، ونكشف أسراره معتمدين على الميكروسكوب لمعرفة الدقائق، أو التلسكوب لمعرفة الأباعد، أو على نظريات الفيزياء وسرعة الصوت وسرعة الضوء، وانكساراته والموجات الكهرومغناطيسية، والجاذبية والحرارة والبرودة والضغط الجوي والتنفس والأكسجين، أو ما ترتب على ذلك من اكتشافات علمية متقدمة، كالهاتف والفاكس والإنترنت والتلكس، إذا كان هذا تفكيرك الذي لا تقبل الحديث عن الوحي إلا على ضوئه، فأنصحك أن تريح نفسك من عناء

قراءة هذا الموضوع، وأن تنتقل فورًا إلى الفصل المقبل، علمًا أن الأمر ماضٍ علينا وعليك وفق ما قدر له، وليس متوقفًا على قناعاتك الخاصة به من عدمها، ولكنك ستكتشف في نهاية المطاف حاجتك إلى الإيمان بهذا الوحي كما نزل مهما كانت كيفيته المغيبة عنا وعنك، على أنه من أمر ربي وربك، وأنه لا محيص لك ولا مهرب من قبول هذه الحقيقة.

ولأنك مؤمن تؤمن بالقدرة اللامحدودة لله خالق كل شيء، ولاسيما وأنت تردد يوميًّا وصف الخالق ﷻ بأنه: (على كل شيء قدير)، وتعني بذلك أنه قدير على خلق كل شيءٍ لا نعلمه، ولا ندرك قوانينه ونواميسه، ولا نحصرها، فهذا هو المدخل الصحيح لفهم الأمور الغيبية عامة والوحي خاصة، ومن ثم تستطيع مواصلة القراءة هنا، ويكون أمر الوحي قد اتضح لك مجملًا من بدايته، وانتهى الأمر بمجرد استحضارك لعظمة الخالق القادر على كل شيء؛ لأن كل حديثنا عن الوحي سيكون في إطار التذكير بمن يتصف بالقدرة المطلقة، التي أوجد بها الوجود كله بما فيه قوانين الأرض، ولا يعجزه أن يوجد غيرها من قواعد وأنظمة وقوانين ونواميس أخرى لا نهائية في عوالم أخرى غير متناهية أيضًا، والاحتمالات للذهاب في كل اتجاه نعلمه أو لا نعلمه، أو ممكن أن نعلمه، أو ممكن ألا نعلمه أبد الآبدين، لكننا متشوقون لشتى المعارف عند لقاء ربنا، ولذلك كان لزامًا علينا التزود بالإيمان بالله، وبما أنزل للوصول إلى هذا المنتهى المعرفي الجميل الذي تنكشف لنا فيه الحقائق، يقول (يوهان فيتشة)[1]: «إن معرفة الوحي انطلاقًا من مبادئ العقل النظري مستحيلة، لكنها ممكنة انطلاقًا من قوة الشوق؛ أي الإيمان بعقيدة ما»[2].

ليس بالضرورة أن تكون هذه الأقدار المقدرة من القادر على كل شيء مطابقة ولا مشابهة ولا مقاربة لقوانين الحياة الدنيا وعالمنا المشهود، ولا حتى تصوراتنا وخيالاتنا:

---

(١) يوهان فيتشة Johann Gottlieb Fichte (١٧٦٢– ١٨١٤م) الموافق (١١٧٦– ١٢٢٩هـ) فيلسوف المثالية الألمانية المنبثقة من مدرسة الفيلسوف الألماني الشهير (إيمانويل كانت) يُعدّ العقل هو جوهر الوجود وله دراسات عميقة في الوعي الذاتي وله مساهمات سياسية أسهمت في نشوء القومية الألمانية: (Stanford Encyclopedia of Philosophy).

(٢) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال: (كانت: من العقل الخالص إلى الإيمان الخاص) للكاتب : محمد المصباحي نقلًا عن مقالة فيتشة في (نقد الوحي)، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص٦٧.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وكلما تسرب إلى تفكيرك التعجب من أخبار الغيب مقارنة بالمألوف، تذكر أنك أمام أمر الله وكفى، إنه الأمر الذي أجابت به الملائكة زوجة إبراهيم (سارة) عليهما السلام، عندما قابلت الخبر غير المألوف دنيويًّا بقولها متعجبة منه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢] قالت ذلك عندما بشرها الله بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فلم يجيبوها على استفسارها بنعم، بل قفزوا إلى الاعتراض على تعجبها من ذلك، فكان ردهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وهكذا لا يبقى للإنسان سوى تناول الوحي فقط من زوايا التعريف به دون الغوص في أسراره الغيبية التي عليه أن يؤمن بها مسلمًا ومصدقًا لخبر السماء، وهذا الموقف منه لا يتعارض مع جهود من يتناول أمر الوحي من زوايا معرفية تقليدية، مثل تعريفه اللغوي بأنه (الإعلام السريع الخفي)، وأن أنواعه المستنبطة من معاني القرآن إما أن يكون إلهامًا فطريًّا للموحى إليه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] أو إلهامًا غرائزيًّا للكائن الحي: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] أو ما يوحيه الله إلى ملائكته: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] أو حتى وسوسة الشياطين فيما بينهم التي تسمى وحيًا: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] ونحو ذلك من تفاصيل بحثية توجد غالبًا في كتب تتناول موضوع الوحي من زوايا تختلف عما قصدنا توضيحه هنا من أن الوحي نفسه هو ناموس غيب رباني نستقبله دون أن ندرك كيفية نزوله، ويجب على الإنسان أن يؤمن به وفق التعريف الاصطلاحي له، أي إنه إعلام الله لأنبيائه بما يريد أن يبلغه عباده من وحي أو كتاب بواسطة أو بغير واسطة، وتبقى كيفية نزول الوحي وتفكيك مراحله وفهم عجائبه والاطلاع على أسراره، من علم الغيب الذي أصبح الإيمان به من مناط الابتلاء والامتحان الغيبي، ولن يستقر هذا الإيمان به إلا بعد استيفاء ثلاث مراحل أساسية هي:

المرحلة الأولى، الإيمان المطلق بالله وجودًا وقدرة وأسماء حسنى وصفات عليا، ومن آمن بأن الله على كل شيء قدير، آمن بأن الله لا يعجزه شيء على الإطلاق، وأن

أمر الوحي يسير على من خلق السماوات والأرض، وأن خلقهما أكبر من خلق الناس وأنبيائهم والوحي، كم هو ضروري أن نفهم فهمًا جيدًا هذه العبارة المتكررة في القرآن، آيات تتلى في ختام صلواتنا اليومية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

والمرحلة الثانية، أن الوحي بالجملة والتفصيل سيبقى من علم الغيب الذي لا يخضع مطلقًا للقوانين الطبيعة الدنيوية المتعارف عليها، فلا يمكن أن يصل العلم الدنيوي إلى فك شفرات غموضه وأسراره الغيبية أبدًا، وهذه مشيئة الله وأمره وقدره وحده لا شريك له سبحانه.

والمرحلة الثالثة، أن الوحي نفسه عظيم إلى درجة أنه يوجب الإيمان بأن الرسول المبلغ عن الله ما هو إلا مجرد وسيط أمين وناقل مبلغ عمن هو أعلى منه مقامًا، ويبلغ الوحي بأمانة وصدق مطابق لما يمليه عليه الوحي، وهو خائف أشد من خوفنا من مرسلها ﷻ، ووجل من سيده الأعظم الذي قال له: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧] وقال له أيضًا: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥] لقد شاء الله، واختار، وقدر أن يكون هذا هو الوحي، وأن يكون التبليغ بهذه الطريقة، ولو شاء، وقدر غيرها لكان ذلك وهو يحكم ويختار سبحانه ولا معقب لحكمه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

*****

الوحي فرع عن الإيمان بالله

لا فائدة من الدخول في أي نقاش جدلي حول حقيقة الوحي قبل حسم القضية الأولى، وهي تأكيد الإيمان المطلق بالله تعالى، فإذا حُسمت الأولى فقد حُسمت الثانية والثالثة والمئة والألف تبعًا لها، هذا ما يجعل تكرار التذكير بهذه الحقيقة الضرورية، ضرورة في كل فصل من هذا الكتاب؛ لأننا لا نستطيع المضي قدمًا في جميع الموضوعات المتناولة من أمور الغيب دون اصطحاب هذا الإيمان المنقذ والاستظلال بظله عن وهج

الحيرة والتيه الموحشة في هذا الوجود، إنك عندما تؤمن بالله، وتؤمن بصفاته الكمالية المطلقة، ومنها أنه القدير القادر، فأنت تقر بأنه يفعل كل شيء لا تستطيع أنت فعله، بل ولا تتخيله أو تتصوره، وأنه لا يعجزه شيء يعجزك أنت فعله، ولا ينتظر قَدَرَهُ تكليفًا ولا إذنًا من أي ذي شأن سواه في الوجود، لا بد أن يستقر هذا في القلب بعيدًا عن الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والسفسطة البشرية.

إذا لم تنطلق من هذه المنصة الإيمانية الصلبة قبل التطرق إلى أي شأن غيبي، فلن تصل من خلال العقل وحده إلى شيء يطمئنك في أمور الوحي قطعًا، فإيمانك بالله سابق على إيمانك بالوحي منه، وإذا لم يكن إيمانك بالله وفق الصفات الكمالية المطلقة مستوعبًا معانيها ودلالاتها الباهرة، فأنت لا تؤمن حق الإيمان بالله خالقك وخالق عقلك الذي تفكر فيه وخالق الكون الذي تعيش فيه، فإذا أدركت قدرة الله من عظمة ما قدره وخلقه من حولك لما تعرف وما لا تعرف من الموجودات، هنا فقط سيسهل عليك فهم نواميس أسرار الغيب كلها ومنها الوحي، وستتقبلها وتتلقاها بقلب مقبل غير مدبر، مطمئن غير خائف، وحينها ستقف عند حد التعريف المفعم بالإيمان والتسليم بأن الوحي إرادة الله واختياره وأمره، وأنه تنزل بالكيفية التي اختارها الله القادر على كل شيء أيضًا، فمن أوجد هذا الوجود، وأداره، وقدره بهذا الإحكام لا يعجزه أن ينزل وحيًا وكتابًا، ويختار رسولًا، بل هذا أهون عليه بكثير، وعلى هذا التسليم الحق قام الإيمان في أسمى درجاته وأولاها.

*****

نزول الوحي من علم الغيب

ابتداء الوحي ومضمونه واصطفاء الرسل الذين يوحى إليهم والكيفية التي يتنزل بها الوحي كله من أمر الله وإرادة الله ومشيئة الله وحده لا شريك له، وليس لنا معشر البشر منه شيء سوى التسليم، ولأنه خارق للمألوف والمعتاد، فمن الطبيعي أن تستقبل خبر الوحي بشيء من التعطش الخاص لمعرفة ما وراء هذا الغيب، وهذا الشعور

مني ومنك أمر طبيعي جدًّا، كما أسلفنا من قبل وليس جديدًا على بني جلدتك، فقد عجب من الوحي أمم ممن قبلنا لأنهم أخضعوا ناموس الوحي الغيبي لقوانين الدنيا المحسوسة، فوقعوا في الحيرة والبلبلة، فقالوا: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ [ص: ٨] فاستغربوا كيف ينزل الذكر من الله إلى رجل من الناس، دون أن يستحضروا قدرة الله ومشيئته واختياره في ملكه، التي منها أنه اصطفى من الناس رسولًا، وأرسله نذيرًا بالذكر لمن يتقيه من عباده لكي يدخله في رحمته، فما العجب؟ وجميع هذه المعاني اختصرت بخطاب بلاغي عجيب في هذه الآية الكريمة التي قال فيها نوحٌ لقومه: ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٣] وسيبقى كل تعجب وتساؤل أمرًا طبيعيًّا ما لم يقصد منه مقدمة لتبرير الكفر والجحود والإنكار، كما حصل مع بعض ممن ضلوا عن سواء الصراط.

ليس لنا من علم الوحي إلا ما أخبرنا عنه ربنا فقط، والإيمان المطلق بالوحي والتصديق به والتسليم بكل كيفية نزل بها وتقبله، كما جاء من الله العظيم، مخرج آمن وخيار أوحد ينجو به المرء من ظلمات إخضاعه لمدارك الناس المحدودة وعقولهم وأحاسيسهم القاصرة عنه وعما سواه من الغيبيات، ولا شيء أخطر على الإيمان بالوحي من إخضاعه خطأً لعالمنا المحسوس وقوانين الطبيعة، وحيث إنه لا مجال لإدراكه عقليًّا ولا حسيًّا، فسيجد الإنسان نفسه وفق هذا المنهج الخاطئ حائرًا؛ لأنه لم يستوعب كيفية نزوله عقلًا، فتتبعج به الأفكار والخيالات عشوائيًّا في كل اتجاه، وهنا يجد الشيطان مداخله بالوسواس؛ لأنه لا يريد منك أن تصل إلى الحق والحقيقة، فتستسلم لله مؤمنًا به ومصدقًا لرسله ووحيه، يحزنه جدًّا أن تعلنها صريحة مدوية، ويجب عليك أن تقولها دائمًا هكذا كما أرشدك القرآن الكريم: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧] بهذه الكلمات الصريحة يكون إيمانك بالوحي سهلًا سلسلًا مطمئنًا مريحًا، هذا هو المدخل الآمن والوحيد لفهم الوحي والإيمان به، دون أن يجد المرء في نفسه متكلفًا أي حرج في ذلك، ومن ثم يمكننا الانطلاق من هذه القاعدة الإيمانية إلى أي تفاصيل أخرى ترسخ إيماننا بالوحي وغيره.

أما إذا أخبرنا الله عن كيفية ما عن حقيقة هذا الوحي فالإيمان بها من الإيمان بالله في حدود ما يمكننا فهمه وإدراكه، لقد أخبرنا ربنا ﷻ أن للوحي ثلاث مراتب: الأولى هي الوحي المجرد، وهو ما يصل إلى قلب الموحى إليه دون شك منه بأنه من الله، والثانية هي الإيحاء مباشرة ومن وراء حجاب: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: ٣٧] ومرتبة ثالثة هي الوحي بواسطة الملك ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٥١] والمرتبة الأخيرة هي التي تنزل فيها القرآن الكريم كله، وحيًا منزلًا من عند الله وفق نواميس وأقدار ربانية، يستحيل تصورها كيفًا، ولكن لا يستحيل الإيمان بها عقلًا ممن يؤمنون بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

إن لك أيها الإنسان، مجالًا في هذا الوجود لن تتجاوزه، وقدرةً لا تطيق ما زاد عنها، وموعدًا مع الله لن تُخلَفه، وأنك لم توجد لكي تعلم أو تدرك ما لم تكن مخلوقًا للعلم به أو إدراكه، ولأنه لا يوجد إنسان يستطيع إدراك الوحي بوسائل الحس المادية، فقد توقف العقلاء وحكماء المفكرين والفلاسفة حائرين عند مواجهتم لحقائق فوق قدراتهم البشرية، ولا يمكن التوصل إلى فك أسرارها دون تدخل من الوحي، لكن المسلمين وبسهولة توصلوا إلى أنه لا يمكن تفسير أسرار (الوجود) ونواميس هذا الكون إلا من خلال بوابة الإيمان بالله القوي القادر، وتصديق خبر السماء الواصل إلى الناس عن طريق الصّدّيقين الأنبياء، واعتبار ذلك هو المدخل، بل هو الأصل في التوصل إلى معرفة ما فشلت فيه المحاولات البشرية المتتابعة عن طريق الاستقراء والبرهان العقلي وحده من قبل آلاف المتميزين والأذكياء، الذين لم يتركوا فكرًا ولا وسيلة علمية إلا وسلكوها منذ خمس مئة عام قبل ميلاد المسيح عليه السلام وإلى يومنا هذا، فلم يصلوا إلى شيء سوى كم هائل من الاحتمالات والفرضيات التي يتقاذفها المعترضون عليها نقدًا في بعض الأحيان ورفضًا تامًّا في أحيان أخرى.

*****

الرسل وأمانة التبليغ

من أهم أسباب اضطراب الإيمان بالوحي أن يتصور الإنسان أمرًا عظيمًا وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] تصورًا قاصرًا، وكأنه مجرد تواصل بين طرفين متكافئين، كالتراسل البريدي والبرقي بين الأصدقاء أو حتى الاتصال بين أعظم ملوك البشر وأدنى الناس في مملكته، بينما كيفية تنزل الوحي أمر عظيم يفوق تصوراتنا ومداركنا، وعظمة الوحي وعلو مقامه يعكسه الدور المحدد لكل نبي مبلغ، إذ يقتصر دورهم على تلقيه بكيفيةٍ شاء الله ألا نعلمها، وتبليغه بلغة مفهومة بلسان قومه، ثم يقوم بتفعيله عمليًّا بإعطاء القدوة من سيرة النبي المبلغ الخائف المشفق من ربه.

والأنبياء هم الوسطاء المتفرغون تمامًا لهذه المهمة العظيمة والمؤتمنون عليها بين الله وخلقه، إنهم لا يحققون من وراء ذلك هدفًا سياسيًّا، ولا مكسبًا ماديًّا ولا موقعًا اعتباريًّا خاصًّا، قد توحد شعارهم على التوحيد الخالص لله والاستقامة إليه واستغفاره: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] فالرسل وإن كانوا سادة عباد الله إلا أنهم عبيد مخلصون لله، يأتمرون بأمره، وينتهون عند نهيه، أفنوا أعمارهم في التبليغ، أذلة على المؤمنين رحماء بينهم، أعزة على الكافرين أشداء عليهم، هكذا وصفهم القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

إنها مشيئة الله وقدره وقدرته أن خلق الناس ومن رحمته أنه أرسل إليهم رسلًا تترى، يقيمون أمور الناس في الدنيا الفانية كي تستقيم حياتهم الأبدية في الآخرة الباقية، لا يفكرون في مصالحهم الذاتية في الدنيا، فهل سمعت أن رسولًا قد أقام لنفسه مملكة أو إمبراطورية، وأورثها ذريته من بعده، كسروية كانت أم قيصرية؟ فالأنبياء كلهم من أدنى الناس بمعايير الدنيا المادية وزخرفها، منهم الحداد والنجار والصانع وراعي الغنم، وظيفتهم الأساسية هي التبليغ تحت مرأى ومسمع الوحي الذي يربيهم، ويوجههم، كما قال الله لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

*****

الرسل وجدال قومهم

بالتأمل المتعقل الهادئ، سندرك أن الله قد قدر لنا أسهل وسيلة لتلقي رسالته ووحيه باختيار الأفضل من البشر والإيحاء إليهم ليبغلوا قومهم بلسانهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤] فالمؤمنون بهم تلقوا الرسالات بالقبول والتسليم، بينما انبرت فئة رافضة للحق ليس إنكارًا له وإنما استكبارًا وعلوًّا وعتوًّا كبيرًا، فتقدموا بطلبات لا تنتهي، ولا ينتظرون تأويلها ولا تنفيذها، بل كانت لذات الجدل والعبث، فقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١] وتلك حالة لا يمكن وصفها إلا بما قال الله عنهم في ختام الآية: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١] وقالوا أيضًا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: ٨] فردّ عليهم القرآن، مستنكرًا عليهم كيف يطلبون الأشد لبسًا وتعقيدًا، وقد جاءهم بشر مثلهم بلسانهم: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

ولم يقف أهل الجدل عند هذا الحد، بل طلبوا أن تفجر لهم الأرض ينابيع، وأن يكون للنبي جنة فيها الماء يتفجر أيضًا، وأن يأتي لهم بالله ويأتي بالملائكة، أو يسقط عليهم السماء، أو يرقى في السماء، ثم قدموا تكذيبهم له قبل أن يفعل فيما لو فعل من منطلق تحديهم، فقالوا: لن نصدقك حتى تأتي بكتاب يثبت أنك صعدت إلى السماء! طلبات مفتوحة ليس الهدف تحقيقها، وإنما إشغال الموقف بالجدل، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣] فكان الجواب لهم هو الإعراض والاكتفاء بهذا الرد: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٣] إذ كيف يستغرب عاقل أن يرسل رب البشر إلى البشر بشرًا مثلهم، ثم يطلبون ملكًا من غير جنسهم؟ فلو كان أهل الأرض ملائكة يمشون عليها كما يمشي الناس، لكان رسولهم ملكًا من جنسهم أيضًا، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٥].

لِمَ كل هذا الجدل والحيرة من أمر الوحي؟ كان يكفيهم استحضار حقيقة أن الأمر كله لله، فهو الذي يصطفي من الناس رسلًا، وجميعهم مثلنا بشر لم يكن أحد منهم ليعلم أنه سيكون رسولًا أو نبيًّا عند ولادته حتى يأتيه الوحي في مراحل متأخرة، فيما عدا عيسى عليه السلام أن تكلم وهو في المهد، وتلك معجزة استثنائية من معجزات الكون التي لا تخضع لقانون ولا منطق دنيوي أن يتكلم المولود في يوم ولادته، أما ما سوى ذلك فبشرية الرسل قائمة قبل الوحي وبعده، فرجل مثل محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، الذي عرف بهذا الاسم قد بلغ الأربعين من عمره دون أن يعلم أنه سيكون محمدًا رسول الله ﷺ ، والوحي لما نزل عليه لم يكن إشعارًا ولا محاورةً ولا إخبارًا، بل كان تنزيلًا وتكليفًا عظيمًا، خاف من الموقف المفاجئ في أول الأمر، فهرع إلى بيته يقول: **دثروني زملوني،** هذا هو الوحي الذي أول من خضع له هو النبي نفسه؛ كي يقتدي به أتباعه ومن بعدهم، فيخضعون جميعًا لله الواحد القهار، فيصطفّون خلف نبيهم متوجهين إلى الله الذي يقول لرسوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

*****

مغالطات المشككين في الوحي

من طبيعة الإنسان السليم أن يتلقى الخبر بالتصديق أو التكذيب أو التوقف بحسب الأدلة والبراهين والمنطق السليم، ولكن أن يكون الإنسان متوترًا من كل ما هو وحي، فيجعل الأصل نفيه إلا أن يثبت له وفق أدلة تعجيزية يفرضها، ويرفض نتيجتها مقدمًا، فهذا خلل في ميزان تصحيح الأخبار وقبولها، لقد أخبرنا الله عن نوع غريب من البشر ليسوا باحثين عن حق ولا متلمسين لحقيقة بل هم جاهزون لرفض كل حجة وبرهان حتى لو مكنهم الله من الصعود إلى السماء، وفتح لهم بابًا فيه إلى ما وراءه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥] فلا تنتظر من هؤلاء موقفًا منصفًا من خبر السماء، وكن واثقًا مطمئنًا بالحق الذي تحمله، ولا تكترث بما قد تسمع من وجود من

يشكون ويشككون في الرسالات عن سبق إصرار بالرفض، وخاصة بنبوة محمد ﷺ، أو بثبوت القرآن ممن يطلقون على أنفسهم مفكرين أو مستشرقين أو علماء حضارات.

يجب أن تحترم أيها الإنسان، عقلك قبل أن تطلب من الآخرين ذلك، حافظ على كيانك ومقامك وشخصيتك المعتبرة، فاختر لنفسك الموقف والقناعة المنسجمة مع طمأنينتك دون الالتفات إلى الآخرين، لا تكن إمّعة يستخف بك كل ساقط ولاقط، عليك أن تفعّل عقلك الذي وهبك الله، ففكر به وتأمل جيدًا، ولو فتشت عن حجج هؤلاء المشككين لما وجدت معهم شيئًا يستحق الاهتمام سوى النفي بلا برهان، إننا نعرف القرآن جيدًا، ونعرف إعجازه، ونعرف النبي الذي أنزل عليه القرآن، ونعرف صدقه، فهل يريد المشككون أن يخبرونا عن (محمد) الطبيب وعالم الوراثة، وقد حرم القرآن الزواج من أقرب الأقارب الأم والبنت والأخت والعمة والخالة، متطابقًا مع ما توصل إليه العلم الحديث من خطورة ظهورالأمراض الوراثية من زواج الأقارب، التي تختفي تمامًا مع الابتعاد عن الأقارب، وتظهر اليوم بنسبة أكبر من أقرب نقطة مباحة، أي زواج بنت العم الواقفة على الحد الفاصل وراثيًّا! ولا يعني هذا ربط النص بالعلم مطلقًا، بل الأصل الرجوع إلى النص عند التعارض لأنه أبقى بينما العلم يتغير؟! وما المؤهلات العلمية التي - بحسب زعمهم - جعلت (محمدًا) يخاطبنا بهذا النص المرصوص رصًّا لفظًا ومعنى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] إن لم يكن ذلك وحيًا منزلًا من ربه ﷻ؟!

هل يريد المشككون أن يحدثونا عن (محمد) الاقتصادي والقانوني، عندما نجد في القانون التجاري الحديث أن الأعمال التجارية تثبت بجميع طرق الإثبات من إقرار وشهادة وقرائن ومحررات عرفية أو رسمية ودفاتر تجارية، ولا يشترط فيها الكتابة لحاجة الناس إلى المرونة بالتعامل السريع بالرضا والثقة، مقارنة بالأعمال المدنية التي توجب

القوانين كتابتها، لقد نزل الوحي قبل مئات السنين من سن هذا القانون العالمي، يلزم الناس بإثبات القضايا المدنية كالدين بالكتابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] بينما يكون أكثر مرونة في الأعمال التجارية، فيعفيهم من الكتابة حتى لا تتعطل التجارة السريعة، فيتعثر الاقتصاد: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أليست هذه قواعد عامة ونصوصًا في القانون المدني والقانون التجاري العالمي اليوم يحدثنا عنها القرآن قبل أن يتقدم من يُسمَّى اليوم العالم المتقدم، وقبل أن يعرف الناس الفرق بين القانون المدني والقانون التجاري؟!

هل يريد المشككون أن يحدثونا عن محمد الفلكي، عندما يجتمع أشهر علماء الفلك يحاولون تفسير نشوء الكون، فلا يصلون إلى أكثر من نظرية الانفجار العظيم التي افترضوا فيها أن الكون يتمدد منذ انفجاره الأول منبسطًا كأنه صحيفة، وأن تمدده سيصل إلى نهايته، ثم يبدأ ينكمش مرة ثانية، فينتهي العالم إلى نقطة البداية، وقد يكون القرآن سابقًا في توضيح هذه النظرية أكثر مما توصلوا إليه، وذلك قبل ولادة هؤلاء العلماء وولادة آبائهم وآباء آبائهم لعشرين جيلًا أو أكثر والوحي يتنزل وفيه: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] علمًا أننا لا نجزم بمطابقة هذه النظرية ولا أي نظرية علمية مستحدثة لنص قرآني محكم، فالنص ثابت راسخ مع الزمن، والعلم يتجدد ويستدرك عليه، وهذه الظاهرة الكونية قد تكون متوافقة إلى حد كبير مع مفهوم النصوص حتى الآن، والله تعالى وحده الأعلم.

وهل يريد المشككون أيضًا أن يقنعوا ذوي العقول السليمة، وهم يرون البشرية جمعاء تتنافس لتخترع الساعة بحجمها الصغير جدًّا، وتتصارع كبرى الشركات العالمية للوصول إلى أكثر الساعات دقة وصلاحًا، ومع ذلك إخفاق متواصل بدليل وجود ملايين محالّ الصيانة والضمان للساعات، وأعمار أرقى وأحكم ساعاتهم المبتكرة أقصر بكثير من عمر الإنسان القصير أصلًا، بينما القرآن المنزل على محمد الأمي يخبرنا عن حركة هذه الأجرام السماوية الهائلة المنتجة للزمان بدقة متناهية بحركتها ودورانها،

فالأرض تدور حول نفسها بساعة زمنية في غاية الدقة، ولا يرد فيها الخلل مطلقًا على الرغم من ضخامتها الهائلة، بل الشمس والنجوم والمجرات الأضخم منها بكثير تسير هي الأخرى في مسارات زمنية لا تتقدم، ولا تتأخر أبدًا، كلها تجري حولنا بحسبان دقيق لا تتقدم جزءًا من الثانية، ولا تتأخر، وكل هذا يحدث في الوجود بلا متابعة ولا ضمان ولا صيانة، وهذا خبر حق بلغه لنا النبي محمد عليه الصلاة والسلام، عندما تلا علينا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥].

ليعلم المشككون في الوحي أننا نتحدث عن أمر تتصاغر أمامه كل الموجودات والأفكار والخيالات، ومقامه أعلى شأنًا من مقام النبوة، بل النبي نفسه محتاج إلى الوحي وإلى التثبيت بالوحي أكثر من غيره، شاء الله تعالى بحكمته البالغة أن يكون سيد الأولين والآخرين أميًّا لا يعلم شيئًا من المعارف المتميزة قبل النبوة، فلا علم له بالتاريخ، ولم يسمع بقصص من كان قبله، ولا علم له بالجغرافيا والمحيطات وظلماتها والقارات ومتاهاتها، ولا الرحلات الاستكشافية والإبحار، والتجارب العلمية، ولم يكن شاعرًا ولا كاهنًا، فأوحى الله إليه من الأخبار والحقائق والنصوص والبلاغة ما شاء سبحانه، وقصّ عليه من القصص ما يثبت به فؤاده، وما لم تكن معروفة عنده ولا عند قومه قبل الوحي، بل لم تكن معلومة عند أهل الكتاب في حينه.

قص الوحي عليه قصة أبناء يعقوب الأحد عشر الذين اجتمعوا ليمكروا بأخيهم النبي يوسف عليه السلام، ثم قال لرسوله في ختامها ممتنًّا عليه بهذ الخبر: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وقص عليه قصة موسى مع صاحب مدين، وما حصل من سقيا البنتين ثم زواجه من إحداهما التي جاءته تمشي على استحياء لتقول له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: ٢٥] فمكث في أهل مدين، ثم ما حدث له بعد أن سار بأهله، ورأى نارًا في الوادي ليجد عندها النداء والوحي من جانب الطور إلى نهاية القصة، ليخاطب الله النبي ﷺ في ختامها بهذه الآيات التي تقشعرّ منها جلود المؤمنين إعجابًا وإكبارًا وإيمانًا واستسلامًا: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ

مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٤- ٤٦]. ثم قص عليه قصص آل عمران وخلافهم حول مريم ومن يكفلها، وقال له بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] وهكذا كلما أخبره الله بغيب لم يكن معلومًا عند البشر جميعًا كان ذلك منّة من الله تعالى ليس عليه فحسب بل عليه وعلى قومه، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]. فيا أهل العقول والحِجا، كيف مع هذا السياق الباهر لكل عقل يكون القرآن من تأليف محمد كما يزعم الأفّاكون المفترون من مشككين ومستشرقين؟ أما نحن فنقول: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، والمنّة من الله علينا، أن هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا سبحانه.

*****

المشككون وصخرة العقل!

رفقًا بعقولنا وأفهامنا وآدميتنا يا أيها العابثون بالحقائق الغيبية، لم يكن في مكة جامعات علمية ولا مراكز بحوث فلكية أو جغرافية ولا مراكز طبية عندما نزل الوحي فيها، فمن أين أتيتم بشبهاتكم المزيفة؟ أمثلة كثيرة يستحيل حصرها تدحض كل شبهة تشكيك في الوحي والنبوة، يستحيل معها أن يكون (محمد) الأمي مصدرًا لتلك المعلومات الكونية والأخبار والأنباء التي بهرت العالم اليوم من تلقاء نفسه دون تدخل الوحي مباشرة، حقيقة مدوية رغمًا عن أنف كل مكابر وحاقد بعدما يزيد على ألف وأربع مئة عام، ولا تزال النبوة معجزة معلوماتية وعلمية يقف لها إجلالًا كل عاقل مستبصر، وربي، إننا بوصفنا مسلمين مع كثرة استهدافنا من سهام الأعداء أصبحنا نبالغ في التنزل للخصم في الجدال بلا حدود ولا ضرورة أحيانًا، وما ذاك عن حاجة إليهم ولا زهدًا منا بأغلى ما نعتقده من دين عظيم عليه نحيا وعليه نرجو أن نموت،

وإنما طمعًا في هداية هؤلاء الضالين ونجاتهم لأنفسهم، وأما من هداه الله منا للحق فلن يضره بعد هداية الله له ضلال الضالين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فتوكل على الله يا عبدالله، واعلم أنك على الحق المبين، وعليك بنفسك أولًا، ثق بربك وبدينك، بل ثق بعقلك الراشد، ولا تلتفت إلى ما يثيره المستشرقون والمشككون حول أصول ديننا وثوابته ومقام ربنا ونبينا وقرآننا، لقد قال آباؤهم من قبل بكل غطرسة وصدود: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فإذا علمت بهدف مشروعهم ابتداء وهو التشكيك واللغو والبلبة، فلا يستخفنونك، واصبر لوعد الله الحق، وانتظر: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وواصل السعي الحثيث إليه، مستأنسًا بحال الرسول ﷺ الذي ما فتئ قومه يثبطونه باتهامهم له بالكهانة والجنون، فجاءته المؤازرة والدعم القوي من القوي العزيز ليمضي قدمًا في رسالته، ولا يتلفت لأحد من المخذلين: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

ثم تذكر أيضًا أن من عقلاء المستشرقين من جاؤوا ليشككوا المسلمين في دينهم، فلما وصلوا إلى صفاء المنبع، اصطدمت عقولهم بالحق، وأظهر الله لهم دينه على الدين كله، وما كان أمامهم إلا أن يسلموا ويحسن إسلامهم(١)، وهذه نتيجة طبيعية لذي العقل السليم إذا واجه نصوص الوحي وحقائقه التي تطابق عقله السوي وفطرته، وذلك هو دافع الدمع الذي سال من أعين القسيسين والرهبان الذين سمعوا الوحي من محمد ﷺ، فعرفوا أنه الحق، فآمنوا، وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين على هذا الحق الذي وجدوه، فأثنى عليهم القرآن بآيات تتلى إلى يوم

---

(١) هناك عدد كبير من المستشرقين الذين قادهم البحث إلى الحق مثل المستشرق السويسري (جون لويس بوركهارت) الذي اعتنق الإسلام عام ١٨٠٩م وغير اسمه إلى إبراهيم والمستشرق الفرنسي (الفونس دينيه) الذي أسلم في الجزائر عام ١٩٢٧م وتسمى بناصر الدين وحفر قبره بنفسه في الجزائر وأوصى بدفنه فيه في أي مكان أدركه الموت فنقل من باريس إلى مقبرة الجزائر و(ليبولد وايس) الذي أسلم أواخر القرن التاسع عشر وغير اسمه إلى (محمد أسد) الذي أثرى مكتبة المسلمين بكتب قيمة في مقدمتها كتابه الشهير (الطريق إلى مكة) وغيرهم.

القيامة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢- ٨٣].

*****

أرقى مشروع تربوي

لو أن جميع علماء التربية في العالم وعبر التاريخ اجتمعوا، فألفوا كتابًا تربويًّا متميزًا، وبقي هذا الكتاب مئة سنة وهو مرجع لكل معلم دون أي تعديل عليه، كيف سيكون مقام ذلك الكتاب في نفوس الناس؟ فما بالك إذًا بكلام خالق كل شيء بمن فيه هؤلاء التربويون وعقولهم التي فكروا، وألفوا بها كتابهم، كيف سيكون مقام كتابه هو وكلامه ﷻ في نفوس الناس الأسوياء، والحقيقة أن المقارنة هنا لا تجوز ولا تقبل؛ لأنه لا أقوم من هذا القرآن ولا أسمى منه هداية، ومن أعظم نعم الله على الإنسان بعد خلقه أن تواصل معه مباشرة بالوحي عبر الأنبياء وبالأخلاق العظيمة للأنبياء وفي مقدمتهم محمد بن عبدالله ﷺ، الذي كان خلقه ترجمة عملية للقرآن (كان خلقه القرآن)، ومن أجمل ما يرد في الخطاب القرآني أنه لم يكن صادمًا ولا مفاجئًا ولا متعارضًا مع الفطرة البشرية، بل راعى جزءًا كبيرًا من تدرج عادات الناس، ومن ثم أخذ بأيديهم في غاية الرفق والشفقة، إلى التي هي أحسن من القول والعمل، ولو تأملنا منهجية الخطاب القرآني في بناء الإيمان ابتداء ثم العمل بحسب طبيعة مرحلة التوجيه، لوجدناه يمر بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى، يبدأ الوحي بتوجيه الخطاب العام إلى عموم الناس، فيدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده بالعبادة أولًا، وهذه مرحلة تأسيسية في غاية الأهمية لما بعدها، إذ لا فائدة من أي خطاب آخر تكليفي أو تشريعي حتى لو ترتب عليه أعمال كالجبال ما لم يتم الاستجابة للخطاب الأول، ولذلك تتكرر الآيات الكريمات التي تخاطب

الناس بالإيمان قبل العمل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] لأن العمل بلا إيمان مصيره البوار والخسارة: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فالإيمان أولًا، وهو الأصل العظيم بل أصل الأصول كلها في فهم الوجود وتفسير مآلاته ومنه ينطلق العمل والتكليف والنجاة في الدارين، وهذا من أهم أسباب التركيز عليه وتكرار التذكير به في جميع فصول هذا الكتاب.

المرحلة الثانية، خطاب التثبيت ورعاية النبتة الإيمانية الأولى وترسيخ قواعدها وتحصينها من الشرك والكفر والشك والإلحاد، وهذه جرعة تحصين وقائية ضرورية جدًّا، ومن شواهد أهميتها أن الرسل أنفسهم على الرغم من علو مقامهم الإيماني واصطفائهم الرباني، احتاجوا إلى هذا التذكير والتثبيت والتوجيه، وهذا الخطاب لا يمكن أن يسبق خطاب حسم مسألة الإيمان الأساسي بالوجود والغيبيات، سواء أكان ذلك في الدنيا (الرسل والوحي والمعجزات)، أو في الآخرة (عذاب القبر ونعيمه والبعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ورؤية الله ﷻ)، ولعلك تدرك أخي القارئ الكريم، أن موضوع هذا الكتاب يدور حول هذه المرحلة، وهي رعاية هذا الإيمان الموجود أصلًا وتحصينه من الوساوس والملوثات الفكرية.

المرحلة الثالثة، على أساس ذلك الإيمان الراسخ والمحصن من الأخطار والشكوك يصدر بعد ذلك خطاب التكليف بالعبادات والشعائر والمعاملات ونظام الحياة ما يقتضي توجيه الخطاب الى المؤهلين لسماعه والأخذ به ممن هم في قمة التهيئة الإيمانية والفكرية والعقائدية والثقة بالله الذي ينتظرون لقاءه، انتظارًا يقينيًّا لا شائبة فيه ولا شك، بإيمان راسخ يجعلهم يتلقفون كل أمر، ويسارعون في تطبيقه، ويستبشرون به، دون أن يجدوا في أنفسهم أي حرج منه، ويحذرون من كل ما لا يرضيه فيجتنبونه، وهذا سيكون نعيمًا ممتعًا عند من وفقه ربه، فتدرج وفق هذه المراحل، التي ستجعل إيمانه راسخًا رسوخ الجبال الشامخات بفضل الله.

ومع أنه يرِد الفتور في العبادات بين الناس إلا أن أي خلل في المرحلتين الأوليين سيضاعف هذا البرود والثقل، بينما تكون العبادات لذيذة وجزءًا من سعادة الدنيا قبل الآخرة عند المؤمن الذي يرجو لقاء ربه موقنًا بذلك، قال تعالى: ﴿**وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**﴾ [البقرة: ٤٥- ٤٦] إن السر العظيم في الشوق إلى الطاعات هو هذا الخشوع المشار إليه في الآية، وهو سبب قول الحبيب ﷺ: «**يا بلالُ، أقمِ الصلاةَ، أرِحْنا بها**»[(١)].

*****

(١) الحديث رواه أبوداود (٤٩٨٥) وصححه الألباني عن سالم بن أبي الجعد أن النبي ﷺ قال: «**يا بلالُ، أقمِ الصلاةَ، أرِحْنا بها**».

الفصل الثالث عشر

المعجزة الكبرى: القرآن الكريم



المعجزة الكبرى: القرآن الكريم

القرآن كلام الله وحسبك بهذا شرفًا، قليل منا من ينتبه إلى عظمة وجود كلام الخالق معنا على كوكبنا، أخي القارئ، إن كل ما يوجد حولك في هذه الحياة عبارة عن مخلوقات مثلك حتى السماوات والأرض ومن فيهن، إلا هذا القرآن الذي تراه في رفوف المساجد والمكتبات، إنه قراطيس وجلود تحوي كلام الخالق: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨] كلام الخالق بين أيدينا! هل أدركنا هذا الفضل حق الإدراك؟ وهناك أمر آخر، كل كتاب في هذه الدنيا يستهله المؤلف بالشعور بالحرج والخوف من الوقوع في الخطأ، فتراه يذكّر القارئ بأنه اجتهاد متواضع يعتريه الخطأ والصواب، وكأنه يقدم اعتذارًا مسبقًا عن أخطاء متوقعة، واستدراكات مبررة، بينما القرآن العظيم وفي ثاني آية في أول سورة بعد الفاتحة يقول الله عنه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أجل! إنه كتاب كريم عالٍ لا يضاهيه شيء في الأرض ولا في السماء، إنه كلام الله، ونحن أمام أمر عظيم جدًّا، أليس كذلك؟

لقد أوحى الله إلى كل نبي ورسول بعثه إلى قومه بلسانهم ليبين لهم، وأنزل الله على بعض الرسل كتبًا سماوية، منها التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم، لكن من أعظم ما جاء به الوحي للناس كافة على مر التاريخ كله هو هذا القرآن العظيم الذي ختم الله به الرسالات، كلام الله المحفوظ والموجود في متناولنا، إنه (القرآن) الذي نزل للناس كافة في أرقى عبارات البلاغة اللغوية العربية، لم يجرؤ أحد على النيل منه أو الطعن فيه علميًّا ولفظيًّا، أو تغيير حرف من حروفه منذ أن أجمعت الأمة عليه بعد النبي ﷺ، كل كتاب ألفه أعظم مؤلف لا يمكن أن يمضي عليه عشرات السنين على حد أقصى دون نقد وتمحيص وإعادة تحقيق وتدقيق وربما تغيير لفكرته، وهذا القرآن كان ولايزال شامخًا، وسيظل كذلك إلى الأبد: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢].

وبهذا يكون بحق أعظم معجزة جاء بها نبي، إنه كلام الله ومقامه فوق رؤوسنا جميعًا مؤمنين به مستسلمين تسليمًا لا يخالطه شك ولا ريب ولا حرج، دون أن نخوض

في كيفية تسلسل نزوله من الله إلى أن أصبح بين يدينا كتابًا مقدسًا محفوظًا إلى الأبد، لن نجد تسلسلًا في رواية أعظم ولا أصدق ولا أوثق من أن يتكلم أصدق القائلين ﷻ ومن أصدق من الله حديثًا؟ ثم ينقله لنا الروح الأمين جبريل عليه السلام إلى قلب الصادق المصدوق ﷺ، فيتلوه علينا، فمن لم يقبل هذا الخبر فلن يقبل خبرًا على الإطلاق، ومن كان صادقًا في تحري وتلمس كل ما يزيد إيمانه به، فسيجد الكثير مما يستوقفه من آياته البينات، وسيدرك من خلاله أن أمر الوحي والقرآن أعلى شأنًا من مقام البشر وتصوراتهم ومداركهم وأحاسيسهم بمن فيهم الأنبياء عليهم السلام.

بالحد الأدنى من التأمل المنصف، ستقف بعقلك المتوازن مقتنعًا بأن القرآن من عند الله، وليس من عند أحد من البشر، لن تقبل أبدًا بشبهة أنه من تأليف (محمد) وأنت تقرأ هذا التوجيه القرآني والتنبيه بل والاستدراك المباشر من الله تعالى على سيد البشر، بل والعتاب الصريح أحيانًا، قال تعالى لنبيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] وقال: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣] وقال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧] وقال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] بل إن الأمر وصل إلى أبعد من ذلك، حين قال له: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فكيف والحال هذه، يزعم بعض المستشرقين، وحفنة من المشككين أن القرآن من تأليف (محمد)؟ إلا أن يكون ذلك جحودًا منهم بعد أن استيقنته أنفسهم، فاتخذوا هذا الموقف ظلمًا وعلوًّا فاستحقوا أن يصفهم القرآن الكريم بصفة الإفساد: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] ولسنا في حاجة إلى الدخول في أنفاق جدال لا ينتهي مع هؤلاء، إلا تنزلًا وبالتي هي أحسن لتبرئة الذمة في البيان، وعليه فإننا نتحداهم بالحق أن يثبتوا لنا على مر تاريخ البشرية أن مؤلفًا واحدًا سطر في كتابه الخاص استداركًا وتوبيخًا لنفسه مثل ما ورد في القرآن من عتاب إلهي على محمد ﷺ، وبكلمات من قداستها أن جعلها الله قرآنًا يتلى بالأجر

المضاعف للناس إلى قيام الساعة، وما كان هذا ليكون في حق سيد البشر لولا أن القرآن كتاب الله وكلامه الحق، إنه القرآن الحق المبين على الرغم من أنف كل مفترٍ وكافر به، ولا يعيب مقامه الأعلى كفر من كفروا به إذا كفروا، فلنعرض عنهم، كما أعرض القرآن عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢].

*****

التنزل القرآني في الجدال

التنزل في الجدال هو أن تنزل إلى أدنى مستويات مقدمات الخصم، على أمل الصعود به من خلالها إلى حيث النتيجة التي يراد الوصول إليها، دون تنازل عن الحقيقة المجردة المراد توضيحها، وعادة ما يبدأ التنزل بعبارة (نفترض جدلًا...)، (هب أن...)، (على فرض أن....)، (هذا من باب التنزل....) ونحو ذلك، وعندما يحدث التنزل من أحد الطرفين المتكافئين يُعدّ ذلك أدبًا ورقيًّا في الخلاف بينهما، أما أن يتنزل الأقوى والأقدر للأضعف لتبصيره بالحق فهذا كرم وتفضل ورحمة ولطف، وهذا الذي نجده واضحًا جليًّا في التنزل القرآني، فيا أيها الإنسان، أرأيت كيف فتح الله عليك أبواب رحمته ولطفه بأن يداريك بالقرآن فضلًا منه ونعمة لإنقاذك لو أردت ذلك باختيارك! ثم وهبك حرية الاختيار واتخاذ القرار، فاخترت مختارًا طريقًا لن ينفع أو يضر إلا نفسك، أفلا تكون بعد هذا عبدًا شكورًا لمن خلقك فسواك فعدلك وأعطاك البصر والبصيرة والعقل وبين لك طريق النجاة ويسره لك ووعدك بالجزاء الأوفى إذا سلكته؟ قل لي بربك: ما المغريات البديلة التي تجعلك تعدل عنه إلى طريق قد أخبرك خالقك قبل أن تسلكه بأنه الهلاك الساحق الماحق؟

وأما القرآن من حيث هو كلام الله فهو حق مبين، قائم بذاته، لا يثبته كثرة المؤمنين به، ولا ينتفي بكفر الكافرين به، هو كلام الخالق، ولا قيمة ولا اعتبار لأي (عتمة) فكرية داخلية قد يحس بها بعض الناس من ذوي الاطلاع الثقافي المحدود، عندما

نتحدث عن عظمة كتاب الله، بحيث يشعر من داخل نفسه، وكأننا نتكلف له الكلام دعايةً، ونبالغ في العبارات لتسويق شيء لربما يظن بعض الناس أنه أدنى مما نصفه به، والحقيقة أنه ليس كما نصفه به فحسب، بل هو أعظم بكثير مما نستطيع وصفه بعقولنا ومداركنا، يكفي عجبًا وانبهارًا أن يكون بين الخلق كلام الخالق، مسطورًا في صفحات، ميسرًا للقراء يقرؤونه ويتدارسونه، فهذا أمر في غاية التكريم منه ﷻ للإنسان، انظر كيف أصبح وجود القرآن بيننا وكأنه منزل لنا وحدنا، يستنبط منه كل جيل ما يريده من الكنوز المعرفية، فالأجيال متعاقبة متقطعة والحضارات متغيرة، والقرآن راسخ يزود كل جيل بما يحتاجون إليه، ويدخر لمن بعدهم ما سيحتاجون إليه مما لا نعلمه بعد، هو كذلك لأنه من عند الله، ولو كان من عند غيره لما كان هكذا، لكن هذه الحقائق يتوصل إليها بالتدبر العميق، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

حتى مع إيماننا بالقرآن، فإن لدينا قصورًا شديدًا عن إدراك جميع ما في القرآن من عظائم ومعجزات نصية ثابتة باقية شامخة، ولاستحالة الإحاطة بهذه العظمة، فإنه يستحيل ترسيخها بالتلقين البارد، والمواعظ السطحية العادية، وإنما بتوجيه العقول بتركيز شديد إلى أعماق أعماقها لإدراك أقصى ما يمكن إدراكه منها من خلال الوقوف على نماذج من النصوص العظيمة التي يستحيل أن يكون مصدرها فرد عربي أمي لا يقرأ، ولا يكتب.

إذا استحضرت عقلك متأملًا بعمق، فسوف تقف وقفة إجلال وتعظيم لكتاب نزل في بيئة بسيطة وخاطبها بمنطقها البسيط، فأوصلها إلى إيمان يزن الجبال، وهو إيمان الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وادخر نصوصًا مكتنزة بالمعاني الأخرى، مفعمة بالتحدي لمراحل قادمة جاءت بعد مئات السنين من نزوله لتكون متصدرة في كل جدال وحوار، ففي الوقت الذي خاطب العربي الفطري البسيط الذي لا يعاني مشكلات منطقية، ولا أزمات فلسفية بأن حذره من نار تلظى بعد أن بشره بجنات تجري من تحتها الأنهار، عن طريق آيات ميسرة معلومة ومفهومة للجميع، كقوله تعالي في وصف الجنة: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ

مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] تجده أيضًا يدخر نصوصًا أخرى مكتنزة بالمعاني للجدليين قبل وجودهم، وبمقدمات حاسمة لنتائج منطقية، مثل هذه الآية العظيمة: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] التي أنزلها الله على قوم كانوا لا يعانون أي أزمة إلحاد، بل يقرون بالرب الخالق، إذ وصفهم الله بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥] بل ويعظمونه في الإجابة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩] لكن لأن القرآن كتاب علام الغيوب المطلع على كل شيء، فهو بعلمه المسبق يقدم لعباده خطابًا ضروريًّا للقرون القادمة التي تتعطش إلى مثل هذا النص المحيط بكل أطياف المعرفة لمواجهة موجة علم الكلام القادمة من حضارات مجاورة بعد أن ترجمت كتب المنطق، وتداولها المسلمون، وكاد بعضهم يهلك بسببها لولا أن القرآن أنقذه.

*****

صور من التنزل القرآني

لا بد من الإشارة هنا إلى بعض نماذج التنزل في الخطاب القرآني، وهو يدعو أهل الضلال إلى الهداية، إذ إن هذا النوع من الخطاب يعكس أقصى درجات المصداقية والثقة بالمخاطِب، مع الاستغناء عن المخاطَب، إنها رحمة الله الواسعة لهداية الحيارى إلى صراطه الحق المبين، وسنكتفي بذكر ثلاث صور:

الصورة الأولى

لا يختلف اثنان من الأولين والآخرين، المؤمنين و(الملحدين) وحتى من يسمون (باللاأدريين)، على أن وراء هذا الكون العجيب موجدًا قويًّا جبارًا قادرًا خالقًا لكل شيء فيه، وله من الصفات الكمالية ما لا توجد في أي جزئية كونية من حياة وشجر وحجر وهواء وماء وضوء، أليس كذلك؟ إنهم يختلفون فقط حول من يكون هذا القوي، تأمل

هذه المسألة جيدًا، وحررها تحريرًا كاملًا بعقلك، تجدها حقيقة عند الجميع بلا استثناء؛ لأنها مسلمة جدلية ومقدمة منطقية ضرورية يجب حسمها بوضوح، قبل الانتقال إلى ما يترتب عليها من نتائج، إذًا الحقيقة المطلقة أننا نتحدث عن وجود (خالق) و(قادر) و(رب) و(مالك) و(جبار) و(عظيم)، حتى لو لم نحدد من هو هذا الرب تنزلًا منا مع المخالف في أول مقدماتنا المنطقية للحوار معه، (ولا شك عند المؤمنين بأنه الله ﷻ)، ولننتقل الآن إلى عظمة القرآن في التنزل المدهش في هذه المسألة، فهناك خطابان: الأول لمن حسموا هذا الأمر ممن استقر في قلوبهم الإيمان، فيخاطبهم القرآن مباشرة بذلك؛ لأنه لا إشكالية لديهم في هذا الأمر، فيقول لهم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢] فيؤمنون، ويصدقون، ويخرّون للأذقان سجدًا.

والخطاب الثاني موجه لمن هم دونهم في اليقين من المترددين المرتبكين التائهين، فيلقي إليهم طوق النجاة بكل لطف وتحبب وتودد ليقربهم من الحقيقة، فأورده لهم في سياق هذا القسم العظيم بالعظيم الذي لا يختلفون على عظمته وقدرته، وإن جهلوا ذاته، لكنهم لا يختلفون عليه، فلم يقسم بـ (الله)! حتى لا تقفل العقول المضطربة المختلفة عليه، وتنصرف الأذهان شكًّا وإعراضًا وترددًا، بل جاء القسم برب السماء والأرض يعني أحاط القسم بالكون، وأقسم بربه المعترف به من الجميع، وهذا القسم بجواب أيضًا يقرر الحقيقة، ويربطها بالنطق البشري وإحداث هذه الأصوات والمفاهمات بيننا، تقريرًا للحق بأنه الحقيقة التي لا يسع العاقل إلا الإيمان بها، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] ثم أوردها بالقسم الآخر الذي وإن كان فيه تنزل أيضًا، إلا أنه لم يترك شيئًا معلومًا أو مجهولًا إلا وقد حواه ليقرر صدق هذا الوحي وضرورة قبوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٣٨- ٤٠].

ماذا سيقول من لا يؤمن بالوجود، بل حتى (الملاحدة) أنفسهم عن هذا القسم؟ الذي جاء بالعظيم الذي يقف وراء هذه العظمة الوجودية، ثم تكررت الصورة أيضًا

لما أقسم على أنه سيتم حشر الناس وحشر الشياطين، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] وقبل أن يقرر القرآن أن الخالق هو الله بدأ بتوجيه العقل إلى أعظم موجودات يحسها الإنسان في حياته اليومية، وهي الأرض والشمس والقمر، وشدد على أنها آيات لخالقهن: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] وبعد أن لفت الأنظار إليها، وهي العظيمة الباهرة بذاتها، أمر أمرًا لا يسع الإنسان السوي إلا الامتثال له، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧] أرأيت كيف قرن مشروعية السجود ببرهان قوة الخالق لهذه الأجرام العظيمة، وليس لها، ثم ذكّر بأنه الله، ونسب إليه خلقهن استمالةً للقلب النافر الشارد.

كل هذا التودد مع أن الفطرة والوحي والمنطق السوي كلها تؤكد أن الله وحده هو الذي خلقهن، إنه غاية التنزل والرحمة على العباد من اللطيف الخبير الذي وصل بخطاب القرآن إلى أدنى ما يمكن أن يقبل به الإنسان، فيا أيها الإنسان، انظر كيف دعاك الخالق ابتداء للإيمان به، ثم دعاك بعدها للسجود لمن خلقهن؟! بالله عليك ألا يستحق الذي خلقك، وخلقهن، وخلق كل شيء، فقدره تقديرًا أن تسجد له أنت وجميع المخلوقات التي امتن عليها بوجود بعد عدم؟ وخاصة أنك إنما تقضي هذه الحياة القصيرة الفانية، تسجد له لا لتنفعه بالسجود أو تضره بالجحود، ولكن تعظيمًا له وطاعة لأمره وطمعًا فيما عنده؛ لكي تنقذ نفسك أنت مستقبلًا مما قدره من الأقدار التي لا ينجيك منها سواه! وإن لم تسجد، فما أنت بضار إلا نفسك، وأما رب العالمين فجميع الخلق يسجدون له وهو ليس غنيًّا عنك فحسب بل غني عنهم وعن سجودهم، ولكنهم يسبحونه، وله يسجدون: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨] إنها آية! تأملها جيدًا، ثم تصرف لنفسك، فارحمها رحمك الله!

*****

الصورة الثانية

الخطاب القرآني ينطلق بالإنسان من تصوراته المدركة عن نفسه، فيوصله إلى زاوية الإيمان بالغيب، إذ لا يمكن للإنسان أن يشك في وجوده ماديًّا وروحيًّا، بدليل أنه يخدم مصالحه، ويلبي أنانيته ورغباته مباشرة عندما يشتهي، ويحتاج إلى شيء ما، فإنه لا يأبه بأي قانون ولا نظام ولا منطق إلا بمنطق القوة التي ترغمه أو يرغم غيره على الانضباط وفق خيار الأقوى، فهو لا يتوقف عند حكمة العقل أو تدرج المنطق أو مخرجات مدارس الفلسفة أو الفقه أو الدين أو غير ذلك من أدوات وقضايا النقاش التي يقتلها حوارًا وثرثرة وجدالًا فقط حينما يشبع ويأمن على نفسه وينعم بالسراء والصحة والفراغ مسترخيًا متسكعًا في فراغ الوجود، أما عند الضراء أو المرض أو الفقر أو الخوف أو الجوع أو العطش، فإنه (يكفر) بكل هذه (الهرطقة الفلسفية!) ويبحث عن المنتجات العملية المباشرة التي توفر له الأمن من الخوف، والغنى من الفقر، والصحة من المرض، والأكل من الجوع، والشرب من العطش.

ولأهمية هذا التصور نجد أن القرآن ينطلق بالعقل البشري من صورة وجود الإنسان عند نفسه ليصل به إلى موجد هذا الكون وجميع ما فيه، بمن فيهم الإنسان نفسه، لقد طرح القرآن سؤالًا تقريريًّا يلجم كل مجادل عنيد عن الخالق، قال تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦] قف قليلًا هنا، ستعلم علم اليقين أنه يمتنع أن يأتي الإنسان إلى هذا الوجود من دون خالق! ويمتنع أيضًا أن يخلق الإنسان نفسه! وإذا استحال عليه خلق نفسه من باب أولى استحالة أن يخلق غيره (كالسموات والأرض)، إذًا هناك من خلق الإنسان! وهو الله ﷻ الذي أخبرنا بذلك، ولم يجرؤ أحد أن يدعي ذلك غيره، وخطابه للإنسان بهذه الرقة المنطقية والتنزل العجيب في الجدل، لا يمنع ألا يخاطبه عند العناد بالاستغناء المطلق عنه وعن الخلق أجمعين بقوله: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [الكهف: ٥١] ولما أورد القرآن الجدال بين الرجلين في سورة الكهف، وجاء فيه التحدي بتنزل فريد أيضًا، لم يذكر فيه أن الله هو الخالق، بل

اكتفى بتقرير الربوبية مستفهمًا عن وجود الرب من خلال إيمان الإنسان بنفسه ومراحل خلقه التي يشاهد بعضها أمامه، لقد جاء في سورة الكهف أن أحد الرجلين قال للآخر، مستنكرًا عليه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] فسبحان الله مَن مِن المخلوقات بما فيها الإنسان لا يحمل جميلًا وشكرًا وعرفانًا لا حد له ولا حصر لمن أوجده وخلقه وسواه وصوره ورزقه؟ فكيف يُكفر به بعد ذلك؟! يا لها من صورة رائعة من صور التنزل القرآني في خطاب المخالف طمعًا في هدايته للحق، صورة تشهد بأن الله هو الرحمن الرحيم!

*****

الصورة الثالثة

يدرك الإنسان جيدًا ثقل وقع هذه الحقيقة على نفسه بأنه: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] في هذا الكون العظيم لا من ناحية الزمان ولا المكان ولا الوجود، كما فصلنا ذلك مسبقًا، والعلم الحديث أثبتها، ولا يختلف عليها أحد مطلقًا، ولكن انظر كيف تناولها الخطاب القرآني وكيف يصل التنزل أحيانًا إلى أن يضعك أيها الإنسان، على قدم المساواة الجدلية، تدرك حينها كم أنت مفرط عندما تفوت من هذه الفرص الثمينة ما لا يمكن استدراكه، وأن عاقبة فوات الأوان ندم لا حدود له، إذ إن مقامك في الدنيا قصير وزادك فيها قليل، تذكر عظمة من يخاطبك! ثم قدر هذا التنزل حق قدره فما حاجة الغني سبحانه أن يقول للإنسان الجاحد لنعمته: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] لولا منتهى التلطف والتودد الرحمة من الأقوى والأغنى والأبقى والأكبر، لمن هو دون ذلك كثيرًا كثيرًا، هذا تلطف الوحي بهذا الإنسان التائه الذي يظن كل الظن، بل ظن السوء أحيانًا بالكون وخالق الكون، وما هو فيه إلا مجرد لمحة بصر عابرة في شريط الزمان والمكان والوجود، لا يكاد يكون له أثر يذكر لولا أن الوحي خاطبه، وأعلى شأنه وقدره، وأما عند الصدود والمكابرة فالأمر محسوم قدرًا، والغني ﷻ ليس في حاجة، ولا السماوات

والأرض ولا الخلق كله ينتظر إيمان إنسان ليسعد به، أو كفره ليشقى به، فقد دارت عجلة الوجود من دونه: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾ [سبأ: ٢٢].

*****

القوة واليسر في الخطاب القرآني

القرآن كتاب أنزل للناس جميعًا، وليس للمسلمين وحدهم، لقد خاطب عموم الناس مباشرة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحجرات: ١٣] وخاطب أهل الكتاب خاصة من يهود ونصارى مباشرة بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٦٤] وخاطب المؤمنين مباشرة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحجرات: ٦] وتكرر ذلك في القرآن بصور شتى، إنه كتاب الله للعالمين كافة، ومن عظمة هذا القرآن أنه استطاع بالخطاب الميسر وحده إقناع آلاف الملايين من الناس بمنطقه القوي، فآمنوا بالله غيبًا وتصديقًا لخبر السماء دون أن يقدم الوحي للإنسان أي دليل مادي مباشر ملموس محسوس بالحواس عن عالم الغيب والآخرة، بل اكتفى بالخبر فقط، مؤكدًا استحالة كشف الغيب حسيًّا قبل أوانه الذي حدده مَنْ له الخيار المطلق في ذلك مما يقصر، ويقصر بنو الإنسان وغيرهم من المخلوقات أن يتدخلوا فيه، واكتفى الوحي بضرب الأمثلة التقريبية والتشبيه التمثيلي للتقريب.

وأما إذا ما تجاوزنا التنزل إلى الحقيقة الدامغة، فإن الحق قد تقرر قدرًا باختيار الله وإرادته المطلقة دون الحاجة إلى إيمان المخلوق بها لكي تصبح حقيقة واقعية، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨] وما من علم ولا معرفة ولا قدر ولا حدث ولا حادث أو سيحدث في هذا الوجود إلا بعلمه سبحانه وحده لا شريك له، والقادر على إيجاد الوجود قادر على معرفة ماضيه وحاضره ومستقبله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ [لقمان: ٣٤] ولهذا جاء العتاب الأقوى لكل من ضرب

الذكر صفحًا عن هذه الحقائق الكبرى وهو يملك عقلًا يفكر به، واعتُبِر ذلك قصورًا في تصوره للوجود: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وهكذا لا تنتهي عجائب القرآن، ولا تقف عند بيانه وفصاحته وتيسيره، بل تتجاوزه إلى عمق معانيه، فالمنهج القرآني في البيان جمع بين يسر الفهم للجميع: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧] وبين تحديه القائم أمام الجميع عبر التاريخ، قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] وهذا الأسلوب في الحوار القرآني مع المخالف أطلق عليه الفقيه المالكي والفيلسوف الإسلامي أبوالوليد (ابن رشد) الاستدلال المنطقي على الإيمان بالله باتباع البراهين السهلة الواضحة، مؤكدًا أنه استنبط هذه القاعدة أصلًا من المنهج القرآني في التدرج في خطاب العقول، وأنه لا يعدل بهذا الاستدلال شيئًا[1].

ومن أوضح صور البراهين السهلة للاستدلال المنطقي في القرآن التي أشار إليها (ابن رشد) ما ورد في سورة فاطر، حيث لم يقفز بالعقل إلى نتيجة أن العلماء هم أكثر خشية لله من غيرهم، إلا بعد أن مهد لذلك بآيات نقل العقل فيها متدرجًا ليس بالصور العادية فقط، بل بالصور الملونة وبأجمل الألوان وأزهاها، من إنزال المطر ونبات الأرض وتنوع النباتات بألوانها والحيوانات بأنواعها وألوانها، سلسلة طويلة من التأمل والتفكر لفت إليها، ليقرر في النهاية حقيقة تميز الخشية عند هذا العالم الذي يدرك هذه الحوادث مجتمعة، ويستوعبها، ومتى استوعبها وفق هذا السرد والشرح فهو داخل في وصف العلماء الذين فازوا بهذه الشهادة من الله الذي قال عنهم: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ (٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

---

(١) الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة أبوالوليد ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة التراث الفلسفي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، تقديم: محمد عابد الجابري، ص١٦٣.

تأمل هذه الآيات – أخي القارئ – وستجد أنه قد ورد في آيتين فقط من كتاب الله جملة من علوم الفيزياء والبيولوجيا والفيسولوجيا والكائنات من حيوانات ونباتات، وما يتفرع عنهما، وعلم الطقس والمناخ والرياح والضغط الجوي وتشكل الغيوم وتحركاتها، والجغرافيا التي تنوعت تلك الأحياء بتنوع بيئتها وأجوائها ومواقعها، والإنتاج الزراعي من تلك الثمرات التي يقتات منها الإنسان، ووصف الغطاء النباتي المتنوع، والثروة الحيوانية والجيولوجيا من جبال ومعادن متلونة بألوانها وعلم النفس وعلم الاجتماع والإيمان، تأمل هذه الآية متجردًا للحق متلمسًا للحقيقة، وستجد كل ذلك فيها، وستقول حقًّا: إنه كلام الخالق ﷻ، وحقًّا يكون هذا العتب منه سبحانه على خلقه المقصرين بحقه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

*****

القرآن محفوظٌ ويحفظ من يحفظه

القرآن العظيم محفوظ بحفظ الله له، وحصن منيع حمى الله به المسلمين من الانزلاق العشوائي نحو سفسطة علم الكلام المجرد، لقد كانت تصورات معظم أهل الكلام لا تسمن ولا تغني من جوع في مواجهة تطلعات الإنسان وتساؤلاته المعرفية عن الوجود، أما المسلمون فوجدوا في القرآن الكريم طريقهم الآمن لفهم تلك الإشكالات، لما قيل لهم فلسفيًّا: إن هذا العالم وجد بلا إرادة، لاذوا بالقرآن الكريم يفتشون عن إجابة، فوجدوا فيه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، [القصص: ٦٨] أي إن هذا الوجود جاء بعد مشيئة وإرادة واختيار وخلق، ولما قيل لهم فلسفيًّا: إن الكون أزلي أي قديم، لجؤوا إلى القرآن، فوجدوا فيه: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ [الأحقاف: ٣] فعلموا أن هناك أجلًا، وكل ما له أجل فله بداية، ولما قيل لهم: إن الإنسان أزلي في الكون وجدوا القرآن يقول لهم: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] وهكذا كلما حزبهم أمر جدلي لجؤوا إلى القرآن الكريم، فوجدوا فيه الحق والحقيقة، فاطمأنوا إليه.

القرآن الكريم يضخ أنهارًا صافية عذبة من حجج الحق الداحضة لحجج قوم قد أفنوا أعمارهم بالبحث والتحري عنها ليصلوا إلى نتائج بشرية متناثرة، يشعرونك بعدم ثقتهم بها أصلًا، كلما أظهروها ذابت أمام عظمة الحجة القرآنية وبيان المنطق السليم المطرد الذي خص به ربنا أصحاب العقول وحدهم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ومما أدركه العقلاء أن هذا القرآن لا يحده زمان ولا مكان، فهو متجدد في كل زمان وحاضر في كل مكان، حتى وصل إلى عصرنا هذا، حيث نعيش أرقى حضارة إنسانية بالمنشآت والمصانع والسيارات والطائرات والاتصالات والتقنية والأجهزة الذكية وسفن الفضاء، فلا تكاد تفتقد آياته من خلالها، ها نحن نتلو كتاب الله ونحن فوق تلك المراكب، وباستخدام أحدث التقنية صوتًا وصورة، وكأنه ببلاغته ومعلوماته وإعجازه قد نزل توًّا في بيئتنا هذه، وكأنه نزل علينا في طائراتنا وبواخرنا وسياراتنا ومركباتنا الفضائية وأجهزتنا الذكية، لا تجد نفورًا ولا تعارضًا ولا استغرابًا من نصوصه مع كل ما توصل إليه العلم، بل إنه في وضع يؤكد بكل ثقة استعداده لمواجهة أي حدث علمي يطرأ مستقبلًا مهما كان متقدمًا على ما مضى دونما حرج أو تعارض مباشر مع نصه، علمًا أنه قد نزل، واكتمل نزوله في بيئة متواضعة جدًّا قوامها (الخيل والبعير والشاة والماعز وغرف الطين والمزارع الصغيرة)، الذي تغير هو فقط شكل ومادة الصفحات التي كان يكتب عليها من جلود وأوراق شجر، إلى الأوراق الفاخرة اليوم وشاشات العرض الإلكتروني، بينما النص هو النص لم يتغير أبدًا، هنا يغالب المؤمن دمعه المنسكب حمدًا لله على هذه النعمة وإعجابًا وتعظيمًا للقرآن العظيم ليجد نفسه قائلًا من أعماق قلبه سرًّا وعلانية: (آمنا بالله وبما أنزل).

ومع أن هذا القرآن كلام الخالق العظيم القوي العزيز، وجاءت نصوصه صريحة بالوعود ترغيبًا للطائعين، والوعيد ترهيبًا للعاصين، إلا أنه تميز بمنهجية التلطف بالخطاب اللين، بل والتنزل أحيانًا في مجادلة المخالفين تفضلًا ممن أنزله بالحق لاستنفاد جميع الحجج مع المخالفين، بحيث يكون الجزاء الأوفى لهم فيما بعد جزاءً عادلًا سواء على الطاعة أو على المعصية بحسب اختيار الإنسان.

*****

الاستدلال القرآني يَعلو ولا يُعلى عليه

يجمع الخطاب القرآني في الاستدلال بين جميع الأدلة النظرية المركبة التي يلتقي عليها الفلاسفة والمنطقيون بعد خلافهم، ولكن بأسلوب سلس ميسر جدًّا لجميع مستويات الفهم والإدراك، ومن أشهر أدوات الاستدلال عند المنطقيين ما يعرف بالأدلة الخمسة، وهي (الحدوث، والوجوب، والعلة الكامنة، وقانون العلية، والنظام)[(١)]، وجميعها وردت في الخطاب القرآني غير أنه ركز على دليل (النظام) لأنه ميسر وأكثر من غيره قبولًا لسهولته ووضوح نتيجته، والمقصود بدليل النظام هو التذكير بالخلق والإبداع والنظام الجامع وتكرار ذلك ليترقى بالعقل إلى النتيجة المطلوبة، فهذا الدليل هو ما يدركه العقل بسهولة دون هم أو عجز أو كلل، ولا يحتاج إلى متخصصين بالفلسفة والمنطق لشرحه، فليس كل الناس فلاسفة ولا منطقيين يدركون بالضرورة معاني الحدوث والعلة والعلية، بل جعل الله لهم هذا القرآن ميسرًا، وجاءت آياته بينات في متناول عقول الجميع، تخاطبهم بكل سلاسة وهدوء، هكذا يخاطبهم بما يعقلونه مباشرة، ويقول لهم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٣- ٥٤].

إن اعتماد الخطاب القرآني لدليل النظام في البيان والجدل لا يعني إهماله لبقية الأدلة المنطقية المعتبرة، التي جاء ذكرها عابرًا في ثنايا الخطاب، فعلى سبيل المثال يأتي خبر حدوث الكون بخبر القرآن قبل ألف سنة من عصر (ديكارت) و(بسكال) و(ليبنتس)[(٢)]، الذين تطرقوا لمسألة الحدوث بالتفصيل، وهذا الخبر الرباني قد وصلنا عن طريق رسولنا

---

(١) أدلة إثبات وجود الله تعالى بين الفلسفة والدين الدكتور صبري محمد خليل أستاذ القيم الإسلامية والفلسفة بجامعة الخرطوم سودانايل، السبت ١٠ يناير ٢٠١٥م.

(٢) ليبنتس Gottfried Wilhelm Leibniz (١٦٤٦- ١٧١٦م) الموافق (١٠٥٦- ١١٢٨هـ) فيلسوف وعالم رياضيات ألماني مشهور جدًا تقوم فلسفته على تفسير الوجود من خلال الانسجام الكلي للكون: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٣٨٧).

الأمي، حيث ذكر أن الكون قد خلق في زمن معين، وله أجل مسمى أيضًا، وهذا الخبر بسهولته قد ترجمه فلاسفة منهم (ليبنتس) الذي قال: إن كل شيء في الكون حادث لأنه شيء ولأنه متغير، ولأنه ممكن الوجود، وليس واجب الوجود، فهو لم يخلق من غير شيء، ولم يحدث من غير علة كامنة[1]، وهذا ما أشار إليه القرآن قبلهم بقرون عدة بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفقيه الفيلسوف أبا حامد الغزالي قد استنبط ما أسماه أضراب المنطق الحملي والقياس الشرطي في المنطق، وأكد أنها موجودة في القرآن الكريم، وأطلق عليها الموازين الثلاثة، وهي:

١- ميزان التعادل: وهو جوهر النظرية الأرسطية، وهو استدلال لا يخرج عن ثلاثة حدود: (أكبر وأصغر وأوسط) وثلاث قضايا، مقدمتان الأولى كبرى والثانية صغرى، ونتيجة واحدة، فالميزان الأكبر يوضحه معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وتوضيح ذلك أن المقدمة الكبرى تقول: كل من يقدر على الإتيان بالشمس من المشرق فهو الإله، والمقدمة الصغرى تقول: إلهي هو القادر على الإتيان بها، النتيجة: إلهي هو الإله يا نمرود[2]. أما الميزان الأوسط، وفيه يكون الحد الوسط محمولًا في كلتا المقدمتين، ومثال ذلك رفض إبراهيم الإله الآفل، عندما قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] فيكون الميزان أن المقدمة الكبرى هي أن القمر آفل، والمقدمة الصغرى: أن الإله ليس بآفل، النتيجة: أن القمر ليس بإله[3]، أما الميزان الأصغر فهو كما قال الغزالي: تعلمناه من الله الذي علمه محمدًا ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]

---

(١) فلسفة الفرد نورث وايتهيد دراسة تحليلية رافد قاسم هاشم مجلة بابل العلوم الإنسانية، مجلد ١٢، العدد ٣، ٢٠١١، ص٤٦٣.

(٢) القسطاس المستقيم، أبوحامد الغزالي، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، تحقيق: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية القاهرة ص٢١ نقلًا عن عبدالكريم عنيات: أسلمة المنطق، (مرجع سابق)، ص١٠٧.

(٣) القسطاس المستقيم، الغزالي، (مرجع سابق)، ص٢٩.

وتوضيح هذا الميزان أن المقدمة الكبرى: أن موسى أنزل عليه الكتاب، والمقدمة الصغرى: أن موسى بشر، النتيجة: أن بعض البشر ينزل عليه كتاب.

٢- ميزان التلازم: ويقصد به الغزالي كل ما هو لازم للشيء فهو تابع له في كل حال، فنفي اللازم يعني بالضرورة نفي الملزوم، ووجود الملزوم يوجب بالضرورة وجود اللازم، أما نفي الملزوم ووجود اللازم فلا نتيجة لهما بل هما من موازين الشيطان الباطلة[1]، وميزان التلازم قد اشتقه الغزالي من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وتوضيح ذلك: المقدمة الكبرى تقول: إنه لو كان للعالم إلهان لفسد العالم، والمقدمة الصغرى تقول: إن العالم (الوجود) لم يفسد، النتيجة: هناك إله واحد فقط لهذا العالم.

٣- ميزان التعاند: وعرفه الغزالي بقوله: «كل ما انحصر في قسمين يلزم عن ثبوت أحدهما نفي الآخر ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر، ولكن بشرط أن تكون القسمة منحصرة لا منتشرة، فالوزن بالقسمة المنتشرة وزن الشيطان»، وقد أخذ الغزالي هذا الميزان من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وتوضيح ذلك أن المقدمة الكبرى تقول: إنا أو إياكم لعلى ضلال مبين، والمقدمة الصغرى تقول: إن المعلوم أننا لسنا على ضلال مبين، فإذا ثبت ذلك تكون النتيجة: أنتم في ضلال مبين[2].

قد لا تحتاج إلى هذا التفصيل المنطقي المتخصص، وبمصطلحات سبق أن أكدنا أنها ليست ضرورية لك في هذه الحياة وما بعدها، إنما أوردناها هنا على سبيل المثال لتعلم أن كتاب الله الميسر لك فهمه مليء أيضًا بالكنوز المعرفية المتخصصة للبحث إلى جانب الحجج المنطقية الميسرة للفهم، وبعيدًا عن هذه المصطلحات المنطقية يتضح لأواسط الناس أن من معجزات هذا القرآن أن خطابه جاء موجهًا للعالمين كافة مؤمنين وجاحدين، ابتداء من أقصى درجات الجحود والإنكار، فخاطبهم بمنطق استثنائي، لا

---

(١) القسطاس المستقيم، الغزالي، (مرجع سابق)، ص٢٠٧.

(٢) المنطق والموازين القرآنية، محمد مهران (قراءة لكتاب القسطاس المستقيم للغزالي)، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص٦٠، نقلًا عن عبدالكريم عنيات، أسلمة المنطق، (مرجع سابق) ص١١٢.

يسع العاقل أمامه إلا التسليم، ذلكم المنطق الذي جعل جبير بن المطعم بن عدي يقول عنه: «كاد قلبي أن ينفطر»[1] ويميل إلى الإسلام، وذلك بعد أن سمع هذه الآية وهو على الشرك حينه فقط: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦].

ومن عجائب الخطاب القرآني أيضًا أنه يستفتح الجدل بتقرير سؤال المجادلين ابتداء، ليتبعه بالرد على الشبهة ردًّا داحضًا لكل شبهة بالحق دون انتظار، وكأنه بذلك يكشف ما يدور في النفوس قبل نطقها به، فيظهره للعلن ليكون الرد عليه علانية أيضًا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] ثم لا يأتي بالإجابة مباشرة على شكل سرد أو تلقين أو وصاية، بل تنزلًا عجيبًا وبهدوء سلس يحيل العاقل إلى عقله من منطلق الثقة به بالوصول إلى الحق عند العقلاء، عندما يحكمون بأنفسهم، ويحصلون على رد من ذواتهم لذواتهم، فتكون الإجابة بسؤال مماثل ينهي الحاجة للإجابة عن السؤال الأول: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧] بلى، والله كلنا وكل عاقل يذكر ذلك، ولا ينكره إلا مكابر عنيد.

وخاطب القرآن الإنسان بخطاب عقلي يأخذ بيده مترفقًا متأنيًا من خلال عالم المحسوسات المادية ليصل من خلالها إلى عالم المدركات العقلية، فتصبح في النهاية حقيقة عقلية يسهل الإيمان بها دون حاجة إلى أن يتمكن الإنسان من إدراكها حسيًّا، فعندما يقرر القرآن خبر يوم القيامة، وهو من النبأ العظيم الذي اختلف فيه الأولون والآخرون، تجده يرص لنا مصفوفات من الحقائق المحسوسة اليقينية التي يستحيل إنكارها، وكأنه يرصف طريقًا محكمًا من الأفكار بصورة مترابطة ليجعل المسافة بينها وبين الإيمانيات الغيبية بالعقل أقصر ما يمكن دون الاتصال بها، أي إنه يوصلنا إلى أقصى نقطة يمكن للعقل البشري الوقوف عندها، ثم يترك المجال بعد ذلك للعقل نفسه كي يقوم هو بمحاولة (تجسير) هذه الفجوة الكبيرة بين الغيب والشهادة، ويتصورها بعقله، وكأنه أدركها بحواسه تقريبًا.

---

(١) الحديث رواه البخاري (٤٥٣٧) عن محمد بن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧] قال: كاد قلبي أن يطير}.

لنقرأ هذه الآيات الكريمات، ونحتاج هنا إلى تركيز خاص جدًّا، فالآيات ليست جديدة على مسامعك، فحاول معي أن تتفرغ ذهنيًّا، وألا تتجاوز كلمة واحدة منها دون أن تدرك حقيقة حدوثها حولك وعلاقتها بما بعدها وما قبلها، أعلم أنك قد قرأت هذه الآيات كثيرًا، فأرجوك أن تقرأها الآن، وكأنك لم تسمع بها من قبل، وكأنها نزلت عليك توًّا، اسمع وأنصت جيدًا: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١-١٦] انظر كيف سلك الخطاب القرآني الوصف المتدرج وبالبرهان العقلي المحسوس ليوصلك إلى قمة القدرة الاستيعابية عند الإنسان لكي يعلم من خلال معرفته بما أمكن، حقيقة معرفته بما لا يمكن بالحس والعقل، وليعلم أن الرب الذي هذه أفعاله وخلقه وقدرته، لن يعجزه شيء على الإطلاق، وأبقى سقف القدرة والمشيئة والخلق والتدبير مفتوحًا بلا حدود، ثم انتقل بك إلى عالم الغيب مخاطبًا العقل وحده ومختصرًا له الطريق ليكتفي بالخبر الصادق فقط عنه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ [النبأ: ١٧] ولأن الأمر ليس خبرًا هامشيًّا أو نزهة فكرية أو جلسة مؤانسة أو تسلية، بل هو الحق الحتمي الذي سيواجهه كل إنسان ليتحدد مصيره، إما إلى هذا المقر: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١- ٢٢] أو إلى هذا المستقر: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١].

هذا خطاب الله القادر عليك أيها الإنسان، وأنت في هذه الدنيا قصير العمر والأجل الذي لا تدري متى ساعة موتك، فأي كرم أكبر من هذا الكرم، وأي فضل أعظم من هذا الفضل، عندما تصبح جميع معالم مستقبلك في غاية الوضوح عندك وفي ضمان القادر على كل شيء، تخيل أنك لا تملك هذه الرؤية الواضحة، فأدرك نفسك قبل فوات الأوان، واسلك بها طريق السلامة، فإنه واحد لا يتعدد، ليس أمامك أي فرصة انتظار أو تسويف أو جدل، ورصيدك من العمر لحظات لا اعتبار لها في سجل الزمن الكوني ربما لم يبقَ منها شيء الآن، فأدرك نفسك، واستجب واستحِ حق الحياء ممن هذا

خطابه لك: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الأحقاف: ١٧] حمانا الله وإياك من كل شر، ويسر لنا ولك كل خير، وهدانا بفضله إلى صراطه المستقيم.

*****

العدالة في القرآن

دعني أعلق على بعض ما قد يقدح في أذهان بعض الصامتين عما يمكنهم التلفظ بشيء مما يحشرج في صدرهم لأقول لهم وفي منتهى الشفافية والوضوح: لسنا هنا مسوقين ولا عاملين في شركات دعاية مادية، ولسنا أمام منتج بشري هزيل يزول معهم بزوالهم، وليس ضروريًّا أن يقتنع كل إنسان بكل ما سنورده من ثناء وإعجاب وتعظيم للقرآن، ولسنا بوصفنا مخلوقين نملك القدرة على تجلية حقيقة كلام الله الذي بين أيدينا، إلا بما يفتح الله علينا من حكمة وفهم له، وكل وصف تسمعه سواء أكان حقيقيًّا (وهو أقل من الحقيقة)، أم مبالغًا فيه (كما قد يتراءى لك أحيانًا) فاعلم أنه وصف قاصر جدًّا أمام شأن هذا القرآن العظيم عظمة لا تتجلى إلا يوم يأتي تأويله يوم القيامة، وكيف لنا الإحاطة به وهو المعجزة القائمة أمام الأولين والآخرين والسابقين واللاحقين إلى يوم الدين، فمنه المحكم، ومنه المتشابه، ومنه ما لا يمكن معرفته على الإطلاق (مثل الحروف التي تبدأ بها بعض السور)، والتي لا يملك المؤمن معها إلا التسليم وقول: «الله أعلم بمراده في ذلك».

ولكن الدافع الذي يجعل عباد الله يتسابقون لتبليغ هذا القرآن هو أنهم يؤمنون به، ويحبون لي ولك الهداية والشكر والنجاة من الأهوال القادمة، ويكرهون لك ولأنفسهم الكفر والعصيان، والله تعالى في كلا الحالين غني عن خلقه أجمعين، حتى لو كفروا وتولوا، ولكنه بفضله يرضى لهم الشكر إذا شكروا، وقد قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧] فإذا استقر ذلك في القلب فاعلم علم اليقين الذي لا يساوره شك أنك كلما تأملت القرآن وجدت فيه العجائب الباهرة، وزادت ثقتك به وإيمانك بالله الذي أنزله، وأيقنت أنه

دستور عصري مميز، مليء بالأنظمة والتشريعات المدنية والتجارية والجنائية والحقوقية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وسنورد مشهدين إنسانيين عظيمين بوصفهما مثالًا مشرقًا على حضاريته وعدالته وقوته بل وسلطانه حتى على أعمال الرسل، وإن كانوا مصطفين معصومين أخيارًا، ولكن الوحي الذي هو كلام الله يأتي أولًا وكلنا مع الأنبياء والرسل والملائكة، عباد لله الواحد القهار.

*****

المشهد الأول:

عندما تحدث عملية سرقة من قبل عصابة في العهد النبوي، ثم يكتشف أمرها، فيلجأ السارق إلى وضع المسروق على باب يهودي في المدينة، لكي يلصق به الجريمة، ويتنصل الجاني الحقيقي منها، ويعرض الأمر على رسول الله ﷺ، الذي يحكم بنحو مما يسمع في القضاء، وكاد يحكم على اليهودي، لولا أن الوحي الإلهي تدخل بقوة لينقذ سير العدالة الاجتماعية في المجتمع المتعدد، وينقذ ذلك اليهودي من التهمة، لقد تدخل الوحي لإنقاذ يهودي مغمور لا يعلم المؤرخون اسمه، يتدخل الوحي العظيم كي يقوم موقف سيد الأولين والآخرين من الحدث، فالمسألة هنا حق وعدل ومظلمة، والله الرحيم قد حرم الظلم على نفسه، وجعله محرمًا بين الناس، ونهاهم عنه في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**»(١).

---

(١) الحديث رواه مسلم (٤٦٧٤) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**».

موقف حضاري عظيم، يؤكد بقوة أن هذا الوحي من رب العالمين وللعالمين جميعًا، ولا يمكن إلا أن يكون منه ﷻ، ولا يمكن إلا أن يكون عادلًا مع الكل، حتى مع من اشتهروا بعداوتهم للإسلام والمسلمين، بل من هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، لكنه دين الحضارة العالمية الذي من أجل إنصاف فرد يهودي ينزل الله على النبي محمد ﷺ هذه الآيات الصريحة بهذه الحدة في حسم الأمر بميزان عادل تقصر دونه دساتير كل حضارة بشرية، قال تعالى عن هذه القصة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٥- ١٠٩].

*****

المشهد الثاني:

هذه القصة القرآنية أعجوبة أخرى في العدالة الاجتماعية، وعلاج ناجع للطبقية والعنصرية التي تعانيها الأمم، والقصة باختصار: أنه كان هناك نفر من المشركين ومن كبار زعماء القبائل، يتقدمهم الأقرع بن حابس التميمي(١)، وعيينة بن حصن الفزاري(٢)، يرتادون مجالس النبي ﷺ، وكلما جاؤوا إليه وجدوا في مجلسه نفرًا من ضعفاء المسلمين،

(١) الأقرع بن حابس التميمي المجاشعي اسمه فراس ولقب بالأقرع لقرع في رأسه وهو من أشراف العرب ومن المؤلفة قلوبهم قاتل مع خالد بن الوليد في معارك العراق توفي عام ٢٣هـ: (سير أعلام النبلاء سيرة الخلفاء الراشدين الذهبي ص١٣٧).

(٢) هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن عدي الفزاري من قيس غيلان أصيب في وجهه فجحظت عينه فسمي عيينة وهو سيد بني فزارة وفارسهم وكان من الأحزاب يوم الأحزاب وممن عرض عليهم النبي ﷺ ثلث ثمار المدينة ثم انتهى لاعتراض الأنصار على ذلك فلما هزم الأحزاب رد عيينة إلى قومه فأسلم وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه: (سير أعلام النبلاء، سيرة الخلفاء الراشدين، الذهبي، ص٢١٥).

كسلمان الفارسي وخباب بن الأرت وصهيب الرومي وبلال الحبشي، فلما رأوهم حول النبي ﷺ اشتعلت فيهم نعرة الفخر في الأنساب، وحقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا :إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فأجابهم إلى ذلك طمعًا في إسلامهم ومن ثم إسلام قومهم تبعًا لهم، ولم يكن هناك حرج من أصحابه الذين استقر الإيمان في قلوبهم أن يتنحو جانبًا لهذا الغرض النبيل، فلما وافقهم على طلبهم قالوا: فاكتب لنا عليك كتابًا، فدعا بصحيفة ودعا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليكتب والضعفاء قعود في ناحية، فنزل الوحي!

نزل الوحي ليتدخل في اللحظة الحاسمة لبناء كيان الإنسان وتكريمه، الوحي الذي جاء رحمة للعالمين أجمعين، الوحي الذي جاء ليعالج الطبقية المقيتة، إنها العدالة الربانية التي تسمو فوق جميع التقديرات البشرية، ولأنه الوحي، ولأنه من الله، فقد نزل على النبي ﷺ بهذا الخطاب الواضح، اقرأ معي هذا الأمر الرباني لأشرف الخلق: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] سبحان الله، كل هذا ترسيخًا لمبدأ العدالة الاجتماعية، هل أدركت من المخاطب؟ إنه سيد الأولين والآخرين، لترى عظمة الوحي وعلو مقامه على كل شيء في هذه الدنيا.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جاء زاجرًا لأولئك الأكابر الذين لم يتقبلوا، ولم يتحملوا رؤية إخوانهم الصادقين في مجالس رسول الله، فجاءت الآية التي تليها زجرًا لهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ثم أمر الله الرحمن الرحيم رسول الرحمة الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم، أمره بمزيد من التلطف والشفقة بالمؤمنين الذين هم أولى به من غيره، وهو أولى بهم من غيرهم، فقال له: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٤- ٥٥] ثم ما الذي حصل بعد ذلك، لكي نعلم أن هذا الأمر كله

رباني بوحيه ورسوله وقرآنه، والحمد لله على نعمة الإسلام، نقولها وجلودنا تقشعر إيمانًا وعرفانًا وعيوننا تدمع خوفًا ورجاءً وقلوبنا إلى ذكر الله تعالى، يقول خباب: لما نزلت: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، [الأنعام: ٥٤] دنونا من رسول الله ﷺ حتى وضعنا ركبنا على ركبته؛ وكان يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، ولكن الرعاية الربانية من فوق سبع سماوات باقية، ولا تزال تستكمل جميع بنود نظام العدالة الاجتماعية مع هؤلاء الضعفاء، فتتواصل معهم، إلى أن أنزل الله ﷻ الأمر الصريح: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] ثم أتبعه بنهي صريح أيضًا عن مجالسة أولئك الذين لم يتحملوا رؤية الضعفاء عند رسوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] قال خباب: فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا، وتركناه حتى يقوم تأدبًا معه.

يا له من مشهد تذرف له العيون إعجابًا وإجلالًا! اِيتوني بمشهد كهذا من أي حضارة أو أمة على وجه الأرض طوال التاريخ، إننا حينما نتحدث عن ديننا وقرآننا، فنحن لا نبالغ، ولكننا نتحدث عن نعمة عظيمة لا نوفيها شكرها وعن حقيقة كبرى لا نستطيع وصفها، ولكي تعلموا أن هذا القرآن حق، وأن وعد الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأنه لو كان من عند غير الله لوجدنا فيه اختلافًا كثيرًا[1].

---

(١) الحديث رقم (٣٣٤٦) من صحيح ابن ماجه عن خباب بن الأرت رضي الله عنه أن سبب نزول الآيات: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] إلى قولِهِ: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] قالَ: جاءَ الأقرعُ بنُ حابسٍ التَّميميُّ وعيينةُ بنُ حصنٍ الفزاريُّ فوجَدا رسولَ اللهِ ﷺ معَ صُهيبٍ وبلالٍ وعمَّارٍ وخبَّابٍ قاعدًا في ناسٍ منَ الضُّعفاءِ منَ المؤمنينَ فلمَّا رأوْهم حولَ النَّبيِّ ﷺ حقروهم فأتوْهُ فخلوا بِهِ وقالوا: إنَّا نريدُ أن تجعلَ لنا منْكَ مجلسًا تعرفُ لنا بِهِ العربُ فضلَنا فإنَّ وفودَ العربِ تأتيكَ فنستَحي أن ترانا العربُ معَ هذِهِ الأعبُدِ فإذا نحنُ جئناكَ فأقمْهم عنْكَ فإذا نحنُ فرغنا فاقعد معَهم إن شئتَ. قالَ: نعَم. قالوا: فاكتُب لنا عليْكَ كتابًا. قالَ: فدعا بصحيفةٍ ودعا عليًّا ليَكتبَ ونحنُ قعودٌ في ناحيةٍ فنزلَ جبرائيلُ عليْهِ السَّلامُ فقالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] ثمَّ ذكَرَ الأقرعَ بنَ حابسٍ وعيينةَ بنَ حصنٍ، فقالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ثمَّ قالَ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٤] قالَ: فدنَونا منْهُ حتَّى وضعنا رُكبنا على

هكذا يجب علينا أن نفهم القرآن العظيم بمعانيه العظيمة وصوره الحضارية وقيمه الإنسانية، وهكذا يجب أن تفسر آياته، ويستنبط منها الدروس والعبر المؤثرة في حياة الإنسان، أما تلك الصورة النمطية الذهنية المبسطة عن القرآن عند بعض الناس، فتحتاج إلى تصحيح جذري، فالقرآن ليس مجرد كتاب مقدس أنزل للتلاوة فقط، وأن ما يجب عليك تجاهه هو أن تتلوه، وتبحث فيه عن معاني المفردات فحسب، بل هو كلام الله إلى خلقه، وهو أعلم بهم سبحانه، هو دستور الحياة بجميع تفرعاتها وتخصصاتها، هو شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للعالمين، هو الذي لا غور لعمقه، ولا سقف لعلوه، ولأنه كلام الخالق العليم ﷻ، فإن تعاهده بالتلاوة والتدبر هو بمنزلة المداومة على أخذ جرعات الدواء الشافي والغذاء لضمان بقاء السلامة والعافية، ولئن كان الدواء لشفاء الجسد من الأمراض ضروريًّا، فالقرآن لشفاء الروح والجسد معًا أشد ضرورة، وأثر النقص في تلاوته على الكيان الإنساني أشد من أثر النقص في الغذاء أو الفيتامين على الجسم، إذ يترتب عليه أعراض نفسية وروحية وحتى جسدية، لا تزول إلا بتعويض ذلك النقص بالرجوع للتلاوة وأخذ القسط الكافي منها، وهنا تتجلى الحكمة من الأمر بمداومة التلاوة للحفاظ على الجسم سليمًا معافى في الدنيا بإمداده بمعين لا ينضب من الغذاء الروحي الضروري لتوازن الحياة واستقرارها، هذا فضلًا على ما وعد به أهل القرآن من الدرجات العلا في الجنة، وتلكم هي التجارة التي لا تبور.

هذا الإعجاب بالقرآن العظيم هو عين الحق الذي يجب أن يقال جهارًا نهارًا بكل عزة وفخر، ومشروعية تكرار تلاوته وفهمه حاجة ضرورية؛ لأنه مطلب للشفاء من كل سقم ومرض، لقد دعا القرآن إلى التعقل أكثر من خمسين مرة، وإلى التفكر أكثر من

رُكبتِهِ وَكانَ رسولُ اللهِّ ﷺ يجلسُ معَنا فإذا أرادَ أن يقومَ قامَ وترَكنا فأنزلَ اللهُّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٨] ولا تجالسِ الأشرافَ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] يعني عيينةَ والأقرعَ: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨] قالَ خبَّابٌ: فَكنَّا نقعدُ معَ النَّبيِّ فإذا بلغنا السَّاعةَ الَّتي يقومُ فيها قُمنا وترَكناهُ حتَّى يقومَ. انتهى. وقد علق بعض الباحثين على هذه الرو موضحًا أن هذه الآيات مكية وأن القصة حدثت في المدينة وأيًّا كان الأمر فالآيات محكمات تعالج الموقف نفسه، وتؤسس لقاعدة العدل الاجتماعي بين الناس ليس فقط في العهدين المكي والمدني، بل أيضًا عبر تاريخ الوجود إلى يوم القيامة: «قل كل من عند ربنا».

عشرين مرة، ومدح الحكمة أكثر من عشرين مرة، ورفع مقام العلم لدرجة أنه جعل العلماء هم أكثر الناس خشية لله، فكيف نتغافل عن هذا كله، ويفوتنا أن نتداوى من ينبوعه الصافي الشافي، خاصة ونحن نعيش في بيئة فكرية ملوثة نحتاج إلى مزيد من التكرار والتركيز والتحصين حتى يظهر مفعول هذا الشفاء متدفقًا إلى الشريان العقلي والروحي، معلنًا أن القرآن كلام الله المنزل المحفوظ إلى الأبد، وأن الله خالق كل شيء، ورب كل شيء، وأنه يخلق ما يشاء، ويختار، ويحكم ولا معقب لحكمه، وأنه الحق، وقوله الحق، وإليه يرجع الأمر كله، وأن الكون حادث ومخلوق، وممكن الوجود، وليس واجب الوجود كوجود الله تبارك وتعالى.

*****

التحدي في الخطاب القرآني

إن ميزان الترغيب والترهيب لم يكن غائبًا عن الخطاب القرآني، وإن الله الرحمن الرحيم هو أيضًا الله الجبار القوي العزيز، ذو البطش الشديد والفعال لما يريد، وعندما يخاطب عباده بالقرآن، وهو العظيم متنزلًا رأفة منه ورحمة بخلقه، فلأن رحمته سبقت غضبه، ولأن رحمته وسعت كل شيء، ولأنه يحب لعباده الشكر، ولا يرضى لهم الكفر، ولأن كل رحمة في الوجود ما هي إلا جزء يسير من رحمة رب الوجود ﷻ، ولهذا اقتضت هذه الرحمة أن يكون خطاب التنزل في غاية الشفقة والتيسير والوعد بالنعيم، لكن هذا لا يعني بحال غياب خطاب القوة والوعيد بالجحيم للمستكبرين المعاندين بعدما يتبين لهم الحق، فواسع الرحمة والمغفرة هو أيضًا شديد العقاب ذو الطول لا إله إلا هو إليه المصير، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠].

إن العناد والمكابرة من طبيعة النفس البشرية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] خاصة عندما تسيء النفس مفهوم الحرية وإتاحة الفرص، وهنا يتطلب الموقف لغة أخرى في الخطاب، فلا اللين

وحده يكفي ولا الشدة كذلك، والجمع بينهما قوة في الخطاب، وثقة في المخاطِب وشفقة على المخاطَب، ألا ترى أنه لا يستقيم مجتمع إلا بنظام، ولا يقوم النظام إلا بسلطة تملك القوة والقدرة على تطبيقه، ومن الخطأ فهم الحوار في الخطاب القرآني على أنه سجال بين طرفين متكافئين أو متقاربين أو متشابهين، ولقد كان التنزل القرآني تفضلًا من الله على خلقه وإلا فالمقام مقام التحدي ممن لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الذي خلق كل شيء بما في ذلك عقل وقدرات هذا الإنسان المجادل في الله بغير علم، هذا المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فلنبتعد عن الغرور الزائف والجرأة على الخالق والتصورات الخاطئة، و(أنسنة) الموقف، لا! الأمر ليس كذلك.

للمجادلة حدود، وللمناظرة قيود، والتأدب مع الله واجب، فالأمر معه يختلف تمامًا لاستحالة تصوره بواسطة العقل البشري، ولتقريب الصورة نضرب هنا مثلًا من الخلق، من الطبيعي أن يتحدى إنسان إنسانًا في منافسة، فكرية أو رياضية أو يواجهه في مناظرة عامة، لكن لو قيل لك: هناك تحدٍّ في سباق بين نملة وحصان! أو نملة وفيل! ففي هذه الحالة مجرد انتظارك للنتيجة، يُعدّ ضربًا من الجنون، بل ولا يخلو خبر انتصار الحصان على النملة من عيب في روايته واتهام لعقل الراوي، ولا أجد عبارة أنتقل بها إلى الحديث عن الله في هذا السياق لعظمة الخالق أمام خلقه، حياء وتأدبًا معه، فله المثل الأعلى سبحانه، واستحالة الاقتراب مجرد الاقتراب من حيز التشبيه والتمثيل للذات الإلهية يوجب التوقف فورًا وإعلان العجز المطلق، فسبحان من له الأسماء الحسنى والصفات العلا، ومن ليس كمثله شيء!

والقرآن الكريم كله بمجمله معجزة كبرى وتحدٍّ للخلق أجمعين، ببلاغته وأحكامه ومعانيه وحفظه وتلاوته ووعده ووعيده: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨] والله الغني الحميد لم يجعل الأمر متوقفًا على إيماني وإيمانك، فلله عباد صادقون من كل جنس غيرنا، فمن له الخلق والأمر وله ملك السماوات والأرض غني عن خلقه، قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٧]

ويقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وأما الكافر أو المرتد أو المشكك أو الملحد فلا يضر إلا نفسه فقط، والذي خلقه قادر على أن يهلكه ويأتي بخير منه لو شاء وهو غني عنه، بل غني حتى عن المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

*****

الفصل الرابع عشر

الصدام بين رجال الدين ورجال الفكر





الصدام بين رجال الدين ورجال الفكر

الأصل أنه لا تعارض بين الدين والعقل، وكيف تتعارض الأديان مع العقول والذي خلقها هو من أرسل رسله بالوحي إلى الناس، بل الدين يحث على الفكر والتفكر والتدبر والتعقل والبحث العلمي، ولكن خطيئة بعض رجال الدين وسلوكهم السلبي تجاه النص الرباني أوجد فجوة بينهم وبين رجال الفكر خاصة في أوروبا التي انحازت إلى اللادينية مخرجًا من عصورهم الوسطى السوداء، أما الوحي بمضمونه الصحيح وبوصفه المصدر الوحيد لمعرفة الغيبيات التي يطلق عليها الفلاسفة (ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقيا)، فإنه في حاجة إلى من يبلغه، ويفسره للناس بصورة صحيحة، ويتحمل رجال الدين في كل عصر المسؤولية الكبرى التي توجب عليهم البيان بتجرد وإخلاص، بحيث يبذلون قصارى جهدهم لتبيينه للناس كما نزل وليس كما يفهمونه أو كما يشتهون.

وعند استقراء حالات تطرف وتشدد الكثير من الفلاسفة في أوروبا نجد أن السبب الرئيس وراء ذلك راجع إلى طريقة تعامل رجال الدين مع المجتمع عامة، ومع الفلاسفة على وجه الخصوص؛ لأنهم يتقدمون من يخرق المألوف، فإذا قام رجال الدين بتمثيل الدين تمثيلًا مخالفًا لما نزل به فإنه من البدهيّ أن يصطدموا بعقول أمثال أولئك الفلاسفة المتحررة من قيود التبعية والتقليد الأعمى القريبة من الفطرة التي لا تتعارض مع العقول السليمة، فيترتب على ذلك نشوء (ملكة) تطرف طارئة عند المفكر أو الفيلسوف كرد فعل مباشر للوصاية الكنسية على شؤون الحياة بالباطل، ومن ثم يلمع نجم الفيلسوف المنسجم مع نفسه وفكره ومع من حوله من البشر، ويحظى بالقبول عند الناس أكثر من رجل الدين الملبس الحق بالباطل في نظرهم وهو يعلم ذلك، وهذا أمر طبيعي.

*****

المواجهة مع الأحبار والرهبان

لقد كان التطرف عند النصارى الكاثوليك خاصة سببًا في انقسام الديانة النصرانية نفسها، وظهور طائفة البروتستنتية على يد (مارتن لوثر)، الذي قامت حركته على أساس أن ملكة المعرفة في الاعتقاد هي الإيمان، وملكة المعرفة في الفلسفة هي العقل، وأن ميدان العقل هو المحسوس، أما ميدان اللاهوت والحقائق الغيبية السرمدية الروحية فلا تدرك إلا بالوحي من الله والإيمان به[1]. والبروتستنية طائفة تشكل اليوم ما يزيد على ثلث عدد النصارى في العالم، ومراحل نشوء البروتستانتية لها دلالات فكرية تعكس مرحلة الانسداد الفكري والمعرفي الذي تبنته الكنيسة الكاثوليكية منذ القدم، لقد بدأ (لوثر) حركته العلمية التمردية على الكاثوليكية الجامدة عندما وصل إلى روما عام ١٥١١م، فوجد (البابا) يبيع صكوك الغفران على الناس لينفق على الكنيسة، فثارت ثائرة (لوثر) وأصدر بيانًا من خمسة وعشرين اعتراضًا ضد صكوك الغفران، وعلقه على باب كنيسة (فتنبرج) عام ١٥١٧م، فتصدى له الراهب الكاثوليكي (تتسل) وأصدر بيانًا مضادًّا لبيان (لوثر)، ثم قام بإحراق بيان لوثر علنًا، فانتقم الطلاب للوثر، وأحرقوا بيان (تتسل)، ثم تواصل السجال حتى وجه (لوثر) بيانه الشهير إلى النبلاء المسيحيين في ألمانيا عام ١٥٣٩م، وبعد ذلك كتب رسالته الحادة جدًّا في الكنيسة الكاثوليكية التي نص فيها على (أن بابوية روما أسسها الشيطان)، وانطلقت البروتستانتية عالميًّا منذ تلك الحادثة إلى يومنا هذا[2].

لقد كان من الطبيعي أن يحدث ذلك بعد أن بلغ بالمتشددين الكاثوليك الأمر أن حولوا الدين إلى أداة قهر وتعذيب وقتل لكل من يقف أمام مكتسباتهم الذاتية بعيدًا عن الدين، وأي إنسان يفكر مجرد التفكير في التحرر من قيود الكنيسة الحديدية يكون مصيره المحاكمات والإعدام باسم الرب، لقد كان الكثير من سلوكيات القساوسة محل تندر وازدراء من عقلاء المجتمع، وقد كان (فولتير) من أشهر من وقفوا بشجاعة في

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٦٦.
(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٦٤.

وجه الكنيسة المتسلطة، وحدثت له صولات وجولات معها، لا تخلو من طرافة أحيانًا، يروي (فولتير) أن هنديًّا جاء إلى فرنسا بصحبة المكتشفين، فدعته الكنسية إلى دينها، وأول مشكلة واجهته هي كيفية تحويله إلى الديانة النصرانية، وبعد أن أهداه أحد رؤساء الأديرة نسخة من (العهد الجديد)[1]، الذي آمن به الهندي، جاء ليقدم نفسه للتعميد والتطهير! حيث لم يجد في العهد الجديد شخصًا واحدًا لم يتطهر، ولما واجهته مشكلة الاعتراف بالذنب تساءل وفي أي مكان وردت عبارة التعميد والتطهير في الإنجيل؟ فأرشده القسيس إلى نص ورد في إنجيل (سينت جيمس) جاء فيه (اعترف بخطاياك إلى الآخرين)، وبعد أن انتهى الهندي من الاعتراف، أمسك القسيس من تلابيبه، وسحبه بقوة، وأجلسه على كرسي الاعتراف، وطلب منه الاعتراف بدوره قائلًا: يا صديقي، لقد قيل: إنه يجب أن يعترف بعضنا بذنوبه إلى بعضنا الآخر، فقد اعترفت إليك بذنوبي، فلن تخرج من هنا حتى تعترف لي بذنوبك[2].

لقد كان (فولتير) من أشد المحاربين للتعصب الديني في فرنسا، وكان يوفر لضحاياهم الملاجئ المناسبة ويؤويهم، ويحميهم من الاضطهاد الكنسي، وقد كان يقول: إن الفيلسوف لا يتعصب، ولا ينصب نفسه نبيًّا، ومن أشهر عباراته: «لا أضع في مرتبة الفلاسفة أمثال (زرادشت)، ولا (هرمس)، ولا (أرمينوس القديم)، ولا غيرهم من المشرعين الذين تفتخر به أمم لمجرد أنهم قالوا عن أنفسهم: إنهم أبناء الآلهة! إنما كانوا آباء في الخداع مستخدمين الكذب من أجل تعلم حقائق، إنهم لم يكونوا فلاسفة، بل كانوا كذابين ذوي فطنة»[3].

---

(١) الكتب المقدسة عند أهل الكتاب في أصلها إما عهدًا قديماً أو عهدًا جديدًا فالقديم (Old Testament) هو بحسب اعتقادهم أنه كل ما أوحى الله به إلى أنبيائه قبل عيسى عليه السلام وفيه أخبار آدم ونوح وإبراهيم وبشارة عيسى عليهم السلام أما العهد الجديد (New Testament) فيعتقدون أنه مكمل للعهد القديم وفيه الحديث عن عيسى وحياته وأعماله وتعاليم النصرانية وقد ألهم الله كتبَتِهِ من بعده ليكتبوه على لسانه (هكذا يقولون!). وقد أطلق أحمد ديدات رحمه الله على رسالة الإسلام الخاتمة أنها العهد الأخير (Last Testament) ليخاطب أهل الكتاب بلسانهم؛ طمعًا في دعوتهم إلى الحق.

(٢) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٢٦٢.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٢٠٢- ٢٠٣.

لم يكن (فولتير) سوى إنسان طبيعي جدًّا استقل عن وصاية الكنيسه، ففعّل عقله بوصفه إنسانًا متوازنًا لا يقبل الوصاية البشرية من أحد، فطارت شهرته في الآفاق على الرغم من أنه مجرد أديب ذي نزعة دينية معتدلة، ولو فتشت في تاريخه لوجدت أن خصومه وصفوه بأبشع ما يمكن أن يوصف به مخالف؛ لأنه يرفض العقائد المسيحية الرئيسة: التثليث، وألوهية المسيح، والتجسد، واشتدت خصومته مع رجال الدين في آخر خمس عشرة سنة من حياته، إذ وجد من رجال الدين عائقًا أمام كل فكرة إصلاحية لتحرير الإنسان أو التسامح، ومن حينها جعل شعاره (اسحقوا الخسيس)، وكان يختم بها مراسلاته، ولما اشتد به المرض زاره قسيس مدعيًا أن الله أرسله ليسمع اعترافه، فطلب منه فولتير تقديم أوراق اعتماده من الله! فرجع القسيس خائبًا! وعندما اقترب أجل فولتير رفض رجال الدين كتابة وصيته ما لم يوقع على الاعتراف والإيمان بالمذهب الكاثوليكي، فتحداهم أن كتب وصيته بنفسه قائلًا: «أموت على عبادة الله، ومحبة أصدقائي وكراهية أعدائي ومقتي للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين»[(1)].

هذه المعركة الشرسة بين أديب ومفكر فرنسي مشهور بحجم فولتير، وبين رجال الدين لا تعني أن فولتير كان ملحدًا أو محاربًا للدين كما يزعم بعض مروجي الإلحاد عنه، بل كان يؤمن بإله الكون الحق، ويكفر بما كان يقدمه اليهود والنصارى في عصره من خرافات يستغفلون بها عامة الناس، ويزعمون أنها من الدين، لكن تطرف خصومه وفجورهم بالخصومة معه نتج عنها ردود أفعال أثارت حوله بعض الانطباعات الحادة المبنية على تشددهم ضده.

ولم يكن (فولتير) وحده الذي واجه سلبيات رجال الدين، فقد كانوا أشد قسوة على العالم الفلكي (جوردا نويرونو)[(2)]، بعد أن صرح بأن الكون لا متناهي، وأن الحياة لا متناهية، وأن المكان لا متناهي، والزمان لا متناهي، حكم عليه ديوان

---

(1) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣١٢.

(2) جيوردانو بورنو Giordano Bruno فيلسوف ومفكر إيطالي ولد في نابولي عام ١٥٤٨م (٩٥٥هـ) وأحرق حيًّا في روما عام ١٦٠٠م (١٠٠٨هـ) بعد ثماني سنوات من السجن تحت وطأة التعذيب في محكمة التفتيش في روما لجهره بمعتقداته المخالفة للكنسية حول التجسيد والثالوث والكون والوجود والذرة: (معجم الفلاسفة طرابيشي ص١٧٤.

التفتيش بالإعدام، فأعدم في ساحة الأزهار عام ١٦٠٠م، حيث يوجد تمثاله إلى يومنا هذا، وذلك بعد أن قاد (ديكارت) حملة اعتراض ورد اعتبار له بعد مدة طويلة من إعدامه، وأثبت أنه أعدم ظلمًا، مؤكدًا أن القول: إن الكون لا متناهي يعني أن قدرة الله لا متناهيه، وهذا تمجيد لله[1].

والحادثة تتكرر أيضًا مع الفيلسوف الألماني (كانت) الذي هو الآخر لم يسلم من تطرف رجال الدين، فقد ثاروا عليه في ألمانيا بسبب إعلانه المدوي بأن العقل النظري لا يمكنه إثبات البرهان على صحة الدين، فما كان منهم إلا أن حاربوه، وضيقوا عليه، ووصل بهم الأمر إلى أن أطلقوا اسم (كانت) على كلابهم انتقامًا منه واحتقارًا له. وبسبب مثل هذه التصرفات الحادة من بعض رجال الدين أصبح عند الفيلسوف الألماني (نيتشه) حدة ونقمة غير مسبوقة ضدهم، فكان لا يقبل منهم عدلًا ولا صرفًا، ولا يطيق منهم شيئًا، وكانت عبارته الشهيرة (لقد مات الإله) رد فعل مباشر على تطرفهم وحدتهم، ولما اشتد به المرض عام ١٨٧٩م وأوشك على الموت أخذ العهد على أخيه وأخته ألا يقف على جثمانه إلا الأصدقاء، وألا يدخل الفضوليون من الناس عليه، وألا يدعو قسيسًا ينطق بالأباطيل والأكاذيب على قبره في وقت لا يستطيع هو الدفاع عن نفسه[2].

ومن الواقفين بقوة ضد التطرف الديني الفيلسوف (برتراند رسل)، المتهم بالإلحاد أيضًا من قبل خصومه المتطرفين ضده، الذين كانوا سببًا فيما وصل إليه من حدة وإنكار للأديان، ومما واجهه منهم أنه عندما عين أستاذًا في كلية الحقوق في جامعة نيويورك، ثار عليه رجال الدين، ودافعو الضرائب باحتجاجات مطالبين بفصله لأنه عدو الدين والأخلاق، فرضخت الجامعة لمطلبهم وفصلته فصلًا تعسفيًّا، وأتبعت ذلك حكمًا عليه بأنه لا يصلح للتدريس، ما أوجد عنده كراهية شديدة للدين ولرجال الدين، وانعكس ذلك على حياته وسلوكه، فأصبح متقلبًا من حال إلى حال مما يشبه التناقض أحيانًا،

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٣٥٢.

(٢) قصة الفلسفة، ديورنت، (مرجع سابق)، ص٥١٧.

فقد بدأ حياته داعية سلام عندما هاجم الفاشية بقوة عام ١٩٣٦م، ثم تحول إلى مؤيد للحرب بشدة، فطالب بضرب الاتحاد السوفيتي بالقنبلة النووية، ثم ما لبث أن عاد داعية سلام مرة أخرى عام ١٩٤٩م[١].

لقد كانت الماركسية نفسها ردة فعل للتطرف الديني في حينه، ولن تنسى الإنسانية ذلك الثمن الباهظ لوجود الفكر الماركسي، حيث اتخذ من الدين عدوًّا راح ضحيته أكثر من تسعين مليون قتيل من البشر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وحده على يد الشيوعيين، منهم خمسة وثمانون مليونًا في روسيا والصين فقط، هذا علاوة على ضحايا التعذيب والسجون والتهجير القسري الذي مارسه الماركسيون ضد الشعوب البريئة بقصد إجبارهم على هذا المعتقد الفاسد والمتصادم مع الفطرة وتطبيقه على الناس بالقوة، في واحدة من أكبر الكوارث في تاريخ البشرية، وعلى الرغم من فنائهما وانقراض أفكارهما من بعدهما إلا أن التاريخ قد سجل أن أفكار كارل ماركس ولينين المتطرفة، كانت أسوأ التجارب الفكرية كلفة في التاريخ البشري على الإطلاق[٢].

والحديث عن التطرف المضاد للتطرف الديني عند النصارى يطول، ولكنه يؤكد أن الأفكار الحادة المتطرفة للكثير من الفلاسفة والمفكرين، الذين صُنفوا بسببها تصنيفات حادة أيضًا، مرتبطة بقوة بظروف نشأة كل منهم والمعاناة التي مر بها ومحاولاتهم كسر احتكار رجال الدين للفكر والسلطة باسم الدين المقدس، بحيث تنعكس على شخصية الفيلسوف ما يمر به من مشكلات فكرًا وسلوكًا، ما يوجب التريث عندما نسمع عن أحد موقفًا حادًّا من خصومه، لربما انتصر طرف في حينه على خصمه، فطمس أدلة براءة الطرف الثاني وظلمه، ولا يسع الباحثين تجاهل البيئة التي نشأ فيها كل فيلسوف، إذ إنها جزء مهم في صناعة وفهم أفكاره وتقييم مواقفه والحكم عليه.

*****

---

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٥١٨- ٥١٩.

(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٣٠.

التطرف نتيجة للتطرف

حيثما وجد التطرف وجدت الصراعات الفكرية بين أقطاب المجتمع، ولم تسلم منه مجتمعاتنا الإسلامية على الرغم من وجود القرآن بين يدينا، ولولا أن التطرف آفة لما جاءت النصوص القرآنية والنبوية بخطاب وسطي يحذر من الإفراط أشد مما يحذر من التفريط، بل ويذكر المسلمين بما كان من أهل الكتاب من قبلهم من مواقف متطرفة كانت وبالًا عليهم وعلى الإنسانية، قال تعالى عنهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] ومع هذا التذكير فلم يكن تاريخ المسلمين محصنًا عن بعض مظاهر التطرف التي جدفت بالأمة يمينًا وشمالًا، وكلما وجد المتطرفون في مرحلة تاريخية، أفرزت تلك المرحلة عجائب وغرائب فكرية واعتقادية تصبح فيما بعد عبئًا على الموروث الديني الإسلامي، ويأتي في مقدمة تلك العجائب الاستبداد والإقصاء والوصاية وحرية التصنيف التي يمارسها بعض الأطراف ضد الآخر ونسبة ذلك للدين، وهذه من أهم العوامل المنبتة لمظاهر الإلحاد والصدود عن الدين لاصطدامها مع الفطرة السوية وكرامة الإنسان.

ومن الإنصاف ألا نساوي الصراع داخل الأمة الإسلامية مع مفكريها بما حدث مع أهل الكتاب من قبلهم، فهناك فرق كبير بين أديان ترهلت، وحرفت كتبها المقدسة، واستوجب الأمر أن يأتي دين خاتم يفتح للبشرية آفاقًا قد أغلقها الأوائل، فينسخها، ويجعل الدين عند الله الإسلام، وهذا لا يعني خلو ساحة المسلمين من أزمات تطرف وسقوط ضحايا بسببها، ولم يجتمع التطرف الحاد وردّ فعله القوي جدًّا في صورة بشعة جدًّا في شخص واحد كاجتماعهما في شخصية الملحد المشهور (عبدالله القصيمي)(١)،

(١) عبدالله القصيمي (١٩٠٧- ١٩٩٦م) الموافق (١٣٢٥-١٤١٧هـ) مفكر سعودي منحرف جدًّا من أكثر الشخصيات العربية إثارة للجدل حيث انقلب من موقع المناصر بقوة للدين من أقوى درجات المحافظة إلى أن بلغ بالإلحاد حدًّا لا يكاد يبلغه أحد من قبله ومات على ذلك نسأل الله الثبات على الحق ونعوذ بالله من سوء الخاتمة.

الذي نشأ في قلب بيئة محافظة جدًّا، وبدأ حياته العملية متطرفًا متشددًا، انتهى به الأمر متطرفًا متشددًا، ولكن في الاتجاه الآخر، إذ لم يتجرأ إنس ولا جان على ذات الله كما تجرأ وتكلم القصيمي، فعاش شقيًّا كئيبًا طريدًا في حياة بؤس وعناء ويأس وانعدام للبسمة والسعادة، قل أن تجتمع هذه الطوام في شخص تجاوز الثمانين تائهًا على وجهه، ومات في التسعين من عمره على ذلك شريدًا طريدًا في القاهرة، ويحرص الملحدون المعجبون بفكر القصيمي على إخفاء الحقائق السلبية المذهلة عن شخصيته؛ خوفًا من انكشاف سبب إلحاده، فلا يذكرون مثلًا أنه كان في تركيبته النفسية شكاكًا في كل شيء، حساسًا من كل شيء، قاسي الطبع متمردًا على كل مألوف، حزينًا بائسًا، لا تكاد ترى منه ابتسامة، ولا يتوقع منه الترويح عن أحد بطرفة مسلية، إنه في عالم جحيمي آخر، يشتم ويلعن، محطم يحطم، يتمرغ في الإحباط، ويمرغ غيره فيه، لقد كان متكبرًا مغرورًا إلى درجة أنه مدح نفسه بقصيدة جاء فيها:

وَلَو أنَّ ما عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ والفَضْلِ ... يُقَسَّمُ فِي الآفاقِ أغنَى عنِ الرُّسْلِ[1]

وبلغ به الغرور أن كتب على أحد كتبه هذه العبارة: «سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تتبصر طريق العقل»[2]، وحتى يدرك المغترون بشخصيته سبب انحرافه وإلحاده أحيلهم إلى كلامه عن نفسه، ولا أصدق من إقرار الإنسان على نفسه مختارًا، حيث يقول: «تحولت؛ لأني عندما بدأت أراجع نفسي وعقيدتي بميزان العقل، وجدت من المشايخ كل هجوم وتعنيف وازدراء بدلًا من النصح والتوجيه»، وهذا اعتراف منه بأن العناد كان الدافع الأساسي لإلحاده[3].

ومن أضل ممن يرى رجلًا مضطربًا بهذه الدرجة، غارقًا في العقد النفسية والفكرية، ثم يرهن به عقول الأمة المتوازنة الطيبة الزكية؟! ويلبس الحقيقة على شبابنا وشاباتنا

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٠.
(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٠.
(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٢.

الأطهار؛ لإيهامهم بأن وراء هذا المريض المبتلى قضية تستحق التأمل، وبأي معيار يلمع ويسوق القصيمي ليشوش به على شباب أبرياء، ولدوا على الفطرة والنقاء، لا يدركون زيف إطلاق صفة (مفكر) على مثل القصيمي، ولا أدري بماذا يعجبون من رجل لم يجامله في ضلاله ولا حتى المفكر النصراني المنصف (ميخائيل نعيمة) الذي خاطبه مغاضبًا من شخصيته المظلمة، فقال: «إن قلمك ليقطر ألمًا ومرارة وحقدًا واشمئزازًا، ولو كان لمثل حقدك أن يصنع منه قنبلة لكانت أشد من قنبلة هيروشيا النووية»[1].

من جهة أخرى يُعدّ الإعجاب المطلق والهيمان المندفع وراء العالم أو المفكر تعصبًا مرفوضًا وغلوًّا محرمًا أيضًا، فلا معصوم إلا المعصوم ﷺ، وجميع من هم دونه يؤخذ من كلامهم ويُردّ، وكم دفع المسلمون ثمن الخلط بين التقدير الواجب والتقديس المحرم لذوات الأشخاص، التي على إثرها التبس عليهم تلك المواقف التي يتخذها علماؤهم أهي من دين الله أم أنها مجرد رأي عالم أو فئة أو طائفة أو مدرسة، ليس من المنطق السليم أن يصبح العالم وحده مرجعًا شاملًا عند عامة الناس وفي كل شأن سواء أكان دينيًّا أم دنيويًّا، فيما يعلم وما لا يعلم، بمجرد أنه تصدر في فن من فنون العلم، ولماذا هذه الحدة من مريدي الشيخ وأتباعه على من يستدرك عليه شيئًا بالبرهان والدليل؟! لعلك تلاحظ كثرة ورود عبارة قال فلان من الأئمة أو المفسرين أو الفقهاء السابقين لإسكات مفكرين معاصرين لربما تجاوزا أولئك الأئمة في عصرهم علمًا ومعرفة، لما يحظى به مفكر اليوم من وسائل معرفية تمكنه من أضعاف أضعاف ما كان متاحًا لعالم في القرن الثالث الهجري مثلًا من طرق البحث والدراسات، وبعض الغلاة يضفون على بعض المعاصرين المقلدين التقليديين قداسة مبالغًا فيها؛ لعدم قدرتهم على مجاراة من سبر غور العلم، وغاص في أعماقه، مستخدمًا الوسائل المعاصرة، فترى أتباع أولئك التقليديين يثورون انتصارًا لعالمهم الذي نطق برأي شخصي غير مدعم بدليل، حتى

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٢.

إذا ما ناقشته فيه علميًّا وموضوعيًّا، رماك أتباعه بسهامهم المسمومة دونه: أتستدرك على الإمام العلامة الجهبذ إمام زمانه ومجدد عصره ونور الله في أرضه؟ ومن أنت حتى تفعل ذلك؟! بينما رسول الله ﷺ قال رأيه البشري في توبير النخل، فلما لم تصلح برأيه انسحب معلنًا بأنه ليس بأعلم من الناس في تدبير دنياهم(١)، وكان يستشير أصحابه في نوازل وأمور كبرى، وهذا التوسط في منهجه والتواضع ولين الجانب هو ما يدعو إليه القرآن أمة الإسلام قاطبة في قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣] وما يتلمسه أيضًا كل مسلم باستفتاحه ركعات الصلوات يوميًّا بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

*****

(١) الحديث رقم (٢٣٦٣) في صحيح مسلم ورواه ابن ماجه وأبويعلى وابن حزم وابن خزيمة والطحاوي وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها أَنّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ أَصْوَاتًا فَقَالَ: «**مَا هَذِهِ الأَصْوَاتُ؟**» قَالُوا: النَّخْلُ يَأْبِرُونَهُ فَقَالَ: «**لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلُحَ ذَلِكَ**» فَأَمْسَكُوا فَلَمْ يَأْبِرُوا عَامَّتَهُ فَصَارَ شِيصًا فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ وَكَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ**» وفي لفظ مسلم «**فقَالَ: مَا لِنَخْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتَ: كَذَا وَكَذَا قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**».

الفصل الخامس عشر

سلطان الدين وخذلان التدين



سلطان الدين وخذلان التدين

إن بيان الحق المأمور به شرعًا يقتضي أن يبلغ وحي الله للناس حتى يصبحوا قادرين على التفريق بين الدين والتدين، فالدين الحق له مصادره واعتباراته العالية، وليس من الإنصاف أن يعرف الناس دينهم من سلوك المتدينين فقط، فهناك فروق جوهرية بين الدين القوي بذاته، انطلاقًا من النصوص والنظريات المقدسة، كما نزلت على الأنبياء، وبين التدين الذي يعني مقدار ما يأخذ الناس من تلك النصوص مما ينعكس على سلوكهم العام وتعاملاتهم اليومية، التي دائمًا تكون دون الكمال والمطابقة عند من يجتهدون في تطبيقه بصدق وإخلاص، فيظهرون بضعف في التطبيق قد لا يسلم منه أحد.

*****

أولًا: قوة الدين

لا حياة للإنسان بلا دين، ولا دين إلا دين الحق، ولا حق إلا ما قال الحق عنه: إنه الحق: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩] ولا بد للنفوس من تدين بشكل أو بأخر كضرورة من ضرورات توازنها الوجودي والنفسي، فإذا لم تجده بالحق بحثت عنه بالباطل؛ لأن ثمة فراغًا روحيًّا مع غياب الدين من الوجدان ولا بد له من ملء، وهذا من أسباب انتشار الوثنية في مراحل التاريخ الخالية من الرسل، خاب وخسر أولئك الذين يريدون فصل الإنسان عن نزعة التدين الملازمة له، إنهم لا يدركون أن الدين يقع من وجود الإنسان موقع القلب من الجسد، وأنه سر التوازن النفسي والعاطفي والوجودي له مهما جادل وكابر وأنكر واستنكر، وجميع المحاولات اليائسة لعزل النزعة الدينية عن التركيبة الإنسانية وكينونتها باءت بالفشل الذريع؛ لأنها ببساطة تصادم ناموسًا كونيًّا مستقرًّا قد قال الخالق فيه كلمته، ولا تبديل لكلمات الله، نتحدى أي علماني لا ديني أن ينكر شعورًا ما يدفعه نحو البحث الجاد في مسألة التدين؛ لأن الحقيقة التي لا يجادل فيها إلا مكابر هي أن الدين بالنسبة إلى الإنسان أمر فطري بحت، ومكون نفسي وطبعي له،

يصعب تجاوزه أو تجاهله، ومهما تصنع القوم موقفًا يوحي بإنكار الدين، فإن فلتات ألسن رموز التوجهات اللادينية وقيادييها، وقادة الدول اللادينية كما يسمونها، حسمت الأمر وأحرجت دعاة هذا التيار، والأحزاب الدينية في أي ملة تحظى بشعبية كاسحة أمام تلك التي هي أقل اهتمامًا بالدين من ذوات التوجهات الليبرالية والعلمانية.

لا يتوقف الأمر عند الأديان السماوية الصحيحة في أصلها فحسب، بل حتى الديانات الوضعية والشركية الباطلة كالأحزاب الهندوسية والبوذية في شبه القارة الهندية مثلًا، إذا لم يعتنق الإنسان دين الحق، أوجد فراغًا داخليًّا في كينونته سرعان ما يفتش عن أي مادة روحية مائلة ليملأ بها هذا الفراغ الروحي الخطير ولو بدين باطل لاستحالة بقائه فارغًا، وكأن قلب المرء منهم مثل إناء عسل ترك فارغًا مفتوحًا، فتراكم فيه القش والغبار يوم خلا من العسل المصفى، إذًا لا بد من دين في حياة الإنسان حتى يتوازن نفسيًّا وسلوكيًّا، يقول أفلاطون: «لا بد للمجتمع من إيمان ودين حتى نقنعه بالسلوك اللائق لكبح جماح الشهوة والمنافسة والنزاع»(١)، ويقول الفيلسوف الأمريكي (ديفد برلنسكي)(٢): «الذين اقترفوا الجرائم الكبرى ضد البشرية كهتلر وموسيليني وستالين ورجال المخابرات الغربية أيضًا، لم يكونوا يعتقدون أن الإله يراقبهم»(٣)، ويرى (كانت) أن الإيمان بالله ضروري للأخلاق.

والدين له سلطان عجيب على النفوس، في تطويعها وترويضها، إذ لا بد أن يتضمن كبحًا للجماح وتنازلًا عن شهوات فردية للصالح العام مقابل الاشتراك في المنفعة العامة بالدنيا وانتظار الجزاء الأوفى لهم فيما بعد في الآخرة، ويوجب التحكم في الرغبات الممكنة والتخلي عن بعضها مع القدرة على الوصول إليها، وليس متدينًا من ادعى الصلاح لمجرد عجزه عن الوصول إلى الفساد، يقول (نيتشه) متهكمًا من أولئك القوم: «إنني أسخر كثيرًا من الذين يفكرون أنفسهم صالحين لأنهم ليس لديهم مخالب ينبشون بها»(٤).

---

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣٨.

(٢) ديفيد برلنسكي David Berlinski ولد في نيويروك عام ١٩٤١م وهو أستاذ في الرياضيات وأحد أعمدة حركة التصميم الذكي لفهم الوجود ومن وراء الوجود: (رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٠١).

(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١١٨.

(٤) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٢٤.

وإذا كان هذا مقام الدين بالنفس البشرية فليس من الإنصاف أبدًا أن تنظر إلى الدين السماوي على قدم المساواة، مع اجتهادات البشر في علوم الإدراة والاقتصاد فضلًا على خرافاتهم وخزعبلاتهم في المعبودات الأرضية والطقوس والأوثان المضللة حتى وإن أسموها دينًا، ثم ننتقل منها إلى وحي السماء مقارنين! وكأنه فكر بشري متقلب يخضع للمراجعات والتصحيح مع الزمن، فالدين المتعلق بالوحي أمر إلهي عظيم يفوق الكون كله عظمة وقدرًا، ومن ثم فهو أكبر رسوخًا وثباتًا من خيارات البشر وآفاق معارفهم ومداركهم المحدودة، وأشد ما يجد من أثر الدين السماوي على القلوب أمران: الأول، وصول الأيدي العابثة إلى نصوصه المقدسة والجرأة على تحريفها وتبديلها، كما حدث ذلك مع كتب اليهود والنصارى باعترافاتهم، والأمر الثاني، سلوك المتدينين أنفسهم، الذي يصعب على الرأي العام فصله عن الدين، فيصبح وكأنه منه، فتنسب إليه ظلمًا وتعديًا على قداسته وطهارته وعدله.

والحقيقة هي أنه لو استطاع الناس التفريق بين الدين بما له من أصول ثابتة محفوظة وبين بعض المتدينين المتقلبين في سلوكهم لكفونا مؤونة الشرح والتوضيح في هذا الباب، ولأصبح الدين الرباني في مأمن من هذه اللوثات البشرية المنغصة فكريًّا على ذوي العقول السليمة، وحتى مع الحذر من أخذ ما عند أهل الكتاب لاختلاط الحق بالباطل عندهم، فعلى أقل تقدير أن تعرف النصرانية من خلال تسامح المسيح عليه السلام الذي قال: «إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأعطِه خدك الأيسر» خلاف معرفتك بها من خلال سلوكيات (أدولف هتلر)[(١)] أو (موسيليني)[(٢)]، وأن تعرف اليهودية من

---

(١) أدولف هتلر Adolf Hitler (١٨٨٩- ١٩٤٥م) الموافق (١٣٠٦- ١٣٦٤هـ) زعيم ألماني نازي تأثر بنظرية (داروين) فشجع الصراع بين الأجناس بهدف انتقاء الأجناس واقتنع بفكرة (نيتشه) عن (الإنسان السوبرمان) فآمن بالقوة وسيلة لقيام الدولة وتأثر بكتاب (مارتن لوثر) عن (اليهود وأكاذيبهم) وبنى شخصيته على ذلك قاد ألمانيا نحو الحرب العالمية الثانية وكاد يسيطر على أوروبا وغرب آسيا بالكامل لولا تدخل موجة البرد وتحالف العالم على قتاله فانتحر عام ١٩٤٥م بعد هزيمة ألمانيا في الحرب: (رحلة إلى قلب الإلحاد، حلمي القمص يعقوب، الجزء الأول: الإلحاد بذور ورجال ٢٠- أدولف هتلر).

(٢) بينينو موسيليني Benit Mussolini (١٨٨٣- ١٩٤٥م) الموافق (١٣٠٠- ١٣٦٤هـ) دكتاتور إيطالي اعتنق الاشتراكية ثم أصبح فاشيًّا استولى على العاصمة روما قضى على جميع خصومه السياسيين وتحالف مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وبعد الهزيمة علق على عمود في الساحة العامه مقتولًا:
(Encyclopaedia Britannica- Benito Mussolini, Christopher Hibbert, Last Updated 62014-8-).

خلال (عبدالله بن سلام)[1] خلاف ما تعرفها من خلال سلوكيات (حيي بن أخطب)[2] أو (شاس بن قيس)[3]، وأن تعرف الإسلام اقتداء بالرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ومن تبعهم على ذلك بإحسان، خلاف ما تعرفه عنه من سلوكيات (الحجاج بن يوسف)[4] أو (أبي مسلم الخراساني)[5] أو (عبدالله السفاح)[6] أو غيرهم من طغاة المسلمين.

جميع الأديان السماوية في الأصل نزيهة ومقدسة؛ لأنها جاءت من عند الله وحده، ويجب ألا ننظر إليها من خلال جهل أتباعها بها، ولا سلوكيات ساستها ولا زلات علمائها وأحبارها ورهبانها، بل الواجب أن نعلم أن التوراة فيها هدى ونور في أصلها، والإنجيل فيه هدى ونور ومصدق لما بين يديه من التوراة، والقرآن هدى ورحمة للمؤمنين و﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] ولأن الجميع من عند الله فهو الذي جعل الدين عنده الإسلام، ودعا الناس كافة إليه، هذا هو الأصل بالجملة فيما أنزل الله على عباده وهذا هو الدين الحق من مصادره الصحيحة بعيدًا عن مستوى تدين الناس به، ودون هذا الدين الصحيح لن يتمكن الإنسان من معرفة ربه

---

(١) هو الإمام الحبر المشهود له بالجنة عبدالله بن سلام حليف الأنصار ومن خواص أصحاب رسول الله ﷺ له إسلام قديم فيه نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] وكان من أحبار اليهود قبل إسلامه: (سير أعلام النبلاء الذهبي، الجزء الثاني، ص٤١٣).

(٢) حيي بن أخطب أحد أشهر زعماء يهود بني قريظة الذين غدروا بالمسلمين في غزوة الأحزاب قتل معهم بعد تفرق الأحزاب عام ٥هـ: (سيرة ابن هشام، ص٥٦٠).

(٣) شاس بن قيس كهل من يهود المدينة ومن أشدهم عداوة وحسدًا للمسلمين بلغ به الحقد أنه لما رأى الأوس والخزرج في جلسة أخوية لم يتحمل الألفة بينهم فأرسل إليهم شابًّا يهوديًّا يذكرهم بحرب (بُعاث) فكادوا يقتتلون بسبب وقيعته لولا تدخل النبي ﷺ لاحتواء الموقف: (سيرة ابن هشام، ص٣٠٩).

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفي (٦٦٠-٧١٤م) الموافق (٤٠-٩٥ هـ) والي بني أمية على العراق والمشرق مدة عشرين عامًا عرف بالشجاعة والدهاء والخطابة وتعظيم القرآن إلا أنه كان جبارًا سفاكًا للدماء: (سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء ٤، ص٣٤٣).

(٥) هو عبدالرحمن بن مسلم الملقب بالخراساني ولد عام ١٠٠هـ (٧١٩م) وقتله أبوجعفر المنصور عام ١٣٧هـ (٧٥٤م) كان جبارًا سفاكًا للدماء ويعرف بأنه صاحب دعوة بني العباس من أشهر ملوك الإسلام: (سير أعلام النبلاء، الجزء السادس، ص٤٨).

(٦) عبدالله السفاح الخليفة العباسي الأول (٧٢٣- ٧٥٣م) الموافق (١٠٥- ١٣٦هـ) كان شابًّا مهيبًا طويلاً وقورًا سفاكًا للدماء: (سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء الرابع، ص٧٧).

معرفة صحيحة سليمة متكاملة، ومن دونه لن يعرف أيضًا لماذا خلق، ومساره ومآلاته بعد الدنيا ومبتدأه ومنتهاه في الوجود.

*****

ثانيًا: ضعف التدين

يمكن تعريف معيار التدين بأنه درجة المطابقة بين الظاهر والباطن مما يأخذه الناس قولًا وعملًا واعتقادًا من الدين الصحيح مما ينعكس على سلوكهم وتعاملاتهم، فيصبح المرء أكثر تدينًا عندما يكون أكثر قربًا من نصوص وتعاليم الدين اعتقادًا وقولًا وعملًا، وأكثر الصدمات التاريخية المنفرة من الدين إنما تحدث بسبب سلوكيات بعض القائمين عليه مما يتعارض مع جوهره النقي، بحيث يكره المرء، ويكره من بلغه بل وينفر حتى ممن أوحاه إلى أنبيائه، وليس من العدل أن يتم الخلط بين الوحي كنصوص ونظريات حضارية راقية بل غاية في الرقي، وبين التدين البشري وسلوك ومعاملات وآراء المعتنقين له، وهذا الخلط خطأ جسيم وحكم جائر وتحميل للدين ما لم يحتمل، وهو ما وصفه القرآن بأنه نوع من الكذب على الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا الخلط الخاطئ رد فعل سلبي ضد الدين والتدين والمتدينين على حد سواء، كما حدث في أوروبا قبل اندلاع الثورة الفرنسية، وما تبعها من تفشي الإلحاد وعلمنة أوروبا نتيجة التعسف الديني الذي مارسه الكهنة المتسلطون دنيويًّا على الناس باسم الدين المقدس لتسخير المجتمع لخدمة أهدافهم ورغباتهم الشخصية الضيقة، فتحول المجتمع إلى سادة مقدسين في الأعلى من الأقليات، وعبيد منبوذين في الأدنى من الأغلبية، وإلى قلة ثرية ثراء فاحشًا في القمة، وأكثرية فقيرة مسحوقة منبوذة في القاع، وكأنهم خلقوا فقط للسخرة والكدح لمصلحة الإقطاعيين، وكل ذلك يحدث على مرأى ومسمع بل وبمباركة من رجال الدين الشركاء للظالمين في الغنيمة على حساب عرق ودماء وجهود الشعوب المضللة باسم الدين.

فماذا كانت النتيجة الطبيعية لهذا الضلال؟ قامت الشعوب بثوراتها الدموية على تلكم الأقليات الظالمة، فلم يفرقوا بين رجل دين وإقطاعي وملك، ولما أفرج عن سجناء سجن (الباستيل) الشهير في باريس، وشموا رائحة الحرية، وأدركوا أنهم كانوا ضحية تحالف الكنيسة مع (آل بوربون)(١)، هتفوا هتافهم الشهير: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، وما كان هذا الموقف التاريخي ليحدث لولا مرارة الظلم والسخرة والاستغلال الفاحش لمقدرات الشعوب وخبراتها، الذي أضفي عليه صبغة دينية، فكان الفرد المستبد يسرق ويغتصب ويسجن ويقتل، ثم لا يخجل أن يجاهر بقوله: إن ذلك كله باسم الرب! فكان من الطبيعي أن تنتفض الشعوب كافرة بذلك الدين وملحدة بمن ينسب إليه، منكرين لذلك الرب المزعوم! رافضين لهذه المسرحية الهزلية في توظيف الدين توظيفًا دنيويًّا فئويًّا بغيضًا؛ لأنهم يملكون رصيدًا فطريًّا يهمس في آذانهم بهذه الحقيقة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

وهذا الموقف الرافض للباطل ليس باطلًا كما يحلو للبعض تسميته، بل هو الحق الذي يستقيم تمامًا مع الفطرة السليمة للناس، فكفر الناس وإلحادهم بهذا (الرب) الوهمي والإستغلالي المبارك للظلم ولاستبداد عند الاقطاعيين ورجال الدين أمر واجب فطريًّا، تمهيدًا للوصول إلى الإيمان بالرب الحق الذي هو الله الرحيم الرحمن الذي لا يظلم الناس شيئًا، والذي من عدله ورحمته أن أمر بالقسط في الدنيا، وجعل من يوم القيامة موعدًا لتصفية نهائية لما لم يتم الحصول عليه من حقوق في الدنيا، وجعل خاتمة رسالاته ترفع شعار العدل والرحمة للعالمين جميعًا، وليس للمسلمين وحدهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إن مسؤولية رجال الدين والعلماء في كل ملة أكبر من مسؤولية فرد من عامة الناس، ولقد جاء الوعيد الشديد للفئة القائمة على الدين، عندما يكتمونه أو يشترون به ثمنًا ماديًّا، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ

---

(١) آل بوربون Maison de Bourbon عائلة ملكية فرنسة فرع من عائلة الكابيتيون التي ترجع أصولها إلى لويس الأول وقد حكموا نافارا وفرنسا في القرن السادس عشر وامتد حكمهم في القرن الثامن عشر فحكموا إسبانيا وصقلية وفي الوقت الحاضر ترجع إليهم أصول ملوك إسبانيا والسويد: (ويكيبيديا).

وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] أو يوظفونه توظيفًا دنيويًّا بحتًا لخدمة مآربهم على حساب الآخرين، ويحرفونه عن مساره العامر للدنيا والآخرة، فيستغلونه لأهداف ذاتية تتعارض مع روح الوحي المنزل من عند الله، قال تعالى محذرًا: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

إذًا والحال هذه، فتصرفهم هذا باطل وليس من عند الله قطعًا، ولا نقف عند هذا الحد بتخطئتهم فحسب، بل يجب المسارعة إلى الكفر بطاغوتهم هذا والتوجه فورًا إلى وحي الله الصحيح، حتى نستمسك بالعروة الوثقى، أما هذا الذي يزعمونه دينًا ومن يقف وراءه من أئمة الضلال أيًّا كانوا، فهم الطاغوت الذي أوجب الله الكفر به قبل الإيمان بالله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لهذه الأسباب التاريخية كان من الطبيعي أن توجد نزعات إلحادية خاصة في أوروبا يتصدرها ملاحدة يجاهرون بإلحادهم الانتقامي التنفيسي من جراء هذا التسلط الباطل باسم الدين، خاصة من أولئك الذين ينحدرون من أصل يهودي أو نصراني، حيث تحريف الكتب المقدسة عندهم قد بلغ ذروته، وهو ما لم يحدث مع المسلمين المحفوظين بقرآن يتلى قد تكفل الله بحفظه لا يـأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقول المفكر الإسلامي أحمد ديدات: «إذا قال لك اليهودي أو النصراني: إنه ملحد، فقدم له التهنئة؛ لأنه لم يقلد أباه وأمه على الضلال، بل فكر بعقله، وقرأ الأوصاف الخرافية للرب عندهم، فلم يستسغها عقله، فألحد ظاهريًّا، لكنه متعطش للدين من داخله، والدليل على ذلك أنه بمجرد أن تبدأ معركة مع المسلمين تظهر يهوديته أو نصرانيته من عقله الباطني وبقوة، فهو ليس ملحدًا بل محبطًا بما وجده في كتبه المقدسة عن الرب»[1].

(١) اقتباس من مقطع مرئي من محاضرة لأحمد ديدات رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إجابة له عن سؤال: (كيف ندعو ملاحدة اليهود و النصارى إلى الدين الحق؟): (موقع YouTube على الشبكة العنكبوتية).

وتُعدّ آراء الفيلسوف (رسل) من أشهر ما يستشهد به دعاة الإلحاد لتبرير نزعاتهم الإلحادية وترويجها بين الناس، والحقيقة أنهم يتعمدون التدليس بإخفاء حقيقة أفصح عنها رسل بنفسه عندما أكد بقوة أن مشكلته محصورة في تدين المتدينين وليس مع الدين نفسه، استمع إلى مقولته الشهيرة: «إن الخطر الأكبر ليس في الدين كما هو في حد ذاته، بل في الذهنية الدينية ذاتها التي يمكن أن توجد بكل أسف في النظريات والأنساق السياسية»(١).

*****

الطريق باتجاه واحد!

لا تستوحش النفوس من الطرق المفتوحة باتجاهين، ذهابًا وإيابًا، صعودًا ونزولًا، غيابًا وحضورًا، مرضًا وشفاء، بقدر ما يغشاها الرعب والخوف من رحلة بلا عودة أو صعود بلا نزول، أو ذهاب بلا إياب هكذا حالنا وحالك مع الدنيا وأنت تسير نحو الآخرة الحتمية، أنت على يقين بأنك في رحلة عبور متسارعة وكأنك في مقعد طائرة مشدود الحزام تنتظر هبوطها في محطة الوصول النهائية، كلنا يدرك ما تحمله من هم وقلق على سلامتك وأنت في الجو! جل همك كيف سيكون وضعك الآمن عند محطة الوصول التي أنت هابط فيها لا محالة، فلا بد من تخطيط وتصور لما سيواجهك في تلك المحطة، قدر نعمة الإيمان وأدرك الفرق بين من يجزم بأن طائرته ستهبط بسلام، وسيواصل المسير بأمن وأمان ينتهي إلى منتهى؛ هذه صفاته: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: ١٠٨] وبين من يجزم أنها بعد إقلاعها لن تهبط بسلام، بل ستسقط وتفني ركابها إلى الأبد، وينتهي الأمر عند هذا الحد الظلامي المرعب: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] لكن سرعان ما يحطمهم الندم عند أول موقف حق يواجهونه دون أي فرصة للرجوع، وقد كانوا ينكرونه من قبل: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ

---

(١) نقلاً عن جاك (Jacques Bouveresse, Peut-on ne pas croire?, editions Agone, 2007, Marseille, pp127) بوفراس من كتابه (حول الحقيقة والاعتقاد والإيمان، دار الأرجون، عام ٢٠٠٧).

﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥] قل لي بربك: أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًّا؟

ما أشبه هذه الدنيا بركوب الطائرة في رحلة لا خيار لك فيها، فأنت الآن بحياتك وعقلك وإدراكك وعمرك وتوترك في الدنيا كأنك راكب بطائرة، معلق في الهواء في رحلة بدأت من (ولادتك) متجهة بك إلى وجهتها المحددة، وكل شيء أمامك محدود ومحدد مسبقًا زمانًا ومكانًا، كل ما يجب عليك بالجملة أن تفعله، هو استعدادك وأنت في الطائرة للهبوط الآمن في نهاية هذه الرحلة السريعة، ليس من شأنك قيادة تلك الطائرة أبدًا، ولكن قبل هبوطها، بين يديك بيان واضح لكل طرق السلامة في كل مرحلة ستواجهك، فهذا شأنك أنت أن تأخذ به أو تتركه، لقد أخبرت كيف تحظى باستقبال خاص جدًّا جدًّا عند محطة الوصول التي لا مفر منها ولا مناص عنها (خروج الروح)، من يملك أدنى ذرة من عقل، ثم يفوت على نفسه جمال ألفاظ تحية الاستقبال هذه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] أو يفوت على نفسه سماع تلك التهاني والتطمينات المتتالية طوال خط السير حتى الوصول إلى التهنئة الكونية العظمى، التي تسمو فوق كل تهنئة، والتي سينادي بها كل من سلك طريق الحق مؤمنًا صادقًا عندما يحط رحاله الأخيرة في الجنة خالدًا فيها يستقبل بهذا النداء: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] فيستقر في هذا المقر: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

*****

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

تذكر جيدًا أن أمة المليار والنصف مليار مسلم لا تحتاج إلى إضافتك رقمًا واحدًا على تعدادها، بقدر ما أنت في حاجة أن تنتمي إلى دين الله ولو كنت وحيدًا لكي تنجو بنفسك ولنفسك بالإسلام يوم يقوم الأشهاد، ولكن تأكد أن المسلمين سيفرحون باتخاذك قرار النجاة والتزامك بدين الحق وطريق الهدى، وكيف لا يرضى ويفرح بذلك

إخوانك ورب العالمين وهو القوي الغني لا يرضى لعباده الكفر، ويرضى لهم الشكر، الدعوة إلى الدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ والترغيب فيه والترهيب من الإعراض عنه، ليس تسويقًا لمنتج مجهول ولا دعاية تجارية أو سياسية ولا مشروعًا انتخابيًّا لحزب بشري ولا تعاطفًا مع تكتل أو مجموعة، بل هو بحد ذاته إفصاح عما يمكن الإفصاح عنه من الحقيقة الناصعة وقول للحق المبين، وهو قضية الوجود والعدم، وقضية السعادة والشقاء الأبدية التي تتربع على قائمة أولوياتنا في هذا الوجود، هكذا يجب أن تنظر إلى دين ارتضاه الله بأن يكون الدين عنده وبه ختم الأديان كلها، وإذا مسّك طائف من الشيطان خلاف ذلك أو داهمتك وساوس تزهدك في هذا الدين العظيم، فبادر إلى العلاج فورًا بالتذكر وأبصر وتبصر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] ومن هذا التذكر أن تدرك أنه لو تنزل القائمون على هذا الدين المؤمنون به والمفتخرون بانتمائهم إليه، وواجهوا من يجدون في أنفسهم حرجًا مما جاء به الوحي، ثم سألوهم مباشرة: اِيتونا بدين يهتم بالإنسان والحيوان والنمل والهدهد والبيئة كلها كدين الإسلام، متدخلًا في جميع التفاصيل الإنسانية، من الرحم إلى الوجود إلى اللحود، ومن الطعام إلى اللباس إلى قضاء الحاجة، ينظم المجتمع والاقتصاد والحرب والسلم والحياة والممات وما بعد الممات! ماذا سيكون موقفهم؟

لقد حكم الله بحكمه، وقدر قدره بأن الدين عنده هو الإسلام الذي يبدأ من الإنسان، فيعتني به من كونه مني يمنى إلى أن يدخل الجنة أو النار؟ ألم يأمرنا بأبضاع الحلال وتكافؤ النسب؟ ألم يشرع لنا أحكام الجنين؟ وأحكام الرضاعة ومدة الحمل والعناية بالصغير وإعطائه اهتمامًا أكبر، ثم صيانة الجسم من المهلكات بعد الولادة والبلوغ، فأمره بالغذاء الحلال وبالستر وبحفظ اللسان وحفظ الفرج وكف أذى اليد والرجل، بل وحفظ المني وكف الأذى عن الغير والرعاية في المرض وحقوق الزوج والأولاد والبر والإحسان وترتيبات الموت من النطق بالشهادة والتغسيل والتكفين ومنح القراريط لحامل الجنازة والمصلين عليها ودافنيها، وتولى ترتيب أسرته من بعده، فقسم بينهم المال، ورتب نظام الزواج من عدة وحداد ورضاعة ونفقة وأوقاف ووصية، بل فتح للجميع مصراع باب التقرب إلى الله بالدعاء لأموات المسلمين عامة

عبر الأجيال المتعاقبة، يغمرهم بوافر الفضل وهم رفات في قبورهم، كل ذلك تشريع في الدنيا لك أيها الإنسان، لتحيا حياة سعيدة، أما الآخرة فبين لك سبيل السلامة أو الهلاك واضحًا جليًّا مفصلًا.

فهل من دين آخر أو تشريع بشري يقارب هذا الذي جاءنا من مصدر واحد وشخص واحد، والذي يجعل العاقل يذكر فضل الله عليه ونعمته أن هداه للإسلام، ثم لا يجد حرجًا مما جاء به الوحي خاصة بعدما يدرك أن كل هذا التشريع العظيم الصامد إلى الأبد قد وصل إلينا من خلال شخص واحد أمين لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولا يعرف مجتمع الجامعات ولا المراكز العلمية ولا الشهادات، فالإسلام بحق هو الحق الذي نزل علينا من عند خالق الخلق ومقدر الأقدار ﷻ، ويكفي اعترافه بجميع الرسل وجعل الإيمان بهم شرطًا للإسلام نفسه، وبهذا استحق أن يكون الدين الخاتم العام، إن استحضار هذا التصور الواضح المنصف عن الدين يدحض عنك وساوس الشيطان، ويحصنك بالإيمان بحول الله، ويجعلك مؤمنًا مستسلمًا منشرح الصدر للدين والوحي والقرآن والبعث واليوم الآخر، ولا تجد في نفسك أي حرج داخلي وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

*****

كيف تدين دين الحق؟

إذا سلمنا بضرورة حضور الدين في حياة الناس جميعًا، فلنتجاوزها إلى الخطوة المقبلة، وهي: كيف ندين دين الحق الذي يحمينا، وينفعنا، وينجينا، ويسعدنا في الدنيا والآخرة؟ لا شك أن الإجابة عن هذا السؤال لا تخلو من صعوبة، فلن تجد أحدًا إلا ويدعي أنه هو الذي على الحق الأحق، وأن ملته هي الملة وما سواها هو العلة، حتى

فرعون قد قال لقومه من قبل: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] ومن دون هدي الله ستجد كل أمة تدعوك إلى سبيلها، وكل حزب بما لديهم فرحون، وكل فرد يرى أن الحق معه وحده، وأنه هو مركز الإيمان وأوسط الوسطية، وعلى هذا المعيار الذاتي عند الفرد يرى أن التفريط عند غيره هو ما كان دونه، والإفراط ما كان بعده، وكل أمة أو ملة أو طائفة سيزعمون أن الحق معهم وحدهم، وأنهم على سبيل الله القويم، وصراطه المستقيم، وترك الأمر بهذه الحالة فوضى وتيه لا يستقيم عليه أمر الناس، لكن الأمر لا يحتاج إلى كثير عناء لمعرفة دين الحق، فهو للخالق وحده وليس للمخلوق، وبعيدًا عن كل تعقيد منطقي أو جدل فلسفي، تدين دين الحق بأن تتبع سبيل الله، ولا تتبع غيره من السبل، فتفرق بك، تلك هي وصية الله لعباده: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ولهذا السبب كان لزامًا أن يتدخل الوحي الرباني لحسم الأمر بقوة، والآراء والأهواء البشرية المتناثرة والمتعارضة لا تصلح أن تكون مرجعًا لحل خلافات الناس دون ردها إلى الوحي، وهذا سر أمر الله للناس أن يتداولوا شأنهم بينهم وعند الاختلاف أمرهم الخالق ﷻ بالرد جميعًا إليه وإلى الرسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وبعيدًا عن كل تعقيد أو وصاية أو استغلال، فإن التدين المطلوب بحمد الله يسير وميسر للجميع، ولا يتطلب سوى التسليم الكامل للخالق وحده بكل إخلاص، والإيمان الصادق بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وبذل الجهد في العمل والإخلاص للخالق فيه، ولا ينبغى أن يترتب على هذه المصارحة بالتفريق بين الدين والمتدينين أي إحباط أو يأس في الحياة أو زهد في الدين الحق، بل يجب أن نتوجه إلى الدين نفسه، نتلقاه صافيًا من مصادره وليس من سلوكيات بعض المتدينين، وإذا أردت أن تدين بدين الحق وأنت مطمئن فما عليك إلا أن تبدأ بالخطوة الأولى الضرورية لما بعدها وهي أن تؤمن بالله حق الإيمان، وجودًا وأسماءً وصفاتٍ، وهذا اعتقاد بالقلب لا يكلفك شيئًا، يوجب عليك أن تصدق بوجود الله يقينًا قاطعًا، وتقر له بربوبيته خالقًا

لكل شيء ومدبرًا له، وتقر له بألوهيته بأنه الواحد الأحد الذي يستحق العبادة، وحده لا شريك ولا ندّ له في ملكه، تؤمن بأسمائه وصفاته التوقيفية التي لا يشابهها شيء مما يخطر بعقول البشر؛ لأن الله ليس كمثله شيء سبحانه.

عش حياتك طبيعيًّا متوازنًا، ثم تعايش مع غيرك ممن يشاركك الحياة، ولا يحاربك من غير المسلمين من أجل مصلحتكما، واعلم أن دينك قد أوجب لهم حقوقًا معتبرة، وقبل ذلك التزامًا بحكم الله في هذه المسألة، فهو أعلم وأحكم من جميع خلقه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] ولكن لا توادّه أو تحبه في قلبك أو تواليه ضد أخيك المسلم، فقد حكم الله بحكمه في هذه المسألة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

تأكد أنك لن تكون صالحًا مصلحًا بكفاءة ومنزلة الرسل المؤيدين بالوحي والملائكة، ومع ذلك ستجد في سيرتهم ما يكون لك عزاءً في أي إخفاق يقع منك أحيانًا، فبسبب الخطأ ومخالفة أمر القائد هزم المسلمون في أحد، وبسبب بعض العجب هزموا في حنين بادئ الأمر، فلا تيأس من روح الله، ولا تقنط من رحمته، وأحسن الظن به دائمًا، سدد وقارب في حياتك ما استطعت في كل أمر، عليك بالرفق في كل شيء وخاصة بنفسك الضعيفة، فلا تحمّلها من البلاء ما لا تطيق، فإنك منهي عن ذلك شرعًا، وعليك بالرفق مع الكل فـ «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه**»[1]، تأمل ما حولك، وتدبر، وتفكر، وخذ من العلم ما يثبت بالبرهان الحسي والبرهان العقلي، وما يستنتج من ذلك مساعدًا لك على تفسير الظواهر الكونية، ولكن لا تجعله مفسرًا نهائيًّا لها؛ لأن العلم يتطور، ويتغير ونصوص الوحي ثابتة وباقية، واعلم علم اليقين أن

(١) الحديث رواه مسلم (٢٥٩٤) عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**».

الوقت لا يتسع للعبث واللهو وطول الجدل، والفرصة الدنيوية لا تتحمل فوق سعتها الاستيعابية، فتدارك أمرك، وتضرع إلى الله تعالى بالدعاء دون أن يثنيك عن ذلك كبير ذنب أو عظم خطيئة.

تذكر أن أمامك مفاجآت قادمة مستحضرًا بيقين مسبق أنه لا عودة من هذه الرحلة الأولى، التي كانت هي الأخيرة أيضًا، لا تقلق من (شد حزام المقعد) في الحياة الدنيا بما تمر به من ابتلاءات فكرية وجسدية واجتماعية، فإنه مؤقت جدًّا، فاصبر عليه؛ لأن العاقبة للصابرين، كن كذلك مؤمنًا خائفًا راجيًا لله وحده لا شريك له، منتظرًا اليقين ولقاء الله تعالى، فهذا هو دين الحق بالجملة، وبعد ذلك ابتسم وتمتع بحياتك وعش سعادتك مع أهلك وأولادك، واحمد ربك أن عافاك مما ابتلى به غيرك، ولا تلتفت بعد ذلك إلى أحد من البشر مهما كان مقامه، فأنت غني بإيمانك هذا عن الخلق أجمعين: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] ولا تقتدِ بغير الأسوة الحسنة ﷺ وكفى، فقد حسم الله هذا الأمر من قبل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

هناك لحظات حتمية قاسية ستواجهك عند الموت، أدرك هذه الحقيقة جيدًا ما دمت في سعة من الأمر، واقلبها إلى لحظات أنس وفرح وطمأنينة بالإيمان بالله، أنقذ نفسك من كل ما يرعبها في هذا الوجود، قم بهذا وحدك، وتأكد أن كل من حولك الآن سيكون آخر عهدهم بك أنهم سيطمئنون بعد موتك على شيء واحد، وهو أنهم قد دفنوك حتى لا تظهر جثتك على سطح أرضهم أبدًا؛ لأن في ذلك إزعاجًا لهم! لقد أسلموك لشأنك وحدك، وستبقى مرهونًا برصيدك الشخصي معلقًا به في القبر، رصيدك في تلك المرحلة هو فقط ما كنت تعتقده، وتقوله، وتعمله يوم أن كنت فوق السطح مختارًا، لقد تركك الناس وحيدًا في قبرك لن ترى أحدًا من أهل الدنيا بعد ذلك إلا في أحد مكانين لا ثالث لهما: إما دار الشقاء الأبدية، أو دار السعادة الأبدية، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن جاءنا الخبر الحق الذي لا نملك إلا تصديقه والإيمان به أن أمامنا أهوالًا يشيب منها الولدان، وستعبر أنت هذه الأهوال الموحشة وحيدًا: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ [المزمل: ١٧– ١٨] لقد

جاءنا النذير، فلا مفاجأة ولا صدمة ولا غرابة ولا عذر، ولن يكون الملاذ الآمن من تلك الأهوال إلا لعباد الله المؤمنين الذين وعدهم ربهم الرحمن في كل مرحلة بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

*****

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

اعلم أن الإيمان بالله تعالى هو بوابتك المعرفية في الحياة الدنيا والآخرة، وهو مفتاح فهم كل شيء على الإطلاق غيبًا كان أم شهادة، وهو أصل عظيم في الوجود كله يتفرع عنه إيمانك بكل شيء بعده، من وجود وعدم، وبقاء وفناء، وخير وشر، وملائكة ووحي ورسل، وكتب مقدسة، وقضاء وقدر، وحياة البرزخ في القبر، وبعث ونشور، وجنة ونار، هذه الخطوة هي أهم وأولى الخطوات في طريق الإيمان بهذا كله، ولا ينبغي التفكير في الانتقال إلى العمل دون حسمها بالقلب والعقل، فالعمل لا ينفع بلا إيمان صحيح: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] بل إن قبول العمل الصالح الذي ينتج السعادة في الدارين مشروط بالإيمان السابق عليه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

لا يمكنك الشروع في الطاعات العملية ما لم يتم حسم هذا المدخل حسمًا نهائيًّا، ثم بعد هذا تنتقل إلى الطاعات القولية والعملية مسترخيًا مطمئنًا، وهذه الخطوة ميسرة جدًّا بقدر الاستطاعة، تجاهد نفسك في تنفيذ أمر الله ورسوله، مستحضرًا ضعفك وفقرك إلى من هو أغنى وأقوى، وأنك لن تدخل الجنة بعملك دون رحمة الله لك، ثم تجبر قصورك وتقصيرك بذكر الله والاستغفار والانكسار ودموع الخلوات، لا تجعل من صدمة المعصية حاجز يأس بينك وبين الكريم الرحيم ﷻ، مهما كبرت المعصية بعينك، فهي صغيرة في عفو الله ورحمته الواسعة مع صدق الندم والإخلاص في الاستغفار من العبد، تذكر أن أباك آدم قد عصى من قبل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وتذكر

أنك ابنه وأنك على خطى والدك قد خُلِقت خطاء أيضًا، وتذكر أنه لا يمكن أن تنفك من حبائل المعصية والخطيئة، وأن الخطأ ملازم لك، وما دمت حيًّا في الدنيا، فلست معصومًا من الذنوب، وقد خلقت ضعيفًا، لا تكترث بأحكام البشر على البشر، وكن واثقًا من رحمة رب البشر؛ لأن (المجرم) في أحكام البشر ما هو إلا شخص سوي يخطئ مثل أغلبهم إلا أنه قبض عليه متلبسًا! وكلما استكثرت ذنبك تذكر سعة رحمة الله، والجأ إليه بالدعاء موقنًا بالإجابة، وتذكر أن الله قد استجاب لإبليس وهو من هو بالكفر والمعصية، ألم يسأل ربه قائلًا: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩] فاستجاب له: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [ص: ٨٠] فكيف تظن أنه لا يستجيب لك وأنت تدعوه مستغفرًا، أو تستنصره مستضعفًا؟!

لقد أُمرنا ربنا بالطاعة، ونهانا عن المعصية، وأمرنا بمجاهدة النفس على ذلك بقدر الاستطاعة، ولكن المعصية إذا وقعت لا تنفي الإيمان، وإن أثرت في درجاته، وعلى كل من زهد بما آتاه الله من إيمان، وخاف على انفلاته أن يتذكر ذلك الشعور الغريب الذي يحاصره من كل جانب عند التجاوز بحق الله بصغيرة كانت أو كبيرة، ولأنه محب لله صادق الإيمان به، كثيرًا ما يعاتب نفسه متسائلًا: كيف أتجرأ على المعاصي في المعصية وأنا مؤمن بالله مستحضر عظمته وأسماءه وصفاته واطلاعه على السرائر، فيوسوس له الشيطان بمشاهد اليأس والإحباط، بل لربما أيضًا فهم حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[(١)]، فهمًا خاطئًا، فيقسو بالحكم على نفسه وعلى كل عاصٍ مثله دون أن يقف عند عبارة: «**حين يزني**»، فالزاني مؤمن وإن ارتكب هذه الكبيرة المحرمة، لكنه لحظة ارتكابها قطعًا يمر (بسكتة) إيمانية يستدركها نادمًا تائبًا لمن كتب الله له الخير بعد لحظات من الحدث، متذكرًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣].

ثم من قال لك: إن الخطيئة تتعارض مع أصل الإيمان، وقد خلقك الله خطاء؟ أي إنك لا بد أن ترتكب الذنب الموجب للاستغفار والاستكانة لله بعده، وهذه من لوازم

---

(١) الحديث رقم (٢٤٧٥) عند البخاري ورقم (٥٧) عند مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**».

العبودية لله، عبد يذنب ويستغفر، ومعبود يرحم ويغفر، وإلا لذهب الله بك، وجاء بقوم آخرين يذنبون ويستغفرون، فيغفر لهم، هكذا أخبرنا رسول الهدى والرحمة ﷺ بقوله: «**والَّذي نفسِي بيدِه، لَو لَم تُذنِبُوا لذهبَ اللهُ بِكُم، ولجاءَ بقومٍ يُذنِبُون فيستَغفِرونَ اللهَ فيغفرُ لَهم**»[1]، وثمة أمر آخر، وهو أنك لن تنفك من هذا الذنب حتى لو آمنت بالله إيمانًا يقينيًّا يبلغ إيمان الأنبياء، تذكر أباك آدم الذي جاء من عند الله، وخلقه الله بيده، وأوحى إليه، وأمر الملائكة بالسجود له، لقد كان طبيعيًّا جدًّا أن وقع في المعصية، فخالف نهي الله له ألا يقترب من تلك الشجرة: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وكان من رحمة الله به أيضًا أن انتهى الأمر عند هذا الحد: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] وأنت ولد آدم، ستذنب كما أذنب، فاستغفر كما استغفر، حتى يجتبيك ربك، ويتوب عليك، ويهديك كما اجتباه وتاب عليه وهدى، فكن قريبًا من الله تفلح، إذ لا ضير من وجود الذنوب والخطايا على الإيمان ما لم تكن مكفرة، أو أن يتطبع الإنسان عليها متهاونًا بها دون ندم ومجاهدة للنفس على ترك المعاصي، كن واثقًا مطمئنًا من أن الكريم الذي رحم أباك آدم، وتاب عليه سيرحمك، ويتوب عليك لأنه هو التواب الرحيم.

واجه الأخطاء المستعصية في نظرك بفتح خطوط موازية لها من الطاعات والعبادات وكثرة التوبة والاستغفار والندم، وحينها لا تكون مستعصية أبدًا، جاهد نفسك في الطاعة واجتناب المعصة بقدر الاستطاعة، فإذا ضعفت يومًا فأكثر من لجوئك إلى الرحمن الستير بالتضرع والبكاء والدعاء، مهما كانت خطيئتك، أصلح ما بينك وبين خالقك يصلح ما بينك وبين الخلق، قم بواجبات الدين الرئيسة العملية من صلاة وزكاة وصيام وحج بقدر استطاعتك، ثم تطوع بعد ذلك ما شئت، واعلم أنك لست مخلوقًا لكي تصبح ملائكيًّا في طهرك وصلاحك ونقائك، ولكن جاهد نفسك، وتأدب بآداب الإسلام العامة من قول الخير وصلة الأرحام والبر بالكبير والرحمة بالصغير والصدقة والهدية، قم بحق أخيك المسلم عليك، انصره ظالمًا أو مظلومًا، وكن به رفيقًا ورحيمًا، عليك بالوسطية والرفق والعفو والصفح والتسامح والبعد عن التجريم والتزكية

(١) الحديث رقم (٧٠٧٤) في صحيح الجامع للألباني.

بلا ضوابط يحددها النص الصريح، تذكر أن دين الحق وسطي بين إفراط المتنطعين وتفريط المعرضين، والتطرف من الجانبين آفة قاتلة تحول بين الناس وبين كثير من الحق المبين، أعرض عن هذا كله، وتذكر حقوق الأجيال عليك كما تتذكر حقوقك في توازن وجودي لن تجده إلا بالدين الحق الذي وصف انسجام الأجيال المؤمنة فيما بينها ونظرتها السلمية وتعاقبها المبني على المودة والمحبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٠]، فما الذي يحول بينك وبين أن تدين بهذا الدين الذي هو الحق بعينه؟ كل ذلك سيتحقق بفضل الله وبرحمته انطلاقاً من هذا الإيمان الفطري المتجذر في قلبك، وستجد لذة في هذا التدين المتوازن وستكون لك الحياة كلها سعادة وفرحاً، وسيكون الموت كله ترقباً وأملاً، فلن يضيع حقك في أي ضراء أو ابتلاء أو مصيبة تصبر عليها، وعاقبة الصبر أن تنقلب الضراء إلى سراء، وتصبح مصدر نبع للحسنات ورفعة الدرجات، وكلها خطوط خير عريضة تغسل المعاصي مهما استعصت في نظرك بحول الله الذي قدم لنا هذا العرض الكريم بوعده الحق أن يتوب علينا، ويغفر لنا: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

*****

الفصل السادس عشر

الأمن بالإيمان والخوف بالكفران





الأمن بالإيمان والخوف بالكفران

لا أمن ولا أمان في الكون كله إلا ممن يملكهما، ومن ادعى من الخلق أنهما بيده فليوفرهما لنفسه، وليدفع عنها المرض والموت، ولكن ما هو السر وراء ميول النفوس وارتياحها واستكانتها وبرودها عند سماع كلمة الأمن؟ بينما تنعكس الحالة تمامًا في غيابها! وإذا كانت الطمأنينة والأمان غاية كل مخلوق ومبتغاه، فليس غريبًا أيها الإنسان، أن تستشعر هذا الخطر من حولك، وتستوحش مما يخبئ لك المستقبل متطلعًا إلى أي طمأنينة أبدية تشعر عادة أنها شبه مفقودة في حياتك الدنيا لاهثًا وراء أي حقيقة أو حتى سراب تعتقد أنه يوفرها لك، وحتى من لا يؤمن بالبعث تراه هو الآخر لا يقل بحثًا عنها، إن لم يكن أشد من غيره لفقدانه آلية الوصول إليها، وخوفه المبطن من مواجهة (الحقيقة) بعد الموت، وهذا هو سر قلقه من إنكار البعث، واستماتته بالجدال العقيم لإيهام نفسه بقناعته الظاهرية بذلك، وإلا لارتاح واستراح واستمتع بمعتقده الذي ارتضاه مهما كان، لكنه يصارع نفسه من الداخل، يعلم علم اليقين أنه يصادم فطرة الله التي فطر الناس عليها، هناك هاتف يهتف له من بعيد! ومن داخل نفسه! هناك همس خفي وكأنه يقول له: أنت في خطر! أدرك نفسك! فتراه من حيث لا يدري يتلمس الضمان بالأمن في كل مرحلة من حياته، فيعيش قلقًا على مستقبله؛ لأنه ببساطة لا يدري ولا يعلم الغيب، ومرتاب من المستقبل وهو يجهل ما سيحدث له في الساعة القادمة من عمره، ولا ينكر عجزه أمام تقلبات الزمان وحوادثه، وقد يصل به الحال إلى حالة (الانتحار) غرقًا في بحر المكابرة والعناد، فقد ظلم نفسه أن حملها ما لا تطيق وما لم تخلق له، ولم يقرر بعد الركون الهادئ إلى دفء الإيمان ونعمة الأمن فيه، ذلك الأمن الحقيقي الذي قرره الخالق بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وبقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨- ٧٠].

من حق من أنعم الله عليه بهذه النعمة الإيمانية العظيمة وانشرح صدره للإيمان أن يتساءل عن تلك النزعة العنادية المهيمنة على مدعي الإلحاد لتحبسه داخل تلك الزوايا

الموحشة في الماضي والحاضر والمستقبل من هذا الوجود، وماذا أعد لما سيلاقيه أيًّا كان، ورب السماء إنه لا طاقة لهم، ولا لغيرهم في مواجهة هذه الوحشات الوجودية: الزمانية والمكانية وسر الحياة وجودًا وعدمًا ومآلات ما بعد الموت دون ملاذ آمن من الله وحده، ألستَ في حاجة عاجلة إلى توفير الحد الأدنى من الطمأنينة لكي تحيا سعيدًا في الدنيا، وتموت وأنت متفائل في الأخرى، إن الله قد وعدك ليس فقط بالحد الأعلى من الطمأنينة والأمان بل بأعلى حد منها، ومما لا يمكن تتخيله بعقلك البشري وذلك مع الإيمان به.

تلكم هي الطمأنينة المنشودة التي لا سقف لها ولا حد، ولا يجلبها للقلوب إلا الإيمان الصادق الذي يجمله هذا الخوف والتخوف عليه، وإذا جمعت بين خوف الله ورجائه فأنت تخاف وترجو قوة من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وبالتالي نشأ هذا الخوف منه لأنك مؤمن به قطعًا، لكن البشرى العاجلة لك هي أن الذي تخافه هو وحده الذي سيوفر لك الأمن والأمان المطلوبين، وكلما ازداد خوفك ازداد قربك منه، فأنت تتقرب إليه خائفًا أو راجيًا، وهذه سمة لا تجتمع لأحد سوى الخالق، فهو الذي يستحق أن ترجوه، وتخافه وحده، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

هذه مرتبة إيمانية عظيمة، وهي في متناول يدك، مفتاحها إدراكك لحقيقة حجمك في هذا الوجود، ومن أنت أمام نفسك وعقلك وتفكيرك والوجود من حولك! إدراكك حقيقة ضعفك أمام القوي وفقرك أمام الغني، وصغرك أمام الكبير، وفناءك أمام الباقي، وسواء آمنت بذلك أم لم تؤمن فأنت كذلك طالما أنك عاجز قطعًا أن تحدد زمان وجودك ومكانك في الكون، ثم لا تعلم متى، ولا تستطيع دفع الموت عنك وأنت تكرهه بلا شك، وتفر منه أشد الفرار، نعم، هذا هو أنت يا ابن آدم، فاستجب لهذا النداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ [النساء: ١٧٠] ولا تكابر إن كنت مكابرًا، ولا تجادل إن كنت مجادلًا، فلن تصل للكمال الإنساني إلا بصلتك القوية بمن يملك صفات الكمال المطلق، هذه الصلة تعوضك عن ضعفك بأقوى بديل، فمن شدة حاجتك للقوي العزيز تصبح قويًّا، ومن حاجتك إلى الغني الحميد تكون غنيًّا، وتستعد بإيمانك بما بعد الموت لما بعد الموت، وهذه أسباب الطمأنينة والأمان: ﴿ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] كيف يصل المرء إلى هذه الطمأنينة؟ يصلها عن طريق توحيد مصدر الخوف فيمن يملك إزالة الخوف مع مصدر الرجاء فيمن يحققه، وتحييد جميع مصادر الخوف والرجاء الأخرى لضعفها أمامه، إنها الراحة عندما تأنس بالإيمان بمن يملك تحقيق الأمن المطلق لك، وتحصر ذلك فيه وحده لا شريك له سبحانه، تلكم هي حلاوة الإيمان المنشودة.

*****

سَكْرَة الشباب وصحوة الراشدين

إنه لا سواء بين خالق ومخلوق، وعلى المخلوق أن يدرك أن أهم خطوة الوصول إلى بر الأمان هي الإقرار بالعبودية المطلقة للخالق وحده، حتى لو رآها بعض المعرضين ثقيلة عليهم تبقى الخيار الأوحد للسلامة، ومن الطبيعي أن يدركها الراشدون أكثر من الشباب نظرًا لحلول الحاجة وبداية الضعف الموصل للنهاية عندهم، فترى الإنسان في ريعان شبابه يستمع إلى مثل هذه القضايا من باب الاطلاع العام والترف الفكري، بينما الكهل يتتبع تفاصيل ذلك، وكأنه يقرأ وصفة دواء اشتراه من الصيدلية لعلاج ضروري! والكيّس الفطن هو من يهيئ نفسه لذلك في وقت الرخاء، ولكي يأمن ويطمئن الطمأنينة المطلوبة، عليه بتهذيب نفسه وعسفها على أن تدرك أن جانبًا من وجوده هو أن يؤمن إيمانًا قاطعًا بأنه مخلوق ضعيف، وأن زمانه ومكانه ووجوده محدود ومؤقت جدًّا، والخطاب موجه إليك أيضًا أنت أيها القارئ الكريم، شخصيًّا، فلست مهيمنًا ولا محيطًا بهذا الكون، أنت لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًّا فضلًا على ما سواها، ولست جمادًا ولا سفيهًا فاقد الأهلية، بل أنت إنسان تفكر، وبمجرد إشغال تفكيرك بهذا الأمر فأنت تدرك الأولوية الأولى والمهمة الكبرى لوجودك، إذًا أنت عاقل، وأنت كائن متميز، ومحل التكليف وأهل للمحاسبة، إنك باختصار عبد الله وحده، فكن عبدًا لله.

وتحت إطار العبودية لله تمتع بكامل الحرية تجاه المخلوقين، سيأتي لك كل ما دون ذلك بشكل طبيعي وانسيابي غير مزعج لك، فكر في كل شيء بكامل حريتك،

وتأمل كل شيء في فضاء مفتوح، فأنت محصن في أصل هذا الإيمان، لائذ بأمنه وأمانه، وسيكون تفكيرك هذا مهما بلغ اتساعه، طبيعيًّا ومألوفًا وفي إطاره الصحيح، ووضعه الطبيعي بلا خوف ولا قلق ولا وجل ولا وحشة، تصبح على صواب في أفكارك كلها؛ لأنك والحال هذه قد وصلت إلى ما وصل إليه أولئك الذين فرح النبي ﷺ بما توصلوا إليه من تفكير سليم مطلوب، لما اشتكى الصحابة رضي الله عنهم ما وجدوه في أنفسهم، مما قد تجده أنت وغيرك اليوم، لم يزد على أن قال لهم ولنا ولك وللناس أجمعين من بعدهم: «ذاك صريح الإيمان»، وسمى ما يدور بعد ذلك من شوشرة نفسية غير مؤثرة بـ (الوسوسة) التي يجب ألا تقف عندها طويلًا.

استغنِ بالله الغني الكبيرعن كل من يزعم أنه غني وهو فقير، واقفل باب الجدل والشك من لحظتك هذه، وقم وتحرك هذه اللحظة، وانجُ بنفسك أولًا وآخرًا بتحصينها فورًا بالإيمان، لا تنشغل عنها بشأن الغير، ولا يشغلنك الغير عن نفسك، فالكل سيتخلى عنك قريبًا، إننا نشهد ذلك يوميًّا، ونحن نودع أحباءنا في المقابر إلى غير رجعة إلى الدنيا مطلقًا، ندفنهم بإخلاص، ثم نتولى عنهم مدبرين بشيء من الحزن السريع، ثم لا نلبث أن ننساهم كما نسوا من كان قبلهم، وسينسانا من سيكون بعدنا إلا من يسير ذكرى أو دعاء لمن ترك وراءه صلاحًا، والذي سيبقى معنا بعد رحيلنا هو فقط ما كان مع الخالق عز وجل أولًا وآخرًا في الحياة وفي الممات وفي كل حين.

*****

معية الإيمان حصانة ذاتية

هناك حالتان من الطمأنينة، الأولى: (ذاتية) تكون من داخل النفس، ومن ثم فهي ملازمة للمرء حافظة له في أي بيئة اتجه إليها، وهي أشبه ما تكون بالمناعة الواقية من الأمراض الخارجية المهاجمة للعقل، والثانية طمأنينة (جمعية) يكتسبها الإنسان من الألفة والأنس مع من حوله من البشر فيما يعيشه ويعقله، فتراه مرتاحًا مطمئنًا في الأجواء الدينية الاجتماعية، حيث يكون الكل حوله مسلمًا ملتزمًا وكأنه (عند أستار

الكعبة مثلًا) بين الركع السجود والمآذن والأذان والصلاة والصيام والقيام والقرآن، إنه يعيش إيمانًا جماعيًّا مرتبطًا بالبيئة المحيطة به أكثر من وجوده في معتقده الذاتي داخل عقله الباطني، وهذا النوع من الإيمان الجمعي مطلوب، وهو نتيجة وجود الرفقة الصالحة، بيد أنه لا يكفي وحده، حيث يواجه المرء صعوبات خطيرة بمجرد انتقاله إلى الأجواء الأخرى منفردًا، خاصة عندما يرى الأعداد الهائلة من البشر منتشرين في حياتهم اليومية في (مدينة بومبي) - مثلًا - أو في (مطار كينيدي في نيويورك)، أو محطة (بيكادللي في لندن)، وهم جميعًا على غير دينه، فيجد نفسه وحيدًا على الدين الحق غريبًا بين الملايين على غير ملته، فتبدأ الوحشة والقلق يحاصرانه داخليًّا مع غياب الطمأنينة الجميعة المؤانسة له، ولو كانت حصانته الإيمانية قوية لما دخل في دوامة اضطهاد ذاتي من هذا النوع الناتج من البيئة الجديدة، إنها المناعة التي جعلت الأنبياء يواجهون أوضاع قومهم منفردين غير مكترثين بكثرة قومهم على الباطل.

من الطبيعي أن يواجه أبناء المسلمين الأبرياء هذه الصدمة بمجرد وصولهم إلى بلاد غير المسلمين إذا لم يتزودوا بما يحميهم من ذلك التيه، وعلاجها فقط في تقوية الطمأنينة الذاتية الداخلية وتصحيح التصورات الخاطئة عن الدين، والتأكيد على أن الدين هو بالدرجة الأولى علاقة الإنسان مع ربه قبل أن يكون معاملة بين الخلق أنفسهم، وأنه على المؤمن أن يستشعر دائمًا أنه مع ربه، وأن ربه معه حيثما حل، فالدين الحق يستقيم تمامًا في أي ظرف حتى لو لم يؤمن به أحد قط: «**يأتي النبي وليس معه أحد**»[1]، ويبقى المؤمن به مؤمنًا محمودًا متميزًا في أي بيئة كان، حتى لو أصبح على تلامس وتماس وتعايش دائم مع أعتى الكفار والجبابرة: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ١٠٥] فلا بد - أخي المؤمن - أن تستحضر هذه الحقيقة بكل شجاعة مع الذات، فترفع رأسك معتزًّا بدينك مؤمنًا به حق الإيمان تحت أي ظرف، لا تستوحش من وجود الكافر في محيطك، فهذا لا يضرك أبدًا، أرأيت كيف أن (آسية بنت مزاحم) من سيدات نساء الجنة بإيمانها،

(١) الحديث رقم (٥٧٠٥) عند البخاري ورقم (٢٢٠) عند مسلم عن ابن عباس ﭬ عن النبي ﷺ قال: «**عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد**».

وليست مجرد مرافقة لفرعون فحسب، بل هي زوجته الملاصقة له، التي تنام معه في فراش واحد؛ إنه أعتى جبار وأكفر كافر (فرعون)! وكذا الحال مع نوح ولوط عليهما السلام، كيف كانا يرقدان في بيت واحد، بل في مرقد واحد مع امرأتين كافرتين: ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [التحريم: ١٠].

سبحان الله ما أروع هذا الدين المستقل بذاته، وما أصدقه مع النفوس والوجود، ما أعدله وأنصفه وأحسنه! انظر كيف يلقي أمامك ومن حولك أطواق النجاة في كل شيء، فإذا تبين لك كل هذا، فانعم بإيمانك هذا وقربك من ربك، ودع عنك القلق والوحشة والتشكيك، احزم أمرك من لحظتك هذه، واستعد به لما هو أولى من العبث واللهو والوسوسة والجدل العقيم، وأي حماقة يرتكبها الإنسان عندما يتردد، ويسوّف مؤجلًا قراره الإيماني المحض والوقت يمضي والموت يداهمه كل لحظة! وإذا كان هذا ما يمليه على الإنسان العقل السليم والمنطق الصحيح وفق ما سبق إيضاحه، فكيف إذا علمنا أن الأصل هو أنك يا ابن آدم، لم توجد ولم تخلق في هذا الوجود إلا لعبادة الله الذي يخلق ما يشاء ويختار ما كان لك ولا لغيرك الخيرة في ذلك: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهنا يجب أن ننتهي، حيث أمرنا ربنا أن ننتهي عنده، فيصبح لزامًا علينا وعليك، أن نطوي صفحات الوسوسة والقلق - لمن كان منا كذلك - وأن ننعم بهذا الإيمان الحافظ الذي نحمله بفضل الله علينا، بهذا الإيمان لن يضرنا أحد، نستغني بالغني عن كل فقير بمن فيهم أنا وأنت، ثم نستغني عمن حولنا من البشر، عليك أن تأنس بهذا الحق حتى لو كنت وحدك عليه، وألا تكترث بما قد يمليه عليك الخلق مما يختصمون فيه، تذكر أنك قد خلقت في بطن أمك وحيدًا، وخرجت إلى الدنيا وحيدًا، وستخرج منها وحيدًا، وستواجه مصيرك فيما بعد الموت وحيدًا، وسيصبح من كانوا حولك في الدنيا عبئًا عليك في المحاسبة عن الحقوق بعد الموت من ذرية أو رعية أو والد أو ولد.

إذًا، فلتكن طمأنينتك ذاتية نابعة من إيمانك المطلق بالله من داخل وجدانك حتى تصاحبك هذه الحصانة في كل تقلباتك وتنقلاتك، وتحميك من المزعجات الفكرية حيثما حللت أو ارتحلت، وتحصنك لملازمتها لك أينما وجدت لا يضرك بعد ذلك من ضل

إذا اهتديت، حتى لو ضل الناس جميعًا، ولا تستوحش بحال من حولك من الناس، لن تكون في خطر بحول الله ما دامت بواعث الطمأنينة والسعادة تتدفق من داخلك، أكثر من كونها فتاتًا متناثرًا تجمعه مما يحيط بك من بيئة متقلبة إن صلحت صلح إيمانك معها، وإن فسدت فسد معها، ومهما كان ارتباطك الاجتماعي بمن حولك، تبقى كيانًا مستقلًّا بذاته، لك شخصيتك وقرارك في النهاية، ومن المؤكد أنك لن تقتحم النار لمجرد أنك رأيت من يقتحمونها أمامك، مدعيًا الأنس بهم في كل حال، بل ستحرص على معرفة أسباب اقتحامهم لها كي تتجنبها! حتى لو هربت منفردًا عن الخطر؛ لأنك تدرك الهلاك المتحقق من جراء ذلك، ولن تحتج بالكثرة ولا بالقدر! وقد رأينا من يتشبث بذلك أحيانًا، ويتذرع به وقت الرخاء، ويهرب منه وقت الشدة: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥].

فقدان التوازن الفكري بين الذات والبيئة المحيطة، واهتزاز الثقة بالنفس واقتناعها وتأثرها بما يدور حولها، هو الذي يدفع بعض الناس إلى أن يسائل نفسه سرًّا: «كيف يكون هؤلاء على كثرة عددهم على الباطل، وأنا وحدي منفردًا أو مع أقلية مثلي على حق؟»، ليت السائل يتذكر أن الكثرة لم تكن يومًا معيارًا لحق أو لباطل، ولو كانت الأكثرية هي التي دائمًا على الحق لما تطلب الأمر وجود رسول ولا نبي ولا مصلح؛ لأن هؤلاء يأتون عادة بمفردهم يحملون رسالات الله لمواجهة المجتمع الغارق بأكثريته، إن لم يكن كله في الضلال، فكل مصلح بين مفسدين هو أقلية صلاح بين أكثرية فساد، وجميع المصلحين عبر التاريخ كانوا كذلك.

ومع الطموح الجاد لنيل أعلى درجات الإيمان الممكنة، إلا أنه لا بأس على المرء أن يأنس بصحبة المؤمنين الذين يعينونه على الحق، ويستأنس بهم، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] وقوله: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] وهذه مرتبة حسنة، ولكن المرتبة الأعلى والأسمى منها حال الغرباء: «**طوبى للغرباء**»(١)، الذين يصلحون إذا فسد الناس كما جاء في الحديث،

---

(١) الحديث رقم (٣٩٢١) من صحيح الجامع للألباني عن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**طوبى للغرباءِ أناسٌ صالِحونَ في أناسٍ سوءٍ كثيرٍ مَنْ يَعصيهم أكثرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ**».

وكذا الحال عندما لا يستجيب الناس لنبيهم الذي يأتيهم بالحق: «**يأتي النبي وليس معه أحد**»[1]، ولهذا وصف الله إبراهيم عليه السلام بالأمة؛ لإيمانه وحده: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠].

هذا هو الحصن الحصين والحبل المتين وحق اليقين في الطمأنينة المنشودة، والثقة المطلقة التي لا تبقي مساحة لوجود أي نوع من الوحشة أو القلق من كثرة الباطل حولنا، فاجعل همتك دائمًا التطلع نحو هذه المراتب العليا من الإيمان الذي سيلازمك حافظًا لك أينما ذهبت في حياتك وحتى بعد مماتك، ولتكن شجاعًا في مواجهة أي شبهة من الوسواس بعد ذلك، استكثر بالله عن كل مخلوق قليل أو كثير، وأنس به من كل رعب ووحشة، فالله ربنا وربك، وهو أرحم بك من نفسك ووالديك والناس أجمعين، وهو أعلم ويعلم ما في نفسك، ولا تعلم ما في نفسه، وهو الذي ستأنس بمعيته لك في الدنيا والبرزخ والآخرة، وبعد هذا يبقى الأمر أمرك، والشأن شأنك، والحياة حياتك، والممات مماتك، لتختار طريقك إلى عالم المستقبل.

انهض من لحظتك هذه، واصعد سلم الأمان، واحذر كل الحذر من أن تجد نفسك في لحظة من مسيرك الغافل في الدنيا في موقف الحسرة الكبرى الذي تقول فيه: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦] ابدأ بالإيمان فأصلحه أولًا، ثم انتقل منه إلى العبادات والمعاملات مجتهدًا بقدر الاستطاعة، فالأعمار تنصرم بسرعة فائقة، ولا وقت ولا مكان لضياع فرصة العمر القصير بهذه الطريقة الجدلية العقيمة الموحشة، قريبًا ستنقطع صِلاتك تمامًا بكل ما حولك، وستترك هؤلاء الذين يؤثرون فيك وتتأثر بهم فكريًّا فوق الأرض، وسيتركونك وراءهم، وسينصرفون عنك بعد أن يرموسك رمسًا، ويدكوا عليك التراب دكًّا، إن أولئك الذين أشغلوك في حياتك بالجدل حول وجود الله ومبدأ الكون ومنتهاه قد وضعوك بعد موتك في مستوى دون أقدامهم بأمتار تواجه مصيرك الذي كنت تجادل فيه في الدنيا، لقد كان آخر عهدك بهم وبكتبهم وبفلسفتهم وبهرطقتهم وجدلهم عن الوجود، وكنت شريكًا معهم في الحوار يوم أن كنت حيًّا تمشي معهم في الأسواق، وها أنت تغادرهم، وتغادر

---

(١) الحديث متفق عليه عن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

كل الحياة وحيدًا، لقد انعدمت تلك الشراكة الفكرية مع غيرك في اللحظة التي كانت آخر عهدك بالصحة التي كنت تنعم بها قبل لحظة الموت لاهيًا بالجدل عن شكر المنعم، حتى قصرت عن شكره وقت الشكر، ففات الأمر عليك، فتوجه إلى الله دائمًا ما دمت حيًّا فهو وحده الباقي معك هنا وهناك، وقد كان معك من قبل، وهو معك من بعد، حتى وإن كنت غافلًا! فمتى تصحو، وترعوي أيها الغافل؟

*****

نقترب من آجالنا كل ثانية

هل نحن حقًّا مؤمنون بكل يقين أن مآلنا الى الموت بلا استثناء؟ وأن كل ثانية تمضي في هذا الوجود لا رجعة لها البتة وكل فائت زمني لا يعوض، وأن أمامنا نقطة الميعاد المحددة مسبقًا بكل دقة زمانية ومكانية، تدفعنا إليها كل ثانية تمر من أعمارنا المتصرمة، فإذا كان الأمر كذلك فأي قلب لا يرتجف وأي جلد لا يقشعر خوفًا من أن يكون عرضة لهذه الخاتمة المتبوعة بهذا الوعيد إذا لم يؤمن بيوم المعاد؟: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠] لقد اعتدنا على أن المريض قد يشفى بعد مرضه، والكسير يجبر بعد كسره، والخائف يأمن بعد خوفه، لكننا تأكدنا من جهة أخرى أن الميت لا يرجع بعد موته إلى الدنيا، يعني أن الابتلاء والامتحان في هذا الوجود المؤقت هو في أقصى درجات الخطورة، حيث لا مجال لاستدراك فائته، فهو ابتلاء حاسم ولمرة واحدة فقط وفي اتجاه واحد، وأي مجازفة أخطر من غفلة الإنسان في تفويت أمر لا يمكن استدراكه وعليه تبنى جميع تلك التبعات الدنيوية والأخروية؟

لقد اقترب الأجل وأنت لا تزال في فسحة من أمرك لمجرد أنك حي تتحرك وتقرأ هذا الكتاب في هذه اللحظة، فاعلم أنها فسحة ثمينة من عمرك ولو لم يبقَ منها إلا دقائق معدودة تستدرك خلالها كل ما فات في إيمان صادق وتوبة نصوح في لحظات، تجب كل شيء قبلها، وأنت أحيانًا في هذه الدنيا تتعامل مع هذا الأمر العظيم بشيء

من البرود الغريب، والتسويف المريب، وكأنك أمام خلاف جانبي في وجهات نظر بين أطراف مغمورة من الناس ولأمر هامشي أيضًا في حياتك لا يستوجب التوقف والاهتمام كل الاهتمام، عجبي أنك لا تحسم أمرك وأنت لا تملك مخرجًا ولا ملجأ ولا مفرًّا من تلك الأهوال المقبلة، أنت في جميع أحوالك محاصر بين أسوار ملك الله، وتحت هيمنته الكاملة، وعقارب الزمن تمضي عليك دون رجعة لثانية واحدة منها للوراء، وأنت لا خيار لك في مستقبل سيكون موحشًا مقلقًا عنيفًا مخيفًا، إلا أن تختار طريق النجاة بالإيمان وطلب الأمان ممن يملك قدر كل شيء ونواميسه كلها.

ولكي تنجو من الأخطار المستقبلية المهلكة التي تعلمها، والتي لا تعلمها، لا بد أن يحل في قلبك اليقين الراسخ فطريًّا محل الوسوسة والشكوك العابرة، لا تترك هذا الأمر معلقًا ولا مؤجلًا، فهو أهم من كل مهم، وأولى من كل أولوية، فاصبر نفسك على الإيمان، واجعل تذكيرها فيه قبل حرصك على الطعام والشراب والنوم والكساء، كل ذلك دفعة إيمانية تضاف إلى الأساس الفطري الذي سبق الحديث عنه ولا عبرة بما قد يتراءى للبعض أن الوسوسة عنده قد وصلت إلى درجة الخطر، ولو تأملها قليلًا لوجدها قد بنيت على أساس هزيل ضعيف من الأفكار والتصورات الخاطئة، ويتخيل بعض الحريصين أن الأمر قد وصل إلى مرحلة الانسداد الفكري المستعصي على النقاش المنطقي، فبدأ يتوهم بوجود (غصة) يقين تحشرج في صدره، وتجعله يستوحش من حقيقة هذا الوحي الذي جاء أصلًا لشفاء الصدور مما فيها من نحو ذلك، وهدى ورحمة للعالمين أجمعين.

*****

درء التعارض بين الاختيار والأقدار

إن من يحتجون على الضلالة بالقدر، قد ضلوا ضلالًا مبينًا، فهم انتقائيون لا يحتجون بالقدر في تحقيق شهواتهم ورغباتهم، تراهم يسعون إليها، ويبذلون كل سبب لتحقيقيها، إنك – أيها القارئ الكريم – لتدرك كأي إنسان سوي أنك حر تختار وتقرر

وتقبل وترفض، تتلمس طريقك في هذه الحياة متسللًا بين خير تبحث عنه وشر تتحاشاه، لم تترك خيرًا ترى أنه غير مقدر لك، ولم تقتحم شرًّا ترى أنه مكتوب عليك، بل أنت حر ليس عليك يد مجبِرة ولا قوة مكرِهة لك، لقد أودع الخالق فيك ملكة اختيار طريق السلامة فطريًّا فأنت تتلمسها طوال حياتك، ترى الخطر، فتقرر الانصراف عنه، وترى الأمن فتلوذ به، لم توجه يومًا مسدسًا إلى رأسك، فتطلق رصاصة وأنت مطمئن أنه إذ لم يكن ثمة قدر بأنها تقتلك فلن تقتلك! بل أراك وبكل حيطة وحذر تحرص كل الحرص على الابتعاد عن السلاح كما يحرص صانعو السلاح أنفسهم ألا يسلموه إلا لمن يثقون به، ومع ذلك صنعوا له مفتاح أمان يمنع نسيان قفله تفاديًا لخطره حتى مع من يثقون بكفاءته، ولا تدخل على الأسد في قفصه وأنت مطمئن أنه لن يفترسك إذا ما قدر الله ذلك! أراك تهرب وتحتاط وتختار السلامة كلها، في كل لحظة خطر أراك تستدني احتياطاتك الفطرية تتبعًا للسلامة ولا علاقة لذلك بالجبر والمنطق والفلسفة، وفي تلك اللحظات تتلاشى كل عبارات الترف الجدلي التي تبتذلها في أثناء استرخائك، تذكر أيضًا اضطراب رجليك خوفًا وأنت تقود سيارتك عندما تكون أمام خطر مفاجئ من خلل فيها أو من سيارة أخرى أو من حيوان عابر للطريق! هل سيكون للاحتجاج بالقدر أي فرصة زمانية أو منطقية في لحظات حاسمة تلملم فيها أطرافك ملتصقًا بسيارتك لعلك تتجنب أكبر قدر ممكن من الخطر ناسيًا كل ما يتعلق بالقدر قدرًا أو جبرًا!

هذه الاحتياطات كلها اختيارات ذاتية حقيقة لا يرد معها الاحتجاج بالقدر مطلقًا، ولا تكاد تجد أمة من الأمم إلا ويقر عقلاؤها بذلك، فقد أوضح الفيلسوف الألماني (كانت) أنه لا تعارض بين الحرية في الاختيار والضرورة المادية المرتبطة بالأفعال[١]، وذهب (أوغسطين) إلى أبعد من ذلك، فقال: «إن نظام الحياة البشرية لله يفسد إذا فقدت الحرية»[٢]، ونحن بلا شك نملك حرية نختار فيها رغباتنا، ونتضايق من العوائق التي نحرص على تفاديها لتحقيق رغباتنا، وهي الحرية كما عرفها (رسل)[٣]، إننا نجد في موروثنا الديني ما يغنينا عن أقول البشر؛ لأننا مع اختيارنا نعتقد جازمين

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٧٦.

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٥.

(٣) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٨٤.

أن هداية الله لنا فضل منه ونعمة علينا، فلولاه سبحانه ما كنا أصلًا في الوجود، ولما كنا كذلك في نعمة الهداية.

وأما وقوع الضلالة لمن ضل فليس إجبارًا كما يفهم بعض الناس هذه الآية: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [النحل: ٩٣] أو آية: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]، أو آية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] وإنما إخبار بموجب علمه المسبق باختيار الإنسان لطريق الضلال، بعد أن بين الله له طريق الهداية، وجعل في مقدوره الكامل أن يسلك طريق النجاة المبين له، وهذا العلم المسبق من الله ﷻ هو ما أشارت إليه الآية الآخيرة بأن الله: ﴿أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] وهذا هو الفهم الصحيح لآيات الهداية في القرآن؛ لأن الله قد بين ذلك في هذه الآية المحكمة التي تدحض كل حجة لمدعي الجبرية في الهداية أو الضلال، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥] وقال تعالى مخبرًا أن الإنسان هو الذي يختار بنفسه إما الضلالة: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ [مريم: ٧٥] أو الهدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧] وهذا ما جعل سيد الموحدين إبراهيم عليه السلام ينسب الهداية لله، ولا ينسب إليه ضلال الضالين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

إن النفوس الصادقة مع ذاتها المنسجمة مع فكرها، المتوازنة نفسيًّا، تدرك جيدًا أن الاحتجاج بالقدر في تجشم الأخطار غير واقعي ولا وجود له في عالم الإنسان الطبيعي، وأن هناك فرقًا بين خطأ الاحتجاج على الخطيئة بالقدر، والإيمان الواجب بالقدر خيره وشره، فلو أجريت على نفسك بعض الافتراضات لوجدتها تتلمس طريق النجاة ومواضع السلامة مختارة بكل حرية، بالدرجة نفسها التي تهرب من خلالها عن مواقع الضرر والهلاك، أنت تختار فعلًا وبكامل الحرية، فلا تحتج بالقدر ولا تنكره أيضًا، في الوجود مواقف يجب اتخاذها في لحظات دون تسويف أو تردد، عندما يهجم عليك أسد كاسر، فلا وقت للفلسفة والاحتجاج بالقدر واستدناء عبارات الفلسفة ومقدمات

المنطق! بل عليك أن تتصرف فطريًّا وفي لحظات محترزًا من الخطر، وإلا دفعت ثمن ذلك التسويف والتردد، ولن تحتج حينها بما كتب وقدر لك، وتزعم أنه لا داعي للهروب الذي لا جدوى منه أمام المكتوب! لكن الأمر في اقتناع الجميع مختلف جدًّا، وبإجماع العقلاء أن الخطر مرهوب، والأمن مرغوب، والكل تحت مشيئة وإرادة علام الغيوب.

ولتبسيط هذه المسألة لنأخذ هذه الفرضية التي أرجو أن تعيش معي مراحلها بانسجام واسترخاء تام: تخيل أنك منقطع في صحراء لا تحس فيها من أحد ولا تسمع لهم ركزًا، وأدركك الموت جوعًا وعطشًا، وأصبحت على يقين من موت محقق إلا أن يتم إنقاذك فورًا، فجاءتك حافلتان متشابهتان ولا فوارق بينهما: إحداهما من المؤكد أنها ستنقلك إلى أفضل منتجع يمكن أن تتخيله على وجه الأرض، والأخرى من المؤكد أنها ستنقلك إلى أسوأ سجن يمكن أن تتخيله على وجه الأرض، فيه كل ما يخطر في بالك من وسائل التعذيب والأذى، وأصبحت أمام خيار الموت المؤكد بالبقاء أو الركوب في إحدى الحافلتين، وهل يشك عاقل في رغبتك في اختيار الحافلة الموصلة للمنتجع، وستهرب من الأخرى الموصلة للسجن، ولكن لم يخبرك أحد بوجهة كل حافلة، ولم يحددهما لك، وترك الأمر لك كي تختار، فالتبس الأمر عليك أيهما الآمنة للمنتجع، وأيهما الخطيرة للسجن، لكنك لا تستطيع أن تميز بينهما؛ لأن الاحتمالين قد تساويا تمامًا، ولا تملك أي قرينة ترجيح، ستتوقف حائرًا لعلك تكتشف أيهما الآمنة، قطعًا لن تركب في الأقرب منهما محتجًا بأن الأمر مقدر ولا خيار لك فيه، وستبقى في حيرة اختيار عصيبة، يكاد ينفطر عقلك من شدة التفكير والحرص على الوصول إلى نتيجة مرجحة نحو الحافلة الآمنة؛ لأنه لا خيار لك غير ذلك، وبينما أنت على هذا الحال، جاءك خبر مفاده أن الحافلة الأولى قد ترجح أنها هي المتجهة إلى المنتجع بنسبة ٥١٪ فقط ونسبة ذهابها للسجن لا يتجاوز ٤٩٪ بينما بقيت نسبة الحافلة الأخرى على الخمسين في المئة بين الاحتمالين دون ترجيح، وعليك الاختيار الآن: إما الاحتجاج بالقدر واختيار أي حافلة منهما عشوائيًّا، أو اختيار الحافلة الأولى على الرغم من أن فرصة السلامة لا تتجاوز واحدًا في المئة، أو اختيار الحافلة الثانية التي لا ترجيح في تحديد وجهتها مطلقًا، قل بربك: أيهما ستختار؟ قطعًا خيارك واضح ووحيد، ولن تتعداه إلى غيره تحت

أي مبرر أنها الحافلة الأولى فقط؛ لوجود هامش أمل يسير. ولكنك قطعًا ستكون أكثر طمأنينة وإصرارًا لاختيارها لو ارتفعت نسبة ترجيح توجهها نحو المنتجع إلى ٦٠٪، حتى مع عدم ضمان سلامتك بالحافلة والطريق، وحينها لن تفكر في أخطار الطريق الجانبية وأنت في هذه الحافلة؛ لأنه ترجح لديك جهة الخطر أكثر مع الحافلة الثانية، فابتعدت عنها، وستتحمل مغامرة الخطر بنسبة ٤٠٪ في الحافلة الأولى لوجود أمل السلامة، ستتحمل أيضًا كل ما قد يصادفك في الطريق من عقبات مهما كانت، فهي أقل ضررًا مما هربت عنه أصلًا، وأخيرًا لو كان العرض أن خبر توجه الحافلة الأولى نحو المنتجع الآمن صحيح ومضمون بنسبة ١٠٠٪ وأنها ستوصلك وبضمان وأمن وسلامة مطلقة إلى ما هو أفضل من كل منتجع تتخيله، وما لا يخطر ببالك من اليقين والأمان والسلامة الدائمة ليس في منتجع ترفيهي زائل في الدنيا بل في جنة باقية دائمة في الآخرة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود: ١٠٧] يقابلها على الجانب الآخر الحافلة الثانية التي أصبحت هي الأخرى مؤكدة بنسبة ١٠٠٪ أنها ستوصل ليس إلى السجن والأذى الدنيوي المؤقت فحسب، بل إلى مكان سحيق، لا بل إلى عذاب مقيم في نار جهنم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ [هود: ١٠٧] أفيبقى عند من لديه ذرة من عقل أي غموض أو لبس في حرية الاختيار لطريق السلامة الذي هو الصراط المستقيم؟ أو يقدح في ذهن عاقل ذريعة للاحتجاج بالقدر لما هو في متناولنا جميعًا من حرية الاختيار؟ سيبقى التحدي الأكبر لمن لا يريد اختيار طريق السلامة هذا، مترددًا أو مشككًا أو مكذبًا، إلى أين سيهرب وإلى من سيلجأ مما سيواجهه من أهوال قادمة أولها الموت الذي يفر منه في حياته؟

فإذا كان الأمر كذلك – وهو كذلك بلا شك ولا ريب – أليس من الجنون في حق نفسك إفناء هذا العمر القصير متنقلًا بين الشكوك من جهة والاحتجاج بالقدر والجبر من جهة أخرى، حتى تفوت على نفسك فرصة قرار السلامة الذي هداك إليه خالقك ومنحك قدرة التمييز بين الطريقين؟: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠] ورب السماء والأرض إن العاقل ليحار فعلًا كيف يهيمن اللبس والشك على الإنسان السوي، فيتيه في فكره وتفكيره، ويحيا حياة شقية كلها هم ونكد وضنك قبل الموت، وهو لا يجد له

بديلًا عن الإيمان بالله ملاذًا وأمانًا من أهوال سيواجهها لا محالة، لقد جاءنا الخبر من الله المالك لكل شيء والقادر على كل شيء ومن أصدق من الله قيلًا؟ ومن لا يعجبه خبر الله عن ملكه، فليخبرنا عن مهربه ومفرّه من (مملكة) الرحمن التي أنا وأنت جزء منها عبيد له شئنا أم أبينا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

هنا نصطدم بالنهاية الحاسمة للجدل الطويل وضرب الأمثلة، فندرك أنه ليس لك يا ابن آدم، خيار سوى اختيار الإيمان، فالزمه واصبر نفسك عليه، واعلم أن الأمر أمامك آتٍ، والمصير معلوم، إما طاعة فنجاة، وهذا من فضل الله علينا وعليك أن هيأ لك اختيار طريق النجاة، أو معصية فهلاك، وهذا باختيارك أنت ومن نفسك خلاف ما أمرك به الله، إن طاعة الله هي خيارك الوحيد ولا خيار لك سواه، فكن عبدًا له بعبودية لا نظير لها في الوجود، فهي وحدها طريق السلامة الوحيد لك ولوالدك وولدك وذريتك من بعدك، وقد جاء التنبيه والبيان واضحًا والحكم في كلا الحالين مقدمًا معلومًا بخبر قاله أصدق القائلين: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الفتح: ١٧] فهل من مدكر؟

*****

الاستسلام والتسليم

الاستسلام للمخلوق يكون عادة محصورًا بما تم بالضعف أو بالضغط عليه إكراهًا، أما الاستسلام للخالق فهو شامل لكل شيء في السر والعلن طواعية وبطيب نفس، وكل استسلام لمخلوق يُعدّ ضعفًا، أما الاستسلام لله فهو قوة وشجاعة وحسم، فبادر إلى ذلك قبل أن يطرق الموت بابك، وعليك أن تلوذ بالله وحده لكي تحيا حياة سعيدة على أن تبقي حالة الطوارئ في المجاهدة والدفاع عن الإيمان معلنة تردد دائمًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] مهما حدث معك فإن مآلك في نهاية المطاف إلى هذا الاستسلام والتسليم للقوي العزيز، إنه موقف فطري متوازن يسمو بالإنسان إلى أعلى مراتب الوجود البشري، ويهيئه

لنيل الجزاء الأوفى في الآخرة، وهذا الاستسلام لله وحده هو القوة بعينها، وهو القرار الشجاع الذي يتخذه صاحب العقل السليم الذي أدرك حقيقة ما حوله من الوجود في الدنيا القصيرة، فتكيف معها بالطريقة الصحيحة التي تضمن له السلامة دائمًا وفق الفطرة السليمة، واتعظ بما حدث لمن سبقوه ممن أضاعوا أعمارهم دون جدوى، فنجا بنفسه من مهالكهم، ووجد أن الرسل والملائكة وهم أعلى مقامًا من غيرهم، لم يستنكفوا أن يكونوا عبادًا لله، يعظمونه منكسرين بين يديه، رغبًا ورهبًا: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾ [النساء: ١٧٢] وعلم أن العلاقة مع الخالق هي علاقة العبد بسيده فقط، وليست كأي علاقة متقاربة أو متساوية أو متكافئة مع مخلوق آخر، أدرك أنه لا يؤمن حتى: «**يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»(١)، أطاع لما سمع هذه اليمين المزلزلة من الله تعالى على التسليم مقسمًا بذاته ﷻ قائلًا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٥] ثم وجد في هذا الموقف الفطري راحة البال وسكون النفس وحلاوة الإيمان التي كنا نتلمسها طوال هذه الرحلة الفكرية، فذاقها، وتحققت له الطمأنينة في دنياه، وتاقت نفسه في انتظار النجاة والفوز والسلامة في أخراه، وبعد هذه المكاسب المتدفقة عزًّا وطمأنينة وسعادة بهذا التوازن الوجودي، كيف يكون التسليم والاستسلام لله ضعفًا؟ إني لأجد الراحة كل الراحة في أن أسلم وجهي وحياتي ومماتي وكل شأني لمن خلقني، وأوجدني، ورزقني وبيده حياتي وموتي وبعثي ونجاتي يوم القيامة.

تعالَ معي هنا إلى حديقة اليقين نسعد بهذا الإيمان، ولا نكترث بما قد يمر بنا من (وساوس عابرة) أو حيرة في أمر ننتظر معه اليقين، فهذا أمر طبيعي لأنك مؤمن بالغيب أصلًا والأمر القادم أكبر من أن تتهاون في الاستعداد له، تأكد أنك تملك الأساس الفطري الذي تبني عليه كل ما تريده من إيمان منقذ لك من أهوال المستقبل،

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

فالأمر من الوضوح والتيسير أن لا أحد يحول بينك وبين أن تسعى جاهدًا لتطمئن على إيمانك الذي تخاف عليه من التآكل، سواء كنت مستفسرًا أو متسائلًا، محاورًا أو مجادلًا بالتي هي أحسن، ولكن عليك أن تنعم بهذه الطمأنينة المتجذره في قلبك، التي منها تنطلق إلى ما بعدها، ثم ضع نصب عينيك أن إمام المؤمنين جميعًا، النبي العظيم ﷺ، وهو الذي يتلقى الوحي مباشرة من الله كان في حاجة إلى تذكير وتثبيت دائم، ثم يخاطبه الله بعد ذلك بقوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وبقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤] ولأن الأمر كله طبيعي ومألوف، كانت فرحة النبي ﷺ وحمده لله والثناء عليه لما ذكر له الصحابة رضي الله عنهم ورود تلك التساؤلات التي قد تطرأ على كل إنسان فتقلقه؛ لأنه من حبه الصادق لله يخشى أن يكون وحيدًا في مواجهتها، والأمر ليس كذلك مطلقًا، كان رد فعل النبي ﷺ عندما صارحه أصحابه بما تظن أنك وحدك تواجهه، ما زاد على أن قال لهم: «**أوجدتموه؟! ذلك صريح الايمان**»[1]، وفي حديث آخر قال لهم: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»[2]، لا أدري ماذا يتوقع المؤمن أن نقول له في هذا الأمر أكثر وأوجز وأطيب من هذا الموقف النبوي النبيل لطمأنة المؤمن بإيمانه الذي يحمله على الرغم من تلك الأعاصير الفكرية المحدقة به من كل حدب وصوب؟، فكان هذا إيمانه وإيمانهم الحق الذي شهد لهم به الله بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) الحديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**جاء أناس من أصحاب رسول الله إلى النبي فقالوا: يا رسول الله إنا نجد الشيء في أنفسنا ليتعاظم عند أحدنا أن نتكلم به قال: وقد وجدتموه. قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان**».

(٢) الحديث رقم (٥١١٢) في سنن أبي داود ورواه أحمد بن حنبل في مسنده وصححه الألباني وكلاهما عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله إنَّ أحدَنا يجدُ في نفسِه يعرضُ بالشيء لأن يكونُ حممةٌ أحبَّ إليه من أن يتكلَّم به فقال: «**اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ الحمدُ لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسةِ**».

لا يستطيع الإنسان التنصل من غريزة حب الاستطلاع حول كل ما يجهله من الوجود واستشراف للمستقبل والتعطش للغيب، وجميع الناس يفكرون، ويتساءلون كما تفكر، وتتساءل بدرجات متفاوتة كتفاوت عقولهم، والجميع ماضٍ في الطريق نفسه الذي أنت تسلكه اليوم، والكل فقير إلى الله في كل شيء، قد تنظر إلى بعض ممن حولك وخاصة العلماء والأعيان والأكابر، فتعتقد أنهم أرقى وأسمى منك إيمانًا، وأنهم وحدهم من أهل اليقين المطلق وأنت المحروم منه، ولا تدري لربما كانوا جميعًا أشد قلقًا من نحو ما قد يعترضك أحيانًا، وأحوج منك إلى ما نتذاكره الآن معك، لكنهم صمتوا عن البوح بأسرار هذا العراك الداخلي كما تصمت أنت، وكلكم يفعل ذلك إقرارًا ضمنيًّا منكم بوجود جذوة الإيمان الصادق، وتأدبًا مع الله واقتداء بالصحابة الذين قالوا: (نتعاظم أن نتكلم به)، ولولا وجود الخالق لما وجدت رعشة الخوف المكبوتة عند المخلوق بمجرد الاقتراب من أمر الخالق ﷻ؛ لأن الجميع بفضل الله يملكون أساس الإيمان الفطري الذي يبقى صمام أمن يحفظ الأمر من الانفلات.

كلنا نحتاج إلى مزيد من الطمأنينة وتثبيت الإيمان، وهذا هو علم اليقين، فلا تكترث بما قد يقال لك تصنعًا من بعض المتظاهرين بالطهرية والنقاء، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، وتأكد أن الله الذي أوجد هذا الكون بأبعاده الممتدة، له من الصفات التي تفوق كل خيال، وفي كمال فوق كل كمال، لغني عن أن يخلق مخلوقًا ضعيفًا مثلي ومثلك، ثم يتركه في حيرة من أمره على مستقبله، فيغرق في الشكوك والأوهام، فمن رحمته سبحانه أنه يرعى عبده، ويحيطه بلطفه حتى بعد إرسال الرسل إليه، لتعلم أن كل حياتك في سعة ما لم تقترب من الظلم الأكبر الذي يجب أن تتجنبه ومقدماته: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فقد خصه الله دون غيره بعقاب أليم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

إنه محض الإيمان الذي لا يرد معه يأس ولا قنوط ولا إحباط، وكل ما تحتاج إليه للشفاء من هذه المنغصات الروحية والفكرية هو صدق عبوديتك لله تعالى، ومجاهدة نفسك مؤمنًا صادقًا تتلمس طريق النجاة من فتنتي الشكوك والوساوس، وتتحرى منافذ الطمأنينة والسلامة، وهذا جهاد بحد ذاته مرصود لك الأجر فيه مقابل هذه

المجاهدة، وأبشر بعد تحقيق هذه العبودية بأن الذي خلقك، وخلق عقلك الذي تفكر به هكذا، يراك ويسمعك، وهو معك في كل سجالاتك الداخلية، ولا يخفى عليه من أمرك وسرك شيء، وأنه سيهديك بصدقك هذا وجهادك إلى سواء السبيل الذي تبحث عنه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وسيكون معك دائمًا وأبدًا، وكيف يخاف من كان الله معه، ويقول له: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥].

*****

الفرار إلى الله!

إنه الفرار من الله إلى الله! ومن الطبيعي أن نسعى جاهدين لتلمس سبيل الأمان في حياتنا كلها، نحن هنا لا نستخدم منهجية (الصدمة والترويع) مع النفس في تكييف حالك في الوجود ومآلاتك بعده لتسلك طريق الخلاص، بقدر ما نذكرك بأن الوحشة كل الوحشة إنما هي مع الكفر والإلحاد والإعراض عن ذكر الخالق الذي يملك كل شيء في هذا الوجود، وبيده كل شيء، ومن المنطقي جدًّا أن يكون الملاذ الآمن والأمن كل الأمن إنما هو مع الإيمان به سبحانه واللجوء إليه، والتوكل عليه وحسن الظن به؛ لأنه بصفات كمالية لا نظير لها، ويستحق بها كل السمع والطاعة، فهو البر الرحيم، الذي أنزل علينا هذا الدين منه رحمة للعالمين، ورحمته قد سبقت غضبه، وهو الرحمن الذي يرحم الراحمين، وقدم لنا في نصوص الوحي وتفاصيل الدين تذكيرًا وموعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وكل ذلك فضل منه يطمئن المؤمن، ويفرحه، ويؤنسه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فلنفرح بأننا عبيد له، ولنشكر نعمًا منه لا تعد ولا تحصى، والله إننا لم نشكر الله على نعمه حق الشكر، ولم نقدره حق القدر، ولا أمان لنا كأمان يأتينا ممن يملك كل شيء، ولا ملاذ تتوافر في السلامة مثل ملاذ عند الله ﷻ.

تأمل موقفك عندما تتعرض لخطر محدق، ثم يناديك من يحتمل أنه يملك حمايتك من ذلك الخطر، فردًا كان أم جماعة أم دولة، فيؤويك وتنجو من الخطر، هل ستنسى له هذا الجميل ما حييت؟ بل ورب السماء والأرض ستتدفق من داخلك كلمات الشكر والعرفان والامتنان بكل إخلاص له، لمجرد أنك لذت بأمانه النسبي المؤقت وهو مخلوق مثلك لا يملك ضمان الأمان لك ولا لنفسه، فكيف إذا ناداك من يملك كل شيء على الإطلاق، وبيده أقدار ومقادير الخوف والرجاء كلها، وتحت أمره ونهيه قولًا واحدًا وحده لا شريك معه ولا ند، وإذا حكم فحكمه الحق المطلق ولا معقب لحكمه، وإذا قدر فلا رادّ لقدره، فأمانه فوق كل أمان، وضمانه فوق كل ضمان، وهو الحق، وقوله الحق، إنه والله هو الملاذ الذي لا ملاذ بعده، والأمان الذي لا أمان بعده في الوجود كله؟

لقد جاء النداء الواضح من الخالق العظيم لإرشاد الخلق إلى أن الملاذ الآمن الوحيد هو الذي جاء من رب العالمين الواحد الأحد، يأمر الإنسان التائه بالفرار من جميع الوحشات الموحشات في هذه الحياة وبعد المات، بل ومن كل وحشة لا نعرفها من قبل ومن بعد، إلى حيث تكون الطمأنينة الدائمة، والسلامة الأبدية، ليت شعري كم قرأنا هذه الآيات من سورة الذاريات دون أن نقف عندها منصتين خاشعين فرحين بوجود مخرج آمن لنا من هذا الوجود المخيف، عندما نستجيب لنداء الله لنا بالفرار منه إليه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ
نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ
بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٠- ٥٦].

بهذا الإيمان الخالص والتوحيد النقي والتوجه الحاسم لله، يتحقق لنا الملاذ الآمن الذي نفر إليه من كل رعب وخوف، وبهذا الملاذ تنقلب كل وحشة في دنيانا إلى غاية في الطمأنينة ومعرفة الطريق الصحيح للنجاة والخروج من دار العناء إلى دار المقامة والقرار، يكفينا وصفها بأنها دار السلام وتحية أهلها فيها سلام، تلك هي نهاية مطاف الوجود السعيد لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ

﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩- ١٠].

إن تحقيق هذا الهدف الوجودي النبيل لا يكلف الإنسان شيئًا، فبالإيمان الصادق والعمل الصالح والصلاة والزكاة تحصل على ضمانات إلهية ثلاث: أن لك الأجر الأوفى منه ومن أكرم من الله تعالى بالوفاء، وأنك تأمن من كل خوف في الدنيا والآخرة وهذا هو الملاذ الذي نبحث عنه، وأنك تنعم بالسعادة التي لا تحزن معها أبدًا، هذه بشارة لك من الله سبحانه، استمع إلى وعده الصادق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧] بينما تبقى الوحشة الحقيقية والرعب كل الرعب في فقدان هذا النوع من الإيمان والجهل بمعرفة الطريق إلى هذا الملاذ الآمن، عافانا الله وإياكم من الضلال الذي يختم حياة الشقاء والتيه في تردٍّ إلى دركات الشقاء الأخروي أيضًا، فتكون العاقبة كما أخبرنا القرآن: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٦].

*****

الفصل السابع عشر

الداء العضال (الخرافة)!



الداء العضال (الخرافة)!

يجد القصاصون في الخرافة كثيرًا مما يعجزون عن الوصول إليه بعقولهم، وقابلية الأجواء الدينية لتشرب الخرافة قوية جدًّا، ولا تقارن بأي شيء آخر، وسبب ذلك ارتباط مصدر الدين بالشأن الإلهي الأعلى والوحي وكل ذلك من علم الغيب، والله وحده هو عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدًا، ومروجو الخرافات لا يستطيعون بذل جهد الفلاسفة والمنطقيين في البحث والتحري، ولا يقبلون الفشل كما قبلوه، فتكون الخرافة هي المخرج الأسهل والجواب الأيسر، ولو تأملت جملة ما كتب في علم المنطق والفلسفة منذ عصر اليونان إلى يومنا هذا لوجدت أن الكل يحاول ملامسة حاجز رفيع منيع يفصل بين عالم الغيب المجهول وعالم الشهادة المعلوم، هذا الحاجز، وإن كان رفيعًا كما يبدو، فهو في الحقيقة جدارهائل يستحيل اختراقه في الدنيا من قبل أي مخلوق وفق النواميس الكونية التي تطبعت في عالم الوجود الحالي، وأخذ الإنسان نصيبه المفصل عليه منها، وقصر قصورًا مطلقًا عن الباقي، أما الغيب فليس من شأن الإنسان بل هو لله القائل: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

فجوة صغيرة جدًّا جدًّا من الغيب شاء الخالق بمشيئته وإرادته واختياره، أن يطلع عليها بعض الرسل تثبيتًا لهم ليبلغوا قومهم ما أرسل إليهم، ولأنهم الصديقون فقد أخبروا قومهم، وصدقهم الصديقون، وتصديق خبر السماء لم يكن أبدًا مستعصيًا على قبول وفهم واستيعاب العقلاء المؤمنين بوجود الله تعالى على مر التاريخ، وفي الآيات التي وردت والمعجزات التي جاء بها الأنبياء الكفاية في إقامة الحجة على قومهم، وخطاب القرآن واضح ميسر لمن بحث عن الحق والحقيقة في هذا الوجود، وهو صادق متجرد من كبرياء النفوس الأمارة بالسوء، ولا أحد سوى الله يخبرنا بهذه الحقائق وعن

وجودنا وما بعده، يقول (برندان ويلسون)[1]: «ليس سوى الله قادرًا على أن يلهمنا المعرفة المباشرة بالحقيقة المستقلة»[2].

يُحمد للفلاسفة والمنطقيين أنهم لم ينزلقوا إلى عالم الخرافة العمياء، بل نقلوا آراءهم بأمانة حتى لو لم توافق الحق والحقيقة، وهكذا هو الإنسان الذي يجب عليه الوقوف هنا معترفًا بحجمه وقدراته فهذا حدها، ولو فعلنا كل مستحيل فلن نتجاوز هذا الحد، وكل ما وصله أو ما سيصله الإنسان من معرفة وجودية يبقى محصورًا فقط في دائرة المقدر له قدرًا، ومصادر هذه المعرفة محصورة في الفطرة والاستنباط العلمي البشري والوحي الإلهي، ومن استعصى عليه واحد من هذه المصادر فغالبًا ما يعوض عنه باللجوء للخرافة والأساطير، وهنا يجب التحذير من الانزلاق مع مروجي قصص الخيال والأساطير وسقطات القصاصين الذين يبتدعون، ويروجون خيالًا عن حوادث وخوارق للمعتاد يتناقلونها، فينعكس أثرها سلبًا في الإيمان فيما بعد، فما أن يسمع الإنسان تلك القصة المثيرة للعاطفة حتى يتناغم معها، ويعيش مراحلها، ويروض إيمانه عليها، ويرضخ لها نفسيًّا، ويبني عليها قناعاته مستعجلًا، وحيث إنه لا يطول بقاء غموض الخرافة وقداستها؛ لأنه لا أصل لها، سرعان ما تنكشف الحقيقة، فتضيع هيبة تلك القصة، وتختفي كما يختفي السراب أمام ناظري من يركض وراءه، فتحصل انتكاسة خطيرة وردّة فعل سلبية جدًّا على إيمان المرء المعتمد عليها، فلا يقف عند غيابها عن منظومة تفكيره، بل يتمادى إلى التشكيك بما ثبت وحيًا عن الله والرسل ظنًّا منه أن ثبوته كان كثبوت تلك الخرافات ولا سواء.

ومن المسلم به أن هناك معجزات حقيقية حدثت للرسل، وأثبتتها الكتب السماوية، وتلقاها الناس بالقبول والرضا والإيمان والوقوف، حيث أخبرنا الله عنها، ولا نتجاوزها إلى روايات ضعيفة وقصص إسرائيلية، فقد قص القرآن علينا قصة يوسف عليه السلام مجملة، واكتفى بذلك، وأكد لنا الحقيقة في خاتمة السورة بأن العبرة تتحقق

(١) برندان ويلسون Brandon Wilson (١٩٥٣م) هو أستاذ كلية الدراسات العليا وعلوم المعلوماتية في جامعة طوكيو مؤلف كتاب (الفلسفة ببساطة) المشار إليه في مواضع عدة من هذا الكتاب.

(٢) الفلسفة ببساطة، ويلسون، (مرجع سابق)، ص٢٤٧.

فيما ذكره فقط: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وأخبرنا عن ناقة صالح وعصا موسى وطوفان نوح ونار النمرود، وغيرها بما نحتاج إليه، وسكت عما لا نحتاج إليه من تفاصيل، يكفينا ما أخبر الله ولا حاجة لنا بإضافات البشر وتأليفهم وإخراجهم الخاص لتلك القصص.

إن الدين الحق لا يقبل وجود الأساطير إلى جواره، فهو يزاحمها ويباعدها عن الوجود، ولا تزدهر الأسطورة إلا مع غياب دين الحق أو الجهل به؛ لأن الأسطورة تقوم على تجزئة العالم لتعليل الذهن تعليلًا لا يرقى إلى مستوى ما يعطيه الدين من نظرات شاملة ومتكاملة عن الموجودات، ولهذا نجده يحتضن العلم الصحيح، ويشجع العلماء، ويدعو إلى دراسة الطبيعة وتأملها، بل ويجعل منها طريقًا إلى الإيمان ومن ثم إلى لقاء الآخرة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. ولقد نبه شيخ الاسلام (ابن تيمية) إلى خطر هؤلاء الخرافيين على الدين، وذكر أنهم يتحصنون بما يسمونه (الكشف)، وهو حيلة يدعيها أهل التصوف العرفاني، عندما يتجردون من العقل والنقل، يزعمون أنها تنكشف لهم حقائق غيبية دون غيرهم، فيروونها للناس! ويدعونهم إلى التجرد من العقل والتخلص من النقل؛ لكي يطلعوا على كشفهم المزعوم(١).

وأقل من المعجزات درجة تلك الكرامات التي هي من باب النعم المفتوحة لأولياء الله، يختلف الناس في فهمها وتفسيرها، لكنهم يقعون في المبالغات في الحديث عنها إلى درجة أنك تسمع اليوم عن بعض المتأخرين من قصص الكرامات لآحاد عامة الناس ما لم تسمعه عن أحد في عصر الصحابة رضي الله عنهم، ولكن الجميل في الأمر أنه ليس واجبًا عليك أن تقتنع بحدوث تلك الكرامات، سواء كانت حقيقية أو مزعومة، بل ولا يضرك تجاهلها، فليست شرطًا لدخول الجنة، أو للنجاة من النار، والكرامة نادرة جدًّا، ولا يُقدح بمن لم تحدث معه، أما علم الغيب فهو محفوظ بقدر الله وحكمه، وهو شأن آخر تمامًا، وأمره أمر عظيم مردّه إلى الله وحده، ولن يطلع عليه أحد من الخلق في

---

(١) منهج ابن تيمية المعرفي، عبدالله نافع الدعجاني، تكوين، (٢٠١٤م)، ص١٧٢.

الدنيا، ولله الحكمة البالغة في تقدير الأمر ليكون غيبًا أو شهادة، ولو اطلع الناس عليه لتغير كل شيء في حياتهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ولو أطلعنا الله على عالم القبور وحده وما فيه مما لا نحسه بحال، فلن تبقى نفس منفوسة على وجه الأرض إلا وآمنت إيمانًا لا نظير له في عالمنا الغافل اليوم.

*****

الحقيقة باقية والخرافة إلى زوال

إن قبول الحقيقة واحترام العقول السليمة يرفض رفضًا قاطعًا جميع أشكال الخرافة، وينبذ الأساطير الجوفاء، وهو قرار مفصلي يجب عليك اتخاذه فورًا لتحصين إيمانك بالقطيعة التامة بينك وبين عالم الخرافة والقصص الموضوعة، كفى إغراقًا واستغراقًا وترويجًا للأساطير البشرية واعتبارها مقدسة، وإن ألصقت بالنص تكلفًا، لقد لجأ الإنسان إلى الأساطير والخرافة في العصور القديمة، حيث لا يوجد علم ولا وحي يأخذ بيده للحقيقة، وكلما أضاء له الوحي طريقًا، أو فتح العلم له مسلكًا نحو الحقيقة سار إليها مهرولًا، وانكمشت عنه الخرافة بقدر ما يكتسب من المعرفة الصحيحة، وهذا سر انتشار الخرافات والأساطير التي يحاول الإنسان القديم ملء فراغ تعطشه للإجابة عن تساؤلات الوجود، أما اليوم فقد ضاق الخناق على الخرافة مع انفتاح العلم وتقدمه وتتابع الرسالات وختامها برسالة الإسلام المنسجمة مع العقول، التي ليست فقط منسجمة مع العلم الحديث، بل تحثّ عليه، وتتقدمه مسافات طويلة، والتي سيجد فيها كل إنسان سوي من الإشباع السليم ما يغني عن تلك الخرافات والأوهام الجوفاء.

وحتى في أوساط المسلمين تحاول الخرافة النفاذ الى أي مساحة ممكنة، خذ على سبيل المثال ظاهرة تناقل قصص الرعب المتكلفة التي تنسج حول حال الميت عند دفنه،

من أنه حصل له كذا وكذا، وأن القبر قد خرجت منه نار! أو أنه كلما دُفِن لفظه القبر! أو أن المسك قد فاح ريحه من القبر! أو أن ثعبانًا قد اكتشف في كفنه....! ونحو ذلك من الخرافات الباطلة التي يلجأ إليها من بلغ بهم القصور عن فهم نصوص قرآنٍ عربي مبين يخبرهم عن أشد من ذلك نعيمًا أو عذابًا بعبارات فصيحة لا لبس فيها ولا غموض، عجبًا ثم عجبًا لإنسان لا ينشرح صدره لقول الله ورسوله، فيصدقه بما ورد وصح، من خبر الوحي الذي صمد، وثبت قرونًا، وسيصمد قرونًا إثر قرون، ثم يميل تصديقًا أو تعاطفًا مع تلك الخرافات الهزيلة التي لا تثبت، ولا تصمد ولو برهة من الزمن، ثم قل لي بربك إذا كان ذلك النعيم قد ظهر كما يقول القصاصون عند قبر أناس متأخرين ممن هم على شاكلتنا في القصور والتقصير، والذين هم مهما كان فضلهم فهم أدنى بكثير من فضل رسول الله ﷺ بل من فضل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم، بل أدنى من فضل التابعين، وها هي قبورهم كلها طبيعية لا غرابة فيها، ولم نلمس شيئًا في دنيانا من (كشف) هذا النعيم، الذين هم أولى به من غيرهم.

وكذا الحال في العذاب المكشوف للدافنين، كل إنسان مهما كانت خطيئته فهو أخف من أبي لهب المشهود له بنص القرآن بالنار، وأبي جهل فرعون هذه الأمة، ومن قبلهما فرعون ذو الأوتاد الذي طغا في البلاد، ومع ذلك لم يلمس الأحياء شيئًا عند قبورهم، ولا حول رفاتهم أو رفات أي عتل جواظ مستكبر، فالمؤمنون أيقنوا بإيمانهم بالله وتصديقهم لوحيه أن أبا لهب في النار تصديقًا لوحي الله القائل: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] دون أن يروا شيئًا من النار في مكان قبره، وأن فرعون وآله يعرضون على النار في الصباح والمساء: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] دون أن يشاهدوا أو يشهدوا شيئًا حسيًّا من ذلك العذاب في المقابر المصرية القديمة، وهكذا.

لقد كانت معاناة أتباع الديانات السماوية الأخرى من الخرافة أشد وأنكى من حال المسلمين، فقد تعددت منابع الخرافة عندهم، وتعددت أشكالها تبعًا لمصادرها، ما جعل فيلسوفًا مرموقًا مثل (فرانسيس بيكون) يدرك حجم تلك المعضلة الفكرية عندهم، وينتفض على الخرافة، ويدعو بقوة إلى ضرورة التخلص من مجموعة (أصنام

الأوهام الخرافية) المحجرة للعقول، التي أطلق عليها اسم (أصنام العقل)، وحصرها في أربعة، وهي: أوهام القبيلة، وهي الميل إلى التعميم دون الالتفات للآراء المعارضة، وأوهام الكهف، وهي التي منشؤها الطبيعة الفردية لكل إنسان، وأوهام السوق الناشئة من الألفاظ وفق الحاجات والتصورات العامة، وأوهام المسرح، وهي المنبثقة مما تتبوءه النظريات المتوارثة من مقام ونفوذ(١).

ولا يحتاج الأمر سوى قليل من التفكير المركز ليدرك المرء من خلاله أنه مع وجود الوحي الواضح الميسر، فليس الإنسان في حاجة أبدًا إلى عالم الخرافة والقصص الموضوعة كي يدرك حقيقة ماضيه أو حاضره، أو يعلم ما سيواجهه في المستقبل، لقد أخبرنا الله بما يكفينا من تلك الأخبار والقصص النافعة، وفتح لنا مجالًا معرفيًّا بشريًّا يتسع مع الزمن بالعلوم النافعة التي يمكن للإنسان الوصول إليها، وكل ما زاد عن هذا الحد فلا اعتداد به؛ لأن الله لا يكلف النفس إلا وسعها، ولم يطلب منها شيئًا لا تطيقه، فمتى يصدق الإنسان مع نفسه، فيعترف بحجمه المحدود في كل شيء في الوجود، ويقف عند حدوده التي تلازم وجوده، وحينها سيقف على منصة السعادة الأبدية في حياته ومماته، علمًا أن قراره بالوقوف هنا لا معنى له؛ لأنه سيتوقف طوعًا أو كرهًا عند هذا الحد المعرفي لعجزه عن إدراك ما وراءه.

إن هذا الصراع الأبدي مع العقل وتلك التساؤلات التي يتوارثها بنو الإنسان جيلًا بعد جيل، منذ فجر تاريخ الإنسان، لن تصل إلى أي نتيجة ما دام هناك إعراض عن الوحي وعزوف عن تصديق خبر الخالق العالم بالأحوال كلها، واستبدال ذلك أحيانًا ببضاعة الخرافة الفاسدة الكاسدة، التي لن تنفع أصحابها ما داموا عازفين عن الوحي غارقين في الخرافة، الذي لا خيار عنه على الإطلاق، فلو تأمل العقلاء لوجدوا أن السؤال المطروح منذ القدم عن الوجود وأسراره هو السؤال نفسه الذي لا يزال يُطرح الآن في بداية الألفية الثالثة عن الأمر نفسه، بل وسيُطرح مستقبلًا بنفس النغمة والوتيرة النفسية، ومن دون الوحي ليس ثمة جواب على الإطلاق، إذ إن الإجابة من الوحي فقط، وليست من الخرافة، ولم ولن يستطيع أحد إدراك شيء من الغيبيات ماديًّا

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، كرم، (مرجع سابق)، ص٤٧.

ولن يدركوا ذلك أبد الآبدين، وهم في الوقت نفسه يعترفون بأن هناك شيئًا عظيمًا يصعب إثباته، ويدركون أيضًا أن مسألة إنكاره أكثر وأكثر وأكثر صعوبة، فسبحان الله ما هذه الكبرياء العمياء، والعناد القاتل في رفض الحقيقة من هذا الإنسان المعاند العاجز، وصدق الله العظيم: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

*****

الحقيقة تأسر العقلاء

في مثل هذه المواقف الجدلية المعقدة يأتي دور العقل الراشد الذي يحمي صاحبه من التيه والضلال، والعقلاء فقط هم من يملكون الشجاعة الفكرية مع أنفسهم قبل الآخرين، ويتلمسون الحقيقة من مصادرها، وينبذون الخرافة، ويجاهدون أنفسهم للخلاص من الإنكار العائم الأعمى. والحقيقة الناصعة لا تستند في إثباتها إلى نظرة الأطراف الخارجية إليها، فهي حقيقة قائمة بذاتها، سواء آمن بها الناس أم رفضوها، ونستطيع القول بكل ثقة: إنه بعد تتبع تاريخ الإنسان وتلمس محاولاته للوصول إلى تفسير لوجوده والوجود حوله ومحاولة اختراق حاجز الغيب، فقد حصحص الحق، وظهر على الرغم من كيد الكائدين، لا نجاة من قدر الله إلا إلى الله وحده، ولا علم إلا بما يأذن به الله، لقد تغير نمط الفكر العالمي والفلسفة، فاستيقظ الإنسان بعد طول سبات وسوء استغلال، ومغامرات فكرية كانت بعض نتائجها وخيمة جدًّا.

فبسبب كارل ماركس، وأنجلز، ولينين، الذين فلسفوا الإلحاد سياسيًّا، ودعموه بالقوة المادية من ثاني أكبر قوة وجدت على وجه الأرض في القرن الماضي (الاتحاد السوفيتي سابقًا)، ولمدة سبعين عامًا، تحدث بسببها أكبر مظلمة سجلها التاريخ الفكري ضد بني الإنسان وعقولهم وفطرتهم، وذلك لما لاقته الشعوب من اضطهاد وقتل وتهجير وتشريد وإجبار على التخلي عن الدين الفطري وتبني الإلحاد بالقوة، وعلى الرغم من هذه القسوة فما تغير دين بحمد الله، وعبد الناس ربهم في الخنادق طيلة الكبت الحديدي السوفيتي، حتى انقرضت مشروعات الإلحاد، ودفنت مع جثث مروجيها زاهقة إلى

الأبد غير مأسوف عليها، ودفنت معهم الخرافة التي جعلتهم يتطرفون بكراهية الحق بالجملة كرد فعل عليها كما يزعمون، ولا يبقى في النهاية إلا الحق فقط: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

لم يتميز المفكر الألماني (إيموائيل كانت) عن المفكرين الغربيين، ولم يصبح سيد القرن الثامن عشر في أوروبا، ولم يطلقوا عليه لقب (شيخ المؤمنين) بوجود الله في عصره إلا بتقريره هذه الحقيقة من أن الغيبيات لا يمكن التوصل إليها بوسائل الإحساس التي تخضع لها الماديات، وعلى الرغم من أن بعض الشراح يصنفه من فئة (اللاأدرية)، إلا أنه يُعدّ أشهر من أشار بوضوح إلى أن الإنسان لا يولد بعقل خالٍ من المعرفة، أشبه ما يكون بالصحيفة البيضاء، ثم مع مرور الوقت تطبع عليه الحواس من المعلومات كي يشكل كامل فكره، لكنه أشار بقوة في كتابة (نقد العقل الخالص) إلى أن هناك أشياء فطرية أساسية تولد مع الإنسان، وكأنها أدوات أولية تتدرج بواسطتها الملاحظات بالاستدلال والاستقراء لتصل إلى الحقيقة دون أن تتصل بها مباشرة، إنه يشير إلى جزء من الفطرة التي يفطر عليها كل مولود.

لقد سبقه إلى ذلك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ولا سواء بينهما، حين تدرج فطريًّا بتأمل المحسوسات تصاعديًّا، من الأصغر في عينه إلى الكبير فالأكبر، ثم توقف، من أجل تقرير البرهان الأكبر على من هو أكبر من كل شيء في ربوبية خالق الكون، فأشار إلى الكوكب الصغير أولًا كما يراه، ثم التفت إلى القمر المتوسط ثانيًا، ثم إلى الشمس الكبرى، فوجدها جميعًا تسير وفق قانون حركي دقيق، وكل متحرك في الوجود كان ساكنًا، وسينتهي إلى السكون، وأن وراء كل متحرك ما يحركه، وأن هذا تسلسل طويل سيشمل ما نراه، وما لا نراه مهما كبر حتى نصل إلى النهاية التي لا يمكن لمخلوق أن يحيط بها، لقد توقف النبي إبراهيم فجأة عن مواصلة هذا لتسلسل، وأعلنها صريحة مدوية أنه قد وجه وجهه للخالق واقفًا على حافة المسار الحسي البشري الذي أقفله نهائيًّا، بل انقفل عليه لوصوله إلى حد البشر من الاستيعاب الوجودي، واستبدل به نقلة مفاجئة ودون اتصال حسي مباشر، فقرر بموجب العقل والتأمل والإدراك القائم على الفطرة السليمة، وليس على التسلسل المادي العاجز من أن يقدم شيئًا في عالم متعاظم

لما فوق استيعابه، ووصل إلى النهاية بسرعه البرق، تلك النهاية التي ليس بعدها نهاية، وقرر القرار الفطري الحاسم الذي لا يمكن لأحد من الخلق تجاوزه طوعًا أو كرهًا، وكل ذلك ستجده مفصلًا في هذه الآيات الكريمات: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥- ٧٩].

هنا يا ابن آدم، فقط ستجد الطمأنينة الحقيقية في التصورات الصحيحة للوجود، فكن شجاعًا أمام الأوهام والخرافات والوساوس، وانتفض عليها كي تتغلب على كل عقبة واهية تعترضك عند اتخاذك مثل هذا القرار المصيري، يجب أن تقرر قبول هذه النتيجة الفطرية مع نفسك داخليًّا بكل أمانة، إنها الحقيقة المفصلية التي تقرر أن الله هو الرب ولا رب سواه، وهو الإله خالق كل شيء ولا إله سواه، وأنه الحي الباقي والخلق يموتون، وأنه الله القادر على كل شيء، وأنك أيها الإنسان، مخلوق على هامش هذا الوجود على الرغم مما تتصوره عن نفسك من تعاظم موهوم للذات، وأنك ضعيف لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وأن الله غني عن الخلق أجمعين بمن فيهم أنت وما تفكر فيه، وما تتخيله وتتصوره، وأنك في جميع أحوالك فقير إلى الله فقرًا مطلقًا يتجسد حقيقته وقت الشدة، وإن غفلت عن ذلك وقت الرخاء، وأن الله يعلم كل شيء، وأنت لا تعلم شيئًا إلا ما علمك الله، ومن أغرب سمات هذه الحقيقة أنها هي هي بذاتها وصفاتها قائمة سواء آمنت بها أو لم تؤمن، ولهذا ينفع الإنسان نفسه بالإيمان كما يضرها وحدها بالكفر، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨].

هذه هي الحقيقة المفصلية الكبرى في معارك الفكر ومعتركات الجدل ومحاولات فهم الوجود، إنها الحقيقة المنهية لكل جدل عقيم لم يغنِ عمن كانوا قبلنا شيئًا، إنها المواجهة الصادقة مع الذات والاستسلام الطبيعي للقوة المطلقة وقبول الحق المبين،

المبني على الحقائق الثابتة، وليس على الخرافات الزائلة، هكذا يجب أن تكون يا عبد الله، في وجودك، وهكذا يكون الوجود من حولك، ولم تكلف إلا بها في وسعك اختياره وعمله، وقد ترك الله لك هذا النوع من الاختيار بنفسك، فإن آمنت بذلك وصدقت فذاك لك ولسعادتك في حياتك وبعد مماتك، وقد آمن الخلق من قبلك، وسيؤمنون بعدك، وإن أعرضت مختارًا فهذا شأنك أنت وحدك، لن تضل إلا نفسك ولن تضر غيرها، ولكن عليك أن تستعد للعاقبة، وألا تلوم غير نفسك حينها، علمًا أنه لن يكون لك مخرج ولا مهرب من هذه الحقيقة المحكمة حولك بأسوارها الشاهقة، فأنت محاط بمملكة الخالق وملكه وحده، لا مفر منه إلا إليه، وأما الله الخالق فقد جل في علاه عن كل شيء، وهو الغني عن العالمين أجمعين: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

*****

المعجزات والكرامات

المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء، ولا يعني ضرورة حدوث معجزة مع كل رسول أو نبي، ولا حدوث كرامة مع كل ولي أو تقي، ومن الخطأ أيضًا المبالغة في تفسير المعجزات أو الآيات تفسيرًا علميًّا تجريبيًّا جامدًا، وتقييدها بما توصل إليه العلم في عصر محدد؛ لأن العلم يتغير ويتطور مع الزمن، فيكون هذا الربط غير مناسب لآيات أنزلت لكي تكون صالحة لكل زمان ومكان، والمعجزات عادة ما تكون خارجة عن المألوف وفق نواميس مختلفة جدًّا، لكنها إذا وقعت تكون محسوسة، ولا تدرك عقلًا، ولا تبرهن منطقيًّا في الدنيا، ولا تخضع لقوانينها ونواميسها الطبيعية المعروفة، وإلا لما جاز وصفها بالمعجزة.

فالطير الأبابيل - مثلًا - وحجارتها القاتلة لتجعل الجسد البشري كالعصف المأكول، ليست طيورًا خاضعة لناموس الحياة الطبيعية للطيور المعروفة في حياتنا، بحيث نخضعها لحسابات الوزن وقوة الدفع والارتفاع والانخفاض والجاذبية، وكذا الحال في الإسراء والمعراج، لا يمكن فهمهما فيزيائيًّا أو بقانون الجاذبية أو الطرد المركزي أو بعلم الفلك، وسيكون موقفًا عفويًّا فطريًّا دون تكلف، كموقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه هو الموقف الأسمى والأعدل تجاه كل خارقة عندما حدثوه بما يقوله النبي ﷺ من أنه أسري به ليلة البارحة، فما طلب برهانًا ولا دليلًا حسيًّا ولا عقليًّا، بل لجأ إلى الإيمان الأصلي عنده بقدرة الله على كل شيء، ونعم الملجأ هذا، فما زاد عن قوله: «**والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه**»(1)، وكذا الحال مع انشقاق القمر، وانفلاق البحر لموسى، ومنطق الطير لسليمان، ونطق عيسى في المهد، وإحيائه الموتى، وبقية معجزات الأنبياء عليهم السلام جميعًا.

وإن تعجب فعجبٌ حرص الإنسان على طلب المعجزات، وهو في غنى عنها بفضل الله الذي برحمته بعباده يحيلهم إلى الإيمان بقدرته على إنزال المعجزات دون الانشغال بطلبها، حيث يترتب على حدوثها حساب أكبر، إذ لا يبقى عذر يتذرع به الجاحد بعد وقوعها، وهذا ما حدث مع قريش بعد أن طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم (آية)، جاء الرد بتذكيرهم بالأهم، وهو قدرة الله على تنزيلها دون الاستجابه لطلبهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] ثم أخبرهم الله بأنه من رحمته ألا يستجيب لهذا الطلب لثقل تبعاته عليهم: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩] إذ لو استجاب الله لهم لغلظ العقوبة على كفرهم، كما حدث مع بني إسرائيل عندما سألوا عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة، فقالوا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢-٦٣) وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي في تلخيصه على المستدرك.

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [المائدة: ١١٢] اكتفى بتذكيرهم بالتقوى والإيمان أولًا: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢] فلما أصروا على الطلب مبررين ذلك بقولهم: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ١١٣] دعا عسى ربه لتحقيق طلبهم فضلًا من الله عليهم: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤] فاستجاب الله لطلبهم لأنه لا يعجزه شيء سبحانه، ولكن الإجابة جاءت مقرونة بوعيد أشد لمن كفر بعد ذلك: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥].

*****

الفصل الثامن عشر

ماذا عليك أن تعلم؟



ماذا عليك أن تعلم؟

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] هذا أمر الله تعالى لنبيه وقدوتنا ﷺ، أمره أن يعلم أولًا، وهذا العلم هو أعظم ما يجب على الإنسان أن يعلمه ابتداءً في هذا الوجود، ولا بد من ثلاث خطوات جوهرية هي بمنزلة الأركان الضرورية لتحقيقه: الأولى، الاعتقاد الجازم بوجود الله تعالى اعتقادًا صادقًا نقيًّا من أي شائبة، الثانية، الاعتقاد الجازم بأنه تعالى واحد في ربوبيته للوجود كله وألوهيته التي لا شريك له فيها، والثالثة، أنه ليس كمثله شيء في صفاته، فلا يشابهه أحد من خلقه مطلقًا، يجب أن يتحقق هذا العلم بيقين مطلق قبل الانتقال إلى أي خطوة قولية أو عملية، وهذا كله من أعمال القلوب اليسيرة جدًّا التي لا تكلفنا أي جهد بدني، ثم بعد ذلك عش طبيعيًّا أيها العبد المؤمن، وفق فطرتك التي ستجذبك نحو هذا الرب العظيم، فتطمئن إليه وإلى كتبه ورسله ووحيه، فتنصت له، وبعد رسوخ هذا الحق في قلبك يتحقق لك وعد الله المؤكد بتهيئة الطريق نحو الهداية المنشودة، قال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤] ومن مقتضيات هذا العلم أن تكون علاقتك بالله علاقة المخلوق بالخالق، والعبد بسيده، والفقير بالغني، والضعيف بالقوي، والفاني بالباقي، هكذا خلقت عبدًا وأنت عبد، وستبقى عبدًا، فكن كذلك طوعًا لتنال الجزاء الأوفى، لا كرهًا يوصلك للبلاء، إن وجودك يؤهلك لكي تكون في وضع متوازن لا يكلفك شططًا، لا تلتفت يمينًا ولا شمالًا، واسلك صراط الله المستقيم، فأنت المعني بهذا الأمر وعليك أن تكون عبدًا لله كما كان الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون من قبلك عبيدًا للرب العظيم الجبار.

ومن أعظم خصائص هذا الإيمان الراسخ أنه لا يأتي بالقوة ولا الإكراه، ولهذا فقد جاء الخطاب القرآني صريحًا جدًّا بأنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فليس لأحد أن يفرض عليك قيودًا في التفكير والتأمل، ها هو الوجود أمامك، تصرف كيفما تشاء، وحلق في سماء الحرية الفكرية ذهابًا وإيابًا، جرب كل شيء، فالأمر من الوضوح والرسوخ أن لا أثر للمخلوق عليه، فمردك إلى عبودية هذا الخالق العظيم، ومن كان

لديه غير ذلك فليقبل هذا التحدي الصريح، وليدفع عن نفسه الموت الذي كتبه الخالق عليه بأمره ومشيئته وقدرته: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] وكلما أدركنا عجزنا وقصرنا عن معرفة ما حولنا وشلل قدرتنا على تغيير الأحداث، ازداد قربنا وحاجتنا، بل وفقرنا إلى القادر العظيم مالك الملك، وبهذا يخرج هذا الرجاء الصادق من أعماق القلوب المؤمنة يوميًّا استغاثة به، ونحن قيام بين يديه متضرعون له مرددون: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

*****

الخضوع للخالق عزةٌ للمخلوق

بعد أن تعلم أنه لا إله إلا الله، تجاوز هذه المرحلة إلى ما بعدها، وواجه هذا الوجود معتزًّا بإيمانك الفطري الراسخ، غير مكترث بما قد يطرأ من تساؤلات عابرة علاجها أن تتذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم، وماذا قالوا لربهم وهم من هم! في مقامهم الإيماني والاصطفائي، ثم عش حياتك الدنيوية متوازنًا بلا قلق ولا إزعاج، واعلم أن الإيمان درجات، ولكنه إيمان بحد ذاته لا يُوجد مع نقيضه أبدًا، يتفاوت بين المؤمنين تفاوتًا لا يخرج أدناهم إلى منطقة الخطر، فالرسل هم الأعلون إيمانًا، وأدنانا إيمانًا هو من لديه بقية باقية من فطرة سليمة، والخير في كل ذرة إيمان قل أو كثر، ويستحيل علينا وعليك أن نصل إلى درجة اليقين الكامل في إيماننا الحسي بالغيبيات، كلا! حتى الأنبياء وهم أكثر منا إيمانًا وتسليمًا، احتاجوا لمزيد من الطمأنينة الحسية الخاصة من الله، والوحي ينزل عليهم، والملائكة تحفّهم، ومع هذا فقد طلبوا من الله أن يذكروا، وتثبت قلوبهم، ويتولاهم الوحي عناية ورعاية وحماية، وهم مثلنا يبشرون بوعد الله، ويخوّفون من وعيده.

إنك من ذرية آدم، ولست من الأنبياء ولا الملائكة، فلا تحلم بدرجة إيمانهم، واقتنع بإيمان بشري في أعلى درجاته الممكنة، وكله لك خير من الله، فإن من أكبر المنغصات على الإيمان أن يتخيل الإنسان أنه إذا لم يكن يحمل إيمان الملائكة والأنبياء،

فإنه في خطر جسيم، وأنه ليس بمؤمن إذا لم تصل درجة إيمانه إلى تمام المئة درجة! كلا، ثم كلا، إن الناجحين في الامتحانات الدنيوية المبنية على المشاحّة هم كل من يحققون ستين في المئة من الدرجات فما فوق، ويتنافس المجتهدون للاقتراب من المئة، ولكن نادرًا جدًّا أن يصلوا إليها، ولهذا استقر العرف على وصف من يتجاوز درجة التسعين بالمستوى الممتاز، أي إنه وصل إلى القمة، وهو لم يصل المئة بعد، هكذا الحياة تسديد ومقاربة، وهكذا يجب أن نسعى إلى النجاح الإيماني أولًا، ثم بعد ذلك نسعى إلى تسديده بقدر الاستطاعة بالأعمال، لكن تذكر دائمًا أنك مؤمن بفضل الله، ولأنك في وضع لا يرضي الشيطان، فهو ينغص عليك بالوسوسة والشكوك التي لا تضر بإذن الله، فاستعذ بالله السمع العليم من الشيطان الرجيم.

ثم اعلم أننا في دار الابتلاء التي تسبق دار الجزاء، ومن رحمة الله أن منحك اصطفاء خاصًّا منه ﷻ باختبار إيمانك بالغيب، لقد بلغتك الرسالة من بشر مثلك، دون أن ترى رسولًا مرسلًا، أو أن تسمع من ملك مقرب، وتذكر أن الله قد خص المؤمنين بهذا الغيب بأن وعدهم بمغفرة وأجر كريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢] وهذا الفضل من الله والجزاء الأوفى إنما هو لأصحاب العقول المتوازنين مع الوجود، الذين جعلوا إيمانهم بالمعقول، وتصديقهم للوحي وعلم الغيب، كإيمانهم بالمحسوس بقدر الاستطاعة؛ لأن الغيبيات تدرك، وتصدق بالعقول والخبر الصادق، أما المحسوسات الشاهدة فتدرك بالحواس والعقول معًا، ومع هذا فإن يقين الإيمان بالغيبيات لا يتساوى مع يقين إدراك المحسوسات، وكلما اقترب اليقينان اقترب الإنسان من كمال الإيمان، ولذلك قيل في تعريف الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»، ولو رأيته لزالت حكمة الابتلاء بخشيته بالغيب، وأنت لن تراه في الدنيا على الإطلاق؛ لأن رؤيته استحالت على موسى عليه السلام قبلك، وعليه فالمؤمنون يتنافسون على الاقتراب من هذه الدرجة العليا وقليل منهم يصلها، ولكن رحمة الله أوسع وأرجى وأقرب إنه الرحمن الرحيم جل جلاله، ورحمته قريب من المحسنين، والخضوع له عزة وسعادة.

*****

الحس والعقل والوحي

الفطرة السليمة تجمع بين المحسوسات والمعقولات تحت مظلة الوحي بتوازان لا يرد معه أي تعارض، وتتسع لسماع الآراء والأفكار القديمة والحديثة، وتنصت لحوارك الخاص مع ذاتك، لتثبت في نهاية المطاف أن ما توصلت إليه فطريًّا من التوازن بين المحسوس والمعقول، جنبًا إلى جنب مع التصديق بالخبر الرباني (الوحي) إنما هو الإيمان المطلوب الذي تتعطش لتحقيقه، مع اختلاف الناس في درجاته لاختلاف الأفهام والاستطاعة بينهم، ونحن هنا لا نقدم شيئًا جديدًا عجز عنه الأوائل، لكن للتذكير بما يجب التذكير به، كي تطمئن إلى الإيمان الذي تحمله، ولا تنتظر من أحد أن يخرق لك حاجز الغيب، ويقدم لك فتحًا غيبيًّا جديدًا في هذا المجال فوق ما هو ماثل بين يديك الآن من التذكير العام وتجميع الحقائق التي وصل إليها، وتوقف عندها أسلافنا من قبل، وبهذا تكون قد دخلت إلى نافذة الإيمان الصحيح بتعقل وإدراك، دون أن تبقى مقلدًا جامدًا على آثار من تلقوا الأمر الموروث باللامبالاة والكسل، فاكتفوا بالتقليد الأعمى قائلين: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] أنت مؤهل بنور الله أن تكون طبيبًا معالجًا لتنقل هذه الفئة من مقر كسلها وتقليدها إلى مركز الطوارئ المناسب لعلاجها بالبلسم الروحي المطَمئن المستقى من الوحي المنزل من عند الرحمن الرحيم لتقول لهم بكل عزة وفخر: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وهذا الهدى الرباني المشار إليه في هذه الآية هو غايتنا ومبتغانا في هذه الحياة، فما خُلقنا أصلًا في هذا الوجود إلا لنعبد الله، ونطيعه، ونحبه، وهو ما حاولنا معًا التذاكر حوله في هذه الرحلة الإيمانية؛ حرصًا على تطبيع الطبيعي من أمرك الفطري، وتأكيدًا على أنه مع وجوده، فإنه ليس ثمة قلق ولا وحشة لمجرد هذا (الاشتباك) الفكري العابر بينك وبين هذه التساؤلات المستعصية على كل شيء إلا الله الذي هو وحده فقط يعلم كل شيء؛ لأنه هو الخالق وحده: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] أما أنت

أيها المؤمن، فيكفي أنك تكافح من أجل سلامة هذا الإيمان، وأنك مسيطر على الموقف سيطرة ضرورية لتماسك إيمانك الذي تغذيه بالتذكر والأذكار وبالمجاهدة والمدافعة والعبادات حتى تلقى الخالق ﷻ متمسكًا بهديه.

ولأهمية هذا الأمر في الوجود كله أصبح التفصيل واجبًا، والتكرار مقصودًا، والتذكير بالله تعالى متواصلًا؛ كي يطمئن القلب على أن مفتاح فهم كل الأسرار في الوجود، هو هذا الإيمان الفطري الذي تحمله، فلا تقلق أبدًا، وهنا موضع الامتحان والاصطفاء من الخالق! أتظن أنك لم تُبتلَ بإيمانك هذا الذي تجاهد لبقائه؟ أتظن أن محك التمايز الذي أوجده الخالق بين الخلق معطل؟ أتظن أنه ليس هناك متابعة ولا رعاية متواصلة في كل لحظة من وجودك حيًّا وميتًا؟ بلى، والله، لقد خلق الله كل شيء بقدر، خلقنا وخلق معنا الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملًا، وهو العزيز الغفور، وكل ساكن ومتحرك في هذا الوجود مرصود في كتاب مبين، وأن مردنا إلى الله.

جرت العادة أن يشعر الإنسان بالإحباط عند عجزه عن تحقيق هدف دنيوي معين، أما مع وجود الإيمان بالله وتعظيمنا له فإننا نتذوق لذة عجزنا في محاولاتنا البائسة عبر التاريخ لفك لغز هذا الكون والوجود والموت وما بعد الموت، وجلب كل ما نريد، ونشتهي، ودفع ما لا نريد، ولأننا لم نتمكن من ذلك، حتى لو جمعنا آراء الأولين والآخرين على مر التاريخ، وغربلناها بحثًا عن جواب مقنع عن أسرار الوجود والغيب، فلن نجد على الرغم من كل هذه المحاولات شيئًا يجعلنا نثق بتقديمه تفسيرًا لوجودنا سوى هذا السيل المتدفق من تلكم الاحتمالات والفرضيات التي تتقاذفها نظرياتهم النقدية والاعتراضية، وعبثًا يتشبث ببعضها، بعض بني الإنسان بدافع العناد والمكابرة والصدود عن الوحي: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] وأجمل ما في هذه النتيجة أننا مع الوقت ندرك عظمة من نعبده وضعفنا إليه، فنزداد فخرًا وطمأنينية أن هذا ربنا الذي نخافه، ونرجوه ﷻ، فنزداد إيمانًا مع إيماننا.

*****

الإيمان الراسخ والوسواس العابر

اعلم أن هذا العناد البشري والمكابرة بالإعراض والصدود عن الحق بعدما تبين مع وضوح لذة الإيمان وضرورته للحياة وما بعدها عند بعض الناس، ليس له تفسير منطقي سوى تلك المحاولات البائسة التي يقوم بها عدو آدم وحواء وذريتهما من بعدهما، إبليس اللعين قائد سرايا الضلال المبين، كما أخبرنا عنه الوحي بأنه قد أقسم بالله على الغواية والضلال لبني آدم، لم ينتبه الغافلون المتبعون الذين يدفعهم الشيطان دفعًا نحو الكفر والإلحاد بأنه وإن أقسم ليضل الناس، فقد أقسم بالله مؤمنًا به! فهو يعرف الله حق المعرفة، إلا أنه استكبر، وكان من الكافرين، فاستحق أن يكون زعيم أهل النار يوم القيامة بسبب هذا العناد والاستكبار المغالط للحق، لا تقل: كيف حصل هذا في مملكة الله وسلطانه، أن وجد الشيطان بمشيئة الله وإرادته، ثم الله يحاسب من أغواهم من عباده، لقد اعترفنا بأننا تحت هيمنة الله وأي تساؤل غيبي عن شأن إبليس ووجوده مخلدًا في الدنيا وطريقة ضلاله للناس وكل ما قد يتسلل إلى فكرك سرًّا أو علانية حول ذلك أو غيره، نطقتَ به أم صمتَّ مما يصول، ويجول في نفسك حول عالم الغيب، والملائكة والجن والشياطين، كلها أمور كبرى فوق ضعفك البشري، لا يتطلب وجودها قدرتك على تصورها أو فهمها، فهي موجودة بقدرها الكوني العظيم، فثق بالله، وأحسن الظن به، فإن الله لا يظلم الناس شيئًا، وهو أرحم الراحمين، فلا مزايدة من مخلوق عليه في ذلك أبدًا، ولقد حصر الحساب في منطقة الاختيار الحرة من عمر الإنسان دون سواها، فإذا فقد حرية الاختيار سقط التكليف، وقد بيّنّا ذلك في فصل سابق، فليس أمامنا سوى الاستسلام والتسليم المطلق له سبحانه؛ لأن الأمر كله لله وحده لا شريك له يخلق ما يشاء ويختار، وهو الذي خلق الخلق، ويعلمهم وحده، ونحن عبيده الضعفاء الفقراء الخاضعون له بكل شيء، نرجو رحمته، ونخشى عقابه.

تذكر أن الله لم يكلفك ما لا تطيق، فباعد بين نفسك وبين هذا الرعب والخوف من الضلال الموهوم، واهنأ بجوار الله وأمانه، وتقبل الإيمان الفطري وسهولة الاعتقاد به والراحة معه، ارحل فورًا من دوائر الشك المعقدة، والخوف والضيق وغير ذلك من

الوساوس التي لا سند ولا مبرر لها، وتحول إلى مراتع الطمأنينة بالإيمان والاستسلام والتسليم المنسجم مع وجودك وفطرتك، لستُ هنا أواسيك بمرض، ولا أعزيك بفوات شيء لا يمكن ردّه، بل أذكرك بشيء هو في قلبك ومحور تفكيرك وملازم لك في وجودك كله، وهو أنك والحمد لله تملك أساسًا فطريًّا للإيمان يكفي أن تقيم عليه صروحك الإيمانية الشاهقة مستنيرًا بالوحي دون أن تقلق من عدم تجلية العتمة في الدنيا، وذلك لسببين:

الأول، هو إدراكك الجازم بأنك إنما خلقت لتكون عاجزًا قاصرًا ضعيفًا لم ولن تحيط علمًا بما لا يمكن أن يحيط به الإنسان إلى الأبد، وأنه بمجرد استحضارك لهذه المسلمة، فإنك تبقى مستقرًّا سعيدًا في محيط الإيمان الراسخ بإذن الله، الذي يحتاج فقط إلى عناية ورعاية وحفظ، والحقيقة التي أبشرك بها دون أن تدركها هي أنه كلما زاد خوفك، زاد إيمانك مهما زهدت به، وخفت عليه، فربك أعلم وأحكم وهو الذي خلق وقدر وهدى، ولذا أرشدك إلى تلاوة القرآن للبشرى بالأجر ولديمومة الحصانة والمنعة من الزيغ والضلال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] ولأن في هذا الأمر تكليفًا خاصًّا، فقد أرشدك إلى الصبر والمصابرة والاحتساب مع الصحبة المباركة، الذين يهيئون لك أجواء الراحة الإيمانية، ونهاك عن صحبة المفرطين التائهين المضللين، انظر كيف خاطب رسوله ﷺ لتعلم أنك أحوج منه إلى ذلك فوق كونه القدوة: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

أما السبب الثاني، فهو استحالة أنه كان في الماضي، أو يكون في الحاضر، أو سيكون في المستقبل بمقدور أحد من الخلق أن يجلي لك أجوبة وافية لجميع استفساراتك المتدفقة عن أسرار الوجود والغيب، ويوقفك أمام الحقيقة المطلقة دون الاعتماد على الوحي، بل بما سمح به الوحي من معلومات، تذكر مقولة البروفسور (لويس)(١) التي أوردها

(١) لويس Hywel David Lewis (١٩١٠ - ١٩٩٢م) الموافق (١٣٢٨ - ١٤١٢هـ) فيلسوف وعالم دين بريطاني من مواليد مقاطعة ويلز ومن أشهر كتبه (Our Experience of God). لاقى انتشارًا واسعًا: (Dictionary Of Welsh Biograpy- Lewis Hywel David).

في كتابه (تجربتنا مع الله) يقول فيها: «إن الحقائق التي يقررها العلم والفكر لا تعدو أن تكون حقائق نسبية، أو حقائق بالإضافة إلى غيرها، وبعض هذه الحقائق مقياس لبعضها الآخر، ولكنها جميعها لا تثبت للذهن بحال من الأحوال بغير القياس إلى حقيقة مطلقة أبدية تحيط بها جميعًا، وهي الحقيقة الإلهية»[1]، هذا ما فاض عن فطرته قبل أن يقرأ القرآن الذي يخبرنا بأن الأمل الوحيد للوصول إلى إجابات شافية على كل ما في نفوسنا سيكون فقط وفقط وفقط في نهاية المطاف وفق أقدار ونواميس مختلفة تمامًا عن حياتنا الدنيا ونواميسها، ونحن على موعد مع حياة أخرى غير تلك التي وجدناها على الأرض، واندمجنا بها، واندمجت بنا، وتطبعنا بها، ولم نتطبع بغيرها، وفي تلك الحياة (يوم القيامة) سنعلم حقيقة كل شيء في موعده، وسيخبرنا عن ذلك من قدر وجودنا، وعلم ساعة موتنا كما علم ولادتنا من قبل، وكلها أمور فوقية بالنسبة إلينا، لم نشهد قدرها ولا تقديرها، إنها الحقيقة الماثلة أمام كل عاقل، التي لا تقبل الجدل أو الإنكار، نحن على موعد مستقبلي مع الله ليخبرنا عما نحن نختلف فيه اليوم، لقد قال لنا: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

بهذا الإيمان الراسخ نشق طريقنا نحو السعادة والسلامة ومن ثم الجنة غير مبالين بما نراه على جوانب الطريق الطويل، نحن في هذا الوجود خلقنا عبيدًا وعبادًا لله، نتفاوت في درجات إيماننا، كما نتفاوت في مقادير أرزاقنا وآجالنا، ولكلٍّ منا نصيبه من الإيمان وله نصيبه من الرزق الذي أبقاه حيًّا، مختلفون ولذلك خلقنا ربنا، لا يتوقع أبدًا أن يجمع الناس على أمر واحد، وهذا الاختلاف والتباين في الأفهام والعقول والتصورات لن ينتهي في حياتنا الدنيا على الإطلاق، ومردّه إلى ميعاد مقدر فيه سنعلم تأويل كل شيء أعجزنا فهمه في الدنيا، أما قبله فلن نعلم! نحن على موعد كريم من رب رحيم، فلننتظر ذلك اليوم الموعود الذي أكده الله بوعده الحق على نفسه ليبيّنّه لنا، ردًّا على قسم الدهريين على إنكار البعث كله، فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨- ٣٩].

(١) الفلسفة الإسلامية، عباس محمود العقاد، المجلد التاسع، (مرجع سابق)، ص١٤.

ما أيسر الاعتقاد بهذا الإيمان، تأمله جيدًا، وستجده حلوًا وشفافًا بهذه الصورة الرضائية التسليمية الصادقة والمنسجمة روحيًّا مع النفس والذات والفطرة السليمة، بعيدًا عن الغرور والأوهام التي أضلت كثيرًا من بني البشر عن سواء السبيل، فهذا قدرنا الذي قدره خالقنا، وهو يقدر علينا، ولا نقدر عليه، ومكننا من الاختيار فيما يخصنا وحصر حسابنا فيه، ولم يكلفنا الحساب على ما لا قدرة لنا في اختياره، وستجد نفسك في يوم من الأيام الكونية تواجه هذه الحقيقة الكبرى فائزًا بهذا الإيمان المسبق بها، وحينها ستحمد الله الذي هداك لهذا، وستشكر المخلوق الذي ذكرك في حينه، فاغتنمت فرصتك قبل الموت، ولن يكون لحظة الموت القادمة إليك لا محالة على الرغم من هيبتها مفاجأةً لك من رب قد منحك هذه الفرصة، وقال لمن استهان بها، وفوتها، فحاق به ما كان يظن ويعتقد بعد فوات الأوان: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] وذلك لأنها فرصة سيقفل بعدها كل ملف دنيوي، وسيكون الحكم العدل (باتًّا) لا معقب له في حق الجميع ومنطوقه صريح نافذ في الحال، وهو: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥] وليس لأحد أن يعترض أو يحتج أو يخاصم، وقد قدم الله له هذا التحذير مسبقًا يوم أن كان في سعة من أمره قبل أن يرى حاله تلك اللحظة التي قد يخاصم المرء فيها، حيث لن يجد سوى هذا التذكير المسبق بالتحذير من هذا المآل: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨].

*****

الحب الأعظم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]

انطلاقًا من هذه المفاهيم العقائدية العميقة تتفجر تلقائيًّا بداخلنا ينابيع الحب الحقيقي لله الرحمن الرحيم، ليس حبًّا عبثيًّا، بل حب أساسه أن الله هو الذي أوجدنا خلقًا وحياة وموتًا، وهيأ لنا كل شيء ندرك به ما حولنا، وأخبرنا عما لا طاقة لنا الإحاطة به، ولم يكلفنا أمره، وقدر لنا، وبيّن لنا طريق السلامة والنجاة بكل سلاسة وأمن ورأفة،

وجعلنا نسير إليه في اتجاه واحد نحوه فرحين مشفقين بكل حب وأمل، يرعانا قبل حياتنا وفي حياتنا وبعد مماتنا وفي آخرتنا، أمرنا كله مرهون بيده ﷻ، لم يجعل من تقصير المقصرين في الطاعة عائقًا عن دخول رحمته الواسعة، بل وعدنا وعد الكريم بأن لا حساب على من لم تبلغه رسالة، وأن رحمته سبقت غضبه مع الجميع بمن فيهم من بلغته الرسالة، وأن الخطيئة تنقلب إلى فضيلة وحسنات عند الرجوع إليه بالتوبة الصادقة.

إن هذا الحب لربنا الكريم هو أعظم الحب وأرقاه وأزكاه وأبقاه، وما أجمل أن تجتمع بالمحبوب صفات القوة والبقاء والرحمة والكرم المطلق والرعاية الأبدية، بل والقدرة على منع كل شر ومنغص، وعندما يكون الحب بين قوي وضعيف، فهو لمصلحة الضعيف بلا شك، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] ومن هذا الحب تبين لنا ضرورة الإيمان بالله الحق إيمانًا مطلقًا نأمن به من كل قلق، وندفع بهذا اليقين كل وسوسة، نحتاج إلى الطمأنينة التي تقينا كل فزع، وتحمينا من كل نازلة، كيف لا وهو الذي برحمته وسع المستغفر وغير المستغفر، بل إنه كتب على نفسه الرحمة مطلقًا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فهذا ربنا الذي أحبنا، وأحببناه، وارتضيناه ربًّا، وآمنا به وحده لا شريك له، فله الحمد والمنة، هو ربنا ومولانا، فنعم المولى ونعم النصير، وإعلان هذا الموقف الكوني إعلانًا مدويًّا أمام كل مخلوق، ومجاهدة النفس للاستقامة عليه بقدر الاستطاعة، هما سبب زوال الخوف والحزن إلى الأبد واستحقاق البشرى عند الموت تحقيقًا لوعد الله القائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

ما أحوجنا إلى أن ننعم بهذا الحب الإلهي ونحن واثقون بأنه لا يمكن لمحبوب محتاج أن يعذب حبيبه أبدًا! فكيف بالمحبوب الغني الحميد، والقوي العزيز، والبر الرحيم سبحانه، فلله منا الحب كل الحب، أصدقه وأدومه، أن خلقنا وعلمنا وهدانا للإيمان، وله الفضل والمنة علينا أن سخر لنا عقولًا نعقل بها وأوجد لنا في الدنيا من الآيات العظيمة ما تبهر عقولنا، وتحير أفهامنا، وتهدينا إليه، وخلق لنا من أدوات الإدراك ما يجعلنا نحس بتلك الآيات العظيمة، فنعظم خالقها، ثم خاطبنا بوحيه الكريم وبكلامه

الحق الميسر لكل الناس مع تفاوت قدراتهم في الفهم والاستنباط، ومن رحمته بهم أنه لم يربط الإيمان بمدى قدرة عقولنا على استيعاب أسرار هذه الآيات، بل أمرنا أمرًا عظيمًا مقدسًا بذاته فوق براهين حجج الدنيا كلها، أمرًا لا يسعنا الا السمع والطاعة له، لقد أمرنا أن نعلم مجرد العلم، سواء قبل البرهان أو بعده، بالبرهان أو من دونه، أن نعلم علمًا كونيًّا مجردًا أنه الله، وأنه لا إله إلا هو، وأمرنا بالاستغفار عما اقترفناه من سوء ظن أو قول أو فعل، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩] ثم أكد لنا أن الحقيقة الإيمانية قادمة بإذنه، وستسقر بعد هذا العلم، وسيخبت القلب الباحث عن الحق بصدق، ويخضع لله بسببها، وستنقاد تبعًا لذلك كل الأعضاء والجوارح وحتى العقل بمجرد هذا العلم، لقد وعدنا بذلك القادر على كل شيء فضلًا منه وتكرمًا، وعدنا بهذه الهداية إلى الصراط المستقيم ومن أصدق منه وعدًا؟!، بأن الإيمان المطلوب سيتحقق من خلال هذه المراحل: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

*****

حب الرسول ﷺ

من محبة الله العظمى يتفرع محبة أخرى لتشمل حب كل شيء من عنده، وفي مقدمة ذلك حب المصطفى الحبيب نبينا محمد ﷺ، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين الذي نجد في سنته وسيرته وتوجيهه الملاذ من كل وحشة فكر ووسوسة شيطان، إنه سيد ولد آدم الذي تولى الله تعالى تقديمه لخلقه بنفسه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ما سأله سائل إلا وأعطاه مسألته، أرأيت كيف كان رحيمًا مشفقًا على أصحابه الذين أفصحوا له عما كانوا متخوفين مترددين من قوله إلا له، كتخوف بعضنا اليوم من أن يبوح بما يشابهه، فلم يزجرهم أو يجرمهم أو ينهاهم ابتداءً، بل استفهم منهم استفهام

المشفق المبسط للأمر، نازعًا فتيل الوحشة من قلوبهم المتعطشة للحق أولًا بقوله: «**أوَجدتموه؟**»، سألهم، وكأنه ينتظر ذلك منهم منذ زمن، كأنه يريد رؤية ثمرة مشروعه الإيماني العظيم في أصحابه، وإلا لما قال لهم: «**الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»، مؤكدًا أن (ذلك محض الإيمان)، تخيل لو أن كل من لديه إشكالية مشابهة لتلك التي كانت عند بعض الصحابة، وجد من شيخه أو موجهه أو من مجتمعه هذا اللطف والشفقة والأمان والتوجيه الحاني البشوش، حتى يأخذ بيده إلى الأمان واليقين، ورب السماء والأرض لن يبقى إنسان واحد في وحشة تحتقن في قلبه تلك المعارك الفكرية الطاحنة التي يواجهها منفردًا، وهذا علاجها الميسر من الله ورسوله أقرب إليه من حبل الوريد، ولكنه قد تحمل هذا الجفاء ممن حوله، وأجره على الله تعالى.

لقد كان الحبيب ﷺ مبلغًا أمينًا أقام كيان الأمة على أساس من التقوى، فاستقام هذا الكيان، وصمد لأنه رسالة الله إلى خلقه، فبلغها عن الله للناس دون أن يطمح إلى ملك أو جاه، إنه مشروع يختلف تمامًا عما كانت تهدف إليه أمم سادت، ثم بادت، كحضارات فارس والروم وقصور كسرى وقيصر وبابل والغساسنة والمناذرة (الخورنق والسدير)[1]، الذين سادوا قبل النبوة، ثم بادوا واندثروا، بينما بقيت رسالة المصطفى عليه الصلاة السلام متجذرة في العقول والأفهام على الرغم من تواضع حياته المادية التي عكسها تواضع حجراته التي أبقاها الله في مسجده للعبرة، كما نراها اليوم، تلك الحجرات التي لا تكاد تشكل في مساحتها الصغيرة زاوية في أصغر بيت من أدنى بيوتنا المعاصرة، وما له وما لدنيا بأبي هو وأمي، لقد كان جل همه التبليغ وهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن رحمته بالناس أن شق عليه ألا يراهم مؤمنين بالوحي الذي جاء به، حتى جاءه القرآن مخففًا عنه همه ذلك بهذه المواساة الخاصة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] وسبب ذلك أن ضلال أولئك القوم كان جحودًا متعمدًا للحق: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وهذه ليست مسؤوليته:

(١) قصر الخورنق من قصور العرب في الجاهلية بناه المهندس الرومي سنمار بأمر من النعمان بن المنذر جنوب العراق في القرن الرابع الميلادي وقصر السدير أقل منه حجمًا وقد بناه اللخميون المناذرة في نفس الفترة تقريبًا.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فمسؤوليته هي البلاغ بكل وسائله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] حتى يصل البلاغ إلى منتهاه بالجهاد، وكما أنه مبلغ فهو أيضًا منذر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ بأنه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥] ولكن رحمته بأمته أوجدت لديه هذا الشعور بالحزن على ضلال قومه، لولا أن تداركته رحمة الله، وهو يتحسر على أمته طمعًا في إنقاذهم من الضلال.

أفلا نحب من كانت هذه صفاته وهذا خلقه؟ لقد استحق بهذا الخلق العظيم وتأديته للأمانة أن يكون هو الأسوة الحسنة الواجب الاقتداء به من قبل كل إنسان، في كل شيء، في أقوالنا وأفعالنا وأساليب دعوتنا، وأمرنا بالمعروف وإنكارنا للمنكر، وعلى كل عالم وداعية أن يقتدي به متجردًا في تعامله وتلطفه مع من يحتاجون إلى بيان الحق من الناس، فيبلغ عن الله ورسوله دون أن يجلب لذاته شيئًا من حق الله له، ويمضي على الطريق المستقيم مناديًا بالحق لله وحده، مرشدًا الناس إلى طريقه، متحملًا العقبات بل والعثرات بكل صبر واحتساب، فلا يزجر سائلًا قط، ولا يغلق باب استفسار مهما كان حساسًا دون أن يحيله إلى جواب واضح كوضوح الشمس في رابعة النهار، فالنبي ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى، وهو يوجه السائل للتفكر في مخلوقات الله، وينهاه عن أن يفكر في ذات الله فيهلك، لماذا يهلك؟ لأنه لا مجال لمؤمن ولا كافر منذ آدم في الماضي وحتى نهاية المطاف في هذه الدنيا، أن يكون في مقدوره معرفة أي شيء عن ذات الله على الإطلاق مهما فتح الله على الإنسان من علم في الدنيا، حقيقة محسومة بشكل نهائي إلى الأبد، قضي الأمر وانتهى، إنه التحدي المطلق الذي لم يجد المكابرون في مواجهته سوى اللجوء إلى الإنكار والنفي والإلحاد مكابرين، ولكن هيهات ثم هيهات موعدهم لحظة الندم عند الممات!

*****

الفصل التاسع عشر

ماذا عليك أن تعمل لكي تعلم؟





ماذا عليك أن تعمل لكي تعلم؟

إذا تحقق الإيمان الصادق ومحبة الله ورسوله أولًا فإن العمل بمقتضاه سيأتي تبعًا له وبطيب نفس، وكما جاء في القرآن، لن تكون العبادات العملية ثقيلة على الخاشعين لله الذين يعتقدون أنهم سيلاقونه، وليس من هدف هذا الكتاب الدخول في تفاصيل العبادات الفعلية بقدر ما يركز على الأفعال الضرورية لحفظ وتقوية الإيمان العلمي والاعتقادي، ولكي تصل إلى ذلك المستوى الأمين من الإيمان الذي تأمن عليه، وتأمن به من كل خوف، وتلوذ به عن كل وحشة، وبه تصبح على الحق المبين، وتكيف حياتك الوجودية بكل استرخاء وطمأنينة دون وجل أو توجس بكل حرية كي تواجه حياتك مبتسمًا، وتقبل الرحيل منها مبتسمًا، وتضمن الفرحة الكبرى والابتسامة العظمى أمامك في الحياة الأبدية، فعليك أن تحصن إيمانك بخطوات عملية مع حسن الظن بالله، فهو خير زاد لك في الدنيا.

*****

الإيمان قبل العمل

الإيمان أولًا ثم العمل ثانيًا، وهذا التركيز على ضرورة ترسيخ الإيمان بالله وتثبيته، كنقطة انطلاق في كل شيء في وجودنا ليس المقصود منه التقليل من العمل والطاعات والعبادات، ولكن لتأكيد أهمية الإيمان وأسبقيته على كل عمل، وكيف يعمل الإنسان قبل أن يعلم لمن يعمل، ومن يرجو ويخشى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد: ١٩] وهذا هو سر تكرار ذكر الإيمان في القرآن مقرونًا، بل متبوعًا بالعمل الصالح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥] ما يؤكد على أهمية ما يترتب على الإيمان من ترجمة عملية من طاعة الله واجتناب معاصيه، ومن الطبيعي أن يزيد هذا الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية حتى إنه ليكون في لحظة الوقوع في المعصية أقل ما يكون لتغلب شهوة المعصية على قوة

استحضار الإيمان، لكن سرعان ما يسترد الإنسان وضعه الطبيعي بالإقلاع والاستغفار والتوبة الممزوجة بالحزن والندم كما جاء في الحديث الصحيح: «**من سرَّتْه حسنتُه، وساءتْه سيِّئَتُه، فهو مؤمنٌ**»[1]، وهذا ورب السماء هو الفضل العظيم من الخالق على المخلوق.

نحن في أمسّ الحاجة إلى المصالحة الفكرية مع الذات، ووضع حدٍّ لتلك المعارك المحتدمة داخل بعض النفوس المؤمنة عن الوجود ومآلاته، وذلك عن طريق علاجها ببلسم الوحي والإقرار بالواقع الإيماني المريح، والقبول به اعتقادًا وقولًا وعملًا، فنستعيذ بالرب الرحيم من الشيطان الرجيم ومن وساوسه كلها، ونعرف قدرنا حق المعرفة في هذا الوجود، ونتواضع لله الواحد القهار منكسرين بين يديه بضعفنا وفقرنا إليه، ونلحق بركب أبينا إبراهيم عليه السلام، نؤمن إيمانًا على منهج الأنبياء وعلى بصيرة ودراية، وليس إيمان العجائز على غفلة وبلاهة، إيمانًا نتفكر من أجله في الوجود، فنزداد معرفة ويقينًا بخالقه سبحانه، ونرتقي بالمعرفة الوجودية كي نزداد إعجابًا وتعظيمًا لرب الوجود الذي لن ندركه بحواسنا ولا حتى بعقولنا التي وهبنا لندرك بها ما لا ندركه بالحواس، ولكننا صدقنا خبره حين جاءنا من أصدقنا، ومن أصدق من الله قيلًا؟

سنمضي في حياتنا الدنيا مستظلين بظل الإيمان، وسنتأمل ما حولنا من الآيات الكونية المحسوسة كالكواكب... القمر.. الشمس.. ونزيد عليها بتأمل ما كشفه لنا العلم من مجموعات شمسية ومجرات وكويزرات، سواء ما أدركناه بحواسنا أو ما توصلت إليه مدارك عقولنا استنباطًا واستنتاجًا، ولو وصل العلم بنا إلى أضعاف أضعاف ما وصلنا إليه اليوم فلن نقترب من معرفة ما لم نخلق لمعرفته إطلاقًا، ولن نتجاوز أقصى ما وصل إليه أبونا إبراهيم عليه السلام من قبل، حين تأمل، ثم قال: ﴿**إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٩] ولنعلم علم اليقين أن الوحي وحده هو سبيلنا الوحيد للوصول إلى أي خبر غيبي، وأن خبره ضروري جدًّا في إكمال منظومة المعرفة في الدنيا وما بعدها، وأن التصديق به ضروري كضرورة الغذاء والتنفس للحياة، ولنستسلم لله استسلاما لا يشوبه أي تردد ولا مكابرة، وهنا تتجلى لنا معرفة الحكمة من الأعمال التعبدية لله المبنية على الإيمان الصحيح، كالركوع

(١) الحديث رقم (٦٢٩٤) في صحيح الجامع للألباني.

والسجود والطواف والصيام والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة والرمي والخضوع المطلق لله اعتقادًا وقولًا وعملًا، إنه لزامًا علينا أن ننحني له وبكل الإخلاص راكعين، ونخر له ساجدين، مقتدين بالرسول الأعظم ﷺ الذي امتثل لأمر الله الذي أمره بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] وبقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

*****

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]

إنها الفطرة السليمة والعروة الوثقى التي قوامها الإيمان الراسخ والعمل الصالح وحسن الظن بالله، صبغة الله وفطرته التي يتحطم على صلابة اليقين بها كل أشكال الشكوك والوسوسة واليأس، وهي فضل من الخالق يولد عليها كل إنسان، وإن عصفت به أمواج بحار الفكر فيما بعد، وتفجرت أمامه براكين التساؤلات الكامنة التي لم ولن يجد الإنسان لها جوابًا من عنده، ولن يجد حلًّا لها إلا بالتسليم المطلق لله الخالق والانقياد له صاغرين غير مستكبرين، ونحن مستمسكون بها، من هنا وجب علينا الفرار إلى الله طمعًا في السلامة والأمان، رافعين شعارنا في وجه كل جاحد ومعارض وكافر وملحد: إننا نعتز كل العزة، ونفتخر كل الفخر بعبوديتنا لله وحده، نؤمن به، ونحبه، ونطيعه، ونجد في ذلك من الطمأنينة والسعادة والأمل والأمن المستقبلي ما لم يخطر على بال من حرم منه، وجدنا أنفسنا هنا في حديقة السعادة الدائمة بعناية الله وحفظه في حياتنا وبعد مماتنا، إننا نتلذذ في النعيم، ونحن نستشعر كامل الاستسلام والتسليم المطلق للخالق العظيم، وشعارنا هو: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٤].

*****

خطوات عملية احترازية

ولكي تعلم هذا العلم الضروري لكل ما بعده، وتؤمن هذا الإيمان، وتتمتع بهذه الطمأنينة والأمان، لا بد أن تقوم بخطوات عملية فورية لإتمام هذه المكاسب الثمينة والمحافظة عليها، ومنها ما يلي:

١- ثق بالله تعالى تمام الثقة، واطمئن إليه كل الطمأنينة، واستقبل هذا الوجود كله بروح هادئة مطمئنة، وتصرف بشكل طبيعي جدًّا في تفاعلك مع من حولك، كن مسترخيًا واثقًا بأنك تحت رعاية من يملك كل شيء، ثم فكر، وابحث، ونقّب، واطلع، وحاور، وناقش، وجادل كيفما بدا لك الأمر، ولكن تأكد أنك ستبقى (أنت كما بقي من قبلك، وكما سيبقى من بعدك) عبدًا ضعيفًا لخالقك محتاجًا إليه، عالة على فضل الله ورزقه وعافيته، محتاجًا إلى كل شيء يكون الخالق فيه غنيًّا عنك وعمن سواك، فهو مالك الملك سبحانه؛ لا سواء ولا شراكة ولا ندّ له ولا شبيه له في وجوده وربوبيته وألوهيته للوجود كله، واعلم أن هذه هي الحقيقة المطلقة التي منها تبدأ وإليها تنتهي مهما طال بك الطريق، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٢- اعلم أن الذي خلقك قد خلق باختياره إلى جانبك الموت والحياة وأمورًا أخرى قدرها أن تكون فوق استطاعتك مهما بلغت من العلم، وأنه لا قرار لك ولا إرادة بذلك، ومن رحمته أنه لم يكلفك بها، ولن يحاسبك عليها، بل جاء تكليف السيد القادر لأقصى درجات القدرة، لعبده الضعيف لأقصى درجات العبودية والاستسلام والخضوع آمن أم زعم أنه لم يؤمن، تكليفًا محددًا وفق استطاعته، فهو عبد لله ولا خيار له في ذلك: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]. فاصبر على ما يمر بك من خير وشر وابتلاءات حتى يوم المعاد، انتظارًا للوعد الحق، فقد أمر الله بالصبر من أجله، ونهى عمن يثني عن الاستعداد لهذا الموقف: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٣- تذكر أن مصدر هذه الطمأنينة التي تسعى جاهدًا للبحث عنها موجود في نفس منبع القلق الذي يحيط بك؛ لأن الأمر كله يتعلق بالله سبحانه، وهو الذي له الخلق والأمر وإليه يرجع الأمر كله في هذا الوجود، فلا فرار منه إلا إليه، ولا يوجد أحد تزداد شوقًا إليه كلما تضاعف خوفك منه إلا الله تعالى، أرأيت كيف ترتكب الذنب في حق الله، فتخاف من الله، وتبكي شوقًا إليه وطمعًا في مغفرته ورحمته وستره؟! أتدري لماذا؟ لأنك مؤمن من داخل نفسك أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فَلِمَ لا تثق بالله، وتبادر بتحويل أي قلق يتعارض مع هذا الظن الحسن به إلى طمأنينة مطلقة بإذابته في معين الإيمان الصافي، تأكد أنك بهذا الحال المتردد فيها بين الخوف والرجاء تصبح مؤمنًا بالله وبالغيب حق الإيمان، وهذا الصراع لبقائه، بل إن هذا الألم الداخلي مما يدور في تفكيرك أحيانًا حوله واستعار لهيب الجدال بهذه الشدة هو تأكيد على تجذر إيمانك ورسوخه، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٤- تلمس الواقعية، وابتعد عن الأحلام والنرجسية، عليك أن تعيد النظر في كثير من أوهام السعادة المطلقة التي قد تحلم بها أحيانًا في الدنيا، فلست هنا في دار جزاء، بل أنت في دار ابتلاء وامتحان لا خيار لك في وجودك فيها ولا رحيلك منها، دار تبدأ بآلام الولادة، وتنتهي بآلام الموت والحزن، وكلما مر عليك غبش أو قلق في هذه الدنيا تذكر أن خيارك الحر محصور بين اختيار طريق الجنة أو طريق النار فقط، وأنك تحتاج إلى مجاهدة النفس حتى تنتهي فترة الامتحان بالنجاح المأمول بحول الله والاستقرار بالجنة، وهذه الفترة تحتاج منا ومنك إلى عناية خاصة وحذر وحيطة، خاصة أنها فرصة واحدة وحيدة لا تتكرر مطلقًا، وسيكون أجرك مضاعفًا بهذا الإيمان الغيبي إذا علمت أن من كانوا أفضل منك وأعلى درجة من اليقين والإيمان، قد احتاجوا إلى جرعة خاصة من التثبيت الرباني وطمأنة القلب وتثبيت الفؤاد، على الرغم من أن الوحي كان ينزل عليهم، ويُطلَعون على بعض علوم الغيب مما لا تطلع عليه، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٥- لا تحلم يومًا بالاطلاع على غيب الله أو معرفة سر من أسرار الوجود في الدنيا سوى ما كشفه لك الوحي، فقد حكم الله بحكمه بأنه لن يظهر على غيبه أحدًا، وأن كل

ما قام به الأولون من خوض في مسائل الغيبيات لم تفلح بشيء؛ لأن عقولهم أصلًا لم تخلق لها، ولم ولن يستوعبها عقل الإنسان، وجميع تلك المحاولات لم تقدم، ولم تؤخر في الحقيقة شيئًا، ولم تعالج أي إشكالية فكرية حول ما وراء هذا الوجود، ولولا خبر الوحي عن الماضي والحاضر والمستقبل لكان الإنسان أشد تيهًا وضلالًا فيما يخص الغيب والنشأة الأولى والآخرة، فلا بد من حسم هذا الأمر بهذا الوضوح مستأنسًا بكثرة من يؤمنون بالغيب والآخرة من الناس كافة على اختلاف مشاربهم ودياناتهم، مقارنة بقلة شذت عن القاعدة وأحيانًا تتصنع الإلحاد مكابرةً لا اقتناعًا، والله أعلم بما يصفون، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٦- اعلم أن أمامك مستقبلًا مخيفًا جدًّا، وأهوالًا يشيب منها الولدان، وبسببها تضع كل ذات حمل حملها، ومنها يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه، وأول هذه الأهوال هذا الموت الذي قد يداهمك في أي لحظة، انظر ماذا يفعل بالأحياء من حولك، يتخطاك إليهم، وسيتخطاهم إليك لا محالة، ألا تعجب من غفلتك هذه وأنت لا تدرك ماذا يحدث لميتك بعدك، وأنك ستكون مكانه يومًا ما؟ فأين المفر من هذه الأهوال إذا لم نحزم الأمر في هذه الحياة من لحظتنا هذه؟ إياك ثم إياك أن تتغاضى عن حقيقة وحشة هذا الطريق الذي ستحمل فيه همك أمام أهواله وحدك، تزود بزاد السفر إلى العالم الآخر حالًا، واحصل على حاجتك من الأمن والطمأنينة والخلاص من كل خوف، واستعد لما سيقابلك، فستنقطع عاجلًا أم آجلًا عن الدنيا وجدالها وفلاسفتها وملحديها ومؤمنيها ونورها وظلامها وليلها ونهارها، ونجومها وكواكبها وسمائها وأرضها، وقريبًا ستتخلى ويتخلى عنك المال والوالد والولد، وستقدم على عالمٍ آخر لا تحمل فيه هوية ولا مالًا ولا لباسًا، وإلى كينونة أخرى مما لا يمكنك معرفتها إلا بخبر الوحي الذي هو اليوم بين يديك ميسرًا، وأن كل هذه الأهوال تنقلب أمنًا وفرحًا وسرورًا مع الإيمان، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٧- اعلم أنك الآن لا تزال في فسحة العمل والاستدراك التام، ها أنت هذه اللحظة تقرأ هذه السطور، وأنت بكامل الأهلية والعقل، فاغتنمها فورًا لتصحيح وضعك

فالأعمال بالخواتيم، والحد بينك وبين نهاية هذه الفسحة هو فقط خروج هذه الروح الغامضة من هذا الجسد الذي تلمسه، وتتحسسه بيدك، لا تدري متى يكون ذلك، فقد تواجهه في هذه اللحظة أو بعد دقائق من قراءتك لهذه العبارة أو بعد أيام أو سنوات، فهيا إلى التزود من الآن والاستعداد في كل لحظة للرحيل المحتوم الذي لا رجعة فيه، وأعظم زاد لهذا السفر هو الإيمان بالله حق الإيمان، الإيمان الذي لأهميته وجب تكرار التذكير به على مسامعك وعظًا وخطابةً وصلاةً وقراءة قرآن وأذكارًا، فبادر وبادر وبادر، فورب السماء إني لأكتب هذه السطور الآن في تسابق مع الأجل وجهل بالزمن، لا أدري هل أتمكن من نشره بنفسي أم سيسبقني الأجل، فينشره مَنْ بعدي برًّا بي، كم نحن ضعفاء أمام هذه الأقدار الكبرى ونحن لا نعلم متى وأين وكيف سنموت، والله المستعان، استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٨- لا تجادل في أصل هذا الوجود بغير علم، وتذكر أنك موجود أصلًا دون أن تملك قرار وجودك ولا عدمك، ولا التحكم في حياتك الأولى قبل ولادتك، فتختار صورتك وزمانك ومكانك ورزقك وأجلك، ولا تملك تحديد زمان موتك ومكانه، وعلى كل من يدعي الندية والمزاحمة غير المتكافئة في الوجود أن يستحيي من الله الخالق القادر القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤] لن تعلم ولن أعلم ولن يعلم أحد من الخلق عن هذا كله، بل الذي نعلمه علم اليقين أننا عباد ضعفاء فقراء محتاجون إلى كل عون ومساعدة من خالقنا وحده القادرعلى كل ما نعجز عنه، ولا علم لنا بشيء إلا بما علمنا الله به، وفي هذه الدنيا ستبقى أسرار الوجود فوق المستطاع مهما أوتي الإنسان من علم؛ لأن الله وحده هو الذي: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

٩- تخلص من هذا الغرور الذاتي وأنت تواجه غرائب الوجود، وتذكر هامشية الإنسان بالنسبة إلى الوجود، وأنه مجرد مخلوق مغمور مدرج في زاوية نائية من ملك الملك الجبار الذي خلقه، وخلق حتى الدود التي ستأكل جسده مستسلمًا لها

بلا حراك بعد موته، وخلق من سيتولون التعامل مع جسده المسجى بعد الموت، غسلًا وتكفينًا وصلاة ودفنًا بلا أدنى حراك منه أيضًا، إن التفريط في الاستعداد لتلك اللحظة، ينقل المرء إلى منطقة الخطر، بل أخطر الخطر على الإطلاق، والوصول إلى الاقتناع بالعبودية لله ليس هزيمة ولا ضعفًا، بل إن الاستسلام لله تعالى هو غاية الشجاعة وفق المنطق السليم والعقل السوي، ولا يُعدّ إلا قوة وبطولة وعزًّا، ولو جمعنا المفكرين والفلاسفة الأولين والآخرين ومعهم الأنبياء في صعيد واحد وفي ميدان مفتوح، وجلس كل صاحب رأي أمام كتابه، فلن يقول الفيلسوف المسكين إلا: أيها الناس، هذا فكري وإليكم كتابي ومؤلفاتي، وما توصلت إليه بعقلي، سامحوني على التقصير! أما الأنبياء فسيقولون مطمئنين: هذا وحي ربنا وكلام ربنا وشرع ربنا وخبر ربنا ونحن مبلغون عنه، من اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وسيتقدمهم سيد الخلق ﷺ وبين يديه القرآن العظيم قائلًا: أيها الناس، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩] اقرؤوا كتاب ربي، تلقيته وحيًا من ربي، وما أنا إلا مبلغ عنه، إنه ليس كتابي، فأنا أُميّ، بل هو كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيا ترى إلى أين تتجه الأنظار والعقول السليمة في هذا المسرح المفتوح؟ وأي الفريقين أقرب إلى الحق، ويهدي إليه وأحق أن يتبع عليه؟: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٥] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١٠- اعلم أن كل ما يتم التوصل إليه من معارف عن طريق العلوم التجريبية لا يعكس الحقيقة المطلقة لفهم أسرار الوجود، فهي قاصرة دونها لقصر قدرتنا على الإحاطة بالعلوم كلها، وأن توظيف النصوص في غير مكانها لا يخدم النصوص، ولا يبرهن على الحقيقة، لست في حاجة إلى أي تكلف ثبت فيه ما قد لا تحتاج إلى إثباته، انطلق من الفطرة السليمة، واستعن بربك أولًا ثم بالتقدم العلمي ثانيًا، ولكن شَمِّر عن ساعد الجد واستبرئ لدينك وأمانتك ومستقبلك بقبول الإيمان وتقبله وتشربه وَافَقَهُ العلم أم لم يوافقه، واعلم أنه لا وقت للعبث والجدل،

فعجلة الزمان تسير وعمرك القصير ينقص، وأنت في كل ثانية تزحف إلى نهايتك المحددة والثابتة مسبقًا لن تستطيع بعدها شهيق نَفَسٍ قد زفرته، أو زفير نَفَس قد شهقته! إنك في أمسّ الحاجة إلى أن تشهد شهادة الحق أنه لا إله إلا الله، وهذه الشهادة لك أنت والله غني عنها، فقد شهد بنفسه على ذلك، وشهد معه ملائكته وأولو العلم من البشر، شهادة للإنسان شرف الانضمام إليها، ولا يضيرها إعراضه عنها، إنها تلك الشهادة الكونية بوحدانية الله وألوهيته وربوبيته: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١١- اعلم أنك ستقدم على الله فردًا، كما جئت إلى الدنيا فردًا: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ٩٤] فعليك أن تعطي الأولوية لشأنك الذاتي الخاص بك، لا تنشغل بأمور الكون التي أمرها لخالقها، وهي أكبر منك ومن الناس أجمعين، ولا بشأن الناس الذين قد يخرجون منها سالمين وأنت متوهم أنهم معك في التسويف والتردد حائرون، ألا تراهم من حولك يستعدون للرحيل كل امرئ منشغل بشأنه عنك وعن غيرك؟ يصلون ويزكون ويصومون ويحجون ويقرأون القرآن ويسبحون ويهللون ويحمدون ويتوبون ويستغفرون! بل إنهم يقدمون أرواحهم ويستقبلون الموت في سبيل الله، إيمانا واحتسابا تاركين خلفهم الأهل والمال والدنيا بأسرها، ولا يفعل ذلك إلا من أيقن حق اليقين أنه سيلاقي ربه الذي وعده وعد الحق بأنه سيوفيه أجره على ذلك في يوم قال الله عنه: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]، قد أيقنوا بهذا اليوم فاعدوا له العدة، فاسمع كما سمعوا، وآمن كما آمنوا، وعليك بنفسك فأنقذها، واستيقظ من سباتك كما استيقظوا، وعليك بنفسك فأنقذها أولًا، ولا تجعلها وقودًا لصراع البشر وجدال الفلاسفة والمتكلمين عبر العصور، فلو تتقصى حقيقة غالبيتهم إن لم نقل جميعهم لوجدتهم مؤمنين بوجود الله، مع اختلاف بينهم على الصفات والكيفيات والزمان والمكان، ولكنهم كالطيور المضطربة تتصادم ذهابًا وغيابًا داخل قفص الاستطاعة العقلية المحدود الذي يحطم فرط خاليهم فيما فوق

قدراتهم بلا شفقة، حتى إذا ما خرجوا خارج هذا القفص، وغرقوا في الفوضى الوجودية بما لا طاقة لهم بها، وما لم يخلقوا لها أصلًا كرّوا راجعين إلى قفصهم المغلق خوفًا من فقدان منصة اليقين التي اكتسبوها، محاولين التشبث بها ومن داخل القفص المعرفي يجاهدون أنفسهم لفهم ما يتوقعونه حولهم خارج القفص مع إقرارهم بالعجز عن النفاذ إلى ما وراءه، هكذا حالنا في الدنيا ونحن نحاول فهم غموض هذا الكون بمعايير ومقاييس الأرض التي نألفها، ونعلم ظاهرًا من علمها، وما فوق ذلك فلا مجال لمعرفته إلا بخبر خالقنا: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] بل تحدانا هنا ونحن على الأرض واقفون أن ننظر إلى السماء، فنفهم شيئًا من أسرارها بالحواس أو العقل، وكرر التحدي والنتيجة الوحيدة لكل من رجع البصر في الكون متأملًا هي: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣- ٤] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١٢- اعلم أن نزول جبريل عليه السلام بهذا الخبر العظيم من الله ليقول للناس: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ولرسوله المصطفى ﷺ بالخطاب المباشر له ولنا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠- ٣١] اعلم أن هذا أقوى إشارة إلى أبلغ المواعظ (الموت) الذي يفر منه كل مخلوق، تذكر تلك النصيحة النبوية: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**»، وأن لحظة الموت رهيبة على الحي والميت على حد سواء، تلك ورب السماء أعظم وأغرب وأخطر وأولى محطات التحول في هذا الوجود، إنها لحظة الانفصال عن الدنيا والدخول في عوالم الآخرة وأهوالها أو أفراحها! إنها عتبة قصيرة، ولكنها تحول لا يمكن تخيله، وانقطاع عن شيء معلوم لنا، واتصال بعالم مجهول عندنا لا علم عن وجودنا هذا إلا بخبر الوحي لمن آمن به، فهل أنت مستعد بحق لمواجهة ذلك الانقطاع الكامل بينك وبين كل شيء من

عالمك الذي تغتر به اليوم مما يهمك، ويقلقك، ويشغل بالك في الدنيا من حياة وصحة ومال وولد ومرض وصحة وخلافات فردية أو سياسية وأخطار وموت وليل ونهار وأشجار وأمطار، هناك تواجه نتيجة اختيار الإيمان أو الكفر، ليؤول المطاف من خلال هذا الاختيار إما إلى الجنة وإما إلى النار، وهذا منتهى العدل وأنت في هذه اللحظة تختار بكل حرية، وتعلم مسبقًا عاقبة كل اختيار، فمن كفر فالنار في انتظاره، ومن آمن فقد استحق أوفى الجزاء وأكمله في الجنة، تفضل تسلّم نتيجة الحكم مسبقًا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩- ٣١] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١٣- مع التأكيد على حقيقة ما تحمله من إيمان فطري إلا أنك في حاجة إلى تنقيته من بعض ما يشوبه من تصورات إيمانية خاطئة تمكنت منك منذ طفولتك، فتش بعمق، وستجد بعض التخيلات الذهنية التي لا حقيقة لها عن الله والوجود والبعث والجنة والنار والوحي والملائكة والشياطين، فليس صحيحًا أن تقيم صروح أفكارك الإيمانية الشاهقة بعد نضجك على أول تصور طفولي سطحي عن الوجود وفق قياس تمثيلي هزيل تكتشف فيما بعد أنه مضحك، بينما إيمانك الناضج يحتاج إلى قواعد راسخة تختلف عن خيالات الأطفال السطحية وتصوراتهم الساذجة التي تشكلت بما لا يتوافق مع فطرتهم السليمة، وفي مقدمة ذلك أن تتجنب (أنسنة) الخيال والتصورات بما لا يتناسب مع عظيم أسماء الخالق وعلو صفاته، عليك باستئصال تلك المفاهيم الخاطئة من جذورها واستبدالها بما يتناسب مع نضجك وفطرتك ونصوص الوحي الصريحة عن الله تعالى التي أصبحت تفهمها وتفقهها جيدًا كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]

ثق بإيمانك الذي تحمله، ولكن هذبه بنور الوحي، وتَوَجّهُ بآفاق العلم والمعرفة التي تجعلك أكثر خشية لله، تحتاج إلى هذا التجديد كي تكون واثقًا مؤمنًا بالله ومحسنًا الظن به، ثم ابدأ حياتك الجديدة مستنيرًا بنور الله الحق كي تعلم إلى أي مدى كنت تعيش في التيه من حيث لا تدري، عندما كنت غارقًا في الغفلة والتقليد على غير بصيرة، بينما نور الله بين يديك ميسرًا لك ولكل الناس: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] استحضر ذلك في قلبك دائمًا تحت أي ظرف.

١٤- اعلم أنه لا خيار لك سوى الإيمان بالله وحده لا شريك له والعمل بمقتضاه، وهذا ما تضمنته أعظم عبارات التوحيد (لا إله إلا الله) التي لا يتقدم عليها أي شيء، فإذا صلحت صلح ما بعدها، وإذا فسدت فسد ما بعدها، وأنه من دون هذا الإيمان لن يكون لك أمل في النجاة والراحة والسعادة والسلامة في المستقبل، وكيف لا تختار الإيمان الذي به يتحقق الأمان وأنت على يقين تام بأن في الوجود وحشة وأمانًا، وخوفًا ورجاء، وحزنًا وفرحًا، وحياة وموتًا، وأشياء متعارضة، وأخرى متناقضة، وغيرها متضاربة، وأنك لا تستطيع أن تحملها عقلك؛ لعجزك، وليقينك أن كل ذلك بيد الله وحده، وأننا نحب الله الذي أوجدنا وأوجدك، ووعدنا بأنه سيحبنا إن أحببناه، وأن حبه لا يمكن إلا أن يكون مقرونًا بخطوات عملية منا تثبت المصداقية في اتباع وحيه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] استحضر ذلك كله في جميع هذه الاحترازات المباشرة تحت أي ظرف، واستعن بالله، واسأله الهدية والثبات على الحق إلى أن تلقاه.

*****

الفَصْلُ العِشْرُونَ

المحطة الأخيرة



المحطة الأخيرة

ليَهنِك الإيمان وحسن الظن بالرحمن أخي المؤمن وأختي المؤمنة، ليهنك القرب من ربنا البر الرحيم الودود، ليَهنِك اجتماع خوفك منه ورجاؤك، ليَهنِك أنك لم توجد حيث لا يوجد رب ولا إله ولا خالق ولا باقٍ سواه يرزقنا من السماء والأض، وهو يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، هنيئًا لك هذا الخير الذي وجدت نفسك فيه فازددت إيمانًا مع إيمانك، أنت مع الله، والله معك، وقد وعدك بكل أمان يوم الفزع الأكبر: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥] فسبحان من جعل الطمأنينة كل الطمأنينة بالقرب منه واللوذ به واللجوء إليه، وعلى الرغم من كل ما ذكرناه عن الوجود وآماله وآلامه ووحشاته، يكفي أن نتذكر أن ربنا (الرحمن)، فنترك كل وحشة وراءنا، وتغشانا مع الإيمان بالله سعادة لا نظير لها، ونشعر بالأمان من كل شيء، ربنا آخذ بناصيته، شعور لا يحده الزمان ولا المكان ولا الحياة ولا بعد الممات، أفبعد هذا النعيم المقيم يليق بنا أن نجعل لمثل هذا الموضوع خاتمة؟ كلا، ثم كلا، نحن لا نزال في أول الطريق القدري الطويل مستمتعين بنور ربنا وهدايته، من كتاب إلى كتاب، ومن عبادة إلى عبادة، ومن جيل إلى جيل حتى النهاية، وما زلنا ننتظر مآلات هذا الوجود الحميدة التي وعدنا بها ربنا، فمنذ أن خلقت هذه الروح في الجسد وهي باقية، تفارقه مؤقتًا في الموتة الأولى في الدنيا التي لا موت بعدها أبدًا إلى أن تعود الروح إلى الجسد يوم البعث، فيستقر الإنسان بروحه وجسده في أحدهما، إما دار القرار، أو دار البوار يوم القيامة، هناك ستكون الخاتمة الحقيقية فقط لأحداث الوجود والقيامة من بعده، وبداية حياة أبدية لا شقاء فيها ولا نكد، ولا غل ولا حسد، لمن آمن بالله الواحد الأحد، الذي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤] فلا يتوقف الأمر عند خاتمة كتاب، ولا نهاية محاضرة، أو حتى نهاية الحياة، إنه نفق قدري هائل أوجدنا فيه الخالق العظيم، تحدنا من جوانبه تصوراتنا

وعلمنا المحدود عن هذا الوجود، نسير فيها سنحاسب عليه، أو نسيّر فيها لا حساب عليه في اتجاه واحد حتمي حتى نهايته عند الخالق ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩- ٥٠].

*****

قيام الحُجّة

لم يبقَ لمخلوق حجة أمام الخالق بعد أن أرسل إلينا رسله يتلون علينا آياته، وينذروننا لقاء يوم القيامة، لقد قامت الحجة، وأنزلت الآيات، وشهدت المخلوقات، وشهد الله نفسه بأنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم، بهذا يصبح الإيمان بالله ضرورة كونية وحيدة لا يستقيم الوجود إلا به، ولماذا لا نؤمن به حق الإيمان وقد خلقنا على الفطرة، وتفضل الله علينا برسل يحملون مشاعل النور لتضيء لنا ظلام أنفاق حياتنا الدنيا حتى نصل إلى نوره الدائم في الآخرة، وجعل الموت محطة تحول من محطات الطريق الطويل، وجعلنا بهذا الإيمان نسلك طريق النجاة الوحيد في الوجود، ونعظم العظيم الأعظم الودود، ونقدر من يستحق التقدير الذي بيده كل شيء، وهو على كل شيء قدير، أصبحنا بهذا الإيمان أناسًا أسوياء؛ لأننا ترفعنا عن الضلال كل الضلال المبين، شهدنا أنه لا إله إلا الله يوم أن رأينا هندوسيًّا يعظم بقرة، وتذكرنا أننا نعبد الخالق المقدر لهذا الكون يوم أن عبد البوذي والعربي المشرك حجرًا لا ينفعه ولا يضره، فاستشعرنا دفء القربى والملاذ الآمن من إله حي قيوم قادر، ففوضنا أمرنا إليه، وتوكلنا عليه، حمدناه وشكرناه على نعمة الإيمان به يوم رأينا مجوسيًّا يعتقد أن في نار الدنيا ملاذًا له فعبدها، ويوم أن زعم (الملحد) أنه لا وجود لله، فبقي حيران لا يدري عن ماضٍ، ولا يستمتع بحاضر، ولا يرجو مستقبلًا، طار منه عمره مفرطًا ساخرًا من المؤمنين في حياته الدنيا، حتى أدركه الموت، ووقع في المأزق الذي لا انفكاك منه، فما كان موقفه إلا أن نطق بكلمات الحسرة التي ليس بعدها حسرة قائلًا: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] وكل ذلك آتيه لا محالة، كما سيأتي كل من أعرض

عن الحق، فأدركه الموت على ذلك، وحينها سيكون الموقف: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥].

ولماذا لا يلوذ المؤمنون بالإيمان وهم الموعودون بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إنهم الطرف السعيد بكل حضور في محشر القيامة يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، يجدون لذة النعيم بنور إيمانهم الذي يسعى بين أيديهم في موقف لم يحسب له الكافر والملحد حسابًا، إنه ذلك اليوم الذي يضرب الله بين المؤمن والكافر بسورٍ باطنه الرحمة للمؤمنين وظاهره العذاب من جهة من سيناديهم حينها ممن كان يجادلهم في الإلحاد في الدنيا منكرًا ربه والبعث والنشور والجنة والنار، مغترًّا بالدنيا ومؤملًا على أمانٍ زائفة حتى جاءه أمر الله تعالى ليكون المشهد الرهيب بتلك الصورة التي أخبرنا عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٢- ١٦].

*****

أما آن للقلوب أن تخشع؟!

بلى، والله لقد آن كل أوان لأن تخشع قلوبنا لذكر الله، وما نزل من الحق، فقد اقترب حسابنا، وعلينا أن نحذر كل الحذر من هذه الغفلة المهلكة، فقد: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] فما الذي يحول بين المعرضين وبين أن

يتركوا كل شيء يحول بينهم وبين الاقتراب من الله اعتقادًا وقولًا وعملًا، ويتوجهون إليه وحده لا شريك له مؤمنين به ومتوكلين عليه؛ كي يكفيهم أمر كل شيء في وجودهم في الدنيا والآخرة، ويحفظهم من أمامهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمالهم ومن فوقهم ومن تحتهم، تذكروا ذلك الدعاء النبوي المأثور الذي لم يكن نطقًا عن هوى، يقول ﷺ: «**اللهم، احفظني من بين يديَّ ومِنْ خَلْفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغْتال من تحتي**»[1]، أليس هذا هو الضمان الكوني لسلامتك من جميع الجهات المحيطة بك، الضمان الذي لا ضمان قبله ولا بعده؟

كم من مرة أشار القران إلى أولئك الذين كانوا من قبلنا، وكانوا أشد منا قوة وآثارًا في الأرض، وعمروها أكثر مما عمرناها في وقتهم، وأمرنا أن نأخذ العبرة في تدبر ما حدث لهم؛ كي لا نكرر إعراضهم وصدودهم، فنهلك كما هلكوا، لقد تتبعنا بعض آثار الأولين والمعاصرين من فلاسفة وحكماء حول الوجود ومن أوجده ممن حاولوا الاستغناء عن الله، فلم يفلحوا، ولاحظنا صفاء ونقاء وبقاء خطاب الأنبياء ورسوخه مدى الدهر؛ لأنه يراعي التوازن الضروري بين المحسوسات والمعقولات والغيبيات، وأنه الشفاء للكثير من غوامض الوجود الغيبية التي لا تعرف إلا من خلاله، لم نجد وسيلة لفهم أسرار وجودنا ومآلاته سوى هذا الوحي المنزل من الخالق العليم، وقفنا على شواهد من إعجاز الوحي وتنزله في الجدال مع المخالف طمعًا في هدايته، ولمسنا تفضل القوي الغني بالتنزل للفقير الضعيف، وأنه غاية الكرم والشفقة عليه، وأشرق علينا نور حضارية الوحي في المعاملات والموازنة بين الخوف والرجاء وتغليب جانب الرجاء، وعلمنا منه مقام المعبود القوي الباقي أمام ضعف العابد الفاني، ورأينا الموت قد قدره الله علينا يخطفنا، ولا يترك منا أحدًا، وأدركنا عجز الإنسان أمامه مؤمنًا كان أم كافرًا، وأن الإنسان هامشي في الوجود لا يكاد يذكر زمانًا ومكانًا بالنسبة إلى غيره من

(١) الحديث رواه ابن عمر قال: لم يكن رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يُمسي وحين يُصبح: «**اللهم، إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم، إني أسألك العفو والعافية في ديني ودُنْياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي – وفي رو: عورتي– آمِنْ روْعاتي اللهم احفظني من بين يديَّ ومِنْ خَلْفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أُغْتال من تحتي**». أخرجه أبوداود (٥/ ١٩٨/ برقم ٥٠٧٤) وصححه الألباني.

المخلوقات الكبرى، فكيف بمقام الخالق الأكبر من كل شيء سبحانه؟، وعلمنا طرفًا من الجوانب الموحشة في وجودنا مع ضعف الإيمان والملاذات الآمنة منها معه، ووجدنا الدفء والأمان في الفرار من الله إلى الله تعالى فقط، وعلمنا أنه يجب علينا العلم أولًا بالإيمان القلبي ثم العمل ثانيًا بالعبادات الفعلية، فماذا نريد بعد ذلك؟ وماذا بقي من وسائل البلاغ والدعوة الى الحق؟ فمتى نستجيب لنداء ربنا، وتخشع قلوبنا لذكره، وما أنزله من الحق؟

*****

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]

هذه الآية العظيمة تم اختيارها عنوانًا لهذا الكتاب؛ لأنها النتيجة المنشودة من كل ما تم عرضه وبيانه، إنها تضخ في الوجود طمأنينة وأملًا وأمانًا، إنها كلام الله المطمئن لسيد المؤمنين؛ كي يقتدي به عباد الله المشفقون الخائفون ليقول له ولهم: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] لقد توكل على الله، وكان على الحق المبين، وأنت أخي القارئ، اقتدِ بالرسول ﷺ، وتوكل على الله، فإنك أيضًا مثله على الحق المبين فضلًا من الله ونعمة، إن هذه الهداية لسبيل الله المستقيم من أعظم الدوافع إلى التوكل عليه حق توكله، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

قف عند هذا الحد الإيماني المتوازن مع طبيعتك، واثبت عليه حتى تلقى الله، وانتظر تأويل ما لم تعلمه في الدنيا يوم يأتي تأويل كل شيء في الآخرة، لا تطمع في كشف عوالم الغيب، فقد تبين لك أنه لا حدود للوجود ولا إحاطة بشرية به، وها نحن معك في هذه الرحلة الفكرية على الرغم من طول المسير والجهد الكبير وإيراد الشواهد والبراهين، وإشراك العقول والأحاسيس والتراث والتاريخ والزمان والمكان والوجود! لا نزال عاجزين أمام أمور كبرى لم يأذن خالق الوجود بتجليتها في الدنيا، استمع إلى الرد الرباني على المصطفى ﷺ عن سؤال غيبي واحد مما لم يأذن الله بإطلاعه على أحد، مستحضرين

مقامنا أمام مقام نبينا العظيم، ومقامه أمام أمر الله الأعظم الذي اختصه لنفسه سبحانه، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

*****

أفعال العبادة: الصلاة والصوم والحج

إننا نؤمن أن كل شيء قد خلقه الله بقدر، وأنه غني عن العالمين، وكل شيء عنده في كتاب مبين، كل شيء في وجودنا لم يكن ليخلقه الله عبثًا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] حتى هذه الأفعال والحركات والعبادات، تأمل معي هذه العبادات الفعلية: أسبابها، حقيقتها، تفسيرها، تعليلها، قيامنا بأفعال الوضوء وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج لله! أليس هو الغني عنا؟ ستحار قليلًا عند قياسها بمعايير الدنيا المادية، ثم تتوقف! وأنت خائف! ولكنك تلاحظ وبقوة أيضًا أنه كلما فترت همتك قليلًا عن هذه العبادات تدخلت قوى خفية لتدفعك نحو مواصلتها دون أن تنتظر تبريرًا لها، إنك تستمع للحوار مع عقلك، ولكنك لا تستسلم له لسطوة تلك القوة الخفية وسيطرتها على الموقف، فإذا فتح الله عليك بعد هذا التأمل أدركت أن هذه القوة هي متانة الفطرة التي تقول لك: عليك أن تسمو بنفسك فوق العلل والماديات الدنيوية، فإنك عندما تصلي فأنت أولًا تطيع الخالق الذي أمرك، وهذا بحد ذاته هدف عظيم، بل عظيم جدًّا، وكفى به هدفًا وتبريرًا لأفعال الصلاة كلها، وثانيًا أنت تقدم شيئًا يسيرًا مما يجب فعله تعظيمًا وشكرًا لهذا العظيم المنعم ابتداء، قبل أن يكون هناك جزاء وحساب؛ لأنك مدين كل الدين لمن هذا فضله عليك، وهو الغني عنك كل الغنى، أوجدك ورعاك، ولهذا لا تستكثر أبدًا أن تقف بين يديه يوميًّا خمس مرات منتصب القامة مطأطئ الرأس حياء لتقول له في افتتاح كل ركعة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] ثم تنحني لله راكعًا معظمًا، وتقول في ركوعك:

(**سبحان ربي العظيم**)، وتخر له ساجدًا حتى تلصق في الأرض جميع جوارحك السبعة، وتتذكر علوه فتقول: (**سبحان ربي الأعلى**) وتسأله مما تشاء مستحضرًا فقرك وحاجتك إليه، وكذلك تصوم صومًا لا يمكن أن تخرقه سرًّا ولا علانية وأنت تستطيع ذلك في أي لحظة خلوة بعيدًا عن الناس، لكنك لم تفعل، هناك قوة خفية أيضًا تمنعك من ذلك، وكذا الحال مع الحج وشعائره، إنك تؤدي هذه العبادات، وأنت تستمتع بلذة الاستسلام المطلق لمن أوجدك والوجود الذي تعيش فيه، وسخر لك كل شيء يقيم حياتك، وهذا أسمى ما يمكن أن يقبله العقل المتوازن، فأنت تقدر من أوجدك، وكتب عليك الموت والحياة، لتصبح جميع هذه الشعائر الموجهة إليه حقًّا يجب أداؤه، وتصرفًا منطقيًّا يرتاح له العقل، إنه مدخل القسط والعدل الذي يجب أن ينشرح له القلب انشراحًا خاصًّا جدًّا، وألا يبالي العاقل وهو يؤديها برأي أي مخلوق لا يوافقه على ذلك حتى لو خالفه أهل الأرض، وسخروا منه، واستهزؤوا جميعًا.

وحتى العصاة الذين يتهاونون بهذه العبادات الفعلية، هم أيضًا تحت هيمنة قوى داخلية جبارة تعصف بهم في معارك سرية طاحنة بين نفوسهم اللوامة التي تريد لهم الخير، ونفوسهم الأمارة بالسوء، يخجلون من معاصيهم، ويستخفون لارتكابها بعيدًا عن أعين الناس، فيا ترى ما السر وراء هذه الدوافع القوية؟ وما مصدرها ومحفزاتها؟ إننا أمام نظام فطري يهيمن علينا دون أن نراه، إنها فطرة الله المتوازنة مع عبودية المرء لله طوعًا أو كرهًا، فطرة الله التي فطر الناس عليها، هكذا يجب أن يكون المدخل الصحيح إلى الإيمان الصحيح، المتدفق من داخل القلب، الذي سيجعلك تحيا سعيدًا، وتموت سعيدًا، وتبعث سعيدًا، أنت وآباؤك من قبل، وذريتك من بعد، مستمتعين بضمان الله لكم بالأمن في كل مراحل تنقلاتكم في الدنيا، وهذا هو الحق المبين، إيمان لا كلفة فيه بربنا الرحمن الرحيم الذي بعث لنا الأنبياء ميسرين وغير معسرين، لم يأمرنا أن نكون ملائكيين في إيماننا أبدًا، ولا حتى في عباداتنا وأفعالنا، وكيف يأمرنا بذلك، ونحن من ولد آدم الأول الذي قال الله عنه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] ولكنه برحمته وفضله يذكرنا بالسعي الحثيث لمزيد من الإيمان واليقين حتى يأتينا اليقين.

يخطئ من يعتقد أن وجوده في الدنيا وجود استرخاء وتسويف وعبث، وينسى أنه مخلوق لله وفق إرادة الله تعالى كي يكون له عبدًا مخلصًا، ليس له خيار الحياد أبدًا في هذا الوجود، وخيار الإنسان ليس اختياريًّا بين خيرين، بل هو بين خير محض متحقق لا محالة نأخذ به وإلا فالبديل شر محض واقع لا محالة، فأنت مأمور عند الاختلاف أن تكون منحازًا للحق بكل وضوح، وهو خيار الخير، مستسلمًا لما لا طاقة لك به، أنت ولا آباؤك ولا أجدادك منذ الأزل، ولا أولادك وأحفادك إلى الأبد، مؤمنًا بالله الذي هو أقدر منك ومن كل شيء وأقوى من كل شيء، من يحيط بعلمك ولا تحيط بعلمه، من يقدر عليك ولا تقدر عليه، من يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، الله الذي قدر بيننا هذا الموت العجيب، أعظم كاسر لكبريائنا، وهادم لملذاتنا، ومفرق لجماعاتنا، الموت الذي يؤمن به البر والفاجر، يرونه رأي العين، يحصد أرواحهم حصدًا، فلا يبقي منهم أحدًا، ولا يذر لهم أثرًا، معلنين عجزهم بالإجماع عن ردّه إذا حل بهم، مستسلمين لمن قدره بمحض إرادته ومشيئته وأمره، قائلًا من مقام العلو والقدرة والجبروت والغنى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠- ٦١].

*****

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]

أرأيت كيف تذوقنا معًا في هذه الرحلة الإيمانية طرفًا من هذا الفرح والأنس واليقين ونحن نتجول في صفحات الفكر والتاريخ والحضارات والأديان؟! كيف تجولنا بحرية تامة، ونحن متحصنون بحمد الله بحصن الإيمان الفطري والثقة بالرحمن، وهو بنا الرؤوف الرحيم، لقد كنا في نزهة مستأنسين نراقب المتغيرات عبر التاريخ بكل حرية؛ لأننا لم نخرج عن مظلة الوحي، ولو فعلنا لهلكنا كما هلك من كان قبلنا، توقفنا كثيرًا عند صراع هذا الإنسان الضعيف مع الوجود، ومحاولاته المستميته للوصول إلى شيء من أسراره، مستغربين صدود بعض الناس عن الوحي وتعطشهم إلى بديل معرفي آخر، ثم اضطرارهم إلى الوحي مرغمين، ولو بشكل غير مباشر، لقد كنا على يقين بوحي الله فلا نشعر معه بأي حرج أن لا خوف علينا من أن ندخل كل كهف ومغارة

فكرية نحتاجها دون تردد، مطمئنين أن نور (الوحي) معنا إلى جانب بوصلة الهداية والرشد (الفطرة)، نتفيأ ظلالهما، ونتقي بهما كل ضلال، فقلوبنا بإذن الله إلى ذكره تواقة، وصدورنا إلى الإيمان به منشرحة، وأجسادنا إليه متجهة، مدركين حاجة بعضنا إلى بعض في الدنيا للتواصي بهذا الحق والصبر عليه، وحاجتنا جميعًا إلى من هو غني عنا سبحانه في الدارين؟ لقد سرنا معًا في هم واحد، وهدف واحد كلنا يحتاج إليه، نبحث عن كل حق؛ كي نؤمن أو نزداد به إيمانًا، فهو الذي أنشأنا، وجعل لنا هذا السمع والبصر والعقل الذي نستخدمه في الفهم والاستنباط والإدراك، وعلَّمَنا أن النور هو النور، والظلام هو الظلام، ولولاه ما علِمنا، وهو الذي هدانا النجدين، ولولاه ما اهتدينا، إننا فرحون جدًّا بهذا الفضل منه سبحانه، وهو ربنا ونحن عباده: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

لقد كان من أهداف هذه الرحلة الفكرية الماتعة في هذا الكتاب أن أشاركك الشعور، وأنت تلامس بنفسك عظم الأهوال حولك في هذه الدنيا وما بعدها ومن ثم موجبات الطمأنينة الإيمانية منها، لقد تجولتَ مسترخيًا في حديقة الطمأنينة الكامنة في صدرك؛ لتكتشف بكل ثقة أنها أقل شوكًا مما كنت تتخيل، وأن أزهارها وعبق وردها ورحيقها أجمل بكثير من بقايا بعض القش التي لا تكدر صفوها، ولا تخدش جمالها، وأنك على الرغم من كل ما يحيط بك من متغيرات، مؤمن بالله إيمانًا نقيًّا صافيًا يقاربك من الجنة، ويباعدك عن النار بحول الله وفضله ونعمته، وكلما شعرت بشيء ما داخل نفسك تذكّر أنك مؤمن بالله، وأن رحمته تنتظرك فيما يقع من تقصير وغفلة، وأنك على هذا الحق المبين، وأن من كمال إيمانك هذا أنك تجاهد نفسك للإمساك به قويًّا راسخًا ومن ثم الثبات عليه، والتمسك به، وحمايته من المؤثرات الخارجية.

كم كان جميلًا أن تستأنس بأحوال الرسل المصطفين الأخيار، وهم يبحثون عن طمأنينة مع كمال إيمانهم بالله، فلست وحدك في هذا السباق (الماراثوني) مع تفاعلات الوجود وصداها، تذكرت قصة أبينا إبراهيم، وسؤاله لربه عن كيفية إحياء الموتى، وتعليله ذلك بالحاجة للطمأنينة مع تأكيد الإيمان، وتذكرت أيضًا سؤال موسى لربه أن يراه؟ وأنت تحتاج إلى مثل ما حصل معهم كي تصل إلى طمأنينتهم، وطالما أنك لم تجد

مثل تلك الفرص الاستثنائية، كما وجدوها فاعلم أن إيمانك هذا عظيم مريح بفضل الله الهادي، وأن لك عليه الأجر الكبير، فلا تقلل منه، ولا تزدريه، ولا يستغويك الشيطان، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون، أما الإجابة عن كل تساؤل غيبي يغشاك من حين لآخر فستبقى خارج مجال الإدراك البشري، وجميع المحاولات البشرية لاختراق حاجز الغيب، وتتحطم على صخرة التحدي الإلهي المحسوم، فليس هناك إلا الوحي، فمن آمن به فقد ارتاح واستراح وسعد واطمأن ونجا بنفسه لنفسه، وهذا هدى الله ونوره المبين: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] ومن كفر به، وأعرض عنه، وكابر فقد اختار لنفسه طريق الشقاء والثبور والضنك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] فلا يلومنّ إلا نفسه.

*****

النفس المؤمنة تسمو فوق آلامها

بهذا الإيمان تسمو الأرواح فوق الخلق، وترتقي به الروح البشرية فوق جميع معاناة الدنيا، فتتوق النفوس المؤمنة للجنة ودرجاتها، وتنفر من النار ودركاتها، فتصبح الدنيا كلها خيرًا، فلا قلق من مرض سيؤجر عليه المبتلى، ولا خوف من موت سينقل لأفضل مما كان المرء في الدنيا، ولا حزن على حبيب سبق الأحياء منا إلى النعيم المقيم، وهكذا حتى تصل تطلعات الإنسان إلى ما وصل إليه ذلك الصحابي الذي فرح أن أصابه سهم المشركين في مقتل، فقال: (فزت ورب الكعبة)(١) لما أدرك أنه باع روحه في سبيل الله، لم

(١) هذا الرجل هو حرام بن ملحان، فقد روى الشيخان واللفظ لمسلم عن أنس بن مالك قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالًا يعلمونا القرآن والسنة فبعث إليهم سبعين رجلًا من الأنصار يقال لهم: القراء فيهم خالي حرام يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء فبعثهم النبي ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا قال: وأتى رجل حرامًا خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه فقال حرام: فزت ورب الكعبة فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم، بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا**».

يأبه بإتلاف جسده الزائل على حساب مصير الروح الباقية، أدرك بيقينه أن كل جسد سيفنى بكل جوارحه، وسيصبح ترابًا، ولن يبقى منه سوى هذه الروح التي خلقها الله في النشأة الأولى التي علمها من هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] وسينشئها النشأة الآخرة التي نؤمن بها، وذلك أهون عليه: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠] هذا هو شأن الروح التي تحمل سجلاتنا الآمنة في المستقبل، إن شأنها أعظم من شأن هذا الجسم الفاني عند من كتب الله في قلبه الإيمان، وأيده بروح منه.

إننا في هذا الوجود نحمل أرواحًا باقية، وأجسادًا فانية، فيجب علينا الاهتمام بالروح قبل الجسد، وأول العناية بها أن ننتهز فرصة الإمهال هذه كي نصبغها بصبغة الإيمان بالله مستيقنين أنه ربنا، وأنه هو الرحمن الرحيم، وأنه وحده له كل هذا الخلق، وله الأمر كله، وأنه يحكم بالعدل ولا يظلم، وأنه شديد العقاب لمن استحقه، ولكن رحمته تسبق غضبه، وأن من رحمته حصر العقوبة بالكافر المعاند المكابر الذي تبين له الحق بوضوح، فرفضه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] أما من لم تبلغه الرسالة أصلًا فهو في أمان الله حتى تبلغه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وكذلك من بلغته الرسالة، فلم تقم عليه الحجة، ومن بلغته الرسالة، وقامت عليه الحجة، ولكنه معذور فيما لا طاقة له به: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨- ٩٩] ومن بلغته الرسالة من دون وضوح كافٍ يدفعه للحق: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

هذه رحمة ربنا الواسعة، فكيف نقنط من رحمته، وقد أعطت أملًا لهؤلاء جميعًا وجعلتهم تحت حكمه ومشيئته، وكيف بالمسلم القريب من الله والمتعطش للإيمان

به والمتلمس لمرضاته المتقرب اليه بعباداته، مهما بلغ به التقصير، ووقع به من الخطايا والذنوب، وقد وعده ربه بما لم يعد غيره به، فهذه سعة رحمة الله التي جعلها إلى وجهه الكريم، ولم يجعلها إلى خلقه المقترين: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] فمن ينكر هذا الفضل، أو يتنكر له إلا محروم من السعادة في الدارين، ومن ذا الذي لا يسعد، ويطمئن، ويبتسم فرحًا بمعية ربه الذي يتودده، ويبشره بقربه من رحمته، فيقول له: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

*****

تتبع كتب الغيبيات!

هلا سألت نفسك يومًا عن سر هذا الجلد والرغبة التي جعلتك تواصل قراءة هذا الكتاب حتى نهايته؟ ولماذا كل هذه الرغبة القوية لقراءة كتب (الغيبيات) تحديدًا، بينما لا تقرأ الجريدة اليومية! بل ولا تقرأ كتب الفقه والأدب والتاريخ بهذا الحماس؟ هل تستطيع أن تتجاهل هذه القوة التي تشدك بصمت نحو قراءة المزيد من الكتب التي تتطرق إلى هذه القضايا الخاصة؟ ألا تشعر برجع الصدى لما يدور داخل النفوس من سجال سري بينك وبين نفسك وأنت تتلمس كل كتاب من هذا النوع تقرؤه متعطشًا للوصول إلى شيء ما؟ وكلما كان الكتاب صريحًا ومباشرًا كنت أكثر شغفًا بقراءته، ثم تشعر في نهاية المطاف أنه لا شيء في الدنيا يروي عطشك المعرفي الواسع، أليس هذا إقرارًا صريحًا صامتًا بوجود إيمان عظيم بداخلك تخشى عليه إلى جانبه عجز بشري عن الإلمام بكل شيء يتطلع إليه العقل؟ هذا الذي وصلت إليه بعد طول عناء هو النتيجة التي وصل إليها كل من سبقك في هذا الميدان، وهنا تقف قدرة الإنسان ولا مزيد على هذا، إنه حد الكفاية لنا في الدنيا وبعده لا يبقى سوى قليل من هذا (القلق الإيجابي) الملازم لحياة الإنسان في الدنيا، وهو أمر محمود لا يمكن الخلاص منه إلا بعد دخول الجنة، وهو

ما جعل إمامنا وقدوتنا رسول الله ﷺ يعبر عنه بتكرار دعائه المأثور: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»[1]، يقول ذلك حتى وإن كان ينعم مع أمته بطمأنة الله لعباده المؤمنين وضمانه لأمنهم وتثبيتهم على الحق في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] هذا إضافة إلى ما وعدهم به من أنه لن يضيع إيمانهم، ولن يكلف النفس إلا وسعها، ووعدهم بالأمن مع الإيمان وأن لهم البشرى عند خروج الروح، وها هو يطمئنهم بالثبات على القول الثابت في الدنيا والآخرة، فهل بقي لعاقل عذر ألا يؤمن به حق الإيمان؟ وألا يشكره حق شكره؟

إننا نبارك لكل مؤمن هذا اليقين الناتج من صريح الإيمان المتدفق من داخل العقل الباطني فطريًّا، الذي يدفعه للقراءة المركزة جدًّا وبطريقة استثنائية، قراءة تكاد تشارك فيها كل جوارحه وفي مقدمتها كامل العقل والقلب الحاضر دائمًا، متعطشًا لليقين، فيا أخي المؤمن، احمد الله الذي رزقك هذا اليقين، وعلمك ما لم تكن تعلم، وهداك إلى صراطه المستقيم، وطب عيشًا معه، ولا تكترث – وأنت المحصن بفضل الله – عندما تشعر أنك عرضة لوسواس عابر، أو موجة شك طائشة، أو يواجهك (ملحد) مكابر يريد أن تؤانس وحشته فيما يعتقده من ضلال يريد أن يستقوي بحضورك على نفسه اللوامة التي تصارعه من الداخل، فامضِ إلى سبيل الله، ولا تتوقف عند محطات زائفة، تجاهلها وتجاوزها إلى ما بعدها؛ كي تعلم أنك بخير وأمان بما تحمله من إيمان، تواصل به المسير الآمن إلى ربك، فإنك سالك هذا الطريق دون خيار، فاسلكه وأنت مؤمن مبتسم واثق لتحافظ على سعادتك الأبدية، حتى تحشر مع من يحشرون إلى الرحمن وفدًا، ولا تعرض عنه، فتساق مع من يساقون إلى جهنم وردًا.

*****

---

(١) عن أَنَسٍ رضى الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». صححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢١٤٠).

الأمل وحسن الظن

لا بد أن تعلم - يا رعاك الله - أن النصيحة واجبة للجميع على الجميع، فإذا نصحك صادق فاستنصح له، فإن النبي ﷺ وهو الذي غفر الله له، واصطفاه، وجعله على خلق عظيم، خاطبه الله بقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وبقوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] ثم أحسن الظن بربك إحسانًا لا نظير له، واعلم أنه لم يقدّر هذه الأقدار حولك ليجعل عبده الضعيف في قلق دائم، وخوف متنامٍ، ورعب متواصل من المجهول، بل خلقه وهو الرحيم الرحمن به، وقدر له الأقدار التي تجعله يعيش في الدنيا خليفة في الأرض يعمرها بحياة طيبة سعيدة أنيسة مع الإيمان والعمل الصالح، ومن أعظم مفاتيح هذه الرحمة، وأسباب استجابة الدعوة أن تحسن الظن بربك، بحيث تسأله موقنًا بالعطاء حتى لو لم تلمسه في دنياك مباشرة، وتدعوه موقنًا بالإجابة لكي تصلك على أي شكل وفي أي وقت، تذكر حاجتك إليه عندما تقع المصيبة في نفسك وأهلك ووالدك وولدك، تذكر شعورك في لحظات الصدمة من وفاة أو حادث أو قهر أو مرض، تذكر انكسارك إليه في الضراء، وتذكر نعمته عليك في السراء، واشكر من تلجأ إليه في هذه الشدائد.

تخيل كيف سيكون الوجود مشرقًا عندما تنظر إليه من خلال الآفاق المشرقة بنور الله وهديه ووحيه، وتتخلص من تلك الصور السوداوية المزيفة التي قد تلوح من بعيد في خيالك عن ربك ودينك ورسولك والقرآن واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والنشور والصراط والخير والشر، أصلح شأنك مع الله أولًا، ولا تلتفت إلى غيره فيما لا يرضيه، ولا تسمع لكل ناعق مشكك ينطق باسم الشيطان ليصدك عن دينك العظيم، فيوردك وحدك المهالك بعد الموت، وهو هالك بعد فترة ومختلط لحمه وعظمه في تراب لا يستطيع حماية نفسه منه، لا تنتظر من الناس هداية ولا رزقًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فهؤلاء ضعفاء مثلك هم الآخرون لا يملكون خزائن السماوات والأرض، ولا يقسمون رحمة الخالق الذي قسم بينهم معيشتهم في الدنيا: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ

بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] كن على يقين بأن الله سيرحم خلقه وهو بهم رحيم، وسيغفر لهم وهو العفوّ الغفور، وسيسترهم وهو السّتّير، فإذا كان الله غنيًّا عن عباده في عباداتهم، فهو عن عذابهم أشد غنى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧].

والخير دائمًا فيما يختاره الله، لعل من إيجابيات هذا الشعور الذي تراه مقلقًا لك أحيانًا أنه يهذب النفوس، ويكسر كبرياءها، ويعالج غرورها، فكم من غافل عن هذا التحري الإيماني يعيش غرورًا مهلكًا بإيمان ظاهري لو تعرض لأول مراحل الابتلاء لانهار، بينما يرى نفسه في الرخاء مزاحمًا لمقام المصطفين الأخيار والمتقين الأبرار، وقد يصل به الأمر إلى حالة أسوأ عند المنة على الله تعالى بهذا الإيمان: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] وما يدرينا لعل الأمر كما وصفه ابن عطاء السكندري في حالة أبعد، وهي الوقوع في المعاصي، بقوله: «معصية ورثت ذلًّا وافتقارًا، خير من طاعة ورثت عزًّا واستكبارًا»[(١)]، وسبحان الله لا تكاد تجد شيئًا في هذا الوجود لا يشكل توازنًا حسيًّا أو معنويًّا، فمتى أدركت ذلك كله استيقنت بأنك لله عبد، وابن عبد له، ولا منة لك ولا فضل ولا لأحد من غيرك من الخلق عليك، وإنما المنة كل المنة لمن خلقك فسواك فعدلك، وهداك إلى الصراط المستقيم، المنة لمن أوجدك، وأحياك، وأماتك، وبعثك، ورعاك، ورحمك، المنة لمن إليه مرجع الإنسان كافرًا كان أم مؤمنًا، المنة والشكر لمن هدانا إلى طريق النجاة، وبيّن لنا طريق الهلاك، وأنقذنا منه.

وأخيرًا، أتدري لماذا أهمنا أمرك؟ لأننا جميعًا مثلك على حد سواء نتلمس اليقين ووسائل الثبات، اصطحبناك في هذه الرحلة الميمونة لا لشيء إلا لأننا نحبك، والله يحبنا ويحبك من قبل، هذه المحبة التي يتطلع إليها كل إنسان هي من أجمل ثمرات الإيمان المشترك بيننا، إننا نطمع بالقرب من الله العظيم، الذي يعرض علينا جنة عرضها السماوات والأرض، ومن أجمل أحوالها أن الجميع فيها إخوان على سرر متقابلين بعد

---

(١) ابن عطاء السكندري متصوف من المدرسة الشاذلية توفي في القاهرة عام ١٣٠٩م الموافق ٨٠٧هـ كان على خلاف مع شيخ الإسلام ابن تيمية حول التصوف: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، ص٣٢).

أن نزع الله ما في صدورهم من غل وحسد، فحلت المحبة الصافية بينهم، وهذه المحبة بيننا في الدنيا على الإيمان تشوقنا بلذتها إلى اللذة العظمى في تلك المحبة الباقية في الجنة، وتدفعنا للاستجابة الفورية لهذا النداء القرآني وبمنتهى القبول والفرح المشترك كي ندخل فسطاط الحق والأمان، ونكون من أهل الله الذين يصطفيهم بعيدًا عن إعراض المعرضين وردّة المرتدين وإلحاد الملحدين، استمع إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

*****

لا وداع، بل تَوَاعُد إلى اللقاء الدائم!

والآن أختي الكريمة وأخي الكريم، وقد أوشكت رحلتنا الجميلة على التوقف (مؤقتًا)، هل تتوقع منا الوداع؟ كلا، ثم كلا، إنه فراق ولا افتراق ولا وداع بين المؤمنين في مثل هذه الإيمانيات الملازمة لأرواحهم أحياء وأمواتًا، مهما تقلبت بهم الأقدار التي كلها تحت إرادة الله الذي يحبهم ويحبونه، ومهما فرقتهم الدور والقبور في دنيا زائلة، وتباعدت بهم الديار والأمصار؛ لأن موعدهم الحق أن يجمعهم الله في جنته يوم النشور، إننا بهذا الإيمان قد التحمنا معك بلحمة أبدية في الحياة وبعد الممات، وسنبقى على ذلك إلى أن نستقر في الجنات، فلا فراق أبدًا وكيف لنا الابتعاد، ونحن ننعم بسعادة مزدوجة يأنس كل منا بالآخر، سنرتفع معًا بهذا الإيمان عن معاناة الدنيا وفقرها ومرضها وآلامها وفراقها وموتها، إلى آمال الدنيا والآخرة ونعيمهما وأنسهما وحياتها الباقية.

وهل يحصل وداع أو فراق بين المؤمنين بالله المتحابين فيه وهم ضيوف في ملكه، أينما كانوا؟ يحييهم ويميتهم ويسعهم برحمته ويكلؤهم برعايته، ويحفظ أجسادهم إلى

آجالها وأرواحهم إلى الأبد منذ أن خلقهم وهداهم، وهو معهم أينما كانوا، إنه هو الذي يقول لنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧] فمن أسعد منا بهذه المعية العظيمة؟ فلنجتمع على هذا الإيمان حتى لا يفرقنا غير (الكفر) القبيح، و(الشرك) الظالم، و(الإلحاد) المزيف، الذي منه نستعيذ بالله، ويحذر بعضنا بعضًا، وتلك آفات معلومة! وعلاجها ميسر: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢]؟

أرأيت كيف يذوب سواد المنغصات الكفرية في بياض طمأنينة الإيمان في الوجود كله، ومن يستبدل هذا بذلك لو كنا نسمع أو نعقل؟ سنتواصى على مواصلة المسير معًا إلى أن نحط رحالنا في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، إنه الأُنس والألفة واللُّحمة والموعد الحق والوعد بالنعيم المقيم، نحن على موعد مع الاجتماع الأعلى الذي لا مثيل لنوعية الحضور فيه، والذي مفتاحه فقط طاعة الله ورسوله التي مبدؤها الإيمان ومنتهاها العمل بإخلاص: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فإلى ذلك اللقاء نستودعك الله مؤقتًا أيها الحبيب، ولا نودعك لفراق أبدي، فنحن جميعًا لله وإليه راجعون، نتواصى على هذا الإيمان حتى تصبح به نفوسنا مطمئنة وهي راجعة إلى ربها راضية مرضية، وبه تدخل الجنة، عندما يناديها ربها ذلك النداء الكريم الذي يتمناه كل مخلوق، ويا لسعادة من فاز به: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٨- ٣٠].

اللهم، يا ربنا، ويا خالقنا، ويا مولانا، ويا سيدنا، أنت تعلمنا، وتسمعنا، وترانا، ولا يخفى عليك من أمرنا شيء، أدركنا ضعفنا في هذا الوجود وفقرنا إليك، إننا ندعوك

من أعماق قلوبنا، ونتوجه إليك بكل جوارحنا، نتقدم إليك بضعفنا إليك جميعًا نحن وأهلنا وأولادنا وضعفائنا، مستغيثين مستجيرين لائذين بك، ننحني لك ركعًا ونخر لك سجدًا وقلوبنا وجلة، نفر منك إليك؛ إذ لا ملجأ لنا منك إلا إليك، ونعوذ بك منك لا نحصي ثناء عليك، ربنا، فاستجب دعاءنا كما وعدتنا، فنحن المنكسرون بين يديك، تعلم حاجاتنا مهما قصرت عنها دعواتنا، نتضرع إليك بالدعاء مقبلين غير مدبرين، نتقلب بين الرجاء والخوف، ربنا، ونحن في فسحة من أمرنا في حياتنا الدنيا، بفضلك وبرحمتك نأكل الطعام، ونمشي في الأسواق، (اللهم، إنا نشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأنك أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق)، ربنا، إننا آمنا بما أنزلت، واتبعنا الرسول الذي جاءنا بالهدى ودين الحق، فاكتبنا مع الشاهدين، نشكو إليك ضعفنا في أمورنا كلها، اللهم، إنا نسألك إيمانًا يوصلنا إلى مرضاتك، ويبلغنا جناتك، وينقذنا من النار، اللهم، ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وارحمنا يا أرحم الراحمين، اللهم، إنا نخاف منك يومًا يجعل الولدان شيبًا، ونخاف منك يومًا عبوسًا قمطريرًا، إننا نخاف ولا أمن لنا إلا بك وحدك لا شريك لك، فيا ربنا، إننا نرجو رحمتك التي وسعت كل شيء، ونخشى عذابك، اللهم، آمن روعاتنا يوم الفزع والخوف والوحشة، في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، نشهدك اللهم، على إيماننا بك وبكتبك ورسلك واليوم الآخر، استسلمنا لك يا ربنا، في كل شيء، اللهم، فاستجب لنا قبل أن تختلط ألسنتنا بالتراب، فلا نستطيع النطق بالدعاء، وقبل أن تتناثر عظام أيدينا، فلا نستطيع رفعها إليك، وقبل أن يملأ التراب تجويف جماجمنا، فلا نجد عقلنا الذي عرفناك به، وقبل أن تتوقف قلوب ما زالت تنبض بالحياة، أسلمنا، واستسلمنا لك وحدك لا شريك لك، يا ربنا، ربنا ربنا ربنا، رباه يا رباه: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا

﴿تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣- ١٩٤] بفضلك وبرحمتك آمنا كما أمرتنا، فيا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢].

*****



الخاتمة

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ
مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ
قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن
قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ
غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ
ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ **فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ**﴾ [النمل: ٥٩- ٧٩].

*****

المراجع

أولًا: مراجع الوحيين

١- القرآن العظيم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢].

٢- السنة النبوية: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (٨١٠- ٨٧٠م).
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن حجاج النيسابوري (٨٢١- ٨٧٥م).
- المستدرك على الصحيحين للحاكم، للإمام محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري (٩٣٣- ٩٧١م).
- سنن الترمذي، للإمام محمد بن سورة بن عيسى الترمذي (٨٢٤- ٨٩٢م).
- صحيح الجامع، للمحدث محمد بن الحاج نوح بن نجاتي الألباني المعروف بناصر الدين الألباني (١٩١٤- ١٩٩٩م).

*****

ثانيًا: المراجع العربية والمترجمة

١- إبراهيم عوض، قصة إسلام عالم الرياضايات الأمريكي جيفري لانج، جريدة الشعب الجديد، ٢٩ يناير ٢٠١٥م.

٢- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الجزء الأول.

٣- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الطبعة الأولى، تحقيق محمد نصر وعبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت.

٤- ابن حزم، المستصفى، الجزء الأول.

٥- ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة التراث الفلسفي العربي، تقديم محمد عابد الجابري، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٦- ابن رشد، تلخيص ما بعد الطبيعة لأرسطو، تحقيق عثمان أمين، المقالة الرابعة.

٧- ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٤٨م.

٨- ابن كثير، البداية والنهاية، المجلد الرابع عشر، طبعة دار عالم الكتب، ٢٠٠٣م.

٩- أبوحامد الغزالي، القسطاس المستقيم، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي، تحقيق إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

١٠- أبوحامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا، وكامل عياد، دار الأندلس، بيروت.

١١- أبوحامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، المكتبة العصرية، صيدا.

١٢- أحمد محمد وليد أيوب، أخبار الفلاسفة قديمًا وحديثًا، دار العرب للدراسة والفكروالترجمة، دمشق، ٢٠١٣م.

١٣- أفلاطون، محاكمة سقراط، ترجمة عزت قرني، سلسلة محاورات أفلاطون، النص اليوناني، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.

١٤- براندن ولسون، الفلسفة ببساطة، ترجمة آصف ناصر، دار الساقي، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م.

١٥- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة، الكتاب الأول، الفلسفة القديمة، ترجمة زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٦- جاك بوفراس، حول الحقيقة والاعتقاد والإيمان، ٢٠٠٧، مرسيليا، فرنسا.

١٧- جعفر شيخ إدريس، الفيزياء ووجود الخالق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٨- جفري لانج، الصراع من أجل الإيمان، ترجمة منذر العبسي، دار الفكر المعاصر ٢٠١٢م.

١٩- جفري لانج، حتى الملائكة تسأل، رحلة إلى الإسلام في أمريكا، ترجمة منذر العبسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

٢٠- جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة: (الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون المتصوفون)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦.

٢١- جيمس تريفل، العلم في ١٠٠١ سؤال، ترجمة عفيف الرزاز، أكاديميا، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٢- حاتم ناصر الشرباتي، موسوعة الخلق والنشوء، الناشر: مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر.

٢٣- حلمي القمص يعقوب، رحلة إلى قلب الإلحاد، الجزء الأول: الإلحاد بذور ورجال، ٢٠- أدولف هتلر.

٢٤- دونت هيجل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ترجمة خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢ م.

٢٥- ديفد كوامن، داروين مترددًا، ترجمة مصطفى فهمي ومحمد خضر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٢٦- رافد قاسم هاشم، فلسفة الفرد نورث وايتهيد، دراسة تحليلية، مجلة بابل، العلوم الإنسانية، مجلد ١٢، العدد ٣، ٢٠١١م.

٢٧- صبري محمد خليل، أستاذ القيم الإسلامية والفلسفة بجامعة الخرطوم، أدلة إثبات وجود الله تعالى بين الفلسفة والدين، سودانايل، السبت ١٠ يناير، ٢٠١٥م.

٢٨- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

٢٩- عباس محمود العقاد، الفلسفة الإسلامة، المجلد التاسع، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٣٠- عباس محمود العقاد، بنيامين فرانكلين، صورة عالم، كاتب، فيلسوف، إنسان، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م.

٣١- عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الأول ، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٣٢- عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٣٣- عبدالرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٣٤- عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ١٣٨٥هـ.

٣٥- عبدالكريم عنيات، أسلمة المنطق الأورغانون الأرسطي بين يدي الغزالي، دار الأمان الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٣٦- عبدالله الغصن، دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار ابن الجوزي، الدمام.

٣٧- عبدالله نافع الدعجاني، منهج ابن تيمية المعرفي، تكوين، ٢٠١٤م.

٣٨- عبدالوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دارالفكر، دمشق، الطبعة الخامسة، ٢٠١٣م.

٣٩- عفيف عبدالفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان الطبعة الثامنة والعشرون، ١٩٩٣م.

٤٠- علي عبود المحمداوي، فلسفة الدين، مجموعة من المؤلفين، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

٤١- علي عرعور، الأخلاق الأبيقورية وأثرها في الفكر الأخلاقي المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤م.

٤٢- علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد عدس، تقديم: عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠١٤م.

٤٣- علي مصطفى، الفلاسفة الإسلاميون بين المعتزلة والأشاعرة، شبكة الألوكة.

٤٤- عمرو شريف، رحلة عقل، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٤٥- عمرو شريف، وهم الإلحاد، تقديم: محمد عمارة، الأزهر، نوفمبر، ٢٠١٣م.

٤٦- غريب جمعة، اللورد هدللي داعية الإسلام بين قومه الإنجليز، أخبار الخليج، العدد ١٢٨٢٤، تاريخ ١٣ مايو، ٢٠١٣م.

٤٧- ڤيرنر هايزنبرج، المبادئ الفيزيائية لنظرية الكم، ترجمة محمد صبري عبدالمطلب وانتصارات محمد حسن الشبكي، كلمة وكلمات عربية للترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠١١م.

٤٨- فيرنر هايزنبرغ، فيزياء وفلسفة، ثورة في الفيزياء الحديثة، ترجمة الدكتور أدهم السمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

٤٩- لجنة علماء سوفيت، الموسوعة الفلسفية، إشراف م. روزنتال وب. يودين ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤م.

٥٠- مجدي كامل، أشهر فلاسفة التاريخ، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٥١- مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، المجلد الخامس، صفحة ١٨٦.

٥٢- مجلة المعرفة، أسس اليقين بين الفكر الديني والفلسفة، ملف العدد، العدد ١٧٤، تاريخ ١٠/ ١٠/ ١٤٣٠هـ.

٥٣- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير القران: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر.

٥٤- محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء ٢٠.

٥٥- محمد دودح، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، المستشارالعلمي للموسوعة.

٥٦- محمد مشرف والطاهر إدريس وحسين عوض، تطبيقات في الجيولوجيا العامة، دار المريخ، ١٩٩٣م.

٥٧- محمد مهران، المنطق والموازين القرآنية، (قراءة لكتاب القسطاس المستقيم للغزالي) المعهد العالي للفكر الإسلامي القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٥٨- محمد وقيع الله أحمد، مدخل إلى الفلسفة السياسية، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٢م.

٥٩- مشير باسيل عون، نظريات في الفكر الإلحادي الحديث، بيروت: دار الهادي. الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

٦٠- مصطفى محمود، أينشتاين والنسبية، الأعمال الكاملة للدكتور: مصطفى محمود، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة.

٦١- منذر العبسي، مترجم لكتاب: رحلة إلى الإسلام في أمريكا، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.

٦٢- منصور عيد، كلمات من الحضارة، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع.

٦٣- منير البعلبكي، موسوعة المورد، دار العلم للملايين، ١٩٩١م.

٦٤- مؤنس مفتاح، الملك فريدرك الثاني والإسلام: الصداقة المزعومة، القدس العربي، العدد ٧٩٠٥، ٣٠ أكتوبر، ٢٠١٤م.

٦٥- نابي أبوعلي، المشرف على حوار الفلسفة والعالم: سؤال الثبات والتحول، دار الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

٦٦- نديم الجسر، قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، طرابلس لبنان.

٦٧- ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، ترجمة إمام عبدالفتاح إمام، مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٩٨م.

٦٨- وول وديورانت، قصة الحضارة، الجزء الأول.

٦٩- وول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثامن.

٧٠- وول ديورانت، قصة الفلسفة، مكتبة المعارف في بيروت، ترجمة الدكتور: فتح الله محمد المشعشع، الطبعة السادسة.

٧١- ويلم رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، تقديم ومرجعة إمام عبدالفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

٧٢- هيثم طلعت سرور، كهنة الإلحاد الجديد، تقديم الدكتور: عبدالله الشهري.

٧٣- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان.

*****

ثالثًا: المراجع الأجنبية

1- A-T. Tymieniecka, Two Dimensions Of Human Being In Karl Jaspers' Philosophy– Existence And Hermeneutics, Phenomenology and Existentialism in the Twenthieth Century, Analecta Husserliana Volume 105, 2010.

2- Baruch A. Shalev, 100 Years of Nobel Prizes, Atlantic Publishers & Dist, 2003.

3- Brian Ventrudo, One-Minute AstronomerCanopus – The (Star of Old Age), January 20, 2011.

4- Dictionary of welsh Biograpy-Lewis, Hywel David.

5- Carl Boyer, Encyclopaedia Britannica- Leonhard Euler, Last Updated 52014-18-.

6- Christopher Hibbert, Encyclopaedia Britannica-Benito Mussolini, Last Updated 62014-8-.

7- Frank W. Walbank, Encyclopaedia Britannica- Plutarch (Greek biographer), Last Updated 62014-1-.

8- Fred Hoyle, The Intelligent Universe,1984, Page 184.

9- George B. Kauffman, Encyclopaedia Britannica- Melvin Calvin, Last Updated 62013-18-.

10- Hans Sanner, Encyclopaedia Britannica- karl jasper, Last Updated 62013-18-.

11- Harold I. Sharlin, Encyclopaedia Britannica-William Thomson, Baron Kelvin, Last Updated 112013-21-.

12- Hugh Ross, The Creator and the CosmosColorado Springs, Co: Nav Press, 1993 page, 132.

13- James P. Cadello, Richard Rorty's Philosophy and the Mirror of Nature: an existential critique, The Journal of Value Inquiry, January 1988, Volume 22, Issue 1.

14- Johannes Kepler, The scientific Revolution, The war on Mars, Cameron & Stinner.

15- José Manoel Bertolote, and Alexandra Fleischmann, A global perspective in the epidemiology of suicide, Suicidologi 2002.

16- Lee Strobel, The Case for Faith, The Mininature Edition, 2000.

17- Matthew Josephson, Encyclopaedia Britannica-Thomas Alva Edison, Last Updated 52014-1-.

18- Oscar J. Hammen, Encyclopaedia Britannica- Friedrich Engels, Last Updated 72014-8-.

19- Ricardo Quinones, Encyclopaedia Britannica-Dante Alighieri , Last Updated 22014-11-.

20- Stefan Riedel, Edward Jenner and the history of smallpox and vaccination, Proc (Bayl Univ Med Cent). Jan 2005; 18(1): 21–25.

21- The Editors of Encyclopædia Britannica, Encyclopaedia Britannica-Blondel Maurice. Last Updated 122014-18-.

22- The Joseph Priestley House (Pennsylvania Historical & Museum Commission, Northumberland, Pennsylvania.

23- Theodore Crowley, O.F.M., Encyclopaedia Britannica- Roger Bacon, Last Updated 12014-9-.

*****

قائمة الأعلام

- ابن عطاء السكندري، توفي في القاهرة عام ١٣٠٩م الموافق ٨٠٧ هـ.
- أبوبكر محمد ابن زكريا الرازي (٨٦٤- ٩٢٥م) الموافق (٢٥٠- ٣١٣هـ).
- أبوبكر محمد بن العربي (٤٦٨- ٥٤٣هـ) الموافق (١٠٧٦- ١١٤٨م).
- أبوحامد الغزالي (١٠٥٨- ١١١١م) الموافق (٤٥٠- ٥٠٤هـ).
- أبونصر الفارابي (٨٧٤- ٩٥٠م) الموافق (١٩٠- ٣٣٥هـ).
- أحمد ابن تيمية (١٢٦٣- ١٣٢٨م) الموافق (٦٦١ هـ - ٧٢٨ هـ).
- أحمد ابن محمد بن مسكويه الخازن، المتوفى سنة ٤٢١ هجرية.
- أدلر مورتيمر Adler Mortimer (١٩٠٢- ٢٠٠١ م) الموافق (١٣٢٠- ١٤٢٢هـ).
- إدوارد جينز Edward Jenner (١٧٤٩- ١٨٢٣م) الموافق (١١٦٢- ١٢٣٨هـ).
- آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣- ١٧٩٠م) الموافق (١١٣٥- ١٢٠٤هـ).
- أدولف هتلر Adolf Hitler (١٨٨٩- ١٩٤٥م) الموافق (١٣٠٦- ١٣٦٤هـ).
- آرثر شوبنهور Schopenhauer Arthur (١٧٨٨- ١٨٦٠م) الموافق (١٢٠٢- ١٢٧٦هـ).
- أرسطو طاليس Aristoteles (٣٨٤ ق. م- ٣٢٢ ق. م).
- إرميا بنتهام Jeremy Bentham (١٧٤٨- ١٨٣٢م) الموافق (١١٩٨- ١٢٤٨هـ).
- إسحاق نيوتن Isaac newton (١٦٤٢م- ١٧٢٧) الموافق (١٠٥٢- ١١٣٩هـ).
- إسماعيل أدهم (١٩١١- ١٩٤٠) الموافق (١٣٢٩- ١٣٥٩هـ).
- أفلاطون Platon (٤٢٨ ق. م- ٣٤٨ ق. م).
- أفلوطين Plotinus (٢٠٤- ٢٧٠م).

- الأقرع بن حابس التميمي المجاشعي توفي عام ٢٣هـ.
- ألبرت أينشتاين Alber Einstein (١٨٧٩- ١٩٥٥م) الموافق (١٢٩٦- ١٣٧٤هـ).
- الحجاج بن يوسف الثقفي (٦٦٠- ٧١٤م) الموافق (٤٠- ٩٥هـ).
- ألفيرد آير Alfred Jules Ayer (١٩١٠- ١٩٨٩م) الموافق (١٣٢٨- ١٤٠٩هـ).
- ألكسندر صموائيل Alexander Samuel (١٨٥٩- ١٩٣٩م) الموافق (١٢٧٥- ١٣٥٨هـ).
- اللورد كالفن William Thomson (١٨٢٤- ١٩٠٧م) الموافق (١٢٣٩- ١٣٢٥هـ).
- اللورد هدللي Lord Headley، (١٨٥٤- ١٩٣٥م) الموافق (١٢٧٠- ١٣٥٤هـ).
- أندرو كنول Andrew Knoll ولد عام ١٩٥١م.
- أنسلم St. Anselme (١٠٣٣- ١١٠٩م) الموافق (٤٢٤- ٥٠٢هـ).
- إنكساغوراس Anaxagoras (٥٠٠ ق. م- ٤٢٨ ق. م).
- أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨- ١٨٥٧م) الموافق (١٢١٢- ١٢٧٣هـ).
- أنتوني فلوو Anthony Flew، ولد في لندن عام ١٩٢٣م.
- آنيس يوس بويثوس Boethos (٤٨٠- ٥٢٤م).
- أوريليس أوغسطين Aurelius Augustinus(٣٥٤- ٤٣٠م).
- إبيقور Epicurus (٣٤١ ق. م- ٢٧٠ق. م).
- إيرك متاكساس Eric Metaxas ولد عام ١٩٦٣م.
- إيمونائيل كَانْت Immanuel kant (١٧٢٤- ١٨٠٤م) الموافق (١١٣٦- ١٢١٩هـ).
- باروخ إسبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢- ١٦٧٧م) الموافق (١٠٤١- ١٠٨٨هـ).
- برمنديس Parmenide (٥٤٠ق. م- ٤٧٠ق. م).
- برندان ويلسون، Brandon Wilson (١٩٥٣م).
- بطليموس Ptolemy (٨٥- ١٦٥م).

- بليز بسكال Blaise Pascal (١٦٢٣- ١٦٦٢م) الموافق (١٠٣٢- ١٠٧٢هـ).
- بنيامين فرانكلينBenjamin Franklin (١٧٠٦- ١٧٩٠م) الموافق (١١١٨- ١٢٠٤هـ).
- بينينو موسيليني Benit Mussolini (١٨٨٣- ١٩٤٥م) الموافق (١٣٠٠- ١٣٦٤هـ).
- بول ديفز Paul Charles Davies ولد عام ١٩٤٥م.
- بيرتراند رسل Bertrand Russell (١٨٧٢- ١٩٧٠م) الموافق (١٢٨٩- ١٣٩٠هـ).
- تشارلز داروين Charles Robert Darwin (١٨٠٩- ١٨٨٢م) الموافق (١٢٢٤- ١٢٩٩هـ).
- توما الأكوين Thomas D'Aquin (١٢٢٥- ١٢٧٤م) الموافق (٦٢٢- ٦٧٢هـ).
- توماس إديسون Thomas Edison (١٨٤٧- ١٩٣١م) الموافق (١٢٦٣- ١٣٥٠هـ).
- توماس هوبز Thomas Hobbe (١٥٨٨- ١٦٧٩م) الموافق (٩٩٦- ١٠٩٠هـ).
- جابر بن حيان (١١٠- ١٩٩هـ) الموافق (٧٢٨- ٨١٥م).
- جاليليو جاليلي Galileo Galilei (١٥٦٤- ١٦٤٢م) الموافق (٩٧١- ١٠٥٢هـ).
- جان بول سارتر Jean- Pual Sartre (١٩٠٥- ١٩٨٠م) الموافق (١٣٢٣- ١٤٠٠هـ).
- جان روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢- ١٧٧٨م) الموافق (١١٢٤- ١١٩٢هـ).
- جفري لانج Jeffry Lang ولد عام ١٩٥٤م.
- جوتفريد ليبنتز Gottfried Leibniz (١٦٤٦- ١٧١٦م) الموافق (١٠٥٦- ١١٢٨هـ).
- جورج باركلي George Berkeley (١٦٨٥- ١٧٥٣م) الموافق (١٠٩٦- ١١٦٦هـ).
- جورج والد George Wald (١٩٠٦- ١٩٩٧م) الموافق (١٣٢٤- ١٤١٨هـ).
- جورج وليم هيجل Georg Wilhelm Hegel (١٧٧٠- ١٨٣١م) الموافق (١١٨٤- ١٢٤٦هـ).
- جوزيف بريستلي Joseph Priestley (١٧٣٣- ١٨٠٤م) الموافق (١١٤٥- ١٢١٩هـ).
- جون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦- ١٨٧٣م) الموافق (١٢٢١- ١٢٩٠هـ).
- جون لينوكس John Lennox ولد عام ١٩٤٣م.

- جيوردانو بورنو Giordano Bruno (١٥٤٨- ١٦٠٠م) الموافق (٩٥٥-١٠٠٨هـ).
- حيي بن أخطب، زعيم بني قريظة، قتل بعد الخندق.
- دانتي أليغييري Dante Alighieri (١٢٦٥- ١٣٢١م) الموافق (٦٦٣- ٧٢١هـ).
- ديفد برلنسكي David Berlinski ولد في نيويورك عام ١٩٤١م.
- ديفيد هيوم David Hume (١٧١١- ١٧٧٦م) الموافق (١١٢٣- ١١٩٠هـ).
- ديموقريطس الأبديري Democritus of Abdera (٤٦٠- ٣٥٩ق. م).
- ديوجين سينوب Diogenes of Sinope (٤١٢- ٣٢٣ق. م).
- روجر بيكون (١٢١٤- ١٢٩٤م) الموافق (٦١١- ٦٩٣هـ).
- ريتشارد داوكينز Richard Dawkins بيلوجي بريطاني معاصر ولد عام ١٩٤١م.
- ريتشارد رورتي Richard Rorty (١٩٣١- ٢٠٠٧م) الموافق (١٣٥٠- ١٤٢٨هـ).
- رينه ديكارت René Descartes (١٥٩٥- ١٦٥٠م) الموافق (١٠٠٣- ١٠٦٠هـ).
- سقراط Socrates (٤٧٠ق. م- ٣٩٩ق. م).
- شاس بن قيس، من زعماء اليهود في المدينة.
- طاليس الملطي Thalesof Miletus (٦٤٠ ق. م- ٥٤٥ق. م).
- عبدالرحمن بدوي (١٩١٧- ٢٠٠٢م) (١٣٣٥- ١٤٢٣هـ).
- عبدالرحمن بن مسلم الخراساني ولد عام (٧١٩- ٧٥٤م) الموافق (١٠٠- ١٣٧هـ).
- عبدالله السفاح، الخليفة العباسي الأول (٧٢٣- ٧٥٣م) الموافق (١٠٥- ١٣٦هـ).
- عبدالله القصيمي (١٩٠٧- ١٩٩٦م) الموافق (١٣٢٥- ١٤١٧هـ).
- عبدالله المأمون (٧٨٦- ٨٣٣م) الموافق (١٧٠- ٢١٨هـ).
- عبدالله بن سلام الصحابي الجليل.
- عبدالله بن سينا (٩٨٠- ١٠٣٨م) الموافق (٣٦٩- ٤٢٩هـ).

- علي عزت بيغوفيتش Aliya izzetbegoviç (١٩٢٥-٢٠٠٣م) الموافق (١٣٤٣-١٤٢٤هـ).
- عمرو بن بحر الجاحظ (٧٨٠- ٨٦٩ م) الموافق (١٦٣- ٢٥٥هـ).
- عيينة بن حصن الفزاري، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.
- فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١م- ١٦٢٦م) الموافق (٩٦٨- ١٠٣٥هـ).
- فرانسيس فوكوياما (F. Fukuyama)، ولد عام ١٩٥٢م.
- فريدريك الثاني الكبير Friedrich II (١٧١٢- ١٧٨٦م) الموافق (١١٢٤- ١٢٠٠هـ).
- فريدرك إنجلز Friedrich Engels (١٨٢٠- ١٨٩٥) الموافق (١٢٣٥- ١٣١٢هـ).
- فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤- ١٩٠٠م) الموافق (١٢٦٠- ١٣١٨هـ).
- فريد هاللي Fred Hoyle (١٩١٥- ٢٠٠١م) الموافق (١٣٣٣- ١٤٢٢هـ).
- فلاديمير لينين Wladimir Lenin (١٨٧٠- ١٩٢٤م) الموافق (١٢٨٧- ١٣٤٢هـ).
- فولتير (Voltair) (François–Marie Arouet) (١٦٩٤- ١٧٧٨م) الموافق (١١٠٥-١١٩٢هـ).
- فيثاغورس Pythagoras (٥٨٠ ق. م- ٥٠٠ ق. م).
- فيرنر هيزنبرج Werner Heisenberg (١٩٠١- ١٩٧٦م) الموافق (١٣١٩- ١٣٩٦هـ).
- كارل جاسبز karl jasper (١٨٨٣- ١٩٦٩م) الموافق (١٣٠٠- ١٣٨٨هـ).
- كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨- ١٨٨٣م) الموافق (١٢٣٢- ١٣٠٠هـ).
- كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens (١٩٤٦- ٢٠١١م) الموافق (١٣٦٥- ١٤٣٢هـ).
- كير كجور Soren Kierkegaard (١٨١٣- ١٨٥٥م) الموافق (١٢٢٨- ١٢٧١هـ).
- لوثر مارتن Martin Luther (١٤٨٣- ١٥٤٦م) الموافق (٨٨٨- ٩٥٣هـ).
- لودفيغ فويرباخ Ludwig Feuerbach (١٨٠٤- ١٨٧٢م) الموافق (١٢١٩- ١٢٨٩هـ).
- لول رامون Ramon Lull (١٢٣٣- ١٣١٦م) الموافق (٦٣٠- ٧١٦هـ).
- لوقيوس بلوتارخ Lucius Mestrius Plutarchus (٦٤- ١٢٠م).

- ليبنتس Gottfried Wilhelm Leibniz (١٦٤٦- ١٧١٦م) الموافق (١٠٥٦- ١١٢٨هـ).
- لي ستروبل Lee Strobel (١٩٥٢م).
- ليونارد أويلر (١٧٠٧- ١٧٨٣) الموافق (١١١٩- ١١٩٧هـ).
- مارتن هيدغر Martin Heidegger (١٨٨٩- ١٩٧٦م) الموافق (١٣٠٦- ١٣٩٦هـ).
- ماريتان Jacques Maritain (١٨٨٢- ١٩٧٥م) الموافق (١٢٩٩- ١٣٩٥هـ).
- محمد بن رشد (١١٢٦- ١١٩٨م) الموافق (٥٢٠- ٥٩٥هـ).
- محمد العوضي، ولد في الكويت عام ١٩٥٩م.
- محمد بن موسى الخوارَزمي (٧٨٠- ٨٥٠ م) الموافق (١٦٣- ٢٣٥هـ).
- ملفن كالفن Melvin Calvin (١٩١١- ١٩٩٧م) الموافق (١٣٢٩- ١٤١٨هـ).
- موريس بلوندل Blondel Maurice (١٨٦١- ١٩٤٩م) الموافق (١٢٧٧- ١٣٦٨هـ).
- ميشيل دي مونتي Michael De Monte (١٥٣٢- ١٥٩٢م) الموافق (٩٣٨- ١٠٠٠هـ).
- نيكيولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus (١٤٧٢- ١٥٤٣م) الموافق (٨٧٦- ٩٥٠هـ).
- نكيولاس مالبرانش Nicolas Malebranche (١٦٣٨- ١٧١٥م) الموافق (١٠٤٧- ١١٢٧هـ).
- وليام أوكام William of Ockham (١٢٨٠- ١٣٤٩م) الموافق (٦٧٩- ٧٥٠هـ).
- وليام هيويل William Whewell (١٧٩٤- ١٨٦٦م) الموافق (١٢٠٦- ١٢٨٣هـ).
- هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠- ١٩٠٣م) الموافق (١٢٣٥- ١٣٢١هـ).
- هيرقليطس Heraclitus (٥٣٥ق. م- ٤٧٥ق. م).
- هيو روس Hugh Ross (١٩٤٥م).
- هيول لويس Hywel David Lewis (١٩١٠- ١٩٩٢م) الموافق (١٣٢٨- ١٤١٢هـ).
- يعقوب بن إسحاق الكندي (٨٠٥- ٨٧٣م) الموافق (١٨٩- ٢٥٩هـ).

- يوحنا بونافنتورا (١٢٢١- ١٢٧٤م) الموافق (٦١٨- ٦٧٢هـ).
- يوهانز كيبلر Johannes Kepler (١٥٧١- ١٦٣٠م) الموافق (٩٧٩- ١٠٣٩هـ).
- يوهانسن Johannsen (١٨٥٥- ١٩٢٧م).
- يوهان فيتشة Johann Gottlieb Fichte (١٧٦٢- ١٨١٤م) الموافق (١١٧٦- ١٢٢٩هـ).

تم بحمد الله الانتهاء من تأليف كتاب ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، في غرة شهر الله المحرم من عام ١٤٣٧هـ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

*****

المؤلف في كلمتين (عبدٌ لله!)

إن أعظم ما نتشرف به في هذا الوجود هو عبوديتنا لله الخالق العظيم الحي الباقي جل جلاله، ولقد وجدتُ في هاتين الكلمتين (عبدٌ لله) ما يكفي للتعريف بالمؤلف، ولا سيما أن التصورات السلبية المسبقة وشخصنة المؤلفين قد تحول بينهم وبين عقول بعض القراء، فلقد فكرت في الكتابة (الروتينية) عن (المؤلف في سطور) كما جرت العادة، وقلبت أمور حياتي، فانكشف لي ضعفي إلى الله، وفقري إليه، وأن أي علم بشري مهما بلغ، فهو القليل بحكم الله على الناس جميعًا، والعبد الفقير من أدناهم، فلم أجد ما أعتز، وأفتخر به في حياتي كلها سوى أن أكون عبدًا لله، وهذا هو المكان الطبيعي للمخلوق المنسجم مع الوجود حوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، كيف لا؟! وقد كان الرسل عليهم السلام، بل الملائكة المقربون أيضًا لا يستنكفون أن يكونوا عبيدًا لله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وبالعبودية لله قدم سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام نفسه إلى الوجود في أول كلمة نطق بها في المهد بقوله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، هكذا كان الملائكة والرسل يجعلون منها عنوانًا لهم يتقدمون بها بين يدي الله، فكيف بمن دونهم؟! لقد كان استحضار العبودية لله هو الحافز الأقوى للتأليف، فلتكن القراءة مجردةً لتلمس الحق الذي هو ضالتنا جميعًا بغض النظر عن سيرة المؤلف وتاريخه وشهاداته وخبراته - إن وجدت - ويبقى الكتاب كله جهدًا بشريًّا يخضع في نهاية المطاف لكل نقد وتسديد وتقويم من عباد الله.

ولهذا اكتفيت بهذا التعريف: (عبدٌ لله)، وكفى به تعريفًا وتشريفًا وتكليفًا و(تأليفًا). اللهم، ارزقنا الإخلاص في القول والعمل، واجعل عملنا في رضاك يا أرحم الراحمين.

الموقع على الشبكة العنكبوتية: http://www.mohsenalawajy.com/ar
البريد الإلكتروني: Moh5000@yahoo.com
الاسم على تويتر: mohsenalawajy@
صندوق بريد: ٢٤٠٤٧٦ الرياض ١١٣٢٢ المملكة العربية السعودية.

*****